

احكام علوم الدين

تصنيف

الإمام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي

(٤٥٠-٥٠٥ م)

ومعه

المغني عنه عمل الأصفار في الأصفار
في تخريج ما في الإلهيات وبيان الأضواء
للعلامة زين الدين أبي الفضل العراقي

(٧٣٥-٨٠٦ م)

دار ابن خرم

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله رب العالمين

ملحق

إحياء العلوم الدينية

تصنيف

الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي
المتوفى في سنة ٥٠٥ هـ

يشتمل هذا الملحق على :-

- ١ - تعريف الأحياء بفضائل الإحياء :
للعلامة عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروس
- ٢ - الإملاء عن إشكالات الإحياء :
للإمام الغزالي : رده على اعتراضات أوردها بعض المعاصرين له
على بعض مواضع من كتابه « إحياء علوم الدين » .
- ٣ - عوارف المعارف :
للعارف بالله تعالى : الإمام السهروردي .

المكتبة التجارية الكبرى

كتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي وفق للنشر المحاسن وطبها في أحسن كتاب ، وجعل ذلك قرّة لآعين الأحياء وذخيرة ليوم المآب . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أحيانا إحياء شريعته وطريقته قلوب ذوى الألباب ، وعلى آله الطيبين الطاهرين وجميع الأصحاب ، ما أشرفت شمس الإحياء للقلوب ، وتوجهت همه روحانية مصنفه الولي الموهوب ، إلى إسعاف ملازمى مطالعته ومحبيه بالمطلوب .

وبعد : فإنّ الكتاب العظيم الشأن المسمى بإحياء علوم الدين - المشهور بالجمع والبركة والنفع بين العلماء العاملين ، وأهل طريق الله السالكين المشايخ العارفين ، المنسوب إلى الإمام الغزالي رضى الله عنه عالم العلماء وارث الأنبياء ، حجة الإسلام ، حسنة الدهور والأعوام ، تاج المجتهدين ، سراج المتجهدين ، مقتدى الأئمة ، مبين الحل والحزمة ، زين الملة والدين ، الذى باهى به سيد المرسلين ، صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الأنبياء ورضى عن الغزالي وعن سائر العلماء المجتهدين ، لما كان عظيم الوقع ، كثير النفع ، جليل المقدر ، ليس له نظير في بابيه ولم ينسج على منواله ، ولا سمحت قريحة بمناله ، مشتملا على الشريعة والطريقة والحقيقة كاشفا عن الغوامض الخفية مبيناً للأسرار الدقيقة : رأيت أن أضع رسالة تكون كالعنوان والدلالة على صباغة من فضله وشرفه ، ورشحة من فضل جامعه ومصنفه ورتبته على مقدمة ، ومقصد ، وخاتمة . فالمقدمة : في عنوان الكتاب . والمقصد : في فضائله وبعض المدائح والثناء من الأكابر عليه ، والجواب عما استشكل منه وطعن بسببه فيه . والخاتمة : في ترجمة المصنف رضى الله عنه وسبب رجوعه إلى هذه الطريقة .

المقدمة : في عنوان الكتاب

اعلم أن علوم المعاملة التي يتقرب بها إلى الله تعالى تنقسم إلى ظاهرة وباطنة ، والظاهرة قسمان : معاملة بين العبد وبين الله تعالى ، ومعاملة بين العبد وبين الخلق ، والباطنة أيضاً قسمان : ما يجب تزكية القلب عنه من الصفات المذمومة ، وما يجب تحلية القلب به من الصفات المحمودة . وقد بنى الإمام الغزالي رحمه الله كتابه « إحياء علوم الدين » على هذه الأربعة الأقسام فقال في خطبته : ولقد أسسته على أربعة أرباع . ربع العبادات ، وربع العادات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات .

فأما ربع العبادات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب العلم : كتاب قواعد العقائد . كتاب أسرار الطهارة . كتاب أسرار الصلاة . كتاب أسرار الزكاة . كتاب أسرار الصيام ، كتاب أسرار الحج . كتاب تلاوة القرآن . كتاب الأذكار والدعوات . كتاب ترتيب الأوراد في الأوقات .

وأما ربع العادات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب آداب الأكل . كتاب آداب النكاح . كتاب آداب الكسب . كتاب الحلال والحرام . كتاب آداب الصحبة . كتاب العزلة . كتاب آداب السفر . كتاب آداب السماع والوجد . كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . كتاب أخلاق النبوة .

وأما ربع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب شرح عجائب القلب . كتاب رياضة النفس . كتاب آفة الشهوتين : البطن والفرج . كتاب آفة اللسان . كتاب آفة الغضب والحقد والحسد ، كتاب ذم الدنيا ، كتاب ذم

المال والنخل ، كتاب ذم الجاه والرياء ، كتاب الكبير والعجب ، كتاب الغرور .
وأما ربيع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب التوبة . كتاب الصبر والشكر . كتاب الخوف والرجاء .
كتاب الفقر والزمذ . كتاب التوحيد والتوكل . كتاب المحبة والشوق والرضا . كتاب النية والصدق والإخلاص .
كتاب المراقبة والمحاسبة . كتاب التفكير . كتاب ذكر الموت .
ثم قال رحمه الله : فأما ربيع العبادات فأذكر فيه من خفايا آدابها ودقائق سنها وأسرار معانيها ما يضطر العالم
العامل إليها ، بل لا يكون من علماء الآخرة من لم يطلع عليها ، وأكثر ذلك مما أهمل في الفقهيات .
وأما ربيع العادات فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق ودقائق سنها ، وخفايا الورع في مجاريها ، وهي
كما لا يستغنى المتدين عنها .

وأما ربيع المهلكات فأذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرآن بإماطته وتركه النفس عنه وتطهير القلب منه ، وأذكر
في كل واحد من هذه الأخلاق حده وحقيقته ، ثم سببه الذي منه يتولد ، ثم الآفات التي عليها يترتب ، ثم العلامات التي
بها يتعرف ، ثم طرق المعالجة التي منها يتخلص ، كل ذلك مقرّنا بشواهد من الآيات والأخبار والآثار .
وأما ربيع المنجيات فأذكر فيه كل خلق محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصادقين التي يتقرب بها
العبد من رب العالمين ، وأذكر في كل خصلة حدها وحقيقتها ، وسببها الذي به تجتلب ، ثم ثمراتها التي منها تستفاد ، وعلامتها
التي بها تعرف ، وفضيلتها التي لأجلها فيها يرغب ، مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل .

المقصد : في فضل الكتاب المشار إليه

وبعض المدائح والثناء من الأكابر عليه ، والجواب عما استشكل منه وطعن بسببه فيه

اعلم أن فضائل الإحياء لا تحصى ، بل كل فضيلة له باعتبار حيثياتها لا تستقصى ، جمع الناس مناقبه فقصر وأوماقصرُوا ،
وغاب عنهم أكثر مما أبصروا ، وعز من أفرادها فيما علمت بتأليف ، وهي جديرة بالتصنيف ، غاص مؤلفه رضى الله
عنه في بحار الحقائق ، واستخرج جواهر المعاني ثم لم يرض إلا بكبارها ، وجال في بساطين العلوم فاجتني ثمارها بعد
أن اقتطف من أزهارها ، وسما إلى سماء المعاني فلم يصطف من كواكبها إلا السيارة ، وجلت عليه عرائس أسرار معاني
فلم ترق في عينه منهن إلا بادية النضارة ، جمع رضى الله عنه فأوعى ، وسعى في إحياء علوم الدين فشكر الله له ذلك
المسعى ؛ فله دره من عالم محقق مجيد ، وإمام جامع لشتات الفضائل محرر فريد ، لقد أبدع فيما أَدَع كتابه من الفوائد
الشوارد ، وقد أغرب فيما أعرب فيه من الأمثلة والشواهد ، وقد أجاد فيما أفاد فيه وأمل ، بيد أنه في العلوم صاحب
القدح المعلى ، إذ كان رضى الله عنه من أسرار العلوم بمحل لا يدرك ، وأين مثله وأصله أصله ، وفضله فضله .

هيات لا يأتي الزمان بمثله * إن الزمان بمثله لشحيح

وما عسيت أن أقول فيمن جمع أطراف المحاسن ، ونظم أشات الفضائل ، وأخذ برقاب الحماد ، واستولى على
غايات المناقب ، فشجرت في قوارة العلم والعمل والعلا والفهم والذكاء ، أصلها ثابته وفرعها في السماء ، مع كونه رضى
الله عنه ذا الصدر الرحيب والفرجة الناقبة والدراية الصائبة ، والنفس السامية والهمة العالية . ذكر الشيخ عبد الله
ابن أسعد اليافعي رحمه الله عليه أن الفقيه العلامة قطب الدين إسماعيل بن محمد الحضري ثم البني سئل عن تصانيف
الغزالي فقال من جملة جوابه : محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم سيد الأنبياء ومحمد بن إدريس الشافعي سيد الأئمة
ومحمد بن محمد بن محمد الغزالي سيد المصنفين . وذكر اليافعي أيضاً أن الشيخ الإمام الكبير أبا الحسن علي بن حرزم
الفقيه المشهور المغربي كان بالغ في الإنكار على كتّاب إحياء علوم الدين وكان مطاعاً مسموع الكلمة ، فأمر بجمع
ما ظفر به من نسخ الإحياء وهم يحرقونها في الجامع يوم الجمعة فرأى ليلة تلك الجمعة كأنه دخل الجامع فإذا هو بالنبي

صلى الله عليه وسلم فيه ومعه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما والإمام الغزالي قائم بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فلما أقبل ابن حرزم قال الغزالي : هذا خصمى يارسول الله فإن كان الأمر كما زعم ثبت لى الله ، وإن كان شيئاً حصل لى من بركتك واتباع سنتك نخذلى حق من خصمى ، ثم ناول النبي صلى الله عليه وسلم كتاب الإحياء ، فتصفحه النبي صلى الله عليه وسلم ورقة ورقة من أوله إلى آخره ثم قال : والله إن هذا لشيء حسن ، ثم ناوله الصديق رضى الله عنه ، فنظر فيه فاستجاده . ثم قال : نعم والذى بعثك بالحق إنه لشيء حسن ، ثم ناوله الفاروق عمر رضى الله عنه ، فنظر فيه وأثنى عليه كما قال الصديق ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بتجريد الفقيه على بن حرزم عن القميص وأن يضرب ويحد حد المفتري ، لجر دوسر ، فلما ضرب خمسة أسواط تشفع فيه الصديق رضى الله عنه وقال : يارسول الله لعله ظن فيه خلاف سنتك فأخطأ فى ظنه ، فرضى الإمام الغزالي وقبل شفاعته الصديق ، ثم استيقظ ابن حرزم وأثر السياط فى ظهره ، وأعلم أصحابه وتاب إلى الله عن إنكاره على الإمام الغزالي واستغفر ، ولكنه بقي مدة طويلة متألماً من أثر السياط وهو يتضرع إلى الله تعالى ويتشفع برسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى أن رأى النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليه ومسح بيده الكربمة على ظهره فعوفى وشفى بإذن الله تعالى ، ثم لازم مطالعة إحياء علوم الدين ففتح الله عليه فيه ونال المعرفة بالله وصار من أكابر المشايخ أهل العلم الباطن والظاهر رحمه الله تعالى .

قال البيهقي : روي ذلك بالأسانيد الصحيحة فأخبرني بذلك ولى الله عن ولى الله عن ولى الله عن ولى الله عن ولى الله الشيوخ الكبير القطب شهاب الدين أحمد بن الملق الشاذلى عن شيخه الشيخ الكبير العارف بالله ياقوت الشاذلى عن شيخه الشيخ الكبير العارف بالله أبو العباس المرسى عن شيخه الشيخ الكبير شيخ الشيوخ أبي الحسن الشاذلى قدس الله أرواحهم وكان معاصراً لابن حرزم قال : وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى : ولقد مات الشيخ أبو الحسن ابن حرزم رحمه الله يوم مات وأثر السياط ظاهر على ظهره . وقال الحافظ ابن عساكر رحمه الله وكان أدرك الإمام الغزالي واجتمع به قال : سمعت الإمام الفقيه الصوفي سعد بن علي بن أبي هريرة الإسفرايينى يقول : سمعت الشيخ الإمام الأوحدي زين القراء جمال الحرم أبا الفتح الشاوى بمكة المشرفة يقول : دخلت المسجد الحرام يوماً فطراً على حال وأخذنى عن نفسى ، فلم أقدر أن أقف ولا أجلس لشدة ما بى ، فوقعت على جنبى الأيمن تجاه الكعبة المعظمة وأما على طهارة ، وكنت أطرد عن نفسى النوم ، فاخذتني سنة بين النوم واليقظة ، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم فى أكل صورة وأحسن زى من القميص والعامة ، ورأيت الأئمة الشافعى ومالكا وأبا حنيفة وأحمد رحمهم الله يعرضون عليه مذاهمم واحداً بعد واحد ، وهو صلى الله عليه وسلم يقرهم عليها ، ثم جاء شخص من رؤساء المبتدعة ليدخل الحلقة فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بطرده وإهانته ، فتقدمت أنا وقلت : يارسول الله ، هذا الكتاب - أعنى إحياء علوم الدين - معتقدى ومعتقد أهل السنة والجماعة ، فلو أذنت لى حتى أقرأه عليك فأذن لى فقرأت عليه من كتاب قواعد العقائد ، :

بسم الله الرحمن الرحيم ، كتاب قواعد العقائد وفيه أربعة فصول : الفصل الأول فى ترجمة عقيدة أهل السنة ، حتى انتهيت إلى قول الغزالي : وأنه تعالى بعث النبي الأمى القرشى محمداً صلى الله عليه وسلم إلى كافة العرب والعجم والجن والإنس ؛ فرأيت البشاشة فى وجهه صلى الله عليه وسلم . ثم التفت وقال : أين الغزالي ؟ وإذا بالغزالي واقف بين يديه فقال : ها أنا ذا يارسول الله ، وتقدم وسلم ، فرد عليه السلام ، عليه الصلاة والسلام ، وناولته الكريمة فأكب عليها الغزالي يقبلها ويتبرك بها ، ومارأيت النبي صلى الله عليه وسلم أشد سروراً بقراءة أحد عليه مثل ما كان بقراءة فى عليه الإحياء ، ثم انتهت الدمع يجرى من عيني من أثر تلك الأحوال والكرامات ، وكان تقريره صلى الله عليه وسلم لمذاهب أئمة السنة ، واستبشاره بعقيدة الغزالي وتقريرها نعمة من الله عظيمة ؟ ومنه جسيمه ، نسأل الله تعالى أن يحيينا على سنته ويتوفانا على ملته ، آمين .

(فصل) أثنى على الإحياء عالم من علماء الإسلام ، وغير واحد من عارفى الأنام : بل جمع أقطاب وأفراد ، فقال

فيه الحافظ الامام الفقيه أبو الفضل العراقي في تخرجه : إنه من أجل كتب الإسلام في معرفة الحلال والحرام ، جمع فيه بين ظواهر الأحكام ، ونزع إلى سرائر دقت عن الأفهام ، لم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل ، ولم يتبحر في اللجة بحيث يتعذر الرجوع إلى الساحل ، بل مزج فيه علمي الظاهر والباطن ، ومرج معانيها في أحسن المواطن ، وسبك فيه نفائس النقط وضبطه ، وسلك فيه من النقط أوسطه ، مقتدياً بقول على كرم الله وجهه : خير هذه الأمة النقط الأوسط يلحق بهم التالي ويرجع إليهم الغزالي ، إلى آخر ما ذكره مما الأولى بنافي هذا المحل طيه ، ثم الانتقال إلى نشر محاسن الإحياء ليظهر للمحب والمبغض رشده وغيه . وقال عبد الغافر الفارسي في كتاب الإحياء : إنه من تصانيفه المشهورة التي لم يسبق إليها . وقال فيه النروي : كاد الأحياء أن يكون قرآناً . وقال الشيخ أبو محمد الكازروني : لو بحيث جميع العلوم لاستخرجت من الإحياء . وقال بعض علماء المالكية : الناس في فضل علوم الغزالي أي والإحياء جماعها ، كما سيأتي أنه البحر المحيط . وكان السيد الجليل كبير الشأن تاج العارفين وقطب الأولياء الشيخ عبد الله العيدروس رضي الله عنه يكاد يحفظه نقلاً وروى عنه قال : مكثت سنين أطلع كتاب الإحياء كل فصل وحرف منه وأعادته وأتدبره فيظهر لي منه في كل يوم علوم وأسرار عظيمة ومفاهيم غزيرة غير التي قبلها . ولم يسبقه أحد ولم يلحقه أحد أتني على كتاب الإحياء بما أتني عليه ، ودعا الناس بقوله وفعله إليه ، وحث على التزام مطالعته والعمل بما فيه . ومن كلامه رضي الله عنه : عليكم يا إخواني بمتابعة الكتاب والسنة ، أعني الشريعة المشروحة في الكتب الغزالية ، خصوصاً : كتاب ذكر الموت ، وكتاب الفقر والزهدي ، وكتاب التوبة ، وكتاب رياضة النفس . ومن كلامه : عليكم بالكتاب والسنة أولاً وآخرأ وظاهراً وباطناً ، وفكراً واعتباراً واعتقاداً ، وشرح الكتاب والسنة مستوفى في كتاب إحياء علوم الدين الإمام حجة الإسلام الغزالي رحمه الله ونفعنا به . ومن كلامه : وبعد فليس لنا طريق ومنهـاج سوى الكتاب والسنة ، وقد شرح ذلك كله سيد المصنفين ، وبقية المجتهدين ، حجة الإسلام الغزالي ، في كتابه العظيم الشأن الملقب : أعجوبة الزمان « إحياء علوم الدين » الذي هو عبارة عن شرح الكتاب والسنة والطريقة : ومن كلامه : عليكم بملازمة كتاب إحياء علوم الدين فهو موضع نظر الله وموضع رضا الله ، فمن أحبه وطالعه وعمل بما فيه فقد استوجب محبة الله ومحبة رسول الله ومحبة ملائكة الله وأنبيائه وأوليائه ، وجمع بين الشريعة والطريقة والحقيقة في الدنيا والآخرة وصار عالمًا في الملك والمملوك . ومن كلامه الوجيز العزيز : لو بعث الله الموتى لما أوصوا الأحياء إلا بما في الإحياء . ومن كلامه : اعملوا أن مطالعة الإحياء تحضر القلب الغافل في لحظة كحضور سواد الخبر بوقوع الزاج في العفص والماء ، وتأثير كتب الغزالي واضح ظاهر مجرب عند كل مؤمن . ومن كلامه : أجمع العلماء العارفون بالله على أنه لا شيء أنفع للقلب وأقرب إلى رضا الرب من متابعة حجة الإسلام الغزالي ومحبة كتبه ؛ فإن كتب الإمام الغزالي لباب الكتاب والسنة ، ولباب المعقول والمنقول ، والله وكيل على ما أقول . ومن كلامه : أنا أشهد سرا وعلائية أن من طالع كتاب إحياء علوم الدين فهو من المهتدين . ومن كلامه : من أراد طريق الله وطريق رسول الله وطريق العارفين بالله وطريق العلماء بالله أهل الظاهر والباطن ، فعليه بمطالعة كتب الغزالي خصوصاً « إحياء علوم الدين » فهو البحر المحيط . ومن كلامه : اشهدوا على أن من وقع على كتب الغزالي فقد وقع على عين الشريعة والطريقة والحقيقة . ومن كلامه : من أراد طريق الله ورسوله ورضاهما فعليه بمطالعة كتب الغزالي وخصوصاً البحر المحيط « إحياء علوم الدين » ، ومن كلامه : نطق معاني معنوى القرآن ، ولسان حال قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلوب الرسل والأنبياء ، وجميع العلماء بالله وجميع العلماء بأمر الله الاتقياء ، بل جميع أرواح الملائكة ، بل جميع فرق الصوفية مثل العارفين والملازمة ، بل جميع سرحقائق الكائنات والمعقولات وما يناسب رضا الذات والصفات ، أجمع هؤلاء المذكورين أن لا شيء أرفع وأنفع وأبهى وأتقى وأقرب إلى رضا الرب كمتابعة الغزالي ومحبة كتبه ، وكتب الغزالي قلب الكتاب والسنة ، بل قلب المعقول والمنقول ، وأنفع يوم ينفخ إسرافيل في الصور ، وفي يوم نقر الناقور ، والله وكيل على ما أقول ، وما الحياة الدنيا إلا لمتاع الغرور . ومن كلامه : كتاب إحياء علوم الدين فيه جميع الأسرار ،

وكتاب بداية الهداية فيه التقوى ، وكتاب الأربعين الأصل فيه شرح الصراط المستقيم ، وكتاب منهاج العابدين فيه الطريق إلى الله ، وكتاب الخلاصة في الفقه فيه النور . ومن كلامه : السر كله في اتباع الكتاب والسنة : وهو اتباع الشريعة ، والشريعة مشروحة في كتاب إحياء علوم الدين المسمى أعجوبة الزمان : ومن كلامه : يخج بخ لمن طالع إحياء علوم الدين أو كتبه أو سمعه . وكلامه رضى الله عنه في تصانيفه وغيرها مشحون من الثناء على الإمام الغزالي وكتبه ، والحث على العمل بها خصوصا لإحياء علوم الدين ، وقد كان سيدى ووالدى الشيخ العارف بالله تعالى شيخ ابن عبد الله العيدروس رضى الله عنه يقول : إن أمهل الزمان جمعت كلام الشيخ عبد الله فى الغزالي وسميته (الجواهر المتلالي ، من كلام الشيخ عبد الله فى الغزالي) فلم يتيسر له ، وأرجو أن يوفقنى الله لذلك ، تحقيقا لرجائه ورجاء أن يتناولنى دعاء الشيخ عبد الله رضى الله عنه ، فإنه قال غفر الله لمن يكتب كلامى فى الغزالي ، وناهيك ببشارة فى هذه العبارة التى برزت من ولى عارف وقطب مكاشف لا يجازف فى مقال ولا ينطق إلا عن حال ، وفى هذا من الشرف للغزالي وكتبه ما لا يحتاج معه إلى مزيد (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) فإن العظيم لا يعظم فى عينه إلا عظيم ، ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل ، وإذا تصدى العيدروس لتعريفه فقد أغنى تعريفه عن كل تعريف ووصف ، والشهادة منه خير من شهادة ألف ألف وحصل من الإحياء فى زمانه بسببه نسخ عديدة ، حتى إن بعض العوام حصلها لما رأى من ترغيبه فيه وألزم أخاه الشيخ عليا قراءته فقرأه عليه مدة حياته خمسا وعشرين مرة ، وكان يصنع عند كل ختم ضيافة عامة للقراء وطلبة العلم الشريف ، ثم إن الشيخ عليا ألزم ولده عبد الرحمن قراءته عليه مدة حياته ، فحتمه عليه أيضا خمسا وعشرين مرة ، وكان ولده سيدى الشيخ أبو بكر العيدروس صاحب عدن التزم بطريقة النذر على نفسه مطالعة شئ منه كل يوم ، وكان لا يزال يحصل منه نسخة بعد نسخة ويقول : لا أترك تحميل الإحياء أبدا ما عشت ، حتى اجتمع عنده منه نحو عشر نسخ قلت : وكذلك كان سيدى الشيخ الوالد شيخ ابن عبد الله ابن شيخ ابن الشيخ عبد الله العيدروس رضى الله عنه مدمنا على مطالعته وحصل منه نسخا عديدة نحو السبع ، وأمر بقراءته عليه غير مرة ، وكان يعمل فى ختمه ضيافة عامة ، فلازمه ميراث عيدروسى وتوفيق قدوسى فن وفقه الله لامثاله والعمل بما فيه واستعماله بلوغ الرتبة العليا وحاز شرف الآخرة والدنيا .

وقال السيد الكبير العارف بالله الشهير على بن أبى بكر ابن الشيخ عبد الرحمن السقاف . لو قلب أوراق الإحياء كافر لاسلم ، فغيه سر خفى يجذب القلوب شبه المغناطيس . قلت : وهو صحيح ؛ فإنى مع خسيس قصدى وقساوة قلبى أجد عند مطالعتى له من انبعاث الهمة وعزوف النفس عن الدنيا ما لا مزيد عليه ، ثم يفتر برجوعى إلى ما أبا فيه ومخالطة أهل الكشافات ، ولا أجد ذلك عند مطالعة غيره من كتب الوعظ والرقائق ، وما ذاك إلا لشيء أو دعه الله فيه وسر نفس مصنفه وحسن قصده . والمراد بالكافر هنا فيما يظهر : الجاهل بعيوب النفس المحجوب عن إدراك الحق ، أى فبمجرد مطالعته للكتاب المذكور يشرح الله صدره وينور قلبه ، وذلك لأن الوعظ إذا صدر عن قلب متعظ كان حريا أن يتعظ به سامعه ، وكما أن الله تعالى جعل لعباده الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون رتبة فوق غيرهم ، كذلك جعل لما يبرز منهم ويؤخذ عنهم بركة زائدة على غيره ، لأن ألسنتهم كريمة وأنوار قلوبهم عظيمة ، وهمهم عالية وإشاراتهم سنية ، حتى يكون للقرآن أثر عظيم عند سماعه منهم ، وللأحاديث بهجة وجلالة زائدة إذا أخذت عنهم ، وللمواعظ منهم تأثير فى القلوب ظاهر ، ولعلومهم وفقهم أنوار ونفع متظاهر ، حتى تجد الرجل له العلم القليل وبعد ذلك يلتفت به كثير لحسن نيته ووجود بركته وغيره له أكثر من ذلك العلم ولم يفتفع به مثله لأنه دونه فى منزلته ، ومن تأمل ذلك وجده أمرا ظاهرا معهودا ، وشيئا مجربا موجودا ؛ فانظر إلى نفع الناس بكتاب الخلاف فى مذهب مالك رحمه الله تعالى ، والتبنيه فى مذهب الشافعى رحمه الله تعالى ، والجلل العربية والإرشاد فى علم الكلام وانتشارها ؛ مع أن مباحث من العلم فى فنونها قليل ، وقد جمع غير هؤلاء فى هذه الفنون فى مثل أجرام هذه الكتب أضعاف ما فيها من تحقيق تحرير العبارة وتشقيق المعانى وتلخيص الحدود ، وبعد هذا فالنفع بهذه أكثر وهى أظهر وأشهر ،

لأن العلم بمزيد التقوى وقوة سر الإيمان لا بكثرة الذكاء وفصاحة اللسان ، كما بين ذلك مالك رحمه الله تعالى بقوله :
ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يضعه الله في القلب . قالت : وبما أنشدني الشيخ علي بن أبي بكر رضي الله عنه
لنفسه فيه قوله :

أخى انتبه والزم سلوك الطرائق * وسارع إلى المولى بمجد وسابق
أيا طالبا شرح الكتاب وسنة * وقانون قلب القلب بحر الرقائق
وإيضاح منهج للحقيقة مشرق * وشرب حيا صفوراح الحقائق
وإجلال أذكار المعاني ضواحا * بياهج حسن جاذب للخلائق
عليك يا حياء العلوم ولها * وأسرارها كم قد حوى من دقائق
وكم من لطيفات لذى اللب منهل * وكم من مليحات سبت لب حاذق
كتاب جليل لم يصنف قبله * ولا بعده مثل له في الطرائق
فكم من بديع اللفظ يحلى عرائسا * وكم من شمس في حماء شوارق
معانيه أضحيت كالبدور سواطعا * على دتر لفظ للمعاني مطابق
وكم من عزيزات زهت في قبائها * محجة عن غير كفء مسابق
وكم من لطيف مع بديع وتحفة * حلاوتها كالشهد تحلو لذائق
بساتين عرفان وروض لطائف * وجنة أنواع العلوم الفوائق
رعى الله صبارا أعافى جنانها * يروح ويغدو بين تلك الحقائق
ويقطف من ذاكي جناها فواكها * بساحل بحر بالجواهر دافق
خضم طمى قد علا فوق من علا * بشاخ مجد مشرق بالحقائق
فإن لم بهذا القول تؤمن لجرين * وأقبل على تلك المعاني وعانق
وراجع طريقا في بديع جمالها * وطف في حماها منشدا كل سابق
ترى في بدور الحى أقمار قد بدت * بعلى جمال مدهش لب عاشق
فكم أنهت صبا وكم فشعت عسى * وكم قد سعت في غربها والمشارك
فيضحى براح الحب سكران مغرما * أدم عن العذال غير موافق
ويمسى يناديهما طريقا بياها * منعم عيش في الربوع الغوادق
صلاة على سر الوجود شفيعنا * محمد المختار خير الخلائق
وأصحابه أهل المكارم والعلا * وعترته وراث علم الحقائق

(فصل) وأما ما أنكر عليه فيه من مواضع مشكلة الظاهر - وفي التحقيق لا إشكال - أو أخبار وآثار تسكلم
في سندها ؛ فأما من جهة تلك المواضع فمن أجاب عنها المصنف في كتابه المسمى (بالاجوبة) وأسوق لك نبذة من ذلك
منا . قال رحمه الله : سألت - يسرك الله - لمراتب العلم تصعد مراقبها وقرب لك مقامات الأولياء تحل معاليها - عن بعض
ما وقع في الإملاء الملقب بالإحياء ، عما أشكل على من حجب وقصر فهمه ولم يفز بشيء من الحظوظ الملكية قدحه
وسهمه ، وأظهرت التحزن لما شاهدته من شركاء الطغام وأمثال الانعام وأتباع العوام وسفهاء الاحلام وعار أهل
الإسلام ، حتى طعنوا عليه ونهوا عن قراءه ومنتحلوه ومطالعته ، وأفتوا بالهوى مجردا على غير بصيرة بإطراحه ومناذته
ونسبوا عليه إلى ضلال وإضلال ، ورموا قراءته بزيف عن الشريعة واختلال ، إلى أن قال : (ستكتب شهادتهم
ويسألون ... وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب يتقلبون) ثم ذكر آيات أخرى في المعنى ، ثم وصف الأهل وأهله وذهاب
العلم وفضله ثم ذكر عذر المعترضين بما يرجع حاصلها إلى الحسد وإلى الجهل وقلة الدين ، بل أفصح بذلك في الآخر

حيث قال : حججوا عن الحقيقة بأربعة : الجهل والإصرار ، ومحبة الدنيا ، وإظهار الدعوى . ثم بين ما ورثوه عن الأربعة المذكورة . قال : فالجهل أورثهم السخف إلى آخر ما ذكره . وأما ما عارض به من تضمنه أخبارا وآثارا موضوعة أضعيفة ، وإكثاره من الأخبار والآثار - والإكثار يتحاشى منه المتنوع لئلا يقع في الموضوع .

وحاصل ما أجيب به عن الغزالي - ومن المجيبين الحافظ العراقي - أن أكثر ما ذكره الغزالي ليس بموضوع كما برهن عليه في التخريج ، وغير الأكثر وهو في غاية القلة رواه عن غيره أو تبع فيه غيره متبرئاً منه بنحو صيغة « روى ، وأما الاعتراض عليه أن فيما ذكره الضعيف بكثرة ، فهو اعتراض ساقط ، لما تقرر أنه يعمل به في الفضائل ، وكتابه في الرقائق فهو من قبلها ، ولأنه أسوة بأئمة الحفاظ في اشتغال كتبهم على الضعيف بكثرة المنبذ على ضعفة تارة والمسكوت عنه أخرى ، وهذه كتب الفقه للمتقدمين - وهي كتب الأحكام لا الفضائل - يوردون فيها الأحاديث الضعيفة ساكتين عليها ، حتى جاء النووي رحمه الله في المتأخرين ونبه على ضعف الحديث وخلافه ، كما أشار إلى ذلك كله العراقي قال عبد الغافر الفارسي سبط القشيري : ظهرت تصانيف الغزالي وفشت ولم يبد في أيامه مناقضة لما كان فيه ولا مآثره ... إلى آخر ما ذكره . ومما يدل على جلالة كتب الغزالي ما نقل ابن السمعاني من روى بعضهم فيما يرى النائم : كأن الشمس طلعت من مغربها مع تعبير ثقات المعبرين ببدعة تحدث ، تحدث في جميع المغرب بدعة الأمر بإحراق كتبه ، ومن أنه لما دخلت مصنفاته إلى المغرب أمر سلطانها على بن يوسف بإحراقها لتوهمه اشتغالها على الفلسفة وتوعد بالقتل من وجدت عنده بعد ذلك ، فظهر بسبب أمره في مملكته مناكير ووثب عليه الجنند ، ولم يزل من وقت الأمر والتوعد في عكس ونكده ، بعد أن كان عادلاً .

خاتمة في الإشارة إلى ترجمة المصنف رضى الله عنه

وسبب رجوعه إلى طريقة الصوفية رضى الله عنهم

أما ترجمته رضى الله عنه فهو الإمام زين الدين حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي النيسابوري العقيلي الصوفي الشافعي الأشعري ، الذي انتشر فضله في الآفاق وفاق ، ورزق الحظ الأوفر في حسن التصانيف وجودتها ، والنصيب الأكبر في جزالة العبارة وسهولتها وحسن الإشارة وكشف المعضلات والتبحر في أصناف العلوم فروعها وأصولها . ورسوخ القدم في منقولها ومعقولها ، والتحكم والاستيلاء على إجمالها وتفصيلها ، مع ما خصه الله به من الكرامة وحسن السيرة والاستقامة والزهد ، والعزوف عن زهرة الدنيا والإعراض عن الجهات الفانية وإطراح الحشمة والتكلف . قال الحافظ العلامة ابن عساكر والشينخ عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي والفقهاء جمال الدين عبد الرحيم الأسنوي رحمهم الله تعالى ولد الإمام الغزالي بطوس سنة خمس سنين وأربع مائة ، وأبتدأ بها في صباه بطرف من الفقه ، ثم قدم نيسابور ولازم دروس إمام الحرمين ، وجتهد واجتهد حتى تخرج في مدة قريبة وصار أنظر أهل زمانه وأوحد أقرانه ، وجلس للإقراء وإرشاد الطلبة في أيام إمامه وصنف ، وكان الإمام يتبع به ويعتد بمكانه منه ، ثم خرج من نيسابور وحضر مجلس الوزير نظام الملك فأقبل عليه وحل منه محلاً عظيماً لعلو درجته وحسن مناظرته ، وكانت حضرة نظام الملك محطال رجال العلماء ، ومقصد الأئمة والفضلاء ، ووقع للإمام الغزالي فيها اتفاقات حسنة من مناظرة الفحول ، فظهر اسمه وطار صيته ، فرسم عليه نظام الملك بالمسير إلى بغداد للقيام بتدريس المدرسة النظامية ، فسار إليها وأعجب السكل تدريسه ومناظرته ، فصار إمام العراق بعد أن حاز إمارة خراسان ، وارتفعت درجته في بغداد على الأمراء والوزراء والأكابر وأهل دار الخلافة ، ثم انقلب الأمر من جهة أخرى فترك بغداد وخرج عما كان فيه من الجاه والحشمة مشغلاً بأسباب التقوى ، وأخذ في التصانيف المشهورة التي لم يسبق إليها مثل « إحياء علوم الدين » ، وغيره ، التي من تأملها عرف محل مصنفها من العلم . قيل إن تصانيفه وزعت على أيام

عمره فأصاب كل يوم كراس ، ثم صار إلى القدس مقبلاً على مجاهدة النفس وتبديل الأخلاق وتحسين الشرائع حتى مرن على ذلك ، ثم عاد إلى وطنه طوس لازماً بيته مقبلاً على العبادة ونصح العباد وإرشادهم ودعاهم إلى الله تعالى ، والاستعداد للدار الآخرة يرشد الضالين ويفيد الطالبين دون أن يرجع إلى ما انخلع عنه من الجاه والباهة ، وكان معظم تدريسه في التفسير والحديث والتصوف ، حتى انتقل إلى رحمة الله تعالى يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الأولى سنة خمس وخمسمائة - خصه الله تعالى بأنواع الكرامة في أخراه كما خصه بها في دنياه - قيل : وكانت مدة القطبية للغزالي ثلاثة أيام على ما حكى في كرامات الشيخ سيد العمودي نفع الله به . وذكر الشيخ عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي رحمه الله تعالى بإسناده الثابت إلى الشيخ الكبير القطب الرباني شهاب الدين أحمد الصياد البيني الزبيدي وكان معاصراً للغزالي نفع الله بهما قال : بينما أنا ذات يوم قاعد إذ نظرت إلى أبواب السماء مفتحة وإذا عصابة من الملائكة الكرام قد نزلوا ومعهم خلع خضر ومركوب نفيس ، فوقفوا على قبر من القبور وأخرجوا صاحبه وألبسوه الخلع وأركبوه وصعدوا به من سماء إلى سماء إلى أن جاوزت السموات السبع وخرق بعد هاستين حجاً بيا ولا أعلم أين بلغ انتهاؤه ، فسألت عنه فقيل لي : هذا الإمام الغزالي ، وكان ذلك عقيب موته رحمه الله تعالى ، ورأى في النوم السيد الجليل أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم وقد باهى موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام بالإمام الغزالي وقال : أفي أمتك حبر كهذا قالاً ؟ لا ، وكان الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه يقول لأصحابه من كانت له منكم إلى الله حاجة فليتبوسل بالغزالي . وقال جماعة من العلماء رضي الله عنهم منهم الشيخ الإمام الحافظ ابن عساكر في الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم في أن الله تعالى يتحدث لهذه الأمة من يجدد لها دينها على رأس كل مائة سنة : أنه كان على رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الثانية الإمام الشافعي رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الثالثة الإمام أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الرابعة أبو بكر الباقلاني رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الخامسة أبو حامد الغزالي رضي الله عنه . روى ذلك عن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه في الإمامين الأولين أعنى عمر بن عبد العزيز والشافعي ، ومناقبه رضي الله عنه أكثر من أن تحصر ، وفيما أوردناه مقنع وبلاغ ومن مشهورات مصنفاته : البسيط ، والوسيط ، والوجيز ، والخلاصة في الفقه ، وإحياء علوم الدين : وهو من أنفس الكتب وأجلها ، وله في أصول الفقه : المستصفى ، والمنخول ، والمتنحل في علم الجدل ، وتهافت الفلاسفة ، ومحك النظر ، ومعيار العلم ، والمقاصد ، والمضنون به على غير أهله ، ومشكاة الأنوار ، والمنقذ من الضلال ، وحقيقة القولين ، وكتاب « يا قوت التأويل في تفسير التنزيل ، أربعين مجلداً ، وكتاب أسرار علم الدين ، وكتاب منهاج العابدين ، والدررة الفاخرة في كشف علوم الآخرة ، وكتاب الأنيس في الوحدة ، وكتاب القرية إلى الله عز وجل ، وكتاب أخلاق الأبرار والنجاة من الأشرار ، وكتاب بداية الهداية ، وكتاب جواهر القرآن ، والأربعين في أصول الدين ، وكتاب المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ، وكتاب ميزان العمل ، وكتاب القسطاس المستقيم ، وكتاب التفرقة بين الإسلام والزندقة ، وكتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة ، وكتاب المبادئ والغايات ، وكتاب كيمياء السعادة ، وكتاب تليس إبليس ، وكتاب نصيحة الملوك ، وكتاب الاقتصاد في الاعتقاد ، وكتاب شفاء العليل في القياس والتعليل ، وكتاب المقاصد ، وكتاب إجماع العوام عن علم الكلام ، وكتاب الانتصار ، وكتاب الرسالة الدنية وكتاب الرسالة القدسية ، وكتاب إثبات النظر ، وكتاب المأخذ ، وكتاب القول الجميل في الرد على من غير الإنجيل ، وكتاب المستظهرى ، وكتاب الامالى ، وكتاب في علم أعداد الوفاء وحدوده ، وكتاب مقصد الخلاف ، وجزء في الرد على المنكرين في بعض ألفاظ إحياء علوم الدين ، وكتبه كثيرة وكلها نافعة .

وقال يمدحه تلميذه الشيخ الإمام أبو العباس الأفليشي المحدث الصوفي صاحب كتاب النجم والكواكب :

أبا حامد أنت المخلص بالجمد هـ وأنت الذي علمتنا سنن الرشد

وضعت لنا الإحياء تحي نفوسنا * وتفتقدنا من طاعة النازع المردى

(٢ - ملحق كتاب الإحياء)

فربيع عباداته وعاداته التي * يعاقبها كالدرد نظم في العقد
وثالثها في المهلكات وإنه * لنج من الهلك المبرح والبعد
ورابعها في المنجيات وإنه * ليسرح بالآرواح في جنة الخلد
ومنها ابتهاج للجوارح ظاهر * ومنها صلاح للقلوب من الخلد

وأما سبب رجوعه إلى هذه الطريقة واستحسانه لها فذكر رحمه الله في كتابه المنقذ من الضلال مآصورته :
أما بعد : فقد سألتني أيها الأخ في الدين أن أبث لك غاية العلوم وأسرارها ، وغاية المذاهب وأغوارها ، وأحكى
لك مآقاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق ، مع تباين المسالك والطرق ، وما استجرات عليه من الارتفاع
من حضيض التقليد إلى يفاع الاستبصار ، وما استفدته أولا من علم الكلام وما احتوته من طرق أهل التعليم القاصرين
لدرك الحق على تعليم الإمام ، وما ازدريته ثالثا من طريق أهل التفلسف ، وما ارتضيته آخر من طرق أهل التصوف ،
وما تتحل لي في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل أهل الحق ، وما صرفني عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة ، وما دعاني
إلى معاوته بنيسابور بعد طول المدة ، فابتدرت لإجابتك إلى طلبتك بعد الوقوف على صدق رغبتك ، فقلت مستعينا
بالله تعالى ومتوكلا عليه ، ومستوفقا منه وملتبجا إليه :

اعلموا - أحسن الله إرشادكم ، وألان إلى قبول الحق انقيادكم - أن اختلاف الخلق في الأديان والملل ، ثم اختلاف
الأئمة في المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق : بحر عميق غرق فيه الأكثرون ، وما نجا منه إلا الأقلون ، وكل
فريق يزعم أنه الناجي (كل حزب بما لديهم فرحون) ولم أزل في غفوان شباني - مذكرا هفت البلوغ قبل بلوغ العشرين
إلى أن أناف السن على الحسنيين - أقتحم لجة البحر العميق وأخوض غمرته حوض الجسور ، لاخوض الجبان الخذور ،
وأترغل في كل مظلمة ، وأنجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأتكشف أسرار
مذاهب كل طائفة ، لايمز بين كل محق ومبطل ومستن ومبتدع ، لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على باطنيته ،
ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته ، ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على فلسفته ، ولا متكلما إلا وأجتهد في
الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته ، ولا متعبدا إلا وأريد ما يرجع
إليه حاصل عبادته . ولا زنديقا معطلا إلا وأنجس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته ، وقد كان التعطش
إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدي من أول امرئ وريعان عمرى ، غريزة من الله وفطرة وضعها الله في جبلتي ،
لا باختيارى وحيلى ، حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت عني العقائد المروية على قرب عهد منى بالصبا ، إذ رأيت
صبيان النصارى لا يكون لهم نشء إلا على التنصر ، وصبيان اليهود لا يكون لهم نشء إلا على التهود ، وصبيان الإسلام
لا يكون لهم نشء إلا على الإسلام ، وسمعت الحديث المروى عن النبي صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة
فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، فتتحرك باطنى إلى طلب الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدین
والاستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات ، وفي تمييز الحق منها من الباطل اختلافات ، فقلت في نفسى
أولا : إنما مطلوب العلم بحقائق الأمور ، ولا بد من طلب حقيقة العلم ما هي ؟ فظهر لي أن العلم اليقيني هو
الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبق معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط كالوهم ، ولا يتسع العقل لتقدير ذلك ،
بل الأمان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارنا للنص مقارنة لتوحد بإظهار بطلانه مثلا من يقلب الحجر ذهباً والعصا
ثعبانا لم يورث ذلك شكاً وإمكاناً ، فإني إذا علمت أن العشرة أكثر من الواحد لو قال لي قائل : الواحد أكثر من
العشرة ، بدليل أني أقلب هذه العصا ثعبانا وقلبا وشاهدت ذلك منه ، لم أشك في معرفتي لكذبه ، ولم يحصل معي منه
إلا التعجب من كيفية قدرته عليه ، وأما الشك فيما علمته فلا . ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه
من هذا النوع من اليقين فهو علم لا ثقة به ، وكل علم لا أمان معه ليس بعلم يقيني ، ثم فتشت عن علومى فوجدت نفسى
عاطلا عن علم موصوف بهذه الصفة إلا في الحسيات والضروريات ، فقلت الآن بعد حصول اليأس لا مطمع في اقتباس

المستيقنات إلا من الجليات وهي الحسيات والضروريات ، فلا بد من إحكامها أولاً لاثنين أن يقيني بالمحسوسات وأمانى من الغلط في الضروريات من جنس أمانى الذى كان من قبل في التقاليدات أو من جنس أمان أكثر الخلق في النظريات ، وهو أمان محقق لا يتجوز فيه ولا غائلة له ، فأقبلت بمجد بليغ أتأمل في المحسوسات والضروريات ، أنظر هل يمكننى أشكك نفسى فيها ؟ فأتتهى بعد طول التشكك بى إلى أنه لم تسمح نفسى بتسليم الأمان فى المحسوسات ، وأخذ يتسنع الشك فيها ، ثم أنى ابتدأت بعلم الكلام لخصته وعقلته وطالعت كتب المحققين منهم ، وصنفت ما أردت أن أصنفه ، فصاذفته علماً وافياً بمقصوده غير واف بمقصودى ، ولم أزل أتفكر فيه مدة وأباعد على مقام الاختيار أصم عزمى على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً ، وأحل العزم يوماً ، وأقدم فيه رجلاً وأؤخر فيه أخرى ، ولا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة إلا لاهل عليها جند الشهوة جملة فيغيرها عشية فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسبب ميلها إلى المقام ، ومنادى الإيمان ينادى : الرحيل الرحيل ، فلم يبق من العمر إلا القليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العمل رياء وتخييل ، وإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد ، وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطعها ؟ فعند ذلك تلعبت الرغبة وينجزم الأمر على الهرب والفرار ، ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حالة عارضة إياك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال ، وإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه الطويل العريض ، والشأن العظيم الخالى عن التسكدر والتنغيص والأمر السالم الخالى عن منازعة الخصوم ربما التفتت إليه نفسك ولا تيسر لك المعادة ؛ فلم أزل أتردد بين التجاذب بين شهوات الدنيا والدواعى قريبا من ستة أشهر : أو لها رجب من سنة ست وثمانين وأربعمائة ، وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ، إذ قفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوماً واحداً تطييباً للقلوب المختلفة إلى فكان لا ينطق لساني بكلمة ولا أستطيعها ألبتة ، حتى أورثت هذه العقلة فى اللسان حزناً فى القلب بطلت معه قوة الهضم ومرى الطعام والشراب ، وكان لا تنساغ لى شربة ولا تهضم لى لقمة ، وتعدى ذلك إلى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم فى العلاج وقالوا : هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى إلى المراج فلا سبيل إليه بالعلاج إلا أن يروح السرع عن الهم المهم ؛ ثم لما أحسست بعجزى وسقط بالكلية اختياري التجأت إلى الله التجاء المضطر الذى لا حيلة له فأجانبى الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، وسهل على قاي الإعراض عن المال والجاه والأهل والأولاد ، وأظهرت غرض الخروج إلى مكة وأنا أدبر فى نفسى سفر الشام ، حذراً من أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على غرضى فى المقام بالشام ، فتلطفت بلطائف الحيل فى الخروج من بغداد على عزم أن لا أعودها أبداً ، واستهزأ بى أئمة العراق كافة ، إذ لم يكن فيهم من يجوز أن يكون الإعراض عما كنت فيه سبباً دينياً ، إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى فى الدين ، فكان ذلك هو مبلغهم من العلم ، ثم ارتبك الناس فى الاستنباطات ، فظن من بعد عن العراق أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاية ، وأما من قرب منهم فكان يشاهد لجأهم فى التعلق بى والإنكار على وإعراض عنهم وعن الالتفات إلى قولهم ، فيقولون هذا أمر سماوى ليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام وزمرة أهل العلم ، ففارقت بغداد وفارقت ما كان معى من مالى ولم أذكر من ذلك إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال ، ترخصاً بأن مال العراق مرصد للمصالح لكونه وقفاً على المسلمين ، ولم أر فى العالم ما يأخذ العالم لعياله أصبح منه ، ثم دخلت الشام وأقت فيه قرياً من سنتين لا شغل لى إلا العزلة والخلة والرياضة والمجاهدة اشتغالا بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصلته من علم الصوفية ، وكنت أعتكف مدة بمسجد دمشق أصدع منارة المسجد طول النهار وأغلق بابها على نفسى ، ثم تحركت بداعية فريضة الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة ، وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه وسلامه ، وثمرت إلى الحجاز ، ثم جذبتنى الهم ودعوات الأطفال إلى الوطن ، وعادته بعد أن كنت أبعد الخلق عن أن أرجع إليه ، واثرت العزلة حرصاً على الخلة وتصفية القلب للذكر وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعيشة تغير فى وجه المراد وتشوش صفوة الخلة ، وكان لا يصغولى الحال إلا فى أوقات متفرقة ، لكننى مع ذلك لا أقطع طمعى عنها فيدفعنى عنها العوائق

وأعود إليها، ودمت على ذلك مقدار عشر سنين ، وانكشف لى فى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها ، والقدر الذى ينبغى أن نذكره لينتفع به أى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقتهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء لغيروا شيئا من سيرتهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا ؛ فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به ، وبالجمله ماذا يقول القائل فى طريقة أول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجارى منها مجرى التحرم فى الصلاة استغراق القلب بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية فى الله تعالى ، وهو أقواها بالإضافة إلى ما تحت الاختيار . انتهى .

قال العراقى : فلما نفذت كلبته وبعد صيته وعلت منزلته وشدت إليه الرحال وأذعنت له الرجال ، شرفت نفسه عن الدنيا واشتأقت إلى الأخرى ، فاطرحها وسعى فى طلب الباقية ، وكذلك النفوس الزكية ، كما قال عمر بن عبد العزيز . إن لى نفساً تواقه : لما نالت الدنيا تآقت إلى الآخرة . قال بعض العلماء : رأيت الغزالى رضى الله عنه فى البرية وعليه مرقعة ويده عكاز وركوة ، فقلت له : يا إمام أليس التدريس ببغداد أفضل من هذا ؟ فنظر إلى شزراً وقال : لما برغ بدر السعادة فى فلك الإرادة وظهرت شمس الوصل :

تركت هوى ليلى وسعدى بمنزل * وعدت إلى مصحوب أول منزل
ونادتنى الأشواق مهلاً فهذه * منازل من تهوى رويدك فانزل

(انتهى كتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء بحمد الله وعونه)

كتاب الإملاء في إشكالات الإحياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله على ما خصص ونعم ، وصلى الله على سيد جميع الأنبياء المبعوث إلى العرب والعجم ، وعلى آله وعترته وسلم كثيرا وكرم .

سألت - يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراقبها ، وقرب لك مقامات الولاية تحل معاليها - عن بعض ما وقع في الإملاء الملقب بالإحياء بما أشكل على من حجب فهمه وقصر علمه ، ولم يفز بشيء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه ، وأظهرت التجزئ لما شاش به شركاء الطعام وأمثال الأنعام ، وأجماع العوام وسفهاء الأحلام وذعار أهل الإسلام حتى طعنوا عليه ونهوا عن قراءته ومطالعتة ، وأفتوا بمجرد الهوى على غير بصيرة باطراحه ومناذته ، ونسبوا عليه إلى ضلال وإضلال ، ونبدوا قراءته ومنتحليه بزيف في الشريعة واختلال ؛ فإلى الله انصرافهم ومآبهم ، وعليه في العرض الأكبر إيقافهم وحسابهم ، فستكتب شهادتهم ويستلون ، وسيعلم الذين ظلوا أى منقلب ينقلبون ، بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ، ولوردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولكن الظالمون في شقاق بعيد ، ولا عجب فقد ثوى أدلاء الطريق ، وذهب أرباب التحقيق ، ولم يبق في الغالب إلا أهل الزور والفسوق ، متشبثين بدعوى كاذبة ، متصفين بحكايات موضوعة ، مترنين بصفات منمقة ، متظاهرين بطواهر من العلم فاسدة ، متعاطين لحجج غير صادقة ؛ كل ذلك لطلب الدنيا أوحية ثناء أو مغالبة نظراء ، قد ذهبت المواصلة بينهم بالبر ، وتآلفوا جميعاً على المنكر ، وعدمت النصائح بينهم في الأمر ، وتضافوا بأسرهم على الخديعة والمنكر ؛ إن نصحتهم العلماء أغروا بهم ، وإن صمت عنهم العقلاء أزروا عليهم ؛ أولئك الجهال في علمهم ، الفقراء في طولهم ، البخلاء عن الله عز وجل بأنفسهم ، لا يفلحون ولا ينجح تابعهم ، ولذلك لا تظهر عليهم موارد الصدق ، ولا تسطع حولهم أنوار الولاية ، ولا تنفخ لديهم أعلام المعرفة ، ولا يستر عوراتهم لباس الحشية ، لأنهم لم ينالوا أحوال النقاء ، ومراتب النجباء وخصوصية البدلاء ، وكرامة الأوتاد وفوائد الأقطاب ، وفي هذه أسباب السعادة وتتمة الطهارة ، لو عرفوا أنفسهم لظهر لهم الحق وعلوا علة أهل الباطل وداء أهل الضعف ودواء أهل القوة ، ولكن ليس هذا من بضائعهم ، حججوا عن الحقيقة بأربع : بالجهل ، والإصرار ، ومحبة الدنيا ، وإظهار الدعوى . فالجهل أورثهم السخف ، والإصرار أورثهم التهاون ، ومحبة الدنيا أورثتهم طول الغفلة ، وإظهار الدعوى أورثهم الكبر والإعجاب والرياء (والله من ورائهم محيط) (وهو على كل شيء شهيد) فلا يغرنك - أعاذنا - وإياك من أحوالهم - شأنهم ، ولا يذهلنك عن الاشتغال بصلاح نفسك تمردهم وطغيانهم ، ولا يغوينك بما زين لهم من سوء أعمالهم شيطانهم ، فكان قد جمع الخلائق في صعيد (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد وتلا) (لقد كنت غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) فيأله من موقف قد أذهل ذوى العقول عن القال والقليل ، ومتابعة الأباطيل ؛ فأعرض عن الجاهلين ، ولا تطع كل أفاك أئيم (وإن كان كبر عليك

إعراضهم فإن استطعت أن تبغى نفقائي الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكون من الجاهلين ﴿ولو شامرك لجمع الناس أمة واحدة﴾ ﴿فاصر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين﴾ ﴿كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾ ولقد أجبتك - بحول الله وقوته وبعد استخارته - عما سألت عنه وخاصة ما زعمت فيه من تخصيص الكلام بالمثل الذي ذكر فيه الأقدام ، إذ قد اتفق أن يكون أشهر ما في الكتاب وأكثر تصرفا على أسنة الصدور والأصحاب ، حتى لقد صار المثل المذكور في المجالس تحية الداخل وخديت الجالس ، فساعدتنا أمنيته ، ولولا العجلة والاشتغال لأضفنا إلى إملاتنا هذا بيانا غيره معادوه مشكلا ، وصار لعقولهم الضعيفة خبلا ومضلا ، ونحن نستعبد بالله من الشيطان ؛ ونستعصم به من جراءة فقهاء الزمان ونتضرع إليه في الزيد من الإحسان ، إنه الجواد المنان .

ذكر مراسم الأسئلة في المثل

ذكرت - رزقك الله ذكره وجملك تعقل نبيه وأمره - كيف جاز انقسام التوحيد على أربعة مراتب ، ولفظة التوحيد تنافي التقسيم في المشهود كما ينافي التكرير التعديد وإن صح انقسامه على وجه لا يندفع ، فهل تصح القسمة فيما يوجد أو فيما يقدر ، ورغبت من مزيد البيان في تحقيق كل مرتبة ، وانقسام طبقات أهلها فيها إن كان يقع بينهم التفاوت ، وما وجه تمثيلها بالجوز في القشور والبوب ؟ ولم كان الأول لا ينفع والآخر الذي هو الرابع لا يحل إفشاؤه ؟ وما معنى قول أهل هذا الشأن : إفشاء سر الربوبية كفر ؟ أين أصل ما قالوه في الشرع ؟ إذ الإيمان والكفر والهداية والضلال والتقريب والتبديد والصدقية وسائر مقامات الولاية ودركات المخالفة لإنما هي مأخذ شرعية وأحكام نبوية ، وكيف يتصور مخاطبة العقلاء بجمادات ؟ ومخاطبة الجمادات بالعقلاء ؟ وبماذا تسمع تلك المخاطبة ؟ أبجاسه الأذان أم بسمع القلب ؟ وما الفرق بين القلم المحسوس والقلم الإلهي ؟ وما حد عالم الملك وعالم الجبروت وحد عالم الملكوت ؟ وما معنى أن الله تعالى خلق آدم على صورته : وما الفرق بين الصورة الظاهرة التي يكون معتقدا منزها مجللا ؟ وما معنى الطريق في ﴿إنك بالوادي المقدس طوى﴾ ولعله ببغداد أو أصفهان أو نيسابور أو طبرستان في غير الوادي الذي سمع فيه موسى عليه السلام كلام الله تعالى ، وما معنى فاستمع بسر قليل لما يوحى ؟ وهل يكون سماع القلب بغير سره ؟ وكيف يسمع لما يوحى من ليس بنبي ؟ أذلك على طريق التعميم أم على سبيل التخصيص ، ومن له بالتسلق إلى مثل ذلك المقام حتى يسمع أسرار الإله وإن كان على سبيل التخصيص ، والنبوة ليست محجورة على أحد إلا على من قصر عن سلوك تلك الطريق ، وما يسمع في النداء إذا سمع هل أسمع موسى أو أسمع نفسه ؟ وما معنى الأمر للسالك بالرجوع من عالم القدرة ونبيه على أن يتخطى رقاب الصديقين ؟ وما الذي أوصله إلى مقامهم وهو في المرتبة الثالثة وهي توحيد المقربين ؟ وما معنى انصراف السالك بعد وصوله إلى ذلك الرفيق ؟ وإلى أين وجهته في الانصراف وكيف صفة انصرافه ؟ وما الذي يمنعه من البقاء في الموضع الذي وصل إليه وهو أرفع من الذي خلفه ؟ وأين هذا من قول أبي سليمان الداراني المذكور في غير الإحياء : لو وصلوا ما رجعوا ، ما وصل من رجع ؟ وما معنى بأن ليس في الإمكان أبدع من صورة هذا العالم ولا أحسن ترتيبا ولا أكمل صنعا ولو كان وادخره مع القدرة عليه كان ذلك بخلا يناقض الجود وبجزأ يناقض القدرة الإلهية ؟ وما حكم هذه العلوم المكتونة هل طلبها فرض أو مندوب إليه أو غير ذلك ؟ ولم كسيت المشكل من الألفاظ واللفظ من العبارات ؟ وإن جاز ذلك للشارع فيما له أن يختبر به ويمتنع ، فما بال من ليس شارعا ؟ انتهى جملة مراسم الأسئلة في المثل .

فأسأل الله تعالى أن يمل علينا ما هو الحق عنده في ذلك ، وأن يجرى على ألسنتنا ما يستضاء به في ظلمات المسالك ، وأن يعم بنفعه أهل المبادئ والمدارك ، ثم لا بد أن أهد مقدمة ، وأؤكد قاعدة ، وأؤكد وصية .
أما المقدمة فالغرض بها تبين عبارات انفرد بها أرباب الطريق تغبض معانيها على أهل القصور فنذكر ما يغضب منها

ونذكر المقصد بها عندهم ، فرب واقف على ما يكون من كلامنا مختصا بهذا الفن في هذا وغيره فيتوقف عليه فهم معناه من جهة اللفظ .

وأما القاعدة فنذكر فيها الاسم الذي يكون سلوكنا في هذه العلوم عليه ، والسمت الذي تنوى بمقصدنا إليه ؛ ليكون ذلك أقرب على المتأمل وأسهل على الناظر المتفهم .

وأما الوصية ، فنقصد فيها تعريف ما على من نظر في كلام الناس وأخذ نفسه بالاطلاع على أغراضهم فيما القوه من تصانيفهم ، وكيف يكون نظره فيها واطلاعه عليها واقتباسه منها ، فذلك أوكد عليه أن يتعلمه من ظهورها فشرودا عنها وغلقت في وجوههم الأبواب وأسدل دونهم الحجاب ، ولو أتوها من أبوابها بالترحيب وولجوا على الرضا بالحبيب لكشف لهم كثير من حجب الغيوب ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

المقدمة

اعلم أن الألفاظ المستعملة منها ما يستعمله الجماهير والعموم ، ومنها ما يستعمله أرباب الصنائع ؛ والصنائع على ضربين : علمية ، وعملية ، فالعملية كالمهن والحرف ولأهل كل صناعة منهم ألفاظ يتفاهمون بها آلاتهم ، ويتعاطون أصول صناعتهم . والعلمية هي العلوم المحفوظة بالقوانين المعدلة بما تحرر من الموازين ، ولأهل كل علم أيضا ألفاظ اختصوا بها لا يشاركونهم فيها غيرهم إلا أن يكون ذلك بالاتفاق من غير قصد ، وتكون المشاركة إذا اتفقت إما في صورة اللفظ دون المعنى ، أو في المعنى وصورة اللفظ جميعا ، وهذا يعرفه من بحث عن مجازي الألفاظ عند الجمهور وأرباب الصنائع ، وإنما سمينا من العلوم صنائع ما قصد فيها التصنع بالترتيب في التقسيم واختيار لفظ دون غيره وحده بطرفين : مبدل ، وغاية ؛ ومالم يكن كذلك فلا نسميه صناعة كعلوم الأنبياء صلوات الله عليهم والصحابة رضي الله عنهم ، فإنهم لم يكونوا فيما عندهم من العلم على طريق من بعدهم ، ولا كانت العلوم عندهم بالرسم الذي هو عند من خلفهم ، ومثل ذلك علوم العرب ولسانها لأنسميها عندهم صناعة ، ونسميها بذلك عند ضبطها بما اشتهر من القوانين وتقرر من الحصر والترتيب ، ولأرباب العلوم الروحانية وأهل الإشارات إلى الحقائق والمسمين بالسادة ، والملقين بالصوفية والمتشبهين بالفقراء ، والمعروفين بالرقّة ، والمعزى إليهم العلم والعمل : ألفاظ جرى رسمهم بالتخاطب بها فيما يتذاكرون أو يذكرونه ، ونحن إن شاء الله نذكر ما يغض منها ، إذ قد يقع منا عندما نذكر شيئا من علومهم ونشير إلى غرض من أغراضهم ؛ فلم نر أن يكون ذلك بغير ما عرف من ألفاظهم وعباراتهم ، ولا حرج في ذلك عقلا وشرعا ، ونحن بحكم مصرف التقدير وهو على كل شيء قدير .

فن ذلك السفر ، والسالك ، والمسافر ، والحال ، والمقام ، والمكان ، والشطح ، والطوالع ، والذهاب ، والنفس ، والسر ، والوصل ، والفصل ، والأدب ، والرياضة ، والنحلى ، والتخلى ، والتجلى ، والعلة ، والازعاج ، والمشاهدة ، والمكاشفة ، واللوائح ، والتلوين ، والغيرة ، والحرية ، واللطفية ، والفتوح ، والوسم ، والرسم ، والبسط ، والفيض ، والفناء ، والبقاء ، والجمع ، والتفرقة ، وعين التحمل والزوائد ، والإرادة ، والمريد ، والمراد ، والهمة ، والغربة ، والمكر ، والاصطلام ، والرغبة ، والرغبة ، والوجد ، والوجود ، والتواجد .

فنذكر شرح هذه على أوجز ما يمكن بمشيئة الله تعالى ، وإن كانت ألفاظهم المصرفة بينهم في علومهم أكثر مما ذكرنا ؛ فإنما قصدنا أن نريك منها أنموذجا ودستورا تتعلم به إذا طرأ عليك مالم نذكره لك ههنا ، إذ لها مبحث وإليها سبيل ، فتطلبه بعد ذلك على وجهه .

فأما السفر والطريق ؛ فالمراد بها سفر القلب بآلة الفكر في طريق المعقولات ، وعلى ذلك ابتنى لفظ السالك والمسافر في لغتهم ، ولم يرد بذلك سلوك الأقدام التي بها يقطع مسافات الأجسام ، فإن ذلك مما شاركه فيه البهائم والأنعام . وأول مسالك السفر إلى الله تعالى عز وجل معرفة قواعد الشرع وخرق حجب الأمر والنهي ، وتعلق

العرض فيها والمراد بها ومنها ، فإذا خلفوا نواحيها وقطعوا معاطبها ، أشرفوا على مغاوز أوسع ، وبرزت لهم مهامه أعرض وأطول : من ذلك معرفة أركان المعارف النبوية : النفس والعدو والدنيا ؛ فإذا تخلصوا من أوعارها أشرفوا على غيرها أعظم منها في الانتساب ، وأعرض بغير حساب : من ذلك سر القدر وكيف خفي بحكم في الخلائق وقادهم بلطف في عنف ، وشدة في لين ، وبقوة في ضعف ، وباختيار في جبر ، إلى ما هو في مجاريه لا يخرج المخلفون عنه طريقة عين ، ولا يتقدمون ولا يتأخرون عنه ، والأشراف على الملكوت الأعظم ورؤية عجائب ومشاهدة غرائب : مثل العلم الإلهي ، واللوح المحفوظ ، واليمين الكاتبة وملائكة الله يطوفون حول العرش وبالبيت المعمور وهم يسبحونه ويقدسونه ، وفهم كلام المخلوقات من الحيوانات والجمادات ، ثم التخطي منها إلى معرفة الخالق للكل والمالك للجميع والقادر على كل شيء ، فتغشاهم الأنوار المحرقة ، ويتجلى لمرآة قلوبهم الحقائق المحتجبة فيعلون الصفات ويشاهدون الموصوف ، ويحبسون حيث غاب أهل الدعوى ، ويبصرون ما عفى عنه أولو الأبصار الضعيفة بحجب الهوى .

والحال : منزلة العبد في الحين فيصفو له في الوقت حاله ووقته . وقيل : هو ما يتحول فيه العبد ويتغير عما يرد على قلبه ، فإذا صفا تارة وتغير أخرى قيل له حال . وقال بعضهم : الحال لا يزول ، فإذا زال لم يكن حالا . والمقام : هو الذي يقوم به العبد في الأوقات من أنواع المعاملات وصنوف المجاهدات ، فتقأيم العبد بشئ منها على التمام والكمال فهو مقامه حتى ينقل منه إلى غيره . والمكان : هو لأهل الكمال والتمكين والنهاية ، فإذا كمل العبد في معانيه فقد تمكن من المكان وغير المقامات والأحوال ، فيكون صاحب مكان كما قال بعضهم .

مقامك من قلبي هو القلب كله * فليس لشيء فيه غيرك موضع والسطح : كلام يترجم به اللسان عن وجد يفيض عن معدنه مقرون بالدعوى ، إلا أن يكون صاحبه محفوظا . والطوالع : أنواع التوحيد يطلع على قلوب أهل المعرفة شعاعها ونورها فيطمس سلطان نورها الألوان ، كما أن نور الشمس يحو أنوار الكواكب والذهاب : هو أن يغيب القلب عن حس كل محسوس ، شهادة محبوبها . والنفس : روح سلطه الله على نار القلب ليطن شرها والسر : ما خفي عن الخلق فلا يعلم به إلا الحق . وسر السر : ما لا يحس به السر ، والسر ثلاثة : سر العلم ، وسر الحال ، وسر الحقيقة ، فسر العلم حقيقة العالمين بالله عز وجل ، وسر الحال معرفة مراد الله في الحال من الله ، وسر الحقيقة ما وقعت به الإشارة .

والوصل : إدراك الفائق . والفصل : فوت ما تجرؤه من محبوبك . والأدب ثلاثة : أدب الشريعة وهو التعلق بأحكام العلم بصحة عزم الخدمة ، والثاني أدب الخدمة وهو التشمع عن العلامات والتجرد عن الملاحظات ، والثالث أدب الحق وهو موافقة الحق بالمعرفة . والرياضة اثنان : رياضة الأدب وهو الخروج عن طبع النفس ، ورياضة الطلب وهو صحة المراد . والتخلي : التشبه بأحوال الصادقين بالأحوال وإظهار الأعمال . والتخلي : اختيار الخلوة والإعراض عن كل ما يشغل عن الحق . والتجلى : هو ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب . والعلة تنبه عن الحق . والانزعاج انتباه القلب من سنة الغفلة والتحرك للأنس والوحدة . والمشاهدة ثلاثة : مشاهدة بالحق وهي رؤية الأشياء بدلائل التوحيد ، ومشاهدة بالحق وهي رؤية الحق في الأشياء ، ومشاهدة الحق وهي حقيقة اليقين بلا ارتياب .

والمكاشفة أتم من المشاهدة وهي ثلاث : مكاشفة بالعلم وهي تحقيق الإصابة بالفهم ، ومكاشفة بالحال وهي تحقيق رؤية زيادة الحال ، ومكاشفة بالتوحيد وهي تحقيق صحة الإشارة .

واللوائح : ما يلوح من الأسرار الظاهرة الصافية من السمر من حالة إلى حالة أتم منها ، والارتقاء من درجة إلى ما هو أعلى منها .

والتلويح : تلويح العبد في أحواله . وقالت طائفة : علامة الحقيقة رفع التلويح بظهور الاستقامة . وقال آخرون : علامة الحقيقة التلويح لأنه يظهر فيه قدرة القادر فيكسب منه العبد الغيرة .

والغيرة غيرة في الحق ، وغيرة على الحق ، وغيرة من الحق ، فالغيرة في الحق برؤية الفواحش والمناهي ، وغيرة على الحق هي كتمان السرائر ، والغيرة من الحق ضنه على أوليائه .

والحرية : إقامة حقوق العبودية فتكون لله عبداً وعند غيره حراً .

واللطيفة : إشارة دقيقة المعنى تلوح في الفهم ولا تسعها العبارة .

والفتوح ثلاثة : فتوح العبادة في الظاهر وذلك سبب إخلاص القصد ، وفتوح الخلاوة في الباطن وهو سبب جذب الحق بأعطافه ، وفتوح المكاشفة وهو سبب المعرفة بالحق .

والوسم والرسم : معنيان يجريان في الأبد بما جريا في الأزل .

والبسط عبارة عن حال الرجاء . والقبض : عبارة عن حال الخوف .

والفناء : فناء المعاصي ، ويكون فناء رؤية العبد لفعله بقيام الله تعالى على ذلك . والبقاء : بقاء الطاعات ويكون بقاء رؤية العبد قيام الله سبحانه على كل شيء .

والجمع : التسوية في أصل الخلق . وعن آخرين : معناه إشارة من أشار إلى الحق بلا خلق . والتفرقة : إشارة إلى اللون والخلق ، فمن أشار إلى تفرقة بلا جمع فقد جحد الباري سبحانه ، ومن أشار إلى جمع بلا تفرقة فقد أنكر قدرة القادر ، فإذا جمع بينهما فقد وحد .

وعين التحمل : إظهار غاية الخصوصية بلسان الانبساط في الدعاء .

والزوائد : زيادات الإيمان بالغيب واليقين .

والإرادات ثلاثة : إرادة الطالب من الله سبحانه وتعالى وذلك موضع الثني ، وإرادة الحظ منه وذلك موضع

الطمع ، وإرادة الله سبحانه وتعالى وذلك موضع الإخلاص ، والمريد : هو الذي صح له لا يتلاءم ودخل في جملة المنقطعين إلى

الله عز وجل بالاسم . والمراد : هو العارف الذي لم يبق له إرادة وقد وصل إلى النهاية وغير الأحوال والمقامات

والهمة ثلاثة : همة منية وهي تحريك القلب للنبي ، وهمة إرادة وهي أول صدق المريد ، وهمة حقيقة القصور عن

ملاحظة ذروة هذا الأمر والجهل ، فإن المراد إد والخطب جد ، والآخرة مقبلة والدنيا مدبرة ، والأجل قريب

والسفر بعيد . والزاد طفيف والخطر عظيم . والطريق سد : وما سوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند الناقد

البصير رد . وسلوك طريق الآخرة مع كثرة الغوائل من غير دليل ولا رفيق متعب ومكد ، فأدلة الطريق هم العلماء

الذين هم ورثة الأنبياء . وقد شغلهم الزمان ولم يبق إلا المترسمون . وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستغواهم

الطغيان . وأصبح كل واحد بما جل حظه مشغولاً فصار يرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً . حتى ظل علم الدين

مندرساً ومنار الهدى في أقطار الأرض منطمساً . ولقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة

على فصل الخصام عند تهاوش الطغمان . أو جدل يتدرج به طالب المباحة إلى الغلبة والإخام . أو جمع مزخرف

يتوسل به الرعاظ إلى استدراج العوام . إذ لم يروا ماسوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام وشبكة للحطام ؛ فأما علم

طريق الآخرة : هو ما درج عليه السلف الصالح وهي جمع الهمم بصفاء الإلهام .

والغربة ثلاثة : غربة عن الاوطان من أجل حقيقة القصد . وغربة عن الأحوال من حقيقة الفرد بالأحوال ،

وغربة عن الحق من حقيقة الدهش عن المعرفة . والاصطلام : نعت وله برد على القلوب بقوة سلطان فيستكنها والمكر ثلاثة : مكر عموم وهو الظاهر في بعض الأحوال ، ومكر خصوص وهو في سائر الأحوال ، ومكر خفي في إظهار الآيات والكرامات .

والرغبة ثلاثة : رغبة النفس في الثواب ، ورغبة القلب في الحقيقة ، ورغبة السر في الحق .

والرهبة : رهبة الغيب لتحقيق أمر السبق .

والوجد : مصادقة القلب بصفاء ذكر كان قد فقده .

والوجود : تمام وجد الواجدين ، وهو أتم الوجد عندهم . وسئل بعضهم عن الوجد والوجود فقال : الوجد ما تطلبه فتجده بكسبك واجتهادك ، والوجود ما تجده من الله الكريم ، والوجد عن غير تمكين ، والوجود مع التمكين والتواجد : استدعاء الوجد والتشبه في تكلفه بالصادقين من أهل الوجد .

القاعدة

وأما القاعدة التي يبنى عليها هذا الفن بأسره فذلك اجتذاب أرواح المعاني ، والإشارة إلى البعد في القرب قصد الاستدلال بالأقوال والأعمال والأحوال على الله تعالى قصدا ذاتيا ، لأعلى ماسلكه أرباب علوم الظاهر ، ثم التصديق بالقوة والنظر إلى الملائكة من كوة ، ومعرفة العلوم في الانصراف ، ومصاحبة القدر بالمساعدة والمعروف ومعاونة الوجودات الخمس : الذاتي والحسي والخيالي والعقلي والشبهى حسبما فهم من الشرع وثبت معناه في المحفوظ من الوحي ، وقبلما أدرك شيء من العجز والعلم لا ينال براحة الجسم ، (ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا) ذلك أمر الله أنزله إليكم (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا) .

والوصية

أيها الطالب للعلوم والناظر في التصانيف والمستشرف على كلام الناس وكتب الحكمة : ليكن نظرك فيما تنظر فيه بالله وفي الله ، لأنه إن لم يكن نظرك به وكلك إلى نفسك أو إلى من جعلت نظرك به أيا كان غيره من فهم أو علم أو حفظ أو إمام متبع أو صحة ميز أو ماشاكل ذلك ، وكذلك إن لم يكن نظرك له فقد صار عليك غيره ونكصت على عقبيك وخسرت في الدارين صفقتك ، وعاد كل هول عليك (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) وكذلك إن لم يكن نظرك فيه فقد أثبت معه غيره ولا حظت بالحقيقة سواء ، ورؤية غيره دونه تعمى القلب وتهتك السر وتجبجج اللب . وإذا نظرت في كلام أحد من الناس ممن قد شهر بعلم فلا تنظره بازدراء كن يستغنى عنه في الظاهر وله إليه كثير حاجة في الباطن ، ولا تنقف به حيث وقف به كلامه ؛ فالمعاني أوسع من العبارات ، والصدور أفسح من الكتب المؤلفات ، وكثير علم مما لم يعبر عنه ، واطمح بنظر قلبك في كلامه إلى غاية ما يحتمل فذلك يعرفك قدره ويفتح باب قصد ولا تقطع له بصحة ولا تحكم عليه بفساد ، وليكن تحسين النظر أغلب عليك فيه حتى يزول الإشكال عنك بماتيقين من معانيه . وإذا رأيت له حسنة وسيئة فأنشرا حسنة واطلب المعاذير للسيئة ، ولا تكن كالذبابة تنزل على أقدر ما تجده ، ولا تعجل على أحد بالتخطئة ولا تبادر بالتجهيل فربما عاد عليك ذلك وأنت لا تشعر ، فلكل عالم عورة وله في بعض ما يأتي به احتجاج . وناهيك ماجرى بين ولي الله تعالى الخضر وكليمه موسى على نينيا وعليهما السلام . وإذا عرض لك من كلام عالم لإشكال يؤذن في الظاهر بمحال أو اختلال ، فخذ ما ظهر لك عليه ودع ما اعتاص عليك فهمه وكل العلم فيه إلى الله عز وجل ، فهذه وصيتي لك فاحفظها وتذكيري إياك فلا تذهل عنه .

اسمع وصيتي إن تحفظ حظيت بها وإن تخالف فقد يردى بك الخلف

وأزيدك زيادة تقتضي التعريف بأصناف العلماء لكي تعرف أهل الحقيقة من غيرهم ، فلك في ذلك أكبر منفعة ولي

في وصفهم أبلغ غرض . قال علماءنا : العلماء ثلاثة : حجة ، وحجاج ، ومحجوج ؛ فالحجة : عالم بالله وبآياته مهتما بالخشية لله سبحانه ، والورع في الدين والزهد في الدنيا والإيثار لله عز وجل المستقيم . والحجاج : مدفوع إلى إقامة الحجة وإطفاء نار البدعة قد أخرج من المتكلمين وألحم المتخربين ، برهانه ساطع ، وبيانه قاطع ، وحفظه ما ينافع شواهد بينة ونجومه نيرة ، قد حمى صراط الله المستقيم : والمحجوج : عالم بالله وبآياته ، ولكنه فقد الخشية لله برويته لنفسه ، وحجبه عن الورع والزهد والرغبة والحرص ؛ وبعده من بركات علمه محبة العلو والشرف ، وخوف السقوط والفقر ، فهو عبد لعبيد الدنيا ، خادم لخدمها ، مفتون بعلومها ، مغتر بعد معرفته ، مخذول بعد نصرته شأنه الاحتقار لنعم الله ، والازدراء لأولياته ، والاستخفاف بالجهال من عباده ، ونخره ببقاء أميره وصلة سلطانه ، وطاعة القاضي والوزير والحاجب له قد أهلك نفسه حين لم ينتفع بعلمه والاتباع له ومن يكون بعده قدوة به ومراده من الدنيا مثله ، في مثل هذا ضرب الله المثل حين قال (وأتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فثله كثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) فويل لمن صحب مثل هذا في دنياه ، وويل لمن تبعه في دينه ، وهذا هو الذي أكل بدينه غير منصف لله سبحانه في نفسه ولا ناصح له في عباده ، تراه إن أعطى من الدنيا رضى بالمدة لمن أعطاه ، وإن منع رش بالدم لمن منعه ، وقد نسى من قسم الأرزاق وقدر الأقدار وأجرى الأسباب وفرغ من الخلق كلهم ، فنعوذ بالله من الحور بعد الكور ، ومن الضلالة بعد الهدى . وإيما زدتك هذه الزيادة وإن ظهر لكثير أنها ليست من الغرض الذي نحن فيه فقصدي أن يعلم من ذهب من الناس ومن يبق ، ومن أبصر الحقائق ومن عمى ، ومن اهتدى على الصراط المستقيم ومن غوى فليعلم أن الصنفين الأولين من العلماء قد ذهبوا وإن كان بقي منهم أحد فهو غير محسوس للناس ولا يدرك بالملاحظة

غاب الذين إذا ما حدثوا صدقوا وظنهم كيقين إن هو حدسوا

وذلك لما سبق في القضاء من ظهور الفساد وعدم أهل الصلاح والرشاد ، نعم وعدم الصنف الثالث على غربته وأعر شيء على وجه الأرض ؛ وفي الغالب ما يقع عليه في الحقيقة اسم علم عند شخص مشهور به ، وإنما الوجود اليوم أهل سخافة ودعوى وحماقة واجترأ وعجب بغير فضيلة ورياء ؛ يحبون أن يمدحوا بما لم يفعلوا ، وهم أكثر من عمر الأرض وصيروا أنفسهم أوتاد البلاد وأرسان العوام ؛ وهم خلفاء إبليس وأعداء الحقائق ؛ وأخذان لعوائد السوء وعنهم يرد عتب الحكم الشائعة وانتقاض أهل الإرادة والدين :

مثل الهائم جهال بخالفهم لهم تصاور لم يعرف لمن حجا

كل يروم على مقدار حيلته زوائر الأسد والنباحه اللهنا

فاحذرهم قاتلهم الله أنى يوفكون ؛ اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم النافلون ؛

أولو النفاق فإن قلت اصدقوا كذبوا من السفاه وإن قلت اكذبوا صدقوا

ولناخذ في جواب ما سألت عنه على نحو ما رغبت فيه ، وأستوهب الله نفوذ البصيرة وحسن السريرة وغفران الجريرة ؛ وهو ربى ورب كل شيء وإليه المصير

ابتداء الأجوبة عن مراسم الأسئلة

جرى الرسم في الإحياء بتقسيم التوحيد على أربع مراتب تشبيها لموافقة الغرض في التمثيل به وذكر أن المعارض وسوس أو بالخواطر يحس بأن لفظ التوحيد ينافي التقسيم إذ لا يخلو بأن يتعلق بوصف الواحد الذي ليس برأى عليه فذلك لا ينقسم لا بالجنس ولا بالفصل ولا بغير ذلك . ولما أن يتعلق بوصف المكلفين الذين توجب لهم حكمه إذا وجد فيهم ؛ فذلك أيضاً لا ينقسم من حيث انتسابهم إليه بالعقل ؛ وذلك لضيق المجال فيه ؛ ولهذا

لا يتصور فيه مذاهب، وإنما التوحيد مسلك حق بين مسلكين باطلين : أحدهما الشرك ، والثاني الإلbas ، وكلا الطرفين كفر ؛ والوسط إيمان محض ، وهو أحد من السيف وأضيق من خط الظل ، ولهذا قال أكثر المتكلمين بتأثيل إيمان جميع المؤمنين والملائكة والنبين والمرسلين وسائر عموم المرسلين ؛ وإنما تختلف طرق إيمانهم التي هي علومهم . ومذهبهم في ذلك معروف ، ونحن لا نلم في هذه الإجابة كلها بشيء من أنحاء الجدل ومقابلة الأقوال بالأقوال ، بل بقصد إزالة غير الاشكال ورد ما طعن به أهل الضلال والاضلال .

واعلم أن التقسيم على الإطلاق يستعمل على أحما يتوجه ههنا بشيء قدح به المعارض أو يحس به الخاطر ، وإنما المستعمل ههنا من أنحاء ما تتميز به بعض الأشخاص بما اختصت به من الأحوال ، وكل حالة منها تسمى توحيداً على جهة تفرد بها لا يشاركها فيها غيرها ، فن وجد التوحيد بلسانه يسمى لأجله موحداً ما دام يظن أن قلبه موافق للسانه ، وإن علم منه خلاف ذلك سلب عنه الاسم وأقيم عليه ما شرع في الحكم ، ومن وجد بقلبه على طريق الركون إليه والميل إلى اعتقاده والسكون نحوه بلا علم يصحبه فيه ولا برهان يربط به سمي أيضاً موحداً ، على معنى أنه يعتقد التوحيد كما يسمى من يعتقد مذهب الشافعي شافعيًا والحنبلي حنبلياً ، ومن رزق علم التوحيد وما يتحقق به عنده وسعى من أجله بشكوكه العارضة له فيسمى موحداً لأنه عارف به ، يقال جدلي ونحوي وفقهه ، ومعناه يعرف الجدل والفقه والنحو ، وأما من استغرق علم التوحيد قلبه ، واستولى على جملته حتى لا يجد فيه فضلاً لغيره إلا على طريق التبعية له ، ويكون شهود التوحيد لكل ما عداه سابقاً له مع الذكر والفكر مصاحباً من غير أن يعتريه ذهول ولا نسيان له لأجل اشتغاله بغيره كالعادة في سائر العلوم ؛ فهذا يسمى موحداً ويكون القصد بالاسم من ذلك المبالغة فيه . فأما الصنف الأول وهم أرباب النطق المنفرد فلا يضربون في التوحيد بسهم ولا يفوزون منه بنصيب ولا يكون لهم شيء من أحكام أهله في الحياة ، إلا مادام الظن بهم أن قلب أحدهم موافق للسانه ، كما نفرد القول عليه بعد هذا إن شاء الله عز وجل .

وأما الصنف الثاني وهم أرباب الاعتقاد الذين سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم أو الوارث أو المبلغ يخبر عن توحيد الله عز وجل أو يأمر به ويلزم البشر قول لا إله إلا الله المنبئ عنه ، فقبلوا ذلك واعتقدوه على الجملة من غير تفصيل ولا دليل ، فنسبوا إلى التوحيد وكأوا من أهله بمنزلة مولى القوم الذي هو منهم ، وبمنزلة من كثير سواد قوم فهو منهم .

وأما الصنف الثالث والرابع فهم أرباب البصائر السليمة الذين نظروا بها إلى أنفسهم ثم إلى سائر أنواع المخلوقات فتأملوها فأروا على كل منها خطاً منطبعا فيها ليس بعربي ولا سرياني ولا عبراني ولا غير ذلك من أجناس الخطوط ، فبادر إلى قراءة من لم يستعجم عليه وتعلمه منهم من استعجم عليه ، فإذا هو الحظ الالهي المكتوب على صفحة كل مخلوق المنطبع فيه من مركب ومفرد وصفة وموصوف وحى وجماد وناطق وصامت ومتحرك وساكن ومظلم ونير ، وهو الذي يسمى نارة بعلامة ونارة بسمة ونارة بأثر القدرة ونارة بآية ، كما قال الشاعر ، ولا أدري عن سماع أو رؤية قلب :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فلو قرءوا ذلك الخط وجدوا تفسير ذلك المكتوب عليه وشرحه أبدية مالكة والتصريف له بالقدرة على حكم الإرادة بما سبق في ثابت العلم من غير مزيد ولا قصير ؛ فتركوا الكتابة والمكتوب وترقوا إلى معرفة الكاتب الذي أحدث الأشياء وكونها ولا يخرج عن ملكه شيء منها ، ولا استغنت بأنفسها عن حوله وقوته ، ولا انتقلت إلى الحرية عن رقي استعباده ، فوجدوه كما وصف نفسه (ليس كمثل شيء وهو السميع البصير) فخلصت لهم التفرقة والجمع وعقلت نفس كل واحد منهم توحيد خالقها بإذنه وإيجاده عن غيره ، وعقلت أنها عقلت توحيد فسيحان من يسرها لذلك وفتح عليها بما ليس في وسعها أن تدركه إلا به وهو اللطيف الخبير ، لكن الصنف الثالث لم يقصر كل منهم أن

يعرف نفسه موجودا لديه فيما لا يزال وهم المقربون ، والصنف الرابع لم يقصر كل واحد منهم أن عرف ربه موجودا لنفسه فيما لم يزل وهم الصديقون ، وبينهما تفاوت كثير .

وأما طريق معرفة صحة هذا التقسيم فلأن العقلاء بأسرهم لا يخلو كل واحد منهم أن يوجد أثر التوحيد بأحد الانحاء المذكورة عنده ؛ فأما من عدت عنده فهو كافر إن كان في زمن الدعوة أو على قرب يمكن وصول علمها إليه أو في فترة يتوجه عليه فيها التكليف ، وهذا صنف مبعث عن مقام هذا الكلام . وأما من يوجد عنده فلا يخلو أن يكون مقلدا في عقده أو عالما به ، والمقلدون هم العوام وهم أهل المرتبة الثانية في الكتاب ؛ فأما العلماء بحقيقة عقدهم فلا يخلو كل واحد أن يكون بلغ الغاية التي أعدت لصنفه دون النبوة ، أو لم يبلغ ولكنه قريب من البالغ ، فالذي لم يبلغ وكان على قرب هم المقربون وهم أهل المرتبة الثالثة ، والذين بلغوا الغاية التي أعدت لهم وهم الصديقون وهم أهل المرتبة الرابعة ، وهذا التقسيم ظاهر الصحة ، إذ هو دائر بين النقيضين والإثبات ، ومحصور بين المبادئ والغايات ، ولم يدخل أهل المرتبة الأولى في شيء من تصحيح هذا التقسيم ، إذ ليس هم من أهله إلا بانتساب كاذب ودعوى غير صافية ، ثم لابد من الوفاء بما وعدناك به من إبداء بحث وزياد شرح وبسط بيان تعرف منه بإذن الله حقيقة كل سربة ومقام وانقسام أهله فيه بحسب الطاقة والإمكان بما يجرى به الواحد الحق على القلب واللسان .

بيان مقام أهل النطق المجرد وتمييز فرقهم

فأقول : أرباب النطق المجرد أربعة أصناف : أحدهم نطقوا بكلمة التوحيد مع شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم لم يعتقدوا معنى ما نطقوا به لما لم يعلموه لا يتصورون صحته ولا فساد ولا صدقه ولا كذبه ولا خطأ ولا صوابه ، إذ لم يبحثوا عليه ولا أرادوا فهمه إما لبعدهم همته وقلة اكتراثهم ، وإما لنفورهم من التعب وخوفهم أن يكلفوا البحث عما نطقوا به أو يبدو لهم ما يلزمهم من الاعتقاد والعمل ، وما بعد ذلك ، فإن التزموا ما فرقوا راحت أبدانهم العاجلة وفراغ أنفسهم ، وإن لم يلتزموا شيئا من ذلك وقد حصل لهم العلم فتكون عيشتهم منفعة وملاذم مكدره من خوف عقاب ترك ما علموا لزومه ، ومثل هؤلاء مثل من يريد قراءة الطب أو يعرض عليه ولكنه يمنع عنه مخافة أن يتطلع منه على ما يغير عنه بعض ملاذه من الأطعمة والأشربة والانكحة أو كثير منها ، فيحتاج إلى أن يتركها أو يتركها على رقبته وخوف أن يصيبه صورة ما يعلم ضرورة منها فيدع قراءة الطب رأسا . سئل هذا الصنف عن معنى ما نطقوا به وهل اعتقدوه فيقولون : لا نعلم فيه ما يعتقد ، ومادعانا النطق إلا مساعدة الجماهير وانخراطا بآظهار القول في الجمل الغفير ولا نعرف هل ما قلناه بالحقيقة من قبل العرف والتكبر ولا شك أن هذا الصنف الذي أخبر صلى الله عليه وسلم عن حاله بمسألة الملوكين أحدهم في القبر ، إذ يقولون : من ربك ومن نبيك وماديتك ؟ فيقول لا أدري سمعت الناس يقولون قولا فقلته فيقولون له لا دريت ولا تليت ، وسماء النبي صلى الله عليه وسلم الشاك والمرتاب . والصنف الثاني نطقوا كما نطق الذين من قبلهم ولكنهم أضافوا إلى قولهم ما لا يحصل معه الإيمان ولا ينتظم به معنى التوحيد ، وذلك مثل ما قالت السبائية طائفة من الشيعة القدماء - إن عليا هو الإله وبلغ أمرهم عليا رضى الله عنه ، وكانوا في زمنه ، لحرق منهم جماعة ، وأمثال من نطق بالشهادتين كثير ثم أصحاب لطفة مثل هذا التكبر ويسمون الزنادقة ، وقد رأينا حديثا عنه صلى الله عليه وسلم في ذلك : ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في الجنة إلا الزنادقة . . والصنف الثالث : نطقوا كما نطق الصنفان المذكوران قبلهم ولكنهم آثروا التكذيب واعتقدوا الرد ، واستبطوا خلاف ما ظهر منهم من الإقرار ، وإذا رجعوا إلى أهل الإلحاد أعلنوا عندهم بكلمة الكفر ؛ فهؤلاء المنافقون الذين ذكرهم الله في كتابه بقوله : (وإذا لقوا الذين قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون) . الصنف الرابع قوم لم يعرفوا التوحيد وما لثأ وأعليه ، ولا عرفوا أهله ، ولا سكنوا بين أظهرهم ولكنهم حين وصلوا إلينا أو وصل إليهم أحد منا خروا بطوا بالأمر المقتضى للنطق بالشهادتين والإقرار بهما ، فقالوا : لا نعلم

مقتضى هذا اللفظ ولا نعقل معنى الأمور به من النطق ، فأمرنا أن يظهرنا الرضا ويفهموا بلامهلة ، فسكنوا إلى ما قبل لهم وانطقوا بالشهادتين ظاهرا وهم على الجهل بما يعتقدون فيها ، فاخترم أحدهم من حينه من قبل أن يأتي منه استفهام أو تصور يمكن أن تكون له معه معتقد فيرجى أن لا تضيق عنه سعة رحمة الله عز وجل ، والحكم عليه بالنار والخلود فيها مع الكفار تحكم على غيب الله سبحانه ، وربما كان من هذا الصنف في الحكم عند الله عز وجل قوم رزقوا بعد الفهم وغيب الذهن وفرط البلادة أن يدعو إلى هذا النطق فيجيبوا مساعدة ومحاذاة ثم يدعون إلى تفهم المعنى بكل وجه فلا يتأق منهم قبول لما يعرض عليهم تفهمه كأنما تخاطب بهيمة ، ومثل هذا أيضا في الوجود كثير ولا أحكم على أحد مثله بخلود في النار ، ولا بعد أن هذا الصنف بأسره أعنى المخترم قبل تحصيل العقد مع هذا البليد البعيد بعض ما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة الذين أخرجهم الله عز وجل من النار بشفاعته حين يقول تعالى : فرغت شفاعة الملائكة والتبيين وبقيت شفاعتي وهو أرحم الراحمين ، فيخرج من النار أقواما لم يعملوا حسنة قط ويدخلون الجنة ويكون في أعناقهم سمات ويسمون عتقاء الله عز وجل ، والحديث يطول وهو صحيح ، وإنما اختصرت منه قدر الحاجة على المعنى وحكم الصنف الأول والثاني والثالث أجمعين أن لا يجب لهم حرمة ولا يكون لهم عصمة ولا ينسبون إلى إيمان ولا لإسلام ، بل هم أجمعون من زمرة الكافرين وجملة الهالكين ، فإن عثر عليهم في الدنيا قتلوا فيها بسيف الموحدين ، وإن لم يعثر عليهم فهم صائرون إلى جهنم خالدون تفلح وجوههم النار وهم فيها كالحون .

(فصل) ولما كان اللفظ المذني عن التوحيد إذا انفرد عن العقد وتجرد عنه لم يقع به في حكم الشرع منفعة ولا لصاحبه بسببه نجاة إلا مدة حياته عن السيف أن يراق دمه ، واليد أن تسلط على ماله إذا لم يعلم خفي حاله حسن فيه أن يشبه بقشر الجوز الأعلى فهو لا يحتمل ولا يرفع في البيوت ولا يحضر في المجالس أى مجالس الطعام ، ولا تقتنيه النفوس إلا مادام منظوياً على مطعمه صوتاً على لبه ، فإذا أزيل عنه بكسر أو علم منه أنه منظو على فراغ أو سوس أو طعمه فاسد لا يصلح لشيء ولم يبق فيه غرض لحدوده لا خفاء في صحته ، والغرض بالتمثيل تقرب ما غمض إلى نفس الطالب وتسهيل ما اعتاص على المتعلم والسامع فهمه ، وليس من شرط المثال أن يطابق الممثل به من كل وجه ، فكان يكون هو ولكن من شرطه أن يكون مطابقاً للواحد المراد منه .

(فصل) فإن قلت فما الذى صد هؤلاء الأصناف الثلاثة من أهل النطق عن النظر والبحث حتى تعلموا ، أو عن الاعتقاد حتى تخلصوا من عذاب الله وهم في الظاهر قادرون على ذلك ؟ وما المانع الحفي الذى منعهم وأبعدهم عنه وهم يعلمون أن ما عليهم كبير مؤنة ولا عظيم نفقة ؟ فاعلم أن هذا السؤال يفتح باباً عظيماً وبهز قاعدة كبيرة يخاف من التوغل فيها أن يخرج من المقصد . ولكن لا بد إذا وقع : الاستماع ووعته قلوب الطالبين واشتاقات إلى سماع الجواب عنه أن نورد في ذلك قدر ما يقع به من الكفاية وتفتح به النفس بحول الله وقوته . نعم ما سبق في العلم القديم لا تجرى بخلافه المقادير . من ذلك فهم بإرادة الله عز وجل جاء اختصاص قلوبهم بالأخلاق الكلابية والشيم الذنابية والطباع السبعية وغلبتها عليهم . والملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب . كذلك قال عليه الصلاة والسلام . والقلوب بيوت تولى الله بناء ما بيده وأعد ما لأن تكون خزائن علمه ومشارق مكنوناته ومهبط ملائكته ومغاشى أنواره ومهاب نفحاته ومجال مكاشفاته ومجارى رحمته وهباً لتحصيل المعرفة به ففى كان فيها شيء من تلك الأخلاق المذمومة لم يدخلها الملائكة ولم ينزل عليها شيء من الخير من قبله . إذ هى الوسائط بين الله تعالى وبين خلقه وهم الوفود منه بالخيرات والموصولون إليه وعنه بالباقيات الصالحات . ولولا تلك الأخلاق المذمومة التى حلت فيهم وهى التى ذم الكلب لأجلها لما احترمت الملائكة بإذن الله عن حلولها فيها وهى لا تخلو من خير تنزل به ويكون معها خيئاً حلت حل الخير في ذلك القلب بحولها وإنما هى لها لحيئاً وجدت قلباً خالياً ولو حيناً من الدهر وزمناً نزلت عليه ودخلته وثبتت ما عندها من الخير عنده . فإن لم يظهر على الملائكة ما أزعجها عنه من تلك الأخلاق المذمومة بواسطة الشياطين الذين هم في مقابلة الملائكة ثبتت عنده وسكنت فيه ولم تبرح عنه وعمرته بقدر سعة البيت والشراحه من الخير . فإن كان البيت كثير الاتساع

أكثرت فيه من متاعها واستعانت بغيرها حتى يمتلئ البيت من متاعها وجهازها وهو الإيمان بالله والصالح وضروب المعارف النافعة عند الله عز وجل ، فإذا طرقت ذلك البيت طارق شيطان ليسرق من ذلك الخير الذي هو متاع الملك ويثبت فيه خلقا مذموما لا يوجد إلا في الملك وهو متاع الشيطان قاتله الله وطرده عن ذلك المحل ، فإن جاء للشيطان مدد من الهوى من قبل النفس ولم يجد الملك نصره وهو عزم اليقين من قبل الروح ، انهزم الملك وأخل البيت ونهب المتاع وخرب البيت بعد عمارته وأظلم بعد نوره وضاق بعد انشراحه ، وهكذا حال من آمن وكفر، وأطاع وعصى ؛ وضل واهتدى .

فإن قلت : فيزلي أصناف هذه الأخلاق المذمومة التي صدت هؤلاء الأصناف المذكورين عن اعتقاد الإيمان ونفرت الملائكة عن النزول إلى قلوبهم بكشف معاني التوحيد ومنعهم من الحلول فيها حتى لم ينالوا شيئا من الخيرات السالكين معها . فاعلم أن الأخلاق التي لا يجتمع معها الملائكة في قلب واحد كثيرة والتي في قلوب هؤلاء منها معظمها وهي الطمع في غير خطير والحرص على فان حقير . وأما الصنف الأول فإنهم رجعوا وخافوا أن تبدولهم صحة ما يشغلهم عن لذاتهم وينغص عليهم ما رغوا فيه من راحتهم وتكدر لديهم منال شهواتهم فأبقوا أمرهم على ما هم عليه . وأما الصنف الثاني والثالث فصددهم أيضا خوف وجزع وحرص على ما القوه من تبجيل أحدهم أن يزول وموانسة أشياءهم أن تتغير وتذهب ومواساة إيلافهم أن تنقطع واستئقالا لما يشاهدونه من أهل الإيمان أن يلتزموه وفرار آمن شرائطه وما يصحبه من الاعمال والوظائف إذ يمتثلوه والسكب ماذم لصورته وإنما ذم بهذه الأخلاق التي هي الطمع في الحسائل والجزع من الصبر على ما يعده من الفضائل حتى احترمت الملائكة أن تدخل بيتا فيه كلب .

فإن قلت : فكيف آمن من كفر وأطاع من عصى واهتدى من ضل إذا كانت الشياطين لا تفارق قلب الكافر والعاصي والضال بما تشبهون من الأخلاق المذمومة التي هي كلاب نابجة وذئاب عادية وسباع ضارية ؟ وأصناف الخير إنما ترد من الله عز وجل بواسطة الملائكة وهي لا تدخل موضعا يحل فيه شيء مما ذكرنا وإذا لم تدخل لم يصل إلى الخير الذي يكون معها ولم تصل إليه فعلى هذا يجب أن يبقى كل كافر على حاله ومن لم يخلق مؤمنا معصوما فلا سبيل له إلى الإيمان على هذا المفهوم . فاعلم أن هذا يستدعي أصنافا من علم القلوب ولا سبيل إلى ذلك في مثل هذا المقام المعلوم والقول والمعنى في جواب ما سألت عنه : أن للشيطان غفلات والأخلاق المذمومة عدمات كما أن الملائكة لها عن القلوب غيبات ولتواتر الخير عليها فترات فإذا وجد الملك كما أعلمتك قلبا خاليا ولوز منافر ودخل فيه وأراه ما عنده من الخير فإن صادف منه قبولا ولما عرض عليه من الخير تشوقا وزروعا أورد عليه ما يملأ ويستغرق لبه وإن صادف منه صحوا وسمع منه بجنود الشياطين استغاثة بالأخلاق الكلابية استعانة رحل عنه وتركه ولهذا قيل : ما خلا لب عن لمة ملك أو نزعة شيطان .

فإن قلت : فأى بيت فهم عن النبي صلى الله عليه وسلم في الخطاب ، وأى كلب أذهل بيت القلب كلب الخلق أوديت اللبن وكتب الحيوان ؟ فاعلم أن الحديث خارج على سبب ، ومعناه وجملته : أن المقصود بالإخبار هو بيت اللبن ، وكتب الحيوان معلوم ولا يبتك في ذلك ، ولكن يستقرأ منه ما قلناه ويستنبط من مفهومه ما نهناك عليه ويتخطى منه إلى ما أشرنا لك نحوه ، ولا تنكر في ذلك إذا دل عليه العلم وجملة الاستنباط ، ولم تمجه القلوب المستضائة ، ولم تصادمه شيئا من أركان الشريعة ؛ فلا تكن جاحدا ولا تنزع من تشنيع جاهل ولا من نفور مقلد كثير أمارد شرع مقرون بسبب فرأى أهل الاعتبار وجه تعديه عن سببه إلى مافي معناه ومشابه له من الجهة التي تصلح أن يعيدها إليه ، ولولا ذلك لما قال النبي صلى الله عليه وسلم : رب مبلغ أوعى من سامع وحامل فقه إلى من هو أفقه منه .

فإن قلت : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة ، وعلم السبب الذي جاء هذا الحديث عليه وفيه ، فهل يعدى عن سببه ويرقى منه إلى مثل ما ترقى من الحديث الآخر ؟ فهذا كما قيل : الحديث شجون وأتبعنا هذا الباب ما يقرب منه ويبعد علينا التخلص عنه ، نعم يترقى منه إلى قريب من ذلك وشبهه ، ويكون

هذا الحديث منبهاً عليه ، وهو أن الصورة المنحوتة قد اتخذت ألهة وعبدت من دون الله عز وجل ، وقد نبه الله عز وجل قلوب المؤمنين على عيب فعل من رضى بذلك ، ونقص إدراك من دان به حين قال نخبراعن إبراهيم عليه السلام حيث قال (أتعبدون ما تتحتون * والله خلقكم وما تعملون) فكان امتناع الملائكة من دخول بيت فيه صورة لأجل أن فيه ماعبد من دون الله سبحانه ، أو ما حكى به ما هو على مثاله ، ويرتقى من ذلك المعنى إلى أن القلب الذى هو بيت بناء الله ليسكون مهبطاً للملائكة ومحلاً للذكرى ومعرفة عبادته وحده دون غيره ؛ فإذا حل فيه معبود غير الله سبحانه وهو الهوى لم تقر به الملائكة أيضاً . فإن قيل : فظاهر الحديث يقتضى منافرة الملائكة لكل صورة عموماً وما ذكرته تعليلاً ينبغى أن لا يقتضى إلا منافرة ماعبد أو ما نحت على مثاله ؟ قلنا : تشابهت الصور المنحوتة كلها فى المعنى الذى قصد بها التصوير لأجله وهو مضارعة ذى الأرواح ، وما نحت للعبادة إنما قصد به تشبيه ذى روح ؛ فلما كان هذا المعنى الجامع لها وجب تحريم كل صورة منافرة للملائكة .

* فإن قيل : فما وجه الترخيص فيما رقم فى ثوب ؟ فذلك لأنها ليست مقصودة فى نفسها ؛ وإنما المقصود الثوب الذى رقت فيه .

* فإن قيل : قال بال الثياب رخص فى محاسنها بالتصوير وذات أنواط فى العرب مشهورة معلومة ؟ فاعلم أن ذات أنواط إنما كانت شجرة فى أيام العرب الجمالية تعلق عليها يوماً فى السنة فاخر ثيابها وحلى نسائها لأجل اجتماعها عندها وراحتها فى ذلك اليوم ؛ ولم يكونوا يقصدونها بالعبادة لما كانت بغير صفة التماثيل المنحوتة والأصنام ، ولو كان ذلك ما سأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم ذات أنواط حتى أنكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك عليهم ولو عبدت فقد عبد كثير من خلق الله تعالى كالملائكة والشمس والقمر وبعض النجوم والمسيح عليه السلام وعلى رضى الله عنه ، ولم يبدوا ما نحت على شكل النبات ، فلم تعبد من هذه إلا ذات روح فما أبعد عن دركها من حرمه الله تعالى إياها ، فله الحمد وهو أهله .

بيان أصناف أهل الاعتقاد المجرد

وأما أهل الاعتقاد المجرد عن تحصينه بالعلم وتوثيقه بالأدلة وشده بالبراهين ، فقد اتسموا فى الوجود إلى ثلاثة أصناف :

أحدهم صنف اعتقدوا مضمون ما أقروا به وحشوا به قلوبهم من غير تردد ولا تكذيب أسروه فى أنفسهم ، ولكنهم غير عارفين بالاستدلال على ما اعتقدوا ، وذلك لفرط بعدهم وغلظ طبائعهم واعتياص طرق ذلك عليهم ، ويقع عليهم اسم الموحدين ، وتحققنا وجود أمثالهم كثيراً على عهد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم والسلف الصالحين رضى الله عنهم ، ثم لم يبلغنا أنه اعترض أحد لإسلامهم ولا أوجب عليهم الخروج منه والمعروف عنه . ولا كلفوا مع قصور فهمهم وبعدمهم عن فهم ذلك بعلم الدلالة وقراءة ترك البراهين وترتيب الحجاج ، بل تركوا على ما هم عليه ، وهؤلاء عندى معذرون بعدمهم مقبولون بما توافوا عليه من إقرارهم وعقدهم ، والله سبحانه قد عذرهم مع غيرهم بقوله سبحانه (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) لا يخرجون عن مقتضى هذه الآيات بحال ، وسنبدى لك بطريقا من الاعتبار تعرف به صحة إسلامهم وسلامة توحيدهم إن شاء الله عز وجل .

والصنف الثانى : اعتقدوا الحق مع ما ظهر منهم من النطق واعتقدت مع ذلك أنواعاً من الخيائل قام فى مخيلتها أنها أدلة وطائفة براهين وليست كذلك ، وقد وقع فى هذا كثير ممن يشار إليه فضلاً عن دونهم ، فإن وقع إلى هذا الصنف من يزعم عليهم تلك الخيائل بالقدرح ويطلقها عليهم بالمعارضة أو الاعتراض لم يلتفتوا إليه ولا أصغوا لما يأتى به ويرفعوا إلى أن يجاوبوه لما يحملهم عليه من سوء الفهم أو رداة الاعتقاد وعندهم أن جميع تلك الخيائل فى باب الاستدلال أرسخ من شواخ الجبال ، فمنهم من يعتقده دليلاً مذهب شيخه الرفيع القدر المطلع على العلوم ، ومنهم من

يكون دليله خبراً له ، ومنهم من يكون دليله بعض محتملات آية أو حديث صحيح ، ولعمري إنهم ينبغي إذا صادفوا السنة باعتقادهم ولم يقعوا في شيء من الضلال أن يتركوا على ما هم عليه ولا يجرؤوا بأمر آخر ، بل يصدقوا بذلك ويسلم لهم ثلاثا يكون إذا تتبع الحال معهم ربما لقنوا شبهة أو ترسخ في نفوسهم بدعة بعسرا انحلالها أو يقعوا في تكفير مسلم وتضليله ، بل هناك أسباب كثيرة .

واعلم أن اعتقاد الخلائق وعلوها من أغذية النفوس ؛ فمن رغب في أكملها لم يقنع بدونها ، وإذا حصل له ذلك قوى به ، ومن قنع بأيسرها ولم تطمح همته إلى ما هو أعلى من ذلك ضعف ، ولكنه يعيش عيش الطفيف ، وإنما يهلك من لا باخة له ولا يجدها ، أو يجدها ولكنها تكون مشابة بمن جاء بمضرة بدعة وسعوم كفر ، فلا تذهل عما يشار لك إليه ، وإنما المرغوب تديبك والله المستعان ، وقلنا بين الصنف الثاني والأول كل التفاوت ، من حيث إن أوائلهم مقلدون فيما يعتقدونه دليلاً ، غير أنهم أوثق رباطاً من الأولين ، لأن أوائلهم إن وقع إليهم من شككهم وربما شكوا وانحل رباط عقدهم ، وهؤلاء في الأغلب لا سبيل إلى انحلال عقودهم إذ لا يرون أنفسهم أنهم مقلدون ، وإنما يظنون أنهم مستدلون عارفون ، فلهذا كانوا أحسن حالا .

والصنف الثالث : أقروا واعتقدوا كما فعل الذين من قبلهم ، وقدموا النظر أيضاً ، ولكنهم لعدم سلوكهم سبيله مع القدرة عليه ومعهم من الذكاء والفطنة واليقظ ما لو نظروا لعلوا ، ولو استدلوا بالتحققوا ، ولو طلبوا الأدركوا سبيل المعارف ووصلوا ، ولكنهم آثروا الراحة وما لو إلى الدعة ، واستبعدوا طريق العلم ، واستثقلوا الأعمال الموصلة إليه ، وقنعوا بالقيود في حضيض الجهل ، وهؤلاء فيهم إشكال عند كثير من الناس في البداية ، ويتردد في حالهم النظر وهل يسمون عصاة أو غير ذلك يحتاج إلى تمهيد آخر ليس هذا مقامه ، والالتفات إلى هذا الصنف أوجب خلاف المتكلمين في العوام على الإطلاق من غير تفريق بين بليد ومتيقظ وفطن ، فمنهم من لم ير أنهم مؤمنون ، ولكن لم يحفظ عنهم أنهم أطلقوا اسم الكفر عليهم ، ولعلك تقول : إن مذهبهم المشهور أن المحل لا يخلو عن الصفات إلا إلى ضدها ، فمن لم يحكم له بالإيمان حكم عليه بالكفر ، كما أن من لم يحكم له بالحركة حكم عليه بالسكون ، وكذلك الحياة والموت ، والعلم والجهل ، وسائر ما له من الصفات . قلنا : فلنصح ذلك في الصفات التي هي أعراض فقد لا يصح في الأوصاف التي هي أحكام الإيمان والكفر ، والهداية والضلال ، والبدعة والسنة ، ربما كانت ليست من قبيل الأعراض . وإنما ذكرت لك هذا في معرض الشك في شعوب ما نورد على ذلك ، ومنهم من أوجب لهم الإيمان ولكن أوجب لهم المعرفة وقدرها لهم وعجزهم عن العبادة ووجوب العبادة في الشرع جار على هذا النحو ، وهؤلاء لم يخالفوا المذكورين قبلهم ؛ لأن أوائلهم سلبوا الإيمان عن لم يصدر اعتقاده عن دليل ، وهؤلاء أوجبوا الإيمان لمن أضافوا المعرفة المشروطة في صحة الإيمان ، وإنما فروا عن الشناعة الظاهرة فشذوا عن الجمهور بهذا الاحتيال ، وزادوا على أنفسهم أنهم ألما بقول من جعل المعارف كلها ضرورية ، ولم يشعروا بذلك حين قالوا : إنما عجزت العامة عن سرد الدليل وتعظم العبارة عنه ، وأنه لا تجب عليهم لأنهم إذا نبهوا وعرض عليهم ما قرب من الالفاظ واعتادوا من المخاطبات دلائل الحدوث ووجوه الافتقار إلى المحدث بعد الاعتقاد وعددوا من هذه المعارف كثيراً ووجدوا أنفسهم عارفين بذلك . واعلم أن من يقول إن المعارف كلها ضرورية هكذا يقول إنما افتقر الناس إلى النسبية ولم يثمنوا على العبارة على مواضع العلوم ، وإلا فهم إذا نبهوا عليها وتلطف بهم في تفهيمها بالزوال إلى ما ألفوه من العبارات وجدوا أنفسهم غير منكرة لما نبهوا عليه وسارعوا إلى الغيبة ، ومثال هذا كمن لى شيئاً كان معه أو إنساناً أصبح أوراؤه فذنيه وغفل عنه لأجل غيبته ثم رآه بعد ذلك فذكر ، فإنه يقال بدا لأنه كان عارفاً بما غاب عنه ، ولولا عرفانه به ما وجد عدم الإنكار وسرعة الألفة عنه ، وطائفة من المتكلمين أيضاً أوجب لهم الإيمان مع عدم المعرفة المشروطة عند أوائلهم ، وأى الآراء أحق بالحق وأولى بالصواب ليس من غرضنا في هذا الموضع ، وإنما غرضنا تبعيد ما أشاعه في الإحياء أهل الغلول والاخلال فلا يفتح مثل هذا الباب وقد أبدينا من وجه ذلك في مراق الزائف ما ينفي فيها بإذن الله عن وجل .

فصل في بيان أصناف أهل الاعتقاد

تفصيل آخر من جهة أخرى هو من تنمة ماجرى ، فلتعلم أن مامنهم صنف إلا وله على التقريب ثلاثة أحوال : لا يستبد أحدهم من أحدها بحكم الاعتقاد الضروري ، فأصفي الحالات لهم أن يعتقد أحدهم جميع أركان الإيمان على ما يكمل عليه في الغالب ، ولكنه على طريق التفاوت كما سبق ، الحالة الثانية : أن لا يعتقدوا إلا بعض الأركان بما فيه خلاف إذا نفر ولم تنصف إليه في اعتقاده سواء هل يكون مؤمنا أو مسلما أن يعتقد وجود الواحد فقط ، أو يعتقد أنه موجود حتى لا غير ، وأمثال هذه التقديرات ، ويخلو عن اعتقاد باقي الصفات خلوا كاملا لا يخطر بباله ولا يعتقد فيها حق ولا باطلا ولا صوابا ولا خطأ ، ولكن التقدير الذي يعتقده من الأركان الثلاثة موافق للحق غير منسوب لغيره . والحالة الثالثة أن يعتقد الوجود كما قلنا والوحدانية والحياة ، ويكون فيما يعتقد في باقي الصفات على ما لا يوافق الحق ما هو عليه بما هو بدعة وضلالة وليس بكفر صريح ، فالذي يدل عليه العلم ويستتبط من ظواهر الشرع أن أرباب الحالة الأولى والله أعلم على سبيل نجاة ومسلك خلاص ووصف إيمان أو إسلام ، وسواء في ذلك الصنف الأول والثاني من أهل الاعتقاد ، ويبقى الصنف الثالث على محتملات النظر كما نهناك عليه ، وأما أهل الحالة الثانية وهي الاختصار على الوجود المفرد أو الوجود ووصف آخر معه مع الخلو عن اعتقاد سائر الصفات التي للكمال والجلال وأركانها فالتقدمون من السلف لم تشتهر عنهم في صورة المسألة ما يخرج صاحب هذا العقد عن حكم الإيمان والإسلام ، والمتأخرون مختلفون فكثير خاف أن يخرج من اعتقاد وجود الله عز وجل ، وأظهر الإقرار بنبيه صلى الله عليه وسلم من الإسلام ، ولا يبعد أن يكون كثير ممن أسلم من الأجلاف والرياعين وضعفاء النساء والاتباع على هذا بلا مزيد عليه لوستلوا واستكشفوا عن الله عز وجل ، هل له إرادة أبقاء أو كلام أو ما شاكل ذلك ؟ وهل له صفات معنوية ليست هي هو ولا هي غيره ؟ ربما وجدوا يجهلون هذا ولا يعقلون وجه ما يخاطبون به ، وكيف يخرج من اعتقاد وجود الله ووحدانيته مع الإقرار بالنبوة من حكم الإسلام والنبي صلى الله عليه وسلم قد رفع القتال والقتل وأوجب حكم الإيمان أو الإسلام لمن قال لا إله إلا الله واعتقد عليها ، وهذه الكلمات لا تقتضي أكثر من اعتقاد الوجود مع الوحدة في الظاهر وعلى البديهة من غير نظر ، ثم سمعنا عن قائلها في صدر الإسلام أنه لم يعلم بعدها إلا فرائض الوضوء والصلاة وهيئات الأعمال البدنية والسكف عن أذى المسلم ، ولم يبلغنا أنهم درسوا علم الصفات وأحوالها ، ولا هل الله تعالى عالم بعلم أو عالم بنفسه وهو باق ببقاء أو باق بنفسه وأشياء هذه المعارف ، ولا يدفع ظهور هذا لإمعان أو جاهل سيرة السلف وما جرى بينهم ، وبدل على قوة هذا الجانب في الشرع أن من استكشف منه على هذه الحالة وتحققت منه وأبى أن يدع لتعلم ما زاد على ما عنده لم يفت أحد بقتله ولا استرقاقه والحكم عليه بالخلاوة في النار عسر جدا أو خطر عظيم مع ثبوت الشرع بأن من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ، ولعلك تقول قد قال في مواطن أخرى إلا بحقها ثم تقول اعتقاد باقي الصفات التي بها يكون اعتقاد جلال الله جل وعز وكأله من حقها ، نعم هي من حقها عند من بلغه أمرها وسمع بها أن يعتقد بها ، وأما من خلا من اعتقادها ولم يقوله أن يلقاها ولم يسمع بها ففيه مرمى هذا النظر وعليه يقع مثل هذا الاحتفاظ وفي مثله يخاف أن يطلق عليه اسم الكفر ، هذا وأنت تسمع عن الله عز وجل يقول في الآخرة : أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، وذكر من المثقال إلى الذرة والخرولة من الإيمان ، إلى أن خرج منها من لم يعمل حسنة قط فسا يدريك أن يكونوا هؤلاء وأمثالهم المرادين ، لأن التقدير وقع في الإيمان لا في الأعمال .

فإن قلت : فإن من الناس وأئمة العلماء من لم يوجب الإيمان لمن اعتقد جميع الأركان إذا لم يصحبها معرفة ولم يقصد ما دليل فكيف بمن فاته اعتقاد بعضها أو كلها ؟ قلنا : قد أريناك وجه الاعتراض على هذا المذهب ونهناك على بعد أهله عن وجه الحق فيه وأنهم أرباب تعسف ، ولو استقصى مع كثير منهم القول في ذلك لبداله أنه تسبب إلى ما يظهر له من تصورهم عن معرفة شرطها في إيمان غيره ، ولا أثر من حسنة الركون إلى ما رأينا أول من رأيه وأحق بالصواب والعدل

عن مذهبه ، ثم بعد ذلك تراهم حين أخبروا عن ساب الإيمان عنهم لم يبقوا اسم الكفر عليهم ثم يعرضوا على الاستنابة إن كانت من مذهبه ، ثم يحكي فيه بالقتل والاسترقاق ؛ فإذا تأملت هذا لم يخف عليك عيب ما قالوه ونقص ما مالوا إليه ، فلنرجع إلى مانحن بسبيله ونستعين بالله عز وجل . وأما أرباب الحالة الثالثة - وهي اعتقاد البدعة في الصفات أو بعضها - فإن حكمتنا بصحة إيمان أهل الحالة المذكورة قبل هذا وإسلامهم حققنا أمره وثلا في اعتقده ، إذ لم يقعوا فيه بوجه قصد يقطعهم عن إيصال العذر ، لأن هؤلاء قد حصل لهم في العقد ما هو شرط الخلاص والنجاة من الهلاك الدائم وأصيبوا فيما وراء ذلك ، فإن أمكن ردهم في الدنيا وزجرهم عنه إن أظهروا المنع عن الإقلاع والرجوع بالعقوبة المؤلمة دون قتل كان ذلك ، وإن قالوا بالموت لم نقصرهم في اعتقادنا عن أرباب الحالة الثانية المذكورة قبلهم ، والله أعلم بالتأجى والهالك من خلقه ، والمطيع والمأوى من عباده ، هكذا ينبغي أن يكون مذهب من نظر في خلق الله تعالى بعين الرأفة والرحمة ولم يدخل بين الله عز وجل وبين عباده فيما غاب عنه عباده وعدم فيه سبيل اليقين وفهم معنى قوله عز وجل ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إنَّ السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مشغولا ﴾

فإن قلت : وأين أمنت من تكفير كثير من الناس لجميع أهل البدع عامة وخاصة ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم في القدرية : « إنهم مجوس هذه الأمة » وقوله صلى الله عليه وسلم « ستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة » وقال عن قوم « يخرجون على حين فرقة من الناس يقولون بقول خير البرية ، أو من قول خير البرية يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » والأحاديث الواردة فيمن اعتقد شيئا من الأهواء والبدع كثيرة غير هذه بما توجب في الظاهر تكفيرهم بالإطلاق ، فاعلم أنه وإن كان كفرهم كثير من العلماء فقد أبقي عليهم دينهم وتردد فيهم كثير أو أكثر منهم ، وكل فريق منهم في مقابلة من خالفه فليقع التحاكم عند العالم الأكبر المؤيد بالعصمة سيد البشر إمام المتقين صلى الله عليه وسلم ، فهو عليه الصلاة والسلام حين قال « مجوس هذه الأمة » أضافهم إلى الأمة ، وما حكم بأن لم يقل مجوس على الإطلاق وحين أخبر عن الفرق أنهم في النار فما أخبر أنهم خالدون فيها ، وحين قال « يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » فقد قال متصلا بهذا القول وتبارى في الفرق ، وما موضع هذا التبارى من المثل الذي ضربه فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فألى أراك تلاحظ جهة وترك أخرى وتذكر شيئا وتذلل عن غيره ؟ عليك بالعدل تسكن من أهله ، واستعمل التفطن تشاهد العجائب المعجبة وتفهم قول الله ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾

(فصل) ولما كان الاعتقاد المجرد عن العلم بصحته ضعيفا وتفردة عن المعرفة قريبا من رآه أبقي عليه شبه القشر الثاني من الجوز ، لأن ذلك القشر يؤكل مع ما هو عليه صوتا ، وإذا انفرد أمكن أن يكون طعاما المحتاج وبلاغا للجائع ، وبالجملة فهو لمن لا شيء معه خير من فقده وكذلك اعتقاد التوحيد . وإن كان مجردا عن سبيل المعرفة وغير منوط بشيء من الأدلة ضعيفا ، فهو في الدنيا والآخرة وعند لقاء الله عز وجل خير من التعطيل والكفر ، ومتى ركب أحد هذا فقد وقع في أعظم الحرج والمنكر .

بيان أرباب المرتبة الثالثة وهو توحيد المقربين

والكلام في هذا النوع من التوحيد له ثلاثة حدود (أحدهما) أن يتكلم في الأسباب التي توصل إليه والمسالك التي يعبر عليها نحوه والأحوال التي يتخذها بحصوله كما قدره العز بن العليمي ، واختار ذلك ورضاه وسماه الصراط المستقيم (والحد الثاني) أن يكون الكلام في عين ذلك التوحيد ونفسه وحقيقته ، وكيف يتصور للسالك إليه والطالب له قبل وصوله إليه وانكشافه له بالمشاهدة (والحد الثالث) في ثمرات ذلك التوحيد وما يلحق أهله به ويطلعون عليه بسببه ويكرمون به من أجله ويتحققون من فوائد المزيد من جهته ، أما الحد الأول فالكلام عليه والبيان له والكشف لدقائقه وتذلل للصغير والكبير مأمور به مشدد في أمره فتوعد بالنار على كتمه فيه بعث الأنبياء ومن أجله أرسل

الرسول وبيدائه للناس كافة نزلات من عند الله عز وجل على أمناء وحيه الصحف والكتب وليقع التفقه في القلوب بتحقيقه وتصديقه أيدت الرسل بالمعجزات والاولياء والانبياء بالكرامات ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . وعليه أخذ الله الميثاق على الذين أوتوا الكتاب ليبيّننه للناس ولا يكتُمونه ، وفيه أنزل الله ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ وإياه عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله « من سئل عن علم فكتمه ألجم بوم القيامة بلجم من نار » ، وجميع ذلك محصور في اثنتين : العلم بالعبرة ، والعمل بالسنة ؛ وهما مبنيان على آيتين : الحرص الشديد والنية الخالصة . والسر في تحصيلهما اثنان : نظافة الباطن ، وسلامة الجوارح ؛ ويسمى جميع ذلك بعلم المعاملة . وأما الحد الثاني فالكلام فيه أكثر ما يكون على طريقة ضرب الامثال ، تشبيها بالرمز تارة وبالتصريح أخرى ؛ ولكن على الجملة بما يناسب علوم الظواهر ولكن يشرف بذلك اللبيب الخاذق على بعض المراد ويفهم منه كثيرا من المقصود وينكشف له جل ما يشار إليه ، إذا كان سالما من شرك التعصب بعيداً من هوة الهوى نظيفاً من دنس التقليد . (وأما الحد الثالث) فلا سبيل إلى ذكر شيء منه لإمّاع أهله بعد علمهم به على سبيل التذكار لأعلى التعليم وإنما كانت أحكام هذه الحدود الثلاثة على ما وصفناه لأن الحد الأول فيه محض النصح للخائف واستفادهم من غمرة الجهل والتنكيب بهم من مهوى العطب وقودهم إلى معرفة هذا المقام وما وراءه مما هو أعلى منه مما لهم فيه الملك الأكبر وفوز الأبد ، وقد بين لهم غاية البيان وأقيم عليه واضح البرهان وهو يومئذ الطريق وأول سبيل السعادة ، فمن عجز عن ذلك كان على غيره أعجز ، ومن سلكه على استقامة فالغالب عليه الوصول إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ومن وصل شاهد ومن شاهد علم ، وذلك غاية المطلوب ونهاية المرغوب والمحجوب ، ومن قد حرم الوصول وما بعده (فضل الله المجاهدين على القاعدین أجراً عظيماً) ومن غاب لم تنفعه الأخبار ولم يفده كثير من الأحاديث ، وأيضا فإن الأخبار بما وراء الحد الأول والثاني على وجهه لو كشف للخلق كافة وأمكن بما أعد من السلام وجرى بين الناس من عرف التخاطب كان فيه زيادة محنة وسبب فيه إهلاك أكثرهم من ليس من أهل ذلك المقام ، وذلك لغرابة العلم وكثرة غموضه ودقة معناه وعلوّه في منازل الرفعة وبعده بالجملة والتفصيل من جميع ما عهد في عالم الملك والشهادة وخروجه عن تلك الحدود المألوفة ومباينته لكل ما نشئوا عنه ولم يشاهدوا غيره من محسوسات ومعقولات وضروريات ونظريات ، فلما كان لا يدرك شيء من ذلك بقياس ولا يتصور بواسطة لفظ ولا يحمل عليه مثل كما قال عز وجل ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ وحكى عن ابن عباس رحمه الله أنه قال : ليس عند الناس من علم الآخرة إلا الاسماء ، وأراد من لم ينكشف له شيء من عليها وحقائقها في الدنيا ، وأيضا فالوجاز الأخبار بها لغير أهلها لم يكن لهم سبيل إلى تصورها إلا على خلاف ما هي عليه بمجرد تقليد ويتطرق إليه من أهل الغفلة وذوى اقصور جحود وتباعد ؛ فلهذا أمروا بالسكتم إشفافا على من حجب من العلم ؛ ولهذا قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم « لا تحدثوا الناس بما لم تصله عقولهم ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله » ، وقال صلى الله عليه وسلم « ما حدث أحدكم قوماً بحديث لم تصله عقولهم إلا كان عليهم فتنة » ، وعلى هذا يخرج قول المشايخ : وإفشاء سر الربوبية كفر ، رزقنا الله وإياكم قلوبا واعية الخير إنه ولي كل صالح ؛ وإذا علمت أن الحد الأول قد تقرر علمه في كتب الرواية والدراية ومائت منه الطروس وكثرت به في المحافل الدروس ، وهو غير محجوب عن طالب ولا ممنوع عن راغب ، قد أمر الجاهل به أن يتعلموه والعلماء أن يبدلوه ويعلموه ، فلا نعيد فيه ههنا قولا . ولما كان حكم الحد الثالث السكتم تارة وتسكيت الكلام عنه مع غير أهله على كل حال ، لم يكن لنا سبيل إلى تعدد إلى حدود الشريعة ، فلنثني العنان إلى الكلام بالذي يليق بهذا الحال والمقام فنقول : أرباب المقام الثالث في التوحيد وهم المقربون على ثلاثة أصناف ، على الجملة فكلهم نظروا إلى المخلوقات فرأوا علامات الحدوث فيها لأتمة ، وعابثوا حالات الافتقار إلى الله تعالى عليهم واضحة وسمعوا جميعها تدل على توحيده وتفريده راشدة ناصحة ، ثم رأوا الله تعالى بإيمان قلوبهم وشاهدوه بغيب أرواحهم ، ولاحظوا جلالة وجماله بخفي أسرارهم ، وهم مع ذلك في درجات القرب على قدر حظ كل واحد منهم في

اليقين وصفاء القلب ، وهؤلاء الأصناف الثلاثة إنما عرفوا الله سبحانه بمخلوقاته ، وانقسامهم في تلك المعرفة كانقسام حفاظ تلاوة القرآن مثلا ، فمن حافظ لبعضه ويكون ذلك البعض أكثر أو كثيرا منه دون كماله ، ومن حافظ لجميعه لكنه متلعم فيه متوقف على الانهماك في تلاوته غير متوقف في شيء منه وكلهم ينسب إليه ويعد في المشهد والمغيب من أهله ، وكذلك أهل هذه المرتبة أيضا منهم متوصل إلى المعرفة من قراءة صفحات أكثر المخلوقات أو كثير منهاوربما كان فيما يقرأ من الصفحات ما يغني عليه ، ومن قارئ لجميعها متفهم لها لكن بنوع لعب ولزوم فكرة ومداومة عبادة ، ومن ماهر في قراءتها مستخرج لرموزها نافذ البصيرة في رؤية حقيقة مفتوح السمع تناطفه الأشياء في فراغه وشغله وبحسب ذلك اختلفت أحوالهم في الخوف والرجاء والقبض والبسط والفناء ، ولا مزيد على هذا المثال فهو أصلح لذوى الأفهام من شمس النهار وقت الزوال وعلت لم سمي أهل هذه المرتبة مقربين فذلك لبعدهم عن ظلمات الجهل وقربهم من أنوار المعرفة والعلم ، ولا أبعد من الجاهل ولا أقرب من العارف العالم ، والقرب والبعد ههنا عبارتان عن حالتين على سبيل التجوز في لسان الجمهور ، وعلى الحقيقة عند المستعملين لها في هذا الفن ، أحد الحالتين عماء البصيرة وانطباس القلب والخلو عن معرفة الرب سبحانه وتعالى ، ويسمى هذا بعدا : مأخوذا من البعد عن محل الراحة والمنزل الواجب وموضع العبادة والانس والانقطاع في مهامه القفر وأمكنة الخوف ومظان الانقراض والوحشة . والحالة الثانية : عبارة عن انقراض الباطن واشتعال القلب وانفساح الصدر بنور اليقين والمعرفة والعقل ، وعمارة البيت بمشاهدة ماغاب عنه أهل الغفلة والاهو ، ولكنه يدل على أنه لم يصل ؛ لعلك تقول ؛ أرى بعض آئمه الكلام شغل عن حقوق هذا المقام كأن لم يضربوا فيه بسهم ، ولم يفز قدحهم منه بحظ ولا سهم وأراهم عند الجمهور في الظاهر وعند أنفسهم أهم أهل الدلالة على الله تعالى وقادة الخلق إلى مرآئهم ومجاهدون أرباب النحل المردية والممل الضالة المهلكة ، وقد سبق في الإحياء أنهم مع العوام في الاعتقاد سواء ، وإنما فارقوهم بإحسانهم حراسة عقودهم .

فاعلم أن ما رأيت في الإحياء صحيح ولكن بقي في كشفه أمر لا يخفى على المستبصرين ، ولا يغيب عن الشاذين إذا كانوا منصفين : وهو أن المتكلمين من حيث صناعة الكلام فقط لم يفارقوا عقود العوام ، وإنما فارقوهم بالجدل عن الانحراف ، والجدل علم لفظي وأكثره احتيال وهمي وهو عمل النفس وتخليق الفهم وليس بشجرة المشاهدة والكشف ، ولأجل هذا كان فيه السمين والغث ، وشاع في حال النضال إيراد القطعي وما هو حكمه من غلبة الظن وإبداء الصحيح وإلزام مذهب الخصم ، والمقام المشار إليه بالذكر وشبهه إنما هو علم التوحيد وفهم الأحوال ومعرفته باليقين التام والعلم المضارع للضرورة بأن لا إله إلا الله ، إذ لا فاعل غيره ولا حاكم في الدارين سواء ومشاهدة القلوب لما حجب من الغيوب ، ومن أين للنازل طي المنازل ، وما لعلم الكلام مثل هذا المقام ، بل هو من خدام الشرع وحراس متبعيه من أهل الاختلاس والقطع ، وله مقام على قدره ويقطع به ، ولكن ليس عن مطالع الأنوار ومدارك الاستبصار ، والمدار في أوقات الضرورات والاختيار وبين ما يراد لوقت حاجته إن دعت ، وخصام صاحب بدعة ومناضلة ذي ضلالة بما ينقص على ذوى اليقين العيش ويشغل الذهن ويكدر النفس ، وما أهله الذين حفظ عنهم ووقع عليه فيما مضى من الزمان إليهم لانقول في أكثرهم إنهم لا يحسنون غيره . ولا يختصون بالتوحيد بمقام سواء بما هو أعلى منه ، بل الظن بهم أنهم علماء مثل ما ذكرنا ، فهم نصراء لكنهم لم يبدؤوا من العلم في الظاهر إلا ما كانت الحاجة إليه أمس والمصلحة به لتوجه الضرورة أعم وأؤكد ، ولما كان نجم في وقتهم من البدع وظهر من الأهواء وشاع من تشبث كلة أهل الحق وتجرؤ العوام مع كل ناعق ، فأروا الرد عليهم والمنازعة لهم والسعي في اجتماع الكلمة على السنة بعد افتراقها ، وإملاك ذوى الكيد في احتياهم ، وإخضاع نارهم الذين هم أهل الأهواء والفتن ، وأولى بهم من الكلام بعلوم الإشارات وكشف أحوال أرباب المقامات ووصف فقه الأرواح والنفوس وتفهم كل ناطق وجامد فإن هذه كلها وإن كانت أسنى وأعلى فإن ذلك من علم الخواص وهم مكفيون المأونة ، والعامة أحق بالحفظ وعقائدهم أولى بالحراسة ، واستنقاذ من يخاف عليه الهلاك أولى من مؤانسة وحيد والتصدق على ذي بلغة من العيش ، فكيف

إن كان عن غناه ، وأيضا فإن علم الكلام إنما يراد كما قلنا للجدال ، وهو يقع من العلماء العارفين مع أهل الإلحاد والزيف لقصورهم عن ملاحظة الحق موقع السيف للأنبياء والمرسلين عليهم السلام ، بعد التبليغ من أهل الفساد والنداء على النقي وسبيل الفساد ، فكما لا يقال : السيف أبلغ حجة النبي صلى الله عليه وسلم ، كذلك لا يقال : علم الكلام والجدال أبلغ مقام من ظهر منه من العلماء ، وكما لا يقال في الصدر الأول فقهاء الأمصار ومن قبلهم حين لم يحفظ عنهم في الغالب إلا علوم آخر كالفقه والحديث والتفسير ، لأن الخلق أحوج إلى علم ما حفظ عنهم وذلك لغلبة الجهل على أكثرهم ، فلو أن حفظ الله تعالى تلك العلوم بمن ذكرنا لجهلت العبارات وانقطع علم الشرع ، ونحن مع هذه الحالة نعلم أنهم عارفون بالتوحيد على جهة اليقين بغير طريق علم الكلام والجدال ، يتحلون بالمقامات المذكورة وإن لم يشتهر عنهم ذلك اشتهار ما أخذه عنهم الخاص العام ، ومثل ذلك حالة الصحابة رضي الله عنهم بعد النبي صلى الله عليه وسلم لما خافوا من دروس الإسلام وأن يضعف ويقل أمهله ويرجع البلاد والعامه إلى الكفر كما كانوا أول مرة ، فقد مات صاحب المعجزة صلى الله عليه وسلم والمبعوث لدعوة الحق عليه الصلاة والسلام رأوا أن الجهاد والباطل في غير العدو والغزو في سبيل الله وضرب وجوه الكفرة بالسيف وإدخال الناس في دين الله أولى بهم من سائر الأعمال وأحق من تدريس العلوم كلها ظاهرا وباطنا ، وإنما كانت تؤخذ عنهم علوم الشرع على الأقل وهم في حال ذلك الشغل والنظر إلى حال العموم أوكد من النظر إلى الخصوص ، لأن الخصوص لهم بأنفسهم عناء ولهم بحالهم قيام ، والعموم إن لم يكن مشتغلا بهم وإذا بداهم يحذرون عن هلكاتهم وسائقا بهم إلى مرادهم وصلاحهم كان الهلاك إليهم أسرع ، ثم لا يكون من بعد ذلك إن فسد حال العموم للخصوص قدر ، ولا يظهر لهم نور ولا يقدر على شيء كامل من البر ، فلا خاصة إلا بعامه ، ولقد كانت رعاية النبي صلى الله عليه وسلم بحال الجماهير أكثر ، والخوف عليهم من الزيف والضلال والهلاك أشد ، واللفظ بهم في تخفيف الوظائف والاختزال بالرفق أبلغ ، وكان أهل القوة وذوى البصائر في الحقائق يأخذون أنفسهم بالمشقات ، وكان هو صلى الله عليه وسلم يحب أن يعمل بالعمل من الطاعة فما يمنعه منه ، أو من المداومة عليه إلا خوف أن يفرض على أمته حين علم من أكثرهم الضعف ولم يكره لهم ، وفيه زيادة الأجر وكثرة الثواب والقرب من الله تعالى ولكن خاف عليهم أن يقعوا في قضيع الفرض فيسكون عليهم كفل من الوزر ألا ترى كيف نهي الخلق عن قيام الليل كله ، وكان عثمان رضي الله عنه يقوم فلم ينهه ومنع السيف من كل من أراد أخذه بما شرط عليه فيه حتى جاء من علم منه القدرة على الوفاء بما شرط عليه فأعطاه إياه وقال لعائشة رضي الله عنها : لولا حدثان عهد قومك بالكفر لرددت البيت على قواعد إبراهيم . وقال للنصارى أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رحالكم ، ومع ذلك فالذي حفظ عنه صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة من بعده وفقهاء الأمصار وأعيان المتكلمين من الإشارات لتلك العلوم كثيرة لا تحصى ، وإنما القليل من حمله اليوم عنهم وتفقه مثلهم فانصد تجدد ، وتصد لاقتباس المعارف تعلم ، وطالع كتب الحديث والتواريخ ومصنفات العلوم توفن (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الأبواب)

بيان المرتبة الرابعة وهو توحيد الصديقين

وأما أهل المرتبة الرابعة فهم قوم رأوا الله سبحانه وتعالى وحده ، ثم رأوا الأشياء بعد ذلك به فلم يروا في الدارين غيره ولا اطلعوا في الوجود على سواه ، فقد كان بيان إشارات الصحابة رضي الله عنهم أجمعين فيما خصوا من المعرفة في هيراهم ، فكان هجير أبي بكر الصديق رضي الله عنه « لا إله إلا الله » وكان هجير عمر رضي الله عنه « الله أكبر » وكان هجير عثمان رضي الله عنه « سبحان الله » وكان هجير علي رضي الله عنه « الحمد لله » فاستقرى السابقون من ذلك أن أبا بكر لم يشهد في الدارين غير الله سبحانه وتعالى ، فلذا كان الصديق ، وسمى به كما علمت ، وكان يقول « لا إله إلا الله » وكان عمر يرى مادون الله صغيرا مع الله في جنب عظمته فيقول « الله أكبر » وكان عثمان لا يرى في التنزيه إلا الله تعالى إذ الكل قائم به غير معري من نقصان والقائم بغيره معلول فكان يقول « سبحان الله »

وعلى لا يرى نعمة في الدفع والرفع والعطاء والمنع في المكروه والمحجوب إلا من الله سبحانه فكان يقول « الحمد لله ، وأهل هذه المرتبة على الجملة في حال خصوصهم فيها صنفان : مريدون ، ومرادون ، فالمريدون في الغالب لابد لهم من أن يملوا في المرتبة الثالثة وهي توحيد المقربين ، ومنها ينتقلون ، وعليها يعبرون إلى المرتبة الرابعة ويتمكنون فيها : ومن أهل هذا المقام يكون القطب والأوتاد والبلاء ، ومن أهل المرتبة الثالثة يكون النقباء والنجباء والشهداء والصالحون والله أعلم .

• فإن قلت : أليس الوجود مشتركا بين الحادث والتقديم والمألوه والإله ، ثم معلوم أن الإله واحد والحوادث كثيرة ؟ فكيف يرى صاحب هذه المرتبة الأشياء شيئا واحدا ؟ ذلك على طريق قلب الأعيان فتعود الحوادث قديمة ثم تتحدث بالواحد فتراجع هي هو ، وفي هذا من الاستحالة والمروق عن مصدر العقل ما يغني عن إطالة القول فيه . وإن كان على طريق التخيل للولي لما حقيقة له ، فكيف يحتاج به ؟ أو كيف يعد حالا لولي أو فضيلة لبشر ؟ الجواب عن ذلك : أن الحوادث لم تنقلب إلى القدم ولم تتحد بالفاعل ، ولا اعترى الولي تخيل فتخيل ما لا حقيقة له وإنما هو ولي مجتبي وصديق مرتضى ، خصه الله تعالى بمعرفة على سبيل اليقين والكشف التام ، وكشف قلبه ما لو رآه بصره عيانا ما ازداد إلا يقينا ، وإن أنكرت أن يكون وهب الله المعرفة به على هذا السبيل أحدا من خلقه فإطمئنان مصيبتك وما أعظم العزاء فيك حين فتشت الخلق بمعيارك وكتبهم بمكيالك وفضلت نفسك على الجميع ، إذ لا سبب لإنكارك إن صح إلا أنك تخيلت أنه لم يرزق أحد مالم ترزق ، أو يخص من المعرفة مالم يخص ، فإذا تقررت هذه القاعدة فصار ما كشف قلبه لا يخرج منه ، وما اطلع عليه لا يغييب عنه ، وما ذكره من ذلك لا ينسأ ولا في حال نومه وشغله ، وهذا موجود فيمن كثر اهتمامه بشيء وثبت في قلبه حاله : أنه إذا نام أو اشتغل لم يفقده في شغله ونومه كما لا يفقده في يقظته وفراغه ، ولهذا والله أعلم إذا رأى الولي المتمكن في رتبة الصديقين مخلوقا كان حيا أو جمادا صغيرا أو كبيرا لم يره من حيث هو هو ، إنما يراه من حيث أوجده الله تعالى بالقدرة وميزه بالإرادة على سابق العلم القديم ثم أدام القهر عليه في الوجود ، ثم لما كانت الصفات المشهودة آثارها في المخلوقات ليست لغير الموصوف الذي هو الله عز وجل بل له ، الهت الولي عن غيره وصار لم ير سواه ، ومعنى ذلك أنه لا يتميز بالذكر في سر القلب وخير المعرفة ، ولا بالإدراك في ظاهر الحس دون ما كان موجودا به وصار عنه فانيا ، فبعد هذا على من أحسبه أن لا يحتاج إليها مع هذا الوضوح ، ولا فهم إلا بالله ، ولا شرح إلا منه ، ولا نور إلا من عنده ، وله الخول والقوة وهو العلي العظيم .

(فصل) وأما معنى « إفشاء سر الربوبية كفر » ، فيخرج على وجهين ، أحدهما : أن يكون المراد به كفرا دون كفر ، ويسمى بذلك تعظيما لما أتى به المفشى وتعظيما لما ارتكبه ، ويعترض هذا بأن يقال : لا يصح أن يسمى هذا كفرا لأنه ضد الكفر ؛ إذ الكفر الذي سمى على معناه سائر ، وهذا المفشى للسر ناشر ، وأين النشر والإظهار من التغطية ؟ والإعلان من السكتم ؟ واندفاع هذا هين بأن يقال : ليس الكفر الشرعى تابع الاشتقاق ، وإنما هو حكم لمخالفة الأمر وارتكاب النهى ، فمن رد إحسان محسن أو جحد نعمة متفضل ، فيقال عليه كافر لجهتين : أحدهما من جهة الاشتقاق ويكون إذ ذاك اسما ينمى عن وصف ، والثانية من جهة الشرع ويكون إذ ذاك حكما يوجب عقوبة ، والشرع قد ورد بشكر المنعم ، فافهم ولا تذهب مع الالفاظ ولا يفرنك العبارات ولا تتحجبك التسميات ، وتفظن لخداعتها واحترس من استدراجها ، فإذا من أظهر ما أمر بكتمه كان كتم ما أمر بنشره ، وفي مخالفة الأمر فيها حكم واحد على هذا الاعتبار ، ويدل على ذلك من جهة الشرع قوله صلى الله عليه وسلم « لا تعمدوا الناس بما لم تصله عقولهم » وفي ارتكاب النهى عصيان ، ويسمى في باب القياس على المذكور كفرا بالبدن ، وقسمه أخرى : وذلك أن العلم إن حلل إلى ما علم من أجزائه بالاستقراء ، فرأس الإنسان تشابه سماء العالم من حيث إن كل ما علاه فهو سماء ، وحواسه تشابه الكواكب والنجوم من حيث إن الكواكب أجسام مشقة تستمد من نور الشمس فتضيء بها

والحواس أجسام لطيفة مشقة تستمد من الروح فيضىء مسالك المدركات ، وروح الإنسان مشابهة للشمس ، فضياء العالم ونور نباته وحركه ضواريه وحيوانه وحياته فيها تظهر بتلك الشمس ، وكذلك روح الإنسان به حصل في الظاهر نمو أجزاء بدنه ونبات شعره وحلول حياته وجعلت الشمس وسط العالم وهي تطلع بالنهار وتغيب بالليل ، وجعلت الروح وسط جسم الإنسان وهي تغيب بالنوم وتطلع باليقظة ، ونفس الإنسان تشابه القمر من حيث إن القمر يستمد من الشمس ونفسه تستمد من الروح ، والقمر خالف الشمس والروح خالف النفس ، والقمر آية محوة والنفس مثلهما ، ومحو القمر في آن لا يكون ضياؤه منه ومحو النفس في آن ليس عقلها منها ، ويعتري الشمس والقمر وسائر الكواكب كسوف ، وتعتري النفس والروح وسائر الحواس غيب وذحول ، وفي العالم نبات ومياه ورياح وجبال وحيوان ، وفي الإنسان نبات وهو الشعر ، ومياه وهو العرق والدموع والريق والدم ، وفيه جبال وهي العظام ، وحيوان وهي هوام الجسم ، فحصلت المشابهة على كل حال ولما كانت أجزاء العالم كثيرة ومنها ما هي لنا غير معروفة ولا معلومة كان في استقصاء مقابلة جميعها تطويل ، وفيما ذكرناه ما يحصل به لذوى العقول تشبيه وتمثيل .

• فإن قلت : أراك فرقت بين النفس والروح ، وجعلت كل واحد منهما غير الآخر ، وهذا قلما تساعد عليه ، إذ قد كثر الخلاف في ذلك : فاعلم أنه إنما على الإنسان أن يبني كلامه على ما يعلم لا على ما يجهل ، وأنت لو علمت النفس والروح علمت أنهما اثنان • فإن قلت : فقد سبق في الإحياء أنهما شيء واحد وقلت في هذه الإجابة إن النفس من أسماء الروح فالذي سبق في الإحياء ورأيت في هذه الإجابة وهو شيء واحد لا يتناقض مع ما قلناه الآن ، وذلك أن لها معنى يسمى بالروح تارة وبالنفس أخرى ، وبغير ذلك ثم لا يبعد أن يكون لها معنى آخر يفرد باسم النفس فقط ولا يسمى بروح ولا غير ذلك ، فهذا آخر الكلام في أحد وجهي الإضافة التي في ضمير صورته والوجه الآخر : وهو أن من حمل إضافة الصورة إلى الله تعالى على معنى التخصيص به ؛ فذلك لأن الله سبحانه نبأ بأنه حي قادر سميع بصير عالم مرشد متكلم فاعل وخلق آدم عليه السلام حيا قادرا عالما سميعا بصيرا مريدا متكلما فاعلا ، وكانت لآدم عليه السلام صورة محسوسة مكنونة مخلوقة مقدرة بالفعل وهي لله تعالى مضافة باللفظ ، وذلك أن هذه الأسماء لم تجتمع مع صفات آدم إلا في الأسماء التي هي عبارة تلفظ فقط ، ولا يفهم من ذلك نفي الصفات فليس هو مرادنا ، وإنما مرادنا تباين ما بين الصورتين بأبعد وجوه الإمكان ، حتى لم تجتمع مع صفات الله تعالى إلا في الأسماء الملفوظ بها لا غير ، وفرارا أن تثبت صورة لله تعالى ويطلق عليها حالة الوجود ؛ فافهم هذا فإنه من أدق ما يقرع صدرك ويلج قلبك ويظهر لعقلك ، ولهذا قيل لك : فإن كنت تعتقد الصورة الظاهرة ومعناه إن حملت إحدى الصورتين على الأخرى في الوجود تسكن مشها مطلقا ومعناه نتيقن أنك من المشبهين لا من المنزهين وحكمت على نفسك بالتشبيه معتقدا ولا تنكر ، كما قيل : كن يهوديا صرفا وإلا فلا تلعب بالتوراة ؛ أي تتلبس بدينهم وتريد أن لا تنسب إليهم : أي تقرأ التوراة ولا تعمل بها . وإن كنت تعتقد الصورة الباطنة منزلها مجللا ومقدسا مخلصا : أي ليس تعتقد من الإضافة في الضمير إلى الله تعالى إلا الأسماء . من المعاني ، فذلك المعاني المسماة لا يقع عليها اسم صورة على حال . وقد حفظ عن الشبل رحة الله عليه في معنى ما ذكرنا من هذا الوجه قول بليغ مختصر ، حين سئل عن معنى الحديث فقال : خلقه الله على الأسماء والصفات لا على الذات • فإن قلت : فكذا قال ابن قتيبة في كتابه المعروف بتناقض الحديث حين قال : هو صورة لا كالصور ، فلم أخذ عليه في ذلك ؟ وأقيمت عليه الشناعة به ؟ واطرح قوله ولم يرضه أكثر العلماء وأهل التحقيق ؟ فاعلم أن الذي ارتكبه ابن قتيبة عفا الله عنه نحن أشد إعراضا عنه وأبلغ في الإنكار عليه وأبعد الناس عن تسويغ قوله ، وليس هو الذي الممنا نحن به وأفندناك بحول الله وقوته لإياه ، بل يدل منك أنك لم تفهم غرضنا ، وذهلت عن تبطل مرادنا ، ولم تفرق بين قولنا وبين ما قاله ابن قتيبة ، الم أخبرك أننا أثبتنا الصورة في التسميات ، وهو أثبتنا حالة للذات ؛ فإين من لب الجوز قشور تفرقع ، والذي يغلب على الظن في ابن قتيبة أنه لم يقرع سمعه هذه الدقائق التي أشرنا إليها وأخرجناها إلى حيز الوجود بتأييد الله تعالى بالعبارة

عنها ، وإنما ظهر له شيء لم يكن له به إلف ، وعلاه الدهش فتوقف بين ظاهر الحديث الذي هو موجب عند ذوى التصور تشبيها وبين التأويل الذى ينفيه ، فأثبت المعنى المرغوب عنه ، وأراد نفي ما خاف من الوقوع فيه ، فلم يثبت له اجتماع مارام ولا نظام ما أقترف ، فهما هو صورة لا كالصور ، ولكل ساقطة لافطة ، فتبادر الناس إلى الأخذ عنه (فصل) ومعنى قاطع الطريق (فإنك بالواد المقدس طوى) أى دم على ما أنت عليه من البحث والطلب ، فإنك على هداية ورشد . والوادى المقدس عبارة عن مقام التكليم موسى عليه السلام مع الله تعالى فى الوادى ، وإنما تقدس الوادى بما أنزل فيه من الذكر ، وسمع كلام الله تعالى ، وأقيم ذكر الوادى مقام ما حصل فيه لحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ؛ وإلا فالمقصود ما حذف لا ما أظهر بالقول ، إذ المواضع لا تأمير لها وإنما هى ظروف .

(فصل) ومعنى (فاستمع) أى سر بقلبك لما يوحى ، فلعلك تجد على النار هدى ، ولعلك من سرادقات العز تنادى بما نودى به موسى (إني أنا ربك) أى فرغ قلبك لما يرد عليك من فوائد المريد وحوادث الصديق وثمار المعارف وارتياح سلوك الطريق وإشارات قرب الوصول ، وسر القلب كما يقول أذن الرأس ووسع الآذان ، وما يوحى ، أى ما يرد من الله تعالى بواسطة ملك . أو إلقاء فى روع ، أو مكاشفة بحقيقة ، أو ضرب مثل ، مع العلم بتأويله . ومعنى « لعلك » حرف ترويح ، ومعنى لم تدرك آفة تقطعك عن سماع الوحي من إعجاب بحال أو إضافة دعوى إلى النفس أو وقوع بما وصلت إليه واستبداد به عن غيره . وسرادقات المجد : هى حجب الملكوت ، وما نودى به موسى : هو علم التوحيد التى وسعت العبارة اللطيفة عنه بقوله حين قال له (يا موسى إني أنا الله لا إله إلا أنا) والمنادى باسمه ازلا وأبدا هو اسم موسى لما سمي السالك الموجود فى كلام الله تعالى فى أزل الأزل قبل أن يخلق موسى ، لا إلى أول . وكلام الله تعالى صفة له لا يتغير كما يتغير هو إذ ليست صفاته المعنوية لغيره ، وهو الذى لا يحول ولا يزول ، وقد زل قوم عظم اقتراحهم وهو أنهم حملوا صدور هذا القول على اعتقاد اكتساب النبوة ، وعياذا بالله من أين يحتمل هذا القول ما حملوه من المذهب ؟ أليسوا وهم يعرفون أن كثيرا ممن يكون بحضرة ملك من ملوك الدنيا وهو يخاطب إنسانا آخر قلده ولاية كبيرة وفوض إليه عملا عظيما وجاءه جأ خطيرا ، وهو ينادى باسمه أو بأمره بما يمثل من أمره . ثم إن السامع لذلك الحاضر معه غير المولى لم يشارك المولى الخلوغ عليه والمفوض إليه فى شئ مما ولى وأعطى ، ولم يجب له بسماعه ومشاهدته أكثر من حظوة القرية وشرف الحضور ومنزلة المكاشفة من غير وصول إلى درجة المخاطب بالولاية والمفوض إليه الأمر ، ولذلك هذا السالك المذكور إذا وصل فى طريقه ذلك بحيث يصل بالمكاشفة والمشاهدة واليقين التام الذى يوجب المعرفة والعلم بتفاصيل المعلوم ؛ فلا يتمتع أن يسمع ما يوحى لغيره من غير أن يقصد هو بذلك ، إذ هو محل سماع الوحي على الدوام وموضع الملائكة ، وكفى بها أنها الحضرة الربوبية ، وموسى عليه السلام ما استحق الرسالة والنبوة ، ولا استوجب التكليم وسماع الوحي مقصودا بذلك بحلولة فى هذا المقام الذى هو المرتبة الثالثة فقط . بل هو قد استحق ذلك بفضل الله تعالى حين خصه بمعنى آخر ترقى إلى ذلك المقام اضعا فاجاوز المرتبة الرابعة ، لأن آخر مقامات الأولياء أول مقامات الأنبياء ، وموسى عليه السلام نبي مرسل ، فقامه أعلى بكثير مما نحن آخذون فى أطرافه ، لأن هذا المقام الذى هو المرتبة ليست من غايات مقامات الولاية بل هو إلى الثالثة مبادئها أقرب منه إلى غايتها ، فان لم يفهم درجات المقام وخصائص النبوة وأحوال الولايات كيف يتعرض للكلام فيها والطنن على أهلها ، هذا لا يصح إلا لمن لا يعرف أنه مؤاخذ بكلامه ، محاسب بظنه وبقينه ، مكتوب عليه خطراته ، محفوظ عليه لحظاته ، مخلصا منه يقظاته وغفلاته ، فما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد .

• فإن قلت : أراك قد أوجبت له نداء الله تعالى ونداء كلامه ، والله تعالى يقول (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات) فقد نبه أن تكليم الله تعالى لمن كلبه من الرسل إنما هو على سبيل المبالغة فى التفضيل ، وهذا لا يصلح أن يكون لغيره من ليس بنبي ولا رسول ، وإذا بان السبب وقصد بادر الشك المعارض فى مسالك الحقائق • فنقول : ليس فى الآية ما يرد ما قلنا ولا يكسره ، لأننا ما أوجبنا أنه كلبه وقصدوا لا توغاه

بالخطاب عمداً . وإنما قلنا : يجوز أن يسمع ما يخاطب الله تعالى به غيره مما هو أعلى منه ، أليس من يسمع كلام إنسان مثلاً مما يتكلم به غير السامع فيقال فيه إنه كلمه ؟ وقد حكى أن طائفة من بني إسرائيل سمعوا كلام الله تعالى الذى خاطب به موسى حين كلمه ، ثم إذا ثبت ذلك لم يجب لهم به درجة موسى عليه السلام ولا المشاركة في نبوته ورسالته ، على أن نقول نفس ورود الخطاب إلى السامعين من الله تعالى يمكن الاختلاف فيه ، فيكون النبي المرسل يسمع كلام الله تعالى الذاتى القديم بلا حجاب فى السمع ولا واسطة بينه وبين القلب ، ومن دونه يسمعه على غير تلك الصورة مما يلقى فى روعه ومما ينادى فى سمعه أو سره وأشياء ذلك ، ذكر أن قوم موسى عليه السلام حين سمعوا كلام الله سبحانه مع موسى أنهم سمعوا صوتاً كالشبور - وهو القرآن - فإذا صبح ذلك فبتبان المقامات اختفاه وورود الخطاب فوسى سمع كلام الله بالحقيقة الذى هو صفة له بلا كيف ولا صورة نظم الحروف ولا أصوات ، والذين كانوا معه أيضاً سمعوا صوتاً مخلوقاً وجعل لهم علامة ودلالة على صحة التكليم ، وخلق الله سبحانه لهم بذلك العلم الضرورى ، وسمى ذلك الذى سمعوه كلامه ؛ إذ كان دلالة عليه ، كما تسمى التلاوة وهى الحروف المتلو بها القرآن : كلام الله تعالى ؛ إذ هى دلالة عليه .

• فإن قلت : فإبقى على السامع إذا سمع كلام الله تعالى الذى يستفيد معرفة وحدانيته وفقه أسرته ونهيه وفهم مراده وحكمه يلحقه العلم الضرورى فيما أرى بأنه الشئ المرسل إلا بأن يشتغل بإصلاح الخلق دونه ولو كان عوضاً منه آخر عنه ومقامه مقامه ؟ فاعلم أن الذى أوجب عثورك ودوام ذلك واعتراضك على العلوم بالجهل وعلى الحقائق بالخيال أنك بعيد عن غور المطالب ، بعيد فى شرك المعاطب ، بعيد صوب الصوت بعيد صبح السحاب ، إن الذى استحق به الناظر السالك الراسل المرتبة الثالثة سماع نداء الله تعالى معنى ومقام وسال وخاصة أعلى من تلك الأولى وأجل وأكبر وبينهما ما بين من استحق المواجهة بالخطاب والقصد به ، وبين من لا يستحق أكثر من سماعه . من يخاطب به غيره ، فهذا من الإشارة باختلاف ورود الخطاب إليهما مما يوجب نفورا وتباين ما بينهما . فإن فهمت الآن وإلا فقد عنى لا ندر بحال .

• فإن قيل : ألم يقل الله تعالى ﴿ فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ﴾ وسماع الله تعالى بحجاب أو غير حجاب وعلم ما فى الملوك ومشاهدة الملائكة وما غاب عن المشاهدة والحس من أجل الغيوب ؟ فكيف يطلع عليها من ليس برسول ؟ قلنا فى الكلام حذف يدل على صحة تقديره الشرع الصادق والمشاهدة الصورية ، وهو أن يكون معناه : إلا من ارتضى من رسول ومن اتبع الرسول بالإخلاص والاستقامة ، أو عمل بما جاء به النبي ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ، وهل يبقى إلا ما غاب عنه أن ينكشف إليه وقال : إن يكن منكم محدثون فعمرو ، أو كما قال : المؤمن ينظر بنور الله ، وفى القرآن العزيز ﴿ قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ فلم ما غاب عن غيره من إمكان بيان ما وعده به ، وأراد أنه قدر عليه ولم يكن نبياً ولا رسولا . وقد أنبأ الله سبحانه وتعالى عن ذى القرنين من إخباره عن العلوم الغيبية وصدقه فيه حين قال ﴿ فإذا جاء وعد ربى جعله دكاً ، وكان وعد ربى حقاً ﴾ وإن كان وقع الاختلاف فى نبوة ذى القرنين فالإجماع على أنه ليس برسول ، وهو خلاف المسطور فى الآية وإن رام أحد المدافعة بالاحتياط لما أخبر به ذو القرنين ، وما ظهر على يدى الذى كان عنده علم من الكتاب ، وأراد أن يجوز على عمر التشبه بالحقائق ، فما يصنع فيما جرى للنضر وما أنبأ الله سبحانه وأظهر عليه من العلوم الغيبية وهو بعد أن يكون نبياً فليس برسول على الوفاق من الجميع ، والله تعالى يقول ﴿ إلا من ارتضى من رسول ﴾ فدل على أن فى الآية حذف مضاف معناه ما تقدم وانظر إلى ما ظهر من كلام سعد رضى الله عنه أنه يرى الملائكة وهو غيب الله وأعلم أبو بكر بما فى البطن وهى من غيب الله وشواهد الشرع كثيرة جداً يعجز المتأول ويلهو المعاند . وهذا القول بتخصيص العموم أظهر من الجراءة وأشهر مما نقل الكافة ، ويحتمل أن يكون المراد فى الآية بالرسول المذكور فيها : ملك الوحي الذى بواسطته تنجلي

العلوم وتكشف الغيوب ، فتي لم يرسل الله ملكا لإعلام غيب ، أو يخاطب مشافهة ، أو إلقاء معنى في روع أو ضرب مثل في يقظة أو منام ، لم يكن إلى علم ذلك الغيب سبيل ، ويكون تقدير الآية : فلا يظهر على غيبة أحدا إلا من ارتضى من رسول أن يرسله إلى من يشاء من عباده في يقظة أو منام ، فإنه يطلع على ذلك أيضا . ويكون فائدة الإخبار بهذا في الآية الامتحان على من رزقه في الله تعالى علم شيء من مكتوباته ، وإعلامه أنه لا اتصل إليها نفسه ولا مخلوق سواء إلا بالله تعالى حين أرسل إليه الملك بذلك وبعثه الله ، حتى يتبرأ المؤمن من حوله ومن حول كل مخلوق وقوته ، ويرجع إلى الله تعالى وحده ، ويتحقق أنه لا يرد عليه شيء من علم أو معرفة أو غير ذلك إلا بإرادته ومشئته ويحتمل وجه آخر : وهو أن يكون معناه والله أعلم : فلا يظهر على غيبة أحدا إلا من ارتضى يريد من سائر خلقه وأصناف عباده ، ويكون معنى « من رسول » أي عن يد رسول من الملائكة .

(فصل) ومعنى : ولا يتخطى رقاب الصديقين * إن قلت : ما الذي أوصله إلى مقامهم أو جاوز به ذلك - وهو في المرتبة الثالثة حال المقربين ما وصل حيث ظننت - فكيف يجاوزه ، وإنما خاصية من هو في رتبة الصديقين عدم السؤال لكثرة التحقق بالأحوال ، وخاصية من هو في رتبة القرب كثرة السؤال طمعا في بلوغ الآمال ، ومثلها فيما أشير إليه مثال إنسانين دخلا في بستان : أحدهما يعرف جميع أنواع نبات البستان ويتحقق أنواع تلك الثمار ويعلم أسماءها ومنافعها ؛ فهو لا يسأل عن شيء مما يراه ولا يحتاج إلى أن يخبر به ، والثاني لا يعرف عما رأى شيئا أو يعرف بعضها ويجهل أكثر مما يعرف ، فهو يسأل ليصل إلى علم الباقي ، وذلك من تكلمنا عليه حين أكثر السؤال عما يبعد عنه حاله ويتخلف عن مقامه إلى ما هو أعلى منه ، وكان غير مراد لذلك إما في ذلك الوقت أو الأبد ، وتلك العلوم متى كانت لا تنال بالكسب وإنما تنال بالمنح ، فقليل له : لا تتخطى رقاب الصديقين بالسؤال ، فذلك عما لا يخطر به وليس هو من الطرق الموصلة إلى مقامهم ، فارجع إلى الصديق الأكبر فاقتدبه في حاله وسيرته فمساك ترزق مقامه. فإن لم يكن فتبقى على حالة القرب وهي تتلو الصديقية ، فهذا معناه .

(فصل) ومعنى انصراف المالك الناظر بعد وصوله إلى ذلك الرفيق الأعلى : إما أنه لما وصل إليه بالسؤال صرف إليه مالاقيه من الأحوال ليحكم ما بقي عليه من الأعمال كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم للذي سأله أن يعلمه غرائب العلم : اذهب فأحكم ما هناك ، وبعد ذلك أعلمك غرائب العلم . وأما صفة انصرافه فإن نهض بالبحث ورجع بالتذكر ، وفوائد المزيد ووجه أن من لم يستطع المقام في ذلك الموضع بعد وصوله إليه ، فذلك لتعلق خبر المعرفة بالبدن ومسكنه عالم الملك ولم يفارقه بعد الموت وطول الغيب عنه لا يمكن في العادة ، ولو أمكن لملك الجسم وتفرقت الأوصال ، والله تعالى أراد عمارة الدنيا وقد سبق في علمه (ولن تجد لسنة الله تبديلا) ومعنى قول أبي سليمان الناراني : ولو وصلوا مارجعوا ، ما رجع إلى حالة الانتقاص من وصل إلى حالة الإخلاص . والذي طمع الناظر في الحصول فيه سؤاله وتمادي به إلى حال القرب منه ، إذ لم يصلح لذلك ولم يصف ولم يخلص أعماله .

(فصل) ومعنى بأن ليس في الإمكان أبدع من صورة هذا العالم ولا أحسن ترتيبا ولا أكمل صنعا ، ولو كان وادخره مع القدرة كان ذلك بخلا يناقض الكرم الإلهي ، وإن لم يكن قادرا عليه كان ذلك عجزا يناقض القدرة الإلهية ، فكيف يقضى عليه بالعجز في عالم يخلفه اختيارا وكان ذلك ولم ينسب إليه ذلك قبل خلق العالم ، ويقال : ادخار لإخراج العالم من عدم إلى الوجود عجز مثل ما قيل فيما ذكرنا . وما الفرق بينهما ؟ وذلك لأن تأخير العالم قبل خلقه عن أن يخرج من عدم إلى الوجود يقع تحت الاختيار الممكن ، من حيث إن الفاعل المختار له أن يفعل ، فإذا فعل فليس في الإمكان أن يفعل إلا نهاية ما تقتضيه الحكمة التي عرفناها أنها حكمة ، ولم تعرفنا بذلك إلا لتعلم مجاري أفعاله ومصادر أموره ، وأن تتحقق أن كل ما اقتضاه ويقضيه من خلقه بعلمه وإرادته وقدرته أن ذلك على غاية الحكمة ونهاية الإتقان ومبلغ جودة الصنع ، ليجعل كمال ما خلق دليلا قاطعا برهانا على كماله في صفات جلاله الموجهة لإجلاله ، فلو كان ما خلق ناقصا بالإضافة إلى غيره ما قدر على خلقه ، ولو لم يخلق لسكان يظهر النقصان المدعى على هذا الوجود متى خلقه

كما يظهر على ما خلقه على غير ذلك ، ويكون الجميع من باب الاستدلال على ما صنع من التصان قطعاً ، وما يحمل عايه من القدرة على أكمل منه ظناً ، إذ خلق للخلق عقولاً وجعل لهم فهوماً وعرفهم ما أكن وكشف لهم ما حجب وأجن ، فيسكون من حيث عرفهم بكألهم على نقصه ، ومن حيث أعلمهم بقدرته بصرفهم بعجزه ، فتعالى الله رب العالمين الملك الحق المدين . وأيضاً فلا يعترض هنا ويتزر به إلا من لا يعرف مخلوقاته ولم يصرف الكلام الصحيح في مشابهة ذلك أصلاً في العلم ، أو كان نسخاً له ومعنى فقيس عليه غيره ، وأما انكشافه بخبر من رزق علم ذلك كان بطلان العلم في حق الخبر ، إذ أفشاء لغير أهله وأهداه لمن لا يستحقه ، كما روى عن عيسى على نبينا وعليه السلام : لا تعلقوا الدر في أعناق الخنازير . وإنما أراد قطع العلم عن غير أهله . وقد جاء : لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم ، ولا تضعوها عند غير أهلها فتظلموها . وأما سر العلم الذي يوجب كشفه بطلان الأحكام ، فإن كان كشفه من الله سبحانه لقلوب ضعيفة ، بطلت الأحكام في حقها لمن يطالع عليه في ذلك السر من معرفة مآل الأشياء وعواقب الخلق وكشف أسرار العبادة وما يظن من مقدور ، فمن عرف نفسه مثلاً أنه من أهل الجنة لم يصل ولم يصم ولم يتعب نفسه في خير ، وكذلك لو انكشف له أنه من أهل النار كمل أنها كمالاً فلا يحتاج إلى تعب زائد ولا تصيبه مكابدة ، فلو عرف كل واحد عاقبته ومآله بطلت الأحكام الجارية عليه . وإن كان كشفها من خبر استروح الضعيف إلى ما يسمع من ذلك فيستعمل وينخرم حاله وينحل قيده ، وبعد هذا فلا يحمل كلام سهل إلا على ما يقدر لا على ما يوجد ، ولذلك جعله مقروناً بحرف ولو ، الدال على امتناع الشيء لا امتناع غيره ، كما يقال : لو كان الإنسان جناحاً لطار ، ولو كان للسماء درج لصعد عليها ، ولو كان البشر ملكاً لفقد الشهوات ، فعلى هذا يخرج كلام سهل في ظاهر العلم

(فصل) وأما خطاب العقلاء للجادات فغير مستنكر ؛ فقد ينادب الناس الديار وسألوا الاطلاع واستخبروا الآثار . وقد جاء في أشعار العرب وكلامها من ذلك كثير . وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم : أسكن أحد ، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان . وقال بعضهم : أسأل الأرض تخبرك عن شق أنهارها ولجج بحارها وفتق أهواءها ورتق أحرامها وأرسي جبالها ، إن لم تجبك أجابتك اعتباراً ، وإنما الذي يتوقف على الإذعان ويتحير في قوله السامعون وتتعجب منه العقول : هو كيفية كلام الجادات والحيوانات الصامتات ؛ ففي هذا وقع الإنكار واضطرب النظر ، وكذب في تصحيح وجوده ذو السمع من الاعتبار ، ولكن لتعلم أن تلقى الكلام للعقلاء ممن لم يعقل عنه في المشهود يكون على جهات : من ذلك سماع الكلام الذاتي كما تتلقى من أهل النطق إذا قصدوا إلى نظم اللفظ ، وذلك أكثر ما يكون للأنبياء والرسل صلوات الله عليهم في بعض الأوقات ، كخبر الجذع للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان حجر يسلم عليه في طريقه قبل مجيئه . ومنها تلقى الكلام في حس السامع من غير أن يكون له وجود من خارج الحس ، ويعتري هذا سائر الحواس ، كمثل ما يسمع النائم في منامه من مثال شخص من غير مثال ، والمثال المرقى للنائم ليس له وجود في سمعه . وأما ما يجده غير النائم في اليقظة فمنها خاصة وعامة ، فقد ورد أن الحجر في زمن عيسى ينادى المسلم : يا مسلم ، خلني يهودى فاقتله . وإن لم يخلق الله تعالى للحجر حياة ونطقاً ويذهب عنه معنى الحجرية أو يوكل بالحجر من يتكلم عنه ممن يستر عن الأبصار في العادة من الملائكة والجن أو يكون كلام يخلق الله عز وجل في أذن السامع ليفيده العلم باختفاء اليهودى حتى يقتله ، وكما يقال في العرض الأكبر يوم القيامة إذا نودي فيه باسم كل واحد على الخصوص وفي الخلائق مثل اسم المنادى به كثير . وقد قالت العلماء : إنه لا يسمع النداء في ذلك الجمع إلا من نودي فيحتمل أن يكون ذلك النداء يخلق للمنادى في حاسة أذنه ليتحرك إلى الحساب وحده دون من يشاركه في اسمه ولا يكون نداء من خارج ، والأمثلة كثيرة في الشرع ، وفيما سمعت غنية ومقتنع . ومنها تلقى الكلام في العقل وهو المستفاد بالمعرفة ، المسموع بالقلب ، المفهوم بالتقدير على اللفظ ، المسمى بلسان الحال كما قال قيس :

وأجهشت للتو باد حين رأيته وكبر للرحمن حين رأيته فقلت له أين الذين عهدتهم
حواليك في عيش وخفض زمان فقال مضوا واستودعوني بلادهم ومن ذا الذي يبق على الحدثن

وفي أمثال العوام : قال الحائط للوند : لم تشقني ؟ فقال الوند للحائط : سل من يدقني فلو كانت العبارة تتأني منها ما عبرت إلا بما قد استهين لها . وعلى هذا المعنى حمل كثير من العلماء قوله تعالى لإخبارا عن السماء والأرض حين قالتا : ﴿ أتينا طائعين ﴾ وفي قوله تعالى ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾ ومنها تلقى الكلام من الجبال مثل قوله صلى الله عليه وسلم « كآني أنظر إلى يونس بن متى عليه السلام عليه عبادتان قطوانيتان يلبي وتجيبة الجبال ، والله يقول : لبيك يا يونس . فقوله « كآني » يدل على أنه تخيل حالة سبقت لم يكن لها في الحال وجود ذاتي ، لأن يونس بن متى عليه السلام قدماء وتلك الحالة منه سلفت وفي هذا الحديث إخبار عن الوجود الخيالي في البصر ، والوجود الخيالي في السمع ، ومنها تلقى الكلام بالشبه : وهو أن يسمع السامع كلاما أو صوتا من شخص حاضر فيلقى عليه شبه غيره مما غاب عنه ، كقوله عليه السلام في صوت أبي موسى الأشعري إذ سمعه يترنم بالقرآن ولقد أعطى مزمارا من مزمار آل داود ، ومزمار آل داود قد عدمت وذابت . وإنما شبه صوته بها وكما إذا سمع المريد صوت مزمار أو عود لجأة على غير قصد يتخيل صرير أبواب الجنة وشبهها بما لجأ صوته من ذلك ، فهذه مراتب الوجود فآتت إذا أحسنت التصرف بين أساليبها ولم يعترك غلط في بعضها ببعض ، ولا اشتبهت عليك ، وسمعت عن نضر بمشكاة نور الله تعالى إلى كاغد وقد رآه أسود وجهه بالخبر فقال له : ما نال وجهك وقد كان أبيض أشقر موثقا والآن قد ظهر فيه السواد ، فلم سودت وجهك ؟ فقال : سل الخبر ، فإنه كان مجمورا في المحبرة التي هي مستقره ووطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهي ظلما وعدوانا ، فقال : صدقت . ثم أتت إذا سمعت أمثال هذه المراجعات أعمال الفكر وحدد النظر وحل الكلام إلى أجزائه التي ينظم منها جملة ما بلغت ؟ فسأل عن معنى الناظر ، ومعنى المشكاة ، ومعنى نور الله سبحانه ، وما سبب أنه لم يعرف الناظر الكتابة والمكتوب ؟ وبأى لسان خاطب الكاغد ، وكيف مخاطبة الكاغد وهو ليس من أهل النطق ؟ وفيما صدق الناطق الكاغد ؟ ولم صدقه بمجرد قوله دون دليل ولا شاهد ؟ فيبدوا لك ههنا من الناظر هو ناظر القلب فيما أورده عليه الحس ، والمشكاة استعارة من مشكاة الزجاج التي أعمرت بسراج النار ، إلى خبر المعرفة الملقب بسر القلب شبيهاها ، لأنها مسرجة الرب سبحانه وتعالى أشعلها بنوره ، ونوره المذكور ههنا عبارة عن صفاء الباطن واشتعال السر بطولع نيران كواكب المعارف الزاهية باذن الله تعالى بظلم جهالات القلوب ، ووجه إضافته إلى الله تعالى على سبيل الإشارة بالذكر لأجل التخصيص بالشرف ، والكاغد والخبر كناية عن أنفسهما لا عن غيرهما ، وجعلهما مبدأ طريقه وأول سلوكة إذ هما في عالم الملك والشهادة الذي هو محل جولة الناظر في حال نظره .

وأما سبب أنه لم يعرف الكتابة والمكتوب ، فلأجل أنه كان أميا لا يقرأ الكتاب الصناعي ، وإنما يروم معرفة قراءة الخط الإلهي الذي هو أبين وأدل على الفهم منه . وأما مخاطبة الناظر الكاغد وهو : جماد فسبق الكلام على مثله ، ومراجعة الكاغد له فعلى قدر حال الناظر إن كان مرادا ، فيأق الكلام في الحس بما ينبئه عن المطلوب من الحق ، وهو من باب الإلقاء في الروح فيودعه الحس المشترك المحفوظ فيه على الإنسان صور الأشياء المحسوسة ، وإن كان مريدا فيتلقاء بالسان الحال المسموع بسمع القلب بواسطة المعرفة والعقل ، وتصديق الناظر للكاغد في عذره وإحالاته على الخبر لم يكن مجرد قوله ، بل بشهادة أولى الرضا والعدل وهو البحث والتجربة لم تكن وشهادة النفس ، وهذا يسلك إل القدرة وهو آخرها سئل عن أجزاء عالم الملك . وأما ما سمعته في حديث عالم الجبروت فذلك من القدرة المحدث إلى العقل والعلم الموجودين في الإنسان المستقرة في القوة الوهمية المدركة جميع ما لا يستدعى وجوده جسما ، ولكن قد يعرض له أنه في جسم ، كما تدرك السخلة عداوة الذئب وعطف أمها فتنبع العطف وتفر من العداوة . وأما ما سمعته في حد عالم الملكوت وذلك من العلم الإلهي إلى ما وراء ذلك بما هو داخل فيه ومعدود منه ، فسر القلب الذي يأخذ به عن الملائكة ويسمع به ما بعد مكانه ورق معناه وعزب عن القلوب من جهة الفكر بصوره ، فأما أي شيء حقائق هذه المذكورات وما كنه كل واحد منها على نحو معرفتك لأجزاء عالم الملك والشهادة ، فذلك علم لا ينفع

بسماعه مع عدم المشاهدة ، وانه قد عرفك بأسمائها ؛ فإن كنت مؤمنا فصدق بوجودها على الجملة لعلمك أنك لا تتخبر بتسميات ليس لها مسميات إلى أن يلحقك الله بأولى المشاهدة وتحصل خالص الكرامات . ومن كفر فإن الله غنى حميد (فصل) والفرق بين العلم المحسوس في عالم الملك وبين العلم الإلهي في عالم الملكوت : أن العلم قد اعتدته بحسما بطيء الحركة بالفعل ، سريع الانتقال بالهلاك خلفا عن مثله في الظاهر ، بجعولا تحت قهر سلطان الآدمي الضعيف الجاهل في أكثر أوقاته ، متصرف بين أحوال متنافية كالعلم والجهل والعدل والظلم والشك والصدق والإفك ؛ فالعلم الإلهي عبارة عن خلق الله في عالم الملكوت ، محتص بخلاف خصائص الجواهر الحسية الكائنة في عالم الملك ، يرى من أوصاف ماسمى به القلم المحسوس كليا مصرفا بتميز الخالق بحكم إرادته على ماسبق به عليه في أزل الأزل ، وإنما سمي بهذا الاسم لأجل شبهه بعمل ماسمى به ، غير أنه لا يكتب لإحقائق الحق ، والفرق بين يمين الآدمي ويمين الله عز وجل أن يمين الآدمي كما علت مركبة من عصب استعصى بقاؤها ، وعضل تعضل أدواؤها ، وعظام يعظم بلاؤها ولحم يمتد وجلد غير جلد موصولة ، كمثلها في الضعف والانتقال ملقبة باليد وهي عاجزة على كل حال ، ويمين الله تعالى هي عند بعض أهل التأويل عبارة عن قدرته ، وعند بعضهم صفة لله تعالى غير قدرته وليست بجارحة ولا جسم ، وعند آخرين . أنها عبارة عن خلق الله هي واسطة بين القلم الإلهي الناقل للعلوم المحدثه وغيرها ، وبين قدرته التي هي صفة له صرف بها اليمين المكتوبة بالقلم المذكور بالخط الإلهي المثبت على صفحات المخلوقات الذي ليس بعربي ولا عجمي ، يقرؤه الأميون إذا شرحت صدورهم ، وتستعجم على القارئ إذا كانوا عبيد شهواتهم ، ولم يشارك يمين الآدمي إلا في بعض الأسماء لأجل الشبه اللطيف الذي بينهما بالفعل ، وتقريبا إلى كل ناقص الفهم ، عساه يعقل ما أنزل على رسل الله تعالى من الذكر .

(فصل) وحدها الملك ؛ ما ظهر للحواس ويكون بقدرة الله تعالى بعضه من بعض وصحة التعبير . وحدها عالم الملكوت ما أوجده سبحانه بالأمر الأزلي بلا تدريج ويبقى على حالة واحدة من غير زيادة فيه ولا نقصان منه . وحدها عالم الجبروت هو ما بين العالمين مما يشبه أن يكون في الظاهر من عالم الملك لحيز بالقدرة الأزلية بما هو من عالم الملكوت .

(فصل) ومعنى أن الله خلق آدم على صورته ؛ فذلك على ما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وللعلماء فيه وجهان ؛ فمنهم من يرى للحديث سببا ؛ وهو أن رجلا ضرب غلامه فرآه النبي صلى الله عليه وسلم ، فنهاه وقال : إن الله تعالى خلق آدم على صورته ، وتأولوا عود الضمير على المضروب ، وعلى هذا لا يكون للحديث مدخل في هذا الموضع لم يرد موردا آخر في غير هذا الموطن ، ويكون الإيمان به إلى غير هذا المعنى المذكور في السبب الحادث وإثباته في غير موطن ذلك السبب المنقول مما يعز ويحسر ، فليبق المسبب على حاله ، ولينظر في وجه الحديث غير هذا مما يحتمل ، ويحسن الاحتجاج به في هذا الموطن ، والوجه الآخر : أن يكون الضمير الذي في صورته ، عائدا إلى الله سبحانه ، ويكون معنى الحديث : أن الله خلق آدم على صورة هي إلى الله سبحانه ، وهذا العبد المضروب على صورة آدم ؛ فإذا هذا العبد المضروب على الصورة المضافة إلى الله تعالى ، ثم ينحصر بيان معنى الحديث ويتوقف على بيان معنى هذه الإضافة وعلى أي جهة يحمل في الاعتقاد العمى على الله سبحانه ، ففيها وجهان : أحدهما أن إضافته إضافة ملك إلى الله تعالى كما يضاف إليه العبد والبيت والناقة واليمين على أحد الأوجه ، والوجه الآخر : أن تكون إضافة تخصيص به تعالى ، فنحملها على إضافة الملك له رأى أن المراد بصورته هو العالم الأكبر بجملته ، وآدم مخلوق على مضاهاة صورة العالم الأكبر ، لكنه مختصر صغير ، فإن العالم إذا فصلت أجزاؤه بالعالم ، وفصلت أجزاء آدم عليه السلام بمثله ، وجدت أجزاء آدم عليه السلام مشابهة للعالم الأكبر ، وإذا شابهت أجزاء جملة أجزاء جملة فالجملتان بلا شك متشابهتان ، فالذي نظرفي تحليل صورة العالم الأكبر فقسمة على أنحاء من القسمة وقسم آدم عليه السلام كذلك ، فوجد كل نحوين منهما شبيهين فن ذلك أن العالم ينقسم إلى قسمين : أحد القسمين ظاهر محسوس كعالم الملك ، والثاني : باطن معقول كعالم الملكوت ، والإنسان كذلك ينقسم إلى ظاهر محسوس كالعظم واللحم والدم وسائر أنواع الجواهر المحسوسة ، وإلى

باطن كالروح والعقل والعلم والإرادة والقدرة وأشياء ذلك ، وقسم آخر : وذلك أن العالم قد انقسم بالعالم إلى عالم الملك وهو الظاهر للحواس ، وإلى عالم الملكوت وهو الباطن في العقول ، وإلى عالم الجبروت وهو المتوسط الذي أخذ بطرف من كل عالم منهما ، والإنسان كذلك انقسم إلى ما شابه هذه القسمة ؛ فالمتشابه لعالم الملك : الأجزاء المحسوسة وقد علمتها ، والمتشابه لعالم الملكوت فمثل الروح والعقل والقدرة والإرادة وأشياء ذلك ، والمتشابه لعالم الجبروت فكان لإدراكات الموجودة بالحواس والقوى الموجودة بأجزائه . والوجه الثاني : أن يكون معناه ككفر السامع لا للمخبر ، بخلاف الوجه الأول ، ويكون هذا مطابقاً لحديث النبي صلى الله عليه وسلم ، لا تعدثوا الناس بمالم تصله عقولهم ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله ، فمن حدث أحداً بما لم يصله عقله ربما سارع إلى التكذيب وهو الأكثر ، ومن كذب بقدرة الله تعالى وبما أوجدها فقد كفر ولو لم يقصد الكفر ؛ فإن أكثر اليهود والنصارى وسائر الكفار ما قصدت الكفر ولا تظنه بأنفسها وهي كفار بلا ريب ؛ وهذا وجه واضح قريب ، ولا تلتفت إلى ما مال إليه بعض من لا يعرف وجوه التأويل ولا يعقل كلام أولى الحكمة والراخين في العلم حين ظن أن قائل ذلك أراد الكفر الذي هو نقيض الإيمان والإسلام بتعلق مخبره وتلقي قائله ، وهذا لا يخرج إلا على مذاهب أهل الأهواء الذين يكفرون بالمعاصي ، وأهل السنن لا يرضون بذلك . وكيف يقال لمن آمن بالله واليوم الآخر وعبد الله بالقول الذي ينزه به والعمل الذي يقصد به المتعبد لوجهه الذي يستريد به إيماناً ومعرفة له سبحانه ، ثم يكرمه الله تعالى على ذلك بفوائد المزيد وينيله ما شرف من المنح ويريه أعلام الرضا ، ثم يكفره أحد بغير شرع ولا قياس عليه ، والإيمان لا يخرج عنه إلا بنذبه واطراحه وتركه واعتقاد ما لا يتم الإيمان معه ولا يحصل بمقارنته ، وليس في إفشاء سر الولي ما يحصل به تناقض الإيمان ، اللهم إلا أن يريد إفشائه وقوع الكفر من السامع له فهذا عات متعمد وليس بولي ، ومن أراد بأحد من خلق الله أن يكفر بالله ، فهو لا محالة كافر . وعلى هذا يخرج قوله تعالى ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ﴾ ثم إنه من سب أحداً منهم على معنى ما يجده له من العداوة والبغضاء ، قيل له أخطأت وأثبت من غير تكفير ، وأنه إنما فعل ذلك وسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر بالإجماع .

(سؤال) فإن قيل . فما معنى قول سهل رحمه الله تعالى ونسب إليه : للإلهية سر لو انكشف لبطلت النبوات ، وللنبوات سر لو انكشف لبطل العلم ، وللعلم سر لو انكشف بطلت الأحكام . وجاء في الإحياء على أثر هذا القول ، وقائل هذا القول إن لم يرد به إبطال النبوة في حق الضعفاء فما قالوا ليس بحق ، فإن الصحيح لا يتناقض والسكامل من لا يطن نور معرفته ونور ورعه ، وهذا وإن لم يكن من الأسئلة المرسومة فهو متعلق منها بما فرع من الكلام فيها آنفاً وناظر إليه ، إذ ما أدى إفشاؤه إلى إبطال النبوة والأحكام والعلم ككفر ، فالجواب ؛ أن الذي قاله رحمه الله وإن كان مستعجلاً في الظاهر فهو قريب المسلك ، باد للتأمل الذي يعرف مصادر أغراضهم ومسالك أقوالهم الإلهية . ومن وصل إليه اليقين الذي لولاه لم يكن نبياً لا يخلو أن يكون انكشافه من الله بما يطلع على القلوب من أنوار الشمس التي هي غائبة عنها بأن كانت القلوب ضعيفة طراً عليها من الدهش والاصطلام والحيرة والتيه ما يبهز العقول ويفقد الحس ويقطع عن الدنيا وما فيها وذلك لضعفه . ومن انتهى إلى هذه الحالة فتبطل النبوة في حقه أن يعرفها أو يعقل ما جاء من قبلها ، إذ قد شغلها ما هو أعظم لديه منها ، وربما كان سبب موته لعجزه عن حمل ما يطرأ عليه ، كما حكى أن شاباً من سالكي طريق الآخرة عرض عليه أبو يزيد ولم يره من قبل ، فلما رآه انكشف له ذلك وكان في مقام الضعفاء من المريدين فلم يطق حمله فأت به ، وإما أن يكون انكشافه من عالم به على وجه الخبر عنه ، فتبطل النبوة في حق المخبر حين نهي أن لا يفشي فأنشى أو أمر أن لا يتحدث فلم يفعل ، فخرج بهذه المعصية عن طاعة النبي صلى الله عليه وسلم فيها ، فلماذا قيل في ذلك : بطلت النبوة في حقه . فإن قيل : فلم لا تكفروه على هذا الوجه إذا بطلت النبوة في حقه بإخباره ؟ قلنا : ما بطلت في حقه جميعاً ، وإنما بطل في حقه منها ما خالف الأمر الثابت من قبلها ، ويعد هذا من الكلام على تغليب حق الإفشاء وقد سبق

السلام عليه في معنى : إفشاء سر الربوبية كفر . وأما سر النبوة الذي أوجب العلم لمن رزقها أو رزق معرفتها على الجملة ، إذ النبوة لا يعرفها بالحقيقة إلا نبي ، فإن انكشف ذلك لقلب أحد بطل العلم في حقه بارتفاع المحنة له بالامر المتوجه عليه بطله والبحث عنه والتفكير فيه ، فيكون كالنبي إذا سئل عن شيء لم وقعت له واقعة لم يحتاج إلى النظر فيها ولا إلى البحث عنها ، بل ينتظر ما عود من كشف الحقائق بإخبار ملك أو ضرب مثل يفهم عنه أو اطلاع على اللوح المحفوظ أو إلقاء في روع فيعود مخترعته ولم يعلم مقدار الدنيا وترتيب الآخرة عليها ، ولا عرف خواصها ولا تنزه في عجايبها ولا لاحظ المملوكات ببصر قلبه ، ولا جاوز التخوم إلى أسفل من ذلك بسره ولبه ، ولا فهم أن الجنة أهل النعيم وأن النار أقصى العذاب الآليم وأن النظر إليه منتهى الكرامات ، وأن رضاء وسمطة غاية الدرجات والدركات ، وأن منح المعارف والعلوم أسنى الهبات ، ويرى أن العالم بأسره أخرجه من العدم الذي هون في محض ، إلى الوجود الذي هو إثبات صحيح وقدره منازل وجعله الميقات ، فمن حي وميت ، ومتحرك وساكن ، وعالم وجاهل وشقي وسعيد ، وقريب وبعيد ، وصغير وكبير ، وجليل وحقيق ، وغنى وفقير ، ومأمور وأمير ، ومؤمن وكافر ، وجاحد وشاكر ، وذكر وأنثى ، وأرض وسماء ، ودنيا وأخرى ، وغير ذلك مما لا يحصى ، والكل قائم به موجود بقدرته ، وبقا بعلمه ومنته إلى أجله ، ومصرف بمشيئته ، وذلك على بالغ حكمته ، فما أكل جهل من لا يجده إلا قدماه ، ولا من يصرفه إلا استبداده ولا ملكة إلا ملكه ، فيعود المحدث قديما والمربوب ربا والمملوك مالكا ، فيعود الخلق من خلق الله كهو ، تعالى الله عن جهل الجاهلين وتخيل المحتوين وزيف الزائعين .

(فصل) وأما حكم هذه العلوم المكتوبة في الطلب وسلوك هذه المقامات ورفق هذه الدرجات واستفهام هذه المخاطبات ، أمي من قبيل الواجبات والمندوبات أو المباحات ، فاعلم أن المسئول عنه على ضربين ، أحدهما : ماهو في حكم المبادئ والثاني في حكم الغايات ، فأما الذي هو في حكم المبادئ فطلبه فرض على كل أحد بقدر بذل الجهد ودوافع الوسع وجميع ما يقدر عليه من العبادة ، وذلك ما تضمنته أصول علم المعاملة ، مثل إخلاص التوحيد والصدق في العمل وعدم الإجحاف بالخوف والرجاء والتزين بالصبر والشكر ، لأن هذه كلها وما يتعلق بها من علم الامر والنهي واجبة . قال الله تعالى ﴿ فأتقوا الله ما استطعتم ﴾ وقد سبق التنبيه عليه .

أما الذي هو حكم الغايات مثل انقلاب الهيئات والنظر بالتوفيق بحكم الموافقة والرضا بالإثبات والتوكل بالتجريد وحقيقة علم معاني التوحيد وسبر معاني التقرير وأوصاف أهل آيات اليقين ، فهو درجات ومقامات ومنازل ومراتب ومنح يخص الله تعالى بها من شاء من عباده من غير أن ينال بطلب ولا بحث ولا تعليم ، ولو كان ذلك لما قيل للناظر السالك حين أراد الارتقاء إلى درجة أعلى من درجته بلسان السؤال أرجع لا تتخطرقاب الصديقين ، لكنها مواهب أكرم الله تعالى بها أهل صفوته وولايته ، وهي مراتب الصدق في العلم وبركات الإخلاص في العمل ، فن لم يرث من علمه وعمله المفترض عليه فطلبه والعمل به شتان من هذه المعاني ، فليس في شيء من الحقيقة وإن كان حقا ، غير أن حاله معلول . إما مفتون بدنياء أو محجوب بهواه ، وربك على كل شيء قدير .

(فصل) وأما لآي شيء ذكرت هذه العلوم بالإشارات دون العبارات ، وبالرموز دون التصريحات ، وبالمتشابه من الانماط دون المحسكات ، وإن كان قد سبق هذا من الشارع فيما له أن يمتحن به من كاف ويتلو من بعيد ولكن للعلم رجال مخصوصون ، فما بال من لم يجعل شارعا ولم يبعث لغير أن يسلك ذلك .

والجواب عنه أن العالم هو وارث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وإنما ورث العلم ليتجمل بعمله ويحل فيه كحلته والنبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى ﴿ إن هو إلا وحي يوحى عليه شديد القوى ذومرة فاستوى ﴾ وحكم الوارث فيما ورث حكم الموروث فيما ورث عنه فما عرف فيه الحكم من فعل الموروث عنه أمثله ومالم يصل إليه فيه شيء كان له اجتهدا فإن أخطأ كان له أجر وإن أصاب كان له أجران ثم إن الوارث رأى النبي صلى الله عليه وسلم يصرح بعلوم المعاملات وأشار بما وراءها بما لا يفهمه إلا أرباب التخصص كما قال الله عز وجل ﴿ وما يعلمها إلا العالمون ﴾ فلم

يكن للوارث تعد عن حكم الموروث ، كما حكى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : إني رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعامين أحدهما هو الذى بثثته فيكم ، وأما الثانى فلو بثثته لحزرتتم السكين على هذا البلغوم وأشار إلى حلقه ، وبعد كل شيء : ففي القدوة بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه النجاة ، وفي اتباعه الفوز بحب الله وبالله مع الجماعة ، وفوق كل ذى علم عليم وقد أفدناك من طرائف ما عندنا وأهدينا إليك من غرائب ما لدينا ؛ وإلى الله يرد العلم بمادق وجل وكثر وقل وعظم وصغروظهر واستتر ، وإنما ينطق الإنسان بما أنطقه الله تعالى وهو مستعمل بما استعمله فيه ، إذ كل ميسر لما خلق له ؛ فاستنزل ما عند ربك وغالبك من خير ، واستجلب ما تؤمله منه من هداية وبر بقراءة السبع المثاني والقرآن العظيم التى أمرت بقراءتها في كل صلاة وكذا عليك أن تعيدها في كل ركعة ، وأخبرك الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم أن ليس في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها وفي هذا تنبيه بل تصريح بأن يكثرمنا بما ضمنت من القوائد وخصت به من الذخائر والعوائد ، بما لو سطر لكان فيه أوقار الجمال ، فافهم وانتبه واعقل ما خلقت له ، واعرف ما أعد لك ، والله تعالى سبحانه حسيب من أراد ، وهادى من جاهد في سبيله ، وكاف من توكل عليه ، وهو الغنى الكريم .

انتهى الجواب عما سألته وفرغنا منه بحسب الوسع من الكلام ، ونسأل الله تعالى المباعدة بين حيلات قلوب البشر ، وأن يصرف عنا حجب الكدورات والآهواء ومراتب الغين ، فييده مجارى المقدورات وهو اله من ظهر وغير وإليه يرجع من آمن وكفر ، وبجazy الخلائق بنعيم أو سقر ، والصلاة على سيدنا محمد سيد البشر وكافى الضرر ، وعلى آله السادات الغرر ، وسلم تسليما والحمد لله رب العالمين .

تم كتاب الإملاء في مشكلات الإحياء

كتاب عوارف المعارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله العظيم شأنه القوى سلطانه ، الظاهر إحسانه الباهر حجته وبرهانه ، المحتجب بالجلال والمنفرد بالكمال ، والمتردى بالعظمة في الآباد والآزال ، لا يصوره وهم وخيال ، ولا يحصره حد ومثال ، ذى العز الدائم السرمدى ، والملك القائم الديموى ، والقدرة الممتنع إدراك كنهها ، والسطوة المستوعر طريق استيفاء وصفها ، نطقت الكائنات بأنه الصانع المبدع ، ولاح من صفات ذرات الوجود بأنه الخالق المخترع ، وسم عقل الإنسان بالعجز والنقصان ، وألزم فصيحاته الألسن وصف الحصر في حلبة البيان ، وأحرقت سبحات وجهه الكريم أجنحه طائر الفهم ، وسدت تعزوا وجلالا مسالك ألوم ، وأطرق طامح البصيرة تعظيما وإجلالا ، ولم يجد من فرط الهيبة في قضاء الجبروت مجالا ، فعاد البصر قليلا والعقل عيلا ، ولم ينتهج إلى كنهه الكبرياء سبيلا ؛ فسبحان من عزت معرفته لولا تعريفه ، وتعذر على العقول تحديده وتكليفه ؛ ثم ألبس قلوب الصفوة من عباده ملابس العرفان ، وخصهم من بين عباده بخصائص الإحسان ؛ فصارت ضمائرهم من مواهب الأنس مملوءة ، ومرآى قلوبهم بنور القدس مجلوة ؛ فتهيأت لقبول الأمداد القدسية ، واستعدت لورود الأنوار العلوية ، واتخذت من الأنفاس العطرية بالأذكار جللا ، وأقامت على الظاهر والباطن من التقوى حراسا ، وأشعلت في ظلم البشرية من اليقين نبراسا ، واستحقرت فوائده الدنيا ولذاتها ، وأنكرت مصايد الهوى وتبعاتها ، وامتطت غوارب الرغبت والرهوت ، واستفرشت بعلومها بساط الملكوت وامتدت إلى المعالي أعناقها ، وطمحت إلى اللامع العاوى أحداقها ، واتخذت من الملا الأعلى مسامرا ومحاورا ، ومن النور الآخر الأقصى مزورا ومجاورا ، أجساد أرضية بقلوب سماوية ، وأشباح فرشية بأرواح عرشية ، نفوسهم في منازل الخدمة سيارة ، وأرواحهم في قضاء القرب طيارة ، مناهجهم في العبودية مشهورة ، وأعلامهم في أقطار الأرض منشورة ، يقول الجاهل بهم : فقدوا ، وما فقدوا ، ولكن سميت أحوالهم فلم يدركوا ، وعلا مقامهم فلم يملكوا ، كائنين بالجنان بائنين بقلوبهم عن أوطان الحدائق ، لأرواحهم حول العرش تطواف ، وقلوبهم من خزائن البراسعاف ، يتنعمون بالخدمة في الدياجر ، ويتلذذون من وهج الطلب بظما الهواجر ، تساووا بالصلوات عن الشهوات . وتعوضوا بحلاوة التلاوة عن اللذات ، يلوح من صفحات وجوههم بشر الوجدان ، وينم على مكنون سرائرهم نضارة العرفان ، لا يزال في كل عصر منهم علماء بالحق ؛ داعون للخلق ، منحو بحسن المتابعة رتبة الدعوة ، وجعلوا للمتقين قدوة ؛ فلا يزال تظهر في الخلق آثارهم ، وتزهر في الآفاق أنوارهم ، من اقتدى بهم اهتدى ، ومن أنكرهم ضل واعتدى ، فله الحمد على ما هيا للعباد من بركة خواص حضرته من أهل الوداد ، والصلاة على نبيه ورسوله محمد وآله وأصحابه الأكرمين الأجداد .

ثم إن إشارى لهدى هؤلاء القوم ومحبى لهم ، علما بشرف حالهم وصحة طريقتهم المبنية على الكتاب والسنة المتحقق بهما من الله الكريم الفضل والمنة ، حداني أن أذهب عن هذه العصابة ، بهذه الصبابة ، وأؤلف أبوابا في الحقائق

والآداب معربة عن وجه الصواب فيما اعتمدوه، مشعرة بشهادة صريح العلم لهم فيما اعتقدوه، حيث كثر المتشبهون واختلقت أحوالهم، وتستر بزيمهم المستترون وفسدت أعمالهم، وسبق إلى قلب من لا يعرف أصول سلفهم سوء ظن، وكاد لا يسلم من وقعة فيهم وطعن، ظنا منه أن حاصلهم راجع إلى مجرد رسم، وتخصيصهم عائد إلى مطلق اسم. وما حضرنى فيه من النية: أن أكثر سواد القوم بالاعتزاز إلى طريقهم والإشارة إلى أحوالهم؛ وقد ورد من كثر سواد قوم فهو منهم، وأرجو من الله الكريم صحة النية وتخليصها من شوائب النفس، وكل ما فتح الله تعالى على فيه منح من الله الكريم وعوارف، وأجل المنح عوارف المعارف.

والكتاب يشتمل على نيف وستين بابا والله المعين (الباب الأول) في منشأ علوم الصوفية (الباب الثاني) في تخصيص الصوفية بحسن الاستماع. (الباب الثالث) في بيان فضيلة علم الصوفية والإشارة إلى أنموذج منها (الباب الرابع) في شرح حال الصوفية واختلاف طريقهم فيها (الباب الخامس) في ذكر ماهية التصوف (الباب السادس) في ذكر تسميتهم بهذا الاسم. (الباب السابع) في ذكر المتصوف والمتشبه (الباب الثامن) في ذكر الملامى وشرح حاله (الباب التاسع) في ذكر من اتبع إلى الصوفية وليس منهم (الباب العاشر) في شرح رتبة المشيخة (الباب الحادى عشر) في شرح حال الخادم ومن يتشبه به (الباب الثانى عشر) في شرح خرقه المشايخ (الباب الثالث عشر) في فضيلة سكان الربط (الباب الرابع عشر) في مشابهة أهل الربط بأهل الصفة (الباب الخامس عشر) في خصائص أهل الربط فيما يتعاهدونه بينهم (الباب السادس عشر) في اختلاف أحوال المشايخ بالسفر والمقام (الباب السابع عشر) فيما يحتاج المسافر إليه من الفرائض والتوافل والفضائل (الباب الثامن عشر) في القدوم من السفر ودخول الرباط والآداب فيه (الباب التاسع عشر) في حال الصوفى المتسبب (الباب العشرون) في حال من يأكل من الفتوح (الباب الحادى والعشرون) في شرح حال المتجرد من الصوفية والمتأهل (الباب الثانى والعشرون) في القول والسماع قبولاً وإثارة (الباب الثالث والعشرون) في القول في السماع رداً وإنكاراً (الباب الرابع والعشرون) في القول في السماع ترفعاً واستغناء (الباب الخامس والعشرون) في السماع تأدباً واعتناء (الباب السادس والعشرون) في خاصية الأربعينية التى يتعاهدها الصوفية (الباب السابع والعشرون) في ذكر فتوح الأربعينية (الباب الثامن والعشرون) في كيفية الدخول فى الأربعينية (الباب التاسع والعشرون) في ذكر أخلاق الصوفية وشرح الخلق (الباب الثلاثون) في ذكر تفاصيل الأخلاق (الباب الحادى والثلاثون) فى الآداب ومكانه من التصوف (الباب الثانى والثلاثون) فى آداب الحضرة لأهل القرب (الباب الثالث والثلاثون) فى آداب الطهارة ومقدماتها (الباب الرابع والثلاثون) فى آداب الوضوء وأسراره (الباب الخامس والثلاثون) فى آداب أهل الخصوص والصوفية فيه (الباب السادس والثلاثون) فى فضيلة الصلاة وكبر شأنها (الباب السابع والثلاثون) فى وصف صلاة أهل القرب (الباب الثامن والثلاثون) فى ذكر آداب الصلاة وأسرارها (الباب التاسع والثلاثون) فى فضل الصوم وحسن أثره (الباب الأربعون) فى أحوال الصوفية فى الصوم والإفطار (الباب الحادى والأربعون) فى آداب الصوم ومهامه. (الباب الثانى والأربعون) فى ذكر الطعام وما فيه من المصلحة والمفسدة. (الباب الثالث والأربعون) فى آداب الأكل. (الباب الرابع والأربعون) فى ذكر آدابهم فى اللباس ونياتهم ومقاصدهم فيه. (الباب الخامس والأربعون) فى ذكر فضل قيام الليل. (الباب السادس والأربعون) فى الأسباب المعينة على قيام الليل. (الباب السابع والأربعون) فى آداب الانبثاء من النوم والعمل بالليل. (الباب الثامن والأربعون) فى تقسيم قيام الليل (الباب التاسع والأربعون) فى استقبال النهار والآداب فيه (الباب الخمسون) فى ذكر العمل فى جميع النهار وتوزيع الأوقات (الباب الحادى والخمسون) فى آداب المريد مع الشيخ (الباب الثانى والخمسون) فيما يعتمد عليه الشيخ مع الأصحاب والتلامذة. (الباب الثالث والخمسون) فى حقيقة الصعبة وما فيها من الخير والشر. (الباب الرابع والخمسون) فى أداء حقوق الصعبة والأخوة فى الله تعالى. (الباب الخامس والخمسون) فى آداب

الصعبة والأخوة (الباب السادس والخسون) في معرفة الإنسان نفسه ومكاشفات الصوفية من ذلك . (الباب السابع والخسون) في معرفة الخواطر وتفصيلها وتمييزها . (الباب الثامن والخسون) في شرح الحال والمقام والفرق بينهما (الباب التاسع والخسون) في الإشارة إلى المقامات على الاختصار والإيجاز . (الباب الستون) في ذكر إشارات المشايخ في المقامات على الترتيب . (الباب الحادى والستون) في ذكر الأحوال وشرحها (الباب الثانى والستون) في شرح كلمات من اصطلاح الصوفية مشيرة إلى الأحوال (الباب الثالث والستون) في ذكر شئ من البدايات والنهايات وصحتها فهذه الأبواب تحررت بعون الله تعالى مشتملة على بعض علوم الصوفية وأحوالهم ، ومقاماتهم وآدابهم ، وأخلاقهم وغرائب مواجيدهم ، وحقائق معرفتهم وتوحيدهم ، ودقيق إشاراتهم ولطيف اصطلاحاتهم ، فعلومهم كلها إلهام عن وجدان ، واعتناء إلى عرفان ، وذوق تحقق يصدق الحال . ولم يف باستيفاء كنه صريح المقال ؛ لأنها مواهب ربانية ، ومناخ حقايق ، استزها صفا السرائر ، وخصوص الضمائر ، فاستعصمت بكنهها على الإشارة ، وطفحت على العبارة ، وتهادتها الأرواح بدلالة اللشام والامتلاف ، وكرعت حقائقها من بحر اللطاف ، وقد اندرس كثير من دقيق علومهم كما انطمس كثير من حقائق رسومهم . وقد قال الجنيد رحمه الله : علينا هذا قد طوى بساطه منذ كذا سنة ، ونحن نتكلم في حواشيه بنا هذا القول منه في وقته مع قرب العهد بعلما السلف وصالحى التابعين ، فكيف بنا مع بعد العهد وقلة العلماء الزاهدين ، والمعارفين بحقائق علوم الدين ، والله المأمول أن يقابل جهد المقل بحسن القبول ، والحمد لله رب العالمين

الباب الأول : في ذكر منشأ علوم الصوفية

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب عبد القاهر بن عبد الله بن محمد السهروردي إمامنا من لفظه في شوال سنة ستين وخمسمائة . وقال : أنبأنا الشريف نور الهدى أبو طالب الحسين بن محمد الزينبي . قال : أخبرتنا كريمة بنت أحمد بن محمد المروزي المجاورة بمكة حرسها الله تعالى . قالت : أخبرنا أبو الهيثم محمد بن مكي الكشميني . قال أنبأنا أبو عبد الله محمد ابن يوسف القريري . قال أخبرنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري . قال حدثنا أبو كرب . قال : حدثنا أبو أسامة عن يزيد ، عن أبي ردة ، عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنما مثل مثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوما فقال : يا قومى ، إني رأيت الجيش بعينى ، وإني أنا النذير العريان ، فالتجاء لشجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فآذلوا فأنطلقوا على مهالهم فنجوا ، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصحبهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ؛ فذلك مثل من أطاعنى فاتبع ما جئت به ، ومثل من عصانى وكذب بما جئت به من الحق . . . معنى احتاجهم : استأصلهم ، ومن ذلك الجماعة التى تفسد الثمار ، وقال صلى الله عليه وسلم : مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا ، فكانت طائفة منها قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكانت منها طائفة أعاذت الماء فسكت الماء فضع الله تعالى بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا . وكانت منها طائفة أخرى قيعان لا تمسك ماء ولا تثبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به . . .

قال الشيخ : أعذ الله تعالى لقبول ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم أصنى القلوب وأزكى النفوس ، فظهر تفاوت الصفاء واختلاف التزكية في صفات الفاعلة والنفع ؛ فن القلوب بما هو بمثابة الأرض الطيبة التى أنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وهذا مثل من انتفع بالعلم في نفسه واحتدى ، ونفعه عليه وهداه إلى الطريق القويم من متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن القلوب ما هو بمثابة الأعاذات - أى الغدران : جمع أخاذة ، وهو المصنع والتدير الذى يجمع فيه الماء - فنفوس العلماء الزاهدين من الصوفية والشيوخ تركت قلوبهم صفى ، فاخصت بمزيد الفائدة فصاروا أخاذات . قال مسروق صحبت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كأخاذات ؛ لأن قلوبهم كانت واعية فصارت أوعية للعلوم بما رزقت من صفاء الفهم .

أخبرنا الشيخ الإمام رضى الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل القزوينى لإجازة ، قال أنبأنا أبو سعيد محمد الخليلي وقال أنبأنا القاضي أبو سعيد محمد الفرخزاذي ، قال أنبأنا أبو إسحق أحمد بن محمد الثعالبي ، قال أنبأنا ابن فتحويه ، قال حدثنا ابن حبان ، قال حدثنا إسحق بن محمد ، قال حدثنا أبي ، قال حدثنا إبراهيم بن عيسى ، قال حدثنا علي بن علي ، قال حدثنا أبو حمزة الثمالي ، قال حدثني عبد الله بن الحسن ، قال : حين نزلت هذه الآية ﴿ وتعيها أذن واعية ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي : سألت الله سبحانه وتعالى أن يجعلها أذنك يا علي . قال علي : فأنسيت شيئاً بعد ، وما كان لي أن أنسى قال أبو بكر الواسطي : آذان وعت عن الله تعالى أسرار

وقال أيضا : واعية في معادنها ليس فيها غير ما شهدته شيء ، فهي الخالية عما سواه : فما اضطراب الطبائع إلا ضرب من الجهل ؛ فقلوب الصوفية واعية ؛ لأنهم زهدوا في الدنيا بعد أن أحكوا أساس التقوى ، فبالتقوى زكت نفوسهم ، وبالزهد صفت قلوبهم ؛ فلما عدموا شواغل الدنيا بتحقيق الزهد : تفتحت مسام بواطنهم ، وسمعت آذان قلوبهم ، وأعاهم على ذلك زهدهم في الدنيا ، فعلماء التفسير وأئمة الحديث وفقهاء الإسلام أحاطوا علما بالكتاب والسنة واستنبطوا منهما الأحكام ، وردوا الحوادث المتجددة إلى أصول من النصوص ، وحسب الله بهم الدين ، وعرف علماء التفسير وجه التفسير وعلم التأويل ، ومذاهب العرب في اللغة وغرائب النحو والتصريف وأصول القصص ، واختلاف وجوه القراءة وصنفوا في ذلك الكتب ، فاتسع بطريقتهم علوم القرآن على الأمة ، وأئمة الحديث ميزوا بين الصحاح والحسان ، وتفرّدوا بمعرفة الرواة وأساقى الرجال ، وحكوا بالجرح والتعديل ليتبين الصحيح من السقيم ويتميز المعجّج من المستقيم ، فيتحفظ بطريقتهم طريق الرواية والسند حفظا للسنة وانتدب الفقهاء لاستنباط الأحكام والتفريع في المسائل ، ومعرفة التعليل ورد الفروع إلى الأصول بالعلل الجوامع ، واستيعاب الحوادث بحكم النصوص وتفرع من علم الفقه والأحكام علم أصول الفقه وعلم الخلاف ، وتفرع من علم الخلاف علم الجدل ، وأحوج علم أصول الفقه إلى شيء من علم أصول الدين ، وكان من علمهم علم الفرائض ، ولزم منه علم الحساب والجبر والمقابلة ، إلى غير ذلك ، فتمهدت الشريعة وتأيّدت ، واستقام الدين الحنيني وتفرع ، وتأسل الهدى النبوي المصطفى فأنبتت أراضى قلوب العلماء الكلاء والعشب بما قبلت من مياه الحياة من الهدى والعلم قال الله تعالى ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : الماء العلم ، والأودية القلوب . قال أبو بكر الواسطي رضى الله عنه : خلق الله تعالى درة صافية فلاحظها بعين الجلال ، فذابت حياء منه فسالت ، فقال ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ﴾ فصفا القلوب من وصول ذلك الماء إليها وقال ابن عطاء ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ هذا مثل ضربه الله تعالى للعبد ، وذلك إذا سال السيل في الأودية لا يبقى في الأودية نجاسة إلا كنسها وذهب بها كذلك إذا سال النور الذى قسمه الله تعالى للعبد في نفسه لا يبقى فيه غفلة ولا ظلمة ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ يعنى قسمة النور ﴿ فسالت أودية بقدرها ﴾ يعنى في القلوب الأنوار على ما قسم الله تعالى لها في الأزل ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء ﴾ فتصير القلوب منورة لا تبقى فيها جفوة ﴿ وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾ تذهب البواطل وتبقى الحقائق . وقال بعضهم ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ أنواع الكرامات ، فأخذ كل قلب بحظه ونصيبه ، فسالت أودية قلوب علماء التفسير والحديث والفقه بقدرها ، وسالت أودية قلوب الصوفية من العلماء الزاهدين في الدنيا المتمسكين بحقائق التقوى بقدرها ، فمن كان في باطنه لوث محبة الدنيا من فضول المال والجاه وطلب المناصب والرفعة سال وادى قلبه بقدره ، فأخذ من العلم طرفا صالحا ولم يحظ بحقائق العلوم ومن زهد في الدنيا اتسع وادى قلبه فسالت فيه مياه العلوم واجتمعت وصارت أخاذات .

قيل للحسن البصرى : هكذا قال الفقهاء ، فقال : وهل رأيت فقيها قط ، إنما الفقيه الزاهد في الدنيا ، فالصوفية أخذوا حظا من علم الدراسة فأقادم علم الدراسة العمل بالعلم ، فلما عملوا بما علوا أقادم العمل علم الوراثة ؛ فهم مع سائر العلماء في علومهم وتميزوا عنهم بعلوم زائدة هي علوم الوراثة ؛ وعلم الوراثة هو الفقه في الدين قال الله تعالى ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ﴾ فصار الإنذار مستفادا من

الفقه . والإنذار : إحياء المنذر بماء العلم ؛ والإحياء بالعلم رتبة الفقيه في الدين ؛ فصار الفقه في الدين من أكل المراتب وأعلاما ، وهو العالم الزاهد في الدنيا المتق الذي يبلغ رتبة الإنذار بعلمه ؛ فورد العلم والهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم أولا ، ورد عليه الهدى والعلم من الله تعالى فارتوى بذلك ظاهرا وباطنا ، فظهر من ارتواء ظاهره الدين ، والدين : هو الانقياد والخضوع ، مشتق من الدون ؛ فكل شيء أتضع فهو دون ؛ فالدين : أن يضع الإنسان نفسه لربه . قال الله تعالى ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصىنا به لإبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ فبالفرق في الدين يستولى الذبول على الجوارح وتذهب عنها نضارة العلم ؛ والنضارة في الظاهر بتزيين الجوارح بالانقياد في النفس والمال ، مستفاد من ارتواء القلب ، والقلب في ارتوائه بالعلم بمثابة البحر فصار قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعلم والهدى بحرا موجا . ثم وصل من بحر قلبه إلى النفس ، فظهر على نفسه الشريفة نضارة العلم وريه ، فتبدلت نعوت النفس وأخلاقها . ثم وصل إلى الجوارح جدول فصارت ريانة ناضرة ، فلما استتم نضارة وامتلا ربا بعثه الله تعالى إلى الخلق ؛ فأقبل على الأمة بقلب موج بمياه العلوم ، واستقبل جداول الفهوم ، وجرى من بحره في كل جدول قسط ونصيب ، وذلك القسط الواصل إلى الفهوم هو الفقه في الدين . روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما عبد الله عز وجل بشيء أفضل من فقه في الدين ، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد . ولكل شيء عماد ، وعماد هذا الدين الفقه » .

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النحيب إمامنا ، قال حدثنا أبو طالب الزيني ، قال أخبرتنا كريمة بنت أحمد بن محمد المروزي ، قالت أخبرنا أبو الهيثم ، قال أخبرنا الفربري ، قال أخبرنا البخاري ، قال حدثنا ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب عن عبد الحميد بن عبد الرحمن ، قال : سمعت معاوية خطيباً يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، وإنما أنا قاسم والله يعطي » ، قال الشيخ : إذا وصل العلم إلى القلب انفتح بصر القلب فأبصر الحق والباطل وتبين له الرشد من الغي ، ولما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأعرابي ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ قال الأعرابي : حسبي حسبي ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فقه الرجل » . وروى عبد الله بن عباس : أفضل العبادة الفقه في الدين . والحق سبحانه وتعالى جعل الفقه صفة القلب فقال ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾ فلما فقهوا علوا ولما علوا عملوا ، ولما عملوا عرفوا ، ولما عرفوا اجتدوا ، فكل من كان أفقه كانت نفسه أسرع إجابة وأكثر انقياد المعالم الدين ، وأوفر حظاً من نور اليقين ، فالعلم جملة موهوبة من الله للقلوب ، والمعرفة تميز تلك الجملة ، والهدى وجدان القلوب ذلك ، فأنبى صلى الله عليه وسلم لما قال : « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم » ، أخبر أنه وجد القلب النبوى العلم وكان هادياً مهدياً ، وعليه صلوات الله عليه منها ورائة معجونة فيه من آدم أبى البشر صلى الله عليه وسلم حيث علم الأسماء كلها ، والأسماء سمة الأشياء ؛ فكرمهم الله تعالى بالعلم . وقال تعالى ﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ فأدرك في العلم والحكمة صار ذا الفهم والنفطة والمعرفة والرأفة واللطف والحب والبغض والفرج والغم والرضا والغضب والكياسة ، ثم اقتضاء استعمال كل ذلك وجعل لقلبه بصيرة واهتداء إلى الله تعالى بالنور الذى وهب له ، فأنبى صلى الله عليه وسلم بعث إلى الأمة بالنور الموروث والموهوب له خاصة ، وقيل : لما خاطب الله السموات والأرض بقوله ﴿ اثبتا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين ﴾ فطق من الأرض وأجاب موضع الكعبة ، ومن السماء ما يحاذيها . وقد قال عبد الله بن عباس رضي الله عنها : أصل طينة رسول الله صلى الله عليه وسلم من سرة الأرض بمكة ، فقال بعض العلماء : هذا يشعر بأن ما أجاب من الأرض ذرة المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن موضع الكعبة دحيث الأرض ، فصار رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأصل في التكوين ، والكائنات تتبع له . وإلى هذا إشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين » ، وفي رواية : « بين الروح والجسد » ، وقيل لذلك سمى أمياً ، لأن مكة أم القرى وذرتة أم الخليقة ، وتربة الشخص مدفنه ، فكان يقتضى أن يكون مدفنه بمكة حيث كانت تربته منها ، ولكن قيل : إن الماء لما

تموج رمى الزبد إلى النواحي ، فوقعت جوهرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما يحاذي تربته بالمدينة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مكيا مدنيا حينئذ إلى مكة وتربته بالمدينة ، والإشارة فيما ذكرناه من ذرة رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو ما قال الله تعالى ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ربكم قالوا بلى ﴾ ورد في الحديث : إن الله تعالى مسح ظهر آدم وأخرج ذريته منه كهيئة الذر ، استخرج الذر من مسام شعر آدم ، فخرج الذر كروح العرق ، وقيل : كان المسح من بعض الملائكة فأضاف الفعل إلى المسبب . وقيل معنى القول بأنه مسح أى أحصى الأرض بالمساحة ، وكان ذلك يطن نعمان واد بجانب عرفة بين مكة والطائف ، فلما خاطب الذر أجابوا ببلى كتب العهد في رق أبيض وأشهد عليه الملائكة وألقم الحجر الأسود ؛ فكانت ذرة رسول الله صلى الله عليه وسلم هى المجيبة من الأرض ، والعلم والهدى فيه معجونا ، فبعث بالعلم والهدى موروثا له وموهوبا . وقيل : لما بعث الله جبرائيل وميكائيل ليقبضا قبضة من الأرض فأبت ، حتى بعث الله عزرائيل فقبض قبضة من الأرض ، وكان إبليس قد وطئ الأرض بقدميه فصار بعض الأرض بين قدميه وبعض الأرض بين موضع أقدامه ، فخلقت النفس بماس قدم إبليس فصارت مأوى الشر وبعضها لم يصل إليه قدم إبليس ، فمن تلك التربة أصل الأنبياء والأولياء ، وكانت ذرة رسول الله صلى الله عليه وسلم موضع نظر الله تعالى من قبضة عزرائيل لم يمسه قدم إبليس ، فلم يصبه حظ الجهل ، بل صار مزروع الجهل مرفراً حظه من العلم ، فبعثه الله تعالى بالهدى والعلم ، وانتقل من قلبه إلى القلوب ، ومن نفسه إلى النفوس ، فوقعت المناسبة في أصل طهارة الطينة ، ووقع التأليف بالعارف الأول ؟ فكل من كان أقرب مناسبة بنسبة طهارة الطينة كان أوفر حظا من قبول ما جاء به ، فكانت قلوب الصوفية أقرب مناسبة فأخذت من العلم حظا وافرًا وصارت بواطنهم أخادات ، فعملوا وعلموا كالأغاذل الذى يسقى منه ويرزق منه ، وجمعوا بين فائدة علم الدراسة وعلم الوراثة بإحكام أساس التقوى ، ولما تزكت النفوس انجملت مرآيا قلوبهم بما صقلها من التقوى ، فأنجلي فيها صور الأشياء على هيئتها وماهيتها ، فبانت الدنيا بقبحها فرفضوها ، وظهرت الآخرة بحسنها فطلبوها ، فلما زهدوا في الدنيا انصبت إلى بواطنهم أقسام العلوم انصبابا ، وانضاف إلى علم الدراسة علم الوراثة . واعلم أن كل حال شريف نعره إلى الصوفية في هذا الكتاب هو حال المقرب ، والصوفى هو المقرب ، وليس في القرآن اسم الصوفى ، واسم الصوفى ترك ووضع للمقرب على ما سنشرح ذلك في بابه . ولا يعرف في بلاد الإسلام شرقا وغربا هذا الاسم لأهل القرب ، وإنما يعرف للمتوسمين ، وكمن الرجال المقربين في بلاد المغرب وبلاد تركستان وما وراء النهر ولا يسمون صوفية ، لأنهم لا يتزبون بزي الصوفية ، ولا مشاحة في الألفاظ فيعلم أنا نحن بالصوفية المقربين ، فشايخ الصوفية الذين أسماؤهم في الطبقات وغير ذلك من الكتب كلهم كانوا في طريق المقربين وعلومهم علوم أحوال المقربين ، ومن تطلع إلى مقام المقربين من جملة الأبرار فهو متصوف بالم يتحقق بحالهم ، فإذا تحقق بحالهم صار صوفيا ، ومن عداهما ممن تميز بزي ونسب إليهم فهو متشبه ﴿ وفوق كل ذى علم عليم ﴾ .

الباب الثانى : فى تخصيص الصوفية بحسن الاستماع

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردى إمامنا ، قال أخبرنا أبو منصور المقرئ : قال أخبرنا الإمام الحافظ أبو بكر الخطيب : قال أخبرنا أبو عمرو الهاشمي قال أخبرنا أبو علي اللؤلؤي قال أخبرنا أبو داود السجستاني ، قال حدثنا مسدد قال حدثنا يحيى عن شعبة ، قال حدثني عمر بن سليمان من ولد عمر ابن الخطاب ، عن عبد الرحمن بن أبان عن أبيه عن زبد بن ثابت قال . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، نضر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه وليس بفقيه ، أساس كل خير حسن الاستماع ، قال الله تعالى ﴿ ولو علم الله فيهم خيرا لسمعهم ﴾ يقول بعضهم : علامة الخير في السماع أن يسمع العبد بفشاء أو صافه ويزعموته ، ويسمعه بحق من حق . وقال بعضهم : لو علمهم أهلا للسمع لفتح آذانهم للاستماع ، فمن تملكه الوساوس وغلب على باطنه

حديث النفس لا يقدر على حسن الاستماع ؛ فالصوفية وأهل القرب لما علموا أن كلام الله تعالى ورسائله إلى عباده ومخاطباته إياهم رأوا كل آية من كلامه تعالى بحراً من أبحر العلم بما تتضمن من ظاهر العلم وباطنه وجليته وخفيه ، وباباً من أبواب الجنة باعتبار ما تنبئ به أو تدعو إليه من العمل .

ورأوا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم - الذي لا ينطق به عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى - من عند الله تعالى يتعين الاستماع إليه ؛ فكان من أهم ما عندهم الاستعداد للاستماع ، ورأوا أن حسن الاستماع قرع باب الملكوت واستئصال بركة الرغبات والرغبات ورأوا أن الوسواس أذخنة نائرة من نار النفس الأمارة بالسوء ، وقيام يترام من نفث الشيطان ، وأن الحظوظ العاجلة والأقسام الدنيوية التي هي مناط الهوى ومثار الردى بمثابة الخطب الذي تزداد النار به تأججاً ويزداد القلب به تحرجاً ، فرفضوا الدنيا وزهدوا فيها ، فلما انقطعت عن نار النفس أخطاياها ، وفترت نيرانها وقل دغائها ، شهدت بواطنهم وقلوبهم مصادر العلوم ، فهبتوا موارد بصفاء الفهم ، فلما شهدوا سمعوا . قال الله تعالى ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ قال الشبلي رحمه الله : موعظة القرآن لمن قلبه حاضر مع الله لا يغفل عنه طريقة عين ، قال يحيى بن معاذ الرازي : القلب قلبان ، قلب قد احتشى بأشغال الدنيا حتى إذا حضر أمر من أمور الطاعة لم يدر صاحبه ما يصنع من شغل قلبه بالدنيا ، وقلب قد احتشى بأحوال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر صاحبه ما يصنع لذهاب قلبه في الآخرة فانظر كم بين بركة تلك الأفهام الثابتة وشؤم هذه الأشغال الفانية التي أقعدتك عن الطاعة ؟ قال بعضهم : لمن كان له قلب سليم من الأغراض والأمراض . قال الحسين بن منصور : لمن كان له قلب لا يخطر فيه إلا شهود الرب ، وأنشد :

أنعى إليك قلوباً طالما هطلت سحاب الوحي فيها أبحر الحكم

وقال ابن عطاء : قلب لاحظ الحق بعين التعظيم ، فذاب له وانقطع إليه عما سواه . قال الواسطي : أى لذكرى لقوم مخصوصين لالسائر الناس ، لمن كان له قلب : أى في الآزل وهم الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه ﴾ وقال أيضاً : المشاهدة تذهل ، والحجبة تفهم ، لأن الله تعالى إذا تجلى لشيء خضع له وخشع ، وهذا الذي قاله الواسطي صحيح في حق أقوام ، وهذه الآية تحكم بخلاف هذه الأقوام آخرين وهم أرباب التمكن يجمع لهم بين المشاهدة والفهم فوضع الفهم نخل المحادثة والمكاملة ، وهو سمع القلب ، ووضع المشاهدة بصر القلب ، والسمع حكمة وفائدة ، والبصر حكمة وفائدة ، فمن هو في سكر الحال يغيب سمعه في بصره ، ومن هو في حال الصحو والتمكين لا يغيب سمعه في بصره لتلك ناصية الحال ويفهم بالوعاء الوجودى المستعد لفهم المقال ، لأن الفهم مورد للإلهام ، والسماع والإلهام يستدعيان وعاء وجودياً وهذا الوجود موهوب منشأ إنشاء ثانياً للتممكن في مقام الصحو وهو غير الوجود الذي يتلاشى عند لمعان نور المشاهدة لمن جاز على بحر الفناء إلى مقار البقاء .

وقال ابن سمعون ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ﴾ يعرف آداب الخدمة وآداب القلب ، وهى ثلاثة أشياء ، فالقلب إذا ذاق طعم العبادة عتق من رق الشهوة ، فمن وقف على شهوته وجد تلك الأدب ، ومن افتقر إلى ما لم يجد من الأدب بعد الاشتغال بما وجد فقد وجد ثلث الأدب ، والثالث : امتلاء القلب ، فالذى بدأ بالفضل عند الوفاء تفضلاً فقد وجد كل الأدب .

قال محمد بن علي الباقر : موت القلب من شهوات النفس ، فكما رفض شهوات نال من الحياة بقسطها ، فالسمع للأحياء لا للأموات . قال الله تعالى ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ .

قال سهل بن عبد الله القلب رقيق تؤثر فيه الخطرات المذمومة ، وأثر القليل عليه كثير . قال الله تعالى ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ فالقلب عمال لا يفتر ، والنفس يقظانة لا ترقد ، فإن كان العبد مستمعاً إلى الله تعالى وإلا فهو مستمع إلى الشيطان والنفس ، فكل شيء مسد باب الاستماع فن حركة النفس ، وفي حركتها يطرئ الشيطان . وقد ورد « لولا أن الشياطين يخومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات » .

وقال الحسين : بصائر المبصرين، ومعارف العارفين، ونور العلماء الربانيين، وطرق السابقين التاجيين، والأزل والأبد وما بينهما من الحدث لمن كان له قلب أو ألقى السمع .

وقال ابن عطاء : هو القلب الذى يلاحظ الحق ويشاهده ولا ينيب عنه خطرة ولا فقرة ، فيسمع به بل يسمع منه، ويشهد به بل يشهده ، فإذا لاحظ القلب الحق بعين الجلال فزع وارتعد ، وإذا طالع به عين الجمال هدأ واستقر .
وقال بعضهم : لمن كان له قلب بصير يقوى على التجريد مع الله تعالى والتفريد له حتى يخرج من الدنيا والخلق والنفس ، فلا يشتغل بغيره ولا يركن إلى سواه ، فقلب الصوفي مجرد عن الأكوان ألقى سمعه وشهد بصره ، فسمع المسموعات وأبصر المبصرات وشاهد المشهودات ، لتخلصه إلى الله تعالى واجتماعه بين يدي الله والأشياء كلها عند الله وهو عنده ، فسمع وشاهد فأبصر وسمع جملها ولم يسمع ويشاهد تفاصيلها ، لأن الجمل تدرك لسعة عين الشهود ، والتفاصيل لا تدرك لضيق وعاء الوجود ، والله تعالى هو العالم بالجمل والتفاصيل .

وقد مثل بعض الحكماء تفاوت الناس في الاستماع وقال : إن الباذر خرج بيذره فلا منه كفه فوقع منه شيء على ظهر الطريق ، فلم يلبث أن انحط عليه الطير فاخطفه ، ووقع منه شيء على الصفوان - وهو الحجر الأملس - عليه تراب يسير وندى قليل فنبت ، حتى إذا وصلت عروقه ، إلى الصفام تجدد مساعا تنفذ فيه ، فيبس ووقع منه شيء في أرض طيبة فيها شوك نابت فنبت ، فلما ارتفع خنقه الشوك فأفسده واختلط به ، ووقع منه شيء على أرض طيبة ليست على ظهر الطريق ولا على الصفوان ولا فيها شوك فنبت ونما وصلاح ، فمثل الباذر مثل الحكيم ، ومثل البذر كمثل صواب الكلام ، ومثل ما وقع على ظهر الطريق مثل الرجل يسمع الكلام وهو لا يريد أن يسمعه فاليبث الشيطان أن يخطفه من قلبه فيفسده ، ومثل الذى وقع على الصفوان مثل الرجل يستمع الكلام فيستحسنه ثم تفضى الكلمة إلى قلب ليس فيه عزم على العمل فيفسد من قلبه ، ومثل الذى وقع في أرض طيبة فيها شوك مثل الرجل يسمع الكلام وهو ينو أن يعمل به فإذا اعترضت له الشهوات قيدته عن النهوض بالعمل فترك ما نوى عمله لغلبة الشهوة كالزورع يحتق بالشوك .
ومثل الذى وقع في أرض طيبة مثل المستمع الذى ينو عمله فيفهمه ويعمل به ويجانب هواه ، وهذا الذى جانب الهوى وانتهج سبيل الهدى هو الصوفي ، لأن للهوى حلاوة ، والنفس إذا تشربت حلاوة الهوى فهي تتركز إليه وتستلذه ، واستلذاذ الهوى هو الذى يخنق الثبت كالشوك ، وقلب الصوفي نازله حلاوة الحب الصافي ، والحب الصافي تعلق الروح بالحضرة الإلهية . ومن قوة انجذاب الروح إلى الحضرة الإلهية بداعية الحب تستتبع القلب والنفس ، وحلاوة الحب للحضرة الإلهية تغلب حلاوة الهوى لأن حلاوة الهوى كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار لكونها لا ترتقى عن حد النفس ، وحلاوة الحب كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء لأنها متصلة في الروح فرعها عند الله تعالى وعروقها ضاربة في أرض النفس ، فإذا سمع الكلمة من القرآن أو من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم يتشربها بالروح والقلب والنفس ويفيدها بكليته ويقول :

أشم منك نسيما أعرفه * أظن لمياء جرت فيك أردانا

فتعنه الكلمة وتشمله وتصير كل شعرة منه سمعا وكل ذرة منه بصرا ، فيسمع الشكل بالشكل ، وببصر الشكل بالشكل ويقول :

إن تأملتكم فكلى عيون * أو تذكرتكم فكلى قلوب

قال الله تعالى ﴿ فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾ .

قال بعضهم : اللب والعقل مائة جزء : تسعة وتسعون في النبي صلى الله عليه وسلم ، وجزء في سائر المؤمنين ، والجزء الذى في سائر المؤمنين أحد وعشرون سهما ، فسهم يتساوى المؤمنون كلهم فيه وهو : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وعشرون جزءا يتفاضلون فيها على مقادير حقائق إيمانهم . قيل في هذه الآية لإظهار فضيلة رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، أى : الأحسن ما يأتى به ، لأنه لما وقعت له صحة التمكن ومقارنة الاستقرار قبل خلق الكون ظهرت عليه الأنوار فى الأحوال كلها ، وكان معه أحسن الخطاب ، وله السبق فى جميع المقامات ، ألا تراه صلى الله عليه وسلم يقول « نحن الآخرون السابقون » ، يعنى الآخرون وجودا السابقون فى الخطاب الأول فى الفضل فى محل القدس . وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ قال الجنيد : تنسموا روح مادعاهم إليه ، فأسرعوا إلى محو العلائق المشغلة ، وهجموا بالنفوس على معانقة الخذر ، وتجرعوا مرارة المكابدة ، وصدقوا الله فى المعاملة ، وأحسنوا الأدب فيما توجهوا إليه ، وهانت عليهم المصائب ، وعرفوا قدر ما يطلبون ، وسجنوا همهم عن التلفت إلى مذكور سوى وليهم ، لحيا حياة الأبد بالحى الذى لم يزل ولا يزال .

وقال الواسطى رحمه الله تعالى : حياتها تصفيتها عن كل معلول لفظا وفعلًا .

وقال بعضهم : استجبوا لله بسرائرهم ، وللرسول بظواهرهم ، لحياة النفوس بمتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحياة القلوب بمشاهدة العيوب ، وهو الحياء من الله تعالى برؤية التقصير .

وقال ابن عطاء : فى هذه الآية الاستجابة على أربعة أوجه (أولها) إجابة التوحيد . (والثانى) إجابة التحقيق . (والثالث) إجابة التسليم . (والرابع) إجابة التقريب ، فالاستجابة على قدر السماع ، والسماع من حيث الفهم ، والفهم على قدر المعرفة بقدر الكلام ، والمعرفة بالكلام على قدر المعرفة والعلم بالمتكلم ، ووجوه الفهم لا تنحصر ، لأن وجوه الكلام لا تنحصر . قال الله تعالى ﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ﴾ فله تعالى فى كل كلمة من القرآن كلماته التى ينفذ البحر دون نفادها ، فبكل الكلام كلمة نظراً إلى ذات التوحيد ، وكل كلمة كلمات نظراً لسعة العلم الأزلى .

حدثنا شيخنا أبو النجيب السهروردى ، قال : أنبأ الرئيس أبو علي بن نهان قال : أخبرنا الحسن بن شاذان قال : أخبرنا دعلج بن أحمد قال أخبرنا أبو الحسن بن عبد العزيز البغوى قال أخبرنا أبو عبيد بن القاسم بن سلام قال حدثنا حجاج عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن الحسن برفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما نزل من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ، ولكل حد مطلع » ، قال فقلت يا أبا سعيد ، ما المطلع ؟ قال : يطالع قوم يعملون به . قال أبو عبيد : أحسب أن قول الحسن هذا إنما ذهب إلى قول عبد الله بن مسعود ، قال أبو عبيد : حدثني حجاج عن شعبة عن عمرو بن مرة عن مرة عن عبد الله بن مسعود قال : ما من حرف أو آية إلا وقد عمل بها قوم ، أولها قوم سيعملون بها ، فالمطلع : المصعد يصعد عليه من معرفة عليه ، فيكون المطلع : الفهم بفتح الله تعالى عن كل قلب بما يرزق من النور . واختلف الناس فى معنى الظهر والبطن . قال قوم : الظهر لفظ القرآن ، والبطن تأويله . وقيل الظهر : صورة القصة بما أخبر الله تعالى عن غضبه على قوم وعقابه لإيائهم ، فظاهر ذلك إخبار عنهم وباطنه عظة وتذنية لمن يقرأ ويسمع من الأمة . وقيل ظاهره : تنزيله الذى يجب الإيمان به وباطنه وجوب العمل به . وقيل ظهره : تلاوته كما نزل قال تعالى ﴿ ورتل القرآن ترتيلاً ﴾ وباطنه التدبر والتفكر فيه ، قال الله تعالى ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكروا أولو الألباب ﴾ وقيل قوله : لكل حرف حد ، أى فى التلاوة لا يجاوز المصحف الذى هو الإمام ، وفى التفسير لا يجاوز المسموع المنقول ، وفرق بين التفسير والتأويل ؛ فالتفسير علم نزول الآية وشأنها وقصتها والأسباب التى نزلت فيها ، وهذا يحظر على الناس كافة القول فيه إلا بالسماع والآثر ؛ وأما التأويل : فصرف الآية إلى معنى تحتمله إذا كان المحتمل الذى يراهوافق الكتاب والسنة ؛ فالتأويل يختلف باختلاف حال المؤول على ما ذكرناه من صفاء الفهم ورتبة المعرفة ومنصب القرب من الله تعالى . قال أبو الدرداء : لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوها كثيرة ، فما أعجب قول عبد الله بن مسعود . ما من آية إلا ولها قوم سيعملون بها ، وهذا الكلام محرض لكل طالب صاحب همة أن يصنى موارد الكلام ويفهم دقيق معانيه وغامض أسرارها من قلبه ، فللصوفى بكمال الزهد فى الدنيا وتجريد القلب عما سوى الله تعالى مطلع من كل آية ، وله بكل مرة فى التلاوة مطلع جديد وفهم عتيق ، وله بكل

فهم عمل جديد ، ففهمهم يدعو إلى العمل ، وعملهم يحلب صفاء الفهم ودقيق النظر في معاني الخطاب ، فمن الفهم علم ، ومن العلم عمل ، والعلم والعمل يتناوبان فيه ، وهذا العمل آتفاً لأنها هو عمل القلوب ، وعمل القلوب غير عمل القلب ، وأعمال القلوب للطفها وصدافتها مشاكلة للعلوم ، لأنها نيات وطويات وتعلقات روحية وتبادلات قلبية ومسامرات سرية ، وكلما أتوا بعمل من هذه الأعمال رفع لهم علم من العلم ، وطلعوا على مطلع من فهم الآية جديد ، ويخالج سرى أن يكون المطلع ليس بالوقوف بصفاء الفهم على دقيق المعنى وغامض السر في الآية ، ولكن المطلع أن يطلع عند كل آية على شهود المتكلم بها ؛ لأنها مستودع وصف من أوصافه وثمرات من نعمته ، فتجدد له التجليات بتلاوة الآيات وسماها ، ويصير له مرآة منبئة عن عظيم الجلال .

ولقد نقل عن جعفر الصادق رضي الله عنه أنه قال : لقد تجلى الله تعالى لعباده في كلامه ولكن لا يبصرون ، فيكون لكل آية مطلع من هذا الوجه ؛ فالحد : حد الكلام ، والمطلع : الترقى عن الكلام إلى شهود المتكلم . وقد نقل عن جعفر الصادق أيضاً أنه خرمة شيا عليه وهو في الصلاة ، فسئل عن ذلك فقال : مازلت أردد الآية حتى سمعتها من المتكلم بها ؛ فالصوفي لم يلاح له نور ناصية التوحيد ، وألقى سمعه عند سماع الوعد والوعيد ، وقلبه بالتخلص عما سوى الله تعالى صار بين يدي الله حاضراً شهيداً ، يرى لسانه أو لسان غيره في التلاوة ، كشجرة موسى عليه السلام حيث أسمعه الله منها خطابه إياه بإني أنا الله ؛ فإذا كان سماعه من الله تعالى واستماعه إلى الله ، صار سمعه بصره وبصره سمعه وعلمه عمله عليه ، وعاد آخره أوله وأوله آخره . ومعنى ذلك : أن الله تعالى خاطب الذر بقوله ﴿ ألسنت بربكم ﴾ فسمعت النداء على غاية الصفاء ، ثم لم تزل الذرات تتقلب في الأضلاب وتنتقل إلى الأرحام . قال الله تعالى ﴿ الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين ﴾ يعني تقلب ذرتك في أضلاب أهل السجود من آباءك الأنبياء ، فما زالت تذتقل في الذرات حتى برزت بين أجسادها ، فاحتجبت بالحكمة عن القدرة ، وبعلم الشهادة عن عالم الغيب وتراكم ظلماتها بالقلب في الأطوار ؛ فإذا أراد الله تعالى بالعبد حسن الاجتماع بأن يصيره صوفياً صافياً لا يزال يرقيه في رتب التزكية والتحلية حتى يخلص من مضيق عالم الحكمة إلى قضاء القدرة ، ويزال عن بصيرته النافذة بحجب الحكمة فيصير سماعه ﴿ ألسنت بربكم ﴾ كشفاً وعباناً ، وتوحيداً وعرفانه تبياناً وبرهاناً ، وتدرج له ظلم الأطوار في لوازم الأنوار قال بعضهم : أنا أذكر خطاب ﴿ ألسنت بربكم ﴾ إشارة منه إلى هذا الحال ، فإذا تحقق الصوفي بهذا الوصف صار وقته سرمداً وشهوده مؤبداً وسماعه متوالياً متجدداً ، يسمع كلام الله تعالى وكلام رسوله حق السماع .

قال سفيان بن عيينة . أول العلم الاستماع ، ثم الفهم ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر .

وقال بعضهم : تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام .

وقيل : من حسن الاستماع إمهال المتكلم حتى يقضى حديثه ، وقلة الالتفات إلى الجوانب ، والإقبال بالوجه ، والنظر إلى المتكلم ، والوعى . قال الله تعالى لنبيه عليه السلام ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه ﴾ وقال ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ هذا تعليم من الله تعالى لرسوله عليه السلام حسن الاستماع . قيل : معناه لا تمله على الصحابة حتى تتدبر معانيه حتى تكون أنت أول من يخلص بغرائب وعجائبه . وقيل : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه جبريل وأوحى إليه لا يفتر من قراءة القرآن مخافة الانفلات والنسيان ، فنهاه الله تعالى عن ذلك ، أي لا تعجل بقراءته قبل أن يفرغ جبرائيل من إلقائه إليك ، وقد تكون مطالعة العلوم وأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعنى السماع ، ويحتاج المطالع للعلوم والأخبار وسير أهل الصلاح وحكاياتهم وأنواع الحكم والأمثال التي فيها إنجاة من عذاب الآخرة : أن يكون في ذلك كله متأدباً بأداب حسن الاستماع بالزهادة والتقوى حتى يأخذ من كل ما سمعه أحسنه ، فيسكون آخذاً بالمطالعة من كل شيء أحسنه . ومن الأدب في المطالعة : أن العبد إذا أراد أن يطالع شيئاً من الحديث والعلم ، يعلم أنه قد تكون مطالعة ذلك بداعية النفس وقلة صبرها على الذكر والتلاوة والعمل ، فاستروح بالمطالعة كما تروح بمجالسة الناس ومكالمتهم ؛ فليستفقد المتفطن نفسه في ذلك ، ولا يستحل مطالعة الكتب إلى حدي أخذ

ذلك من وقته ويراعى الإفراط فيه ، فإذا أراد مطالعة كتاب أو شيء من العلم لا يبادر إليه إلا بعد التثبت والإقامة والرجوع إلى الله تعالى وطلب التأييد من رحمة الله تعالى فيه ، فإنه قد يرزق بالمطالعة ما يكون من مزيد حاله ، ولو قدم الاستخارة لذلك كان حسنا ، فإن الله تعالى يفتح عليه باب الفهم والتفهم موهبة من الله زيادة على ما يتبين من صورة العلم فللعلم صورة ظاهرة وسر باطن وهو الفهم والله تعالى نبيه على شرف الفهم بقوله ﴿ ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما ﴾ أشار إلى الفهم بمزيد اختصاص وتميز عن الحكم والعلم . وقال الله تعالى ﴿ إن الله يسمع من يشاء ﴾ فإذا كان المسمع هو الله تعالى ، يسمع تارة بواسطة اللسان وتارة بما يرزق بمطالعه الكتب من التبيان ، فصار ما يفتح الله تعالى بمطالعة الكتب على معنى ما يرزق من المسموع ببركة حسن الاستماع ، لتفقد العبد حاله في ذلك ويتعلم علمه وأدبه ، فإنه باب كبير من أبواب الخير ، وعمل صالح من أعمال المشايخ والصوفية والعلماء الزاهدين المتبتلين لاستفتاح أبواب الرحمة والمزيد من كل شيء ينفع سلوك الآخرة .

الباب الثالث : في بيان فضيلة علوم الصوفية ، والإشارة إلى أنموذج منها

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردي رحمه الله ، قال أنبأنا أبو عبد الرحمن الصوفي ، قال أخبرنا عبد الرحمن بن محمد قال : أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد السرخسي ، قال أخبرنا أبو عمران السمرقندي ، قال : أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي ، قال حدثنا نعيم بن حماد ، قال حدثنا بقية عن الأحوص بن حكيم عن أبيه قال سأل رجل النبي عليه السلام عن الشر فقال ، لا تسألوني عن الشر وسلوني عن الخير يقولها ثلاثا ، ثم قال : إن شر الشر شرار العلماء ، وإن خير الخير خير خيار العلماء ، أدلاء الأمة ، وعمد الدين ، وسرج ظلمات الجهالات الجليلة ، ونقباء ديوان الإسلام ، ومعادن حكم الكتاب والسنة ، وأمناء الله تعالى في خلقه ، وأطباء العباد ، وجهابذة الملة الخفيفة ، وحملة عظيم الأمانة ، فهم أحق الخلق بمحافق التقوى ، وأحوج العباد إلى الزهد في الدنيا ، لأنهم يحتاجون إليها لنفسمهم ولغيرهم ، ففسادهم فساد ، وصلاحهم صلاح متعدد .

قال سفيان بن عيينة : أجهل الناس من ترك العمل بما يعلم . وأعلم الناس من عمل بما يعلم . وأفضل الناس أخشعهم لله تعالى ، وهذا قول صحيح يحكم بأن العالم إذا لم يعمل بعلمه فليس بعالم ، فلا يفرك تشدقه واستطالته وحذاقته وقوته في المناظرة والمجادلة ، فإنه جاهل وليس بعالم ، إلا أن يتوب الله عليه ببركة العلم ، فإن العلم في سبيل الإسلام لا يضيع أهله ويرجى عود العالم ببركة العلم ، والعلم فريضة وفضيلة ، فالفريضة : ما لا بد للإنسان من معرفته لتقوم بواجب حق الدين . والفضيلة ما زاد على قدر حاجته مما يكسبه فضيله في النفس موافقة للكتاب والسنة ، وكل علم لا يوافق الكتاب والسنة وما هو مستفاد منهما أو معين على فهمهما أو مستند إليهما كائنا ما كان ، فهو رذيلة وليس بفضيلة ، يزداد الإنسان به هواناً ورذيلة في الدنيا والآخرة ، فالعلم الذي هو فريضة لا يسع الإنسان جهله على ما حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب قال : أخبرنا الحافظ أبو القاسم المستعلي قال أخبرنا الشيخ العالم أبو القاسم عبد الكريم ابن هوازن القشيري قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن يوسف الأصفهاني قال أخبرنا أبو سعيد بن الأعرابي قال حدثنا جعفر بن عامر العسكري قال حدثنا الحسن بن عطية قال حدثنا أبو عاتكة عن أنس بن مالك قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اطلبوا العلم ولو بالعين » ، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم . واختلف العلماء في العلم الذي هو فريضة . قال بعضهم : هو طلب علم الإخلاص ومعرفة آفات النفوس وما يفسد الأعمال ، لأن الإخلاص مأموره كما أن العمل مأموره . قال الله ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين ﴾ فالإخلاص مأموره ، وخدع النفس وغرورها ودسائسها وشهواتها الخفية تخرب مباني الإخلاص المأموره ، فصار علم ذلك فرضا حيث كان الإخلاص فرضا ، وما لا يصل العبد إلى الفرض إلا به صار فرضا : وقال بعضهم : معرفة الحواطر وتفصيلها فريضة ، لأن الحواطر هي أصل الفعل ومبدؤه ومنشؤه وبذلك يعلم الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان ، فلا يصح الفعل إلا بصحتها ، فصار

علم ذلك فرضاً حتى يُصح الفعل من العبد لله . وقال بعضهم : هو طلب علم الوقت . وقال سهل بن عبدالله : هو طلب علم الحال يعني حكم حاله الذي بينه وبين الله تعالى في دنياه وآخرته . وقيل : هو طلب علم الباطن وهو ما يزداد به العبد يقيناً ، وهذا العلم هو الذي يكتسب بالصحبة وبجالس الصالحين من العلماء الموقنين والزهاد المقربين الذين جعلهم الله تعالى من جنوده يسوق الطالبين إليهم ويقويهم بطريقهم ويرشدهم بهم ، فهم وراث علم النبي عليه السلام ومنهم من يتعلم علم اليقين . وقال بعضهم : هو علم البيع والشراء والنكاح والطلاق ، إذا أراد الدخول في شيء من ذلك يجب عليه طلب علمه . وقال بعضهم : هو أن يكون العبد يريد عملاً يجهل ما لله عليه في ذلك ، فلا يجوز أن يعمل برأيه ، إذ هو جاهل فيما له وعليه في ذلك ، فيراجع عالماً يسأله عنه ليجهل على بصيرة ولا يعمل برأيه ، وهذا علم يجب طلبه حيث جهل . وقال بعضهم : طلب علم التوحيد فرض ، فمن قائل يقول : إن طريقة النظر والاستدلال ، ومن قائل يقول : إن طريقة النقل . وقال بعضهم : إذا كان العبد على سلامة الباطن وحسن الاستسلام والانقياد في الإسلام ولا يحيل في صدره شيء فهو سالم ، فإن جاك في صدره شيء أو توسوس بشيء يقدر في العقيدة أو ابتلى بشبهة لا تؤمن غائلتها أن تجره إلى بدعة أو ضلالة ، فيجب عليه أن يستكشف عن الاشتباه ويراجع أهل العلم ومن يفهمه طريق الصواب . وقال الشيخ أبو طالب المكي رحمه الله : هو علم الفرائض الخمس التي بنى عليها الإسلام ، لأنها افترضت على المسلمين . وإذا كان عملها فرضاً صار علم العمل بها فرضاً ، وذكر أن علم التوحيد داخل في ذلك ، لأن أولها الشهادتان والإخلاص داخل في ذلك ، لأن ذلك من ضرورة الإسلام ، وعلم الإخلاص داخل في صحة الإسلام ، وحيث أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه فريضة على كل مسلم يقتضي أن لا يسع مسلماً جهله ، وكل ما تقدم من الأقاويل أكثرها ما يسع المسلم جهله ؛ لأنه قد لا يعلم علم الخواطر وعلم الحال وعلم الحلال بجميع وجوه وعلم اليقين المستفاد من علماء الآخرة كما ترى ، وأكثر المسلمين على الجهل بهذه الأشياء ، ولو كانت هذه الأشياء فرضت عليهم لعجز عنها أكثر الخلق إلا ما شاء الله ، وميل في هذه الأقاويل إلى قول الشيخ أبي طالب أكثر ، وإلى قول من قال : يجب عليه علم البيع والشراء والنكاح والطلاق إذا أراد الدخول فيه . وهذا لعمري فرض على المسلم علمه وهذا الذي قاله الشيخ أبو طالب عندي في ذلك حد جامع لطلب العلم المفترض والله أعلم .

فأقول : العلم الذي طلبه فريضة على كل مسلم علم الأمر والنهي ، والمأمور : ما يثاب على فعله ويعاقب على تركه ، والمنهى : ما يعاقب على فعله ويثاب على تركه ، والمأمورات والمنهيات منها ما هو مستمر لازم للعبد بحكم الإسلام ، ومنها ما يتوجه الأمر فيه والنهي عنه عند وجود الحادثة ، فمأمور لازم مستمر لزومه متوجه بحكم الإسلام عليه به واجب من ضرورة الإسلام ، وما يتخذ بالحوادث ويتوجه الأمر والنهي فيه فعله عند تجدد فرض لا يسع مسلماً على الإطلاق أن يجهله ، وهذا الجهد أعم من الوجوه التي سبقت والله أعلم . ثم إن المشايخ من الصوفية وعلماء الآخرة الزاهدين في الدنيا شمروا عن ساق الحد في طلب العلم المفترض حتى عرفوه وأقاموا الأمر والنهي وخرجوا من عهدة ذلك بحسن توفيق الله تعالى . فلما استقاموا في ذلك متابعين لرسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أمره الله تعالى بالاستقامة فقال تعالى ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ﴾ فتح الله عليهم أبواب العلوم التي سبق ذكرها . قال بعضهم : من يطبق مثل هذه المخاطبة بالاستقامة إلا من أيد من المشاهدات القوية والأنوار البينة والآثار الصادقة بالتثبوت برهان عظيم كما قال تعالى ﴿ ولولا أن ثبتناك ﴾ ثم حفظ في وقت المشاهدة ومشاهدة الخطاب وهو المزين بمقام القرب والمخاطب على بساط الأنس محمد صلى الله عليه وسلم . وبعد ذلك خوطب بقوله ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ ولولا هذه المقامات ما أطاق الاستقامة التي أمر بها . قيل لأبي حفص : أي الأعمال أفضل ؟ قال : الاستقامة ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول « استقيموا ولن تحصوا » وقال جعفر الصادق في قوله تعالى ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ أي اقتقر إلى الله بصحة العزم . ورأى بعض الصالحين رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام ، قال « قلت يا رسول الله روى عنك أنك قلت شيبتي سورة هود وأخواتها فقال : نعم ، قال فقلت له : ما الذي شيبك منها فقص الانبياء وهلاك الأمم ؟ فقال : لا ، ولكن قوله

(فاستقم كما أمرت) ، فكما أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد مقدمات المشاهدات خوطب بهذا الخطاب وطولب بحقائق الاستقامة فكذلك علماء الآخرة الزاهدون ومشايخ الصوفية المقربون منحههم الله تعالى من ذلك بقسط ونصيب ثم ألهمهم طلب النهوض بواجب حق الاستقامة ورأوا الاستقامة أفضل مطلوب وأشرف مأمور .

قال أبو علي الجوزجاني : كن طالب الاستقامة لاطالب الكرامة ، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة وربك يطلب منك الاستقامة ، وهذا الذي ذكره أصل كبير في الباب وسر غفل عن حقيقته كثير من أهل السلوك والطلب . وذلك أن المجتهدين والمتعبدين سمعوا بسير الصالحين المتقدمين وما منحوا به من الكرامات وخوارق العادات فأبدأ نفوسهم لا تزال تتطلع إلى شيء من ذلك ويحبون أن يرزقوا شيئاً من ذلك ، ولعل أحدهم يبقى منكسر القلب متمهما لنفسه في صحة عمله حيث لم يكشف بشيء من ذلك ، ولو علموا سر ذلك لكان عليهم الأمر فيه فيعلم أن الله سبحانه وتعالى قد يفتح على بعض المجتهدين الصادقين من ذلك باباً ، والحكمة فيه أن يرداد بما يرى من خوارق العادات وآثار القدرة يقينا فيقوى عزمه على الزهد في الدنيا ، والخروج من دواعي الهوى ؛ وقد يكون بعض عبادة يكشف بهصرف اليقين ويرفع عن قلبه الحجاب ، ومن كوشف بهصرف اليقين استغنى بذلك عن رؤية خوارق العادات لأن المراد منها كان حصول اليقين وقد حصل اليقين ؛ فلو كوشف هذا المرزوق صرف اليقين بشيء من ذلك ما ازداد يقينا فلا تقتضي الحكمة كشف القدرة بخوارق العادات لهذا الموضع لاستغنائه ، وتقتضي الحكمة كشف ذلك للآخر لموضع حاجته فكان هذا الثاني يكون أتم استعداداً وأهلية من الأول حيث رزق حاصل ذلك وهو صرف اليقين بغير واسطة من رؤية قدرة فإن فيه آفة وهو العجب فأغنى عن رؤية شيء من ذلك . فسييل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة فهي كل الكرامة . ثم إذا وقع في طريقه شيء من ذلك حاز وحسن ، وإن لم يقع فلا يبالي ولا ينقص بذلك ، وإنما ينقص بالإخلال بواجب حق الاستقامة فليعلم هذا لأنه أصل كبير للطلاب . فالعلماء الزاهدون ومشايخ الصوفية والمقربون حيث أكرموا بالقيام بواجب حق الاستقامة رزقوا سائر العلوم التي أشار إليها المتقدمون كما ذكرنا وزعموا أنها فرض . فمن ذلك علم الحال وعلم القيام وعلم الخواطر . وسنشرح علم الخواطر وتفصيلها في باب إن شاء الله تعالى . وعلم اليقين وعلم الإخلاص وعلم النفس ومعرفتها ومعرفة أخلاقها ، وعلم النفس ومعرفتها من أعز علوم القوم . وأقوم الناس بطريق المقربين والصوفية أقومهم بمعرفة النفس ، وعلم معرفة أقسام الدنيا ووجود دقائق الهوى وخفايا شهوات النفس وشرها وشرها ، وعلم الضرورة ومطالبة النفس بالوقوف على الضرورة - قولاً وفعلًا ولبساً وخلعاً وأكلًا ونوماً - ومعرفة حقائق التوبة ، وعلم خفي الذنوب ومعرفة سيئات هي حسنات الإبرار ومطالبة النفس بترك ما لا يعني ، ومطالبة الباطن بمحصر خواطر المعصية ثم بمحصر خواطر الفضول ، ثم علم المراقبة ، وعلم ما يقدر في المراقبة ، وعلم المحاسبة والرعاية ، وعلم حقائق التوكل وذنوب المتوكل في توكله وما يقدر في التوكل وما لا يقدر ، والفرق بين التوكل الواجب بحكم الإيمان وبين التوكل الخاص المختص بأهل العرفان ، وعلم الرضا وذنوب مقام الرضا ، وعلم الزهد وتحديدته بما يلزم من ضرورته ، وما لا يقدر في حقيقته ومعرفة الزهد في الزهد ومعرفة زهد ثالث بعد الزهد في الزهد ، وعلم الإنابة والالتجاء ومعرفة أوقات الدعاء ومعرفة وقت السكوت عن الدعاء ، وعلم المحبة والفرق بين المحبة العامة المفسرة بامثال الأمر والمحبة الخاصة ؛ وقد أنكر طائفة من علماء الدنيا دعوى علماء الآخرة المحبة الخاصة كما أنكروا الرضا وقالوا : ليس إلا الصبر . وانقسام المحبة الخاصة إلى محبة الذات وإلى محبة الصفات والفرق بين محبة القلب ومحبة الروح ومحبة العقل ومحبة النفس ، والفرق بين مقام المحب والمحبوب ، والمريد والمراد ، ثم علوم المشاهدات كعلم الهيبة والأنس والقبض والبسط ، والفرق بين القبض والهضم والبسط والنشاط ، وعلم الفناء والبقاء وتفاوت أحوال الفناء والاستتار والتجلى والجمع والفرق والوامع والطوائع والبوادي والصحو والسكر إلى غير ذلك - لو اتسع الوقت ذكرناها وشرحناها في مجلدات ، ولكن العمر قصير ، والوقت عزيز ، ولولا سهم الغفلة لضاق الوقت عن هذا القدر أيضاً ، وهذا المختصر المؤلف يحتوي من علوم القوم على طرف صالح نرجو من الله الكريم أن ينفع به ويجعله

حجة لنا لا حجة علينا - وهذه كلها علوم من ورائها علوم عمل ؛ مقتضاها وظفر بها علماء الآخرة الزاهدون ، وحرّم ذلك علماء الدنيا الراغبون وهي علوم ذوقية لا يكاد النظر يصل إليها بذوق ووجدان ، كالعلم بكيفية حلاوة السكر لا يحصل بالوصف فن ذاقه عرفه . ويذمك عن شرف علم الصوفية وزهاد العلماء أن العلوم كلها لا يتعذر تحصيلها مع محبة الدنيا والإخلال بمحافق التقوى ؛ وربما كان محبة الدنيا عوناً على اكتسابها لأن الاشتغال بها شاق على النفوس فجلبت النفوس على محبة الجاه والرفعة حتى إذا استشعرت حصول ذلك بحصول العلم أجابت إلى تحمل الكلف وسهر الليل والصبر على الغربة والأسفار وتعدّد الملاذ والشهوات . وعلوم هؤلاء القوم لا تحصل مع محبة الدنيا ولا تتكشف إلا بمجانبة الهوى ، ولا تدرس إلا في مدرسة التقوى قال الله تعالى ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ جعل العلم ميراث التقوى وغير علوم هؤلاء القوم متيسر من غير ذلك بلا شك ، فلم فضل علماء الآخرة حيث لم يكشف النقاب إلا لأولى الألباب ، وأولو الألباب حقيقة هم الزاهدون في الدنيا .

قال بعض الفقهاء : إذا أوصى رجل بماله لأعقل الناس يصرف الزهاد لأنهم أعقل الخلق . قال سهل بن عبد الله التستري : للعقل ألف اسم ولكل اسم منه ألف اسم وأول كل اسم منه ترك الدنيا . حدثنا الشيخ الصالح أبو الفتح محمد بن عبد الباقي قال : أخبرنا أبو الفضل أحمد بن أحمد قال : أخبرنا الحافظ أبو نعيم الأصفهاني قال : حدثنا محمد بن أحمد بن محمد قال حدثنا العباس بن أحمد الشاشي قال حدثنا أبو عقيل الوصافي قال أخبرنا عبد الله الخواص وكان من أصحاب حاتم قال دخلت مع أبي عبد الرحمن حاتم الأصم الرى ومعه ثلثمائة وعشرون رجلاً يريدون الحج وعليهم الصوف والزمرانقات ليس معهم جراب ولا طعام ، فدخلنا الرى على رجل من التجار متفكك يحب المتفكفين فاصفنا تلك الليلة ، فلما كان من الغد قال لحاتم يا أبا عبد الرحمن ألك حاجة ؟ فإني أريد أن أعود فقيها لنا هو عليل فقال حاتم إن كان لكم فقيه عليل فميادة الفقيه لها فضل والنظر إلى الفقيه عبادة فأنا أيضاً أجيء معك . وكان العليل محمد بن مقاتل قاضى الرى - فقال سر بنا يا أبا عبد الرحمن لجأوا إلى الباب ، فإذا باب مشرف حسن فبقى حاتم متفكراً يقول باب عالم على هذا الحال ثم أذن لهم فدخلوا فإذا دار قوراء وإذابرة ومنعة وستور وجمع ، فبقى حاتم متفكراً ، ثم دخلوا إلى المجلس الذى هو فيه فإذا بفرش وطيفة وإذا هو راقد عليها وعند رأسه غلام ويده مذبذبة فقعد الرازى يسأله وحاتم قائم ؛ فأومأ إليه ابن مقاتل أن أقعد فقال ، لا أقعد ، فقال له ابن مقاتل . لعل لك حاجة ؟ قال : نعم ، قال وما هي ؟ قال مسألة أسألك عنها قال : سئلت قال : فقم فاستو جالساً حتى أسألكها ، فأمر غلبانه فأسندوه ، فقال له حاتم علمك هذا من أين جئت به ؟ قال الثقات حدثوني به ، قال عمن ؟ قال عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن ؟ قال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال ورسول الله من أين جاء به ؟ قال عن جبرائيل ؟ قال حاتم فقيها أداه جبرائيل عن الله وأداه رسول الله إلى أصحابه وأداه أصحابه إلى الثقات هل سمعت فى العلم من فى داره أمير أو منعه أكثر كانت له المنزلة عند الله أكثر ؟ قال لا ، قال فكيف سمعت ؟ قال من زهد فى الدنيا ورغب فى الآخرة وأحب المساكين وقدم لآخرته ، كان له عند الله المنزلة أكثر ، قال حاتم فأنت بمن اقتديت بالنبي وأصحابه والصالحين أم بفرعون ونمرود أول من بنى بالخص والآجر ؟ يا علماء السوء مثلكم يراه الجاهل الطالب للدنيا الراغب فيها فيقول العالم على هذه الحالة لا أكون أما شراً منه ، وخرج من عنده فازداد ابن مقاتل مرضاً . فبلغ أهل الرى ماجرى بينه وبين ابن مقاتل فقالوا له يا أبا عبد الرحمن ، بقزوين عالم أكبر شأناً من هذا . وأشاروا به إلى الطنافسى - قال فسار إليه متعمداً فدخل عليه فقال رحمك الله أنا رجل أعجمى أحب أن تعلمنى أول مبتدئ ديني ومفتاح صلاتي كيف أتوضأ للصلاة ؟ قال نعم وكرامة يا علام هات إن شاء الله ما ؛ فأقرباً فيه ما فقعد الطنافسى فتوضأ ثلاثاً ثلاثاً ، ثم قال هكذا فتوضأ . فقعد فتوضأ حاتم ثلاثاً ثلاثاً حتى إذا بلغ غسل الذراعين غسل أربعاً فقال له الطنافسى يا هذا أسرفت ، فقال له حاتم فيماذا ؟ قال غسلت ذراعيك أربعاً ، قال حاتم يا سبحان الله أنا فى كف ماء أسرفت وأنت فى هذا الجحجح كله لم تسرف ، فلم الطنافسى أنه أراد بذلك ولم يرد منه

التعلم ، فدخل البيت ولم يخرج إلى الناس أربعين يوماً ، وكتب تجار الرى وقروين ماجرى بينه وبين ابن مقاتل والحنافى ؛ فلما دخل بغداد اجتمع إليه أهل بغداد فقالوا له : يا أبا عبد الرحمن أنت رجل لكن انجمى ليس بكلمتك أحد إلا وقطعته ، قال : معى ثلاث خصال بهن أظهر على خصمى ، قالوا : أى شىء هى ؟ قال : أفرح إذا أصاب خصمى ، وأحزن إذا أخطأ ، واحفظ نفسى أن لأجهل عليه ، فبلغ ذلك أحمد بن حنبل فجاء إليه وقال : سبحان الله ما عقله ؟ فلما دخلوا عليه قالوا : يا أبا عبد الرحمن ، ما السلامه من الدنيا ؟ قال حاتم : يا أبا عبد الله ، لا تسلم من الدنيا حتى يكون معك أربع خصال . قال : أى شىء هى يا أبا عبد الرحمن ؟ قال تغفر للقوم جهلهم ، وتمنع جهلك عنهم ، وتبذل لهم شيئك ، وتكون من شيئهم أيسا ؛ فإذا كان هذا سلبت ، ثم سار إلى المدينة .

قال الله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) ذكر بكلمة وإنما ، فينتفى العلم عن لا يخشى الله ، كما إذا قال إنما يدخل الدار بغدادى ، ينتفى دخول غير البغدادى الدار : فلاح لعلماء الآخرة أن الطريق مسدود إلى أنصبه المعارف ومقامات القرب إلا بالزهد والتقوى . قال أبو يزيد رحمه الله لأصحابه : بقيت البارحة إلى الصباح أجهد أن أقول لا إله إلا الله ما قدرت عليه . قيل : ولم ذلك ؟ قال : ذكرت كلمة قلتها فى صباى ، فجاءتنى وحشة تلك الكلمة فنتعتى عن ذلك ، وأعجب من يذكر الله تعالى وهو متصف بشىء من صفاته ؛ فبصفاء التقوى وكال الزهادة يصير العبد راسخا فى العلم ، قال الواسطى . الراسخون فى العلم هم الذين رسخوا بأرواحهم فى غيب الغيب فى سر السر فعرفهم ما عرفهم ، وغاضوا فى بحر العلم بالفهم لطلب الزيادات فأنكشف لهم من مدخور الخزان ماتحت كل حرف من الكلام من الفهم وعجائب الخطاب فنطقوا بالحكم . وقال بعضهم : الراسخ من أطلع على محل المراد من الخطاب . وقال الخراز : هم الذين كملوا فى جميع العلوم وعرفوها ، واطلعوا على همم الخلائق كلهم أجمعين ، وهذا القول من أبى سعيد لا يعنى به أن الراسخ فى العلم ينبغي أن يقف على جزئيات العلوم ويكمل فيها ، فإن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كان من الراسخين فى العلم ووقف فى معنى قوله تعالى (وفاكهة وأبا) وقال : ما الأب ؟ ثم قال : إن هذا إلا تمكف . ونقل أن هذا الوقوف فى معنى الأب كان من أبى بكر رضى الله تعالى عنه ، وإنما عنى بذلك أبو سعيد ما يفسر أول كلامه بآخره ، وهو قوله : اطلعوا على همم الخلائق كلهم : لأن المتنى حق التقوى والزاهد حق الزهادة فى الدنيا صفا باطنه وانجلى مرآة قلبه ووقعت له محاذاة بشىء من اللوح المحفوظ ، فأدرك بصفاء الباطن أمهات العلوم وأصولها ، فبعلم منتهى أقدام العلماء فى علومهم ، وقائدة كل علم ، والعلوم الجزئية متجزئة فى النفوس بالتعليم والممارسة فلا يغميه عليه الكلى أن يراجع فى الجزئى أهله الذين هم أوعيته ، فنفس هؤلاء امتلأت من الجزئى واشتغلت به ، وانقطعت بالجزئى عن الكلى ؛ ونفس العلماء الزاهدين بعد الأخذ بما لا بد لهم منه فى أصل الدين وأساسه من الشرع أقبلوا على الله وانقطعوا إليه وخلصت أرواحهم إلى مقام القرب منه ، فأفاضت أرواحهم على قلوبهم أنوار أنبيات بها قلوبهم لإدراك العلوم ؛ فأرواحهم ارتقت عن حد إدراك العلوم بعكوفها على العالم الأزل ، وتجردت عن وجود يصلح أن يكون وعاء للعلم ، وقلوبهم بنسبة وجهها الذى بلى النفوس صارت أوعية وجودية تناسب وجود العلم بالنسبة الوجودية ، فتألفت العلوم وتألفتها العلوم بمناسبة انفصال العلوم باتصالها باللوح المحفوظ ، والمعنى بالانفصال انتقاسها فى اللوح لا غير ، وانفصال القلوب عن مقام الأرواح لوجود انجذابها إلى النفوس ؛ فصار بين المنفصلين نسبة اشتراك موجب للتألف ، فحصلت العلوم لذلك وصار الربانى راسخا فى العلم .

أوحى الله تعالى فى بعض الكتب المنزلة (يا بنى إسرائيل ، لا تقولوا العلم فى السماء من ينزل به ، ولا فى تخوم الأرض من يصعد به ، ولا من وراء البحار من يعبر فيأتى به . العلم يجمول فى قلوبكم تأدبوا بين يدي بأداب الروحانيين وتغفلوا إلى بأخلاق الصديقين ، أظهر العلم من قلوبكم حتى ينطبعكم أو يغمركم . فالتأدب بأداب الروحانيين حصر النفوس عن تفاضى جبلاتها ، وقدها بصريح العلم فى كل قول وفعل ، ولا يصح ذلك إلا لمن علم وقرب وتطرق إلى الحضور بين يدي الله تعالى ، فيحتفظ بالحق للحق .

أخبرنا شيخنا أبو النجيب عبد القاهر السهروردي إجازة ، قال : أخبرنا أبو منصور بن خبرون إجازة ، قال : أخبرنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري إجازة قال أخبرنا أبو عمر محمد بن العباس قال حدثنا أبو محمد يحيى بن صاعد قال حدثنا الحسين بن الحسن المروزي قال أخبرنا عبد الله بن المبارك قال أخبرنا الأوزاعي عن حسان بن عطية ، بلغني أن شداد بن أوس رضي الله عنه نزل منزلاً فقال : اتنونا بالسفرة نعبث بها ، فأنكر منه ذلك ، فقال : ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطئها ثم أزمها غير هذه فلا تحفظوها على فتل هذا يكون التأدب بأداب الروحانيين .

مكتوب في الإنجيل : لا تطلبوا علم ما لم تعلموا حتى تعملوا بما قد علمتم . وقد ورد في خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الشيطان ربما يسوفكم بالعلم ، قلنا : يا رسول الله ، كيف يسوفنا بالعلم ؟ قال : يقول اطلب العلم ولا تعمل حتى تعلم ، فلا يزال العبد في العلم قائلاً وللعمل مسوفاً حتى يموت وما عمل . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ليس العلم بكثرة الرواية ، إنما العلم بالحشية . وقال الحسن : إن الله تعالى لا يعبا بذى علم ورواية ، إنما يعبا بذى فهم ودراية ، فعلوم الوراثة مستخرجة من علم الدراسة ، ومثال علوم الدراسة كاللبن الخالص السائل للشاربين . ومثال علوم الوراثة كالزبد المستخرج منه ، فلو لم يكن لبن لم يكن زبد ، ولكن الزبد هو الدهنية المطلوبة من اللبن ، والمائية في اللبن جسم قام به روح الدهنية ، والمائية بها القوام . قال الله تعالى ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ وقال تعالى ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه ﴾ أى كان ميتاً بالكفر فأحييناه بالإسلام ، فالإحياء بالإسلام هو القوام الأول والأصل الأول ، والإسلام علوم وهى علوم مباني الإسلام ، والإسلام بعد الإيمان فظهر إلى مجرد التصديق . ولكن للإيمان فروع بعد التحقق بالإسلام ، وهى مراتب كعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ، فقد تقال للتوحيد والمعرفة والمشاهدة . والإيمان في كل فرع من فروع من فروع علوم ، فعلوم الإسلام علوم اللسان ، وعلوم الإيمان علوم القلوب ، ثم علوم القلوب لها وصف خاص ، ووصف عام ، فالوصف العام علم اليقين وقد يتوصل إليه بالنظر والاستدلال ويشترك فيه علماء الدنيا مع علماء الآخرة ، وله وصف خاص يختص به علماء الآخرة وهى السكينة التى أنزلت في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ، فعلى هذا جميع الرتب يشملها اسم الإيمان بوصفه الخاص ولا يشملها بوصفه العام ، فبالنظر إلى الوصف الخاص اليقين ومراتبه من الإيمان ، وإلى وصفه العام اليقين زيادة على الإيمان ، والمشاهدة وصف خاص في اليقين ، وهو عين اليقين ، وفى عين اليقين وصف خاص وهو حق اليقين ، لحق اليقين إذن فوق المشاهدة ، وحق اليقين موطنه ومستقره في الآخرة ، وفى الدنيا منه لمح يسير لآله ، وهو من أعز ما يوجد من أقسام العلم بالله ، لأنه وجدان ، فصار علم الصوفية وزهاد العلماء نسبتاً إلى علم علماء الدنيا الذين ظفروا باليقين بطريق النظر والاستدلال كنسبة ما ذكرناه من علم الوراثة والدراسة ، عليهم بمثابة اللبن لانه اليقين والإيمان الذى هو الأساس ، وعلم الصوفية بالله تعالى من أنصبة المشاهدة ، وعين اليقين وحق اليقين كالزبد المستخرج من اللبن ، ففضيلة الإيمان بفضيلة العلم ، وورائة الأعمال على قدر الحظ من العلم . وقد ورد في الخبر : فضل العالم على العابد كفضلى على أمي ، والإشارة في هذا العلم ليس إلى علم البيع والشراء والطلاق والعناق ، وإنما الإشارة إلى العلم بالله تعالى وقوة اليقين ، وقد يكون العبد عالماً بالله تعالى ذا يقين كامل وليس عنده علم من فروض الكفايات ، وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم من علماء التابعين بحقائق اليقين ودقائق المعرفة ، وقد كان علماء التابعين فيهم من هو أقوم بعلم الفتوى والأحكام من بعضهم . روى أن عبداً لله بن عمر كان إذا سئل عن شيء يقول : سلوا سعيد بن المسيب . وكان عبداً لله ابن عباس يقول : سلوا جابر بن عبد الله لوزل أهل البصرة على فتياه لوسعهم . وكان أنس بن مالك يقول : سلوا مولانا الحسن ، فإنه قد حفظ ونسنا ، فكانوا يردون الناس إليهم في علم الفتوى والأحكام ، ويعلمونهم حقائق اليقين ودقائق المعرفة ، وذلك لأنهم كانوا أقوم بذلك من التابعين ، صادفتهم طراوة الوحي المنزل وغمرهم غزير العلم الجميل والمفصل ، فتلقى منهم طائفة بجملة ومفصلة ، وطائفة مفصلة دون جملة ، والجملة أصل العلم ، ومفصله المكتسب بطهارة القلوب وقوة الغريزة وكال الاستعداد ، وهو خاص بالخواص .

قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ وقال تعالى ﴿قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة﴾ فلهذه السبيل سابلة ، ولهذه الدعوات قلوب قابلة، فمنها نفوس مستعصية جامدة باقية على خشونة طبيعتها وجبلتها ، فلينها بنار الإنذار والموعظة والحدار ، ومنها نفوس زكية من تربة طيبة موافقة للقلوب قريبة منها ، فن كانت نفسه ظاهرة على قلبه دعاه بالموعظة ، ومن كان قلبه ظاهراً على نفسه دعاه بالحكمة ، فالدعوة بالموعظة أجاب بها الأبرار ، وهى الدعوة بذكر الجنة والنار ، والدعوة بالحكمة أجاب بها المقرون وهى الدعوة بتلويح منح القرب وصفو المعرفة وإشارة التوحيد ، فلما وجدوا التلويحات الحقائقية والتعريفات الربانية ، أجابوا بأرواحهم وقلوبهم ونفوسهم فصارت متابعة الأقوال لإجابتهم نفوساً ، ومتابعة الأعمال لإجابتهم قلوباً ؛ والتحقيق بالأحوال لإجابتهم روحاً فإجابه الصوفية بالكل وإجابة غيرهم بالبعض . قال عمر رضى الله عنه : رحم الله تعالى صبيبا لو لم يخف الله لم يعصه . يعنى لو كتب له كتاب الأمان من النار حمله صرف المعرفة بعظيم أمر الله على القيام بواجب حق العبودية . أداء لما عرف من حق العظمة . فإجابة الصوفية إلى الدعوة لإجابة المحب للمحسوب على المذاذة وذهاب العسر ، وإجابة غيرهم على المكابدة والمجاهدة ، وهذه الإجابة يظهر مع الساعات أثرها فى القيام بحقائق الاستقامة والعبودية . قال الله تعالى ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى﴾ قال بعضهم أعطى للدارين ولم يرهما شيئاً واتقى اللغو والسيئات وصدق بالحسنى أقام على طلب الزلنى ، والآية قيل نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، ويلوح فى الآية وجه آخر ﴿أعطى﴾ بالمواظبة على الأعمال ﴿واتقى﴾ الوسواس والهواجس ، ﴿وصدق بالحسنى﴾ لازم الباطن بتصفية موارد الشهود عن مزاحمة لوث الوجود ﴿فسنيسره لليسرى﴾ نفتح عليه باب السهولة فى العمل والعيش والانس ؛ ﴿وأما من بخل﴾ بالأعمال ﴿واستغنى﴾ امتثالاً بالأحوال ﴿وكذب بالحسنى﴾ لم يكن فى المكسرات بنفوذ بصيرته بالجوال ﴿فسنيسره للعسرى﴾ أسد عليه باب اليسر فى الأعمال . قال بعضهم : إذا أراد الله بعبده سوء أسد عليه باب العمل وفتح عليه باب الكسل ، فلما أجابت نفوس الصوفية وقلوبهم وأرواحهم الدعوة ظاهراً وباطناً ، كان حظهم من العلم أوفر ونصيبيهم من المعرفة أكمل ، فكانت أعمالهم أزكى وأفضل .

جاء رجل إلى معاذ قال : أخبرنى عن رجلين أحدهما مجتهد فى العبادة كثير العمل قليل الذنوب إلا أنه ضعيف اليقين يعتوره الشك . قال معاذ ليحيطن شكك عمله ، قال : فأخبرنى عن رجل قليل العمل إلا أنه قوى اليقين وهو فى ذلك كثير الذنوب ، فسكت معاذ ، فقال الرجل : والله لئن أحبط شك الأول أعمال بره ، ليحيطن يقين هذا ذنوبه كلها . قال : فأخذ معاذ بيده وقال : ما رأيت الذى هو أفقه من هذا .

وفى وصية لقمان لابنه : يا بني ، لا استطاع العمل إلا باليقين ، ولا يعمل المرم إلا بقدر يقينه ، ولا يقصر عامل حتى يقصر يقينه ، فكان اليقين أفضل العلم لأنه أدعى إلى العمل ، وما كان أدعى إلى العمل كان أدعى إلى العبودية ، وما كان أدعى إلى العبودية كان أدعى إلى القيام بحق الربوبية . وكال الحظ من اليقين والعلم بالله للصوفية والعلماء الزاهدين ، فبان بذلك فضلهم وفضل علمهم .

ثم لى أصور مسألة يستبين بها الاعتبار فضل العالم الزاهد العارف بصفات نفسه على غيره : عالم دخل مجلساً وقعد وميز لنفسه مجلساً يجلس فيه كما فى نفسه من اعتقاده فى نفسه لمحله وعليه ، فدخل داخل من أبناء جفئه وقعد فوقه ، فأنعصر العالم وأظلمت عليه الدنيا ولو أمكنه لبطش بالداخل ، فهذا عارض عرض له ومرض اعتراه ، وهو لا يقطن أن هذه علة غامضة ومرض يحتاج إلى المداواة ، ولا يتفكر فى منشأ هذا المرض ، ولو علم أن هذه نفس ثارت وظهرت بجهلها ، وجهلها لوجود كبرها ، وكبرها برؤية نفسها خيراً من غيرها ، فعلم الإنسان أنه أكبر من غيره كبر ، وإظهاره ذلك إلى الفعل تكبر ، فحيث العصر صار فعلاً به تكبر . فالزاهد لا يميز نفسه بشئ دون المسلمين ، ولا يرى نفسه فى مقام تمييز يميزها بمجاس ، فالصوفى العالم بخصوص عيز . ولو قدر له أن يبتلى بمثل هذه الواقعة وينعصر من تقدم غيره عليه وترفعه يرى النفس وظهورها ، ويرى أن هذا داء وأنه إن استرسل فيه بالإصغاء إلى النفس وانعصارها صار ذلك ذنب حاله ،

فيرفع في الحال ذاه إلى الله تعالى ، ويشكو إليه ظهور نفسه ويحسن الإنابة ، ويقطع دابر ظهور النفس ويرفع القلب إلى الله تعالى مستغيثاً من النفس ، فيشغله اشتغاله برؤية داء النفس في طلب دوائها من الفكر فيمنع قعد فوقه ، وربما أقبل على من قعد فوقه بزيد التواضع والانكسار ، تكفيرا للذنوب الموجود ، وتداويا لدائه الحاصل . فتبين بهذا الفرق بين الرجلين .

فإذا اعتبر المعتبر وتفقد حال نفسه في هذا المقام يرى نفسه كنفوس عوام الخلق وطالبي المناصب الدنيوية ، فأى فرق بينه وبين غيره ممن لاعلم له .

ولو أكثرنا تصوير المسائل لنبرهن على فضيلة الزاهدين وتقصان الراغبين ، لأورث اللال ، وهذه من أوائل علوم الصوفية ؛ فما ظنك بنفائس علومهم وشرائف أحوالهم ، والله الموفق للصواب .

الباب الرابع : في شرح حال الصوفية واختلاف طريقهم

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين أبو أحمد عبد الوهاب بن علي ، قال أخبرنا أبو الفتح عبد الملك بن أبي القاسم الهروي قال أخبرنا أبو نصر عبد العزيز بن محمد الترياق قال أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي ، قال أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي ، قال أخبرنا أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي ، قال حدثنا مسلمة بن حاتم الأنصاري ، قال : حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري عن أبيه عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال : قال أنس بن مالك رضي الله عنه : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا بني إن قدرت أن تصبح وتمسى وليس في قلبك غش لأحد فافعل ، ثم قال « يا بني وذلك من سنئي ومن أحيا سنئي فقد أحياي ومن أحياي كان معي في الجنة ، وهذا أتم شرف وأكمل فضل أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم في حق من أحيا سنته ، فالصوفية هم الذين أحيا هذه السنة ، وطهارة الصدور من الغل والغش عماد أمرهم ، وبذلك طهر جوهرهم وبأن فضلهم ؛ وإنما قدروا على إحياء هذه السنة ونهضوا بواجب حقها لزهدهم في الدنيا وتركها لأربابها وطلابها ؛ لأن مثار الغل والغش محبة الدنيا ومحبة الرفعة والمزلة عند الناس ، والصوفية زهدوا في ذلك كله ، كما قال بعضهم : طريقنا هذا لا يصلح إلا للأقوام كذبت بأرواحهم المزايل ، فلما سقط عن قلوبهم محبة الدنيا وحب الرفعة أصبحوا وأمسوا وليس في قلوبهم غش لأحد ، فقول القائل : كذبت بأرواحهم المزايل ، إشارة منه إلى غاية التواضع ، وأن لا يرى نفسه تميز عن أحد من المسلمين ، لحقارته عند نفسه ، وعند هذا ينسد باب الغش والغل ، وجرت هذه الحكاية فقال بعض الفقهاء من أصحابنا : وقع لي أن معنى كذبت بأرواحهم المزايل : أن الإشارة بالمزايل إلى النفوس ، لأنها مأوى كل رجس ونجس كالزبل ، وكذبتها : بنور الروح الواصل إليها ، لأن الصوفية أرواحهم في محال القرب ونورها يسرى إلى النفوس ، وبوصول نور الروح إلى النفس تطهر النفس ويذهب عنها المذموم من الغل والغش والحقد والحسد ، فسكانها تكلس بنور الروح ، وهذا المعنى صحيح وإن لم يرد القائل بقوله ذلك .

قال الله تعالى في وصف أهل الجنة ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ﴾ قال أبو حفص : كيف يبقى الغل في قلوب ائتملت بالله واتفقت على محبته ، واجتمعت على مودته وألست بذكره ، إن تلك قلوب صافية من هواجس النفوس وظلمات الطباع ، بل حكمت بنور التوفيق فصارت إخوانا ، فالخلق حجابهم عن القيام بإحياء سنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، قولوا فعلا وحالا صفات نفوسهم ، فإذا تبدلت نعت النفس ارتفع الحجاب وصححت المتابعة ووقعت الموافقة في كل شيء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجببت المحبة من الله تعالى عند ذلك . قال الله تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ جعل متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم آية محبة العبد ربه ، وجعل جزاء العبد على حسن متابعة الرسول محبة الله إياه ، فأوفر الناس حظا من متابعة الرسول أوفرهم حظا من محبة الله تعالى ، والصوفية من بين طوائف الإسلام ظفروا بحسن المتابعة ، لأنهم اتبعوا أقواله فقاموا

بما أمرهم ووقفوا عما نهاهم . قال الله تعالى ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ ، ثم اتبعوه في أعمالهم من الجد والاجتهاد في العبادة والتهجد والنوافل من الصوم والصلاة وغير ذلك ، ورزقوا ببركة المتابعة في الأقوال والأفعال التخلق بأخلاقه : من الحياء والحلم والصفح والعفو والرافة والشفقة والمداراة والنصيحة والتواضع ، ورزقوا قسطا من أحواله من الخشية والسكينة والهيبه والتعظيم والرضا والصبر والزهد والتوكل ؛ فاستوفوا جميع أقسام المتابعات وأحيوا سنته بأقصى الغايات . قيل لعبدالواحد بن زيد : من الصوفية عندك ؟ قال القائمون بعقولهم على فهم السنة ، والعاكفون عليها بقلوبهم ، والمعتصمون بسيدهم من شر نفوسهم هم الصوفية . وهذا وصف تام وصفهم به ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائم الافتقار إلى مولاه حتى يقول : لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ، اكلاني كلاءة الوليد ، ومن أشرف ما ظفربه الصوفي من متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الوصف : وهو دوام الافتقار ودوام الالتجاء ، ولا يتحقق بهذا الوصف من صدق الافتقار إلا لعبد كوشف باطنه بصفاء المعرفة ، وأشرق صدره بنور اليقين ، وخلص قلبه إلى بساط القرب ، وجلالته بلذاته المسامرة ، فبقيت نفسه بين هذه الأشياء كلها أسيرة مأمورة ، ومع ذلك كله يراها مأوى كل شر ، وهي بمثابة النار لو بقيت منها شرارة أحرقت عالما ، وهي وشيكة الرجوع سريعة الانفلات والانقلاب ؛ فآله تعالى بكال أطفه عرفها إلى الصوفي وكشفها له على شيء من معنى ما كشفه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فهو دائم الاستغانة إلى مولاه من شرها ، وكأنها جعلت سوطا للعبد تسوقه لمعرفة بشرها مع اللحظات ، إلى جناب الالتجاء وصدق الافتقار والدعاء ، فلا يخلو الصوفي عن مطالعتها أدنى ساعة ، كما لا يخلو عن ربه أدنى ساعة ، وربط معرفة الله تعالى فيما ورد من عرف نفسه فقد عرف ربه ، كربط معرفة الليل بمعرفة النهار ومن الذي يقوم بإحياء هذه السنة من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير الصوفي العالم بالله الزاهد في الدنيا المستمسك من التقوى بأوثق العرى ؛ ومن الذي يهتدى إلى فائدة هذه الحال غير الصوفي ، فدوام اقتنائه إلى ربه تمسك بجناب الحق ولياذه ، وفي هذا اللياذ استغراق الروح واستتباع القلب إلى محل الدعاء ، وفي انجذاب القلب إلى محل الدعاء بلسان الحال والكون فيه : نبو النفس عن مستقرها من الأقسام العاجلة وزولها إليها في مدارج العلم محفوفة بحراسة الله تعالى ورعايته ، والنفس المدبرة بهذا التدبير من حسن تدبير الله تعالى مأمونة من الغل والغش والحقد والحسد وسائر المذمومات ، فهذا حال الصوفي . ويجمع جل حال الصوفية شيان : هما وصف الصوفية ، إليهما الإشارة بقوله تعالى ﴿ الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾ فقوم من الصوفية خصوا بالاجتناب العرف ، وقوم منهم خصوا بالهداية بشرط مقدمة الإجابة ، بالاجتناب المحض غير معلل بكسب العبد ، وهذا حال المحبوب المراد بياذنه الحق بمنجحه ومواهبه من غير سابقة كسب منه يسبق كشفه اجتجاده ، وفي هذا أخذ بطائفة من الصوفية رفعت الحجب عن قلوبهم وبادروا نور اليقين فأثار نازل الحال فيهم شهوة الاجتهاد والأعمال ، فأقبلوا على الأعمال باللذات والعيش فيها قرة أعينهم ، فسهل الكشف عليهم الاجتهاد ، كما سهل على سحرة فرعون لذات النازل بهم من صفو العرفان : تحمل وعيد فرعون فقالوا ﴿ لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ﴾ قال جعفر الصادق رضي الله عنه وجدوا أرباب العناية القديمة بهم فالتجأوا إلى السجود شكرا وقالوا ﴿ آمنا برب العالمين ﴾ .

أخبرنا أبو زرعة طاهر بن أبي الفضل لإجازة ، قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف لإجازة ، قال أخبرنا عبد الرحمن السلمي ، قال : سمعت منصورا يقول : سمعت أبا موسى الزقاق يقول : سمعت أبا سعيد الخزاز يقول : أهل الخالصة الذين هم المرادون اجتبابهم مولايم وأكمل لهم النعمة وهيا لهم الكرامة ، فأسقط عنهم حركات الطلب ، فصارت حركاتهم في العمل والخدمة على الألفة والذكر والتعظيم بمناجاته والانفراد بقربه ، وبهذا الإسناد إلى أبي عبد الرحمن السلمي قال : سمعت علي بن سعيد يقول : سمعت أحمد بن الحسن الحصري يقول : سمعت فاطمة المعروفة بجورية تلميذة أبي سعيد تقول : سمعت الخزاز يقول : المراد : يحول في حاله معان على حركاته وسعيه في الخدمة ، مكفي مصون عن الشواهد والنواظر ، وهذا الذي قاله الشيخ أبو سعيد هو الذي اشتبه حقيقته على طائفة من الصوفية ولم يقولوا بالإكثار من النوافل ، وقد

وأما جمعاً من المشايخ قلت نوافلهم فظنوا أن ذلك حال مستمر على الإطلاق ، ولم يعلموا أن الذين تركوا النوافل واقتصروا على الفرائض كانت بداياتهم بدايات المريدين ؛ فلما وصلوا إلى روح الحال وأدركتهم الكشوف بعد الاجتهاد امتلأوا بالحال فطرحوا نوافل الأعمال ؛ فأما المرادون فتبقى عليهم الأعمال والنوافل وفيها قرة أعينهم ، وهذا أتم وأكمل من الأول ؛ فهذا الذي أوصفناه أحد طريق الصوفية ، فأما الطريق الآخر طريق المريدين وهم الذين شرطوا لهم الإنابة ، فقال الله تعالى ﴿ ويهدي إليه من ينيب ﴾ فطوبوا بالاجتهاد أولاً قبل الكشوف .

قال تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ يدرجهم الله تعالى في مدارج الكسب بأنواع الرياضات والمجاهدات وسهر الدياجر وظمأ الهواجر ، وتتأجج فيهم نيران الطلب ، وتتجذب دونهم لوامع الأرب ، يتقلبون في رمضاء الإرادة ، وينخلعون عن كل مألوف وعادة ، وهي الإنابة التي شرطها الحق سبحانه وتعالى لهم وجعل الهداية مقرونة بها ، وهذه الهداية آتفا هداية خاصة لأنها هداية إليه ، غير الهداية العامة التي هي الهدى إلى أمره ونهيه بمقتضى المعرفة الأولى ، وهذا حال السالك المحب المريد ، فكانت الإنابة غير الهداية العامة فأثمرت هداية خاصة ، واهتدوا إليه بعد أن اهتدوا له بالمكابدات ، نخلصوا من مضيق العسر إلى فضاء اليسر ، وبرزوا من وهج الاجتهاد إلى روح الأحوال فسبق اجتهادهم كشوفهم ، والمرادون سبق كشوفهم اجتهادهم .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقي قال أخبرنا أبو الفضل أحمد بن أحمد قال أخبرنا الحافظ أبو نعيم الأصفهاني ، قال حدثنا محمد بن الحسين بن موسى قال : سمعت محمد بن عبد الله الرازي يقول : سمعت أبا محمد الجريري يقول : سمعت الجنيد رحمه الله عليه يقول : ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ، ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات .

وقال محمد بن خفيف : الإرادة سمو القلب لطلب المراد وحقيقة الإرادة استدامة الجد وترك الراحة .

وقال أوعثمان : المريد الذي مات قلبه عن كل شيء ، دون الله تعالى ، فيريد الله وحده ويريد قرب به ويشتاق إليه ، حتى تذهب شهوات الدنيا عن قلبه لشدة شوقه إلى ربه . وقال أيضاً : عقربة قاب المريدين أن يحجبوا عن حقيقة المعاملات والمقامات إلى أضدادها ؛ فهذان الطريقان يجمعان أحوال الصوفية ودونهما طريقان آخران ليسا من طرق التحقيق بالتصوف : (أحدهما) مجذوب أبقى على جذبته ما رد إلى الاجتهاد بعد الكشف ، (والثاني) مجتهد متعبد ما خلاص إلى الكشف بعد الاجتهاد وللصوفية في طريقتهم باب مزيدهم وصحة طريقتهم بحسن المتابعة . ومن ظن أن يبلغ غرضاً أو يظهر بهراد لا من طريق المتابعة فهو مخذول مغرور .

أخبرنا شيخنا أبو النجيب السهروردي قال أخبرنا عصام الدين عمر بن أحمد الصفار قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف قال أخبرنا أبو عبد الرحمن قال سمعت نصر بن أبي نصر يقول : سمعت قيساً غلام الزقاق يقول : سمعت أباسعيد السكري يقول : سمعت أباسعيد الحزاز يقول : كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل ، وكان يقول الجنيد رحمه الله . علمنا هذا مشبكك بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال بعضهم : من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلًا نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلًا نطق بالبدعة .

حكى أن أبا يزيد البسطامي رحمه الله قال ذات يوم لبعض أصحابه : قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية - وكان الرجل في ناحيته مقصوداً ومشهوراً بالزهد والعبادة - ففضينا إليه ؛ فلما خرج من بيته يقصد المسجد رمى بزاقة نحو القبلة ، فقال أبو يزيد : انصرفوا فأنصرف ولم يسلم عليه وقال : هذا رجل ليس بمأمون على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه من مقامات الأولياء والصالحين . وسئل خادم الثبلي رحمه الله : ماذا رأيت منه عند موته ؟ فقال : لما أمسك لسانه وعرق جبينه أشار إلى أن وضئني للصلاة ، فوضأته فندسيت تخليل لحيته ، فقبض على يدي وأدخل أصابعي في لحيته فخللها .

وقال سهل بن عبد الله : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فباطل : هذا حال الصوفية وطريقتهم ، وكل من

يدعى حالا على غير هذا الوجه فمدح مفتون كذاب .

الباب الخامس : في ماهية التصوف

أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر بن أبي الفضل في كتابه قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف الشيرازي إجازة ، قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي ، قال أخبرنا إبراهيم بن أحمد بن محمد بن رجاء ، قال حدثنا عبد الله بن أحمد البغدادي ، قال حدثنا عثمان بن سعيد قال حدثنا عمر بن أسد عن مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكل شيء مفتاح ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء الصبر ، هم جلساء الله تعالى يوم القيامة ، فالفقر كأن في ماهية التصوف وهو أساسه وبه قوامه .

قال رويم : التصوف مبنى على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالبذل والإيثار ، وترك التعرض والاختيار .

وقال الجنيد - وقد سئل عن التصوف فقال - أن تكون مع الله بلا علاقة .

وقال معروف الكرخي : التصوف الأخذ بالحقائق واليأس بما في أيدي الخلائق ، فمن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف .

وسئل الشبلي عن حقيقة الفقر فقال : ألا يستغنى بشيء دون الحق .

وقال أبو الحسين النوري : نعت الفقير السكون عند العدم ، والبذل والإيثار عند الوجود .

وقال بعضهم : إن الفقير الصادق ليحترز من الغنى حذر أن يدخل عليه الغنى فيفسد فقره ، كما أن الغنى يحترز من الفقر حذر أن يدخل عليه الفقر فيفسد غناه .

وبالإسناد الذي سبق إلى أبي عبد الرحمن قال : سمعت أبا عبد الرحمن الرازي يقول : سمعت مظفرا القرميسي يقول : الفقير الذي لا يكون له إلى الله حاجة . قال : وسمعت يقول : سألت أبا بكر المصري عن الفقير فقال : الذي لا يملك ولا يملك . قوله « لا يكون له حاجة » معناه أنه مشغول بوظائف عبوديته تام الثقة بربه ، عالم بحسن كلامه به لا يحوجه إلى رفع الحاجة لعلمه بعلم الله بحاله ، فيرى السؤال في البين زيادة ، وأقوال المشايخ تنوع معانيها : لأنهم أشاروا فيها إلى أحوال في أوقات دون أوقات ، وتحتاج في تفصيل بعضها عن البعض إلى الضوابط ، فقد تذكر أشياء في معنى التصوف ذكر مثلها في معنى الفقر وتذكر أشياء في معنى الفقر ذكر مثلها في معنى التصوف ، وحيث وقع الاشتباه فلا بد من بيان فاصل ؛ فقد تشبهت الإشارات في الفقر بمعاني الزهد تارة وبمعاني التصوف تارة ، ولا يتبين للمسترشد بعضها من البعض ؛ فنقول : التصوف غير الفقير ، والزهد غير الفقر ، والتصوف غير الزهد ؛ فالتصوف اسم جامع لمعاني الفقر ومعاني الزهد مع مزيج أوصاف وإضافات لا يكون بدونها الرجل صوفيا وإن كان زاهدا وفقيرا .

قال أبو حفص : التصوف كله آداب ، لكل وقت أدب ، ولكل حالة أدب ، ولكل مقام أدب ، فمن لزوم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ، ومن ضيع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب ، ومزدود من حيث يرجو القبول . وقال أيضا : حسن أدب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن ؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « لو خشع قلبه لحشعت جوارحه » .

أخبرنا الشيخ رضي الدين أحمد بن إسماعيل إجازة قال أخبرنا الشيخ أبو المظفر عبد المنعم ، قال أخبرني والدي أبو القاسم القشيري ، قال سمعت محمد بن أحمد بن يحيى الصوفي يقول : سمعت عبد الله بن علي يقول : سئل أبو محمد الجري عن التصوف فقال . الدخول في كل خلق سني ، والخروج عن كل خلق ذني ؛ فإذا عرف هذا المعنى في التصوف من حصول الأخلاق وتبديلها واعتبر حقيقته ، يعلم أن التصوف فوق الزهد وفوق الفقر . وقيل : نهاية الفقر مع شرفه هو بداية التصوف ، وأهل الشام لا يفرقون بين التصوف والفقر ، يقولون : قال الله تعالى ﴿ للفقراء الذين

أحصروا في سبيل الله) هذا وصف الصوفية ، والله تعالى سماهم فقراء ، وسأوضح معنى يفترق الحال به بين التصوف والفقر ، نقول : الفقير في فقره متمسك به متحقق بفضل يورثه على الغنى ، متطلع إلى ما تحقق من العوض عند الله حيث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم : وهو خمسمائة عام ، فكلما لاحظ العوض الباقى أمسك عن الحاصل الثانى وعانق الفقر والقلة وخشى زوال الفقر لفوات الفضيلة والعوض وهذا عين الاعتلال في طريق الصوفية ، لأنه تطالع إلى الأعراض وترك لأجلها . والصوفى يترك الأشياء للأعراض الموعودة بل للأحوال الموجودة فإنه ابن وقته . وأيضا ترك الفقير الحظ العاجل واغتنامه الفقر اختيار منه وإرادة ، والاختيار والإرادة علة في حال الصوفى ، لأن الصوفى صار قائما في الأشياء بإرادة الله تعالى لا بإرادة نفسه ، فلا يرى فضيلة في صورة فقر ولا في صورة غنى ، وإنما يرى الفضيلة فيما يوقفه الحق فيه ويدخله عليه ويعلم الإذن من الله تعالى في الدخول في الشيء ، وقد يدخل في صورة سعة مبانة للفقر بإذن من الله تعالى ، ويرى الفضيلة حيث يثبذ في السعة لمكان الإذن من الله فيه ، ولا يفسح في السعة والدخول فيها للصادقين إلا بعد إحكامهم علم الإذن ، وفي هذا منزلة للأقدام وباب دعوى للبدعين ، وما من حال يتحقق به صاحب الحال إلا وقد يحكيه ركب الحال (لهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة) فإذا اتضح ذلك ظهر الفرق بين الفقر والتصوف ، وعلم أن الفقر أساس التصوف وبه قوامه على معنى أن الوصول إلى رتب التصوف طريقه الفقر لا على معنى أنه يلزم من وجود التصوف وجود الفقر .

قال الجنيد رحمه الله عليه : التصوف هو أن يملك الحق عنك ويحييك به ، وهذا المعنى هو الذى ذكرناه من كونه قائما في الأشياء بالله لا بنفسه ، والفقير والزاهد مكرنان في الأشياء بنفسهما واقفان مع إرادتهما مجتهدان مبلغ عليهما ، والصوفى منهم لنفسه مستقل لعله ، غير راكن إلى معلومه ، قائم بمراد ربه لا بمراد نفسه .

قال ذى النون المصرى رحمه الله عليه : الصوفى من لا يتعبه طلب ولا يزجه سلب . وقال أيضا : الصوفية آثروا الله تعالى على كل شيء فأثروا الله على كل شيء ، فكان من إثارهم أن آثروا علم الله على علم نفوسهم ، وإرادة الله على إرادة نفوسهم .

قيل لبعضهم : من أصحب من الطوائف ؟ قال : الصوفية ، فإن للقيح عندهم وجهان المعاذير ، وليس للكبير من العمل عندهم وقع ، يرفعونك به فتعجيك نفسك ، وهذا علم لا يوجد عند الفقير والزاهد ، لأن الزاهد يستعظم الترك ويستقبح الأخذ وهكذا الفقير ، وذلك لضيق وعائهم ووقوفهم على حد علمهم .

وقال بعضهم : الصوفى من إذا استقبله حالان حسنان أو خلقان حسنان يكون مع الأحسن ، والفقير والزاهد لا يميزان كل التمييز بين الخلقين الحسنين ، بل يختاران من الأخلاق أيضا ما هو أدعى إلى الترك والخروج عن شواغل الدنيا ، حاكمان في ذلك بعلمهما ، والصوفى : هو المستبين الأحسن من عند الله بصدق التجائه وحسن إنابته وحظ قربه ولطيف ولوجه وخروجه إلى الله تعالى ، لعله ربه وحظه من محادثته ومكالمته .

قال رويم : التصوف استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد .

وقال عمرو بن عثمان المكي : التصوف أن يكون العبد في كل وقت مشغولا بما هو أولى في الوقت .

قال بعضهم : التصوف أوله علم وأوسطه عمل وآخره موهبة من الله تعالى : وقيل : التصوف ذكر مع اجتماع ، ووجد مع استماع ، وعمل مع اتباع . وقيل التصوف ترك التكلف وبذل الروح .

قال سهل بن عبد الله : الصوفى من صفا من الكدر ، وامتلأ من الفكر ، وانقطع إلى الله من البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر .

وسئل بعضهم عن التصوف فقال ، تصفية القلب عن موافقة البرية . ومفارقة الأخلاق الطبيعية ، وإخماد صفات البشرية ، ومجانبة الدواعى النفسانية ، ومنازلة الصفات الروحانية ، والتعلق بعلوم الحقيقة ، واتباع الرسول في الشريعة .

قال ذو النون المصرى : رأيت ببعض سواحل الشام امرأة ، فقلت : من أين أقبلت ؟ قالت : من عند أقوام تتجافى

جنوبهم عن المضاجع . فقلت : وأين تريدن ؟ قالت : إلى رجال لا تلهمهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، فقلت : صفهم لي ، فأنشأت :
 قوم همومهم بالله قد عقلت * فإلهم همم تسمو إلى أحد
 فطلب القوم مولاهم وسيدهم * يا حسن مطلبهم للواحد الصمد
 ما إن تنازعهم دنيا ولا شرف * من المطاعم واللذات والولد
 ولا للبس ثياب فائق أنق * ولا لروح سرور حل في بلد
 إلا مسارعة في إثر منزلة * قد قارب الخطوفها بأعد الأبد
 فهم رهائن غدران وأودية * وفي الشواخ تلتقام مع العدد

وقال الجنيد : الصوفي كالارض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليس . وقال أيضا : هو كالارض يطؤها البر والفاجر ، وكالسحاب يظل كل شيء ، وكالفطر يسقى كل شيء .

وأقوال المشايخ في ماهية التصوف تزيد على ألف قول ، ويطول نقلها ، ونذكر ضابطا يجمع جل معانيها ، فإن الالفاظ وإن اختلفت متقاربة المعاني . فنقول : الصوفي هو الذي يكون دائم التصفية لا يزال يصفي الأوقات عن شوب الأكدار بتصفية القلب عن شوب النفس ، ويعينه على كل هذه التصفية دوام افتقاره إلى مولا ، وبدوام الافتقار ينقي من السكر ، وكلما تحركت النفس وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته النافذة وفر منها إلى ربه ، وبدوام تصفيته جمعيته ، وبحركة نفسه تفرقة وكدره ، فهو قائم بربه على قلبه ، وقائم بقلبه على نفسه . قال الله تعالى ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾ وهذه القوامية لله على النفس هو التحقق بالتصوف ، قال بعضهم التصوف كله اضطراب ، فإذا وقع السكون فلا تصوف ، والسرفيه أن الروح مجذوبة إلى الحضرة الإلهية يعني أن روح الصوفي متطلعة منجذبة إلى موطن القرب ، وللنفس بوضعها رسوب إلى عالمها وانقلاب على عقبها ، ولا بد للصوفي من دوام الحركة بدوام الافتقار ودوام الفرار وحسن التفقد لمواقع إصابات النفس ، ومن وقف على هذا المعنى يجد في معنى الصوفي جميع المتفرق في الإشارات .

الباب السادس : في ذكر تسميتهم بهذا الاسم

أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر بن محمد بن طاهر ، وقال أخبرني والدي ، قال أخبرنا أبو علي الشافعي رحمه الله تعالى ، قال أخبرنا أحمد بن إبراهيم ، قال أخبرنا أبو جعفر محمد بن إبراهيم ، قال أخبرنا أبو عبد الله الخروسي ، قال حدثنا سفيان عن مسلم عن أنس بن مالك ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيب دعوة العبد ويركب الحمار ويلبس الصوف ، فمن هذا الوجه ذهب قوم إلى أنهم سمو صوفية نسبة لهم إلى ظاهر اللبسة ، لأنهم اختاروا لبس الصوف لكونه أرفق ولكونه كان لباس الأنبياء عليهم السلام

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « مر بالصخرة من الروحاء سبعون نبيا حفاة عليهم العباء يؤمون البيت الحرام » .

وقيل : إن عيسى عليه السلام كان يلبس الصوف والشعر ، ويأكل من الشجر ، ويبيت حيث أمسى .
 وقال الحسن البصري رضي الله عنه : لقد أدركت سبعين بدريا كان لباسهم الصوف ، ووصفهم أبو هريرة وفضالة ابن عبيد فقالا : كانوا يخرون من الجوع حتى يحسبهم الأعراب مجانين ، وكان لباسهم الصوف حتى إن بعضهم كان يعرق في ثوبه فيوجد منه رائحة الضأن إذا أصابه الغيث . وقال بعضهم : إنه ليؤذني ريح هؤلاء ، أما يؤذيك ريحهم ! يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فكان اختيارهم لبس الصوف لتركهم زينة الدنيا ، وقناعتهم بسدا للجوع وسر العورة ، واستغراقهم في أمر الآخرة ، فلم يتفرغوا للملاذات والنفوس وراحاتها ، لشدة شغلهم بخدمة مولا ، وانصرافهم إلى أمر الآخرة ، وهذا الاختيار بلائم ويناسب من حيث الاشتقاق ، لأنه يقال « تصوف » إذا لبس الصوف ، كما يقال « قمص » إذا لبس القميص .

ولما كان حالهم بين سير وطير لتقلبهم في الأحوال وارتقائهم من حال إلى أعلى منه ، لا يقيدهم وصف ولا يحبسهم نعت ، وأبواب المزيد علما وحالاعليهم مفتوحة ، وبواطنهم معدن الحقائق وجمع العلوم ، فلما تعذر تقديم بحال تقديم لتتوع وجدانهم وتجنس مزيدهم ، نسبوا إلى ظاهر اللبسة . وكان ذلك أبين في الإشارة إليهم ، وأدعى إلى حصر وصفهم ؛ لأن لبس الصوف كان غالبا على المتقدمين من سلفهم ؛ وأيضاً لأن حالهم حال المقرين كاسبق ذكره . ولما كان الاعتناء إلى القرب - وعظم الإشارة إلى قرب الله تعالى أمر صعب يعز كشفه والإشارة إليه - وقعت الإشارة إلى زبهم ستر حالهم وغيره على عزيز مقامهم أن تكثر الإشارة إليه وتتداوله اللسان ، فكان هذا أقرب إلى الأدب ، والأدب في الظاهر والباطن والقول والفعل عماد أهل الصوفية ، وفيه معنى آخر : وهو أن نسبتهم إلى اللبسة تنفي عن تقلبهم من الدنيا وزهدهم فيما تدعو النفس إليه بالهوى من الملبوس الناعم ، حتى إن المبتدئ المريد الذي يؤثر طريقهم ويحب الدخول في أمرهم يوطن نفسه على التقشف والتقل ، ويعلم أن المأكل أيضاً من جنس الملبوس فيدخل في طريقهم على بصيرة ، وهذا أمر مفهوم معلوم عند المبتدئ ، والإشارة إلى شيء من حالهم في تسميتهم بهذا أنفع وأولى ، وأيضاً غير هذا المعنى مما يقال إنهم سمو صوفية لذلك يتضمن دعوى وإذاقيل سمو صوفية لللبسهم الصوف كان أبعد من الدعوى ، وكل ما كان أبعد من الدعوى كان أليق بحالهم ، وأيضاً لأن لبس الصوف حكم ظاهر على الظاهر من أمرهم ، ونسبتهم من أمر آخر من حال أو مقام أمر باطن ، والحكم بالظاهر أوفق وأولى ؛ فالقول بأنهم سمو صوفية لللبسهم الصوف أليق وأقرب إلى التواضع ، ويقرب أن يقال : لما آثروا الذبول والخمول والتواضع والانكسار والتخفي والتواضع ، كانوا كالخرقة الملقاة والصوفة الرممية التي لا يرغب فيها ولا يلتفت إليها ؛ فيقال : صوفي ، نسبة إلى الصوفة ، كما يقال : كوفي ، نسبة إلى الكوفة ، وهذا ما ذكره بعض أهل العلم ، والمعنى المقصود به قريب ويلائم الاشتقاق ، ولم يزل لبس الصوف اختيار الصالحين والزهاد والمتقشفين والعباد .

أخبرنا أبو زرعة طاهر عن أبيه ، قال أخبرنا عبد الرزاق بن عبد الكريم ، قال أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد ، قال حدثنا أبو علي بن إسماعيل بن محمد ، قال حدثنا الحسن بن عرفة ، قال حدثنا خلف بن خليفة عن حميد بن الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوم كأم الله تعالى موسى عليه السلام كان عليه جبة صوف وسراويل صوف وكساء صوف وكفه من صوف ونعلاه من جلد حمار غير مذكي .

وقيل : سمو صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل بارتفاع همهم وإقبالهم على الله تعالى بقلوبهم ووقوفهم بسرائرهم بين يديه . وقيل : كان هذا الاسم في الأصل صفوى ، فاستقل ذلك وجعل صوفيا . وقيل سمو صوفية نسبة إلى الصفة التي كانت لفقراء المهاجرين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض ﴾ الآية ، وهذا وإن كان لا يستقيم من حيث الاشتقاق اللغوي ولكنه صحيح من حيث المسمى ؛ لأن الصوفية يشاكل حال أولئك لكونهم مجتمعين متألفين متصاحبين لله وفي الله ، كأصحاب الصفة ، وكانوا نحو من أربعين رجلاً لم تكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر ، جمعوا أنفسهم في المسجد كاجتماع الصوفية قديماً وحديثاً في الزوايا والربط ، وكانوا لا يرجعون إلى زرع ولا إلى ضرع ولا إلى تجارة ، كانوا يحتطبون ويرضخون النوى بالنهار ، وبالليل يشتغلون بالعبادة وتعلم القرآن وتلاوته ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يواسيهم ويبحث الناس على مواساتهم ويجلس معهم ويأكل معهم ، وفيهم نزل قوله تعالى ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ وقوله تعالى ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ ونزل في ابن أم مكتوم قوله تعالى ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ﴾ وكان من أهل الصفة ، فعوتب النبي صلى الله عليه وسلم لأجله ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صاح بهم لا يزعج يده من أيديهم ، وكان يفرقهم على أهل الجدة والسعة يبعث مع كل واحد ثلاثة ومع الآخر أربعة ، وكان سعد بن معاذ يحمل إلى بيته منهم ثمانين يطعمهم .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : لقد رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون في ثوب واحد ، منهم من لا يبلغ ركبتيه ، فإذا ركع أحدهم قبض يديه مخافة أن تبدو عورته . وقال بعض أهل الصفة : جئنا جماعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلنا يا رسول الله ، أحرق بطوننا التمر فسمع بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فصعد المنبر ثم قال : ما بال أقوام يقولون أحرق بطوننا التمر ، أما علمتم أن هذا التمر هو طعام أهل المدينة وقد واسونا به وواسيناكم بما واسونا به ، والذي نفس محمد بيده إن منذ شهرين لم يرتفع من بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دخان للخبز ، وليس لهم إلا الاسودان المساء والتمر .

أخبرنا الشيخ أبو الفتوح محمد بن عبد الباقي في كتابه ، قال أخبرنا الشيخ أبو بكر ابن زكريا الطريثي قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي ، قال حدثنا محمد بن محمد بن سعيد الأنماطي ، قال حدثنا الحسن بن يحيى بن سلام ، قال حدثنا محمد بن علي الترمذي ، قال حدثني سعيد بن حاتم البلخي ، قال حدثنا سهل بن أسلم عن خلاد بن محمد عن أبي عبد الرحمن السكري عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهم قال : وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما على أهل الصفة فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم فقال « أبشروا يا أصحاب الصفة فمن بقي منكم على النعته الذي أتم عليه اليوم راضيا بما هو فيه فإنه من رفقاء يوم القيامة » .

وقيل : كان منهم طائفة بخراسان يأوون إلى الكهوف والمغارات ولا يسكنون القرى والمدن ، ويسمونهم في خراسان شكفتية ؛ لأن « شكفت » اسم النار ، يسمونهم إلى المأوى والمستقر وأهل الشام يسمونهم جوعية ، والله تعالى ذكر في القرآن طوائف الخير والصالح فسمى قوما أبراراً وآخرين مقربين ، ومنهم الصابرون والصادقون ، والذاكرون ، والمحبون ، واسم الصوفي مشتمل على جميع المتفرق في هذه الأسماء المذكورة ، وهذا الاسم لم يكن في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل كان في زمن التابعين . ونقل عن الحسن البصري رحمة الله عليه أنه قال رأيت صوفيا في الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذ وقال معي أربع دوانيق يكفيني مامعي ويشيد هذا ما روى عن سفيان أنه قال لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء . وهذا يدل على أن هذا الاسم كان يعرف قديما . وقيل لم يعرف هذا الاسم إلى المائتين من الهجرة العربية ؛ لأن في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمون الرجل صحابيا لشرف صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكون الإشارة إليها أولى من كل إشارة ، وبعد انقراض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذ منهم العلم سمي تابعيا ، ثم لما تقدم زمان الرسالة ، وبعد عهد النبوة وانقطع الوحي السماوي ، وتوارى الدور المصطفوي ، واختافت الآراء وتوعدت الأبحاث ، وتفرد كل ذي رأي برأيه وكدر شرب العلوم شوب الأهوية ، وتزعزعت أبنية المتقين ، واضطربت عزائم الزاهدين ، وغلبت الجهالات وكف حجابها ، وكثرت العادات وتمسكت أربابها ، وتزخرفت الدنيا وكثر خطاياها - تفرد طائفة بأعمال صالحة وأحوال سنية وصدق في العزيمة وقوة في الدين ، وزهدوا في الدنيا ومحبتها ، واغتنموا العزلة والوحدة ، واتخذوا لنفوسهم زوايا يجتمعون فيها تارة وينفردون أخرى ، أسوة بأهل الصفة ، تاركين للأسباب ، متبتلين إلى رب الأرباب ؛ فأثمر لهم صالح الأعمال سني الأحوال ، وتنبأ لهم صفاء الفهوم لقبول العلوم ، وصار لهم بعد اللسان لسان ، وبعد العرفان عرفان ، وبعد الإيمان إيمان ، كما قال حارثة أصبحت مؤمنا حقا ، حيث كوشف برتبة في الإيمان غير ما يتعاهدها ، فصار لهم بمقتضى ذلك علوم يعرفونها وإشارات يتعاهدونها ، فخرروا لنفوسهم اصطلاحات تشير إلى معان يعرفونها وتعرب عن أحوال يجدونها ، فأخذ ذلك الخلف عن السلف ، حتى صار ذلك رسما مستمرا وخبرا مستقرا في كل عصر وزمان ؛ فظهر هذا الاسم بينهم وتسموا به وسموا به ؛ فالاسم ستمتهم ، والعلم بالله صفتهم ، والعبادة حلهم ، والتقوى شعارهم ، وحقائق الحقيقة أسرارهم ، نزاع القبائل وأصحاب الفصائل ، سكان قباب الغيرة وقطان ديار الحيرة ، لهم مع الساعات من إمداد فضل الله مزيد ، ولطيب شوقهم بتأجج ويقول هل من مزيد اللهم احشرنا في زمرة من وازقنا حالناهم . والله أعلم .

الباب السابع : في ذكر المتصوف والمتشبه به

أخبرنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردي إجازة ، قال أخبرنا الشيخ أبو منصور بن خيرون ، قال أخبرنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري إجازة ، قال أخبرنا محمد بن العباس بن زكريا ، قال أخبرنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد الأصفهاني ، قال حدثنا الحسين بن الحسن المروزي ، قال أخبرنا عبد الله بن المبارك ، قال أخبرنا المعتز بن سليمان ، قال أخبرنا حميد الطويل عن أنس بن مالك قال : جاء رجل إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال : يا رسول الله متى قيام الساعة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة ، فلما قضى الصلاة قال : أين السائل عن الساعة ؟ فقال الرجل : أنا يا رسول الله ، قال : ما أعددت لها ؟ قال : ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام - أو قال ما أعددت لها كبير عمل - إلا أني أحب الله ورسوله ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : المرء مع من أحب أو أنت مع من أحببت ، قال أنس : فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بهذا ، فالتشبه بالصوفية ما اختار التشبه بهم دون غيرهم من الطوائف إلا لمحبة إياهم ، وهو مع تقصيره عن القيام بما هم فيه . يكون معهم لموضع إرادته ومحبته ، وقد ورد بلفظ آخر أوضح من الخبر الذي روينا في المعنى : روى عباد بن الصامت عن أبي ذر الغفاري قال : قلت يا رسول الله ، الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل كعملهم ، قال : أنت يا أبا ذر مع من أحببت ، قال : قلت فإني أحب الله ورسوله ، قال : فإنك مع من أحببت ، قال : فأعادها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . فحجة التشبه إياهم لا تكون إلا لتبني روحه لما تنهت له أرواح الصوفية ؛ لأن محبة أمر الله وما يقرب منه ومن يقرب منه ، تكون بجاذب الروح ، غير أن التشبه تعوق بظلمة النفس ، والصوفي تخلص من ذلك ، والمتصوف متطلع إلى حال الصوفي ، وهو مشارك ببقاء شيء من صفات نفسه عليه للتشبه ، وطريق الصوفية أوله إيمان ثم علم ثم ذوق ؛ فالتشبه صاحب إيمان . والإيمان بطريق الصوفية أصل كبير . قال الجنيد رحمه الله عليه : الإيمان بطريقنا هذا ولاية ، ووجه ذلك أن الصوفية تميزوا بأحوال عزيزة وآثار مستغربة عند أكثر الخلق ؛ لأنهم مكاشفون بالقدر وغرائب العلوم وإشاراتهم إلى عظيم أمر الله والقرب منه ، والإيمان بذلك إيمان بالقدرة . وقد أنكر قوم من أهل الملة كرامات الأولياء والإيمان بذلك إيمان بالقدرة ، ولهم علوم من هذا القبيل فلا يؤمن بطريقهم إلا من خصه الله تعالى بمزيد عنايته ، فالتشبه صاحب إيمان والمتصوف صاحب علم ، لأنه بعد الإيمان اكتسب مزيد علم بطريقهم وصار له من ذلك مواجيد يستدل بها على سائرهما ، والصوفي صاحب ذوق ، فللمتصوف الصادق نصيب من حال الصوفي ، وللتشبه نصيب من حال المتصوف ، وهكذا سنة الله تعالى جارية أن كل صاحب حال له ذوق فيه لا بد أن يكشف له علم بحال أعلى مما هو فيه ، فيكون في الحال الأول صاحب ذوق ، وفي الحال الذي كوشف به صاحب علم ، وبحال فوق ذلك صاحب إيمان ، حتى لا يزال طريق الطلب مسلوكا ، فيكون في حال الذوق صاحب قدم ، وفي حال العلم صاحب نظر ، وفي حال فوق ذلك صاحب إيمان . قال الله تعالى ﴿ إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون ﴾ وصف الأبرار ووصف شرايبهم ثم قال سبحانه وتعالى ﴿ ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون ﴾ فكان لشراب الأبرار مزج من شراب المقربين ، وللمقربين ذلك صرفا ؛ فللصوفي شراب صرف ، وللمتصوف من ذلك مزج في شرايبه ، وللتشبه مزج من شراب المتصوف ؛ فالصوفي سبق إلى مقام الروح من بساط القرب ، والمتصوف بالنسبة إلى الصوفي كالمتزهذ بالنسبة إلى الزاهد ، لأنه تفعل وتعمل وتسبب إشارة إلى ما بقي عليه من وصفه ، فهو يجتهد في طريقه سائر إلى ربه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سيروا ، سبق المفردون ، قيل : من المفردون يا رسول الله ؟ قال : المستترون بذكر الله وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا ، فالصوفي في مقام المفردين ، والمتصوف في مقام الساترين واصل في سيره مقام القلب من ذكر الله عز وجل ومراقبته بقلبه وتلذذه بنظره إلى نظر الله إليه ؛ فالصوفي في مقام الروح صاحب مشاهدة ، والمتصوف في مقام القلب

صاحب مراقبة ، والمتشبه في مقاومة النفس صاحب مجاهدة وصاحب محاسبة ؛ فتلون الصوفي بوجود قلبه . وتلون المتصوف بوجود نفسه ، والمتشبه لا تلون له لأن التلون لأرباب الأحوال ، والمتشبه يجتهد سالك لم يصل بعد إلى الأحوال ، والسكل تجمعهم دائرة الاصطفاء . قال الله تعالى ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ﴾ قال بعضهم : الظالم الزاهد ، والمقتصد العارف ، والسابق المحب .

وقال بعضهم : الظالم الذي يجزع من البلاء ، والمقتصد الذي يصبر عند البلاء ، والسابق الذي يتلذذ بالبلاء . وقال بعضهم : الظالم يعبد على الغفلة والعادة ، والمقتصد يعبد على الرغبة والرغبة ، والسابق يعبد على الهيبة والمثبة . وقال بعضهم : الظالم يذكر الله بلسانه ، والمقتصد بقلبه ، والسابق لا ينسى ربه . وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي رحمه الله : الظالم : صاحب الأقوال ، والمقتصد : صاحب الأفعال ، والسابق : صاحب الأحوال . وكل هذه الأقوال قريبة التناسب من حال الصوفي والمتصوف والمتشبه ، وكلهم من أهل الفلاح والنجاح ، تجمعهم دائرة الاصطفاء ، وتؤلف بينهم نسبة التخصص بالمنح والعطاء .

أخبرنا الشيخ العالم رضى الدين أبو الخير أحمد بن اسمعيل القزويني إجازة ، قال : أخبرنا أبو سعد محمد بن أبي العباس ، قال أخبرنا القاضي محمد بن سعيد ، قال أخبرنا أبو إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم ، قال أخبرني الحسين بن محمد بن فتوحه ، قال حدثنا أحمد بن محمد بن رزمة ، قال حدثنا يوسف بن عاصم الرازي ، قال حدثنا أبو أيوب سليمان بن داود ، قال حدثنا حصين بن نمير عن أبي ليلى عن أخيه عن أسامة بن زيد رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في قوله تعالى ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ﴾ « كلهم في الجنة » .

قال ابن عطاء : الظالم : الذي يحب الله من أجل الدنيا ، والمقتصد الذي يحب الله من أجل العقبي ، والسابق : هو الذي أسقط مراده بمراد الله فيه ، وهذا هو حال الصوفي ؛ فالمتشبه تعرض لشيء من أمر القوم ، ويوجب له ذلك القرب منهم ، والقرب منهم مقدمة كل خير .

سمعت شيخنا يقول : جاء بعض أبناء الدنيا إلى الشيخ أحمد الغزالي ونحن بأصهان يريد منه الخرقه ، فقال له الشيخ اذهب إلى فلان يشير إلى حتى يكلمك في معنى الخرقه ، ثم احضر حتى ألبسك الخرقه ، قال فجاء إلى فذكرت له حقوق الخرقه وما يجب من رعاية حقها وآداب من يلبسها ومن يؤهل للبسها ، فاستعظم الرجل حريق الخرقه وجبن أن يلبسها ، فأخبر الشيخ بما تجدد عند الطالب من قولي له ، فاستحضرني وعاتبني على قولي له ذلك وقال بعثته إليك حتى تكلمه بما يريد رغبته في الخرقه ، فكلمته بما فترت عزيمته ثم الذي ذكرته كله صحيح ، وهو الذي يجب من حقوق الخرقه ، ولكن إذا الزمنا المبتدى بذلك نفر وعجز عن القيام به ، فنحن نلبسه الخرقه حتى يتشبه بالقوم ويتزى بزيمهم فيقر به ذلك من مجالسهم ومحافلهم ، وبركة خالطته معهم ونظره إلى أحوال القوم وسيرهم يجب أن يسلك مسلكهم ويصل بذلك إلى شيء من أحوالهم .

ويوافق هذا القول من الشيخ أحمد الغزالي ما أخبرنا شيخنا رحمه الله قال أخبرنا عصام الدين عمر بن أحمد الصفار قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف قال أخبرنا الشيخ عبد الرحمن السلمي قال سمعت الحسين بن يحيى يقول سمعت جعفرًا يقول سمعت أبا القاسم الجنيد يقول إذا لقيت الفقير فلا تبدأ بالعلم وابدأ بالرفق ، فإن العلم يوحشه والرفق يؤنسه ، وبرفق الصوفية بالمتشبهين بهم ينفع المبتدى الطالب ، وكل من كان منهم أكل حالًا وأوفر علمًا كان أكثر رفقا بالمبتدى الطالب .

حكى عن بعضهم أنه صحبه طالب فكان يأخذ نفسه بكثرة المعاملات والمجاهدات ولم يقصد بذلك إلا نظر المبتدى إليه والتأدب بأدبه والاقتداء به في عمله وهذا هو الرفق الذي مداخل في شيء لإلزامه ، فالمتشبه الحقيقي له إيمان بطريق القوم وعمل بمقتضاه وسلوك واجتهاد ، على ما ذكرناه أنه صاحب مجاهدة ومحاسبة ، ثم يصير متصوفًا صاحب مراقبة ثم يصير صرفيًا صاحب مشاهدة ، فأما من لم يتطلع إلى حال التصوف والصوفي بالمشبه ولا يقصد أوائل

مقاصدهم بل هو مجرد تشبه ظاهر من ظاهر اللبسة والمشاركة في الزى والصورة دون السيرة والصفة ، فليس بتشبه بالصوفية ، لانه غير محاك لهم بالدخول في بداياتهم ، فإذا هو متشبه بالمتشبه يعتزى إلى القوم بمجرد لبسه ومع ذلك هم القوم لا يشقى بهم جليسهم ، وقد ورد « من تشبه بقوم فهو منهم » أخبرنا الشيخ أبو الفتح محمد بن سليمان ، قال أخبرنا الحافظ أبو نعيم الأصفهاني ، قال أخبرنا عبد الله بن جعفر ، قال حدثنا عمر بن أحمد بن أبي عاصم ، قال حدثنا إبراهيم بن محمد الشافعي ، قال حدثنا علي بن أحمد ، قال حدثنا علي بن غلى المقدسي ، قال حدثنا محمد بن عبد الله بن عامر ، قال حدثنا إبراهيم بن الأشعث ، قال حدثنا فضيل بن عياض عن سليمان الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله ملائكة فضلاء عن كتاب الناس يطوفون في الطرق ويتبعون مجالس الذكر ، فإذا رأوا قوما يذكر الله تنادوا : هلوا إلى حاجتكم ، فيحفون بأجنحتهم إلى عنان السماء ، فيقول الله وهو أعلم ما يقول عبادي ؟ قالوا يحمدونك ويسبحونك ويمجدونك ، فيقول وهل رأوني ؟ فيقولون لا ، فيقول كيف لو رأوني ؟ قالوا لو رأوك كانوا أشد تسبيحا وتحميدا وتمجيذا ، فيقول ما يسألونني ؟ قالوا : يسألونك الجنة ، فيقول : وهل رأوها ؟ قالوا : لا ، فيقول : كيف لو رأوها ؟ قالوا : لو رأوها كانوا أشد لها طلبا وعليها أكثر حرصا ، قالوا : ويتعوذون من النار ، فيقول : وهل رأوها ؟ قالوا : لا ، فيقول كيف لو رأوها ؟ قالوا : كانوا أشد منها تعوذا وأشد فزارا ، فيقول أشهدكم أني قد غفرت لهم ، فيقول الملك فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة ، فيقول تبارك وتعالى هم الجلساء لا يشقى جليسهم ، فلا يشقى جليس الصوفية والمتشبه بهم والمحب لهم

الباب الثاني : في ذكر الملامتي وشرح حاله

وقال بعضهم الملامتي هو الذي لا يظهر خيرا ، ولا يضر شرا ، وشرح هذا هو أن الملامتي تشربت عروقه طعم الإخلاص ، وتحقق بالصدق ، فلا يجب أن يطلع أحد على حاله وأعماله .

أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر بن أبي الفضل المقدسي إجازة قال أخبرنا أبو بكر علي بن خلف الشيرازي إجازة ، قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي ، قال سمعت علي بن سعيد وسألته عن الإخلاص ماهو ؟ قال سمعت علي بن إبراهيم وسألته عن الإخلاص ماهو ؟ قال سمعت محمد بن جعفر الحصاف وسألته عن الإخلاص ماهو ؟ قال سألت أحمد بن بشار عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت أبا يعقوب الشروطي عن الإخلاص ماهو ؟ قال سألت أحمد بن غسان عن الإخلاص ماهو ؟ قال سألت أحمد بن علي الجهمي عن الإخلاص ماهو ؟ قال سألت عبد الواحد بن زيد عن الإخلاص ماهو ؟ قال سألت الحسن عن الإخلاص ماهو ؟ قال سألت حذيفة عن الإخلاص ماهو ؟ قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإخلاص ماهو ؟ قال : سألت جبرائيل عن الإخلاص ماهو ؟ قال سألت رب العزة عن الإخلاص ماهو ؟ قال : هو سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادي .

فاللامتية لهم مزبد اختصاص بالتمسك بالإخلاص ، يرون كنم الأحوال والأعمال ، ويتلذذون بكنمتها ، حتى لو ظهرت أعمالهم وأحوالهم لأحد استوحشوا من ذلك كما يستوحش العاصي من ظهور معصيته ، فاللامتي عظم وقع الإخلاص وموضعه وتمسك به معتدابه ، والصرف في غاب في إخلاصه عن إخلاصه . قال أبو يعقوب السوسي متى شهدوا في إخلاصهم الإخلاص احتاج إخلاصهم إلى إخلاص . وقال ذو النون ثلاث من علامات الإخلاص . استواء الذم والمدح من العامة ، ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال ، وترك اقتضاء ثواب العمل في الآخرة .

أخبرنا أبو زرعة إجازة قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف إجازة قال : أخبرنا أبو عبد الرحمن قال : سمعت أبا عثمان المغربي يقول : الإخلاص ما لا يكون للنفس فيه حظ بحال ، وهذا إخلاص العوام ، وإخلاص الخواص ما يجري عليهم لا بهم ، فتبدو منهم الطاعات وهم عنها بمعزل ولا يقع لهم عليها رؤية ولا بها اعتداد ، فذلك إخلاص الخواص ، وهذا الذي فصله الشيخ أبو عثمان المغربي يفرق بين الصوفي واللامتي ، لأن الملامتي أخرج الخلق عن عمله وحاله ، ولكن أثبت

نفسه فهو مخلص ، والصوفي أخرج نفسه عن عمله وحاله كأخرج غيره فهو مخلص ، وشتان ما بين المخلص الخالص والمخلص قال أبو بكر الرقاق : نقصان كل مخلص في إخلاصه رؤية إخلاصه ، فإذا أراد الله أن يخلص إخلاصه أسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه ، فيكون مخلصا مخلصا . قال أبو سعيد الخراز : رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين . ومعنى قوله أن إخلاص المريدين معلول برؤية الإخلاص ، والعارف منزّه عن الرياء الذي يبطل العمل ، ولكن لعله يظهر شيئا من حاله وعمله بعلم كامل عنده فيه لجذب مريد أو معاناة خلق من أخلاق النفس في إظهار الحال والعمل ، والعارفين في ذلك علم دقيق لا يعرفه غيرهم ، فيرى ذلك ناقص العلم صورة رياء وليس برياء ، وإنما هو صريح العلم لله بالله من غير حضور نفس ووجود آفة فيه .

قال رومي : الإخلاص أن لا يرضى صاحبه عليه عوضا في الدارين ، ولاحظا من المملكين . وقال بعضهم : صدق الإخلاص نسيان رؤية الخلق يدوام النظر إلى الحق ، والملائي يرى الخلق فيخفي عمله وحاله وكل ما ذكرناه من قيل وصف إخلاص الصوفي ، ولهذا قال الرقاق . لا بد لكل مخلص من رؤية إخلاصه ، وهو نقصان عن كمال الإخلاص ، والإخلاص هو الذي يتولى الله حفظ صاحبه حتى يأتي به على التمام .

قال جعفر الخلدی : سألت أبا القاسم الجنيد رحمه الله ، قلت : أبين الإخلاص والصدق فرق ؟ قال : نعم ، الصدق أصل وهو الأول ، والإخلاص فرع وهو تابع ، وقال بينهما فرق لأن الإخلاص لا يكون إلا بعد الدخول في العمل ثم قال إنما هو إخلاص ، ومخالصة الإخلاص ، ومخالصة الكائنة في المخالصة ، فعلى هذا الإخلاص حال الملائي ، ومخالصة الإخلاص حال الصوفي ، والمخالصة الكائنة من المخالصة ثمرة مخالصة الإخلاص وهو فناء العبد عن رسومه برؤية قيامه بقيومه ، بل غيبه عن رؤية قيامه وهو الاستغراق في العين عن الآثار والتخلص عن لوث الاستتار وهو فقد حال الصوفي . والملائي مقيم في أوطان إخلاصه غير متطلع إلى حقيقة خلاصه ، وهذا فرق واضح بين الملائي والصوفي ولم يزل في خراسان منهم طائفة ولهم مشايخ يهدون أساسهم ويعرفونهم شروط حالهم . وقد رأينا في العراق من يسلك هذا المسلك ولكن لم يشتهر بهذا الاسم ، ولما يتداول السنة أهل العراق هذا الاسم .

حكى أن بعض الملامية استدعى إلى سماع فامتنع ، فقيل له في ذلك فقال لاني إن حضرت يظهر على وجد ، ولا أوتر أنه يعلم أحد حالي .

وقيل إن أحمد بن أبي الحراري قال لاني سليمان الداراني إني إذا كنت في الخلوة أجهد لمعالماتي لذة لأجدها بين الناس ، فقال له إنك إذا لضعيف ، فلاملائي وإن كان متمسكا بعروة الإخلاص مستغفرا شبا بساط الصدق ، ولكن بقى عليه بقية رؤية الخلق ، وما أحسنها من بقية تحقق الإخلاص والصدق ، والصوفي صفا من هذه البقية في طرفي العمل والترك للخلق وعزلهم بالكلية ، ورآهم بعين الفناء والزوال ، ولاح له ناصية التوحيد ، وعاب سر قوله ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ كما قال بعضهم في بعض غلباته ليس في الدارين غير الله ، وقد يكون إخفاء الملائي الحال على وجهين أحدهما وجهين لتحقيق الإخلاص والصدق ، والوجه الآخر وهو الاتم لستر الحال عن غيره بنوع غير ، فإن من خلا بمحبوبه يكره اطلاع الغير عليه ، بل يبلغ في صدق المحبة أن يكره اطلاع أحد على حبه لمحبوبه ، وهذا وإن علا في طريق الصوفي علة ونقص ، فعلى هذا يتقدم الملائي على المتصوف ويتأخر عن الصوفي .

وقيل إن من أصول الملامية أن الذكر على أربعة أقسام ذكر باللسان ، وذكر بالقلب ، وذكر بالسرو وذكر بالروح . فإذا صح ذكر الروح سكنت السر والقلب واللسان عن الذكر ، وذلك ذكر المشاهدة . وإذا صح ذكر السر سكنت القلب واللسان عن الذكر ، وذلك ذكر الهيبية . وإذا صح ذكر القلب فتر اللسان عن الذكر ، وذلك ذكر الآلاء والنعماء . وإذا غفل القلب عن الذكر أقبل اللسان على الذكر وذلك ذكر العادة ، ولكل واحد من هذه الأذكار عندهم آفة ، فآفة ذكر الروح اطلاع السر عليه ، وآفة ذكر السر اطلاع القلب عليه ، وآفة ذكر القلب اطلاع النفس عليه ، وآفة ذكر النفس رؤية ذلك وتعظيمه ، أو طلب ثوابه ، أو ظن أنه يصل إلى شيء من المقامات

وأقل الناس قيمة عندهم من يريد إظهاره وإقبال الخلق عليه بذلك ، وسر هذا الأصل الذى بنو عليه أن ذكر الروح ذكر الذات ، وذكر السر ذكر الصفات بزعمهم ، وذكر القلب من الآلاء والنعماء ذكر أثر الصفات ، وذكر النفس متعرض للعلات ؛ فعنى قولهم «اطلاع السر على الروح» يشيرون إلى التحقق بالفناء عند ذكر الذات وذكر الهبة في ذلك الوقت ذكر الصفات مشعر بنصيب الهبة ، وهو وجود الهبة ، ووجود الهبة يستدعى وجود أوبقية ، وذلك يناقض حال الفناء ، وهكذا ذكر السر وجود هبة وهو ذكر الصفات مشعر بنصيب القرب ، وذكر القلب الذى هو ذكر الآلاء والنعماء مشعر ببعد ما ، لأنه اشتغال بذكر النعمة وذبول عن المنعم . والاشتغال بروية العطاء عن رؤية المعطى ضرب من بعد المنزلة واطلاع النفس ، نظر إلى الأعواض اعتداد بوجود العمل ، وذلك عين الاعتدال حقيقة ، وهذه أقسام هذه الطائفة ، وبعضها أعلم من بعض ، والله أعلم .

الباب التاسع : فى ذكر من انتمى إلى الصوفية وليس منهم

فإن أولئك قوم يسمون نفوسهم قلندرية تارة وملاطمية أخرى ؛ وقد ذكرنا حال الملامتى ، وأنه حال شريف ومقام عزيز ، وتمسك بالسُنن والآثار ، وتحقيق بالإخلاص والصدق ، وليس بما يزعم المفتونون بشيء .

فأما القلندرية فهو إشارة إلى أقوام ملكهم سكر طيبة قلوبهم حتى خربوا العادات ، وطرحوا التقيد بأداب المجالسات والمخالطات ، وساحوا فى ميادين طيبة قلوبهم ؛ فقلت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض ، ولم يبالوا يتناول شيء من لذات الدنيا من كل ما كان مباحا برخصة الشرع ، وربما اقتصروا على رعاية الرخصة ولم يطلبوا أحقاق العزيمة ، ومع ذلك هم متمسكون بترك الادخار ، وترك الجمع والاستكثار ، ولا يترسمون بمراسم المتقشفين والمتزهدين والمتعبدین ، وقنعوا بطيبة قلوبهم مع الله تعالى ، واقتصروا على ذلك وليس عندهم تطلع إلى طمع مزيد سوى ما هم عليه من طيبة القلوب ، والفرق بين الملامتى والقلندرى : أن الملامتى يعمل فى كتم العبادات والقلندرى يعمل ، فى تخريب العادات ، واللامتى يتمسك بكل أبواب البر والخير ويرى الفضل فيه ، ولكن يخفى الأعمال والأحوال ويوقف نفسه موقف العوام فى هيئته وملبوسه وحركاته وأموره وسرا للحال لئلا يفتن له ، وهو مع ذلك متطلع إلى طلب المزيد باذل بجهوده فى كل ما يتقرب به العبيد . والقلندرى لا يتقيد بهيمة ولا يبالى بما يعرف من حاله وما لا يعرف ، ولا يتعطف إلا على طيبة القلوب وهو رأس ماله ، والصوفى يضع الأشياء مواضعها ويدير الأوقات والأحوال كلها بالعلم ، يقيم الخلق مقامه ويقيم أسر الحق مقامهم ، ويستتر ما ينبغى أن يستتر ويظهر ما ينبغى أن يظهر ، ويأتى بالأمور فى موضعها بحضور عقل وصحة توحيد وكال معرفة ورعاية صدق وإخلاص ، فقوم من المفتونين سمو أنفسهم ملاطمية ولبسوا البسة الصوفية لينتسبوا بها إلى الصوفية وما هم من الصوفية بشيء ، بل هم فى غرور وغلط ، يتسترون بلبسة الصوفية توقيتاً تارة ودعوى أخرى ، وينتهجون منها هج أهل الإباحة ، ويزعمون أن ضمايرهم خلصت إلى الله تعالى ، ويقولون : هذا هو الظفر بالمراد ، والارتسام بمراسم الشريعة رتبة العوام والقاصرين الأفهام المنحصرين فى مضيق الاقتداء تقليدا ، وهذا هو عين الإلحاد والزندقة والإبادة ، فكل حقيقة ردتها الشريعة فهى زندقة ، وجعل هؤلاء المفرورون أن الشريعة حق العبودية ، والحقيقة هى حقيقة العبودية ، ومن صار من أهل الحقيقة تقيد بحقوق العبودية وصار مطالباً بأمور وزيادات لا يطالب بها من لم يصل إلى ذلك ، لأنه يخلع عن عنقه ربة التكليف ويخامر باطنه الزيف والتحريف .

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه المقدسى قال أخبرنا أبو محمد الخطيب ، حدثنا أبو بكر بن محمد بن عمر ، قال حدثنا أبو بكر بن أبي داود ، قال حدثنا أحمد بن صالح ، قال حدثنا عتبة قال حدثنا يونس بن يزيد ، قال قال محمد يعنى الزهرى ، أخبرنى حميد بن عبد الرحمن أن عبد الله بن عتبة بن مسعود حدثه قال سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : إن أناسا كانوا يؤخذون بالوحى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الوحى قد انقطع ، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر من أعمالكم ، فمن أظهر لنا خيراً أمناء وقربناه ، وليس إلينا من سريره شيء ؛ الله تعالى يحاسبه فى

سريره : ومن أظهر لنا سوى ذلك لم نأمنه وإن قال سريرتي حسنة وعنه أيضا رضى الله عنه قال : من عرض نفسه للثم فويلو من من أساء به الظن ؛ فإذا رأينا متهاونا بمحدود الشرع مهملا للصلاوات المفروضات لا يعتد بجلاوة التلاوة والصوم والصلاة ويدخل في المداخل المكروهة المحرمة ، زده ولا تقبله ولا تقبل دعواه أن له سريرة صالحة .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى إجازة عن عمر بن أحمد عن أبي خلف عن السلى ؛ قال : سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت أبا محمد الجريرى يقول : سمعت الجنيد يقول لرجل ذكر المعرفة ، فقال الرجل : أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقوى إلى الله تعالى ؛ فقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا بأسقاط الأعمال ، وهذه عندي عظيمة ، والذي يسرق ويربى أحسن حالا من الذى يقول هذا ؛ وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله وإليه يرجعون فيها ، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة ؛ إلا أن يحال في دونها ؛ وإنما لاكد في معرفتي وأقوى لحال . ومن جملة أولئك قوم يقولون بالحلول ويرغمون أن الله تعالى يحل فيهم ويحل في أجسام يصطفونها ، ويسبق لأفهامهم معنى من قول التصارى في اللاهوت والناسوت . ومنهم من يستبيح النظر إلى المستحسنات إشارة إلى هذا الوهم ، ويتخيل له أن من قال كلمات في بعض غلغلاته كان مضمرًا لشيء مما زعموه ، مثل قول الخلاج : أنا الحق ، وما يحكى عن أبي يريد من قوله : سبجاني ، حاشا أن نعتقد في أبي يريد أنه يقول ذلك إلا على معنى الحكاية عن الله تعالى ، وهكذا ينبغي أن يعتقد في قول الخلاج ذلك ، ولو علمنا أنه ذكر ذلك القول مضمرًا لشيء من الحلول رددناه كما نردهم ، وقد أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بشريعة بيضاء نقية يستقيم بها كل معوج ، وقد دللنا عقولنا على ما يجوز وصف الله تعالى به وما لا يجوز ، والله تعالى مزمع أن يحل به شيء أو يحل بشيء ، حتى لعل بعض المفتونين يكون عنده ذكاء وفطنة غريزية : ويكون قد سمع كلمات تعلقت بباطنه فيتألف له في فكره كلمات ينسبها إلى الله تعالى وأنها مكاملة لله إياه ، مثل أن يقول : قال لي وقلت له ، وهذا رجل إما جاهل بنفسه وحديثها جاهل بربه وبكيفية المسكاة والمحاذفة : ولما عالم بطلان ما يقول ، يحمله هواه على الدعوى بذلك ليوم أنه ظفر بشيء ، وكل هذا ضلال ، ويكون سبب تجربته على هذا ماسم من كلام بعض المحققين مخاطبات وردت عليهم بعد طول معاملات لهم ظاهرة وباطنة ، وتمسكهم بأصول القوم من صدق التقوى وكمال الزهد في الدنيا ، فلما صفت أسرارهم تشكلت في سرائرهم مخاطبات موافقة للكتاب والسنة ، فنزلت بهم تلك المخاطبات عند استغراق السرائر ، ولا يكون ذلك كلاما يسمعون بل كحديث في النفس يجدونه برؤية موافقا للكتاب والسنة ، مفهوما عند أهلهم . موافقا للعلم ، ويكون ذلك مناجاة لسرائرهم ، ومناجاة سرائرهم إياهم ، فيثبتون لنفوسهم مقام العبودية ولمولاهم الروبوبة ، فيضيفون ما يجدونه إلى نفوسهم وإلى مولاهم ، وهم مع ذلك عالمون بأن ذلك ليس كلام الله إنما هو علم حادث أحدثه الله في بواطنهم ، فطريق الاصحاء في ذلك الفرار إلى الله تعالى من كل ما تحدث نفوسهم به ، حتى إذا برئت ساحتهم من الهوى ألهموا في بواطنهم شيئا ينسبونه إلى الله تعالى نسبة الحادث إلى المحدث لانسبة الكلام إلى المتكلم ، لينصنوا عن الزينغ والتحريف ، ومن أولئك قوم يزعمون أنهم يفرقون في بحار التوحيد ولا يثبتون ؟ ويسقطون لنفوسهم حركة وفعل يزعمون أنهم مجبورون على الأشياء وأن لأفعل لهم مع فعل الله ، ويسترسلون في المعاصي وكل ما تدعو النفس إليه ، ويركثون إلى البطالة وبذوام الغفلة والاعتذار بالله والخروج من الملة وترك الحدود والاحكام والحلال والحرام .

وقد سئل سهل عن رجل يقول : أنا كالأب لا أتحرك إلا إذا حركت ، قال : هذا لا يقوله إلا أحد رجلين : إما صديق أو زنديق ، لأن الصديق يقول هذا القول إشارة إلى أن قوام الأشياء بالله مع إحكام الأصول ورعاية حدود العبودية ، والزنديق يقول ذلك إشارة إلى حالة الأشياء على الله وأسقاطا للآئمة عن نفسه وانخلاعا عن الدين ورسمه ، فأما من كان معتقدا للحلال والحرام والحدود والاحكام ، معتزفا بالمعصية إذا صدرت منه معتقدا وجوب التوبة منها فهو

سليم صحيح ، وإن كان تحت القصور بما يركن إليه من البطالة ويترشح بهوى النفس إلى الاسفار والتردد في البلاد ، متوصلا إلى تناول اللذائذ والشهوات ؛ غير متمسك بشيخ يودبه ويهذبه ويصهره بعيب ما هو فيه ، والله الموفق .

الباب العاشر : في شرح رتبة المشيخة

ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذي نفس محمد بيده أن شئتم لأقسامكم ، إن أحب عباد الله تعالى إلى الله الذين يحبون الله إلى عباده ، ويحبون عباد الله إلى الله ، ويمشون على الأرض بالضيقة ، وهذا الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم هو رتبة المشيخة والدعوة إلى الله تعالى ، لأن الشيخ يحب الله إلى عباده حقيقة ، ويجب عباد الله إلى الله ، ورتبة المشيخة من أعلى الرتب في طريق الصوفية ونيابة الثبوت في الدعاء إلى الله . فأما وجه كون الشيخ يحب الله إلى عباده ، فلأن الشيخ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن صح اقتداؤه واتباعه أحبه الله تعالى ! قال الله تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ ووجه كونه يحب عباد الله تعالى إليه ؛ أنه يسلك بالمريد طريق التزكية ، وإذا تزكت النفس انجلت مرآة القلب ؛ وانعكست فيه أنوار العظمة الإلهية ؛ ولاح فيه جمال التوحيد ؛ وانجذبت أحداق البصيرة إلى مطالعة أنوار جلال القدم ورؤية الكمال الأزلي ؛ فأحب العبد ربه لا محالة ؛ وذلك ميراث التزكية . قال الله تعالى ﴿ قد أفلح من زكاهما ﴾ وفلاحها بالظفر بمعرفة الله تعالى ؛ وأيضا مرآة القلب إذا انجلت لاحت فيها الدنيا بقبحها وحقيقتها وما هيئتها ؛ ولاح الآخرة نفائسها بكنهها وادعائها ، فتكشف للبصيرة حقيقة الدارين وحاصل المنزلة ؛ فيحب العبد الباقي ويزهّد في الفاني ، فتظهر فائدة التزكية وجدوى المشيخة والتربية فالشيخ من جنود الله تعالى يرشد به المريدن ويهدى به الطالبين .

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسي قال أخبرنا أبو الفضل عبد الواحد بن علي بهمدان ، قال أخبرنا أبو بكر محمد ابن علي بن أحمد الطوسي ، قال حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، قال حدثنا أبو عتبة ، قال حدثنا بقرية ، قال حدثنا صفوان بن عمرو ، قال حدثني الأزهر بن عبد الله ، قال قد سمعت عبد الله بن بشر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كان يقال إذا اجتمع عشرون رجلا أو أكثر ، فإن لم يكن فيهم من يهاب الله عز وجل ، فقد خطر الأمر ، فعلى المشايخ وقار الله وبهم يتأدب المريدون ظاهرا وباطنا ، قال الله تعالى ﴿ أولئك الذين هدى الله فبها هم اقتدوا ﴾ فالمشايخ لما اهتدوا أهلوا للاقتداء بهم وجعلوا أئمة المنقذين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه : « إذا كان الغالب على عبدى الاشتغال بي جعلت همته ولذته في ذكرى ، فإذا جعلت همته ولذته في ذكرى عشقني وعشقته ورفعت الحجاب فيما بيني وبينه ؛ لا يسو إذا سها الناس ، أولئك كلامهم كلام الأنبياء ، أولئك الأبطال حقا . أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة أو عذابا ذكرت فيهم فصرفته بهم عنهم ، والسرف في وصول السالك إلى رتبة المشيخة أن السالك مأمور بسياسة النفس مبتلى بصفاتها ، لا يزال يسلك بصدق المعاملة حتى تطمئن نفسه وبطمأنيتها ينزع عنها البرودة واليبوسة التي استصحبها من أصل خلقتها وبها تستعصى على الطاعة والانقياد للعبودية ، فإذا زالت اليبوسة عنها ولانت بحرارة الروح الواصلة إليها - وهذا اللين هو الذي ذكره الله تعالى في قوله ﴿ ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ تعالى - تجيب إلى العبادة وتلين للطاعة عند ذلك ؛ وقلب العبد متوسط بين الروح والنفس ذوجهين : أحدهما وجهه إلى النفس والوجه الآخر إلى الروح ، يستمد من الروح بوجهه الذي يليه ، ويد النفس بوجهه الذي يليها حتى تطمئن النفس ؛ فإذا اطمانت نفس السالك وفرغ من سياستها انتهى سلوكه وتمسك من سياسة النفس ، وانقادت نفسه وفاءت إلى أمر الله ، ثم القلب يشرب إلى السياسة لما فيه من التوجه إلى النفس ، فتقوم نفوس المريدن والطالبين والصادقين عنده مقام نفسه ، لوجود الجفسيّة في عين النفسية من وجهه ، ولوجود التألف بين الشيخ والمريد عن وجه التألف الإلهي . قال الله تعالى ﴿ لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾ فيسوس نفوس المريدن كما كان يسوس نفسه من قبل ، ويكون في الشيخ حينئذ معنى التخلق بأخلاق الله تعالى من معنى قول الله تعالى :

« ألا طال شوق الأبرار إلى لقاءى ، وإني إلى لقاءهم لأشد شوقا ، وبما هيا الله تعالى من حسن التأليف بين الصاحب والمصحوب يصير المرید جزء الشيخ ، كما أن الولد في الولادة الطبيعية ، وتصير هذه الولادة آنفا ولادة معنوية ، كما ورد عن عيسى صلوات الله عليه « لن يلبح ملكوت السماء من لم يولد مرتين » .

فبالولادة الأولى بصير له ارتباط بعالم الملك ، وبهذه الولادة يصير له ارتباط بالملكوت قال الله تعالى ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ﴾ وصرف اليقين على الكمال يحصل في هذه الولادة ، وبهذه الولادة يستحق ميراث الأنبياء ؛ ومن لم يصله ميراث الأنبياء ما ولد وإن كان على كمال من الفطنة والذكاء ، لأن الفطنة والذكاء نتيجة العقل ، والعقل إذا كان يابساً من نور الشرع لا يدخل الملكوت ولا يزال متردداً في الملك ، ولهذا وقف على برهان من العلوم الرياضية لأنه تصرف في الملك ولم يرتق إلى الملكوت ، والملك : ظاهر الكون ، والملكوت : باطن الكون ، والعقل : لسان الروح ، والبصيرة التي منها تنبعث أشعة الهداية : قلب الروح ، واللسان : ترجمان القلب ، وكل ما ينطق به الترجمان معلوم عند من يترجم عنه ، وليس كل ما عند من يترجم عنه يبرز إلى الترجمان ؛ فلهذا المعنى حرم الواقفون مع مجرد العقول المعرية عن نور الهداية - الذي هو موهبة الله تعالى عند الأنبياء وأتباعهم - الصواب ، وأسبل دونهم الحجاب لوقوفهم مع الترجمان وحرمانهم غاية التبيين ، وكان أن في الولادة الطبيعية ذرات الأولاد في صلب الأب مودعة ، تنقل إلى أصلاب الأولاد بعدد كل ولد ذرة وهي الذرات التي خاطبها الله تعالى يوم الميثاق ﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾ حيث مسح ظهر آدم وهو ملقى بطن لعنان بين مكة والطائف ، فسالت الذرات من مسام جسده كما يسيل العرق بعدد كل ولد من ولد آدم ذرة ، ثم لما خوطبت وأجابت ردت إلى ظهر آدم ، فن الآباء من تنفذ الذرات في صلبه ، ومنهم من لم يودع في صلبه شيء فينقطع نسله ، وهكذا المشايخ : فمنهم من تكثر أولاده ويأخذون منه العاوم والأحوال ويودعونها غيرهم كما وصلت إليهم من النبي صلى الله عليه وسلم بواسطة الصحبة ، ومنهم من تقل أولاده ، ومنهم من ينقطع نسله ؛ وهذا النسل هو الذي رد الله على الكفار حيث قالوا : محمد أتر لا نسل له ، قال الله تعالى ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ وإلا فنسل رسول الله صلى الله عليه وسلم باق إلى أن تقوم الساعة ، وبالنسبة المعنوية يصل ميراث العلم إلى أهل العلم .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي إمامنا ، قال أخبرنا أبو عبد الرحمن المساليني قال : أخبرنا أبو الحسن الداودي ، قال أخبرنا أبو محمد الحموي ، قال أخبرنا أبو عمران السمرقندي قال أخبرنا أبو محمد الدارمي قال أخبرنا نصر بن علي ، قال حدثنا عبد الله بن داود عن عاصم عن رجاء بن حيوة عن داود بن جميل عن كثير بن قيس قال كنت جالسا مع أبي الدرداء في مسجد دمشق ، فأتاه رجل فقال : يا أبا الدرداء إني أتيتك من المدينة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم لحديث بلغني عنك أنك تحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فاجاء بك تجارة ؟ قال : لا ، قال : ولا جاء بك غيره ؟ قال : لا ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من سلك طريقا يلتمس به علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإن طالب العلم يستغفر له من في السماء والأرض حتى الحيتان في الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ، وإن العلماء هم ورثة الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما أوزنوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظه أو بحظ وافر ، فأول ما أودعت الحكمة والعلم عند آدم أبي البشر عليه السلام ، ثم انتقل منه كما انتقل منه النسيان والعصيان وما تدعو إليه النفس والشيطان ، كما ورد « إن الله تعالى أمر جبرائيل حتى أخذ قبضة من أجزاء الأرض ، والله تعالى نظر إلى الأجزاء الأرضية التي كونها من الجوهرة التي خلقها أولا فصار من مواقع نظر الله إليها فيها خاصية السماع من الله تعالى والجواب ، حيث خاطب السموات والأرضين بقوله ﴿ أتيتا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ﴾ لحملت أجزاء الأرض بهذا الخطاب خاصية ، ثم انتزعت هذه الخاصية منها بأخذ أجزائها تركيب صورة آدم فركب جسد آدم من أجزاء أرضية معنوية على هذه الخاصية فن حيث نسبة أجزاء الأرض تركب فيه الحموى ، حتى مديده إلى شجرة الفناء

وهي شجرة الخنطة في أكثر الأقاليم ، فتطرق لقلبه الفناء ، ويأكرام الله إياه بنفخ الروح الذي أخبر عنه بقوله ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ﴾ قال : العلم الحكمة ، فبالنسوية صار ذا نفس منفوسة وبنفخ الروح صار ذا روح روحاني ، وشرح هذا بطول ، فصار قلبه معدن الحكمة ، وقلبه معدن الهوى ، فانتقل منه العلم والهوى وصار ميراثه في ولده ، فصار من طريق الولادة أبا بواسطة الطباع التي هي محدث الهوى ، ومن طريق الولادة المعنوية أبا بواسطة العلم ، فالولادة الظاهرة تطرق إليها الفناء ، والولادة المعنوية بحمة من الفناء ، لأنها وجدت من شجرة ، وهي شجرة العلم لا شجرة الخنطة التي سماها إبليس شجرة الخلد ، فأبليس يرى الشيء بعينه فبين أن الشيخ هو الأب معني ، وكثيرا كان شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردي رحمه الله يقول : ولدي من سلك طريق واهتدى بهدي ، فالشيخ الذي يكتب بطريفة الأحوال قد يكون مأخوذا في ابتدائه في طريق المحبين ، وقد يكون مأخوذا في طريق المحبوبين ، وذلك أن أمر الصالحين والسالكين ينقسم أربعة أقسام : سالك مجرد ، ومجذوب مجرد ، وسالك متدارك بالمجذبة ، ومجذوب متدارك بالسلوك . فالسالك المجرد لا يؤهل للشيخ ولا يبلغها لبقاء صفات نفسه عليه ، فيقف عند حظه من رحمة الله تعالى في مقام المعاملة والريضة ، ولا يرتقي إلى حال يروح بها عن وهج المكابدة ، والمجذوب المجرد من غير سلوك يبادئه الحق بآيات اليقين ، ويرفع عن قلبه شيئا من الحجاب ، ولا يؤخذ في طريق المعاملة . والمعاملة أثر تام سوف نشرحه في موضعه إن شاء الله تعالى ، وهذا أيضا لا يؤهل للشيخ ويقف عند حظه من الله مروحيا بحاله ، غير مأخوذ في طريق أعماله ماعدا الفريضة . والسالك الذي تدورك بالمجذبة هو الذي كانت بدايته بالمجاهدة والمكابدة والمعاملة بالإخلاص والوفاء بالشروط ، ثم أخرج من وهج المكابدة إلى روح الحال ، فوجد العسل بعد العلقم ، وتروح بنسبات الفضل ، وبرز من مضيق المكابدة إلى متسع المساهلة ، وأونس بنفحات القرب ، وفتح له باب من المشاهدة فوجد دواءه وقاض وعاقبه ، وصدرت منه كلمات الحكمة ومالت إليه القلوب ، وتوالت عليه فتوح الغيب وصار ظاهره مسددا وباطنه مشاهدا ، وصلح للجلوة وصار له في جلوته خلوة ، فيغلب ولا يغلب ، ويفترس ، ولا يفترس ، يؤهل مثل هذا للشيخ ، لأنه أخذ في طريق المحبين ، ومنح حالا من أحوال المقربين ، بعد ما دخل من طريق أعمال الأبرار الصالحين ، ويكون له اتباع ينتقل منه إليهم علوم ، ويظهر بطريقه بركة ، ولكن قد يكون محبوسا في حاله محكما حاله فيه لا يطلق من وثاق الحال ، ولا يبلغ كمال النوال ، يقف عند حظه وهو حلق وافرسي ؛ والذين أوتوا العلم درجات ، ولكن المقام الأكل في المشيخة القسم الرابع - وهو المجذوب المتدارك بالسلوك يبادئه الحق بالكشوف وأنوار اليقين ، ويرفع عن قلبه الحجب ، ويستنير بأنوار المشاهدة ، وينشرح وينفسح قلبه ويتجافى عن دار الغرور وينيب إلى دار الخلود ، ويرتوي من بحر الحال ، ويتخلص من الأغلال والأغلال ، ويقول معلنا : لا أعبد رباً لم أره ، ثم يفيض من باطنه على ظاهره ، وتجري عليه صورة المجاهدة والمعاملة من غير مكابدة وعناء ، بل بلذاتة وهناء ، ويصير قلبه بصفة قلبه ؛ لا امتلاء قلبه بحب ربه ، ويلين جلده كما لا نال قلبه ، وعلامة لين جلده إجابة قلبه للعمل كإجابة قلبه ، فيزيده الله تعالى إرادة خاصة ، ويرزقه محبة خاصة المحبوبين المرادين : ينقطع فيواصل ، ويعرض عنه فيواصل ، يذهب عنه جهود النفس ؛ ويصطلي بحرارة الروح ، وتسكنش عن قلبه عروق النفس . قال الله تعالى ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ أخبر أن الجلود تلين كما أن القلوب تلين ؛ ولا يكون هذا إلا حال المحبوب المراد . وقد ورد في الخبر : أن إبليس سأل السبيل إلى القلب ؛ فقيل له : يحرم عليك ولكن السبيل لك في مجاري العروق المشتبكة بالنفس إلى حد القلب ، فإذا دخلت العروق عرقت فيها من ضيق مجاريها ، وامتزج عرقك بماء الرحمة المتبرشح من جانب القلب في مجرى واحد ، ويصل بذلك سلطانك إلى القلب ، ومن جعلته نبيا أو وليا قلعت تلك العروق من باطن قلبه فيجبر القلب سلبا ، فإذا دخلت العروق لم تصل إلى المشتبكة بالقلب فلا يصل إلى القلب سلطانك ؛ فالمجرب المراد الذي أهل للشيخ سلم قلبه والشرح صدره ولان جلده ، فصار قلبه بطبع الزوج ونفسه بطبع القلب ، ولأن النفس بعد أن كانت أمانة

بالسوء مستعصية ولأن الجلد للين النفس ورد إلى صورة الأعمال بمد وجدان الحال ، ولا يزال روحه ينجذب إلى الحضرة الإلهية فيستبجع الروح القلب وتستبجع النفس ويستبجع النفس القلب ؛ فاهتزجت الأعمال القلبية والقالية ؛ وانخرق الظاهر إلى الباطن والباطن إلى الظاهر ، والقدرة إلى الحكمة والحكمة إلى القدرة ، والدنيا إلى الآخرة والآخرة إلى الدنيا ؛ ويصح له أن يقول : لو كشف الغطاء ما زددت يقينا ، فعند ذلك يطلق من وثاق الحال ويكون مسيطرا على الحال لا الحال مسيطرا عليه ، ويصير حرا من كل وجه ، والشيخ الأول الذي أخذ في طريق المحبين حر من رق النفس ؛ ولكن ربما كان باقيا في رق القلب ؛ وهذا الشيخ في طريق المحبوبين حر من رق القلب كما هو حر من رق النفس ، وذلك أن النفس حجاب ظلماتي أرضي أعتق منه الأول ، والقلب حجاب نوراني سماوي أعتق منه الآخر ، فصار له بالقلبه ، ولموته لالو قته ، فعبدا لله حقا وآمن به صدقا ، ويسجد لله سواده وخياله ، ويؤمن به فؤاده ، ويقر به لسانه ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض سجوده ، ولا يتخلف عن العبودية منه شعرة ، وتصير عبادته مشاكلة لعبادة الملائكة (والله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال) .

فالقوالب هي الظلال الساجدة ، ظلال الأرواح المقربة في عالم الشهادة : الأصل كثيف والظل لطيف ، وفي عالم الغيب : الأصل لطيف والظل كثيف ، فيسجد لطيف العبد وكثيفه ، وليس هذا لمن أخذ في طريق المحبين لأنه يستبجع صور الأعمال ويمتلئ بما أنيل من وجدان الحال ، وذلك قصور في العلم وقلة في الحظ ، ولو كثرت العلم رأى ارتباط الأعمال بالأحوال كارتباط الروح بالجسد ، ورأى أن لا غنى عن الأعمال كما لا غنى في عالم الشهادة عن القوالب ، فسادت القوالب باقية فالعمل باق ، ومن صح في المقام الذي وصفناه هو الشيخ المطلق والمعارف المحقق والمحجوب المعتق ؛ فظروا دواء وكلامه شفاء ، بالله ينطق وبالله يسكت ، كما ورد : ولا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحبته كت له سمعا وبصرا ويدا ومؤيدا ، في ينطق وبى يبصر ، الحديث ؛ فالشيخ يعطى بالله ويمنع بالله ، فلا رغبة له في عطاء ومنع لعينه ، بل هو مع مراد الحق والحق يعرفه مراده ؛ فيكون في الأشياء بمراد الله تعالى لا بمراد نفسه ، فإن علم أن الله تعالى يريد منه الدخول في صورة محمودة دخل فيها لمراد الله تعالى لا لكون الصورة محمودة ، بخلاف الخادم القائم بواجب خدمة عباد الله تعالى .

الباب الحادى عشر : في شرح حال الخادم ومن يتشبه به

أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام وقال : يا داود إذا رأيت لى طالبا فكن له خادما ، الخادم يدخل في الخدمة راغبا في الثواب وفيما أعد الله تعالى للعباد ، ويتصدى لإيصال الراحة ويفرغ خاطر المقبلين على الله تعالى عن مهام معاشهم ويفعل ما يفعله الله تعالى بنية صالحة ، فالشيخ واقف مع مراد الله تعالى ، والخادم واقف مع نيته ، فالخادم يفعل الشيء لله تعالى ، والشيخ يفعل الشيء لله فالشيخ في مقام المقرين ، والخادم في مقام الأبرار ، فيختار الخادم البذل والإيثار والارتفاق من الأغيار للأغيار ، وبوظيفة وقته تصديه لخدمة عباد الله ، وفيه يعرف الفضل ويرجحه على نوافله وأعماله ، وقد يقيم من لا يعرف الخادم من الشيخ الخادم مقام الشيخ ، وربما جهل الخادم أيضا حال نفسه فيحسب نفسه شيخا لقلة العلم واندراس علوم القوم في هذا الزمان ، وقاعة كثير من الفقراء من المشايخ بالقمة دون العلم والحال ، فكل من كان أكثر إطعاما هو عندهم أحق بالشيخية ولا يعلمون أنه خادم وليس بشيخ ، والخادم في مقام حسن وحظ صالح من الله تعالى . وقد ورد ما يدل على فضل الخادم فيما أخبرنا الشيخ أبو زرعة بن الحافظ أبي الفضل محمد بن طاهر المقدسى عن أبيه ، قال أخبرنا أبو الفضل محمد بن عبد الله المقرئ ، قال حدثنا أبو الحسن محمد بن الحسين بن داود العلوى ، قال حدثنا أبو حامد الحافظ ، قال حدثنا العباس بن محمد الدوري وأبو الأزهري ، قال حدثنا أبو داود ، قال حدثنا سفيان عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بطعام وهو بمظهران فقال لاني بكر وعمر . كلا ، فقالا : إنا صائمان ، فقال : ارحلاصا حييكا ارحلاصا حييكا

اذنوا فكلّا يعني أنكم ضعفتما بالصوم عن الخدمة فاحتجتما إلى من يخدمكما فكلّوا خدما أنفسكما ، فالخادم يحرم من على حيازة الفضل ، فيتوصل بالكسب تارة ، وبالاسترقاق والدرورة تارة أخرى ، وباستجلاب الوقف إلى نفسه تارة ، لعلمه أنه قيم بذلك ، صالح لإيصاله إلى الموقوف عليهم ، ولا يبالي أن يدخل في كل مدخل لا يذمه الشرع لحيازة الفضل بالخدمة ، ويرى الشيخ بنفوذ البصيرة وقوة العلم أن الإنفاق يحتاج إلى علم تام ومعاينة تخليص النية عن شوائب النفس والشهوة الخفية ؛ ولو خلصت عليه نيته ما رغّب في ذلك ، لوجود مراده فيه ، وحاله ترك المراد وإقامة مراد الحق .

أخبرنا أبو زرعة إجازة ، قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف إجازة ، قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي قال سمعت محمد بن الحسين بن الحشاش يقول : سمعت محمد بن جعفر يقول : سمعت الجنيد يقول : سمعت السري يقول : أعرف طريقا مختصرا قصد إلى الجنة ؛ فقلت له : ماهو ؛ قال : لا تسأل من أحد شيئا ولا تأخذ من أحد شيئا ولا يكن معك شيء تعطى منه أحد شيئا . والخادم يرى أن من طريق الجنة الخدمة والبذل والإيثار فيقدم الخدمة على التوافل ويرى فضلها ، وللخدمة فضل على النافلة التي يأتي بها العبد طالبا بها الثواب ، غير النافلة التي يتوخى بها صحة حاله مع الله تعالى لوجود فقد قبل وعد .

ومما يدل على فضل الخدمة على النافلة ما أخبرنا أبو زرعة قال أخبرني والدي الحافظ المقدسي ، قال أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد السمسار بأصفهان ، قال أخبرنا إبراهيم بن عبد الله بن خرشيد ، قال حدثنا الحسين بن إسماعيل الحمامل قال حدثنا أبو السائب ، قال حدثنا أبو معاوية ، قال حدثنا عاصم عن مروق عن أنس قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنا الصائم ومنا المفطر ، فنزلنا منزلا في يوم حار شديد الحر ؛ فإنا من يتقى الشمس بيده ، وأكثرنا ظلّا صاحب الكساء يستظل به ، فإنا الصائمون ، وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذهب المفطرون اليوم بالأجر . وهذا حديث يدل على فضل الخدمة على النافلة ، والخادم له مقام عزيز يرغب فيه ؛ فأما من لم يعرف تخليص النية من شوائب النفس ويتشبه بالخادم ويتصدى لخدمة الفقراء ويدخل في مداخل الخدام بحسن الإرادة بطلب التأمي بالخدام ، فتكون خدمته مشوبة ، منها ما يصيب فيها لموضع إيمانه وحسن إرادته في خدمة القوم ، ومنها ما لا يصيب فيها لما فيه من مزج الهوى فيضع الشيء في غير موضعه ، وقد يخدم بهواه في بعض تصاريفه ، ويخدم من لا يستحق الخدمة في بعض أوقاته ، ويحب المحمدة والثناء من الخلق مع ما يحب من الثواب ورضا الله تعالى ، وربما خدم للتناء ، وربما امتنع من الخدمة لوجود هوى يخارمه في حق من يلقاه بمكره ، ولا يراعى واجب الخدمة في طرفي الرضا والغضب لانحراف مزاج قلبه بوجود الهوى ، والخادم لا يتبع الهوى في الخدمة وفي الرضا والغضب ، ولا يأخذه في الله لومة لائم ويضع الشيء موضعه ؛ فإذا الشخص الذي وصفناه آنفا متخادم وليس بخادم ؛ ولا يميز بين الخادم والمتخادم إلا من له علم بصحة النيات وتخليصها من شرائب الهوى ، والمتخادم النجيب يبلغ ثواب الخادم في كثير من تصاريفه ولا يبلغ من رتبته لتخلفه عن حاله بوجد مزج هواه ؛ وأما من أقام لخدمة الفقراء بتسليم رقبته إليه أو توفير رفق عليه وهو يخدم لمنال يصيبه أو حظ عاجل يدركه ، فهو في الخدمة لنفسه لا لغيره ؛ فلو انقطع رفق ما خدم ، وربما استخدم من يخدم ؛ فهو مع حظ نفسه يخدم من يخدمه ، ويحتاج إليه في المحافل يتكثر به ويقيم به جاه نفسه بكثرة الاتباع والاشباع ، فهو خادم هواه وطالب دنياه ، يحرم نهاره وليله في تحصيل ما يقيم به جاهه ويرضى نفسه وأهله وولده ، فيتسع في الدنيا ويتزيا بغير زى الخدام والفقراء وتنتشر نفسه بطلب الحظوظ ، ويستولى عليه حب الرئاسة ، وكلما كثر رفقته كثرت مراده هواه واستطال على الفقراء ، ويحوج الفقراء إلى التلقا المفرط له لطلب الرضا وتوقيا لضيئه وميله عليهم بقطع ما ينوبهم من الوقف ؛ فهذا أحسن حاله أن يسمى مستخدما ، فليس بخادم ولا متخادم ، ومع ذلك كله ربما نال بركتهم باختياره خدمتهم على خدمة غيرهم وبإتائهم وإليهم وقد أوردنا الخبر المسند الذي في سياقه : هم القوم لا يثق بهم جليسهم ، واثقه الموفق والمعين .

الباب الثاني عشر : في شرح خدمة المشايخ الصوفية

لبس الخرقة ارتباط بين الشيخ وبين التلميذ ، وتحكيم من المرید للشيخ في نفسه ، والتحكيم سائق في الشرع لمصالح دينوية فإذا ينكر المنكر للباس الخرقة على طالب صادق في طلبه يتقصد شيخاً بحسن ظن وعقيدة يحكمه في نفسه لمصالح دينية يرشده ويهديه ويعرفه طريق المواجيد ويصهره بأفان النفوس وفساد الأعمال ومداخل العدو ، فيسلم نفسه إليه ويستسلم لأمره واستصوابه في جميع تصاريفه ، فيلبسه الخرقة إظهاراً للتصرف فيه ؛ فيكون لبس الخرقة علامة التفويض والتسليم ودخوله في حكم الشيخ دخوله في حكم الله وحكم رسوله وإحياء سنة المباشرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أخبرنا أبو زرعة قال أخبرني والدي الحافظ المقدسي قال أخبرنا أبو الحسين أحمد بن محمد البزار ، قال أخبرنا أحمد بن محمد أخى ميمى ، قال حدثنا يحيى بن محمد بن صاعد قال حدثنا عمرو بن علي بن حفظة ، قال سمعت عبد الوهاب الثقفي يقول : سمعت يحيى بن سعيد يقول : حدثني عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت ، قال أخبرني أبي عن أبيه قال : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في السر واليسر والمنشط والمكره ، وأن لا تنازع الأمر أهله ، وأن نقول بالحق . حيث كنا ولا نخاف في الله لومة لائم . ففي الخرقة معنى المباشرة ، والخرقة عتبة الدخول في الصلوة ، والمقصود السكينة والصحة ؛ وبالصحة يرجى للتلميذ كل خير .

وروى عن أبي يزيد أنه قال : من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان .

وحكى الأستاذ أبو القاسم القشيري عن شيخه أبي علي الدقاق أنه قال : الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق ولا تثمر ، وهو كالأستاذ : ويجوز أنها تثمر كالأشجار التي في الأودية والجبال ، ولكن لا يكون لفاكهتها طعم فاكهة البساتين . والغرس إذا نقل من موضع إلى موضع آخر يكون أحسن حالاً وأكثر ثمرة لدخول التصرف فيه ؛ وقد اعتبر الشرع وجود التعليم في الكلب المعلم ، وأكل ما يقتله بخلاف غير المعلم .

وسمعت كثيراً من المشايخ يقولون : من لم يرفلح لا يفلح ، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تلقوا العلوم والآداب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما روى عن بعض الصحابة : علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شيء حتى الحراة ، فالمرید الصادق إذا دخل تحت حكم الشيخ وصحبه وتأدب بآدابه ، يسرى من باطن الشيخ حال إلى باطن المرید كسراج يقتبس من سراج ، وكلام الشيخ يلقن باطن المرید ويكون مقال الشيخ مستودع نفائس الحال ، وينتقل الحال من الشيخ إلى المرید بواسطة الصحة وسماع المقال ، ولا يكون هذا إلا لمرید حصر نفسه مع الشيخ والنسلك من إرادة نفسه وفي في الشيخ بترك اختيار نفسه ، فبالآلة الإلهية يصير بين الصاحب والمصحب امتزاج وارتباط بالنسبة الروحية والطهارة القلبية ، ثم لا يزال المرید مع الشيخ كذلك متأديباً بترك الاختيار ، حتى يرتقى من ترك الاختيار مع الشيخ إلى ترك الاختيار مع الله تعالى ، ويفهم من الله كما كان يفهم من الشيخ ، ومبدأ هذا الخير كله الصحة والملازمة للشيخ ، والخرقة مقدمة ذلك ، ووجه لبس الخرقة من السنة ما أخبرنا الشيخ أبو زرعة عن أبيه الحافظ أبي الفضل المقدسي ، قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف الأديب النيسابوري ، قال أخبرنا الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ ، قال أخبرنا محمد بن إسحق ، قال أخبرنا أبو مسلم إبراهيم بن عبد الله المصري ، قال حدثنا أبو الوليد ، قال حدثنا إسحق بن سعيد ، قال حدثنا أبي ، قال حدثني أم خالد بنت خالد قالت : أتى النبي عليه السلام بثياب فيها خيصة سوداء صغيرة ، فقال : من ترون أكنسوه هذه ؟ فسكت القوم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتنوني بأمر خالد ، قالت : فأتيتني فألبسنيها بيده فقال : أيل وأخلق ، يقولان : لا ، وجعل ينظر إلى علم في الخيصة أصفر وأحمر ويقول : يا أم خالد هذا سناء - والسناء هو الحسن بلسان الحبشة - ولا خفاء أن لبس الخرقة على الهيئة التي تعتمد عليها الشيوخ في هذا الزمان لم يكن في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذه الهيئة

والاجتماع لها والاعتداد بها من استحسان الشيوخ ، وأصله من الحديث مارويناه ، والشاهد لذلك أيضا التحكيم الذي ذكرناه ، وأى اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم أتم وأكد من الاقتداء به في دعاء الخلق إلى الحق . وقد ذكر الله تعالى في كلامه القديم تحكيم الأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحكيم المريد شيخه إحياء سنة ذلك التحكيم . قال الله تعالى ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلبوا تسليما ﴾ وسبب نزول هذه الآية : أن الزبير بن العوام رضى الله عنه اختصم هو وآخر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في شراج من الخرة - والشراج مسيل الماء - كانا يسقيان به النخل ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام للزبير : اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك ، فغضب الرجل وقال : قضى رسول الله لا نعمة . فأنزل الله تعالى هذه الآية يعلم فيها الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشرط عليهم في الآية التسليم وهو الانقياد ظاهراً ونفى الحرج وهو الانقياد باطناً ، وهذا شرط المريد مع الشيخ بعد التحكيم ، فلبس الخرقه يزيل اتهام الشيخ عن باطنه في جميع تصاريفه ويحذر الاعتراض على الشيوخ فإنه السم القاتل للمريدين ، وقل أن يكون المريد يعترض على الشيخ بباطنه فيفعلح ، ويذكر المريد في كل ما أشكل عليه من تصاريف الشيخ قصة موسى مع الخضر عليه السلام كيف كان يصدر من الخضر تصاريف يشكرها موسى ، ثم لما كشف له عن معناها بأن لموسى وجه الصواب في ذلك ، فهكذا ينبغي للمريد أن يعلم أن كل تصرف أشكل عليه صحته من الشيخ عند الشيخ فيه بيان وبرهان للصحة ، ويد الشيخ في لبس الخرقه تنوب عن يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتسليم المريد له تسليم لله ورسوله . قال الله تعالى ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ولله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ ويأخذ الشيخ على المريد عهد الوفاء بشرائط الخرقه ويعرفه حقوق الخرقه ، فالشيخ للمريد صورة يستشف المريد من وراء هذه الصورة المطالبات الإلهية والمراضى النبوية ، ويعتد المريد أن الشيخ باب فتحه الله تعالى إلى جناب كرمه ، منه يدخل ، وإليه يرجع ، وينزل بالشيخ سوانحه ومهامه الدينية والدنيوية ويعتقد أن الشيخ ينزل بالله الكريم ما ينزل المريد به ، ويرجع في ذلك إلى الله المريد كما يرجع المريد إليه ، وللشيخ باب مفتوح من المسكنة والمحاذة في النوم واليقظة فلا يتصرف الشيخ في المريد بهواه فهو أمانة الله عنده ، ويستغيث إلى الله بجوانح المريد كما يستغيث بجوانح نفسه ومهام دينه ودنياه . قال الله تعالى ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا ﴾ فأرسل الرسول يختص بالأنبياء والوحي كذلك ، والكلام من وراء حجاب بالإلهام والهواتف والمنام وغير ذلك للشيوخ والراغبين في العلم .

واعلم أن المريدين مع الشيوخ أوان ارتضاع وأوان فطام ، وقد سبق شرح الولادة المعنوية ، فأوان الارتضاع أوان لزوم الصحبة والشيخ يعلم وقت ذلك ، فلا ينبغي للمريد أن يفارق الشيخ إلا بإذنه . قال الله تعالى تأديبا للأمة ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنه ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ﴾ وأى أمر جامع أعظم من أمر الدين ، فلا يأذن الشيخ للمريد في المفارقة إلا بعد علمه بأن له أوان الفطام ، وأنه يقدر أن يستقل بنفسه ، واستقلاله بنفسه أن يفتح له باب الفهم من الله تعالى ، فإذا بلغ المريد رتبة إنزال الحوائج والمهام بالله والفهم من الله تعالى بتعريفاته وتبليغاته سبحانه وتعالى لعبده السائل المحتاج فقد بلغ أوان فطامه ، ومتى فارق قبل أوان الفطام يناله من الأللال في الطريق بالجوع إلى الدنيا ومتابعة الهوى ما ينال المفلطوم لغير أوانه في الولادة الطبيعية ، وهذا التلازم بصحبة المشايخ للمريد الحقيقي ، والمريد الحقيقي يلبس خرقه الإرادة .

واعلم أن الخرقه خرقتان : خرقه الإرادة ، وخرقة التبرك : والأصل الذي قصده المشايخ للمريدين خرقه الإرادة وخرقة التبرك تشبه بخرقة الإرادة ، وخرقة الإرادة للمريدين الحقيقي ، وخرقة التبرك للتشبه ، ومن تشبه بقوم فهو منهم وسر الخرقه أن الطالب الصادق إذا دخل في صحبة الشيخ وسلم نفسه وصار كالولد الصغير مع الوالد بربيته الشيخ بعلمه المستمد من الله تعالى بصدق الاقتدار وحسن الاستقامة ، ويكون للشيخ نفوذ بصيرته الإشراف على البواطن ، فقد

يكون المريد يلبس الخشن كثياب المتقشفين المتزهدين وله في تلك الهيئة من الملبوس هوى كامن في نفسه ليرى بعين الزهادة ، فأشد ما عليه لبس الناعم ولانفس هوى واختيار في هيئة مخصوصة من الملبوس في قصر السك والذيل وطوله وخشونته ونعومته على قدر حساباتها وهواها ، فيلبس الشيخ مثل هذا الراكن لتلك الهيئة ثوبا يكسر بذلك على نفسه هواها وغرضها ، وقد يكون على المريد ملبوس ناعم أو هيئة في الملبوس تشرىب النفس إلى تلك الهيئة بالعادة ، فيلبسه الشيخ ما يخرج النفس من عاداتها وهواها ، فتصرف الشيخ في الملبوس كتصرفه في المطعوم ، وكتصرفه في صوم المريد وإفطاره ، وكتصرفه في أمر دينه ، إلى ما يرى له من المصلحة من دوام الذكر ودوام التنفل في الصلاة ودوام التلاوة ودوام الخدمة ، وكتصرفه فيه برده إلى الكسب أو الفتح أو غير ذلك ، فللشيخ إشراف على البواطن وتنوع الاستعدادات ، فيأمر كل مريد من أمر معاشه ومواده بما يصلح له ، ولتنوع الاستعدادات تنوع مراتب الدعوة . قال الله تعالى ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ فالحكمة رتبة في الدعوة ، والموعظة كذلك ، والمجادلة كذلك ، فمن يدعى بالحكمة لا يدعى بالموعظة ولا تصلح دعوته إلا بالحكمة ، فهكذا الشيخ يعلم من هو على وضع الأبرار ، ومن هو على وضع المقربين ، ومن يصلح لدوام الذكر ومن يصلح لدوام الصلاة ، ومن له هوى في التخشن أو في التنعيم ، فيخلع المريد من عادته ويخرجه من مضيق هوى نفسه ، ويطعمه باختياره ، ويلبسه باختياره ثوبا يصلح له وهيئة تصلح له ، ويداوى بالخرقة المخصوصة والهيئة المخصوصة داء هواه ، ويتوخى بذلك تقريبه إلى رضا مولاه ، فالمريد الصادق الملتبب بباطنه بنار الإرادة في بدء أمره وحدة إرادته ، كالملسوع الحريص على من يرقيه ويداويه ، فإذا صادف شيئا أنبعث من باطن الشيخ صدق العناية به لاطلاعه عليه وينبعث من باطن المريد صدق المحبة بتألف القلوب وتشام الأرواح وظهور سر السابقة فيهما باجتماعهما لله وفي الله وبالله ، فيكون التقيص الذي يلبس المريد خرقة تبشر المريد بحسن عناية الشيخ به فيعمل عند المريد عمل قبيص يوسف عند يعقوب عليهما السلام .

وقد نقل أن إبراهيم الخليل عليه السلام حين ألقى في النار جرد من ثيابه وقذف في النار عريانا ، فأناه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة وألبسه إياه ، وكان ذلك عند إبراهيم عليه السلام فلما مات ورثه إسحق ، فلما مات ورثه يعقوب ، فجعل يعقوب عليه السلام ذلك القميص في تعويذ ، وجعله في عنق يوسف فكان لا يفارقه ، ولما ألقى في البئر عريانا جاءه جبريل وكان عليه التعويذ فأخرج القميص منه وألبسه إياه .

أخبرنا الشيخ العالم رضي الدين أحمد بن إسماعيل القزويني إجازة ، قال أخبرنا أبو سعد محمد بن أبي العباس ، قال أخبرنا القاضي محمد بن سعيد ، قال أخبرنا أبو إسحق أحمد بن محمد ، قال أخبرني ابن فنجويه الحسين بن محمد ، قال حدثنا محمد بن جعفر قال حدثنا الحسن بن علويه ، قال حدثنا إسماعيل بن عيسى ، قال حدثنا إسحق بن بشر عن ابن السدي عن أبيه عن مجاهد قال : كان يوسف عليه السلام أعلم بالله تعالى من أن لا يعلم أن قميصه لا يرد على يعقوب بصره ، ولكن ذاك كان قميص إبراهيم ، وذكر ما ذكرناه ، قال : فأمره جبرائيل أن أرسل بقميصك فإن فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلى أو سقيم إلا صح وعوفي ، فتكون الخرقة عند المريد الصادق متحملة إليه عرف الجنة ، لما عنده من الاعتداد بالصحة لله ، ويرى لبس الخرقة من عناية الله به وفضل من الله ، فأما خرقة التبرك فيطلبها من مقصوده التبرك بزي القوم ومثل هذا لا يطالب بشرائط الصحة بل يوصى بلزوم حدود الشرع ومخالطة هذه الطائفة لتعود عليه بركنهم ويتأدب بأدابهم ، فسوف يرقيه ذلك إلى الاهلية لخرقة الإرادة فعلى هذا خرقة التبرك مبدولة لسكل طالب وخرقة الإرادة متنوعة إلا من الصادق الراغب ، ولبس الأزرق من استحسان الشيوخ في الخرقة فإن رأى شيخ أن يلبس مريدا غير الأزرق فليس لاحد أن يعترض عليه لأن المشايخ آراؤهم فيما يفعلون بحكم الوقت وكان شيخنا يقول : كان الفقير يلبس قصيرا الأكام ليسكون أعون على الخدمة . ويجوز للشيخ أن يلبس المريد خرقا في دفعات على قدر ما يتلح من المصلحة للمريد في ذلك على ما أسلفناه من تداوى هواه في الملبوس والملون فيختار الأزرق

لأنه أرفق للفقير لكونه يحمل الوسخ ولا يحوج إلى زيادة الغسل لهذا المعنى لحسب ، وما عدا هذا من الوجوه التي يذكرها بعض المتصوفة في ذلك كلام إقناعي من كلام المتصنعين ليس من الدين والحقيقة بشيء .

سمعت الشيخ سديد الدين أبا الفخر الحمداني رحمه الله قال : كنت ببغداد عند أبي بكر الشروطي ، فخرج إلينا فقير من زاويته عليه ثوب وسخ ، فقال له بعض الفقراء : لم لا تغسل ثوبك ؟ فقال : يا أخى ما أنفرغ . فقال الشيخ أبو الفخر : لا أزال أتذكر حلاوه قول الفقير : ما أنفرغ ؛ لأنه كان صادقاً ذلك ، فأجلدته لقوله وبركة بتذكاري ذلك ؛ فاختاروا الملون لهذا المعنى ؛ لأنهم من رعاية وقتهم في شغل شاغل . وإلا فأى ثوب ألبس الشيخ المريد من أبيض وغير ذلك فللشيخ ولاية ذلك بحسن مقصده ووفور عليه . وقد رأينا من المشايخ من لا يلبس الخرقة ، ويسلك باقوام من غير لبس الخرقة ، ويؤخذ منه العلوم والآداب ، وقد كان طبقة من السلف الصالحين لا يعرفون الخرقة ولا يلبسونها المريدون ، فن يلبسها فله مقصد صحيح وأصل من السنة وشاهد من الشرع ، ومن لا يلبسها فله رأي به وله في ذلك مقصد صحيح ، وكل تصارييف المشايخ محمولة على السداد والصواب ولا تخلو عن نية صالحة فيه ، والله تعالى ينفع بهم وبآثارهم إن شاء الله تعالى .

الباب الثالث عشر : في فضيلة سكان الرباط

قال الله تعالى ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ قيل : إن هذه البيوت هي المساجد ، وقيل : بيوت المدينة . وقيل : بيوت النبي عليه الصلاة والسلام . وقيل لما نزلت هذه الآية قام أبو بكر رضي الله عنه وقال : يا رسول الله ، هذه البيوت منها بيت علي وفاطمة ؟ قال : نعم أفضلها .

وقال الحسن : بقاع الأرض كلها جعلت مسجداً لرسول الله عليه الصلاة والسلام ، فعلى هذا الاعتبار بالرجال المذكورين لا بصور البقاع ، وأى بقعة حوت رجالاً بهذا الوصف هي البيوت التي أذن الله أن ترفع .

روى النس بن مالك رضي الله عنه قال « ما من صباح ولا رواح إلا وبقاع الأرض ينادى بعضها بعضاً ، هل مر بك اليوم أحد صلى عليك أو ذكر الله عليك ؟ فن قائلة نعم ، ومن قائلة لا ، فإذا قالت نعم علمت أن لها عليها بذلك فضلاً ، وما من عبد ذكر الله تعالى على بقعة من الأرض أو صلى الله عليها إلا شهدت له بذلك عند ربه وبكت عليه يوم يموت ، وقيل في قوله تعالى ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ تنبيه على فضيلة أهل الله تعالى من أهل طاعته : لأن الأرض تبكي عليهم ولا تبكي على من ركن إلى الدنيا واتبع الهوى ، فسكان الرباط هم الرجال ، لأنهم ربطوا نفوسهم على طاعة الله تعالى وانقطعوا إلى الله ، فأقام الله لهم الدنيا خادمة .

وروى عمران بن الحصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من انقطع إلى الله كفاه مؤنته ورزقه من حيث لا يحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها ، وأصل الرباط : ما يربط فيه الخيول ، ثم قيل لكل ثمريدفع أهله عن وراهم : رباط ؟ فالجهد المرابط يدفع عن وراه ، والمقيم في الرباط على طاعة الله يدفع به وبدعائه البلاء عن العباد والبلاء ، أخبرنا الشيخ العالم رضي الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل القزويني إجازة قال : أخبرنا أبو سعيد محمد ابن أبي العباس الخليلي قال : أخبرنا القاضي محمد بن سعيد الفرخاذي قال : أخبرنا أبو إسحق أحمد بن محمد قال : أخبرنا الحسين بن محمد قال : حدثنا أبو بكر بن خزيمة قال : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال حدثني أبو حميد الحمصي قال : حدثنا يحيى بن سعيد القطار ^(١) قال حدثنا حفص بن سليمان عن محمد بن سوقة عن وبرة بن عبد الرحمن عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة من أهل بيته ومن جيرانه البلاء » .

(١) قوله « القطار » هكذا بنسخة ؛ وفي أخرى « السمار » ولله « القطان » بالنون ، وليحذر .

وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : لولا عباد الله ركع وصية رضع وبهائم رقع لصب عليكم العذاب صبا ثم يرض رضا .

وروى جابر بن عبد الله قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى ليصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله ، ولا يزالون في حفظ الله مادام فيهم .

وروى داود بن صالح قال : قال لي أبو سلمة بن عبد الرحمن : يا ابن أخي ، هل تدري في أي شيء نزلت هذه الآية ﴿ اصبروا وصابروا ورابطوا ﴾ ؟ قلت : لا ، قال : يا ابن أخي ، لم يكن في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزو يرتبط فيه الخيل ، ولكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة ، فالرابط للجهاد النفس والمقيم في الرابط مرابط مجاهد نفسه . قال الله تعالى ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾ قال عبد الله بن المبارك : هو مجاهدة النفس والهوى وذلك حق الجهاد ، وهو الجهاد الأكبر ، على ما روى في الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين رجع من بعض غزواته : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . . وقيل : إن بعض الصالحين كتب إلى أخ له يستدعيه إلى الغزو فكتب إليه : يا أخي كل الثغور يجتمع لى في بيت واحد والباب على مردود ، فكتب إليه أخوه : لو كان الناس كلهم لزموا منزلة اختلت أمور المسلمين وغلب الكفار ، فلا بد من الغزو والجهاد ، فكتب إليه : يا أخي ، لزوم الناس ما أنا عليه وقالوا في زواياهم على سجداتهم : الله أكبر ، انهدم سور قسطنطينية . وقال بعض الحكماء : ارتفاع الأصوات في بيوت العبادات بحسن النيات وصفاء الطويات يحل ما عقدته الأفلاك الدائرات ؛ فاجتماع أهل الروابط أصبح على الوجه الموضوع له الربط ، ولو تحقق أهل الربط بحسن المعاملة ورعاية الأوقات وتوقي ما يفسد الأعمال واعتناء ما يصحح الأحوال عادت البركة على البلاد والعباد .

وقال سري السقطي في قوله تعالى ﴿ اصبروا وصابروا ورابطوا ﴾ اصبروا عن الدنيا رجاء السلامة ، وصابروا عند القتال بالثبات والاستقامة ، رابطوا أهواء النفس اللوامة ، واتقوا ما يعقبكم الندامة . لعلمكم تفلحون غدا على بساط الكرامة . وقيل : اصبروا على بلائى ، وصابروا على نعمائى ، ورابطوا في دار أعدائى واتقوا محبة من سوائى ، لعلمكم تفلحون غداً بقلائى . وهذه شرائط ساكن الرباط قطع المعاملة مع الخلق ، وفتح المعاملة مع الحق ، وترك الاكتساب اكتفاء بكفالة مسبب الأسباب ، وحبس النفس عن المخالطات واجتناب التبعات ، وعائق ليله ونهاره العبادة متعوضاً بها عن كل عادة ، شغله حفظ الأوقات وملازمة الأوراد وانتظار الصلوات واجتناب الغفلات ، ليكون بذلك مرابطاً مجاهداً . حدثنا شيخنا أبو التجيب السهروردي ، قال أخبرنا ابن نهان محمد الكاتب ، قال أخبرنا الحسن بن شاذان ، قال أخبرنا دعلج ، قال أخبرنا البغوي عن أبي عبيد القاسم بن سلام ، قال حدثنا صفوان عن الحارث عن سعيد بن المسيب عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إسباغ الوضوء في المسكاره ، وإعمال الأقدام إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة : يغسل الخطايا غسلاً » . وفي رواية : « ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ؛ قال : « إسباغ الوضوء في المسكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط فذلكم الرباط فذلكم الرباط » .

الباب الرابع عشر : في مشابهة أهل الرباط بأهل الصفة

قال الله تعالى ﴿ لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾ هذا وصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قيل لهم : ماذا كنتم تصنعون حتى أثنى الله عليكم بهذا الثناء ؟ قالوا كنا نتبع المأثم الحجير ، وهذا وأشباه هذا من الآداب وظيفه صوفية الربط بلازمونه ويتعاهدونه والرباط بينهم ومضربهم ، ولكل قوم دار والرباط دارهم . وقد شابهوا أهل الصفة في ذلك على ما أخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسي قال أخبرنا أحمد بن محمد البرزقي ، قال أخبرنا عيسى بن علي الوزير ، قال حدثنا عبد الله البغوي ،

قال حدثنا وهبان بن بنية ، قال حدثنا خالد بن عبد الله عن داود بن أبي هند عن أبي الحارث حرب بن أبي الأسود عن طلحة رضى الله عنه قال : كان الرجل إذا قدم المدينة ، وكان له بها عريف ينزل على عريفه ، فإن لم يكن له بها عريف نزل الصفة وكنت فيمن نزل الصفة ، فالقوم في الرباط مرابطون متفقون على قصد واحد وعزم واحد وأحوال متناسبة ، ووضع الربط لهذا المعنى أن يكون سكانها بوصف ما قال الله تعالى (وزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين) والمقابلة باستواء السر والعلانية . ومن أضر لأخيه غلا فليس بمقابل له وإن كان وجهه إليه ؛ فأهل الصفة هكذا كانوا ؛ لأن مثار الغل والحقد وجود الدنيا ، وحب الدنيا رأس كل خطيئة ، فأهل الصفة رفضوا الدنيا وكانوا لا يرجعون إلى زرع ولا إلى ضرع فزالت الأحقاد والغل عن بواطنهم ، وهكذا أهل الربط متقابلون بظواهرهم وبواطنهم ، مجتمعون على الألفة والمودة مجتمعون للكلام ويجمعون للطعام ويتعرفون بركة الاجتماع .

روى وحشى بن حرب عن أبيه عن جده أنهم قالوا : يا رسول الله إنا نأكل ولا نشبع ! قال : « لعلمكم تفرقون على طعامكم ، اجتمعوا واذكروا الله تعالى يبارك لكم فيه » ، وروى أنس بن مالك رضى الله عنه قال : ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان ولا في سكرجة ولا خبز له مرقق ، فقيل : فعلى أى شيء كانوا يأكلون ؟ قال : على السفر .

فالعباد والزهاد طلبوا الانفراد لدخول الآفات عليهم بالاجتماع ، وكون نفوسهم تشتاق للأهوية والخوض فيما لا يعنى فرأوا السلامة في الوحدة ، والصوفية لقوة عملهم وصحة حالهم نزع عنهم ذلك فرأوا الاجتماع في بيوت الجماعة على السجادة ، فسجادة كل واحد زاويته ، وهم كل واحد مهمه ، ولعل الواحد منهم لا يتخطى همه بسجادته ، ولهم في اتخاذ السجادة وجه من السنة : روى أبو سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة رضى الله عنها قالت : كنت أجعل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حصيرا من الليف يصلى عليه من الليل . وروت ميمونة زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تبسط له الخرة في المسجد حتى يصلى عليها . والرباط يحتوى على شبان وشيوخ وأصحاب خدمة وأرباب خلوة ، فالشايخ بالزوايا ألقى نظرا إلى ما تدعو إليه النفس من النوم والراحة والاستبداد بالحركات والسكنات ، فللنفس شوق إلى التفرد والاسترسال في وجوه الرفق والشباب يضيق عليه مجال النفس بالقيود في بيت الجماعة والانكشاف لنظر الأغيار لتكثر العيون عليه فيتقيد ويتأدب ، ولا يكون هذا إلا إذا كان جمع الرباط في بيت الجماعة مهتمين بحفظ الأوقات وضبط الأنفاس وحراسة الحواس كما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) كان عندهم من هم الآخرة ما يشغلهم عن اشتغال البعض ببعض . وهكذا يذنبى لأهل الصدق والصوفية أن يكون اجتماعهم غير مضربو قتهم ، فإذا تخلل أوقات الشبان اللغو والغلط فالأولى أن يلزم الشاب الطالب الوحدة والعزلة ويؤثر الشيخ الشاب بزوايته وموضع خلوته ليحبس الشاب نفسه عن دواعى الهوى والخوض فيما لا يعنى ، ويكون الشيخ في بيت الجماعة لقوة حاله وصبره على مداراة الناس وتخلصه من تبعات المخالطة وحضور وقاره بين الجمع فينضبط به الغير ولا يتكدر هو . وأما الخدمة فشأن من دخل الرباط مبتدئا ولم يذق طعم العلم ولم ينتبه لنفائس الأحوال : أن يؤمر بالخدمة لتكون عبادته خدمة ، ويجذب بحسن الخدمة قلوب أهل الله إليه فتشمله بركة ذلك ويعين الإخوان المشتغلين بالعبادة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المؤمنون إخوة يطلب بعضهم إلى بعض الخواص فيقضى بعضهم إلى بعض الخواص يقضى الله لهم حاجاتهم يوم القيامة ، فيحتفظ بالخدمة عن البطالة التي تميمت القلب ، والخدمة عند القوم من جملة العمل الصالح ، وهى طريق من طرق المواجيد تكسبهم الأوصاف الجميلة والأحوال الحسنة ، ولا يرون استخدام من ليس من جلسهم ولا متطلعا إلى الاهتداء بهديهم .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح قال أخبرنا أبو الفضل حميد بن أحمد ، قال أخبرنا الحافظ أبو نعيم ، قال حدثنا سليمان بن أحمد ، قال حدثنا علي بن عبد العزيز ، قال حدثنا أبو عبيد ، قال حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن شريك عن أبي هلال الطائي عن وثيق بن الرومى قال : كنت مملوكا لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فكان يقول لى : أسلم

فإنك إن أسلمت استعنت بك على أمانة المسلمين ، فإنه لا ينبغي أن أستعين على أمانتهم بمن ليس منهم ، قال فأبيت ، فقال عمر (لا إكراه في الدين) فلما حضرته الوفاة أعتقني فقال : اذهب حيث شئت . فالقوم يكرهون خدمة الاغيار ويأبون مخالطتهم أيضا ؛ فإن من لا يحب طريقهم ربما استضر بالنظر إليهم أكثر مما يقتضيه ، فإنهم بشر وتبدونهم أمور بمقتضى طبع البشر ، وينكرها الغير لقلة علمه بمقاصدهم ، فيكون إياهم موضع الشفقة على الخلق لامن طريق التميز والترف على أحد من المسلمين ، والشاب الطالب إذا خدم أهل الله المشغولين بطاعته يشاركهم في الثواب ، وحيث لم يؤهل لأحوالهم السنية يخدم من أهل لها ، تخدمته لأهل القرب علامة حب الله تعالى .

أخبرنا : الثقة أبو الفتح محمد بن سليمان ، قال أخبرنا أبو الفضل حميد بن أحمد ، قال أخبرنا الحافظ أبو نعيم ، قال حدثنا أبو بكر بن خلاد ، قال حدثنا الحارث بن أبي أسامة ، قال حدثنا معاوية بن عمرو ، قال حدثنا أبو إسحق عن حميد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك قال حين دننا من المدينة : إن بالمدينة أقواما ما سرتهم من مسير ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم ، قالوا : وهم في المدينة ؟ قال : نعم ، حبسهم العذر ، قالوا : فإنا نخدم القوم نعوق عن بلوغ درجاتهم بعذر القصور وعدم الأهلية ، لحام حول الحمى باذلا مجهوده في الخدمة يتعلل بالأثر حيث منع النظر ، فجاءه الله على ذلك أحسن الجزاء وأتاله من جزيل العطاء ، وهكذا كان أهل الصفة يتعاونون على البر والتقوى ويحتمعون على المصالح الدينية ومواساة الإخوان بالمسال والبدن .

الباب الخامس عشر : في خصائص أهل الربط والصوفية فيما يتعاهدونه ويختصون به

اعلم أن تأسيس هذه الربط من زينة هذه الملة الهادية المهديّة ، ولسكان الربط أحوال تميزوا بها عن غيرهم من الطوائف ، وهم على هدى من ربهم قال الله تعالى (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) وما يرى من التقصير في حق البعض من أهل زماننا والتخلف عن طريق سلفهم لا يقدح في أصل أمرهم وصحة طريقهم ، وهذا القدر الباقي من الأثر واجتماع المنتصوفة في الربط وماهيا الله تعالى لهم من الرفق : بركة جمعية بواطن المشايخ الماضين ، وأثر من آثار منح الحق في حقهم ، وصورة الاجتماع في الربط الآن على طاعة الله والتمسك بظاهر الآداب : عكس نور الجمعية من بواطن الماضين وسلوك الخلف في مناهج السلف ، فهم في الربط بكسب واحد بقلوب متفقة وعزائم متحدة ، ولا يوجد هذا في غيرهم من الطوائف . قال الله تعالى في وصف المؤمنين (كأنهم بنيان مرصوص) وبالعكس ذلك وصف الأعداء فقال . (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) وروى النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنما المؤمنون بكسب رجل واحد إذا اشتكى عضون من أعضائه اشتكى جسده أجمع ، وإذا اشتكى مؤمن من المؤمنين ،

فالصوفية وظيفتهم اللازمة من حفظ اجتماع البواطن ، وإزالة التفرقة بإزالة شعث البواطن ، لأنهم بنسبة الأرواح اجتمعوا ، وبرابطة التأليف الإلهي اتفقوا ، وبمشاهدة القلوب تواطوا ، ولهذيب النفوس وتصفية القلوب في الرباط رابطوا ، فلا بد لهم من التألف والتودد والنصح : روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : المؤمن يألف ويؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف .

وأخبرنا أبو زرعة طاهر بن الحافظ أبي الفضل المقدسي عن أبيه ، قال حدثنا أبو القاسم الفضل بن أبي حرب ، قال أخبرنا أحمد بن الحسين الحيري ، قال أخبرنا أبو سهل بن زياد القطان ، قال حدثنا الحسين بن مكرم ، قال حدثنا يزيد ابن هرون الواسطي ، قال حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ، فهم باجتماعهم يجتمع بواطنهم وتتقيد نفوسهم ، لأن بعضهم عين على البعض ، على ما ورد : المؤمن مرآة المؤمن ، فأى وقت ظهر من أحدهم أثر التفرقة نأفوه ؛ لأن التفرقة تظهر بظهور النفس ، وظهور النفس من تضيق حق الوقت ، فأى وقت ظهرت نفس الفقير علم امرته خروجه عن دائرة الجمعية وحكوا عليه بتضييع حكم الوقت وإهمال السياسة وحسن الرعاية ، فيقاد بالمنافرة إلى دائرة الجمعية

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النحيب عبد القاهر السهروردي إجازة ، قال أخبرنا الشيخ العالم عصام الدين أبو حفص عمر بن أحمد بن منصور الصفار ، قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازي ، قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي ، قال : سمعت محمد بن عبد الله يقول . سمعت رويما يقول : لا يزال الصوفية بخير ما تنافروا ، فإذا اصطالحوا هلكوا ، وهذه إشارة من رويم إلى حسن تفقد بعضهم أحوال بعض لإشفاقا من ظهور النفوس ، يقول : إذا اصطالحوا ورفعوا المنافرة من بينهم يخاف أن تخامر البواطن المساهلة والمراعاة ومساعدة البعض البعض في إهمال دقيق آدابهم ، وبذلك تظهر النفوس وتستولي ،

وكان كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : رحم الله امرأ أهدي إلى عيوني . وأخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسي قال أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز الهروي ، قال أخبرنا عبد الرحمن بن أبي شريح قال أخبرنا أبو القاسم البغوي ، قال حدثنا مصعب بن عبد الله الزبيري ، قال حدثني إبراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب : أن محمد ثمان أخبر بأن عمر قال في مجلس فيه المهاجرون والأنصار : رأيتم لو ترخصت في بعض الأمور ماذا كنتم فاعلين قال : فسكتنا . قال : فقال ذلك مرتين أو ثلاثا : رأيتم لو ترخصت في بعض الأمور ماذا كنتم فاعلين ؟ قال بشر بن سعد : لو فعلت ذلك قوه ناك تقويم القدرح ؛ فقال عمر : أنتم إذن أنتم .

وإذا ظهرت نفس الصوفي بغضب وخصومة مع بعض الإخوان فشرط أخيه أن يقابل نفسه بالقلب ؛ فإن النفس إذا قوبلت بالقلب انحسرت مادة الشر ، وإذا قوبلت النفس بالنفس ثارت الفتنة وذهبت العصمة . قال الله تعالى (ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . وما يلحقها إلا الذين صبروا) .

ثم الشيخ أو الخادم إذا شكك إليه فقير من أخيه فله أن يعاتب أيهما شاء ، فيقول للمعتدى : لم تعديت ؟ وللمعتدى عليه : مالذي أذنبت حتى تعدى عليك وسلط عليك ؟ وهلا قابلت نفسك بالقلب رفقا بأخيك ، وإعطاء للفتوة والصحة حقها فكل منها جان وخارج عن دائرة الجمعية فيرد إلى الدائرة بالنقد ، فيعود إلى الاستغفار ولا يسلك طريق الاصرار .

روت عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أساءوا استغفروا ، فيكون الاستغفار ظاهرا مع الإخوان ، وباطنا مع الله تعالى ، ويرون الله في استغفارهم ؛ فلهذا المعنى يقفون في صف النعال على أقدامهم تواضعا وانكسارا .

وسمعت شيخنا يقول للفقير إذا جرى بينه وبين بعض إخوانه وحشة : قم واستغفر ؛ فيقول الفقير : ما أرى باطنيا صافيا ، ولا أوثر القيام للاستغفار ظاهرا من غير صفاء الباطن ؛ فيقول : أنت قم فبركك سميك وقيامك رزق الصفاء ، فكان يجد ذلك ويرى أثره عند الفقير وتروق القلوب وترتفع الوحشة .

وهذا من خاصية هذه الطائفة لا يلبثون والبواطن منطوية على وحشة ، ولا يجتمعون للطعام والبواطن تغضب ووحشة ، ولا يرون الاجتماع ظاهرا في شيء من أمورهم إلا بعد الاجتماع بالبواطن وذهاب التفرقة والشك ، فإذا قام الفقير للاستغفار لا يجوز رد استغفاره بحال .

روى عبد الله بن عمر رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ارحموا ترحموا ، واغفروا يغفر لكم .

وللصوفية في تقبيل يد الشيخ بعد الاستغفار أصل من السنة : روى عبد الله بن عمر قال : كنت في سرية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لحاص الناس حبيصة فكنت فيمن حاص ، فقلنا : كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ؟ ثم قلنا : لو دخلنا المدينة فقتلنا فيها ؟ ثم قلنا : لو عرضنا أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلن كان لنا توبة وإلا ذهبنا ، فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال : من القوم ؟ قلنا : نحن الفرارون . قال : لا ، بل أنتم المكارون ، أنا فتنة المسلمين ، يقال : عكر الرجل ، إذا تولى ثم كر واجما . والعكر العطاف

والرجاع . قال : فأتيناه حتى قبلنا يده . ، وروى أن أبا عبيدة بن الجراح قبل يد عمر عند قدومه . وروى عن أبي سريث الغنوي أنه قال : أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت إليه وقبلت يده . فهذا رخصة في جواز تقبيل اليد ، ولكن أدب الصوفي أنه متى رأى نفسه تتعزز بذلك أو تظهر بوصفها أن يمتنع من ذلك ، فإن سلم من ذلك فلا بأس بتقبيل اليد ومعافاتهم للإخوان عقيب الاستغفار ، لرجوعهم إلى الآلة بعد الوحشة ، وقدومهم من سفر الهجرة بالترقة إلى أوطان الجمعية ، فظهور النفس تفرقوا وبعثوا ، وبغية النفس والاستغفار قدوموا ورجعوا : ومن استغفر إلى أخيه ولم يقبله فقد أخطأ ، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك وعيد : روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : من اعتذر إليه أخوه معذرة فلم يقبلها كان عليه مثل خطيئة صاحب المكوس ، وروى جابر أيضا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من اتصل إليه فلم يقبل لم يرد على الخوض .

ومن السنة أن يقدم للإخوان شيئا من الاستغفار ، روى أن كعب بن مالك قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إن من توبى أن أتخلع من مالي كله وأهجر دار قومي التي فيها أتيت الذنب فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : يجزيك من ذلك الثلث ، فصارت سنة الصوفية المطالبة بالغرامة بعد الاستغفار والمنافرة ، وكل قصدهم رعاية التألف حتى تكون بواطنهم على الاجتماع كأن ظواهرهم على الاجتماع ، وهذا أمر تفرقوا به من بين طوائف الإسلام .

ثم شرط الفقير الصادق إذا سكن الرباط وأراد أن يأكل من وقفه أو مما يطلب لسكانه بالدروزة : أن يكون عنده من الشغل بالله ما لا يسعه الكسب ، وإلا - إذا كان للبطالة والخوض فيما لا يعنى عنده مجال ولا يقوم بشروط أهل الإرادة من الجهد والاجتهاد - فلا ينبغي له أن يأكل من مال الرباط بل يكتسب ويأكل من كسبه ؛ لأن طعام الرباط لأقوام كل شغلهم بالله ، لخدمتهم الدنيا لشغلهم بخدمة مولاهم ؛ إلا أن يكون تحت سياسة شيخ عالم بالطريق ينتفع بصحبته ويمتد بهديه ، فيرى الشيخ أن يطعمه من مال الرباط ، فلا يكون تصرف الشيخ إلا بصحة بصيرة . ومن جملة ما يكون للشيخ في ذلك من النية : أن يشغله بخدمة الفقراء ؛ فيكون ما يأكله في مقابلة خدمته .

روى عن أبي عمرو الزجاجي قال : أقمت عند الجنيد مدة ، فما رآني قط إلا وأنا مشغول بنوع من العبادة ، فما كلمني حتى كان يوم من الأيام خلا الموضوع من الجماعة ؛ فقممت ونزعت ثيابي وكنت الموضوع ونظفته ورششته وغسلت موضع الطهارة ، فرجع الشيخ ورأى على أثر الغبار ، فدعاني ورحب بي وقال : أحسنت عليك بها ثلاث مرات ، ولا يزال مشايخ الصوفية يندبون الشباب إلى الخدمة حفظا لهم عن البطالة ، وكل واحد يكون له حظ من المعاملة وحظ من الخدمة .

روى أبو مخذرة قال : جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا الأذان ، والسقاية لبني هاشم ، والحجابة لبني عبد الدار . وهذا يقتدى مشايخ الصوفية في تفريق الخدم على الفقراء ، ولا يعذر في ترك نوع من الخدمة إلا كامل الشغل بوقته ، ولا يعنى بكامل الشغل شغل الجوارح ، ولكن نعني به دوام الرعاية والمحاسبة ، والشغل بالقلب والقالب وقتا وبالقلب دون القالب وقتا ، وتفقد الزيادة من نقصان ؛ فإن قيام الفقير بحقوق الوقت شغل تام ، وبذلك يؤدي شكر نعمة الفراغ ونعمة الكفاية . وفي البطالة كفران نعمة الفراغ والكفاية .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب عبد القاهر لإجازة ، قال أخبرنا عمر بن أحمد بن منصور ، قال أخبرنا أحمد بن خلف ، قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين ، قال سمعت أبا الفضل بن حمدون يقول : سمعت علي بن عبد الحميد الفضايري يقول : سمعت السري يقول : من لا يعرف قدر النعم سلبها من حيث لا يعلم . وقد يعذر الشيخ العاجز عن الكسب في تناول طعام الرباط ولا يعذر الشاب . هذا في شرط طريق القوم على الإطلاق ، فأما من حيث فتوى الشرع : فإن كان شرط الوقف على المتصوفة وعلى من تزييا بزي المتصوفة وليس خرقهم فيجوز أكل ذلك لهم على الإطلاق فتوى ، وفي ذلك القناعة بالرخصة دون العزيمة التي هي شغل أهل الإرادة . وإن كان شرط الوقف على من يسلك طريق الصوفية عملا ، وحالا فلا يجوز أكله لأهل البطالات والراكنين إلى تضييع الأوقات ، وطرق أهل الإرادة عند

مشايخ الصوفية مشهورة .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح ، قال أخبرنا أبو الفضل حميد ، قال أخبرنا الحافظ أبو نعيم ، قال حدثنا أبو العباس أحمد ابن محمد بن يوسف ، قال حدثنا جعفر الفرياني ، قال حدثنا محمد بن الحسين البلخي بسمرقند ، قال حدثنا عبد الله ابن المبارك ، قال حدثنا سعيد بن أبي أيوب الخزازي . قال حدثنا عبد الله بن الوليد عن أبي سليمان الليثي عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « مثل المؤمن كمثل الفرس في أخيته يحول ويرجع إلى أخيته ، وإن المؤمن يسهر ثم يرجع إلى الإيمان ؛ فأطعموا طعامكم الاتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين » ،

الباب السادس عشر : في ذكر اختلاف أحوال مشايخهم في السفر والمقام

اختلف أحوال مشايخ الصوفية ؛ فمنهم من سافر في بدايته وأقام في نهايته ؛ ومنهم من أقام في بدايته وسافر في نهايته ؛ ومنهم من أقام ولم يسافر ؛ ومنهم من استدام السفر ولم يؤثر الإقامة .

ونشرح حال كل واحد منهم ومقصده فيما رام : فأما الذي سافر في بدايته وأقام في نهايته فقصده السفر لمعان ، منها : تعلم شيء من العلم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اطلبوا العلم ولو بالصين » ، وقال بعضهم : لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن في كلمة تدل على هدى ما كان سفره ضائعاً ، ونقل أن جابر بن عبد الله رحل من المدينة إلى مصر في شهر لحديث بلغه أن أنسا يحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « من خرج من بيته في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع » ، وقيل في تفسير قوله تعالى ﴿ السَّائِحُونَ ﴾ أنهم طلاب العلم .

حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي إمامنا قال أخبرنا أبو الفتح عبد الملك الهروي ، قال أخبرنا أبو نصر الترياق ، قال أخبرنا الجراحى ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذى ، قال حدثنا وكيع ، قال حدثنا أبو داود عن سفيان عن أبي هرون ، قال : كنا نأتى أبا سعيد فيقول : مرحباً بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن النبي عليه السلام قال « إن الناس لكم تبعة وإن الرجال يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين ؛ فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً » ، وقال عليه السلام « طلب العلم فريضة على كل مسلم » ، وروى عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، « إن الله تعالى أوحى إلى لاه من سالك مسلوك في طلب العلم سهلت له طريقاً إلى الجنة » . ومن جملة مقاصدهم في البداية لقاء المشايخ والإخوان الصادقين ؛ فللمريد بقاء كل صادق مزيد ، وقد ينفعه لحظ الرجال كما ينفعه لفظ الرجال . وقد قيل : من لا ينفعك لحظه لا ينفعك لفظه . وهذا القول فيه وجهان : (أحدهما) أن الرجل الصديق يكلم الصادقين بلسان فعله أكثر ما يكلمهم بلسان قوله ؛ فإذا نظر الصادق إلى تصاريفه في مودته ومصدره وخلوته وجلوته وكلامه وسكوته ينتفع بالنظر إليه ؛ فهو نفع اللحظ . ومن لا يكون حاله وأفعاله هكذا فلفظه أيضاً لا ينفع لأنه يتكلم بهواه ، ونورانية القول على قدر نورانية القلب ، ونورانية القلب بحسب الاستقامة والقيام بواجب حق العبودية وحقيقتها . (والوجه الثاني) أن نظر العلماء الراغبين في العلم والرجال البالغين ترواق نافع ، ينظر أحدهم إلى الرجل الصادق فيستكشف بنور بصيرته حسن استعداد الصادق واستئثاره لمواهب الله تعالى الخاصة ؛ فيقع في قلبه عجة الصادق من المريد وينظر إليه نظر محبة عن بصيرة ، وهم من جنود الله تعالى فيكسبون بنظرهم أحوالاً سنية ويهون آثاراً مرضية ، وماذا ينكر المنكر من قدرة الله ؟ إن الله سبحانه وتعالى كما جعل في بعض الأفاعى من الخاصية أنه إذا نظر إلى إنسان يهلكه بنظره ، جعل في نظر بعض خواص عباده أنه إذا نظر إلى طالب صادق يكسبه جالا وحياة . وقد كان شيخنا رحمه الله يطوف في مسجد الخيف بمنى ويتصفح وجوه الناس ، فقليل له في ذلك فقال : لله عباد إذا نظروا إلى شخص أكسبوه سعادة ، فأنا أنطلب ذلك .

ومن جملة المقاصد في السفر ابتداء قطع المألوفات ، والانسلاخ من ركوب النفس إلى معهود ومعلوم ، والتحامل على النفس بتجرع مرارة فرقة الآلاف والخلان والأهل والأوطان ، فنصبر على تلك المألوفات بحسبها عند الله أجراً

فقد حاز فضلا عظيما . أخبرنا أبو زرعة بن أبي الفضل الحافظ المقدسي عن أبيه قال أخبرنا القاضي أبو منصور محمد ابن أحد الفقهاء الأصفياء ، قال أخبرنا أبو إسحق إبراهيم بن عبد الله بن خرشيد قوله ، قال حدثنا أبو بكر عبد الله ابن محمد بن زياد التيسايوري ، قال حدثنا يونس بن عبد الأعلى قال حدثنا ابن وهب ، قال حدثني يحيى بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : مات رجل بالمدينة من ولد بها ، فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال ، ليته مات بغير مولده . قالوا : ولم ذلك يا رسول الله ؟ قال : « إن الرجل إذا مات بغير مولده قيس له من مولده إلى منقطع أثره من الجنة » .

ومن جملة المقاصد في السفر استكشاف دقائق النفوس واستخراج رغوتها ودعائها ، لأنها لا تسكاد تلبين حقائق ذلك بغير السفر . وسمى السفر سفرا لأنه يسفر عن الأخلاق ، وإذا وقف على دأبه يتشمرد دأبه ، وقد يكون أثر السفر في نفس المبتدئ كثر النوافل من الصلاة والصوم والتهجد وغير ذلك ، وذلك أن المتأمل سائر إلى الله تعالى من أوطان الغفلات إلى محل القربات ، والمسافر يقطع المسافات ويتقلب في المغاوير والقلوات بحسن التنية لله تعالى ، سائر إلى الله تعالى بهرغبة الهوى ومهاجرة ملاذ الدنيا .

أخبرنا شيخنا إجازة ، قال أخبرنا عمر بن أحمد ، قال أخبرنا أحمد بن محمد بن خلف ، قال أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي قال سمعت عبد الواحد بن بكر يقول : سمعت علي بن عبد الرحيم يقول : سمعت النووي يقول : التصوف ترك كل حظ النفس . فإذا سافر المبتدئ تاركا حظ النفس تطمئن النفس وتلين كما تلين بدوام النافلة ، ويكون لها بالسفر دباغ يذهب عنها الخشونة واليبوسة الجبلية والعفونة الطبيعية ، كالجلد يعود من هيئة الجلود إلى هيئة الثياب ، فتعود النفس من طبيعة الطغيان إلى طبيعة الإيمان .

ومن جملة المقاصد في السفر : رؤية الآثار والعبر ، وتسريح النظر في مسارح الفكر ، ومطالعة أجزاء الأرض والجبال ومواطن أقدام الرجال ، واستماع التسييح من ذوات الجمادات ، والفهم من لسان حال القطع المتجاورات ، فقد تتجدد اليقظة بتجدد مستودع العبر والآيات ، وتتوفر بمطالعة المشاهد والمواقف الشواهد والدلالات . قال الله تعالى ﴿ سنبهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ وقد كان السري يقول للصوفية : إذا خرج الشتاء ودخل أدار وأورقت الأشجار طاب الانتشار .

ومن جملة المقاصد بالسفر : إثارة الخمول وإطراح حظ القبول ، فصدق الصادق ينم على أحسن الحال ، ويرزق من الخلق حسن الإقبال ، وقلما يكون صادق متمسك بعروة الإخلاص ذو قلب عامر إلا ويرزق إقبال الخلق ، حتى سمعت بعض المشايخ يحكي عن بعضهم أنه قال : أريد إقبال الخلق على لا أني أبلغ نفسي حظها من الهوى ، فإني لأبالي أقبلا أو أدبروا ، ولكن لكون إقبال الخلق علامة تدل على صحة الحال ، فإذا ابتلى المرید بذلك لا يأمن نفسه أن تدخل عليه بطريق الركون إلى الخلق ، وربما يفتح عليه باب من الرفق وتدخل النفس عليه من طريق السير والدخول في الأسباب المحموده ، وتربيه فيه وجه المصلحة والفضيلة في خدمة عباد الله وبذل الموجود ، ولا تزال النفس به والشيطان حتى يجره إلى السكون إلى الأسباب واستجلاء قبول الخلق ، وربما قويا عليه لجره إلى التصنع والتعمل ويتسع الخرق على الرافع .

وسمعت أن بعض الصالحين قال لمريد له ، أنت الآن وصلت إلى مقام لا يدخل عليك الشيطان من طريق الشر ، ولكن يدخل عليك من طريق الخير ، وهذا منزلة عظيمة للأقدام ، فإله تعالى يدرك الصادق إذا ابتلى بشيء من ذلك ويرعجه بالعناية السابقة والمعونة اللاحقة إلى السفر ، فيفارق المعارف والموضع الذي فتح عليه هذا الباب فيه ويتجرد لله تعالى بالخروج إلى السفر ، وهذا من أحسن المقاصد في الأسفار للصادقين ، فهذه جل المقاصد المطلوبة للمشايخ في بداياتهم ماعدا الحج والغزو وزيارة بيت المقدس . وقد نقل أن عمر خرج من المدينة قاصدا إلى بيت المقدس وصلى فيه الصلوات الخمس ثم أسرع راجعا إلى المدينة من الغد . ثم إذا من الله على الصادق بإحكام أمور بدايته ، قلبه في

الأسفار ، ومنحه الحظ من الاعتبار ، وأخذ نصيبه من العلم قدر حاجته ، واستفاد من مجاورة الصالحين ، وانتقش في قلبه فوائد النظر إلى حال المتقين ، وقطر باطنه باستنشاق عرف معارف المقربين ، وتحصن بحماية نظر أهل الله وخاصته وسبر أحوال النفس ، وأسفر السفر عن دقائق أخلاقها وشهواتها الخفية ، وسقط عن باطنه نظر الخلق ، وصار يغلب ولا يغلب ، كما قال الله تعالى إخباراً عن موسى (ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين) فعند ذلك يرد الحق إلى مقامه ، ويمده بجزيل إمامه ، ويجعله إماماً للمتقين به يقتدى ، وعلماً للؤمنين به يهتدى . وأما الذي أقام في بدايته وسافر في نهايته : يكون ذلك شخصاً يسر الله له في بداية أمره صحبة صحيحة وقيض له شيخاً عالماً يسلك به الطريق ، ويدرجه إلى منازل التحقيق ، فيلازم موضع إرادته ويلتزم بصحة من يرد عنه عاداته وقد كان الشبل يقول للحصري في ابتداء أمره : إن خطر يبالك من الجمعة إلى الجمعة غير الله لحرام عليك أن تحضرنى ، فن رزق مثل هذه الصحبة يحرم عليه السفر ، فالصحبة خير له من كل سفر وفضيلة يقصدها .

أخبرنا رضى الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل القزويني إجازة قال : أخبرنا أبو المظفر عبد المنعم بن عبد الكريم ابن هوازن القشيري عن والده الأستاذ أبي القاسم قال : سمعت محمد بن عبد الله الصوفي يقول : سمعت عياش بن أبي الصخر يقول : سمعت أبا بكر الزقاق يقول : لا يكون المريد مريداً حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئاً عشرين سنة فن رزق صحبة من يندبه إلى مثل هذه الأحوال السنية والعزائم القوية يحرم عليه المفارقة واختيار السفر ، ثم إذا أحكم أمره في الابتداء بلزوم الصحبة وحسن الاقتداء . وارتوى من الأحوال ، وبلغ مبلغ الرجال ، وانجس من قلبه عيون ماء الحياة ، وصارت نفسه مكسبة للسعادات يستنشق نفس الرحمن من صدور الصادقين من الإخوان في أقطار الأرض وشاسع البلدان ، يشرئب إلى التلاق ويذنبع إلى الطواف في الآفاق ، يسير الله تعالى في البلاد لفائدة العباد ، ويستخرج بمغناطيس حاله خبء أهل الصدق والمتطلعين إلى من يخبر عن الحق ، ويبرز في أراضى القلوب بذر السلاح ، ويكثر ببركة نفسه وصحبته أهل الصلاح . وهذا مثل هذه الأمة الهادية في الإنجيل (كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سروقه) تعود ببركة البعض إلى البعض ويكون طريق الوراثة معموراً ، وعلم الإفادة منشوراً أخبرنا شيخنا قال أخبرنا الإمام عبد الجبار البيهقي في كتابه ، قال أخبرنا أبو بكر البيهقي ، قال أخبرنا أبو علي الروذباري قال حدثنا أبو بكر بن واسته ، قال حدثنا أبو داود قال أخبرنا يحيى بن أيوب قال حدثنا إسماعيل بن جعفر ، قال أخبرني العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً ، فأما من أقام ولم يسافر يكون ذلك شخصاً رباه الحق سبحانه وتعالى وتولاه وفتح عليه أبواب الخير وجذبه بعنايته . وقد ورد جذبة من جذبات الحق توازي عمل الثقلين . ثم لما علم منه الصدق ورأى حاجته إلى من ينتفع به ساق إليه بعض الصديقين . حتى أيد به بطنه ولفظه ، وتداركه بلحظه ، ولحقه بقوة حاله ، وكفاه يسير الصحبة لكمال الأهلية في صاحب والمصحوب ، وإجراء سنة الله تعالى في إعطاء الأسباب حقها الإقامة ، رسم الحكمة يحوج إلى يسير الصحبة ، فيتنبه بالقليل للكثير ، ويغنيه اليسير من الصحبة عن اللحظ الكثير ، ويكتفي بوافر حظ الاستبصار عن الأسفار ، ويتعوض بأشعة الأنوار عن مطالعة الغير والآثار ، كما قال بعضهم : الناس يقولون افتحوا أعينكم وأبصروا ، وأنا أقول : غمضوا أعينكم وأبصروا . وسمعت بعض الصالحين يقول لله عباد طور سيناهم ركبتهم تكون رءوسهم على ركبتهم وهم في محال القرب ، فمن نبع له معين الحياة في ظلة خلوته فإذا يصنع بدخول الظلمات ؟ ومن اندرجت له أطباق السموات في طي شهوده ، ماذا يصنع بتقلب طرفه في السموات ؟ ومن جمعت أجداق بصيرته متفرقات الكائنات ، ماذا يستفيد من طي الفلوات ؟ ومن خلص بغاصية فطرته إلى جمع الأرواح ، ماذا تفيد زيارة الأشباح ؟

فيل أرسل ذو النون المصري إلى أبي يزيد رجلاً وقال قل له إلى متى هذا النرم والراحة وقد سارت القافلة ؟

فقال الرسول : قل لأخي : الرجل من ينام الليل كله ثم يصبح في المنزل قبل القافلة ، فقال ذو النون : هنئنا له ، هذا كلام لا يبلغه أحوالنا .

وكان بشر يقول : يامعشر القراء سيجوا تطيبوا ، فإن المساء إذا كثرت مكنته في موضع تغير ، وقيل قال بعضهم عند هذا الكلام صر بجرأ حتى لا تتغير ، فإذا أدام المريد بير الباطن يقطع مسافة النفس الأمارة بالسوء ، حتى قطع منازل آفاتها وبذل أخلاقها المذمومة بالحمودة ، وعانق الإقبال على الله تعالى بالصدق والإخلاص ، اجتمع له المتفرقات ، واستفاد في حضره أكثر من سفره ، لكون السفر لا يخلو من متاعب وكلف ومشوشات وطوارق ونوازل يتجدد الضعف عن سياستها بالعلم للضعفاء ، ولا يقدر على تسليط العلم على متجددات السفر وطوارقه إلا الأقوياء . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للذي زكى عنده رجلا هل صحبته في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال لا ، قال ما أراك تعرفه ، فإذا حفظ الله عبده في بداية أمره من تشويش السفر ، ومتعه بجمع الملم وحسن الإقبال في الحضر وساق إليه من الرجال من اكتسب به صلاح الحال ، فقد أحسن إليه .

قيل في تفسير قوله تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ هو الرجل المنقطع إلى الله يشكل عليه شيء من أمر الدين فيبعث الله إليه من يحل إشكاله . فإذا ثبت قدمه على شروط البداية رزق وهو في المقام من غير سفر ثمرات النهاية ، فيستقر في الحضر انتهاء ، وأقيم في هذا المقام جمع من الصالحين . وأما الذي أدام السفر فرأى صلاح قلبه وصحة حاله في ذلك . يقول بعضهم اجتهد أن تكون كل ليلة ضيف مسجد ، ولا تموت إلا بين منزلين . وكان من هذه الطبقة إبراهيم الخواص ما كان يقيم في بلد أكثر من أربعين يوما ، وكان يرى إن أقام أكثر من أربعين يوما يفسد عليه توكله ، فكان علم الناس ومعرفتهم لإياه سببا ومعلوما .

وحكى عنه أنه قال مكنت في البداية أحد عشر يوما لم آكل وتطلعت نفسي أن آكل من حشيش البر ، فرأيت الحضر مقبلا نحوي فهربت منه ، ثم التفت فإذا هو رجع عني ، فقيل لم هربت منه ؟ قال تشوفت نفسي أن يغيثني ، ففؤلاء الفرارون بدينهم . أخبرنا أبو زرعة طاهر بن الحافظ أبي الفضل المقدسي عن أبيه قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي قال أخبرنا أبو عبد الله بن يوسف بن نامويه قال حدثنا أبو محمد الزهري القاضي قال حدثنا محمد بن عبد الله بن أسباط قال حدثنا أبو نعيم قال حدثنا محمود - يعني ابن مسلم - عن عثمان بن عبد الله بن أوس عن سليمان بن هرم عن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أحب شيء إلى الله الغرباء ، قيل ومن الغرباء ؟ قال الفرارون بدينهم يجتمعون إلى عيسى ابن مريم يوم القيامة ، وهذه كلها أحوال اختلفت واتبعت أربابها الصحة وحسن النية مع الله . وحسن النية يقتضي الصدق ، والصدق لعينه محمود كيف تقلبت الأحوال ، فمن سافر ينبغي أن يتفقد حاله ، ويصحح نيته . ولا يقدر على تخليص النية من شرائب النفس إلا كثير العلم تام التقوى ، وافر الحظ من الزهد في الدنيا . ومن الظوى على هوى كامن ولم يستقص في الزهد لا يقدر على تصحيح النية . فقد يدعو إلى السفر نشاط جبلي نفساني وهو يظن أن ذلك داعية الحق ولا يميز بين داعية الحق وداعية النفس ويحتاج الشخص في علم صحة النية إلى العلم بحرفة الخواطر ، وشرح الخواطر وعلما يحتاج إلى باب مفرد لنفسه ، ونومى الآن إلى ذلك برمز يدركه من نازله شيء من ذلك ، فأكثر الفقراء من علم ذلك ومعرفته على بعد .

اعلم أن ما ذكرناه من نشاط النفس واقع للفقير في كثير من الأمور ، فقد يجد الفقير الروح بالخروج إلى بعض الصحارى والبساتين ، ويكون ذلك الروح مضرا به في ثانی الحال وإن كان يترامى له طيبة القلب في الوقت وسبب طيبة قلبه في الوقت أن النفس تنفسح وتتسع ببلوغ غرضها وتيسر يسير هواها بالخروج إلى الصحراء والتنزه ، وإذا التفت بعدت عن القاب وتنحت عنه متشوفة إلى متعلق هواها ، فيترشح القلب لبالصحراء بل يبعد النفس منه ، كشخص تباعد عنه قرين يستقله . ثم إذا عاد الفقير إلى زاويته واستفتح ديوان معاملته وميز دستور حاله ، يجد النفس مقارنة للقلب بمزيد ثقل موجب لتبرمه بها ، وكلما ازداد ثقلها تكدر القلب . وسبب زيادة ثقلها استرسالها في

تبادل هواها ، فيصير الخروج إلى الصحراء عين الداء ، ويظن الفقير أنه ترويح ودواء ، فلو صبر على الوحدة والخلوة ، ازدادت النفس ذوبانا ، وخفت ولطفت وصارت قرينا صالحا للقلب لا يستقلها . وعلى هذا يقاس الترويح بالسفار ، فللنفس وثبات إلى توم التروحات ، فمن فطن لهذه الدقيقة لا يغتر بالتروحات المستعارة التي لا تحمد عاقبتها ولا تؤمن غائتها ، ويتثبت عند ظهور خاطر السفر ، ولا يكثرثر بالخطر بل يطرحه بعدم الالتفات مسيئا ظنه بالنفس وتسولاتها . ومن هذا القبيل - والله أعلم - قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الشمس تطلع من بين قرني الشيطان » فيكون للنفس عند طلوع الشمس وثبات تستند تلك الوثبات والنهضات من النفس إلى المزاج والطباع ، ويطول شرح ذلك ويعمق . ومن ذلك القبيل خفة مرض المريض غدوة ، بخلاف العشيات فيتشكل اهتزاز النفس بنهضات القلب ، ويدخل على الفقير من هذا القبيل آفات كثيرة : يدخل في مداخل باهتزاز نفسه ظنا منه أن ذلك حكم نهوض قلبه ، وربما يترأى له أنه بالله يصول وبالله يقول وبالله يتحرك ، فقد ابتلى بنهضة النفس ووثوبها . ولا يقع هذا الاشتباه إلا لأرباب القلوب وأرباب الأحوال ، وغير أرباب القلب والحال عن هذا بمنزل ، وهذه منزلة قدم مختصة بالخواص دون العوام ، فاعلم ذلك فإنه عزيز عليه . وأقل مراتب الفقراء في مبادئ الحركة للسفر لتصحيح وجه الحركة أن يقدموا صلاة الاستخارة ، وصلاة الاستخارة لا تهمل وإن تبين للفقير صحة خاطره أو تبين له وجه المصلحة في السفر ببيان أوضح من الخاطر ، فللقوم مراتب في التبيان من العلم بصحة الخاطر وبما فوق ذلك ، ففي ذلك كله لا تهمل صلاة الاستخارة اتباعا للسنة ، ففي ذلك البركة ، وهو من تعليم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي إمامنا قال : أخبرنا أبو القاسم بن عبد الرحمن في كتابه ، أن أبا سعيد الكنجي روى أخبرهم قال أخبرنا أبو عمرو بن حمدان ، قال حدثنا أحمد بن الحسين الصوفي ، قال حدثنا منصور بن أبي مزاحم ، قال حدثنا عبد الرحمن بن أبي الموالي عن محمد بن المنكدر عن جابر رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن قال : « إذا هم أحدكم بالأمر - أو أراد الأمر ، فليصل ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسميه بعينه - خير لي في ديني ومعاشي ومعادى وعاقبة أمري - أو قال عاجل أمري وآجله - فأفدري لي ثم بارك لي فيه ، وإن كنت تعلمه شرالي - مثل ذلك - فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان » .

الباب السابع عشر : فيما يحتاج إليه الصوفي في سفره من الفرائض والفضائل

فأما من الفقه - وإن كان هذا يذكر في كتب الفقه وهذا الكتاب غير موضوع لذلك ، ولكن نقول على سبيل الإيجاز تيمنا بذكر الأحكام الشرعية التي هي الأساس الذي يبني عليه - لابد للصوفي المسافر من علم التيمم والمسح على الخفين والقصر والجمع في الصلاة ، أما التيمم فجائز المريض والمسافر في الجنابة والحدث عند عدم الماء أو الخوف من استعماله تلفا في النفس أو المال أو زيادة في المرض على القول الصحيح من المذهب ، أو عند حاجته إلى الماء الموجود لعطشه أو عطش دابته أو رفيقه ، ففي هذه الأحوال كلها يصل بالتيمم ولا إعادة عليه . والخائف من البرود يصل بالتيمم ويعيد الصلاة على الأصح . ولا يجوز التيمم إلا بشرط الطلب للماء في مواضع الطلب . ومواضع الطلب مواضع تردد المسافر في منزله للاحتطاب والاحتشاش ، ويكون الطلب بعد دخول الوقت ، والسفر التصير في ذلك كالطويل . وإن صلى بالتيمم مع تيقن الماء في آخر الوقت جاز على الأصح . ولا يعيد مهما صلى بالتيمم وإن كان الوقت باقيا . ومهما توم وجود الماء بطل تيممه ، كما إذا طلع ركب أو غير ذلك . وإن رأى الماء في أثناء الصلاة لا تبطل صلاته ولا تزمه الإعادة ، ويستحب له الخروج منها واستئافها بالوضوء على الأصح . ولا يتيمم للفرض قبل دخول الوقت ويتيمم لكل فريضة . ويصلي مهما شاء من نوافل يتيمم واحد . ولا يجوز أداء الفرض بتيمم

النافلة : ومن لم يجد ماء ولا ترابا يصل على وجود أحدهما . ولكن إذا كان محدثا لا يمس المصحف . وإن كان جنباً لا يقرأ القرآن في الصلاة بل يذكر الله تعالى عوض القراءة . ولا يقيم إلا بتراب طاهر غير مغالط للرمل والحصى ، ويجوز بالغبار على ظهر الحيوان والثوب . ويسمى الله تعالى عند التيمم ، وينوى استباحة الصلاة قبل ضرب اليد على التراب ، ويضم أصابعه لضربة الوجه ويمسح بجميع الوجه ، فلو بقي شيء من محل الفرض غير ممسوح لا يصح التيمم . ويضرب ضربة لليدين مبسوط الأصابع ، ويمسح بالتراب محل الفرض ، وإن لم يقدر إلا بضربتين فصاعداً كيف أمكنه لا بد أن يمسح التراب محل الفرض . ويمسح إذا فرغ إحدى راحتين بالأخرى حتى تصيرا بمسحتين ، ويمر اليد على ما نزل من اللحية من غير إصصال التراب إلى المنابت .

وأما المسح : فيمسح على الخف ثلاثة أيام ولياليهن في السفر . والمقيم يوماً وليلة . وابتداء المدة من حين الحدث بعد لبس الخف ، لا من حين لبس الخف . ولا حاجة إلى النية عند لبس الخف ، بل يحتاج إلى كال الطهارة ، حتى لو لبس أحد الخفين قبل غسل الرجل الأخرى لا يصح أن يمسح على الخف . ويشترط في الخف لمكان متابعة المشي عليه وسر محل الفرض ، ويكفي مسح يسير من أعلى الخف ، والأولى مسح أعلاه وأسفله من غير تكرار ، ومتى ارتفع حكم المسح - بانقضاء المدة أو ظهور شيء من محل الفرض وإن كان عليه لفافة وهو على الطهارة - يغسل القدمين دون استئناف الوضوء على الأصح . والمسح في السفر إذا أقام بمسح كالمقيم ، وهكذا المقيم إذا سافر يمسح كالسافر . واللبس إذا ركب جوربا ولعل يجوز المسح عليه ، ويجوز على المشرح إذا ستر محل الفرض ، ولا يجوز على المنسوج وجهه الذي يستر بعض القدم به والباقي باللفافة :

فأما القصر والجمع فيجمع بين الظهر والعصر في وقت أحدهما . ويتيمم لكل واحدة ولا يفصل بينهما بكلام وغيره . وهكذا الجمع بين المغرب والعشاء . ولا قصر في المغرب والصبح بل يصلحها كهيئتها من غير قصر وجمع والسنن الرواتب يصلحها بالجمع بين السنتين قبل الفريضتين للظهر والعصر . وبعد الفراغ من الفريضتين يصل ما يصل بعد الفريضة من الظهر ركعتين أو أربعاً ، وبعد الفراغ من المغرب والعشاء يؤدي السنن الراتبة لها ويوتر بعدهما . ولا يجوز أداء الفرض على الدابة بحال إلا عند التحام القتال للغزى . ويجوز ذلك في السنن الرواتب والنوافل ، وتكفيه الصلاة على ظهر الدابة ، وفي الركوع والسجود الإيماء ، ويكون إيماء السجود أخفض من الركوع ، إلا أن يكون قادراً على التمكن مثل أن يكون في محاورة وغير ذلك ، ويقوم توجهه إلى الطريق مقام استقبال القبلة ، ولا يوجهها إلى غير الطريق إلا للقبلة حتى لو حرف دابته عن الصوب المتوجه إليه لا إلى نحو القبلة بطلت صلاته . والماشي يتنقل في السفر ويقعنه استقبال القبلة عند الإحرام ، ولا يجوز فيه الإحرام إلا الاستقبال . ويقعنه الإيماء للركوع والسجود ، وراكب الدابة لا يحتاج إلى استقبال القبلة للإحرام أيضاً . وإذا أصبح المسافر مقبلاً ثم سافر فعليه إتمام ذلك اليوم في الصرم ، وهكذا إن أصبح مسافراً ثم أقام ، والصوم في السفر أفضل من الفطر ، وفي الصلاة القصر أفضل من الإتمام ، فهذا القدر كاف للصوم في أن يعلمه من حكم الشرع في مهام سفره .

فأما المندوب والمستحب فينبغي أن يطلب لنفسه رقيقاً في الطريق يعينه على أمر الدين ، وقد قيل : الرفيق ثم الطريق ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسافر الرجل وحده ، إلا أن يكون صوفياً عالماً بأفة نفسه يختار الوحدة على بصيرة من أمره فلا بأس بالوحدة ، وإذا كانوا جماعة ينبغى أن يكون فيهم متقدم أمير . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا كنتم ثلاثة في سفر فأمرؤ أحدكم ، والذي يسميه الصوفية « بيشر » وهو الأمير وينبغي أن يكون الأمير أزهج الجماعة في الدنيا ، وأوفرهم حظاً من التقوى ، وأتمهم مروءة وسخاوة ، وأكثرهم شفقة . روى عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه » نقل عن عبد الله بن عمرو : أن أبا علي الرضا عليه السلام قال : « على أن أكون أنا الأمير أو أنت ؟ فقال : بل أنت ! فلم يزل يحمل الزاد لنفسه ولا يلبس على ظهره ، وأمطرت السماء ذات ليلة فقام عبد الله طول الليل على رأس رفيقه يغطيه بكساءه من

المطر ، وكلما قال لأتقل يقول ألتست الأثير وعليك الانقياد والطاعة . فأما إن كان الأمير يصحب الفقراء لمحبة الاستتباع وطلب الرياسة والتعزز ليتسلط على الخدام في الربط ويبلغ نفسه هواها : فهذا طريق أرباب الهوى الجهال المبائنين لطريق الصوفية ، وهو سبيل من يريد جمع الدنيا ، فليتخذ لنفسه رفقاء مائتين إلى الدنيا يجتمعون لتحصيل أغراض النفس والدخول على أبناء الدنيا والظلمة للتوصل إلى تحصيل مأرب النفس ، ولا يخلو اجتماعهم هذا عن الخوض في الغيبة والدخول في المداخل المكروهة والقل في الربط والاستمتاع والنزعة ، وكلما كثر المعلوم في الرباط أطالوا المقام وإن تعذرت أسباب الدين ، وكلما قل المعلوم رحلوا وإن تيسرت أسباب الدين ، وليس هذا طريق الصوفية .

ومن المستحب أن يودع إخوانه إذا أراد السفر ، ويدعولهم بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال بعضهم : صحبت عبد الله بن عمر من مكة إلى المدينة ، فلما أردت مفارقتهم شيعني وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال لقمان لابنه : يا بني إن الله تعالى إذا استودع شيئاً حفظه ، وإن استودع الله دينك وأمانتك وخواتم عملك . وروى زيد بن أرقم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا أراد أحدكم سفراً فليودع إخوانه ، فإن الله تعالى يجعل له في دعائهم البركة . وروى عنه عليه السلام أيضاً أنه كان إذا ودع رجلاً قال : زدك الله التقوى ، وغفر ذنبك ، ووجهك للخير حيثما توجهت ، وينبغي أن يعتقد إخوانه إذا دعاهم واستودعهم الله أن الله يستجيب دعاءه : فقد روى أن عمر رضي الله عنه كان يعطى الناس عطاياهم ، إذ جاء رجل معه ابن له فقال له عمر : ما رأيت أحداً أشبه بأحد من هذا بك ؟ فقال الرجل : أحذرك عنه يا أمير المؤمنين ، إنى أردت أن أخرج إلى سفر وأمه حامل به فقالت : تخرج وتدعنى على هذه الحالة ؟ فقلت : استودع الله ما في بطنك ، فخرجت ثم قدمت فإذا هي قد ماتت ، فجلسنا نتحدث فإذا نار تلوح على قبرها ، فقلت للقوم : ما هذه النار ؟ فقالوا : هذه من قبر فلانة تراها كل ليلة ، فقلت : والله إنما كانت صوامة قوامه ، فأخذت المولى حتى انتهينا إلى القبر فحفرنا وإذا سراج وإذا هذا الغلام يدب ، فقيل : إن هذا وديعتك ولو كنت استودعتنا أمه لوجدتها ، فقال عمر : لهو أشبه بك من الغراب بالغراب ، وينبغي أن يودع كل منزل يرحل عنه بركتين ويقول : اللهم زدنى التقوى واغفر لى ذنوبى ووجهنى للخير أينما توجهت ، وروى أنس بن مالك قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينزل منزلاً إلا ودعه بركتين ، فينبغي أن يودع كل منزل ورباط يرحل عنه بركتين ، وإذا ركب الدابة فليقل : سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، بسم الله والله أكبر توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . اللهم أنت الحامل على الظهر وأنت المستعان على الأمور . والسنة أن يرحل من المنازل بكرة ويبتدىء بيوم الخميس . روى كعب بن مالك قال : قلنا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج إلى السفر إلا يوم الخميس ، وكان إذا أراد أن يبعث سرية بعثها أول النهار ويستحب كلما أشرف على منزل أن يقول : اللهم رب السموات وما أظلمن ورب الأرضين وما أظلمن ، ورب الشياطين وما أضلن ، ورب الرياح وما ذرين ، ورب البحار وما جرين : أسألك خير هذا المنزل وخير أهله ، وأعوذ بك من شر هذا المنزل وشر أهله . وإذا نزل فليصل ركعتين ، ومما ينبغي للمسافر أن يصبحه آلة الطهارة قيل : كان إبراهيم الخواص لا يفارقه أربعة أشياء في الحضر والسفر : الركوة ، والحبل ، والإبره وخبوطها ، والمقراض . وروى عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا سافر حل معه خمسة أشياء : المرأة ، والمسكحلة ، والمدرى ، والسواك ، والمشط . وفي رواية . المقراض ، والصوفية لا تفارقهم العصي ، وهي أيضاً من السنة .

روى معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن أتخذ متبراً فقد اتخذه إبراهيم ، وإن أتخذ العصا فقد اتخذه إبراهيم وموسى ، وروى عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال التركو على العصا من أخلاق الأنبياء ، كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم عصا يتوكأ عليها ويأمر بالتوكؤ على العصا ، وأخذ الركوة أيضاً من السنة . وروى جابر عن عبد الله قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ من ركوة إذ جهش الناس نحوه أى أسرعوا نحوه ، والأصل فيه البكاء ، كالعصى يتلازم بالأم ويسرع إليها عند البكاء ، قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« مالكم ؟ قالوا : يا رسول الله ما نحب ماء فنشرب ولا نتوضأ به إلا ما بين يديك ؛ فوضع يده في الركوة ، فنظرت وهو يفور من بين أصابعه مثل العيون ؛ قال : فتوضأ القوم منه . قلت : كم كنتم ؟ قال : لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة في غزوة الحديبية .

ومن سنة الصوفية شد الوسط وهو من السنة : روى أبو سعيد قال : حج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مشاة من المدينة إلى مكة وقال « اربطوا على أوساطكم بأزركم ، فربطنا ومشينا خلفه الهرولة .

ومن ظاهر آداب الصوفية عند خروجهم من الربط أن يصلي ركعتين في أول النهار يوم السفر بكرة كما ذكرنا ، يودع البقعة بالركعتين ، ويقدم الخف وينفضه ، ويشمر السكم اليمنى ثم اليسرى ، ثم يأخذ الميانيذ الذي يشد به وسطه ويأخذ خريطة المداس وينفضها ، ويأتي الموضع الذي يريد أن يلبس الخف فيفرش السجادة طاقين ويحك نعل أحد المداسين بالآخر ، ويأخذ المداس باليسار والخريطة باليمين ، ويضع المداس في الخريطة أعقابه إلى أسفل ويشد رأس الخريطة ، ويدخل المداس بيده اليسرى من كه الأيسر ويضعه خلف ظهره ، ثم يقعد على السجادة ويقدم الخف اليسار وينفضه ، ويتبدي باليمن فيلبس ، ولا يدع شيئاً من الران أو المنطقة يقع على الأرض ، ثم يغسل يديه ويجعل وجهه إلى الموضع الذي يخرج منه ويودع الحاضرين ، فإن أخذ بعض الإخوان رايته إلى خارج الرباط لا يمنعه ، وهكذا العصا والإبريق ، ويودع من شيعه ، ثم يشد الراوية يرفع يده اليمنى ويخرج اليسرى من تحت لإبطه الأيمن ويشد الراوية على الجانب الأيسر ، ويكرن كنفه الأيمن غالباً وعقدة الراوية على الجانب الأيمن ؛ فإذا وصل في طريقه إلى موضع شريف أو استقبله جمع من الإخوان أو شيخ من الطائفة يحل الراوية ويحيطها ويستقبلهم ويسلم عليهم ، ثم إذا جاوزوه يشد الراوية ، وإذا دنا من منزل - رباطا كان أو غيره - يحل الراوية ويحملها تحت إبطه الأيسر ، وهكذا العصا والإبريق يسكه بيساره ، وهذه الرسوم استحسناها فقراء خراسان والجليل ، ولا يتعهدا أكثر فقراء العراق والشام والمغرب ، ويجرى بين الفقراء مشاحنة في رعايتها ؛ فمن لا يتعهدا يقول : هذه رسوم لا تلزم ، والالتزام بها وقوف مع الصور وغفلة عن الحقائق . ومن يتعهدا يقول : هذه آداب وضعها المتقدمين ، وإذا رأوا من يحل بها أو بشيء منها ينظرون إليه نظر الازدراء والحقارة ويقال : هذا ليس بصوفي ، وكلا الطائفتين في الإنكار يتعدون الواجب . والصحيح في ذلك أن من يتعاهد لا ينكر عليه ، فليس بمنكر في الشرع وهو أدب حسن . ومن لم يلتزم بذلك فلا ينكر عليه فليس بواجب في الشرع ولا مندوب إليه . وكثير من فقراء خراسان والجليل يبالغ في رعاية هذه الرسوم إلى حد يخرج إلى الإفراط ، وكثيراً ما يحل بها فقراء العراق والشام والمغاربة إلى حد يخرج إلى التفريط . والاليق أن ما ينكره الشرع ينكر وما لا ينكره لا ينكر ، ويجعل لتصاريف الإخوان أعماراً ما لم يكن فيها منكر أو إخلال بمندوب إليه ، والله الموفق .

الباب الثامن عشر : في القدوم من السفر ودخول الرباط والأدب فيه

ينبغي للفقير إذا رجع من السفر أن يستعين بالله تعالى من آفات المقام كما يستعين به من وعناء السفر . ومن الدعاء المأثور : « اللهم إني أعوذ بك من وعناء السفر ، وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر في الأهل والمال والولد ، وإذا أشرف على بلد يريد المقام بها ، يشير بالسalam على من بها من الأحياء والأموات ويقرأ من القرآن ما تيسر ويجعله هدية للأحياء والأموات ويكبر ، فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قفل من غزو أو حج يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث مرات ويقول ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، آيئون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ويقول إذا رأى البلد : اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً ، ولو اغتسل كان حسناً اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث اغتسل لدخول مكة ، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من طاب الأحزاب ونزل المدينة نزع لامته واغتسل ، واستحم ، وإلا فليجدد الوضوء ويتنظف ويتطيب ويستعد للقاء الإخوان بذلك ؛ وينوي التبرك

بن هنالك من الأحياء والأموات ويوزونهم .

روى أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « خرج رجل يزور أخاه في الله فأرصد الله بمدرجته ملكا وقال : أين تريد ؟ قال : أزور فلانا ، قال لقرابة ؟ قال : لا ، قال : لنعمة له عندك تشكرها ؟ قال : لا ، قال فيم تزوره ؟ قال إني أحبه في الله ، قال : فإني رسول الله إليك بأنه يحبك بحبك لإياه . »

وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا دعا الرجل أخاه أوزاره في الله قال الله له : طيب وطاب بمشاك ، ويتبوا من الجنة منزلا ، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة ، فيحصل للفقير فائدة الأحياء والأموات بذلك . فإذا دخل البلد يبتدىء بمسجد من المساجد يصل فيه ركعتين ، فإن قصد الجامع كان أكمل وأفضل . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قدم دخل المسجد أولا وصلى ركعتين ثم دخل البيت والرباط للفقير بمنزلة البيت ، ثم يقصد الرباط فقصد الرباط من السنة ، على مارويناه عن طلحة رضى الله عنه قال : كان الرجل إذا قدم المدينة وكان له بها عريف ينزل على عريفه ، وإن كان لم يكن له بها عريف نزل الصفة ، فكنت ممن أنزل الصفة . فإذا دخل الرباط يمشى إلى الموضع الذى يريد نزع الخف فيه ، فيحل وسطه وهو قائم ، ثم يخرج الخريطة ييساره من كفه اليسار ويحل رأس الخريطة باليمين ويخرج المداس باليسار ، ثم يضع المداس على الأرض ويأخذ الميانيد ويلقيها في وسط الخريطة ، ثم يزع خفه اليسار ، فإن كان على الوضوء يغسل قدميه بعد نزع الخف من تراب الطريق والعرق ، وإذا قدم على السجادة يطوى السجادة من جانب اليسار ، ويمسح قدميه بما الطوى ثم يستقبل القبلة ويصلى ركعتين . ثم يسلم ويحفظ القدم أن يطأ بها موضع السجود من السجادة ، وهذه الرسوم الظاهرة التى استحسناها بعض الصوفية لا تنسك على من يتقيد بها لأنه من استحسان الشيوخ ، ونيتهم الظاهرة في ذلك : تقيد المريد في كل شيء بهيئة مخصوصة ، ليكون أبدأ متفقد الحركانه غير قادم على حركة بغير قصد وعزيمة وأدب ، ومن أخل من الفقراء بشيء من ذلك لا ينسك عليه مالم يخل بواجب أو مندوب ؛ لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تقيدوا بكثير من رسوم المتصوفة ، وكرن الشبان يطالبون الوارد عليهم بهذه الرسوم من غير نظر لهم إلى النية في الأشياء غلط ، فلعل الفقير يدخل الرباط غير مشمر أكامه ، وقد كان في السفر لم يشمر الأكام فينبه أن لا يتعاطى ذلك لنظر الخلق حيث لم يخل بمندوب إليه شرعا ، وكون الآخر يشمر الأكام يقيس ذلك على شد الوسط وشد الوسط من السنة كما ذكرنا من شد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أوساطهم في سفرهم بين المدينة ومكة ، فتشميم الأكام في معناه من الخفة والارتفاع به في المشى ، فن كان مشدود الوسط مشمرا يدخل الرباط كذلك ، ومن لم يكن في السفر مشدود الوسط أو كان راكبا لم يشد وسطه ، فن الصدق أن يدخل كذلك ، ولا يعتمد شد الوسط وتشميم الأكام لنظر الخلق فإنه تسكف ونظر إلى الخلق ، ومبنى التصوف على الصدق وسقوط نظر الخلق ، وما ينسك على المتصوفة أنهم إذا دخلوا الرباط لا يبتدون بالسلام ويقول المنسك : هذا خلاف المندوب ، ولا ينبغي للمنسك أن يبادر إلى الإنسكار دون أن يعلم مقاصدهم فيما اعتمدوه وتركهم السلام يحتمل وجوها ، أحدها : أن السلام اسم من أسماء الله تعالى وقد روى عبد الله بن عمر قال : مر رجل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبول ، فسلم عليه فلم يرد عليه حتى كاد الرجل أن يتواري ، فضرب يده على الحائط ومسح بها وجهه ، ثم ضرب ضربة أخرى فمسح بها ذراعيه ، ثم رد على الرجل السلام وقال : « إنه لم يمتنى أن أرد هليك السلام إلا أنى لم أكن على طهر ، وروى أنه لم يرد عليه حتى توضأ ثم اعتذر إليه ، وقال « إني كرهت أن أذكر الله تعالى إلا على ظهر ، وقد يكون جمع من الفقراء مصطحبين في السفر وقد يتفق لأحدهم حدث ، فلوسلم المتوضئ وأمسك المحدث طهر حاله ، فيترك السلام حتى يتوضأ ويغسل قدميه من يغسل سيرا للحال على من أحدث ، حتى يكون سلامهم على الطهارة اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وقد يكون بعض المقيمين أيضا على غير طهارة فيستعد لجواب السلام أيضا بالطهارة ؛ لأن السلام اسم من أسماء الله تعالى ، وهذا من أحسن ما يذكر

من الوجوه في ذلك . ومنها أنه إذا قدم يعانقه الإخوان وقد يكون معه من آثار السفر والطريق ما يكره فيستعد بالوضوء والنظافة ثم يسلم ويعانقهم . ومنها أن جميع الرباط أرباب مراقبة وأحوال ؛ فلو هجم عليهم بالسلام قد ينزعج منه مراقب ويتشوش محافظ ، والسلام يتقدمه استئناس بدخوله واشتغاله بغسل القدم والوضوء وصلاة ركعتين ، فيتأهب الجميع له كما يتأهب لهم بعد مسابقة الاستئناس . وقال الله تعالى ﴿ حتى تستأنسوا ﴾ واستئناس كل قوم على ما يليق بحالهم ، ومنها أنه لم يدخل على غير بيته ولا هو بغريب منهم ، بل هم لإخوانه والألفة بالنسبة المعنوية الجامعة لهم في طريق واحد ، والمنزل منزله والموضع موضعه ، فيرى البركة في استفتاح المنزل بمعاملة الله قبل معاملة الخلق ، وكما يهد عذرهم في ترك السلام ينبغي لهم أن لا ينكروا على من يدخل ويبتدئ بالسلام ، فسكاً أن من ترك السلام له نية فالذى ابتدأ به له أيضاً نية .

وللقوم آداب ورد بها الشرع ، ومنها آداب استحسانها شيوخيهم ، فما ورد به الشرع : ما ذكرنا من شد الوسط والعصا والركوة والابتداء باليمين في لبس الخف وفي نزعها باليسار : روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أتتكم فابعدوا باليمين ، وإذا خلعتكم فابعدوا باليسار أو اخلعهما جميعاً أو اخلعهما جميعاً ، روى جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخلع اليسرى قبل اليمين ويلبس اليمين قبل اليسرى .

وبسط السجادة وردت به السنة وقد ذكرناه . وكون أحدهم لا يقعد على سجادة الآخر مشروع ومسنون وقد ورد في حديث طويل : لا يؤم الرجل الرجل في سلطانه ولا في أهله ولا يجلس على تكرمته إلا بإذنه .

وإذا سلم على الإخوان يعانقهم ويعانقونه ، فقد روى جابر بن عبد الله قال : « لما قدم جعفر من أرض الحبشة عانقه النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن قبلهم فلا بأس بذلك روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم جعفر قبل بين عينيه وقال : « ما أنا بفتح خير أسر مني بقدم جعفر ، ويصافح إخوانه فقد قال عليه السلام : « قبله المسلم أخاه المصافحة ، وروى أنس بن مالك قال : قيل يا رسول الله ، الرجل يلقى صديقه وأخاه ينحنى له ؟ قال : لا . قيل يلزمه ويقبله ؟ قال : لا . قيل فيصافحه ؟ قال نعم .

يستحب للفقراء المقيمين في الرباط أن يتلقوا الفقراء بالترحيب روى عكرمة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم جئته « مرحباً بالراكب المهاجر ، مرتين . وإن قاموا إليه فلا بأس وهو مسنون روى عنه عليه السلام أنه قام لجعفر يوم قدومه .

ويستحب للخادم أن يقدم له الطعام روى لقيط بن صبرة قال وفدنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نصادفه في منزله وصادفنا عائشة رضي الله عنها ، فأمرت لنا بالحريرة فصنعت لنا ، وأتينا بقناع فيه تمر - والقناع الطبق - فأكلنا ، ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أصبتم شيئاً ؟ » قلنا نعم يا رسول الله .

ويستحب للقادم أن يقدم للفقراء شيئاً لحق القدوم ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة نحر جزوراً وكراهيتهم لقدوم القادم بعد العصر وجهه من السنة منع النبي صلى الله عليه وسلم عن طروق الليل .

والصوفية بعد العصر يستعدون لاستقبال الليل بالطهارة والانكباب على الأذكار والاستغفار روى جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا قدم أحدكم من سفر فلا يطرقن أهله ليلاً ، وروى كعب بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يقدم من السفر إلا نهاراً في الضحى ؛ فيستحبون القدوم في أول النهار ، فإن فات من أول النهار فقد يتفق تعويق من ضعف بعضهم في المشي أو غير ذلك ، فيعذر العقير بقية النهار إلى العصر لاحتمال التعويق ، فإذا صار العصر ينسب إلى تقصيره في الاهتمام بالسنة و قدوم أول النهار فإنهم يكرهون الدخول بعد العصر والله أعلم ، فإذا صار العصر يؤخر القدوم إلى الغد لينكون عاملاً بالسنة للقدوم ضحوة ، وأيضاً فيه معنى آخر وهو أن الصلاة بعد العصر مكروهة .

ومن الأدب أن يصلي القادم ركعتين ؛ فلذلك يكرهون القدوم بعد صلاة العصر ، وقد يكون من الفقراء القادمين

من يكون قليل الدراية بدخول الرباط ويتأله دهشة : فن السنة التقرب إليه والتودد وطلاقة الوجه حتى يتبسّط وتذهب عنه الدهشة ، ففي ذلك فضل كثير

روى أبو رفاعة قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخاطب فقلت : يا رسول الله ، رجل غريب جاء يسأل عن دينه لا يدري ما دينه ؟ قال : فأقبل النبي صلى الله عليه وسلم وترك خطبته ، ثم أتى بكرسي قوائمه من حديد فقعد رسول الله ثم جعل يعلنني بما عليه الله ، ثم أتى خطبته وأتم آخرها . فأحسن أخلاق الفقراء الرفق بالمسلمين ، واحتمال المكروه من المسموع والمرق ، وقد يدخل فقير بعض الربط ويخل بشيء من مراسم المتصوفة فينهر ويخرج ، وهذا خطأ كبير ؛ فقد يكون خلق من الصالحين والأولياء لا يعرفون هذا الرسم الظاهر ويقصدون الرباط بنية صالحة ، فإذا استقبلوا بالمكروه يخشون أن تتشوش بواطنهم من الأذى ويدخل على المنكر عليه ضرر في دينه ودنياه ؛ فليجذر ذلك وينظر إلى أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وما كان يعتمد مع الخلق من المداراة والرفق . وقد صح : أن أعرابيا دخل المسجد وبأهال ، فأمر النبي عليه السلام حتى أتى بذنوب فصب على ذلك لم ينهر الأعرابي ، بل رفق به وعزفه الواجب بالرفق واللين . والنظاظة والتغليظ والتسلط على المسلمين بالقول والفعل من النفوس الخبيثة وهو ضد حال المتصوفة ، ومن دخل الرباط ممن لا يصلح للمقام به رأسا يصرف من الموضع على الألف وجه بعد أن يقدم له طعام ويحسن له الكلام ، فهذا الذي يليق بسكان الرباط ، وما يعتمد الفقراء من تغميز القادم فخلق حسن ومعاملة صالحة وردت به السنة ، روى عمر رضي الله عنه قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وغلّام له حبشي يغمر ظهره فقلت : يا رسول الله ما شأنك ؟ فقال : إن الناقة اقتحمت بي ، فقد يحسن الرضا بذلك ممن يغمر في وقت تعب وقدمه من السفر ؛ فأما من يتخذ ذلك عادة ويحب التغميز ويستجلب به النوم ويساكنه حتى لا يفوته فلا يليق بحال الفقراء . وإن كان في الشرع جائز - وكان بعض الفقراء إذا استرسل في الغمر واستلذه واستدعاه يحتمل ؛ فيرى ذلك الاحتلام عقوبة استرساله في التغميز ، ولأرباب العزائم أمور لا يسعهم فيها الركون إلى الرخص .

ومن آداب الفقير إذا استقر وقعد بعد قدومه أن لا يبتدئ بالكلام دون أن يسئل ، ويستحب أن يمكث ثلاثة أيام لا يقصد زيارة أو مشهدا أو غير ذلك مما هو مقصوده من المدينة حتى يذهب عنه وعشاء السفر ويعود بباطنه إلى هيئته ، فقد يكون بالسفر وعوارضه تغير بباطنه وتكدر حتى تجتمع في الثلاثة أيام همته وينصلح بباطنه ويستعد للقاء المشايخ والزيارات بتقوية الباطن ؛ فإن بباطنه إذا كان منورا يستمر في حظه من الخير من كل شيخ وأخ يزوره ، وقد كنت أسمع شيخنا يوصي الأصحاب ويقول : لا تكلموا أهل هذا الطريق إلا في أوقائكم ، وهذا فيه فائدة كبيرة ، فإن نور الكلام على قدر نور القلب ، ونور السمع على قدر نور القلب ، فإذا دخل على شيخ أو أخ وزاره ينبغي أن يستأذنه إذا أراد الانصراف ؛ فقد روى عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا زار أحدكم أخاه جلس عنده فلا يقوم حتى يستأذنه ، وإن نوى أن يقيم أياما وفي وقته سعة ولنفسه إلى البطالة وترك العمل تشوف أن يطلب خدمة يقوم بها ، وإن كان دائم العمل لربه فكفى بالعبادة شغلا لأن الخدمة لأهل العبادة تقوم مقام العبادة ، ولا يخرج من الرباط إلا بإذن المقدم فيه ، ولا يفعل شيئا دون أن يأخذ رأيه فيه .

فهذه جمل أعمال يعتمدها الصوفية وأرباب الربط ، والله تعالى بفضلهم يوفيقا وتأييدا :

الباب التاسع عشر : في حال الصوفي المتسبب

اختلف أحوال الصوفية في الوقوف مع الأسباب والإعراض عن الأسباب ؛ فهم من كان على الفتوح لا يركن إلى معلوم ولا يتسبب بكسب ولا سؤال ؛ ومنهم من كان يكتسب ومنهم من كان يسأل في وقت فاقته ، ولم في كل ذلك أدب وحد يراعونه ولا يتعدونه ، وإذا كان الفقير يسوس نفسه بالعلم يأتيه التهم من الله تعالى في الذي يدخل فيه من سبب أو ترك سبب ، فلا ينبغي للفقير أن يسأل مهما أمكن ؛ فقد حث النبي عليه الصلاة والسلام على ترك السؤال بالترغيب (١٣ - ملحق كتاب الإحياء)

والترهيب ، فأما الترغيب فما روى ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يضمن لي واحدة أتسكفل له بالجنة » . قال ثوبان : قلت أنا قال « لأنسأل الناس شيئا » فكان ثوبان تسقط علاقة سوطه فلا يأمر أحدا يناوله وينزل هو ويأخذها . وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لأن يأخذ أحدكم جبلا فيحطط على ظهره فيأكل ويتصدق خيره من أن يأتي رجلا فيسأله أعطاه أو منعه » ، فإن اليد العليا خير من اليد السفلى . أخبرنا الشيخ الصالح أبو زرعة طاهر بن أبي الفضل الحافظ المقدسي قال : أخبرني والدي قال أخبرنا أبو محمد الصيرفي ببغداد قال أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن محمد قال حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد العزيز قال حدثنا علي بن الجعد قال حدثنا شعبة عن أبي حمزة قال سمعت هلال بن حصين قال « أتيت المدينة فنزلت دار أبي سعيد فضمني وإياها ، المجلس حدث أنه أصبح ذات يوم وليس عندهم طعام فأصبح وقد عصب على بطنه حجرا من الجوع ، فقالت لي امرأتى : أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أتاه فلان فأعطاه وأتاه فلان فأعطاه قال : فأتيته وقلت ألتس شيئا فذهبت أطلب فأتته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب ويقول « من يستغف يعفه الله ومن يستغنى يغنه الله ، ومن سألنا شيئا فوجدناه أعطيناه وإسطيناه ، ومن استغنى عنه واستغنى فهو أحب إلينا من سألنا » قال فرجعت وما سألته فزرقتي الله تعالى حتى ما أعلم أهل بيت من الأنصار أكثر أموالا منه .

وأما من حيث الترهيب والتحذير : فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يأتي الله ، وليس في وجهه مزعة لحم » وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس المسكين الذي ترده الأكلة والاكلتان والقررة والقرتان ، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس ولا يفطن بمكانه فيعطى » هذا هو حال الفقير الصادق ، والمتصوف المحقق لا يسأل الناس شيئا ، ومنهم من يلزم الأدب حتى يؤديه إلى حال يستحي من الله تعالى أن يسأله شيئا من أمر الدنيا إذا همت النفس بالسؤال ترده الهيبة ويرى الإقدام على السؤال جراءة فيعطيه الله تعالى عند ذلك من غير سؤال ؛ كما نقل عن إبراهيم الخليل عليه السلام : أنه جاء جبريل وهو في الهواء ، قبل أن يصل إلى النار فقال هل لك من حاجة ؟ فقال أما إليك فلا ، فقال له فسل ربك ، فقال حسبي من سؤالي عليه بحالي . وقد يضعف عن مثل هذا فيسأل الله عبودية ولا يرى سؤال المخلوقين ، فيسوق الله تعالى إليه القسم من غير سؤال مخلوق .

بلنا عن بعض الصالحين أنه كان يقول إذا وجد الفقير نفسه مطالبة بشيء لا تخلو تلك المطالبة إما أن تكون لرزق يريد الله أن يسوقه إليه ، فتنبه النفس له ، فقد تتطلع نفوس بعض الفقراء إلى ماسوف يحدث وكأنها تخبر بما يكون ، وإما أن يكون ذلك عقوبة لذنوب وجد منه ، فإذا وجد الفقير ذلك ، وألحت النفس بالمطالبة فليقم ويسبغ الوضوء ويصل ركعتين ويقول يارب إن كانت هذه المطالبة عقوبة ذنوب فاستغفرك وأتوب إليك ، وإن كانت لرزق قدرته لي فعجل وصوله إلي ، فإن الله تعالى يسوقه إليه إن كان رزقه وإلا فتذهب المطالبة عن باطنه ، فشأن الفقير أن ينزل حوائجه بالحق ، فإذا أن يرزقه الشيء أو الصبر أو يذهب ذلك عن قلبه ، فله سبحانه وتعالى أبواب من طريق الحكمة وأبواب من طريق القدرة ، فإن فتح بابا من طريق الحكمة وإلا فيفتح بابا من طريق القدرة ويأتيه الشيء بخرق العادة ، كما كان يأتي مريم عليها السلام (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله)

حكى عن بعض الفقراء قال جمعت ذات يوم وكان حالي أن لأسأل ، فدخلت بعض المحال ببغداد مجتازا متعرضا لعل الله تعالى يفتح لي على يد بعض عباده شيئا فلم يقدر ، فتمت جائعا فأتيت في منامي فقال لي إذ ذهاب إلى موضع كذا - وعين الموضع - قم خرقه زرقاء فيها قطيعات أخرجهما في مصالحك ، فن تجرد عن المخلوقين وتفرد بالله فقد تفرد بغنى قادر لا يعجزه شيء يفتح عليه من أبواب الحكمة والقدرة كيف شاء ، وأولى من سأل نفسه يسألها الصبر الجميل فإن الصادق يجيبه نفسه .

وحكى شيخنا رحمه الله تعالى أن ولده جاء إليه ذات يوم وقال له : أريد حبة ، قال : فقلت له : ما تفعل بالحبة ؟ فذكر شهوة يشتريها بالحبة ، ثم قال : عن إذ ذلك أذهب واستقرض الحبة ، قال : قلت نعم استقرضها من نفسك فهي أولى من أقرض . وقد انظم بعضهم هذا المعنى فقال :

إذا شئت أن تستقرض المال منقفا • على شهوات النفس في زمن العسر
فسل نفسك الإنفاق من كنز صبرها • عليك وإرفاقا إلى زمن اليسر
فإن فعلت كنت الغنى وإن أبت • فكل منوع بعدها واسع العذر

فإذا استنفد الفقير الجهد من نفسه وأشرف على الضعف وتحققت الضرورة وسأل مولاه ولم يقدر له بشيء ووقته يضيق عن الكسب من شغله بجاله ، فعند ذلك يقرع باب السبب ويسأل : فقد كان الصالحون يفعلون ذلك عند فاقتهم .
ونقل عن أبي سعيد الخراز أنه كان يمد يده عند الفاقة ويقول : ثم شيء .

ونقل عن أبي جعفر الحداد وكان أستاذا للجنيد أنه كان يخرج بين العشاءين ويسأل من باب أو بابين ، ويكون ذلك معلومه على قدر الحاجة بعد يوم أو يومين .

ونقل عن إبراهيم بن آدم أنه كان معتكفا بجامع البصرة مدة وكان يفطر في كل ثلاث ليال ليلة ، وليلة إفطاره يطلب من الأبواب .

ونقل عن سفيان الثوري أنه كان يسافر من الحجاز إلى صنعاء اليمن ويسأل في الطريق وقال : كنت أذكر لهم حديثا في الضيافة فيقدم لي الطعام فأتناول حاجتي وأترك ما يبق ، وقد ورد من جاع ولم يسأل فات دخل النار ، ومن عنده علم وله مع الله حال لا يبالي بمثل هذا بل يسأل بالعلم ويمسك عن السؤال بالعلم .

وحكى بعض مشايخنا عن شخص كان مصرا على المعاصي ، ثم انتهى وتاب وحسنت توبته وصار له حال مع الله تعالى قال : عزمت أن أحج مع القافلة ونويت أن لا أسأل أحدا شيئا وأكتفي بعلم الله بحالي ، قال : فبقيت أياما في الطريق ، ففتح الله على بالماء والزاد في وقت الحاجة ، ثم وقف الأمر ولم يفتح الله على بشيء ، فجمعت وعطشت حتى لم يبق لي طاقة ، فضعفت عن المشي وبقيت أنا آخر عن القافلة قليلا قليلا حتى مرت القافلة ، فقلت في نفسي : هذا الآن مني إلقاء النفس إلى التهلكة ، وقدمت الله من ذلك ، وهذه مسألة الاضطراب أسأل ، فله اهتمت بالسؤال انبعت من باطني لإنكار لهذه الحال وقلت : عزيمة عقدتها مع الله لا أنقضها ومان على الموت دون نقض عزمي ، فقصدت شجرة وقعدت في ظلها وطرحت رأسي استطرأحا للموت وذهبت القافلة ، فبينما أنا كذلك إذ جاءني شاب متقلد بسيف وحر كني ، فقصت وفي يده إداوة فيها ماء فقال لي : اشرب ؛ فشربت ثم قدم لي طعاما وقال : كل ، فأكلت ، ثم قال لي : أريد القافلة ؛ فقلت : من لي بالقافلة وقد عبرت ؟ فقال لي : قم ، وأخذ يدي ومشى معي خطوات ثم قال لي اجلس بالقافلة إليك تجيء ، فجلست ساعة فإذا أنا بالقافلة ورأى متوجهة إلى . هذا شأن من يعامل مولاه بالصدق .

وذكر الشيخ أبو طالب المكي رحمه الله : أن بعض الصوفية أول قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحل ما أكل المؤمن من كسب يده ، بأنه المسألة عند الفاقة ، وأنكر الشيخ أبو طالب هذا التأويل من هذا الصوفي ، وذكر أن جعفر الخلدی كان يحكى هذا التأويل عن شيخ من شيوخ الصوفية ، ووقع لي والله أعلم أن الشيخ الصوفي لم يرد بكسب اليد ما أنكر الشيخ أبو طالب منه ، وإنما أراد بكسب اليد رفعها إلى الله تعالى عند الحاجة ، فهو من أحل ما يأكله إذا أجاب الله سؤاله وساق إليه رزقه . وقال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام (رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير) قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : قال ذلك وإن خضرة البقل تتراءى في بطنه من الهزال ، وقال محمد الباقر رحمه الله قالها وإنه محتاج إلى شق تمر ، وروى عن مطرف أنه قال أما والله لو كان ضد نبي الله شيء ما أتبع المرأة ولكن حمله على ذلك الجهد ، وذكر الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي عن النضر الباذي أنه قال في قول (إني لما أنزلت إلي من خير فقير) لم يسأل الحكيم الخلق وإنما كان سؤاله من الحق ، ولم يسأل

غذاء النفس إنما أراد سكون القلب .

وقال أبو سعيد الخراز : الخلق مترددون بين ما لهم وبين ما لا لهم ، من نظر إلى ماله تكلم بلسان الفقر ، ومن شاهد ما إليه تكلم بلسان الخيال والفخر ، ألا ترى حال الكليم عليه السلام لما شاهد خواص ما خاطبه به الحق كيف قال : أرى أنظر إليك ؟ ولما نظر إلى نفسه كيف أظهر الفقر وقال : إني لما أنزلت إلى من خير فقير ؟ وقال ابن عطاء نظر من العبودية إلى الربوبية تخشع وخضع ، وتكلم بلسان الافتقار بما ورد على سره من الأنوار ، افتقار العبد إلى مولاه في جميع أحواله ، لافتقار سؤال وطلب . وقال الحسين فقير لما خصصني من علم اليقين أن ترقيني إلى عين اليقين وحقه ، ووقع والله أعلم في قوله (لما أنزلت إلى من خير فقير) أن الإنزال مشعر ببعد رتبته عن حقيقة القرب فيكون الإنزال عين الفقر فما قنع بالمنزل وأراد قرب المنزل ، ومن صح فقره ففقره في أمر آخرته كفقره في أمر دنياه ، ورجوعه إليه في الدارين وإياه يسأل حوائج المنزلين ، وتساوى عنده الحاجتان فماله مع غير الله شغل في الدارين .

الباب العشرون : في ذكر من يأكل من الفتوح

إذا كل شغل الصوفي بالله وكل زهد له كمال تقواه بحكم الوقت عليه يترك التسبب وينكشف له صريح التوحيد وصحة الكفالة من الله الكريم ، فيزول عن باطنه الاهتمام بالأقسام ويكون مقدمة هذا أن يفتح الله باباً من التعريف بطريق المقابلة على كل فعل يصدر منه حتى لو جرى عليه يسير من ذنب بحسب حاله أو الذنب مطلقاً بما هو منهى عنه في الشرع يجد غيب ذلك في وقته أو يومه ، كان يقول بعضهم إني لأعرف ذنبي في سوء خلق غلامي ، وقيل إن بعض الصوفية قرض الفار خفه فلما رآه تألم وقال .

لو كنت من مازن لم تستبح إلي * بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

إشارة منه إلى أن الداخل عليه مقابلة له على شيء استوجب به ذلك ، فلا تزال به المقابلات متضمنة التعريفات الإلهية حتى يتحصن بصدق المحاسبة وصفاء المراقبة عن تضييع حقوق العبودية ومخالفة حكم الوقت ، ويتجرد له حكم فعل الله وتمحى عنه أفعال غير الله فيرى المعطى والمانع هو الله سبحانه ذو قوا وحالاتها وإيماناً ، ثم يتدارك الحق تعالى بالمعونة وبوفقه على صريح التوحيد وتجريد فعل الله تعالى ، كما حكى عن بعضهم أنه خطر له خاطر الاهتمام بالرزق فخرج إلى بعض الصحارى فرأى قنبرة عمياء عرجاء ضعيفة فوق متعرجاً منها متفكراً فيما تأكل مع عجزها عن الطيران والمشي والرؤية ، فبينما هو كذلك إذ انشقت الأرض وخرجت سكرجتان في إحداهما سمسم نقي وفي الأخرى ماء صافي فأكلت من السمسم وشربت من الماء ثم انشقت الأرض وغابت السكرجتان ، قال فلما رأيت ذلك سقطت عن قلبي الاهتمام بالرزق فإذا أوقف الحق عبده في هذا المقام يزول عن باطنه الاهتمام بالأقسام ويرى الدخول في التسبب والتكسب بالسؤال وغيره رتبة العوام ويصير مسلوب الاختيار غير متطلع إلى الأغيار ناظراً إلى فعل الله تعالى منتظراً لأمر الله فتساق إليه الأقسام ويفتح عليه باب الإنعام ، ويكون بدوام ملاحظته لفعل الله وترصده ما يحدث من أمر الله تعالى مكاشفاً له تجليات من الله تعالى بطريق الأفعال ، والتجلى بطريق الأفعال رتبة من القرب ومنه يترقى إلى التجلى بطريق الصفات ، ومن ذلك يترقى إلى تجلى الذات والإشارة في هذه التجليات إلى رتب في اليقين ومقامات في التوحيد شيء فوق شيء وشيء أصنى من شيء ، فالتجلى بطريق الأفعال يحدث صفواً الرضا والتسليم ، والتجلى بطريق الصفات يكسب الهيبة والآنس ، والتجلى بالذات يكسب الفناء والبقاء ، وقد يسمى ترك الاختيار والوقوف مع فعل الله فناء يعنون به فناء الإرادة ، والهووى والإرادة ألقاف أقسام الهوى ، وهذا الفناء هو الفناء الظاهر ، فأما الفناء الباطن وهو محو آثار الوجود عند إيمان نور الشهود يكون في تجلى الذات وهو أكل أقسام اليقين في الدنيا ، فأما تجلى حكم الذات فلا يكون إلا في الآخرة وهو المقام الذى حظى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ومنع عنه موسى

بلن تراني ، فليعلم أن قولنا في التجلي إشارة إلى رتب الحظ من اليقين ورؤية البصيرة فإذا وصل العبد إلى مبادئ أقسام التجلي وهو مطالعة الفعل الإلهي مجردا عن فعل سواء يكون تناوله الأقسام من الفتوح . روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من وجه إليه شيء من هذا الرزق من غير مسئلة ولا إشراف فليأخذه وليوسع به في رزقه فإن كان عنده غنى فليدفعه إلى من هو أحوج منه ، وفي هذا دلالة ظاهرة على أن العبد يجوز أن يأخذ زيادة على حاجته بنية صرفه إلى غيره ، وكيف لا يأخذ وهو يرى فعل الله تعالى ؟ ثم إذا أخذ منهم من يخرج به إلى المحتاج ومنهم من يقف في الإخراج أيضا حتى يرد عليه من الله علم خاص ليسكون أخذه بالحق وإخراجه بالحق .

أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر قال : أخبرنا والدي الحافظ أبو الفضل المقدسي قال : أخبرنا أبو اسحق بن سعيد الحبال قال : أخبرنا محمد بن عبد الرحمن بن سعيد قال : أخبرنا أبو طاهر أحمد بن محمد بن عمرو قال : أخبرنا يونس ابن عبد الأعلى قال حدثنا ابن وهب قال : حدثنا عمرو بن الحارث عن ابن شهاب عن السائب بن يزيد عن حبيب بن عبد العزى عن عبيد الله السعدي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيني العطاء فأقول له أعطه يا رسول الله من هو أفقر مني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خذ فتموله أو تصدق به وما جارك من هذا المال وأنت غير مقشرف ولا سائل نخذه وما لا فلا تتبعه نفسك ، قال سالم : فن أجل ذلك كان ابن عمر لا يسأل أحدا شيئا ولا يرد شيئا أعطيه . درج رسول الله صلى الله عليه وسلم الأصحاب بأوامره إلى رؤية فعل الله تعالى والخروج من تدبير النفس إلى حسن تدبير الله تعالى .

سئل سهل بن عبد الله التستري عن علم الحال قال : هو ترك التدبير ولو كان هذا في واحد لكان من أوتاد الأرض وروى زيد بن خالد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من جاءه معروف من أخيه من غير مسألة ولا إشراف نفس فليقبله فإنما هو شيء من رزق الله تعالى ساقه الله إليه .

وهذا العبد الواقف مع الله تعالى في قبول ماساق الحق آمن ما يخشى عليه ، إنما يخشى على من يرد ، لأن من رد لا يأمن من دخول النفس عليه أن يرى بعين الزهد ، في أخذه إسقاط لظفر الخلق تحققا بالصدق والإخلاص ، وفي إخراجه إلى الغير لإثبات حقيقته ، فلا يزال في كلا الحالين زاهدا يراه الغير بعين الرغبة لقلعة العلم بحاله ، وفي هذا المقام يتحقق الزهد في الزهد . ومن أهل الفتوح من يعلم دخول الفتوح عليه ، ومنهم من لا يعلم دخول الفتوح عليه . فمنهم من لا يتناول من الفتوح إلا إذا تقدمه علم بتعريف من الله إياه . ومنهم من يأخذ غير متطلع إلى تقدم العلم حيث تجرد له الفعل ، ومن لا ينتظر تقدم العلم فوق من ينتظر تقدم العلم لتقام صحبته مع الله وانسلاخه من إرادته وعلم حاله في ترك الاختيار ومنهم من يدخل الفتوح عليه لا بتقدم العلم ولا رؤية تجرد الفعل من الله ، ولكن رزق شربا من المحبة بطريق رؤية النعمة ، وقد يتكدر شرب هذا بتغير موهود النعمة ، وهذا حال ضعيف بالإضافة إلى الحالين الأولين لأنه علة في المحبة ووليحة في الصدق عند الصديقين . وقد ينتظر صاحب الفتوح العلم في الإخراج أيضا كما ينتظر في الأخذ لأن النفس تظهر في الإخراج كما تظهر في الأخذ . وأتم من هذا من يكون في إخراجه مختارا أو في أخذه مختارا بعد تحققه بصحة التصرف فإن انتظار العلم إنما كان لموضع اتهام النفس وهو بقية هوى موجود فإذا زال الاتهام بوجود صريح العلم بأخذ غير محتاج إلى علم متحدد ويخرج كذلك ، وهذه حال من تحقق بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه : فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ، في يسمع وبى يبصر ، وبى ينطق ، الحديث فلما صح تعرفه صح تصرفه ، وهذا أعز في الأحوال من الكبريت الأحمر . وكان شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي رحمه الله يحكي عن الشيخ حماد الدباس أنه كان يقول : أنا لا أكل إلا من طعام الفضل فكان يرى الشخص في المنام أن يحمل إليه شيئا وقد كان يعين للرأي في المنام أن أحمل إلى حماد كذا وكذا . وقبل أنه بقى زمانا يرى هو في واقعة أو منامه إنك أحلت على فلان بكذا وكذا . وحكى عنه أنه كان يقول : كل جسم تربى بطعام الفضل لا يتسلط عليه البلاء . ويعنى بطعام الفضل ما شهد له صحة الحال من فتوح الحق ومن كانت هذه حاله فهو غنى بالله .

قال الواسطي : الافتقار إلى الله أعلى درجة المريد والاستغناء بالله أعلى درجة الصديقين . وقال أبو سعيد الخزاز :
 المعارف تدبره فني في تدبير الحق فالواقف مع الفتوح واقف مع الله ناظر إلى الله ، وأحسن ما حكى في هذا : أن
 بعضهم رأى النورى يمد يده ويسأل الناس ؛ قال : فاستعظمت ذلك منه واستعجبته له فأبته الجنيد وأخبرته فقال لى
 لا يعظم هذا عليك فإن النورى لم يسأل الناس إلا ليعطيهم سؤلهم فى الآخرة فيؤجرون من حيث لا يضره وقول
 الجنيد ليعطيهم كقول بعضهم اليد العليا يد الآخذ لأنه يعطى الثواب ، قال : ثم قال الجنيد هات الميزان فوزن مائة درهم
 ثم قبض قبضة فألقاها على المائة ثم قال احملها إليه فقلت فى نفسى إنما يزن ليعرف مقدار ما فكيف خلط المجهول
 بالموزون وهو رجل حكيم واستحييت أن أسأله فذهبت بالصرة إلى النورى فقال : هات الميزان فوزن مائة درهم
 وقال : ردها وقل له أنا لأقبل منك شيئا وأخذ ما زاد على المائة قال : فزاد تعجبي فسألته عن ذلك ، فقال : الجنيد
 رجل حكيم يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه وزن المائة لنفسه طلبا للثواب وطرح عليها قبضة بلا وزن لله فأخذت ما كان
 لله ورددت ما جعله لنفسه ، قال : فرددتها على الجنيد فبكى وقال : أخذ ماله ورد مالنا ، ومن لطائف ما سمعت من
 أصحاب شيخنا أنه قال ذات يوم لأصحابه : نحن محتاجون إلى شيء من المعلوم فارجعوا إلى خلواتكم واسألوا الله
 تعالى وما يفتح الله تعالى لكم اثنونى به ففعلوا ثم جاءه من بينهم شخص يعرف باسمعيل البطايعى ومعه كاغد عليه
 ثلاثون دائرة وقال هذا الذى فتح الله لى فى واقعتى فأخذ الشيخ الكاغد فلم يكن إلا ساعة فإذا بشخص دخل ومعه
 ذهب قدمه بين يدي الشيخ ففتح القرطاس وإذا هو ثلاثون صحيفة فترك كل صحيفة على دائرة وقال : هذا فتوح
 الشيخ إسماعيل أو كلاما هذا معناه . وسمعت الشيخ عبد القادر رحمه الله بعث إلى شخص وقان : لفلان طعام وذوب
 اثنى من ذلك بكذا ذوبا وكذا طعاما ، فقال الرجل : كيف أنصرف فى وديعة عندى ولو استفتيتك ما أفيتيتنى
 بالتصرف ؟ فألزمه الشيخ بذلك فأحسن الظن بالشيخ وجاء إليه بالذى طلب ، فلما وقع التصرف منه جاءه مكتوب
 من صاحب الوديعة وهو غائب فى بعض نواحي العراق أن احمل إلى الشيخ عبد القادر كذا وكذا وهو القدر الذى
 عينه الشيخ عبد القادر ، فعاتبه الشيخ بعد ذلك على توقيفه وقال ظننت بالفقراء أن إشاراتهم تكون على غير صحة وعلم
 فالعبد إذا صح مع الله تعالى وأفى هواه مطلب بارضا الله تعالى يرفع الله عن باطنه هموم الدنيا ويجعل الغنى فى قلبه ويفتح
 عايه أبواب الرفق ، وكل الهموم المتسلطة على بعض الفقراء لكون قلوبهم ما استكملت الشغل بالله والاهتمام برعاية
 حقائق العبودية ، فعلى قدر ما خلعت من الهم بالله ابتليت بهم الدنيا ولوامتلات من هم الله ما عذبت بهموم الدنيا
 وقتعت وارتقت ، روى أن عوف بن عبد الله المسعودى كان له ثلثمائة وستون صديقا وكان يكون عند كل واحد يوما ،
 وآخر كان له ثلاثون صديقا يكون عند كل واحد يوما ، وآخر كان له سبعة إخوان يكون كل يوم من الأسبوع عند
 واحد ؛ فكان إخوانهم معلومهم والمعلوم إذا أقامه الحق للناظر إلى الله السكامل توحيد يكون نعمة هنيئة . جاء
 رجل إلى الشيخ أبي السعود رحمه الله - وكان من أرباب الأحوال السنية والواقفين فى الأشياء مع فعل الله تعالى
 متمكنا من حاله تاركا لاختياره ؛ ولعله سبق كثيرا من المتقدمين فى تحقيق ترك الاختيار ، رأينا منه وشاهدنا أحوالا
 صحيحة عن قوة وتمكين - فقال له الرجل أريد أن أعين لك شيئا كل يوم من الخبز أحمله إليك ولكى قلت
 الصوفية يقولون العلوم شؤم قال الشيخ نحن مانقول المعلوم شؤم فإن الحق يصنى لنا وفعله نرى فكل ما يقسم لنا
 نراه مباركا ولا نراه شؤما . أخبرنا أبو زرعة إجازة قال أنبأنا أبو بكر بن أحمد بن خلف الشيرازى إجازة قال
 أخبرنا أبو عبد الرحمن السلى قال سمعت أبا بكر بن شاذان قال سمعت أبا بكر الكتانى قال كنت أما وعمرو المسكى
 وعياش بن المهدي فسطحنا ثلاثين سنة نصلى الغداة على طهر العصر ، وكنا قدودا بمكة على التجريد ما لنا على الأرض
 ما يساوى فلسا ؛ وربما كان يصحبنا الجوع يوما ويومين وثلاثة وأربعة وخمسة ولا نسأل أحدا فإن ظهر لنا شيء
 وعرفنا وجهه من غير سؤال ولا تعريض قبلناه وأكلناه وإلا طويئنا ؛ فإذا اشتد بنا الأمر وخفنا على أنفسنا التقصصان
 فى الفرائض قصدنا أبا سعيد الخزاز فيتخذ لنا ألوانا من الطعام ولا نقصد غيره ولا نتبسط إلا إليه لما نعرف من تقواه

وورعه ، وقيل لأبي يزيد : ما نراك تشتغل بكسب فن أين معاشك ؟ فقال : مولاي يرزق الكلب والخنزير تراه لا يرزق أبا يزيد ؟ قال السلمي : سمعت أبا عبد الله الرازي يقول سمعت مظفرا القوميسي يقول : الفقير الذي لا يكون له إله الله حاجة ، وقيل لبعضهم ما الفقر ؟ قال : وقوف الحاجة على القلب ومحوها من كل أحد سوى الرب .

وقال بعضهم : أخذ الفقير الصدقة بمن يعطيه لا بمن تصل إليه على يده ، ومن قبل من الوسائط فهو المترسم بالفقر مع دناءة همته ، أنبأنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي قال : أخبرنا عصام الدين أبو حفص عمر بن أحمد بن منصور الصفار قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازي قال أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي قال سمعت أحمد بن علي بن جعفر يقول : سمعت أن أبا سليمان الداراني كان يقول : آخر أقدام الزاهدين أول أقدام المتوكلين ، روى أن بعض العارفين زهد فبلغ من زهده أن فارق الناس وخرج من الأمصار وقال : لا أسأل أحدا شيئا حتى يأتي رزقي فأخذ يسيح فأقام في سفح جبل سبعا لم يأت به شيء حتى كاد أن يتلف فقال : يارب إن أحببتي فأنتي رزقي الذي قسمت لي وإلا فأقبضني إليك فألهمه الله تعالى في قلبه وعزتي وجلالي لا أرزقك حتى تدخل الأمصار وتقيم بين الناس ؛ فدخل المدينة وأقام بين ظهري الناس فجاءه هذا بطعام وهذا بشراب فأكل وشرب فأوجس في نفسه من ذلك فسمع هاتفا أردت أن تبطل حكمته بزهدك في الدنيا ، أما علمت أن يرزق العباد بأيدي العباد أحب إليه من أن يرزقهم بأيدي القدرة فالواقف مع الفتوح استوى عند أيدي الآدميين وأيدي الملائكة واستوى عنده القدرة والحكمة وطلب الفقار والتوصل إلى قطع الأسباب من الارتهاق برؤية الأسباب وإذا صح الترحيد تلاشت الأسباب في عين الإنسان أخبرنا شيخنا قال أخبرنا أبو حفص عمر قال أخبرنا أحمد بن خلف قال أخبرنا أبو عبد الرحمن قال أخبرنا محمد بن أحمد بن حمدان العكبري قال سمعت أحمد بن محمود بن اليسري يقول سمعت محمدا الإسكافي يقول سمعت يحيى بن معاذ الرازي يقول : من استفتح باب المعاش بغير مفايض الأقدار وكل إلى المخلوقين ، قال بعض المنقطعين كنت ذا صنعة جليلة فأريد مني تركها لحاك في صدري من أين المعاش ؟ فهتف بي هاتف لا أراه تنقطع إلى وتهمني في رزقك على أن أخدمك ولما من أوليائي أو أسخر لك منافقا من أعدائي ، فلما صح حال الصوفي وانقطعت أطاعه وسكنت عن كل تشوف وتطلع خدمته الدنيا ، وصلحت له الدنيا خادمة وما رضىها خادمة ، فصاحب الفتوح يرى حركة النفس بالتمشوق جنانية وذنبا .

روى أن أحمد بن حنبل خرج ذات يوم إلى شارع باب الشام فاشترى دقيقا ولم يكن في ذلك الموضوع من يحمله فوافي أيوب الحال لحمله ودفع إليه أحمد أجرته فلما دخل الدار بعد إذنه له اتفق أن أهل الدار قد خبزوا ما كان عندهم من الدقيق وتركوا الخبز على السرير ينشف فرآه أيوب وكان يصوم الدهر ، فقال أحمد لابنه صالح ادفع إلى أيوب من الخبز فدفع له رغيفين فردهما ، قال أحمد ضعهما ثم صبر قليلا ثم قال خذهما فألقه بهما فلققه فأخذهما فرجع صالح متعجبا فقال له أحمد عجبت من رده وأخذه ؟ قال نعم ، قال هذا رجل صالح فرأى الخبز فاستشرفت نفسه إليه فلما أعطيناه مع الاستشراف رده ثم أيس فردناه إليه بعد الإياس فقبل هذا حال أرباب الصدق إن سألوا سألوا بعلم وإن أمسكوا عن السؤال أمسكوا بحال ، وإن قبلوا قبلوا بعلم فمن لم يرزق حال الفتوح فله حال السؤال والكسب بشرط العلم فأما السائل مستكثرا فوق الحاجة لاني وقت الضرورة فليس من الصوفية بشيء سمع عمر رضي الله عنه سائلا يسأل فقال لمن عنده ألم أفل لك عيش السائل ؟ فقال قد عشيته ؛ فنظر عمر فإذا تحت إبطه محلاة مملوءة خبزا ؛ فقال عمر لك عيال ؟ فقال لا ، فقال عمر لست بسائل ولكنك تاجر ، ثم نثر محلاته بين يدي أهل الصدقة وضربه بالدرة وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال إن الله تعالى في خلقه مثوبات فقر وعقوبات فقر ، فمن علامة الفقر إذا كان مشوبة أن يحسن خلقه ويطيع ربه ولا يشكو حاله ويشكر الله تعالى على فقره ، ومن علامة الفقر إذا كان عقوبة أن يسوء خلقه ويمص ربه ويكثر الشكاية ويتسخط للقضاء لحال الصوفية حسن الأدب في السؤال ، والفتوح والصدق مع الله على كل حال كيف تقلب .

الباب الحادى والعشرون

في شرح حال المتجرد والمتأهل من الصوفية وصحة مقاصدهم

الصوفى يتزوج لله كما يتجرد لله ، فلتجرده مقصود وأوان ، ولتأهله مقصود وأوان ، والصادق يعلم أوان التجرد والتأهل لأن الطبع الجروح للصوفى ملجم بلجام العلم . مهما يصلح له التجرد لا يستعجله الطبع إلى الزواج ولا يقدم على الزواج إلا إذا انصلحت النفس واستحقت إدخال الرفق عليها ؛ وذلك إذا صارت متقادة مطراة مجيبة إلى ما يرادها بمثابة الطفل الذى يتعاهد بما يروق له ويمنع عما يضره . فإذا صارت النفس محكومة مطواعة فقد قامت إلى أسرار الله وتنصلت عن مشاحة القلب فيصلح بينهما بالعدل وينظر في أمرهما بالقسط . ومن صبر من الصوفية على العزوبة هذا الصبر إلى حين بلوغ الكتاب أجله ينتخب له الزوجة اتخاها وبهي الله له أعوانا وأسبابا وينعم برفيق يدخل عليه ورزق يساق إليه ومتى استعجل للمريد واستفزه الطبع وغارمه الجهل بثوران دخان الشهوة المطفئة لشعاع العلم وانحط من أوج العزيمة الذى هو قضية حاله وموجب إرادته وشرطة صدق طلبه إلى حضيض الرخصة التى هى رحمة من الله تعالى لعامة خلقه يحكم عليه بالنقصان ويشهد له بالخسران ومثل هذا الاستعجال هو حضيض الرجال . قال سهل بن عبد الله التستري : إذا كان للمريد مال يتوقع به زيادة فدخل عليه الابتلاء فرجوعه في الابتلاء إلى حال دون ذلك نقصان وحدث . وسمعت بعض الفقهاء ، وقد قيل له : لم لا تزوج ؟ فقال : المرأة لا تصلح إلا للرجال وأنا ما بلغت مبلغ الرجال فكيف أتزوج ؟ فالصادقون لهم أوان بلوغ عنده يتزوجون .

وقد تعارضت الاخبار وتماثلت الآثار في فضيلة التجريد والتزويج وتنوع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك لتنوع الأحوال ، فمنهم من فضيلته في التجريد ، ومنهم من فضيلته في التأهل ، وكل هذا التعارض في حق من نار توفاه برد وسلام لكمال تقواه وقهره هواه ، وإلا ففي غير هذا الرجل الذى يحب عليه الفتنة يحجب النكاح في حال التوقان المفرط ويكون الخلاف بين الأئمة في غير التائق فالصوفى إذا صار متأهلا يتعين على الإخراخ معارته بالإيثار ومساحته في الاستكثار إذا رأى ضعيف الحال قاصرا عن رتبة الرجال كما وصفنا من صبر حتى ظفر لمسا بلغ الكتاب أجله ، أخبرنا أبو زرعه عن والده أبي الفضل المقدسى الحافظ قال : أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد الخطيب قال أخبرنا أبو الحسين محمد بن عبد الله بن أخى ميمى قال أخبرنا أبو القاسم عبيد الله بن محمد بن عبد العزيز ، قال : حدثنا محمد بن هرون قال : أنبأنا المغيرة قال حدثنا صفوان بن عمرو قال حدثنا عبد الرحمن بن جبير عن أبيه عن عوف بن مالك قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاءه في يومه فأعطى المتأهل حظين والعزب حظا واحدا ؛ فدعينا وكنت ادعى قبل عمار بن ياسر فأعطاني حظين ، وأعطاه حظا واحدا فسخط حتى عرف ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجهه ومن حضره ، فبقيت معه سلسلة من ذهب فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفدها بطرف عصاه وتسقط وهو يقول : كيف أنتم يوم يكثر لكم من هذا ؟ ، فلم يجبه أحد ، فقال عمار ؛ ودنا يارسول الله لو قد أكثر لنا من هذا ؛ فالتجرد عن الأزواج والأولاد اعون على الوقت للفقير وأجمع لهمه والأذلميشه ويصلح للفقير في ابتداء أمره قطع العلائق ومحو العوائق والتقل في الأسفار وركوب الأخطار والتجرد عن الأسباب والخروج عن كل ما يكون حجابا ، والزواج انحطاط من العزيمة إلى الرخص ورجوع من التروح إلى النقص وتقييد بالأولاد والأزواج ودوران حول مظان الاعوجاج والتفات إلى الدنيا بعد الزهادة والنعطاف على الهوى بمقتضى الطبيعة والعادة ، قال أبو سليمان الداراني : ثلاث من طلبن فقد ركن إلى الدنيا ، من طلب معاشا أو تزوج امرأة أو كتب الحديث ، وقال : ما رأيت أحدا من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته . أخبرنا الشيخ طاهر قال أخبرنا والدى أبو الفضل قال أخبرنا محمد بن إسماعيل المقرئ قال أخبرنا أحمد بن الحسن قال أخبرنا حاجب الطوسي قال حدثنا عبد الرحيم قال حدثنا الفزارى عن سليمان التيمى عن أبي عثمان النهدي عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم ، ما تركت بعدى فتنة أضرب على الرجال من النساء ، وروى رجاء بن حيوة عن معاذ بن جبل ، قال : ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر وإن أخوف ما أخاف عليكم فتنة النساء إذا تسورن بالذهب ولبسن ربط الشام وعصب الين وأتعبن الغنى وكلفن الفقير ما لا يجد ، وقال بعض الحكماء معالجة العزوبة خير من معالجة النساء ، وسئل سهل بن عبد الله عن النساء فقال : الصبر عنهن خير من الصبر عليهن ، والصبر عليهن خير من الصبر على النار . وقيل في تفسير قوله تعالى ﴿ خلق الإنسان ضعيفا ﴾ لأنه لا يصبر عن النساء وقيل في قوله تعالى ﴿ ربنا ولا نمحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ الغلبة .

فإن قدر الفقير على مقاومة النفس ورزق العلم الوافر بحسن المعاملة في معالجة النفس وصبر عنهن فقد حاز الفضل واستعمل العقل ، واهتدى إلى الأمر السهل ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خيركم بعد المائتين رجل خفيف الحاذ ، قيل يا رسول الله وما خفيف الحاذ ؟ قال : الذى لا أهل له ولا ولد ، وقال بعض الفقهاء - لما قيل له تزوج - أنا إلى أن أطلق نفسى أحوج منى إلى الزوج ، وقيل لبشر بن الحارث : إن الناس يتكلمون فيك فقال : ما يقولون ؟ قيل : يقولون إنه تارك للسنة - يعنى النكاح - فقال : قولوا لهم أنا مشغول بالفرض عن السنة . وكان يقول : لو كنت أعول دجاجة خفت أن أكون جلادا على الجسر .

والصوفى مبتلى بالنفس ومطالبها وهو فى شغل شاغل عن نفسه ، فإذا انضاف إلى مطالبات نفسه مطالبات زوجته يضعف طلبه وتكلى إرادته وتفرغ عزمته . والنفس إذا أطعمت طمعت ، وإذا أقنعت قنعت ، فيستعين الشاب الطالب على حسم مراد خاطر النكاح بإدامة الصوم ، فإن للصوم أثرا ظاهرا فى قمع النفس وقهرها ، وقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مر بجماعة من الشباب وهم يرفعون الحجارة فقال : يا معشر الشباب : من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فليصم فإن الصوم له وجاء ، أصل الوجاء رض الخصيتين ، كانت العرب تجم الفحل من النعم لتذهب حرلته ويسمن ، ومنه الحديث : ضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين موقوءين ، وقد قيل هى النفس إن لم تشغلها شغلتك ، فإذا أدام الشاب المريد العمل وأدب نفسه فى العبادة تقل عليه خواطر النفس ، وأيضا شغله بالعبادة يشعر له حلاوة المعاملة ، ومحبة الإكثار منه ، ويفتح عاينه باب السهولة والعيش فى العمل فيغار على حاله ووقته أن يتسكدر بهم الزوجة

ومن حسن أدب المريد فى عزوبته أن لا يمكنه خواطر النساء من باطنه ، وكلما خطر له خاطر النساء والشهوة يفر إلى الله تعالى بحسن الإنابة فيتداركه الله تعالى حينئذ بقوة العزيمة ويؤيده بمراغمة النفس ؛ بل ينعكس على نفسه نور قلبه ثوابا لحسن إنابته فتسكن النفس عن المطالبة ، ثم يعرض على نفسه ما يدخل عليه بالنكاح من الدخول فى المداخل المذمومة المؤدية إلى الذل والهوان ، وأخذ الشئ من غير وجهه ، وما يتوقع من القواطع بسبب التفات الخاطر إلى ضبط المرأة وحراستها والكلف التى لا تنحصر . وقد سئل عبد الله بن عمر عن جهد البلاء فقال : كثرة العيال وقلة المال وقد قيل كثرة العيال أحد الفقرين ، وقلة العيال أحد اليسارين . وكان إبراهيم بن آدم يقول : من تعود أخاذ النساء لا يفلح ولا شك أن المرأة تدعو إلى الرفاهية والدعة ، وتمنع عن كثرة الاشتغال بالله وقيام الليل وصيام النهار ويتسلط على الباطن خوف الفقر ومحبة الادخار ، وكل هذا بعيد عن المتجرد ، وقد ورد : إذا كان بعد المائتين أبيحت العزوبة لأمى ، فإن توالى على الفقير خواطر النكاح ، وزاحمت باطنه سيافى الصلاة والاذكار والتلاوة فليستعن بالله أولا ثم بالمشايخ والإخوان ، ويشرح الحال لهم ويسألهم مسألة الله له فى حسن الاختيار ، ويظوف على الأحياء والأموات والمساجد والمشاهد ويستعظم الأمر ولا يدخل فيه بقلة الاكثرات فإنه باب فتنة كبيرة وخطر عظيم وقد قال الله تعالى ﴿ إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ﴾ ويكثر الضراعة إلى الله تعالى ويكثر البكاء بين يديه فى الخلوات ويكرر الاستخارة ، وإن رزق القوة والصبر حتى يستبين له من فضل الله الخيرة فى ذلك فهو السكال والتسام ؛ فقد يكشف الله تعالى للصادق ذلك منعا أو إطلاقا فى منابه ، أو يقظته ، أو على لسان من يشئ إلى دينه ، وحاله أنه إذا

أشار لايشير إلا على بصيرة ، وإذا حكم لا يحكم إلا بحق فعند ذلك يكون تزوجه مدبرا معانا فيه . وسمعنا أن الشيخ عبد القادر الجيلي قال له بعض الصالحين : لم تزوجت ؟ فقال : ما تزوجت حتى قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : تزوج ؛ فقال له ذلك الرجل : الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر بالرخص وطريق القوم التلزم بالعزيمه . فلا أعلم ما قال الشيخ في جوابه ولكني أقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بالرخصة وأمره على لسان الشرع ، فأما من التجأ إلى الله تعالى وافتقر إليه واستخاره فيكاشفه الله بتدبيره إياه في منامه ، وأمره هذا لا يكون أمر رخصة بل هو أمر يتبعه أرباب العزيمة لأنه من علم الحال لا من علم الحكم ، ويدل على صحة ما وقع لي - ما نقل عنه - أنه قال : كنت أريد الزوجة مدة من الزمان ولا أجتري على الزواج خوفا من تكدير الوقت فلما صبرت إلى أن بلغ الكتاب أجله ساق الله لي أربع زوجات ما بين إلا من تتفق على إرادته ورغبة ، فهذه ثمرة الصبر الجليل الكامل فإذا صبر الفقير وطلب الفرج من الله يأتيه الفرج والمخرج (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) فإذا تزوج العقير بعد الاستقصاء والإكثار من الضراعة والدعاء وورد عليه وورد من الله تعالى بإذن فيه فهو الغاية والنهاية . وإن عجز عن الصبر إلى ورود الإذن واستنفذ جهده في الدعاء والضراعة فقد يكون ذلك حظه من الله تعالى ، ويعان عليه لحسن نيته وصدق مقصده ، وحسن رجائه واعتماده على ربه ، وقد نقل عن عبدالله بن عباس أنه قال : لا يتم لسك الشاب حتى يتزوج . ونقل عن شيخ من مشايخ خراسان أنه كان يكثر الزواج حتى لم يكن يخلو عن زوجتين أو ثلاث ؛ فعوتب في ذلك فقال : هل يعرف أحد منكم أنه جلس بين يدي الله تعالى جلسة أو وقف وقفة في معاملته غلط على قلبه خاطر شهوة ؟ فقالوا : قد يصيبنا ذلك ، فقال : لورضيت في عمري كله بمثل حالكم في وقت واحد ما تزوجت قط ، ولكني ما خطر على قلبي خاطر شهوة قط شغلني عن حاله إلا نفذته لاستريح منه وأرجع إلى شغلي ، ثم قال منذ أربعين سنة ما خطر على قلبي خاطر معصية ، فالصادقون ما دخلوا في النكاح إلا على بصيرة وقصدوا حسم مواد النفس وقد يكون للأقوياء والعلماء الراسخين في العلم أحوال في دخولهم في النكاح تختص بهم وذلك أنهم بعد طول المجاهدات والمراقبات والرياضات تطمئن نفوسهم وتقبل قلوبهم ، وللقلوب إقبال وإدبار

يقول بعضهم : إن للقلوب إقبالا وإدبارا ، فإذا أدبرت ررحت بالإرفاق ، وإذا أقبلت ردت إلى الميثاق فتبقى قلوبهم دائمة الإقبال إلا اليسير . ولا يدوم إقبالها إلا لطمأنينة النفوس وكفها عن المنازعة ، وترك التشبث في القلوب فإذا اطمأنت النفوس واستقرت عن طيشها ونفورها وشراستها توفرت عليها حقوقها ، ورهبها يصير من حقوقها حظوظها . لأن في أداء الحق إقتناعا ، وفي أخذ الحظ اتساعا ، وهذا من دقيق علم الصوفية ، فإنهم يتسعون بالنكاح المباح لإصلا إلى النفس حظوظها لأنها ما زالت تخالف هواها حتى صار داؤها ودواءها ، وصارت الشهوات المباحة واللذات المشروعة لا تضرها ولا تفتقر عليها عزائمها ، بل كلما وصلت النفوس الزكية إلى حظوظها ازداد القلب انشراحا وانفساحا ، ويصير بين القلب والنفس موافقة يعطف أحدهما على الآخر ويزداد كل واحد منهما بما يدخل على الآخر من الحظ ، كلما أخذ القلب حظه من الله خلع على النفس خلع الطمأنينة فيكون مزبد السكينة للقلب مزبد الطمأنينة للنفس وينشد :

إن السماء إذا اكتست كست الثرى * حملا يدبجها الغمام الراح

وكما أخذت النفس حظها تروح القلب تروح الجار المشفق براحة الجار . سمعت بعض الفقهاء يقول : النفس تقول للقلب كن معي في الطعام أكن معك في الصلاة ، وهذا من الأحوال العزيرة لا تصلح إلا لعالم رباني ، وكل من مدع يهلك بتوهمه هذا في نفسه ، ومثل هذا العبد يزداد بالنكاح ولا ينقص ، والعبد إذا كل دله يأخذ من الأشياء ولا يأخذ الأشياء منه ، وقد كان الجنيد يقول : أنا أحتاج إلى الزوجة كما أحتاج إلى الطعام .

وسمع بعض العلماء بعض الناس يطعن في الصوفية فقال : يا هذا ما الذي ينقصهم عندك ؟ فقال : يا كاون كثيرا ،

فقال : وأنت أيضا لو جمعت كما يجوعون أكلت كما يأكلون . ثم قال : ويتزوجون كثيرا ، قال : وأنت أيضا لو حفظت فرجك كما يحفظون تزوجت كما يتزوجون ، قال وأي شيء أيضا ؟ قال : يسمعون القول ، قال وأنت أيضا لو نظرت كما ينظرون سمعت كما يسمعون .

وكان سفيان بن عيينة يقول : كثرة النساء ليست من الدنيا لأن عليا رضي الله عنه كان أزهذا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان له أربع نسوة وسبع عشرة سرية ، وكان ابن عباس رضي الله عنه يقول : خير هذه الأمة أكثرها نساء . وقد ذكر في أخبار الأنبياء أن عابدا تبتل للعبادة حتى فاق أهل زمانه فذكر لنبي ذلك الزمان فقال : نعم الرجل لولا أنه تارك لشيء من السنة ؛ فسمى ذلك إلى العابد فأهمه فقال : ما تمنعني عبادتي وأنا تارك السنة ؛ لجاء إلى النبي عليه السلام فسأله فقال : نعم إنك تارك الزوج ؛ فقال ما تركته لأنني أحرمه وما منعني منه إلا أني فقير لشيء مني وأنا عيال على الناس يطعمني هذا مرة وهذا مرة فأكره أن أزوج بامرأة أعرضها أو أرهقها جهدا ، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : وما يمنعك إلا هذا ؟ قال : نعم فقال : أنا أزوجك بفتي فزوجه النبي عليه السلام ابنته وكان عبد الله بن مسعود يقول لم يبق من عمري إلا عشرة أيام أحبت أن أزوج ولا ألقى الله عزبا وما ذكر الله تعالى في القرآن من الأنبياء إلا المتأهلين . وقيل إن يحيى بن زكريا عليهما السلام تزوج لأجل السنة ولم يكن يقربها وقيل إن عيسى عليه السلام سينكح إذا نزل إلى الأرض ويولد له . وقيل إن ركة من متأهل خير من سبعين ركة من عزب أخبرنا الشيخ طاهر بن أبي الفضل قال أخبرنا أبو منصور محمد بن الحسين بن أحمد بن الهيثم المقومى القزويني قال أخبرنا أبو طلحة القاسم ابن أبي البدر الخطيب قال حدثنا أبو الحسن علي بن إبراهيم بن سلمة القطان قال حدثنا أبو عبد الله بن محمد بن يزيد بن ماجه قال حدثنا أحمد بن الأزهر قال حدثنا آدم قال حدثنا عيسى بن ميمون عن القاسم عن عائشة رضي الله عنه قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : النكاح سئى فمن لم يعمل بسئى فليس منى فتزوجوا فإني مكارهكم الأمم ، ومن كان ذا طول فلينكح ومن لم يجد فعله بالصيام ، فإن الصوم له وجاء ، وما ينبغي للمتأهل أن يحذر من الإفراط في المخالطة والمعاشرة مع الزوجة إلى حد ينقطع عن أوراده وسياسة أوقاته ، فإن الإفراط في ذلك يقوى النفس وجنودها ويفتر ناهض الهمة وللمتأهل بسبب الزوجة فتنان فتنة لعموم وفتنة لخصوص حاله فتنة عموم حاله الإفراط في الاهتمام بأسباب المعيشة ، كان الحسن يقول : والله ما أصبح اليوم رجل يطيع امرأته فيما تهوى إلا أكبه الله على وجهه في النار . وفي الخبر : يأتي على الناس زمان يكون هلاك الرجل على بدز وجهته وأبويه وولده وميراثه بالفقر ويكلفونه مالا يطيق فيدخل في المداخل التي يذهب فيها دينه فيها . وروى أن قوما دخلوا على يونس عليه السلام فأضافهم ، وكان يدخل ويخرج إلى منزله فتؤذيه امرأته وتستطيل عليه وهو ساكت ، فعجبوا من ذلك وهاجوا أن يسألوه فقال لا تعجبوا من هذا فإني سألت الله فقلت يارب ما كنت معاني به في الآخرة فعجله لي في الدنيا فقال إن عقوبتك بذبت فلان تزوج بها فتزوجت بها ، وأنا صابر على ماترون ، فإذا أفرط الفقير في المداراة بما تعدى حدا الاعتدال في وجوه المعيشة متطلبا رضا الزوجة فهذا فتنة عموم حاله . وفتنة لخصوص حاله الإفراط في المجالسة والمخالطة فتنتل النفس عن قيد الاعتدال وتشرق الغرض بطول الاسترسال فيستولى على القلب بسبب ذلك السهو والغفلة ، ويستجلس مقار المهلة فيقل الوارد لقلة الأوراد ويتكدر الحال لإهمال شروط الأعمال والطف من هذين الفتنين فتنة أخرى تختص بأهل القرب والحضور وذلك أن النفوس امتزاجا وبرابطة الامتزاج تعترض وتشتد وتطرى طبيعتها الجامدة وتلتهب نارها الحامدة ، فدواء هذه الفتنة أن يكون للمتأهل عند المجالسة عينا باطنا ينظر بهما إلى مولاه وعينان ظاهران يستعملهما في طريق هواه ، وقد قالت رابعة في معنى هذا نظماً :

إني جعلت لك في الفؤاد محدثي * وأجعت جسمي من أراد جلوسي

فالجسم من للجلس مؤانس * وحبيب قلبي في الفؤاد أنيس

والطف من هذا فتنة أخرى يخشاها المتأهل ، وهو أن يصير للروح استرواح إلى لطف الجمال ، ويكون ذلك

الاسرارواح موقوفة على الروح ، ويصير ذلك وليجة في حب الروح الخصوص بالتملق بالحضرة الإلهية ، فتبذل الروح وينسد باب المزيد من الفتوح ، وهذه البلادة في الروح ، يعز الشغور بها فلتحذر . ومن هذا القبيل : دخلت الفتنة على طائفة قالوا بالمشاهدة ، وإذا كان في باب الحلال وليجة في الحب يتولد منها بلادة الروح في القيام بوظائف حب الحضرة الإلهية ، فما ظنك فيمن يدعى ذلك في باب غير مشروع يغره سكون النفس فيظن أنه لو كان من قبل الهوى ماسكنت النفس ؟ والنفس لا تسكن في ذلك دائماً بل تسلب من الروح ذلك الوصف وتأخذه إليها ، على أني استبحشت عما يبتلى به المفتونون بالمشاهدة ، فوجدت الحمى من ذلك من صورة الفسق عنده رغبة شراب الشهوة ، إذ لو ذهب علة الشراب ما بقيت الرغبة ، فليحذر ذلك جداً ولا يسمع ممن يدعى فيه حالاً وصحة فإنه كذاب مدع ، ولهذا المعنى قال الأطباء : الجماع يسكن هيجان العشق - وإن كان من غير المعشوق - فليعلم أن مستنده الشهوة ، ويكذب من يدعى فيه حالاً ، وهذه فتنة المتأهل .

وفتنة العزب مرور النساء بخاطره وتصورهن في متخيله ، ومن أعطى الطهارة في باطنه لا يدنس باطنه بخراطير الشهوة ، وإذا سنح الخاطر يمحوه بحسن الإنابة واللياذ بالهرب ، ومتى سامر الفكر كشف الخاطر خرج من القلب إلى الصدر ، وعند ذلك يحذر حساس العضو بالخاطر فيصير ذلك عملاً خفياً ، وما أقبح مثل هذا بالصادق المتطلع إلى الحضور واليقظة ، فيكون ذلك فاحشة الحال . وقد قيل مرور الفاحشة بقلب العارفين كعمل الفاعلين لها والله أعلم .

الباب الثاني والعشرون : في القول في السماع قبولا وإشارا

قال الله تعالى ﴿ فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتعبدون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾ قيل أحسنه : أى أهده وأرشده ، وقال عز وجل ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ﴾ هذا السماع هو السماع الحق - الذى لا يختلف فيه اثنان من أهل الإيمان - محكوم لصاحبه بالمداية واللب ، وهذا سماع ترد حرارته على برد اليقين فتفيض العين بالدمع ، لأنه تارة يشير حزنا والحزن حار ، وتارة يشير شوقاً والشوق حار ، وتارة يثير ندماً والندم حار ، فإذا أثار السماع هذه الصفات من صاحب قلب مملوء ببرد اليقين أبكى وأدمع ، لأن الحرارة والبرودة إذا اصطدما عصرا ماء ، فإذا ألم السماع بالقلب تارة يخفب الإمامه فيظهر أثره في الجسد ويقشعر منه الجلد ، قال الله تعالى ﴿ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ﴾ وتارة يعظم وقعه ويتصوب أثره إلى فوق نحو الدماغ كالخبر للعقل فيعظم وقع المتجدد الحادث فتندفق منه العين بالدمع ، وتارة يتصوب أثره إلى الروح فتخرج منه الروح موجاً يكاد تضيق عنه نطاق القلب فيكون من ذلك الصياح والاضطراب وهذه كلها أحوال يحددها أربابها من أصحاب الحال ، وقد يحكيها بدلائل هوى النفس أرباب المجال :

روى أن عمر رضى الله عنه كان ربما مر بآية في ورده فتخذه العبرة ويسقط ، ويلزم البيت اليوم واليومين حتى يعاد ويحسب مريضاً ، فالسماع يستجلب الرحمة من الله الكريم .

روى زيد بن أسلم قال : قرأ أبو بن كعب عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقوا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اغتتموا الدعاء عند الرقة فإنها رحمة من الله تعالى ، وروى أم كلثوم قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا أقشعر جلد العبد من خشية الله تحات عنه الذنوب كما تحات عن الشجرة اليابسة ورقها ، وورد أيضاً : إذا أقشعر الجلد من خشية الله حرمه الله تعالى على النار .

وهذه جملة لا تسكر ولا اختلاف فيها ، إنما الاختلاف في استماع الأشعار بالألحان ، وقد كثرت الأقوال في ذلك وتباينت الأحوال فمن منكر يلحقه بالفسق ، ومن مولع به يشهد بأنه واضح الحق ويتجاذبان في طرفي الإفراط والتفريط . قيل لأبي الحسن بن سالم كيف تنكر السماع وقد كان الجنيد وسرى السقطي وذواتون يسمعون ؟ فقال : كيف أنكر السماع وقد أجازته وسمعه من هو خير مني ؟ فقد كان جعفر الطيار يسمع ، وإنما المنكر للهو واللعب

في السماع وهذا قول صحيح .

أخبرنا الشيخ طاهر بن أبي الفضل عن أبيه الحافظ المقدسي قال : أخبرنا أبو القاسم الحسين بن محمد بن الحسن الخوافي قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن يوسف قال حدثنا أبو بكر بن وثاب وقال حدثنا عمرو بن الحارث قال حدثنا الأزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها ، أن أبا بكر دخل عليها وعندها جارتان تغنيان وتضربان بدفين ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى بثوبه ، فأنتهرهما أبو بكر فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وجهه وقال : دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد ، وقالت عائشة رضي الله عنها : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستترى بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد حتى أكون أنا أسأم . وقد ذكر الشيخ أبو طالب المكي رحمه الله ما يدل على تجويزه ، ونقل عن كثير من السلف صحابي وتابعي وغيرهم . وقول الشيخ أبي طالب المكي يعتبر لو فور عليه وكال حاله وعليه بأحوال السلف ومكان ورعه وتقواه وتحريمه الأصوب والأولى . وقال : في السماع حرام وحلال وشبهه ؛ فمن سمعه بنفس مشاهدة شهوة وهوى فهو حرام ، ومن سمعه بمعقولة على صفة مباح من جارية أو زوجة كان شبهة لدخول اللهو فيه ، ومن سمعه بقلب يشاهد معاني تدله على الدليل ويشده طرفات الجليل فهو مباح ، وهذا قول الشيخ أبي طالب المكي وهو الصحيح . فإذا لا يطلق القول بمنعه وتحريمه والإنكار على من يسمع كفعل القراء المتزهدين المبالغين في الإنكار ، ولا يفسح فيه على الإطلاق كفعل بعض المشتهرين به المهملين شروطه وآدابه المقيمين على الإصرار .

ونفصل الأمر فيه تفصيلا ، ونوضح الماهية فيه تحريما وتحليلا . فأما الدف والشبابة وإن كان فيهما في مذهب الشافعي فسحة ؛ فالأولى تركهما والآخر بالاحوط والخروج من الخلاف .

وأما غير ذلك فإن كان من القصائد في ذكر الجنة والنار والتشويق إلى دار القرار ووصف نعم الملك الجبار ، وذكر العبادات والترغيب في الخيرات فلا سبيل إلى الإنكار ، ومن ذلك القليل قصائد الغزاة والحجاج في وصف الغزو والحج ؛ مما يثير كامن العزم من الغازي وساكن الشوق من الحاج .

وأما ما كان من ذكر القدود والحدود ووصف النساء فلا يليق بأهل الديانات الاجتماع لمثل ذلك . وأما ما كان من ذكر الهجر والوصل والقطيعة والصد مما يقرب حمله على أمور الحق سبحانه وتعالى من تلون أحوال المريدين ودخول الآفات على الطالبين ؛ فمن سمع ذلك وحدث عنده ندم على ما فات أو تجدد عنده عزم لما هو آت فمكيف يكون سماعه ؟ وقد قيل إن بعض الواجدين يقتات بالسماع ويتقوى به على الطي والوصال ، ويثير عنده من الشوق ما يذهب عنه لهب الجوع ؛ فإذا استمع العبد إلى بيت من الشعر وقلبه حاضر فيه كأن يسمع الحادي يقول مثلاً :
أتوب إليك يا رحمن إلى * أسأت وقد تضاعفت الذنوب
فأما من هوى ليسى وحبي * زيارتها فإني لا أتوب

فطاب قلبه لما يجوده من قوة عزمه على الثبات في أمر الحق إلى المات - يكون في سماعه هذا ذكر الله تعالى . قال بعض أصحابنا كنا نعرف مواجيد أصحابنا في ثلاثة أشياء : عند المسائل ، وعند الغضب ، وعند السماع . وقال الجنيد تنزل الرحمة على هذه الطائفة في ثلاثة مواضع : عند الأكل لأنهم يأكلون عن فاقة ، وعند المذاكرة لأنهم يتحاورون في مقامات الصديقين وأحوال النبيين ، وعند السماع لأنهم يسمعون بوجود ويشهدون حقاً . وسئل رويم عن وجد الصوفية عند السماع فقال : يتنهبون للمعاني التي تعزب عن غيرهم فيشير إليهم إلى الله فيتنعمون بذلك من الفرح ، ويقع الحجاب للوقت فيعود ذلك الفرح بكاء ، فمنهم من يمزق ثيابه ، ومنهم من يبكي ، ومنهم من يصيح .

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن ابن خلف إجازة عن السلمي قال : سمعت أبا سهل محمد بن سليمان يقول ؟ المستمع بين استنار ونجمل ، فالاستنار يورث التلهب ، والتجلى يورث المزيد ، فالاستنار يتولاه منه حركات المريدين وهو محل الضعف

والعجز ، والتعجلى يتولد منه السكون للواصلين وهو محل الاستقامة والتكئين . وكذلك محل الحضرة ليس فيه إلا الذبول تحت موارد الهيبة . قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي : سمعت جدي يقول : المستمع بذغى أن يستمع بقلب ونفس ميتة ، ومن كان قلبه ميتا ونفسه حية لا يحل له السماع .

وقيل في قوله تعالى ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ الصوت الحسن . وقال عليه السلام : « أشد أذنا بالرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب قينة إلى قينته » نقل عن الجنيد قال : رأيت إبليس في النوم فقلت له : هل تظفر من أصحابنا بشيء أوتال منهم شيئا ؟ فقال إنه يعسر على شأنهم ويعظم على أن أعيب منهم شيئا إلا في وقتين ، قلت : أى وقت ؟ قال : وقت السماع وعند النظر فإنى أسترقي منهم فيه وأدخل عليهم به ، قال : لحكيت رؤياى لبعض المشايخ فقال لورأيتك قلت له يا أحق من سمع منه إذا سمع ونظر إليه إذا نظر أترج أنت عليه شيئا أوتظفر بشيء منه ؟ فقلت صدقت ، وروت عائشة رضى الله عنها قالت « كانت عندي جارية تسمعى فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي على حالها ، ثم دخل عمر ففرت ؛ فضحكك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر : ما يضحكك يا رسول الله ؟ لحديثه حديث الجارية فقال : لا أرح حتى أسمع ما سمع رسول الله ؛ فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسمعتته ، وذكر الشيخ أبو طالب المكي قال : كان لعطاء جاريان تلحنان وكان إخوانه يجتمعون اليهما ، وقال : أدركنا أبا مروان القاضى وله جوار يسمعن التلحين أعدهن للصوفية ، وهذا القول نقلته من قول الشيخ أبي طالب فقال : وعندى اجتناب ذلك هو الصواب ، وهو لا يسلم إلا بشرط طهارة القلب وغض البصر والرفاء بشرط قوله تعالى ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ وما هذا القول من الشيخ أبي طالب المكي الا مستغرب عجيب ، والتزده عن مثل ذلك هو الصحيح .

وفي الحديث : في مدح داود عليه السلام أنه كان حسن الصوت بالنباح على نفسه وبتلوة الزبور حتى كان يجتمع الإنس والجن والطير لسماع صوته ، وكان يحمل من مجلسه آلاف من الجنائز ، وقال عليه السلام في مدح أبي موسى الأشعرى : « لقد أعطى زممارا من زمائر آل داود » وروى عنه عليه السلام أنه قال « إن من الشعر لحكمة » ، ودخل رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده قوم يقرءون القرآن وقوم ينشدون الشعر فقال : يا رسول الله قرآن وشعر ؟ فقال « من هذا مرة ومن هذا مرة » .

وأشد النابغة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أبياته التي فيها :

ولا خير في حكم إذا لم يكن له * بواذر تحمى صفوه أن يسكدر

ولا خير في أمر إذا لم يكن له * حكيم إذا ما أورد الأمر أصدر

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « أحسنت يا أبا بلي لا يفضض الله فاك ، فعاش أكثر من مائة سنة وكان أحسن الناس نفرا . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع لسان منبرا في المسجد ؛ فيقوم على المنبر قائما يهجو الذين كانوا يهجون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم « إن روح القدس مع حسان مادام يتافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأى بعض الصالحين أبا العباس الخضر قال ، فقلت له ما نقول في السماع الذى يختلف فيه أصحابنا ؟ فقال : هو الصفا الزلال لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء . ونقل عن عمشاد الدينورى قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت يا رسول الله هل تنكر من هذا السماع شيئا ؟ فقال ما أنكره ولكن قل لهم يفتتحون قبله بقراءة القرآن ويحتمون بعده بالقرآن ، فقلت يا رسول الله إنهم يؤذون وينبسطون ، فقال احتملهم يا أبا على هم أصحابك . فكان عمشاد يفتخر ويقول كنانى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما وجه الإنكار فيه فهو أن يرى جماعة من المريدين دخلوا في مبادئ الإرادة ونفوسهم ماتمرت على صدق المجاهدة حتى يحدث عندهم علم بظهور صفات النفس وأحوال القلب حتى تنضبط حركاتهم بقانون العلم ويعلمون ما لهم عليهم مشغلين به .

حكى أن ذا النون لما دخل بغداد دخل عليه جماعة ومعهم قوال ؛ فاستأذنه أن يقول شيئاً فأذن له فأشدد القوال :

صغير هواك عذبنى • فكيف به إذا احتنكا وأنت جمعت من قلبي • هوى قد كان مشتركاً

أما ترى لمكتئب • إذا ضحك الخلى بكى فطاب قلبه ، وقام وتواجد وسقط على جبهته والدم يقطر من جبهته ولا يقع على الأرض . ثم قام واحد منهم فنظر إليه ذو النون فقال : اتق الذى يراك حين تقوم ؛ فجلس الرجل ، وكان جلوسه موضع صدقه وعلمه أنه غير كامل الحال غير صالح للقيام متواجد ، فيقوم أحدهم من غير تدبر وعلم في قيامه وذلك إذا سمع إيقاعاً موزوناً يسمع يؤدي ماسمعه إلى طبع موزون ، فيتحرك بالطبع الموزون للصوت الموزون والإيقاع الموزون ، ويفسب حجاب نفسه المنبسط بانبساط الطبع على وجه القلب ، ويستفزه النشاط المنبعث من الطبع فيقوم يرقص موزوناً مزوجاً بتصنع وهو مختم عند أهل الحق ، ويحسب ذلك طيبة للقلب ، وما رأى وجه القلب وطيبته لله تعالى . واعمرى هو طيبة القلب ولكن قلب ملون النفس ميال إلى الهوى موافق للردى لا يهتدى إلى حسن النية في الحركات ولا يعرف شروط صحة الإرادات ، ومثل هذا الراقص قيل : الراقص نقص ؛ لأنه رقص مصدره الطبع غير مقترن بنية صالحة لاسباب إذا انضاف إلى ذلك شوب حركاته بصريح النفاق بالتودد والتقرب إلى بعض الحاضرين من غيرنية ، بل بدلالة نشاط النفس من المعانقة وتقييل اليد والقدم ، وغير ذلك من الحركات التي لا يعتمد عليها من المتصوفة إلا من ليس له من التصوف إلا مجرد زى وصورة ، أو يكون القوال أمرد تنجذب النفوس إلى النظر إليه وتستلذ ذلك وتضمحل خواطر السوء ، أو يكون للنساء إثراء على الجمع وتراسل البواطن المملوءة من الهوى بسفارة الحركات والرقص وإظهار التواجد فيكون ذلك عين الفسق المجمع على تحريره فأهل المواخير حينئذ أرجى حالاً ممن يكون هذا ضميره وحركاته ، لأنهم يرون فسقهم وهذا لا يراه ويريه عبادة لمن لا يعلم ذلك ، أفترى أحداً من أهل الديانات يرضى بهذا ولا ينكره ؟ فن هذا الوجه توجه المنكر الإنكار ، وكان حقيقاً بالاعتذار ، فكلم من حركات موجبة للبقت ، وكلم من نهضات تذهب رونق الوقت ، فيكون إنكار المنكر على المريد الطالب بمنعه عن مثل هذه الحركات ، ويحذره من مثل هذه المجالس ، وهذا إنكار صحيح . وقد يرقص بعض الصادقين لإيقاع ووزن من غير إظهار وجد وحال ، ووجه نيته في ذلك أنه ربما يوافق بعض الفقراء في الحركة فيتحرك بحركة موزونة غير مدعها حالاً ووجداً ، يجعل حركته في طرف الباطل ، لأنها إن لم تكن مجرمة في حكم الشرع ولكنها غير محللة بحكم الحال لما فيها من الهوى ، فتصير حركاته ورقصه من قبيل المباحات التي تجرى عليه من الضحك والمداعبة وملاعبة الأهل والولد ويدخل ذلك في باب الترويح للقلب . وربما صار ذلك عبادة بحسن النية إذا نوى به استجمام النفس . كأنقل عن أبي الدرداء أنه قال : إنى لاستجم نفسى بشئ من الباطل ليكون ذلك عوناً إلى على الحق . ولموضع الترويح كرهت الصلاة في أوقات ليستريح عمال الله وترتفع النفوس ببعض مآربها من ترك العمل وتستطيب أوطان المهمل . والآدمى بتركه المختلف وترتيب خلقه المتتوع بتدويع أصول خلقته . وقد سبق شرحه في غير هذا الباب . لاتفق قواه بالصبر على الحق الصبر ، فيكون التفسخ في أمثال ما ذكرناه من المباح الذى ينزع إلى هو ما باطلا يستعان به على الحق ، فإن المباح وإن لم يكن باطلاً في حقيقة الشرع ؛ لأن حد المباح ما استوى طرفاه واعتدل جانباه ، ولكنه باطل بالنسبة إلى الأحوال . ورأيت في بعض كلام سهل بن عبد الله يقول في وصفه للصادق : الصادق يكون جهله مزبداً لعلمه ، وباطله مزبداً لحقه ، ودنياه مزبداً لآخرته ، ولهذا المعنى حجب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء ليكون ذلك حظ نفسه الشريفة الموهوب لها حظوظها ، الموفر عليها حقوقها لموضع طهارتها وقدسها ، فيكون ما هو نصيب الباطل الصبر في حق الغير من المباحات المقبولة برخصة الشرع المردودة بعزيمة الحال في حقه صلى الله عليه وسلم مقسماً بسمه العبادات . وقد وزد في فضيلة النكاح ما يدل على أنه عبادة ، ومن ذلك من طريق القياس اشتماله على المصالح الدنيوية والدنيوية على ما أطنب في شرحه الفقهاء في مسئلة التخلي لنوافل العبادات ؛ فإذا يخرج هذا الراقص بهذه النية المتبرئ من دعوى الحال في ذلك من إنكار المنكر فيكون رقصه لآعليه ولآله ، وربما كان بحسن النية في الترويح يصير عبادة سيما إن أضمر في نفسه

فرحاً بربه ونظر إلى شمول رحمته وعطفه ، ولكن لا يليق الرقص بالشيوخ ، ومن يقتدى به لما فيه من مشابهة اللهو ، واللهو لا يليق بمنصبهم ويبين حال التمكن مثل ذلك .

وأما وجه منع الإنكار في السماع فهو أن المنكر للسماع على الإطلاق من غير تفصيل لا يخلو من أحد أمور ثلاثة : إما جاهل بالسنن والآثار ، وإما مغتر بما أتيج له من أعمال الأخيار ، وإما جامد الطبع لا ذوق له فيصر على الإنكار ، وكل واحد من هؤلاء الثلاثة يقابل بما سوف يقبل . أما الجاهل بالسنن والآثار فيعرف بما أسلفناه من حديث عائشة رضي الله عنها وبالأخبار والآثار الواردة في ذلك ، وفي حركة بعض المتحركين تعرف رخصة رسول الله صلى الله عليه وسلم للحبشة في الرقص ونظر عائشة رضي الله عنها إليهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا إذا سلمت الحركة من المكاره التي ذكرناها . وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلي رضي الله عنه « أنت مني وأنا منك » ، فنجس ، وقال لجعفر « أشبهت خاني وخلق » ، فنجس ، وقال لزيد « أنت أخونا ومولانا » ، فنجس ، وكان خجل جعفر في قصة ابنة حمزة لما اختصم فيها على وجعفر وزيد . وأما المنكر المغرور بما أتيج له من أعمال الأخيار فيقال : تقربك إلى الله بالعبادة لشغل جوارحك بها ، ولولا نية قلبك ما كان لعمل جوارحك قدر ، فإنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى ، والنية لنظرك إلى ربك خوفاً أو رجاء ، فالسامع من الشعر بيتاً يأخذ منه معنى يذكره ربه إما فرحاً أو حزناً أو انكساراً أو افتقاراً كيف يقرب قلبه في أنواع ذلك ذكر آله ، ولو سمع صوت طائر طاب له ذلك الصوت وتفكر في قدرة الله تعالى وتسويته حنجره الطائر وتسخير خلقه ومنشأ الصوت وتأديته إلى الاستماع كان في جميع ذلك الفكر مسجحاً مقدساً ، فإذا سمع صوت آدمي وحضره مثل ذلك الفكر وامتلأ باطنه ذكراً وفكر كيف ينكر ذلك .

حكى بعض الصالحين قال : كنت معتكفاً في جامع جد ، على البحر فرأيت يوماً طائفة يقولون في جانب منه شيئاً ، فأنكرت ذلك بقاى وقلت : في بيت من بيوت الله تعالى يقولون الشعر ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام تلك الليلة وهو جالس في تلك الناحية وإلى جنبه أبو بكر ، وإذا أبو بكر يقول شيئاً من القول والنبي صلى الله عليه وسلم يستمع إليه ويضع يده على صدره كالواجد بذلك ، فقلت في نفسي : ما كان ينبغي لي أن أنكر على أولئك الذين كانوا يسمعون وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع وأبو بكر إلى جنبه يقول ، فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول هذا حق بحق أو حق من حق ، بلى إذا كان ذلك الصوت من أمر ديتخشي بالنظر إليه الفتنة ، أو من امرأة غير محرم ، وإن وجد من الأذكار والأفكار ما ذكرنا : يحرم سماعه لخوف الفتنة لا لجراد الصون ، ولكن يجعله سماع الصوت حريم الفتنة ، ولكل حرام حريم ينسحب عليه حكم المنع لوجه المصلحة كالقبلة للشباب الصائم ؛ حيث جعلت حريم حرام الوقاع ، وكالحلوة بالأجنبية وغير ذلك . فعلى هذا فقد تقتضي المصلحة المنع من السماع إذا علم حال السامع وما يؤديه إليه سماعه فيجعل المنع حريم الحرام هكذا ، وينكر السماع جامد الطبع عديم الذوق فيقال له : العنين لا يعلم لذة الوقاع ، والمكفوف ليس له بالجمال البارع استمتاع ، وغير المصاب لا يتكلم بالاسترجاع ، فإذا ينكره من محب ربه باطنه بالشوق والمحبة ؟ ويرى انحباس روحه الطيارة في مضيق قفص النفس الامارة يمر بروحه نسيم أنس الأوطان وتلوح له طوال جنود العرفان ، وهو بوجود النفس في دار الغربة يتخرج كأس الهجران ، يئن تحت أعباء المجاهدة ولا تحمل عنه سوانح المشاهدة ، وكلما قطع منازل النفس بكثرة الأعمال لا يقرب من كعبة الوصول ولا يكشف له المسبل من الحجاب ، فيتروح بنفس الصعداء ويرتاح باللائح من شدة البرحاء ، ويقول مخاطباً للنفس والشيطان وهما المائلان :

أيا جيلي نعمان بالله خلياً • نسيم الصبا يخلص إلى نسيه
فإن الصباريح إذا ما تنسمت • على قلب محزون تجلت همومها
أجد بردها أو تشف مني حرارة • على كبد لم يبق إلا صميمها
ألا إن أدوائ بليلتي قديمة • وأقتل داء العاشقين قديمها

ولعل المنكر يقول هل المحبة إلا امتثال الأمر؟ وهل يعرف غير هذا وهل هناك إلا الخوف من الله؟ وينكر المحبة الخاصة التي تختص بالعلماء الراغبين والابدال المقربين . ولما تقرر في فهمه القاصر أن المحبة تستدعي مثالا وخيالا وأجناسا وأشكالا أنكر محبة القوم ولم يعلم أن القوم بلغوا في رتب الإيمان إلى أنهم من المحسوس وجادوا من فرط الكشف والعيان بالأرواح والنفوس . روى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه ذكر غلاما كان في بني إسرائيل على جبل فقال لأمه : من خلق السماء؟ قالت : الله ، قال : من خلق الأرض؟ قالت : الله ، قال : من خلق الجبال؟ قالت : الله ، قال : من خلق الغيم؟ قالت : الله ، فقال : إني أسمع الله شأن ورعى بنفسه من الجبل فتقطع ، فالجبال الأزل الإلهي منكشف للأرواح غير مكيف للعقل ولا مفسر للفهم ، لأن العقل موكل بعالم الشهادة لا يهتدى من الله سبحانه إلا إلى مجرد الوجود ولا يتطرق إلى حريم الشهود المتجلى في طي الغيب المنكشف للأرواح بلاريب ، وهذه رتبة من مطالعة الجمال رتبة خاصة ، وأعم منها من رتب المحبة الخاصة دون العامة مطالعة جمال الكمال من الكبرياء والحلال والاستقلال بالمنح والنوال والصفات المنقسمة إلى مظهر منها في الآباد ولازم الذات في الآزال؛ فللكمال جمال لا يدرك بالحواس ولا يستبطن بالقياس . وفي مطالعة ذلك الجمال أخذ طائفة من المحبين خصوصاً بتجلى الصفات ولهم بحسب ذلك ذوق وشوق ووجد وسماع . والأولون منحوا قسطا من تجلى الذات فكان وجدهم على قدر الوجود وسماعهم على حد الشهود .

وحكى بعض المشايخ قال : رأينا جماعة ممن يمشى على الماء والهواء يسمعون السماع ويجدون به ويتوحدون عنده . وقال بعضهم : كنا على الساحل فسمع بعض إخواننا فجعل يتقلب على الماء يمز ويجيء حتى رجع إلى مكانه . ونقل أن بعضهم كان يتقلب على النار عند السماع ولا يحس بها . ونقل أن بعض الصوفية ظهر منه وجد عند السماع فأخذ شمعاً فجعلها في عينه ، قال الناقل : قربت من عينه ، أنظر ، فرأيت نارا أونورا يخرج من عينه يرد نار الشمع . وحكى عن بعضهم أنه كان إذا وجد عند السماع ارتفع من الأرض في الهواء أذرعاً يمر ويجيء فيه . وقال الشيخ أبو طالب المسكي رحمه الله في كتابه : إن أنكرنا السماع بجملا مطلقا غير مقيد مفصل يكون إنكارا على سبعين صديقا ، وإن كنا نعلم أن الإنكار أقرب إلى قلوب القراء والمتعبدين ، وإلا فإنا لنفعل ذلك لا نعلم ما لا يعلمون ، وسمعنا عن السلف من الأصحاب والتابعين ما لا يسمعون . وهذا قول الشيخ عن علمه الوافر بالسنن والآثار مع اجتهاده وتحريه الصواب . ولكن نبسط لأهل الإنكار لسان الاعتذار ، ونوضح لهم الفرق بين سماع يؤثر وبين سماع ينكر وسمع الشبلي قائلاً يقول : أسائل عن سلمى فهل من مخبر ؟ يكون له علم بها أين تنزل فزق الشبلي وقال : لا والله ما في الدارين عنه مخبر .

وقيل الوجد سر صفات الباطن كما أن الطاعة سر صفات الظاهر ، وصفات الظاهر الحركة والسكون وصفات الباطن الأحوال والأخلاق . وقال أبو نصر السراج أهل السماع على ثلاث طبقات : فقوم يرجعون في سماعهم إلى مخاطبات الحق لهم فيما يسمعون ، وقوم يرجعون فيما يسمعون إلى مخاطبات أحوالهم ومقامهم وأوقانهم فهم مرتبطون بالعلم ومطالبون بالصدق فيما يشيرون الله من ذلك ، وقوم هم الفقراء المجردون الذين قطعوا العلائق ولم تتلوث قلوبهم بمحبة الدنيا والجمع والمنع فهم يسمعون لطيفة قلوبهم ويليق بهم السماع فهم أقرب الناس إلى السلامة وأسلمهم من الفتنة . وكل قلب ملوث بحب الدنيا فسماعه سماع طبع وتكلف .

وسئل بعضهم عن التكلف في السماع فقال : هو على ضربين ؛ تكلف في المستمع لطلب جاء أو منفعة دنيوية وذلك تلبيس وخيانة ، وتكلف فيه لطلب الحقيقة كمن يطلب الوجد بالتواجد وهو بمنزلة التباكي المندوب إليه . وقول القائل إن هذه الهيئة من الاجتماع بدنة يقال له : إنما البدنة المحذورة المنوع منها ؛ بدنة تزاحم سنة ما مورابها وما لم يكن هكذا فلا بأس به . وهذا كالقيام للداخل ؛ لم يكن ، فكان في عادة العرب ترك ذلك ، حتى نقل : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدخل ولا يقام له ، وفي البلاد التي فيها هذا القيام لهم عادة إذا اعتمد ذلك لنظيب القلوب والمداواة لا بأس به ؛

لأن تركه يوحش القلوب ويوغر الصدور ؛ فيكون ذلك من قبيل العشرة وحسن الصحبة . ويكون بدعة لأبأس بها لأنها لم تزاخم سنة مأثورة .

الباب الثالث والعشرون : في القول في السماع ردا وإنكارا

قد ذكرنا وجه صحة السماع وما يليق منه بأهل الصدق وحيث كثرت الفتنة بطريقه وزالت العصمة فيه ، وتصدى للحرص عليه أقوام قلت أعمالهم ، وفسدت أحوالهم وأكثروا الاجتماع للسماع ، وربما يتخذ للاجتماع طعام تطلب النفوس الاجتماع لذلك لارغبة للقلوب في السماع كما كان من سير الصادقين ، فيصير السماع معلولا تركز إليه النفوس للشهوات واستحلام لمواطن اللهو والعفلات ، ويقطع ذلك على المرید طلب المريد . ويكون بطريقه تضییع الأوقات وقلة الحظ من العبادات ، وتكون الرغبة في الاجتماع طلبا لتناول الشهوة واسترواح الأولى الطرب واللهو والعشرة ولا يخفى أن هذا الاجتماع مردود عند أهل الصدق . وكان يقال لا يصح السماع إلا لعارف مكن ، ولا يباح لمريد مبتدئ .

وقال الجنيد رحمه الله تعالى : إذا رأيت المرید يطلب السماع فاعلم أن فيه بقية البطالة . وقيل إن الجنيد ترك السماع ففيل له : كنت تستمع ؟ فقال : مع من ؟ قيل له : تسمع لنفسك ؟ فقال : بمن ؟ لأنهم كانوا لا يسمعون إلا من أهل مع أهل فلما فقد الإخوان ترك . فما اختاروا السماع حيث اختاروه إلا بشرط وقيود وآداب ؛ يذكرون به الآخرة ، ويرغبون في الجنة ، ويحذرون من النار ، ويزداد به طلبهم ، وتحسن به أحوالهم ، ويتفنن لهم ذلك اتفاقا في بعض الأحيان لا أن يجعلوه دأبا ودينا حتى يتركوا لأجله الأوراد .

وقد نقل عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال في كتاب القضاء : الغناء هو مكروه يشبهه الباطل ، وقال : من استكثر منه فهو سفيه رد شهادته : واتفق أصحاب الشافعي أن المرأة غير المحرم لا يجوز الاستماع إليها سواء كانت حرة أو مملوكة أو مكشوفة الوجه أو من وراء حجاب . ونقل عن الشافعي رضي الله عنه ؛ أنه كان يكره الطقطقة بالقضيب ويقول : وضعه الزنادقة ليشتغلوا به عن القرآن ، وقال : لأبأس بالقراءة بالآلحان وتحسين الصوت بها بأى وجه كان . وعند مالك رضي الله عنه : إذا اشترى جارية فوجدتها مغنية فله أن يردّها بهذا العيب ، وهو مذهب سائر أهل المدينة ، وهكذا مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه .

وسماع الغناء من الذنوب وما أباحه إلا نفر قليل من الفقهاء . ومن أباحه من الفقهاء أيضاً لم ير إعلاناً في المساجد والبقاع الشريفة . وقيل في تفسير قوله تعالى ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ﴾ قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : هو الغناء والاستماع إليه ، وقيل قوله تعالى ﴿ وأنتم سامدون ﴾ أى مغنون ؛ رواه عكرمة عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما وهو الغناء بلغة حمير ، يقول أهل اليمن : سم فلان ، إذا غنى ، وقوله تعالى ﴿ واستغفر من استطعت منهم بصوتك ﴾ قال مجاهد : الغناء والمزامير .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : كان إبليس أول من ناح وأول من تغنى ، وروى عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إنما نهيت عن صوتين فاجرين : صوت عند نعمة ، وصوت عند مصيبة ، وقد روى عن عثمان رضي الله عنه أنه قال : ما غنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكرى يسينى منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وروى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : الغناء يفتت النفاق في القلب ، وروى أن ابن عمر رضي الله عنه مر على قوم وهم محرمون وفيهم رجل يتغنى فقال : ألا لسمع الله لكم ، ألا لسمع الله لكم ، وروى أن إنسانا سأل القاسم بن محمد عن الغناء فقال : أهالك عنه وأكرهه لك ، قال أحرام هو ؟ قال : انظرا ابن أخى إذا ميز الله الحق والباطل في أيهما يجعل الغناء ؟ وقال الفضيل بن عياض : الغناء رقية الزنا ، وعن الشنك : الغناء مفسدة للقلب مسخطة للرب ، وقال بعضهم : لا يأكم والغناء فإنه يزيد الشهوة ويهدم المروءة ، وأنه لينوب

عن الخثر ويفعل مايفعل السكر ، وهذا الذى ذكره هذا القائل صحيح لأن الطبع الموزون يفيق بالغناء والأوزان ، ويستحسن صاحب الطبع عند السماع مالم يكن يستحسنه من الفرقة بالأصابع والتصفيق والرقص وتصدر منه أفعال تدل على سخافة العقل ، وروى عن الحسن أنه قال : ليس الدف من سنة المسلمين ، والذى نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه سمع الشعر ، لايدل على إباحة الغناء فإن الشعر كلام منظوم وغيره كلام منشور لحسنه حسن وقيبحه قبيح ، وإنما يصير غناء بالألحان وإن أنصف المنصف وتفكر فى اجتماع أهل الزمان وقعود المغنى بدفه والمشبب بشبابته وتصور فى نفسه هل وقع مثل هذا الجلوس والهيئة بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهل استحضروا قوالا وقعدوا مجتمعين لاستماعه لاشك بأنه ينكر ذلك من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؟ ولو كان فى ذلك فضيلة تطلب ما أهملوها ؟ فمن يشير بأنه فضيلة تطلب ويجتمع لها لم يحظ بذوق معرفة أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين ، واستروح إلى استحسان بعض المتأخرين ذلك . وكثيرا ما يغلط الناس فى هذا ، وكلما احتج عليهم بالسلف الماضين يحتجون بالمأخرين . وكان السلف أقرب إلى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهديهم أشبه بهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكثير من الفقهاء يتسمع عند قراءة القرآن بأشياء من غير غلبة . قال عبد الله بن عروة بن الزبير : قلت لجدتى أسماء بنت أبي بكر الصديق رضى الله عنهما كيف كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعلون إذا قرئ عليهم القرآن ؟ قالت : كانوا كما وصفهم الله تعالى تدمع أعينهم وتتشعر جلودهم ، قال : قلت إن ناسا اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خر أحدهم مغشيا عليه ، قالت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . وروى أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما مر برجل من أهل العراق يتسائط قال : ما لهذا ؟ قالوا : إنه إذا قرئ عليه القرآن وسمع ذكر الله تعالى سقط ، فقال ابن عمر رضى الله عنهما : إنا لنخشى الله وما نسقط إن الشيطان يدخل فى جوف أحدهم ، ما هكذا كان يصنع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وذكر عند ابن سيرين الذين يصرعون إذا قرئ القرآن فقال : يبتنا ويبينهم أن يقعد واحد منهم على ظهر بيت باسطا رجله ثم يقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره ، فإن رمى بنفسه فهو صادق . وليس هذا القول منهم إنكاراً على الإطلاق إذ يتفق ذلك لبعض الصادقين ، ولكن للتصنع المتوهم فى حق الأكثرين ، فقد يكون ذلك من البعض تصنعا ورياء ، ويكون من البعض لقصور علم ومخامرة جهل مزوج بهوى يلم بأحدهم يسير من الوجد فيتبعه بزيادات يجهل أن ذلك يضر بدنيه ، وقد لا يجهل أن ذلك من النفس ولكن النفس تسترق السمع استرقا خفيا تخرج الوجد عن الحد الذى ينبغى أن يقف عليه وهذا يباين الصدق نقل أن موسى عليه السلام وعظ قومه فشق رجل منهم قميصه ، فقيل لموسى عليه السلام : قل لصاحب القميص لا يشق قميصه ويشرح قلبه .

وأما إذا انضاف إلى السماع أن يسمع من أمرد فقد توجهت الفتنة وتعين على أهل الديانات إنكار ذلك . قال بقية بن الوليد : كانوا يكرهون النظر إلى الغلام الأمرد الجميل ، وقال عطاء : كل نظرة يهواها القلب فلا خير فيها ، وقال بعض التابعين : ما أنا أخوف على الشاب التائب من السع الضارى خوفاً عليه من الغلام الأمرد يقعد إليه ، وقال بعض التابعين أيضا : اللوطية على ثلاثة أصناف : صنف ينظرون ، وصنف يصالحون ، وصنف يعملون ذلك العمل . فقد تمعن على طائفة الصوفية اجتناب مثل هذه الجماعات واتقاء مواضع التهم فإن التصوف صدق كله وجد كله يقول بعضهم : التصوف كله جد فلا تخاطوه بشئ من الهزل ، فهذه الآثار دلت على اجتناب السماع وأخذ الحذر منه . والباب الأول بما فيه دل على جواز بشرطه وتنزيهه عن المنكراه التى ذكرناها وقد فصلنا القول وفرقنا بين القصائد والغناء وغير ذلك ، وكان جماعة من الصالحين لا يسمعون ومع ذلك لا ينكرون على من يسمع بنية حسنة ويراعى الأدب فيه .

الباب الرابع والعشرون : فى القول فى السماع ترفعا واستغناء

اعلم أن الوجد يشعر بسابقة فقد فمن لم يقدم يجد ، إنما كان الفقد لمزاحة وجود العبد بوجود صفاته وبقيائه فلو

تمحض عبد لتحمض حرا ومن تمحض حرا أفلت من شرك الوجد فشكل الوجد يصطاد البقايا ووجود البقايا بالتخلف شيء من العطايا
قال الحصري رحمه الله : ما أدون حال من يحتاج إلى مزيج يزججه ؛ فالوجد بالسماع في حق الحق كالوجد بالسماع
في حق المبطل : من حيث النظر إلى انزعاجه ، وتأثير الباطن به ، وظهور أثره على الظاهر ، وتغييره للعبد من حال إلى
حال . وإنما يختلف الحال بين الحق والمبطل : أن المبطل يجد لوجود هوى النفس ، والحق يجد لوجود إرادة القلب ؛
ولهذا قيل : السماع لا يحدث في القلب شيئا ، وإنما يحرك ما في القلب ، فمن يتعلق باطنه بغير الله يحركه السماع فيجد
بالهوى ، ومن يتعلق باطنه بمحبة الله يجد بالإرادة إرادة القلب ؛ فالمبطل محجوب بحجاب النفس ، والحق محجوب
بحجاب القلب ، وحجاب النفس حجاب أرضي ظلماني ، وحجاب القلب حجاب سماوي نوراني ، ومن لم يفقد بدوام
التحقق بالشهود ولا يتعثر بأذيال الوجود فلا يسمع ولا يجد ، ومن هذه المطالعة قال بعضهم : الوجد نارد دم كلي
لا ينفذ في قول .

ومر بمشاد الدينوري رحمه الله يقوم فيهم قوال ؛ فلما رأوه أمسكوا ، فقال : ارجعوا إلى ما كنتم فيه ، فوافقه
لوجعت ملاهي الدنيا في أذن ما شغل همي ولا شغى بعض ماني ، فالوجد صراخ الروح المبطل بالنفس تارة في حق
المبطل وبالقلب تارة في حق الحق ، فثار الوجد الروح الروحاني في حق الحق والمبطل ، ويكون الوجد تارة من فهم
المعاني يظهر ، وتارة من مجرد النغات والألحان ، فما كان من قبيل المعاني تشارك النفس الروح في السماع في حق المبطل
ويشارك القلب في حق الحق . وما كان من قبيل مجرد النغات تتجرد الروح للسماع ، ولكن في حق المبطل تسترق
النفس السمع ، وفي حق الحق يسترق القلب السمع . ووجه استدلال الروح النغات : أن العالم الروحاني يجمع الحسن
والجمال ، ووجود التناسب في الأكوان مستحسن قولاً وفعلاً ، ووجود التناسب في الهياكل والصور وميراث الروحانية
ففي سمع الروح النغات اللذيذة والألحان المتناسبة تأثر به لوجود الجسمية ، ثم يتقيد ذلك بالشرع بمصالح عالم الحكمة ،
ورعاية الحدود للعبد عين المصلحة عاجلاً وآجلاً ، ووجه آخر : إنما يستلذ الروح النغات ، لأن النغات بها تطلق النفس
مع الروح بالإيماء الخفي لإشارة ورمزها بين المتعاشقين ، وبين النفوس والأرواح تعاشق أصلي ينزع ذلك إلى أروثة
النفس وذكرورة الروح ، والميل والتعاشق بين الذكر والأنثى بالطبيعة واقع ، قال الله تعالى ﴿ وجعل منها زوجها
ليسكن إليها ﴾ وفي قوله سبحانه ﴿ منها ﴾ إشعار بتلازم وتلاصق موجب للائتناف والتعاشق ، والنغات يستلذها
الروح لأنها مناغاة بين المتعاشقين ، وكما أن في عالم الحكمة كونت حواء من آدم في عالم القدرة كونت النفس من
الروح الروحاني ، فهذا التآلف من هذا الأصل : وذلك أن النفس روح حيواني تجنس بالقرب من الروح الروحاني
وتجنسها بأن امتازت من أرواح جنس الحيوان يشرف القرب من الروح الروحاني فصارت نفساً ، فإذا تكونت النفس
من الروح الروحاني في عالم القدرة ، كتكون حواء من آدم في عالم الحكمة ، فهذا التآلف والتعاشق ونسبة الأروثة
والذكرورة من ههنا ظهر ، وبهذا الطريق استطابت الروح النغات ، لأنها مراسلات بين المتعاشقين ومكالة بينهما ،
وقد قال القائل :

تكلم منا في الوجود عيوننا * فنحن سكوت والهوى يتكلم

فإذا استلذ الروح النغمة وجدت النفس المعلولة بالهوى وتحركت بما فيها لحدوث العارض ، ووجد القلب المعلول
بالإرادة وتحرك بما فيه لوجود العارض في الروح :

شربنا وأمرقنا على الأرض جرعة * وللأرض من كأس الكرام نصيب

فنفس المبطل أرض لسماء قلبه ، وقاب الحق أرض لسماء روحه ، فالبالغ مبلغ الرجال والمتجره المتجره من أعراض
الأحوال خلع فعل النفس والقلب بالوادي المقدس ، وفي مقعد صدق عند مليك مقتدر استقر وعرس ، وأحرق بنور
العيان أجرام الألحان ولم تصنع روحه إلى مناغاة عاشقه لشغفه بمطالعة آثار محبوبه ، فالهائم المشتاق لا يسمعه كشف
ظلامه العشاق ، ومن هذا حاله لا يحركه السماع رأساً ، وإذا كانت الألحان لا تلحق هذا الروح مع لطافة مناجاتها

وخفي لطف مناغاتها ، كيف يلحقه السماع بطريق فهم المعاني وهو أكثف ، ومن يضعف عن حمل لطيف الإشارات كيف يتحمل ثقل أعباء العبارات ، وأقرب من هذا عبارة تقرب إلى الأفهام : الوجد وارد يرد من الحق سبحانه وتعالى ، ومن يريد الله لا يقنع بما من عند الله ، ومن صار في محل القرب متحققا به لا يلهيه ولا يحركه ما ورد من عند الله ؛ فالوارد من عند الله مشعري بعد ، والقريب واجد فإيصنع بالوارد ، والوجد نار والقلب للواجد ربه نور ، والنور ألطف من النار ، والكثيف غير مسيطر على اللطيف ، فما دام الرجل البالغ مستمرا على جادة استقامته غير منحرف عن وجه معهوده بنوازع وجوده لا يدركه الوجد بالسماع ، فإن دخل عليه فتور أو عاقه قصور بدخول الابتلاء عليه من المستلح المحسن يتألف المحن من تفاريق صور الابتلاء : أي يدخل عليه وجود يدركه الوجد لعود العبد عند الابتلاء إلى حجاب القلب ، فن هو مع الحق إذا زل وقع على القلب . ومن هو مع القلب إذا زل وقع على النفس .

سمعت بعض مشايخنا يحكي عن بعضهم أنه وجد من السماع ، فقيل له : أين حالك من هذا ؟ فقال : دخل على داخل أوردني هذا المورد .

قال بعض أصحاب سهل : صحبت سهلا سنين ما رأيته تغير عند شيء كان يسمعه من الذكر والقرآن ؛ فلما كان في آخر عمره قرئ عنده (فالיום لا يؤخذ منكم فدية) فارتعد وكاد يسقط ؛ فسألته عن ذلك ؟ قال : نعم لحقني ضعف . وسمع مرة (الملك يومئذ الحق للرحمن) فاضطرب ، فسأله ابن سالم وكان صاحبه قال : قد ضعفت ؛ فقيل له : إن كان هذا من الضعف فما القوة ؟ قال : القوة أن السكامل لا يرد عليه وارد لا يبتلعه بقوة حاله فلا يغيره الوارد . ومن هذا القبيل قول أبي بكر رضي الله عنه : هكذا كنا حتى قست القلوب ، لما رأى الباكي يبكي عند قراءة القرآن . وقوله : « قست ، أي تصلبت وأدمنت سماع القرآن وألفت أوارده فاستغربته حتى تغير والواجد كالمتغرب . لهذا قال بعضهم : حالي قبل الصلاة كحالي في الصلاة إشارة منه إلى استمرار حال الشهود فهكذا في السماع كقبل السماع . وقد قال الجنيد : لا يضر نقصان الوجد مع فضل العلم ، وفضل العلم أتم من فضل الوجد . وبلغنا عن الشيخ حماد رحمه الله كان يقول : البكاء من بقية الوجود . وكل هذا يقرب البعض من البعض في المعنى لمن عرف الإشارة فيه ، وفهم وهو عزيز الفهم ، عزيز الوجود ، واعلم أن للباكين عند السماع مواجيد مختلفة فمنهم من يبكي خوفا ، ومنهم من يبكي شوقا ، ومنهم من يبكي فرحا ؛ كما قال القائل :

طفع السرور على حتى لاني * من عظم ما قد سرتني أبكاني

قال الشيخ أبو بكر السكتاني رحمه الله : سماع العوام على متابعة الطبع ، وسماع المريدين رغبة ورهبة ، وسماع الأولياء رؤية الآلاء والنعماء ، وسماع العارفين على المشاهدة ، وسماع أهل الحقيقة على الكشف والعيان ؛ ولكل واحد من هؤلاء مصدر ومقام . وقال أيضا : الموارد تزداد تصادف شكلا أو موافقا فأى وارد صادف شكلا ما زجه ؟ وأى وارد صادف موافقا ساكنه ؟ وهذه كلها مواجيد أهل السماع . وما ذكرناه حال من ارتفع عن السماع . وهذا الاختلاف منزل على اختلاف أقسام البكاء التي ذكرناها من الخوف والشوق والفرح ، وأعلاها بكاء الفرح بمثابة قدم يقدم على أهله بعد طول غربته فمعد رؤية الأهل يبكي من قوة الفرح وكثرته .

وفي البكاء رتبة أخرى أعز من هذه يعز ذكرها ويكبر نشرها لقصور الأفهام عن إدراكها ؛ فربما يقابل ذكرها بالإسكار ويخفى بالاستكبار ، ولكن يعرفها من وجدها قدما ووصولا أو فهمها نظرا كثيرا ومثولا ، وهو بكاء الوجدان غير بكاء الفرح ، وحدوث ذلك في بعض مواطن حق اليقين ، ومن حق اليقين في الدنيا للمسامات يسيرة فيوجد البكاء في بعض مواطنه لوجود تغير وتباين بين المحدث والتديم ، فيكون البكاء رشحا هو من وصف الحدثن لو هج سبطوة عظمة الرحمن . ويقرب من ذلك مثلا في الشاهد قطر الغمام بتلاقى مختلف الأجرام . وهذا وإن عز مشعر ببقية تقدح في صرف الفناء . نعم قد يتحقق العبد في الفناء متجردا عن الآثار منغمسا في الأنوار ، ثم يرتقى منه إلى مقام البقاء ، ويرد إليه الوجود مظهرا ، فتعود إليه أقسام البكاء خوفا وشوقا وفرحا ووجدانا ؛ شاكلة صورها ومباينة حقائقها .

بفرق لطيف يدركه أثرابه ، وعند ذلك يعود عليه من السماع أيضا قسم ، وذلك القسم مقدور له مقهور معه يأخذه إذا أراد ويرده إذا أراد ، ويكون هذا السماع من المتمكن بنفس اطمأننت واستنارت وبايئت طبيعتها واكتسبت طمأنينتها ، وأكسبها الروح معنى منه فيكون سماعه نوع تمتع للنفس كتمتعها بإحاطات اللذات والشهوات لأن يأخذ السماع منه أو يزيد به أو يظهر عليه منه أثر ، فتسكون النفس في ذلك بمثابة الطفل في حجر الوالدي يفرحه في بعض الاوقات ببعض ما يربه . ومن هذا القبيل ما نقل أن أبا محمد الراشي كان يشغل أصحابه بالسماع وينزل عنهم ناحية يصلي ؛ فقد تطرق هذه النفثات مثل هذا المصلي فتتدل إليها النفس متعمدة بذلك ؛ فيزداد مورد الروح من الانس صفاء عند ذلك لبعدها النفس عن الروح في تمتعها ، فإنها مع طمأنينتها توصف من الاجنية بوضعها وجبلتها ، وفي بعدها توفر أقسام الروح من الفتوح ، ويكون طروق الألحان سماعه في الصلاة غير محيل بينه وبين حقيقة المناجاة ، وفهم تنزيل الكلمات ، وتصل الأقسام إلى محالها غير مزاحمة ، ولا مزاحمة وذلك كله لسعة شرح الصدر بالإيمان والله المحسن المنان ولهذا قيل السماع لقوم كاللدواء ، ولقوم كالغذاء ، ولقوم كالمروحة . ومن عود أقسام البكاء ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لآبي : اقرأ ، فقال : اقرأ عليك وعليك أنزل ؟ فقال : أحب أن أسمعه من غيري . فافتتح سورة النساء حتى بلغ قوله تعالى ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ فإذا عيناه تهللان . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استقبل الحجر واستلمه ثم وضع شفتيه عليه طويلا يبيكي ، وقال : يا عمر ههنا تسكب العبرات . والمتمكن تعود إليه أقسام البكاء ، وفي ذلك فضيلة سألتها النبي صلى الله عليه وسلم فقال : اللهم ارزقني عينين هطالتين ، ويكون البكاء في الله ، فيكون لله ويكون بالله هو الاتم لعوده إليه بوجود مستأنف موهوب له من الكريم المنان في مقام البقاء .

الباب الخامس والعشرون : في القول في السماع تأديبا واعتناء

ويتضمن هذا الباب آداب السماع ، وحكم التخريق وإشارات المشايخ في ذلك ، وما في ذلك من المأثور والمحدور مبنى التصوف على الصدق في سائر الأحوال وهو جد كله ، لا ينبغي لصديق أن يعتمد الحضور في يكون مجمع فيه سماع إلا بعد أن يخلص النية لله تعالى ويتوقع به مزيدا في إرادته وطلبه ، ويحذر من ميل النفس لشيء من هواها ، ثم يقدم الاستخارة للحضور ويسأل الله تعالى إذا عزم البركة فيه . وإذا حضر يلزم الصدق والوقار بسكون الأطراف ، قال أبو بكر السكتاني رحمه الله : المستمع يجب أن يكون في سماعه غير مستروح إليه يهيج منه السماع وجداً أو شوقاً أو غلبة أو واردا والوارد عليه يفنيه عن كل حركة وسكون ، فيتيقن الصديق استدعاء الوجد ويجتذب الحركة فيه مهما أمكن سيما بحضرة الشيوخ .

حكى أن شابا كان يصحب الجنيد رحمه الله وكلما سمع شيئا زعق وتغير ، فقال له يوما : إن ظهر منك شيء بعد هذا فلا تصحبنى ، فكان بعد ذلك يضبط نفسه ، وربما كان من كل شعرة منه تقطر قطرة عرق ، فلما كان يوما من الأيام زعق زعقة فخرج روحه . فليس من الصدق إظهار الوجد من غير وجدنازل ، أو ادعاء الحال من غير حال حاصل ؛ وذلك عين النفاق .

قيل كان النصر اباذى رحمه الله كثير الوله بالسماع فعوتب في ذلك فقال : نعم هو خير من أن تقعد وتغتاب ، فقال له أبو عمرو بن بجميد وغيره من إخوانه : هيات يا أبا القاسم زلة في السماع شر من كذا وكذا سنة تغتاب الناس . وذلك أن زلة السماع إشارة إلى الله تعالى وترويح للحال بصريح المحال . وفي ذلك ذنوب متعددة منها : أنه يكذب على الله تعالى أنه وهب له شيئا وما وهب له . والكذب على الله من أقبح الزلات ، ومنها : أن ينثر بعض الحاضرين فيحسن به الظن والإغرار بخيانة ، قال عليه السلام : من غشنا فليس منا ، ومنها أنه إذا كان مبطلا ويرى بعين الصلاح فسوف يظهر منه بعد ذلك ما يفسد عقيدة المعتقد فيه فيفسد عقيدته في غيره بمن يظن به الخير من أمثاله ،

فيكون سبباً إلى فساد العقيدة في أهل الصلاح ، ويدخل بذلك ضرر على الرجل الحسن الظن مع فساد عقيدته؛ فينقطع عنه مدد الصالحين ويتشعب من هذا آفات كثيرة يعثر عليها من يبحث عنها ومنها أنه يحوج الحاضرين إلى موافقته في قيامه وقعوده فيكون متكلفاً مكلفاً للناس بباطله ، ويكون في الجمع من يرى بنور الفراسة أنه مبطل ويحمل على نفسه الموافقة للجمع مدارياً ويكثر شرح الذنوب في ذلك فليتق الله في ربه ولا يتحرك إلا إذا صارت حركته حركة المرتعش الذي لا يجد سبيلاً إلى الإمساك ، وكالعاطس الذي لا يقدر أن يرد الغطسة ، وتكون حركته بمثابة النفس الذي يدعو إليه داعية الطبع قهراً .

قال السري : شرط الواحد في زعقته أن يبلغ إلى حد لوضرب وجهه بالسيف لا يشعر فيه بوجع ، وقد يقع هذا لبعض الواجدين نادراً ، وقد لا يبلغ الواحد هذه الرتبة من الغيبة ، ولكن زعقته تخرج كالتنفس بنوع إرادة مزوجة بالاضطرار . فهذا الضبط من رعاية الحركات ورد الزعقات وهو في تمزيق الثياب أكد ، فإن ذلك يكون إتلاف المال وإنفاق المحال ، وهكذا رى الخرقه إلى الحادى لا ينبغي أن يفعل إلا إذا حضرته نية يجتنب فيها التكلف والمراعاة وإذا حسنت النية فلا بأس بإلقاء الخرقه إلى الحادى ، فقد روى عن كعب بن زهير أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد وأنشده أبياته التي أولها .

بانت سعاد قلبي اليوم متبول *

حتى انتهى إلى قوله فيها .

إن الرسول لسيف يستضاء به * مهتد من سيوف الله مسلول

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أنت ؟ ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، أنا كعب بن زهير ؛ فرمى رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه بردة كانت عليه ، فلما كان زمن معاوية بعث إلى كعب بن زهير : بعنا بردة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعشرة آلاف ، فوجه إليه ما كنت لأوثر بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً . فلما مات كعب بعث معاوية إلى أولاده بعشرين ألفاً وأخذ البردة وهي البردة الباقية عند الإمام الناصر لدين الله اليوم عادت بركتها على أيامه الزاهرة .

وللتصوفة آداب يتعاهدونها ، ورعايتها حسن الأدب في الصحبة والمعاشرة ، وكثير من السلف لم يكونوا يعتمدون ذلك ؛ ولكن كل شيء استحسناه وتواطوا عليه ولا ينكره الشرع لا وجه للإنكار فيه . فمن ذلك أن أحدهم إذا تحرك في السباع فوقعت منه خرقه أو نازله وجد ورمى عمامته إلى الحادى ، فلم يستحسن عندهم موافقة الحاضرين له في كشف الرأس إذا كان ذلك من متقدم وشيخ ، وإن كان ذلك من الشبان في حضرة الشيوخ فليس على الشيوخ موافقة الشبان في ذلك ، وينسحب حكم الشيوخ على بقية الحاضرين في ترك الموافقة للشبان ، فإذا سكتوا عن السماع برد الواحد إلى خرقته ، وبوافقه الحاضرون برفع العائم ثم ردها على الرأس في الحال للموافقة ، والخرقه إذا رميت إلى الحادى هي للحادى إذا قصد إعطائه إياها ، وإن لم يقصد إعطائها للحادى ، فقليل هي للحادى لأن المحرك هو ومنه صدر الموجب لرمى الخرقه . وقال بعضهم : هي للجمع والحادى واحد منهم لأن المحرك قول الحادى مع بركة الجمع في إحداث الوجد ، وإحداث الوجد لا يتقاصر عن قول القائل فيكون الحادى واحداً منهما في ذلك .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر : من وقف بمكان كذا فله كذا ، ومن قتل فله كذا ومن أسر فله كذا ، فتسارع الشبان وأقام الشيوخ والوجوه عند الرايات ، فلما فتح الله على المسلمين طلب الشبان أن يجعل ذلك لهم ، فقال الشيوخ : كنا ظهرا لكم وردنا فلا تذهبوا بالغنائم دوتنا ، فأنزل الله تعالى ﴿ يستولونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ﴾ فقسم النبي صلى الله عليه وسلم بينهم بالسوية .

وقيل : إذا كان القوال من القوم يجعل كواحد منهم ، وإذا لم يكن من القوم فما كان له قيمة يؤثر به ، وما كان من خرق الفقراء يقسم بينهم . وقيل إذا كان القوال أخيراً فليس له منها شيء ، وإن كان متبرعاً يؤثر بذلك ، وكل هذا

إذا لم يكن هناك شيخ يحكم ، فأما إذا كان هناك شيخ يهاب ويمثل أمره فالشيخ يحكم في ذلك بما يرى ، فقد تختلف الأحوال في ذلك وللشيخ اجتهاد فيفعل ما يرى فلا اعتراض لأحد عليه ، وإن فداها بعض المحبين أو بعض الحاضرين فرضى القوال والقوم بما رضوا به وعاد كل واحد منهم إلى خرقته فلا بأس بذلك ، وإذا أصر واحد على الإيثار بما خرج منه لنية له في ذلك يؤثر بخرقته الحادى ، وأما تمزيق الخرقه المجروحة التي مزقتها واجد صادق عن غلبة سلبت اختياره كغلبة النفس ، فمن يتعمد إمساكه فنيته في تفرقتها وتمزيقها التبرك بالخرقة لأن الوجد أثر من آثار فضل الحق وتمزيق الخرقه أثر من آثار الوجد ، فصارت الخرقه متأثرة بأثر رباني من حقها أن تفدى بالنفوس وتترك على الرءوس إكراما واعزازا :

تضوع أرواح نجد من ثيابهم * يوم القدوم لقرب العهد بالدثار

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستقبل الغيث ويتبرك به ويقول « حديث عهد بربه » فالخرقة المعزقة حديثة العهد ، لحكم المجروحة أن تفرق على الحاضرين ، وحكم ما يتبعها من الخرق الصالح أن يحكم فيها الشيخ ، إن خصص بشئ منها بعض الفقهاء فله ذلك ، وإن خرقها خرقا فله ذلك ، ولا يقال هذا تفريط وسرف فإن الخرقه الصغيرة ينتفع بها في موضعها عند الحاجات كالكبيرة .

وورى عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه أنه قال : أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم حلة حرير فأرسل بها إلى فخرت فيها فقال لى « ما كنت لأكره لنفسى شيئا أَرْضاه لك فشققها بين النساء خيرا » وفى رواية أتيت فقلت : ما أصنع بها ألبسها ؟ قال : لا ، ولكن اجعلها خيرا بين الفواطم ، أراد فاطمة بنت أسد وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفاطمة بنت حمزة ، وفى هذه الرواية أن الهدية كانت حلة مكفوفة بحرير ، وهذا وجه فى السنة لتمزيق الثوب وجعله خرقا .

حكى أن الفقهاء والصوفية بنيسابور اجتمعوا فى دعوة فوقعت الخرقه ، وكان شيخ الفقهاء الشيخ أبابحمد الجوينى وشيخ الصوفية الشيخ أبالقاسم القشيرى ؛ فقسمت الخرقه على عاداتهم ؛ فالتفت الشيخ أبو محمد إلى بعض الفقهاء وقال سرا ، هذا سرف وإضاعة للمال ، فسمع أبو القاسم القشيرى ولم يقل شيئا حتى فرغت القسمة ، ثم استدعى الخادم وقال : انظر فى الجمع من معه سجادة خرق ائتى بها ، فجاء بسجادة ثم أحضر رجلا من أهل الخبرة ، فقال : هذه السجادة بكم تشتري فى المزاد ؟ قال بدينار ، قال : ولو كانت قطعة واحدة كم تساوى ؟ قال : نصف دينار ثم التفت إلى الشيخ أبى محمد وقال : هذا لا يسمى إضاعة المال . والخرقه المعزقة تقسم على جميع الحاضرين من كان من الجنس أو من غير الجنس إذا كان حسن الظن بالقوم معتقدا للتبرك بالخرقة .

روى طارق بن شهاب أن أهل البصرة غزوانهاوند ، وأمدم أهل الكوفة وعلى أهل الكوفة عمار بن ياسر ، فظهروا وأراد أهل البصرة أن لا يقسموا لأهل الكوفة من الغنيمة شيئا ، فقال رجل من بنى تميم لعمار . أيها الأجدع تريد أن تشاركنا فى غنائمنا ، فكتب إلى عمر بذلك ، فكتب عمر رضى الله عنه ، إن الغنيمة لمن شهد الواقعة ، وذهب بعضهم إلى أن المجروح من الخرق يقسم على الجمع وما كان من ذلك صحيحا يعطى للقوال ، واستدل بما روى عن أبي قتادة قال : لما وضعت الحرب أوزارها يوم حنين وفرغنا من القوم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قتل قتيلا فله سلبه » وهذا له وجه فى الخرقه الصحيحة ، فأما المجروحة لحكمها لإسهام الحاضرين والقسمة لهم ، ولودخل على الجمع وقت القسمة من لم يكن حاضرا قسم له . روى أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : لما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خيبر بثلاث ، فأسهم لنا ولم يسهم لاحد لم يشهد الفتح غيرنا ، ويسكره للقوم حضور غير الجنس عندهم فى السباع كتهذه لاذوق له من ذلك فينكر ما لا ينكر ، أو صاحب دنيا يحوج إلى المدارة والتكاف ، أو متكلف للوجد يشوش الوقت على الحاضرين بتواجده .

أخبرنا أبو زرعة طاهر عن والده أبى الفضل الحافظ المقدسى قال أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الملك المظفرى

بسرخس قال أخبرنا أبو علي الفضل بن منصور بن نصر الكاغدي السمرقندي إجازة ، قال حدثنا الهيثم بن كليب قال أخبرنا أبو بكر عمار بن اسحق قال حدثنا سعيد عامر عن شعبة عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس قال : كذا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نزل عليه جبريل عليه السلام فقال : يا رسول الله إن فقراء أمتك يدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام ؛ ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هل فيكم من يثبنا ؟ فقال بدوى : نعم يا رسول الله فقال مات فأنشأ الأعرابي :

قد لسعت حية الهوى كسبدي * فلا طيب لها ولا راق

إلا الحبيب الذي شغفت به * فعنده رقيتي وترياق

فتواجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتواجد الأصحاب معه حتى سقط رداؤه عن منكبه ، فلما فرغوا أوى كل واحد منهم إلى مكانه ، قال معاوية بن أبي سفيان ما أحسن لعبكم يا رسول الله ، فقال : « مه يا معاوية ليس بكم من لم يهتز عند سماع ذكر الحبيب ، ثم قسم رداؤه رسول الله صلى الله عليه وسلم على من حاضرم بأربعائة قطعة . فهذا الحديث أوردناه مسندا كما سمعناه ووجدناه ، وقد تكلم في صحته أصحاب الحديث . وما وجدنا شيئا نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاكل وجد أهل الزمان وسماعهم واجتماعهم إلا هذا ، وما أحسنه من حجة للصوفية وأهل الزمان في سماعهم وتمزيقهم الخرق وقسمتها أن لو صح والله أعلم .

ويخالف سري أنه غير صحيح ، ولم أجد فيه ذوق اجتماع النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه وما كانوا يعتمدونه على ما بلغنا في هذا الحديث ويأبى القلب قبوله ، والله اعلم بذلك .

الباب السادس والعشرين : في خاصية الأربعينية التي يتعاهدها الصوفية

ليس مطلوب القوم من « الأربعين » شيئا مخصوصا لا يطلبونه في غيرها ؟ ولكن لما طرقتهم مخالفات حكم الأوقات أحبوا تقبيل الوقت بأربعين رجاء أن يذسحب حكم الأربعين على جميع زمانهم ، فيكونوا في جميع أوقاتهم كهيئتهم في الأربعين . على أن الأربعين خصت بالذكر في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أخلص لله أربعين صباحا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » ، وقد خص الله تعالى الأربعين بالذكر في قصة موسى عليه السلام وأمره بتخصيص الأربعين بمزيد تبطل قال الله تعالى ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام وعد بنى إسرائيل وهم بمصر أن الله تعالى إذا أهلك عدوهم واستفدّهم من أيديهم يأتهم بكتاب من عند الله تعالى فيه تبيان الحلال والحرام والحدود والأحكام . فلما فعل الله ذلك وأهلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب ، فأمره الله تعالى أن يصوم ثلاثين يوما - وهو ذو القعدة - فلما تمت الثلاثون ليلة أنكر خلوف فنهق فسوك بعود خرنوب ، فقالت له الملائكة : كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك . فأمره الله تعالى أن يصوم عشرة أيام من ذى الحجة وقال له أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك ؟ ولم يكن صوم موسى عليه السلام ترك الطعام بالنهار وأكله بالليل ، بل طوى الأربعين من غير أكل . فدل على أن خلوف المعدة من الطعام أصل كبير في الباب حتى احتاج موسى إلى ذلك مستعدا لمسكالة الله تعالى .

والعلوم الدنيوية في قلوب المنقطعين إلى الله تعالى ضرب من المسكالة : ومن انقطع إلى الله أربعين يوما مخلصا متعاهدا نفسه بخفة المعدة يفتح الله عليه العلوم الدنيوية كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك . غير أن تعيين الأربعين من المدة في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي أمر الله تعالى موسى عليه السلام بذلك والتجديد والتقيد بالأربعين لحكمة فيه . ولا يطلع أحد على حقيقة ذلك إلا الأنبياء إذا عرفهم الحق ذلك أو من يخصه الله تعالى بتعريف ذلك من غير الأنبياء . ويلوح في سر ذلك معنى والله اعلم .

وذلك أن الله تعالى لما أراد بتكوين آدم من تراب قدر التخمير بهذا القدر من العدد . كما ورد « نحر طينة آدم

بيده أربعين صباحاً ، فكان آدم لما كان مستصلحاً لعمارة الدارين وأراد الله تعالى منه عمارة الدنيا كما أراد منه عمارة الجنة كونه من التراب تركيباً يناسب عالم الحكمة والشهادة ، وهذه الدار الدنيا . وما كانت عمارة الدنيا تأتى منه وهو غير مخلوق من أجزاء أرضية سفلية بحسب قانون الحكمة . فمن التراب كونه ، وأربعين صباحاً خمر طينته ؛ ليمعد بالتخمير أربعين صباحاً بأربعين حجاباً من الحضرة الإلهية كل حجاب هو معنى مودع فيه يصلح به لعمارة الدنيا ويتعوق به عن الحضرة الإلهية ومواطن القرب ؛ إذ لو لم يتعوق بهذا الحجاب ما عمرت الدنيا . فتأصل البعد عن مقام القرب فيه لعمارة عالم الحكمة وخلافة الله تعالى في الأرض . فالتبتل لطاعة الله تعالى والإقبال عليه والانتزاع عن التوجه إلى أمر المعاش بكل يوم يخرج عن حجاب هو معنى فيه مودع . وعلى قدر زوال كل حجاب ينجذب ويتخذ من زلافي القرب من الحضرة الإلهية التي هي مجمع العلوم ومصدرها . فإذا تمت الأربعون زالت الحجب وانصبت إليه العلوم والمعارف انصباباً . ثم العلوم والمعارف هي أعيان انقلبت أنواراً باتصال لكسير نور العظمة الإلهية بها ، فانقلبت أعيان حديث النفس علوماً إلهامية ، وتصدت أجرام حديث النفس لقبول أنوار العظمة ، فلو لا وجود النفس وحديثها ما ظهرت العلوم الإلهية ؛ لأن حديث النفس وعاء وجودى لقبول الأنوار وما للقلب في ذاته لقبول العلم شيء ، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» ، أشار إلى القلب باعتبار أن للقلب وجهاً إلى النفس باعتبار توجهه إلى عالم الشهادة ، وله وجه إلى الروح باعتبار توجهه إلى عالم الغيب ، فيستمد القلب العلوم المكونة في النفس ويخرجها إلى اللسان الذي هو ترجمانه ، فظهور العلوم من القلب لأنها متصلة فيه ، فللقب والروح مراتب من قرب الملهم سبحانه وتعالى فوق رتب الإلهام ، فالعبد بانقطاعه إلى الله تعالى واعتزال الناس يقطع مسافات وجوده ويستنبط من معدن نفسه جواهر العلوم وقد ورد في الخبر : «الناس معادن كعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» ، ففي كل يوم بإخلاصه في العمل لله يكشف طبقة من الطباق الترابية الجبلية المبعدة عن الله تعالى إلى أن يكشف باستكمال الأربعين أربعين طبقة ، في كل يوم طبقة من أطباق حجابيه ، وآية صحة هذا العبد وعلامة تأثره بالأربعين ووفائه بشروط الإخلاص أن يزهد الأربعين في الدنيا ويتجافى عن دار الغرور وينيب إلى دار الخلود ، لأن الزهد في الدنيا من ضرورة ظهور الحكمة ، ومن لم يزهد في الدنيا ما ظفر بالحكمة ، ومن لم يظفر بالحكمة بعد الأربعين تبين أنه قد أخل بالشروط ولم يخلص لله تعالى ، ومن لم يخلص لله ما عبد الله ، لأن الله تعالى أمرنا بالإخلاص كما أمرنا بالعمل فقال تعالى ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ .

أخبرنا الشيخ طاهر بن أبي الفضل لإجازة قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف لإجازة قال أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي قال أخبرنا أبو منصور الضبي قال حدثنا محمد بن أشرس قال حدثنا حفص بن عبد الله قال حدثنا إبراهيم بن طهمان عن عاصم عن زر عن صفوان بن عسال رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كان يوم القيامة يحى الإخلاص والشرك يبخثون بين يدي الرب عز وجل ، فيقول الرب للإخلاص : انطلق أنت وأهلك إلى الجنة . ويقول للشرك : انطلق أنت وأهلك إلى النار » ، وبهذا الإسناد قال السلمي سمعت علي بن سعيد وسأله عن الإخلاص ما هو ؟ قال سمعت إبراهيم الشقي وسأله عن الإخلاص ما هو قال سمعت محمد بن جعفر الخفاف وسأله عن الإخلاص ما هو قال سألت أحمد بن بشار عن الإخلاص ما هو قال سألت أبا يعقوب الشروطى عن الإخلاص ما هو قال سألت أحمد بن غسان عن الإخلاص ما هو قال سألت أحمد بن علي الهجيمي عن الإخلاص ما هو قال سألت عبد الواحد بن زيد عن الإخلاص ما هو قال سألت الحسن عن الإخلاص ما هو قال سألت حذيفة عن الإخلاص ما هو قال سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الإخلاص ما هو قال : سألت جبريل عليه السلام عن الإخلاص ما هو : قال : سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو ؟ قال : هو سر من سرى أودعته قلب من أحببت من عبادى .

فمن الناس من يدخل الخلوة على مراغمة النفس ، إذ النفس بطبعها كارهة للخلوة ميالة إلى مخالطة الخلق ، فإذا أرغمتها عن مقار عاداتها وحبسها على طاعة الله تعالى يعقب كل مرارة تدخل عليها حلوة في القلب .

قال ذواتون رُحِمه الله : لم أر شيئاً أبعث على الإخلاص من الخلوة ، ومن أحب الخلوة ، فقد استمسك بعمود الإخلاص وظفر بركن من أركان الصدق . وقال الشبلي رحمه الله لرجل استوصاه : الزم الوحدة واح اسمك عن القوم واستقبل الجدار حتى تموت ، وقال يحيى بن معاذ رحمه الله : الوحدة منية الصديقين .

ومن الناس من ينبعث من باطنه داعية الخلوة وتجتذب النفس إلى ذلك وهذا أتم وأكمل وأدل على كمال الاستعداد وقد روى من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يدل على ذلك فيما حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إمامنا قال : أخبرنا الحافظ أبو القاسم اسمعيل بن أحمد المقرئ قال أخبرنا جعفر بن الحسك المسكن قال أخبرنا أبو عبد الله الصنعاني قال أخبرنا أبو عبد الله البغوي قال أخبرنا إسحق الديري قال أخبرنا عبد الرزاق عن معمر قال : أخبرني الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي : الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتحدث فيه الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فيه فقال : اقرأ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بقارئ ؟ فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ؟ فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق حتى بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده حتى دخل على خديجة فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة : مالي - وأخبرها الخبر - فقال : قد خشيت على عقي ، فقالت : كلا أبشر فوالله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتصديق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق ، ثم انطلقت به خديجة رضي الله عنها حتى أتت به ورقة بن نوفل وكان امرأ تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمى ، فقالت له خديجة : يا عم اسمع من ابن أخيك ، فقال ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره الخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا هو الناموس الذي أنزل على موسى ، ياليتني فيها جذعا ، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرجني هم ؟ قال ورقة : نعم إنه لم يأت أحد قط بما جئت به إلا عودي وأؤذي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرأ مؤزرا .

وحدث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه : فيبتلى أنا أمشى سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فجلست منه رعباً فرجعت فقلت : زملوني زملوني ؟ فذرني فأزل الله تعالى : يا أيها المدثر قم فأنذر إلى (والجز فاجهر) .

وقد نقل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب مراراً كي يردى نفسه من شواهد الجبال ، فكلما وافي ذروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدى له جبرائيل عليه السلام فقال : يا محمد إنك لرسول الله حقاً فيسكن لذلك جأشه ؛ وإذا طالت عليه فترة الوحي عاد لمثل ذلك فيتبدى له جبريل فيقول له مثل ذلك ، فهذه الأخبار المنبئة عن بدء أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم هي الأصل في إثبات المشايخ الخلوة للريدين والطلابين ؛ فإنهم إذا أخلصوا لله تعالى في خلواتهم يفتح الله عليهم ما يؤنسهم في خلوتهم تعويضاً من الله إياهم عما تركوا لأجله ، ثم خلوة القوم مستمرة ، وإما الأربعون واستكمالها له أثر ظاهر في ظهور مبادئ بشرى الحق سبحانه وتعالى وسنرح مواهبه السنية .

الباب السابع والعشرون : في ذكر فتوح الأربعينية

وقد غلط في طريق الخلوة والأربعينية قوم وحرفوا الكلم عن مواضعه ودخل عليهم الشيطان وفتح عليهم باباً

من الغرور ودخلوا الخلوة على غير أصل مستقيم من تأدية حق الخلوة بالإخلاص ، وسمعوا أن المشايخ والصوفية كانت لهم خلوات وظهّرت لهم وقائع وكوشفوا بغرائب وعجائب فدخلوا الخلوة لطلب ذلك ، وهذا عين الاعتلال ومحض الضلال ، وإنما القوم اختاروا الخلوة والوحدة لسلامة الدين وتفقد أحوال النفس وإخلاص العمل لله تعالى .

نقل عن أبي عمرو الأنماطي أنه قال : إن يصفو للعاقل فهم الأخير إلا بإحكامه ما يجب عليه من إصلاح الحال الأول ، والمواطن التي ينبغي أن يعرف منها أمزجاء هو أم متقص ؟ فعليه أن يطلب مواضع الخلوة لكي لا يعارضه شاغل فيفسد عليه ما يريد .

أنبأنا طاهر بن أبي الفضل إجازة عن أبي بكر بن خلف إجازة قال . أنبأنا أبو عبد الرحمن قال سمعت أبا تميم المغربي يقول من اختار الخلوة على الصحبة فينبغي أن يكون خاليا من جميع الأفكار إلا ذكر ربه عز وجل ، وخاليا من جميع المرادات إلا مراد ربه ، وخاليا من مطالبه النفس من جميع الأسباب فإن لم يكن بهذه الصفة فإن خلوته توقعه في فتنة أو بلية .

أخبرنا أبو زرعة إجازة قال : أخبرنا أبو بكر إجازة قال أخبرنا أبو عبد الرحمن قال سمعت منصورا يقول : سمعت محمد بن حامد يقول : جاء رجل إلى زيارة أبي بكر الوراق وقال له : أوصني ، فقال : وجدت الدنيا والآخرة في الخلوة والقلة ووجدت شرهما في الكثرة والاختلاط .

فمن دخل الخلوة معتلا في دخوله دخل عليه الشيطان وسوله أنواع الطغيان ، وامتلأ من الغرور والمحال فظن أنه على حسن الحال ، فقد دخلت الفتنة على قوم دخلوا الخلوة بغير شروطها وأقبلوا على ذكر من الأذكار واستجمعوا نفوسهم بالعدالة عن الخلوة ، ومنعوا الشواغل من الحواس كفعل الرهايين والبراهمة والفلاسفة ، والوحدة في جمع الهم لها تأثير في صفاء الباطن مطلقا ، فما كان من ذلك بحسن سياسة الشرع وصدق المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنتج تنوير القلب والزهد في الدنيا وحلاوة الذكر ، والمعاملة لله بالإخلاص من الصلاة والتلاوة وغير ذلك ، وما كان من ذلك من غير سياسة الشرع ومتابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتح صفاء في النفس يستعان به على اكتساب علوم الرياضة مما يعتنى به الفلاسفة والديريون - خذلهم الله تعالى - وكلما أكثر من ذلك بعد عن الله . ولا يزال المقبل على ذلك يستغويه الشيطان بما يكتسب من العلوم الرباطية أو بما قد يترامى له من صدق الخاطر وغير ذلك حتى يركن إليه الركون التام ويظن أنه فاز بالمقصود ، ولا يعلم أن هذا الفن من الفائدة غير ممنوع من النصارى والبراهمة ، وليس هو المقصود من الخلوة يقول بعضهم إن الحق يريد منك الاستقامة وأنت تطلب الكرامة ، وقد يفتح على الصادقين شيء من خوارق العادات ، وصدق الفراسة ، ويتبين ما سيحدث في المستقبل ، وقد لا يفتح عليهم ذلك ، ولا يقدح في حالهم عدم ذلك ، وإنما يقدح في حالهم الانحراف عن حد الاستقامة ، فما يفتح من ذلك على الصادقين يصير سببا لمزيد بقائهم والداعي لهم إلى صدق المجاهدة والمعامله والزهد في الدنيا والتخلق بالأخلاق الحميدة وما يفتح من ذلك على من ليس تحت سياسة الشرع يصير سببا لمزيد بعده وغروره وخافقه واستطائه على الناس وازدراؤه بالخلق ، ولا يزال به حتى يخلع ربة الإسلام عن عنقه وينسك الحدود والأحكام والحلال والحرام ، ويظن أن المقصود من العبادات ذكر الله تعالى ويترك متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ ثم يتدرج من ذلك إلى تلحد وترندق نعوذ بالله من الضلال ، وقد يلوح لأفهام خيالات يظنونها وقائع ويشبهونها بوقائع المشايخ من غير علم بحقيقة ذلك ، فمن أراد تحقيق ذلك فليعلم أن العبد إذا أخلص لله وأحسن نيته وقعد في الخلوة أربعين يوما أو أكثر ؛ فمنهم من يبشر باطنه صفو اليقين ويرفع الحجاب عن قلبه ويصير كما قال قائلهم : رأى قلبي ربي ، وقد يصل إلى هذا المقام تارة بإحياء الأوقات بالصالحات وكف الجوارح وتوزيع الأوراد من الصلاة والتلاوة والذكر على الأوقات ، وتارة ببادئة الحق لموضع صدقه وقوة استعداده مبادأة من غير عمل وجد منه ، وتارة يحد ذلك بملزمة ذكر واحد من الأذكار لأنه لا يزال يردد ذلك الذكر ويقول ، وتكون عبادته الصلوات الخمس بسفنها الراتبه لحسب ، وسائر أوقاته مشغولة بالذكر الواحد لا يتخللها فتور ، ولا يوجد منه قصور ، ولا يزال يردد ذلك الذكر ملتزما به حتى في طريق الوضوء

وساعة الاكل لا يفتر عنه .

واختار جماعة من المشايخ من الذكر كلمة « لا إله إلا الله » وهذه الكلمة لها خاصية في تدوير الباطن وجمع الهم إذا داوم عليها صادق غلص ، وهي من مواهب الحق لهذه الأمة ، وفيها خاصية لهذه الأمة ، فيما حدثنا شيخنا ضياء الدين إمامه قال : أخبرنا أبو القاسم الدمشقي الحافظ قال أخبرنا عبد الكريم بن الحسين قال أخبرنا عبد الوهاب الدمشقي قال أخبرنا محمد بن خريم قال حدثنا هشام بن عمار قال حدثنا الوليد بن مسلم قال أخبرنا عبد الرحمن بن زيد عن أبيه : أن عيسى بن مريم عليه السلام قال : رب أنبئني عن هذه الأمة المرحومة ؟ قال : أمة محمد عليه الصلاة والسلام علماء أخفياء أتقياء حلماء أصفياء حكماء كأنهم أنبياء يرضون مني بالقليل من العطاء وأرضى منهم باليسير من العمل وأدخلهم الجنة بلا إله إلا الله يا عيسى هم أكثر سكان الجنة لأنها لم تذلل لسن قوم قط بلا إله إلا الله كما ذلت ألسنتهم ، ولم تذلل رقاب قوم قط بالسجود كما ذلت رقابهم .

وعن عبد الله عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : إن هذه الآية مكتوبة في التوراة ؛ يأيتها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للؤمنين وكنا للأمين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ، ولا يجزى بالسيدة السيئة ولكن يعفو ويصفح وإن أقبضه حتى تقام به الملة المعوجة بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، ويفتحوا أعيننا عما وآذاننا وقلوبنا غلغا ، فلا يزال العبد في خلوته يردد هذه الكلمة على لسانه مع مواطأة القلب حتى تصير الكلمة متأصلة في القلب مزبلة لحديث النفس ينوب معناها في القلب عن حديث النفس ؛ فإذا استرلت الكلمة وسهلت على اللسان يتشربها القلب ، فلو سككت اللسان لم يسكت القلب ، ثم تتجهر في القلب وتتجهرها يستكن نور اليقين في القلب ، حتى إذا ذهبت صورة الكلمة من اللسان والقلب لا يزال نورها متجورها ويتخذ الذكر مع رؤية عظمة المذكور سبحانه وتعالى ، ويصير الذكر حينئذ ذكر الذات ، وهذا الذكر هو المشاهدة والمكاشفة والمعاينة - أعنى ذكر الذات بتجهر نور الذكر - وهذا هو المقصد الأنصى من الخلوة . وقد يحصل هذا من الخلوة لا بذكر الكلمة بل بتلاوة القرآن إذا أكثر من التلاوة واجتهد في مواطأة القلب مع اللسان ، حتى تجرى التلاوة على اللسان ، ويقوم معنى الكلام مقام حديث النفس ، فيدخل على العبد سهولة في التلاوة والصلاة ويتنور الباطن بتلك السهولة في التلاوة والصلاة ويتجهر نور الكلام في القلب ويكون منه أيضا ذكر الذات ويجمع نور الكلام في القلب مع مطالعة عظمة المتكلم سبحانه وتعالى ، ودون هذه الموهبة ما يفتح على العبد من العلوم الإلهامية الدنية ، وإلى حين بلوغ العبد هذا المبلغ من حقيقة الذكر والتلاوة إذا صفا باطنه قد يغيب في الذكر من كمال أسسه وحلاوة ذكره حتى يلتحق في غيبته في الذكر بالنائم ، وقد تنجلي له الحقائق في لبسة الخيال أولا كما تسكشف الحقائق للنائم في لبسة الخيال ، كمن رأى في المنام أنه قتل حية فيقول له المعبر : تظفر بالعدو ، فظفره بالعدو هو كشف كاشفه الحق تعالى به ، وهذا الظفر روح مجرد صاغ مثل الرؤيا له جسدا لهذا الروح من خيال الحية ، فالروح الذى هو كشف الظفر لإخبار الحق ، ولبسة الخيال الذى هو بمثابة الجسد مثال انبعث من نفس الرأى في المنام من استصحاب القوة الوهمية والخيالية من اليقظة فيتألف روح كشف الظفر مع جسد مثال الحية فافتقر إلى التعبير ، إذ لو كشف بالحقيقة التى هى روح الظفر من غير هذا المثال الذى هو بمثابة الجسد ما احتاج إلى التعبير ، فكان يرى الظفر ويصح الظفر وقد يتجرّد الخيال باستصحاب الخيال والوهم من اليقظة في المنام من غير حقيقة فيكون المأمأضناث أحلام لا يعبر وقد يتجرّد لصاحب الخلوة الخيال المنبعث من ذاته من غير أن يكون وعاء لحقيقة فلا يبنى على ذلك ولا يلتفت إليه ، فليس ذلك واقعة وإنما هو خيال ، فأما إذا غاب الصادق فيه ذكر الله تعالى حتى يغيب عن المحسوس بحيث لو دخل عليه داخل من الناس لا يعلم به لغيبته في الذكر ، فعند ذلك قد ينبعث في الابتداء من نفسه مثال وخيال ينفخ فيه روح الكشف فإذا عاد من غيبته فلما يأتيه تفسيره من باطنه موهبة من الله تعالى وإما يفسره له شيخه ، كما يعبر المعبر المنام ويكون ذلك واقعة لأنه كشف حقيقة في لبسة مثال ، وشرط صحة الواقعة الإخلاص في الذكر أو لا ثم الاستغراق في الذكر ثانيا

وعلامة ذلك الزهد في الدنيا وملزمة التقوى لأن الله جعله بما يكشف به في واقعه مورد الحكمة ، والحكمة تحكم بالزهد والتقوى ، وقد يتجرد للذاكر الحقائق من غير لبسة المثال فيكون ذلك كشفا وإخبارا من الله تعالى إياه ، ويكون ذلك تارة بالرؤية وتارة بالسماع ، وقد يسمع في باطنه وقد يطرق ذلك من الهواء لا من باطنه كالهوائف يعلم بذلك أمرا يريد الله إحداه له أو لغيره فيكون إخبار الله إياه بذلك مزيدا ليقينه ، أو يرى في المنام حقيقة الشيء . نقل عن بعضهم أنه أتى بشراب في قدح فوضعه من يده وقال : قد حدث في العالم حدث ، ولا أشرب هذا دون أن أعلم ماهو ؛ فانكشف له أن قوما دخلوا مكة وقتلوا فيها .

وحكى عن أبي سليمان الخواص قال : كنت راكبا حاراً إلى روما ، وكان يؤذيه الذباب فيطأطأ رأسه ؛ فكنت أضرب رأسه بخشبة كانت في يدي ؛ فرفع الحمار رأسه إلى وقال : اضرب فإنك على رأسك تضرب ، قيل له : بأبأسليمان وقع لك ذلك أو سمعته ، فقال : سمعته يقول كما سمعته . وحكى عن أحمد بن عطاء الروذباري قال : كان لي مذهب في أمر الطهارة ؛ فكنت ليلة من الليالي أستنجي إلى أن مضى ثلث الليل ولم يطب قلبي فتضجرت « فبكيت وقلت : يارب العفو ؛ فسمعت صوتاً ولم أر أحداً يقول يا أبا عبد الله العفو في العلم .

وقد يكشف الله تعالى عبده بآيات وكرامات تربية للعبد وتقوية ليقينه وإيمانه . قيل : كان عند جعفر الخالدي رحمه الله فص له قيمة ، وكان يوماً من الأيام راكباً في السارية في دجلة ، فهم أن يعطى الملاح قطعة وحل الخرقعة فوقع الفص في الدجلة ، وكان عنده دعاء للضالة مجرب ، وكان يدعو به فوجد الفص في وسط أوراق كان يتصفحها والدعاء هو أن يقول : يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع على ضالتي . وسمعت شيخنا بهمدان حكى له شخص أنه كوشف في بعض خلواته بولد له في جيحون كاد يسقط في المساء من السفينة قال : فزجرته فلم يسقط . وكان هذا الشخص بنواحي همدان وولده يجيحون ؛ فلما قدم الولد أخبر أنه كاد يسقط في المساء فسمع صوت والده فلم يسقط . وقال عمر رضي الله عنه : يا سارية الجبل - على المنبر بالمدينة وسارية بهاوند - فأخذ سارية نحو الجبل وظفر بالعدو ؛ فقبل لسارية كيف علت ذلك ؟ فقال سمعت صوت عمر وهو يقول : يا سارية الجبل .

سئل ابن سالم وكان قد قال : للإيمان أربعة أركان : ركن منه الإيمان بالقدرة ، وركن منه الإيمان بالحكمة ، وركن منه التبري من الحول والقوة ، وركن منه الاستعانة بالله عز وجل في جميع الأشياء قيل له : ما معنى قولك الإيمان بالقدرة ؟ فقال هو أن تؤمن ولا تنكر أن يكون لله عبد بالشرق - قائماً على يمينه - ويكون من كرامة الله أن يعطيه من القوة ما ينقلب من يمينه على يساره ، فيكون بالمغرب تؤمن بجواز ذلك وكونه .

وحكى لي فقير أنه كان بمكة وأرجف على شخص ببغداد أنه قدمات ؛ فكشفه الله بالرجل وهو راكب يمشي في سوق بغداد فأخبر إخوانه أن الشخص لم يمت . وكان كذلك حتى ذكر لي هذا الشخص أنه في تلك الحالة التي كوشف بالشخص راكباً قال : رأيت في السوق وأنا أسمع بأذني صوت المطرقة من الحداد في سوق بغداد وكل هذه مواهب الله تعالى وقد بكشف بها قوم وتعطى ، وقد يكون فوق هؤلاء من لا يكون له شيء من هذا لأن هذه كلها تقوية اليقين . ومن منح صرف اليقين لاسحاجة له إلى شيء من هذا . فشكل هذه الكرامات دون ما ذكرناه من تجوهر الذكر في القلب ووجوده ذكر الذات ، فإن تلك الحكمة فيها تقوية للبردين وتربية للسالكين ليزدادوا بها يقيناً يجذبون به إلى مراغمة النفوس والسلو عن ملاذ الدنيا ويستنهض منهم بذلك ساكن عزهم لعبارتهم الأوقات بالقربات ؛ فيترجون بذلك وبروقون لطريقة من كوشف بصرف اليقين من ذلك لمكان أن نفسه أسرع لإجابته وأسهل انقياداً وأتم استعداداً . والاولون استلن بذلك منهم ما استوعر واستكشف منهم ما استتر .

وقد لا يمنع صور ذلك الرهايين والبراهمة عن هو غير منتهج سبل الهدى وراكب طريق الردى ليكون ذلك في حقهم مكر واستدراجاً ؛ ليستحسنوا حالهم ويستقروا في مقار الطرد والبدل لبقاء لهم فيما أراد الله منهم من العمى والضلال والردى والوبال ؛ حتى لا يغتر السالك بيسير شيء يفتح له ، ويعلم أنه لو مشى على الماء والهواء لا ينفعه ذلك حتى يؤدي

حق التقوى والزهد ، فأما من تعوق بخيال أوقع بمحال ولم يحكم أساس خلوته بالإخلاص يدخل الخلوة بالزور ويخرج بالغرور ، فيرفض العبادات ويستحققها ويسلبه الله لذة المعاملة وتذهب عن قلبه هبة الشريعة ويفتضح في الدنيا والآخرة .
فليعلم الصادق أن المقصود من الخلوة التقرب إلى الله تعالى بعمارة الأوقات وكف الجوارح عن المسكروحات ، فيصلح لقوم من أرباب الخلوة إامة الأولاد وتوزيعها على الأوقات ، ويصالح لقوم ملازمة ذكر واحد ويصالح لقوم دوام المراقبة ، ويصلح لقوم الانتقال من الذكر إلى الأوراد ، ولقوم الانتقال من الأوراد إلى الذكر ، ومعرفة مقادير ذلك يعمله المصحوب للشيخ المطلع على اختلاف الأوضاع وتنوعها مع نصحه للأمة وشفقته على السكافة ، يريد المريد لله لالنفسه ، غير مبتلى بهوى نفسه ، محبا للاستتباع ، ومن كان محبا للاستتباع فإفساده مثل هذا أكثر مما يصلحه .

الباب الثامن والعشرون : في كيفية الدخول في الأربعينية

روى أن داود عليه السلام لما ابتلى بالخطيئة خر لله ساجدا أربعين يوما وليلة حتى أتاه الغفران من ربه .
وقد تقرر أن الوحدة والعزلة ملاك الأمر ومتمسك أرباب الصدق ، فمن استمرت أوقاته على ذلك لجميع عمره خلوة وهو الأسلم لدينه ، فإن لم يتيسر له ذلك وكان مبتلى بنفسه أولا ثم بالأهل والأولاد ثانيا فليجعل لنفسه من ذلك نصيبا .

نقل عن سفیان الثوري فيما روى أحمد بن حرب عن خالد بن زيد عنه أنه قال : كان يقال ما أخلص عبد لله أربعين صباحا إلا أنبت الله سبحانه الحكمة في قلبه وزهده الله في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره داء الدنيا ودوامها ، فيتجاهد العبد نفسه في كل سنة مرة ، وأما المريد الطالب إذا أراد أن يدخل الخلوة فأكمل الأمر في ذلك أن يتجرد من الدنيا ويخرج كل ما يملكه ويغتسل غسلا كاملا - بعد الاحتياط للثوب والمصلى بالنظافة والطهارة - ويصلى ركعتين ويتوب إلى الله تعالى من ذنوبه بىكاه وتضرع واستكانة وتخضع ، ويسوى بين السريرة والعلاية ولا ينطوى على غل وغش وحقد وحسد وخيانة ، ثم يقعد في موضع خلوته ولا يخرج إلا للصلاة الجمعة وصلاة الجماعة ، وترك المحافظة على صلاة الجماعة غلط وخطأ ، فإن وجد تفرقة في خروجه يكون له شخص يصلى معه جماعة في خلوته ، ولا ينبغي أن يرضى بالصلاة منفردا البتة فترك الجماعة يخشى عليه آفات ، وقد رأينا من يتشوش عقله في خلوته ولعل ذلك بشؤم إصراره على ترك صلاة الجماعة ، غير أنه ينبغي أن يخرج من خلوته لصلاة الجماعة وهو ذاكر لا يفتر عن الذكر ، ولا يكثر إرسال الطرف إلى ما يرى ، ولا يصغى إلى ما يسمع لأن القوة الخاطفة والمتخيلة كلوح ينتشش بكل مرئى ومسموع ، فيكثر بذلك الوسواس وحديث النفس والخيال ، ويجتهد أن يحضر الجماعة بحيث يدرك مع الإمام تكبيرة الإحرام ، فإذا سلم الإمام وانصرف ينصرف إلى خلوته ، ويتق في خروجه استجلاء نظر الخلق إليه وعلوهم بجلوسه في خلوته ، فقد قيل : لا تطمع في المنزلة عند الله وأنت تريد المنزلة عند الناس ، وهذا أصل يفسده كثير من الأعمال إذا أهمل وينصلح به كثير من الأحوال إذا اعتبر ، ويكون في خلوته جاغلا بوقته شيئا موهوبا لله بإدامة فعل الرضا إما تلاوة أو ذكرا أو صلاة أو مراقبة ، وأى وقت قتر عن هذه الأقسام ينام . فإن أراد تعيين أعداد من الركعات ومن التلاوة والذكر أتى بذلك شيئا فشيئا ، وإن أراد أن يكون بحكم الوقت يعتمد أخف ما على قلبه من هذه الأقسام ، فإذا قتر عن ذلك ينام ، وإن أراد أن يبقى في سجود واحد أو ركوع واحد أو ركعة واحدة أو ركعتين ساعة أو ساعتين فعل ، ويلازم في خلوته إدامة الوضوء ولا ينام إلا عن غلبة بعد أن يدفع النوم عن نفسه مرات . فيكون هذا شغله ليله ونهاره وإذا كان ذاكر لكمة : لا إله إلا الله . وشتمت النفس الذكر باللسان يقولها بقلبه من غير حركة اللسان . وقد قال سهل بن عبد الله إذا قلت : لا إله إلا الله . مد الكلمة وانظر إلى قدم الحق فأنبتته وأبطل ما سواه ، وليعلم أن الأمر كلسلسلة يتداعى - لمقطة حلقة فليكن دائم التلزم بفعل الرضا .

وأما قوت من في الأربعينية والخلوة فالأولى أن يقتنع بالخبز والملح ويتناول كل ليلة طلاوا احدا - بالبهنادى -

يتناوله بعد العشاء الآخرة ، وإن قسمه نصفين يأكل أول الليل نصف رطل وآخر الليل نصف رطل فيكون ذلك أخف للمعدة وأعون على قيام الليل وإحيائه بالذكر والصلاة ، وإن أراد تأخير فطوره إلى السحر فليفعل ، وإن لم يصبر على ترك الإدام يتناول الإدام ، وإن كان الإدام شيئاً يقوم مقام الخبز ينقص من الخبز بقدر ذلك ، وإن أراد التقليل من هذا القدر أيضاً ينقص كل ليلة دون اللقمة بحيث ينتهي تقلله في العشر الأخير من الأربعين إلى نصف رطل وإن قوى قنع النفس بنصف رطل من أول الأربعين ونقص يسيراً كل ليلة بالتدريج حتى يعود فطوره إلى ربع رطل في العشر الأخير .

وقد اتفق مشايخ الصوفية على أن بناء أمرهم على أربعة أشياء : قلة الطعام وقلة المنام وقلة الكلام والاعتزال عن الناس ، وقد جعل للجوع وقتان ؛ أحدهما : آخر الأربع والعشرين ساعة فيكون من الرطل لكل ساعتين أوقية بأكلة واحدة يجعلها بعد العشاء الآخرة أو يقسمها أكلتين كما ذكرنا ، والوقت الآخر : على رأس اثنتين وسبعين ساعة ؛ فيكون الطي ليلتين والإفطار في الليلة الثالثة ، ويكون لكل يوم وليلة ثلث رطل ، وبين هذين الوقتين وقت وهو أن يفطر من كل ليلتين ليلة ، ويكون لكل يوم وليلة نصف رطل ، وهذا ينبغي أن يفعله إذا لم ينتج عليه سامة وضجرا وقلة اشراح في الذكر والمعاملة ، فإذا وجد شيئاً من ذلك فليفطر كل ليلة ويأكل الرطل في الوقتين أو الوقت الواحد ، فالنفس إذا أخذت بالإفطار من كل ليلتين ليلة ، ثم ردت إلى الإفطار كل ليلة تقنع ، وإن سوحت بالإفطار كل ليلة لا تقنع بالرطل وتطلب الإدام والشهوات ، وقس على هذا ، فهي إن أطعمت طعمت ، وإن أقنعت قنعت ، وقد كان بعضهم ينقص كل ليلة حتى يرد النفس إلى أقل قوتها ، ومن الصالحين من كان يعير القوت بنوى التمر وينقص كل ليلة نواة ، ومنهم من كان يعير بعود رطب وينقص كل ليلة بقدر نشاف العود ، ومنهم من كان ينقص كل ليلة ربع سبع الرغبة حتى ينفى الرغبة في شهر ، ومنهم من كان يؤخر الأكل ولا يعمل في تقليل القوت ولكن يعمل في تأخير بالتدريج حتى تندرج ليلة في ليلة ، وقد فعل ذلك طائفة حتى انتهى طيهم إلى سبعة أيام وعشرة أيام وخمسة عشر يوماً إلى الأربعين .

وقد قيل لسهل بن عبد الله : هذا الذي يأكل في كل أربعين وأكثر أكلة أين يذهب لهب الجوع عنه ؟ قال يطفئه النور ، وقد سألت بعض الصالحين عن ذلك فذكر لي كلاماً بعبارة دلت على أنه يجد فرحاً بربه ينطفئ معه لهب الجوع ، وهذا في الخلق واقع أن الشخص يطرقه فرح وقد كان جاعاً فيذهب عنه الجوع ، وهكذا في طرق الخوف يقع ذلك ، ومن فعل ذلك ودرج نفسه في شيء من هذه الأقسام التي ذكرناها لا يؤثر ذلك في نقصان عقله واضطراب جسمه إذا كان في حماية الصدق والإخلاص ، وإنما يخشى في ذلك وفي دوام الذكر على من لا يخلص لله تعالى .

وقد قيل : حد الجوع أن لا يميز بين الخبز وغيره مما يؤكل ، ومتى عيبت النفس الخبز فليس بجائع وهذا المعنى قد يوجد في آخر الحدين بعد ثلاثة أيام ، وهذا جوع الصديقين ، وطلب الغذاء عند ذلك يكون ضرورة لقوام الجسد والقيام بفرائض العبودية . ويكون هذا حد الضرورة لمن لا يجتهد في التقليل بالتدريج فأما من درج نفسه في ذلك فقد يصبر على أكثر من ذلك إلى الأربعين - كما ذكرنا - وقد قال بعضهم : حد الجوع أن يبزق ؛ فإذا لم يقع الذباب على بزاقه يدل هذا على خلو المعدة من الدسمة ، وصفاء البزاق كالماء الذي لا يقصده الذباب .

روى أن سفيان الثوري وإبراهيم بن أدهم رضي الله عنهما كما يطويان ثلاثاً ثلاثاً وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يطوى ستاً . وكان عبد الله بن الزبير رضي الله عنه يطوى سبعة أيام . واشتهر حال جدنا محمد بن عبد الله المعروف بعمويه رحمه الله ، وكان صاحب أحمد الأسود الدنوري - أنه كان يطوى أربعين يوماً ، وأقصى ما بلغ في هذا المعنى من الطي : رجل أدركنا زمانه وما رأيت - كان في أهر يقال له الزاهد خليفة كان يأكل في كل شهر لوزة ، ولم نسمع أنه بلغ في هذه الأمة أحد بالطي والتدريج إلى هذا الحد ، وكان في أول أمره على ما حكى ينقص القوت بنشاف العود ثم طوى حتى انتهى إلى اللوزة في الأربعين ، ثم إنه قد يسلك هذا الطريق جمع من الصادقين وقد يسلك غير الصادق

هذا لو جود هو مستمكن في باطنه يهون عليه ترك الأكل إذا كان له استحلاء لنظر الخلق وهذا عين النفاق فعوذ بالله من ذلك ، والصادق ربما يقدر على الطي إذا لم يعلم بحاله أحد ؛ وربما تضعف عزيمته في ذلك إذا علم بأنه يطوى ؛ فإن صدقه في الطي ونظره إلى من يطوى لأجله يهون عليه الطي ؛ فإذا علم به أحد تضعف عزيمته في ذلك ، وهذا علامة الصادق فهما أحسن في نفسه أنه يحب أن يرى بعين التمثل فليتهم نفسه فإن فيه شائبة النفاق ، ومن يطوى لله يعوضه الله تعالى فرحا في باطنه ينسيه الطعام ، وقد لا ينسى الطعام ولكن امتلاء قلبه بالإنوار يقوى جاذب الروح الروحاني فيجذبه إلى مركزه ومستقره من العالم الروحاني وينفر بذلك عن أرض الشهوة النفسانية ، وأما أثر جاذب الروح إذا تخلف عنه جاذب النفس عند كمال طمأنينتها وانعكاس أنوار الروح عليها بواسطة القلب المستنير فأجل من جذب المغناطيس للحديد ؛ إذ المغناطيس يجذب الحديد لروح في الحديد مشاكل للمغناطيس فيجذبه بنسبة الجنسية الخاصة ، فإذا تجنست النفس بعكس نور الروح الواصل إليها بواسطة القلب يصير في النفس روح استمدتها القلب من الروح وأداها إلى النفس فتجذب الروح النفس بجنسية الروح الحادثة فيها فتزدرى الاطعمة الدنيوية والشهوات الحيوانية ، ويتحقق عنده قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني » ، ولا يقدر على ما وصفناه إلا بعد تصير أعماله وأقواله وسائر أحواله ضرورة فيتناول من الطعام أيضا ضرورة ، ولو تكلم مثلا بكلمة من غير ضرورة التهب فيه نار الجوع النهاب الحلفاء بالنار ، لأن النفس الراقدة تستيقظ بكل ما يوقظها وإذا استيقظت نزعته إلى هواها ، فالعبد المراد بهذا إذا فطن لسياسة النفس ورزق العلم سهل عليه الطي وتداركته المعونة من الله تعالى ؛ لاسيما إن كشف بشيء من المنح الإلهية وقد حكى لي فقير أنه اشتد به الجوع وكان لا يطلب ولا يتسبب قال : فلما انتهى جوعى إلى الغاية بعد أيام فتح الله على بتفاحة قال : فتناولت التفاحة وقصدت أكلها فلما كسرتها كوشفت بحوراء نظرت إليها عقيب كسرها ، لحثت عندي من الفرح بذلك ما استغنيت عن الطعام أياما ، وذكر لي أن الحوراء خرجت من وسط التفاحة ، والإيمان بالقدرة ركن من أركان الإيمان فسلم ولا تنسك . قال سهل بن عبد الله رحمه الله : من طوى أربعين يوما ظهرت له القدرة من المملوكات وكان يقال : لا يزهد العبد حقيقة الزهد الذي لا مشوبة فيه إلا بمشاهدة قدرة من المملوكات وقال الشيخ أبو طالب المكي رحمه الله : عرفنا من طوى أربعين يوما بريضة النفس في تأخير القوت ، وكان يؤخر فطره كل ليلة إلى نصف سبع الليل ، حتى يطوى ليلة في نصف شهر ، فيطوى الأربعين في سنة وأربعة أشهر ، فتتدرج الأيام والليالي حتى يكون الأربعين بمنزلة يوم واحد ، وذكر لي أن الذي فعل ذلك ظهرت له آيات المملوكات وكوشف بمعاني قدرة من الجبروت تجلى الله بها له كيف شاء .

واعلم أن هذا المعنى من الطي والتثقل لو أنه عين الفضيلة ما فات أحدنا من الأنبياء ، ولكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبلغ من ذلك إلى أقصى غاياته ، ولا شك أن لذلك فضيلة لا تنسك ، ولكن لا تنحصر مواهب الحق تعالى في ذلك ، فقد يكون من يأكل كل يوم أفضل من يطوى أربعين يوما ، وقد يكون من لا يكشف بشيء من معاني القدرة أفضل من يكشف بها إذا كشفه الله بصرف المعرفة ، فالقدرة أثر من القادر . وعن أهل القرب القادر لا يستغرب ولا يستنكر شيئا من القدرة ، ويرى القدرة تتجلى له من سبب أجزاء علم الحكمة ، فإذا أخلص العبد لله تعالى أربعين يوما واجتهد في ضبط أحواله بشيء من الأنواع التي ذكرنا من العمل والذكر والقوت وغير ذلك ، تعود بركة تلك الأربعين على جميع أوقانه وساعاته ، وهو طريق حسن اعتمده طائفة من الصالحين .

وكان جماعة من الصالحين يختارون للأربعين ذا القعدة وعشر ذي الحجة ، وهي أربعون موسى عليه السلام . أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إجازة قال أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون إجازة قال : أخبرنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري إجازة قال أخبرنا أبو عمر محمد بن العباس قال حدثنا أبو محمد يحيى بن محمد ابن صاعد قال حدثنا الحسين بن الحسن المروزي قال حدثنا عبد الله بن المبارك قال حدثنا أبو معاوية الضرير قال حدثنا الحجاج عن مكحول قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أخلص لله تعالى العبادات أربعين يوما ظهرت

يشايح الحكمة من قابه على لسانه . .

الباب التاسع والعشرون : في أخلاق الصوفية وشرح الخلق

الصوفية أوفر الناس حظا في الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وأحقهم بإحياء سنته والتخلق بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من حسن الاقتداء وإحياء سنته ؛ على ما أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين شيخ الإسلام أبو أحمد عبد الوهاب بن علي قال أخبرنا أبو الفتح عبد الملك بن أبي القاسم الهروي قال أخبرنا أبو نصر عبد العزيز بن أحمد الترياق قال أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي قال أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي قال أخبرنا أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي قال حدثنا مسلم بن حاتم الأنصاري البصري قال حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري عن أبيه عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال : قال أنس بن مالك رضي الله عنه : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا بني إن قدرت أن تصبح وتمسى وليس في قلبك غش لأحد فافعل » ثم قال « يا بني وذلك من سنئي ، ومن أحيا سنئي فقد أحياني ومن أحياني كان معي في الجنة » فالصوفية أحيوا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنهم وقفوا في بداياتهم لرعاية أفواله ، وفي وسط حالهم اقتدوا بأعماله فأثمر لهم ذلك أن تحققوا في نهائياتهم بأخلاقه ، وتحسين الأخلاق لا يأتي إلا بعد تزكية النفس ، وطريق الزكية بالإذعان لسياسة الشرع ، وقد قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ لما كان أشرف الناس وأزكاهم نفسا كان أحسنهم خلقا ، قال مجاهد ﴿ على خلق عظيم ﴾ أي على دين عظيم ، والدين مجموع الأعمال الصالحة والأخلاق الحسنة .

سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت . كان خلقه القرآن . قال قتاده : هو ما كان يأتمر به من أمر الله تعالى وينتهي عما نهى الله عنه ، وفي قول عائشة : كان خلقه القرآن ، سر كبير وعلم غامض . ما نطق بذلك إلا بما خصها الله تعالى به من ركة الوحي السماوي وصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخصيصه إياها بكلمة « خذوا شطر دينكم من هذه الحميراء » وذلك أن النفوس مجبولة على غرائز وطبائع هي من لوازمها وضرورتها ، خلقت من تراب ولها بحسب ذلك طبع ، وخالقت من ماء ولها بحسب ذلك طبع ، وهكذا من حمأ مسنون ، ومن صلصال كالفخار ، وبحسب تلك الأصول التي هي مبادئ تكونها استفادت صفات من البهيمية والسبعية والشيطنية ، وإلى صفة الشيطنة في الإنسان إشارة بقوله تعالى ﴿ من صاصل كالفخار ﴾ لدخول النار في الفخار . وقد قال الله تعالى ﴿ وخلق الجان من نار ﴾ والله تعالى بخفي لطفه وعظيم عنايته نزع نصيب الشيطان من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ما ورد في حديث حليلة ابنة الحارث أنها قالت : في حديث طويل : فبينما نحن خلف بيوتنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم مع أخ له من الرضاعة في بهم لما ، جاءنا أخوه يشتد فقال : ذاك أخى القرشي قد جاء رجلا نعليهما ثياب بياض فأضجعهما فشقا بطنه ، فخرجت أنا وأبوه نشد نحوه فنجداه قائما منتقعا لونه فاعتنقه أبوه ، وقال : أي بني ما شأنك ؟ قال : جاءني رجلان عليهما ثياب بياض فأضجعا في شقا بطني ، ثم استخرجنا منه شيئا فطرحاه ، ثم ردها كما كان ، فرجعنا به معنا ، فقال أبوه يا حليلة : لقد خشيت أن يكون ابني هذا قد أصيب انطلق بنا فرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف قالت : فاحتملناه فلم ترع أمه إلا وقد قدمنا به عليها ، قالت : ما ردكا قد كتبنا عليه حريصين ، قلنا : لا والله لا ضير إلا أن الله عز وجل قد أدى عنا وقضينا الذي كان علينا ، وقلنا نخشى الأتلاف والأحداث نرده إلى أهله ، فقالت ماذا بكما فأصدقاني شأنكما ؟ فلم تدعنا حتى أخبرنا ما خبره ، فقالت : خشيتا عليه الشيطان كلا والله ما للشيطان عليه سبيل وإله لكائن لابني هذا شأن ألا أخبركما بخبره ؟ قلنا : بلى ، قالت : حملت به فما حملت حملا قط أخف منه : فأريت في النوم حين حملت به كأنه خرج مني نور قد أضاءت به قصور الشام ثم وقع حين ولدته وقوعا لم يقعه المولود معتمدا على يديه رافعا رأسه إلى السماء فدهاه عنكما . فبعد أن طهر الله رسوله من نصيب الشيطان بقيت النفس الزكية النبوية على حد نفوس البشر ، لها ظهور بصفات

وأخلاق مبقاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة للخلق لوجود أمهات تلك الصفات في نفوس الأمة بمزيد من الظلمة لتفاوت حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وحال الأمة ، فاستمدت تلك الصفات المبقاة بظهورها في رسول الله صلى الله عليه وسلم بتنزيل الآيات المحكمات بإزائها لقمعها ، تأديبا من الله لنبيه رحمة خاصة له وعامة للأمة ، موزعة بنزول الآيات على الآناء والأوقات عند ظهور الصفات ، قال الله تعالى ﴿ وقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ﴾ وتثبيت الفؤاد بعد اضطرابه بحركة النفس بظهور الصفات لارتباط بين القلب والنفس ، وعند كل اضطراب آية متضمنة لخلق صالح سنى إما نصريحا أو تعريضا ، كما تحركت النفس الشريفة النبوية لما كسرت رباعيته وصار الدم يسيل على الوجه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يمسحه ويقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ ، فأنزل الله تعالى ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ فاكتمى القلب النبوى لباس الاضطراب وفاء بعد الاضطراب إلى القرار ، فلما توزعت الآيات على ظهور الصفات في مختلف الأوقات صفت الاخلاق النبوية بالقرآن ليكون خلقه القرآن ، ويكون في إبقاء تلك الصفات في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى قوله عليه السلام : إنما أنسى لاسن ، فظهور صفات نفسه الشريفة وقت استنزال الآيات لتأديب نفوس الأمة وتهذيبها رحمة في حقهم حتى تزكى نفوسهم وتشرف أخلاقهم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الأخلاق مخزونة عند الله تعالى فإذا أراد الله تعالى بعد خيرا منحه منها خلقا ، وقال صلى الله عليه وسلم : إنما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق ، . وروى عنه صلى الله عليه وسلم : إن لله تعالى مائة وبضعة عشر خلقا من آتاه واحدا منها دخل الجنة ، فتقديرها وتحديدها لا يكون إلا بوحى سماوى لمرسل ونبي ، والله تعالى أبرز إلى الخلق أسماء منبئة عن صفاته سبحانه وتعالى وما أظهرها لهم إلا ليدعوم إليها ، ولولا أن الله تعالى أردع في القوى البشرية التخلق بهذه الاخلاق ما أبرزها لهم دعوة لهم إليها يختص برحمته من يشاء .

ولا يبعد - والله أعلم - أن قول عائشة رضى الله عنها ، كان خلقه القرآن ، فيه رمز غامض وإساءة خفى إلى الاخلاق الربانية فاحتمست من الحضرة الإلهية أن تقول : متخلقا بأخلاق الله تعالى ، فعبرت عن المعنى بقولها : كان خلقه القرآن . استحياء من سبحات الجلال وسرا للحال بلطف المقال ، وهذا من وفور علمها وكمال أدبها وبين قوله تعالى ﴿ ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم ﴾ وبين قوله ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ مناسبة مشعرة بقول عائشة رضى الله عنها : كان خلقه القرآن .

قال الجنيد رحمه الله : كان خلقه عظيما لأنه لم يكن له همة سوى الله تعالى ، وقال الواسطى رحمه الله : لأنه جاد بالكونين عوضا عن الحق ، وقيل : لأنه عليه السلام عاشر الخلق بخلقهم وباينهم بقلبه ؛ وهذا ما قاله بعضهم في معنى التصوف : التصوف الخلق مع الخلق والصدق مع الحق . وقيل : عظم خلقه حيث صغرت الأكوان في عينه بمشاهدة مكونها . وقيل سمي خلقه عظيما لاجتماع مكارم الاخلاق فيه .

وقد ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته إلى حسن الخلق في حديث أخبرنا به الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال : أخبرنا الفتح الهروى قال أخبرنا أبو نصر الترياقى قال أخبرنا أبو محمد الجراحى قال أخبرنا أبو العباس المحبوبي قال أخبرنا أبو عيسى الحافظ الترمذى قال حدثنا أحمد بن الحسين بن خراش قال حدثنا حبان بن هلال قال حدثنا مبارك بن فضالة قال حدثني عبد الله بن سعيد عن محمد بن المنكدر عن جابر رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن من أحبكم إلى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى مجلسا يوم القيامة الثرثارون المتشدقون المتفهمون ، قالوا : يا رسول الله علنا الثرثارون والمتشدقون والمتفهمون ؟ قال : المتكبرون ، والثرثار هو المكثار من الحديث ، والمتشدق المتطاول على الناس في الكلام .

قال الواسطى رحمه الله : الخلق العظيم أن لا يخاصم ولا يخاصم ، وقال أيضا ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ لوجدانك حلالة المطالمة على شرك . وقال أيضا : لأنك قبلت فنون ما أسديت من نعمي أحسن مما قبله غيرك من الأنبياء

والرسل وقال الحسين : لأنه لم يؤثر فيك جفاء الخلق مع مطالعة الحق . وقيل : الخلق العظيم لباس التقوى والتخلق بأخلاق الله تعالى إذ لم يبق للأعراض عند خطر .

وقال بعضهم . قوله تعالى ﴿ ولوقول علينا بعض الأقاويل لاخذنا منه باليمين ﴾ أتم لأنه حيث قال ﴿ وإنك ﴾ أحضره وإذا أحضره أغفله وحجبه ، وقوله ﴿ لاخذنا ﴾ أتم لازفيه فناء . في قول هذا القائل نظر ؛ فهلا قال : إن كان في ذلك فناء ففي قوله ﴿ وإنك ﴾ بقاء وهو بقاء بعد فناء ، والبقاء أتم من الفناء ، وهذا أليق بمنصب الرسالة لأن الفناء إنما عز لمزاحمة وجود مذموم ، فإذا زرع المذموم من الوجود وتبدلت النعوت فأى عزة تبقى في الفناء ؟ فيكون حضوره بالله لا بنفسه فأى حجة تبقى هنالك ؟

وقيل من أوز الخلق فقد أوى أعظم المقامات لأن للمقامات ارتباطا عاما والخلق ارتباط بالنعوت والصفات . وقال الجنيد : اجتمع فيه أربعة أشياء السخاء والألفة والنصيحة والشفقة . وقال ابن عطاء : الخلق العظيم أن لا يكون له اختيار ويكون تحت الحكم مع فناء النفس وفناء المألوف ، وقال أبو سعيد القرشي : العظيم هو الله ومن أخلاقه الجود والكرم والصفح والعفو والإحسان . ألا ترى إلى قوله عليه السلام : إن لله مائة وبضعة عشر خلقا من أنى بواحد منها دخل الجنة ، فلما تخلق بأخلاق الله تعالى وجد الثناء عليه بقوله ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ وقيل : عظم خلقك لأنك لم ترض بالأخلاق وسرت ولم تمكن إلى النعوت حتى وصلت إلى الذات ، وقيل : لما بعث محمد عليه الصلاة والسلام إلى الحجاز حجزه بها عن اللذات والشهوات وألقاه في الغربة والجفوة فلما صفا بذلك عن دنس الأخلاق قال له ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

وأخبرنا الشيخ الصالح أبو زرعة بن الحافظ أبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي عن أبيه قال : أخبرنا أبو عمر المليحي قال : أخبرنا أبو محمد عبدالله بن يوسف قال أخبرنا أبو سعيد بن الأعرابي قال حدثنا جعفر بن الحجاج الرقي قال أخبرنا أيوب بن محمد الوزان ، قال حدثني الوليد قال حدثني ثابت عن يزيد عن الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يقول : مكارم الأخلاق عشرة تكون في الرجل ولا تكون في ابنه وتكون في الابن ولا تكون في أبيه وتكون في العبد ولا تكون في سيده يقسمها الله تعالى لمن أراد به السعادة : صدق الحديث وصدق اليأس وأن لا يشبع وجاره وصاحبه جائعان وإعطاء السائل والمكافأة بالصنائع وحفظ الأمانة وصلة الرحم والتذم للصاحب وإقراء الضيف ورأسن الحياء . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة قال : تقوى الله وحسن الخلق ، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال : الغم والفرح ، يكون هذا الغم غم فوات الحظوظ العاجلة ، لأن ذلك يتضمن التسخط والتضجر ، وفيه الاعتراض على الله تعالى وعدم الرضا بالقضاء ، ويكون الفرح المشار إليه الفرح بالحظوظ العاجلة المنوع منه بقوله تعالى ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ وهو الفرح الذي قال الله تعالى ﴿ إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ لما رأى مفاتحه تنوء بالعصبة أول القوة . فأما الفرح بالآقسام الآخروية فمحمود ينافس فيه قال الله تعالى ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ وفسر عبدالله بن المبارك حسن الخلق فقال : هو بسط الوجه ، وبذل المعروف وكف الأذى .

فالصوفية راضوا نفوسهم بالمكابدات والمجاهدات حتى أجابت إلى تحسين الأخلاق . وكم من نفس تجيب إلى الأعمال ولا تجيب إلى الأخلاق . فنفس العباد أجابت إلى الأعمال وجمحت عن الأخلاق ، ونفوس الزهاد أجابت إلى بعض الأخلاق دون البعض ، ونفوس الصوفية أجابت إلى الأخلاق الكريمة كلها .

أخبرنا الشيخ أبو زرعة لإجازة عن أبي بكر بن خلف إجازة عن السلمي قال : سمعت حسين بن أحمد بن جعفر يقول سمعت أبا بكر الكتاني يقول : التصوف خلق فن زاد عليك بالخلق زاد عليك بالتصوف . فالعباد أجابت نفوسهم إلى الأعمال لأنهم يسلكون بنور الإسلام ، والزهاد أجابت نفوسهم إلى بعض الأخلاق لكونهم سلكوا بنور الإيمان ،

والصوفية أهل القرب سلكوا بنور الإحسان ، فلما باشر بواطن أهل القرب والصوفية نور اليقين وتأصل في بواطنهم ذلك انصلح القلب بكل أرجائه وجوانبه ، لأن القلب يبيض بعضه بنور الإسلام ، وبعضه بنور الإيمان ، وكله بنور الإحسان والإيقان . فإذا ابيض القلب وتنور انعكس نوره على النفس ، والقلب وجه إلى النفس ووجه إلى الروح ، وللنفس وجه إلى القلب ، ووجه إلى الطبع والغريزة . والقلب إذا لم يبيض كله لم يتوجه إلى الروح بكله ، ويكون ذا وجهين ، وجه إلى الروح ، ووجه إلى النفس ، فإذا ابيض كله توجه إلى الروح بكله ، فيتداركه مدد الروح ، ويزداد إشراقا وتنورا . وكلما اجتذب القلب إلى الروح اجتذبت النفس إلى القلب ، وكلما اجتذبت توجهت إلى القلب بوجهها الذي يليه ، وتنور النفس لتوجهها إلى القلب بوجهها الذي يلي القلب . وعلامة تفرها طمأنينتها قال الله تعالى ﴿ يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية ﴾ وتتور وجهها الذي يلي القلب بمثابة نورانية أحد وجهي الصدق لا اكتساب النورانية من اللؤلؤ . وبقائه شيء من الظلمة على النفس لنفسه وجهها الذي يلي الغريزة والطبع ، كبقائه ظاهر الصدق على ضرب من الكدر والنقصان مخالفا لنورانية باطنه . وإذا تنور أحد وجهي النفس لجأت إلى تحسين الأخلاق وتبديل النعوت ، ولذلك سمي الأبدال أبدالاً . والسرا لا كبر في ذلك أن قلب الصوفي بدوام الإقبال على الله ودوام الذكر بالقلب واللسان يرتقى إلى ذكر الذات ، ويصير حيثئذ بمثابة العرش . فالعرش قلب الكائنات في عالم الخلق والحكمة والقلب عرش في عالم الأمر والقدرة . قال سهل بن عبد الله التستري : القلب كالعرش والصدر كالكرسي . وقد ورد عن الله تعالى : لا يسعني أرضي ولا سمائي ويسعني قلب عبدی المؤمن .

فإذا اكتحل القلب بنور ذكر الذات وصار بحرا مواجا من نسيمات القرب جرى في جداول أخلاق النفس صفاء النعوت والصفات وتحقق التخلق بأخلاق الله تعالى . حكى عن الشيخ أبي علي الفارمزي أنه حكى عن شيخه أبي القاسم الكركافي أنه قال : إن الأسماء التسعة والتسعين تصير أوصافا للعبد السالك وهو بعد في السلوك غير واصل ، ويكون الشيخ عنى بهذا أن العبد يأخذ من كل اسم وصفا يلائم ضعف حال البشر وقصوره ، مثل أن يأخذ من اسم الله تعالى الرحيم ، معنى من الرحمة على قدر قصور البشر ، وكل لإشارات المشايخ في الأسماء والصفات التي هي أعز علومهم على هذا المعنى والتفسير . وكل من توهم بذلك شيئا من الخول تزندق وألحد .

وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذاً بوصية جامعة لحاسن الأخلاق فقال له : يا معاذ أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وترك الخيانة ، وحفظ الجوار ورحمة اليتيم ولين الكلام وبذل السلام وحسن العمل وقصر الأمل ولزوم الإيمان والتفقه في القرآن وحب الآخرة والجزع من الحساب وخفض الجناح ، وإبائك أن تسب حليماً أو تكذب عابداً أو قطع أثماً أو تعصى إماماً عادلاً أو تفسد أرضاً ، أوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر ، وأن تحدث لكل ذنب توبة ، السر بالسر ، والعلانية بالعلانية ، بذلك أدب الله عباده ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب ، وروى معاذ أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : حف الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب ،

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن علي بإسناده المتقدم إلى الترمذي رحمه الله قال : أخبرنا أبو كريب قال حدثنا قبيصة بن الليث عن مطرف عن عطاء عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال : سمعت النبي عليه السلام يقول : ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة ، وقد كان من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان أسخى الناس لا يبيت عنده دينار ولا درهم ، وإن فضل ولم يحده من يعطيه ويأتيه الليل لا يأوى إلى منزله حتى يبرأ منه ، ولا ينال من الدنيا ، وأكثر قوت عامه من أسير ما يجد من التمر والشعير ، ويضع ما عدا ذلك في سبيل الله ، لا يستل شيئا إلا يعطى ثم يعود إلى قوت عامه فوثر منه حتى ربما احتاج قبل انقضاء العام ، وكان يخفف النعل ويرقع الثوب ويخدم في مهنة أهله ويتطعم اللحم معهن ، وكان أشد الناس حياء وأكثرهم تواضعا فصولات الرحمن عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

الباب الثلاثون : في تفاصيل أخلاق الصوفية

من أحسن أخلاق الصوفية التواضع، ولا يلبس العبد لبسة أفضل من التواضع، ومن ظفر بكنز التواضع والحكمة يقيم نفسه عند كل أحد مقداراً يعلم أنه يقيمه، ويقوم كل أحد على ما عنده من نفسه؛ ومن رزق هذا فقد استراح وأراح (وما يعقلها إلا العالمون)

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسي، قال أخبرنا عثمان بن عبد الله، قال أخبرنا عبد الرحمن بن إبراهيم، قال حدثنا عبد الرحمن بن حمدان، قال حدثنا أبو حاتم الرازي، قال حدثنا النضر بن عبد الجبار، قال أخبرنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن سنان بن سعد عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله تعالى أوحى إلى أن تواضعوا ولا يبغي بعضكم على بعض».

وقال عليه السلام في قوله تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني) قال: «على البر والتقوى والرهبة وذلة النفس». وكان من تواضع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحجب دعوة الحر والعبد، ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو خذ أرنب ويكافئ عليها ويأكلها ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمساكين.

وأخبرنا أبو زرعة بإجازة عن ابن خلف بإجازة عن السلمي، قال أخبرنا أحمد بن علي المقرئ، قال أخبرنا محمد بن المنهال، قال حدثني أبي عن محمد بن جابر اليماني عن سليمان بن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن من رأس التواضع أن تبدأ بالسلام على من لقيت، وترد على من سلم عليك، وأن ترضى بالدون من المجلس، وأن لا تحب المدح والتركية والبر».

وورد أيضاً عنه عليه السلام «طوبى لمن تواضع من غير منقصة، وذلل في نفسه من غير مسكنة». سئل الجنيد عن التواضع؟ فقال: خفض الجناح والين الجانب. وسئل الفضيل عن التواضع؟ فقال: تخضع للحق وتنقاد له وتقبله بمن قاله وتسمع منه. وقال أيضاً: من رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب. وقال وهب بن منبه: مكتوب في كتاب الله: إني أخرجت الذر من صلب آدم فلم أجد قلباً أشد تواضعاً إلى من قلب موسى عليه السلام، فذلك اصطفيته وكتبته.

وقيل: من عرف كوامن نفسه لم يطمع في العلو والشرف ويسلك سبيل التواضع؛ فلا يخاصم من يذمه، ويشكر الله لمن يحمده.

قال أبو حفص: من أحب أن يتواضع قلبه فليصحب الصالحين وليلتزم بحرماتهم؛ فمن شدة تواضعهم في أنفسهم يقتدى بهم ولا يتكبر.

وقال لقمان عليه السلام: لكل شيء مطية، ومطية العمل التواضع. وقال الثوري: خمسة أنفس أعز الخلق في الدنيا: عالم زاهد، وفقه صوفي، وغني متواضع، وفقير شاكرو شريف سني. وقال الجلاء: لولا شرف التواضع كنا إذا مشينا نخاطر. وقال يوسف بن أسباط وقد سئل: ما غاية التواضع؟ قال: أن تخرج من بيتك فلا تلقى أحداً إلا رأيته خيراً منك.

ورأيت شيخنا ضياء الدين أبا النجيب - وكنت معه في سفره إلى الشام وقد بعث بعض أبناء الدنيا له طعاماً على رءوس الأسارى من الأفرنج وهم في قيودهم - فلما مدت السفرة والأسارى ينتظرون الأواني حتى تفرغ قال للخادم: أحضر الأسارى حتى يقعدوا على السفرة مع الفقراء، فجاء بهم وأقعدهم على السفرة صفوا واحداً، وقام الشيخ من سجاداته ومشى إليهم وقعد بينهم كالواحد منهم، فأكل وأكلوا، وظهر لنا على وجهه ما نازل باطنه من التواضع لله والانكسار في نفسه والسلاخه من التكبر عليهم بإيمانه وعمله.

أخبرنا أبو زرعة، بإجازة عن أبي بكر بن خلف، بإجازة عن السلمي قال: سمعت أبا الحسين الفارسي يقول:

سمعت الجريري يقول : صح عند أهل المعرفة أن للدين رأس مال : خمسة في الظاهر ، وخمسة في الباطن ؛ فأما اللواتي في الظاهر : فصدق في اللسان ، وسخاوة في الملك ، وتواضع في الأبدان ، وكف الأذى ، واحتتاله بلا إباء . وأما اللواتي في الباطن : لحب وجود سيده ، وخوف الفراق من سيده ، ورجاء الوصول إلى سيده ، والندم على فعله ، والحياء من ربه .

وقال يحيى بن معاذ : التواضع في الخلق حسن ، ولكن في الأغنياء أحسن . والتكبر سميج في الخلق ، ولكن في الفقراء أسميج .

وقال ذو النون : ثلاثة من علامات التواضع : تصغير النفس معرفة بالعييب ، وتعتظيم الناس حرمة للتوحيد ، وقبول الحق والنصيحة من كل واحد .

وقيل لأبي يزيد : متى يكون الرجل متواضعا ؟ قال : إذا لم ير لنفسه حقاما ولا حالا من عليه بشرها وازدراؤها ولا يرى أن في الخلق شرا منه .

قال بعض الحكماء : وجدنا التواضع مع الجهل والبخل ، أحمد من التكبر مع الأدب والسخاء .
وقيل لبعض الحكماء : هل تعرف نعمة لا يحسد عليها ، وبلاء لا يرحم صاحبه عليه ؟ قال : نعم ، أما النعمة فالتواضع ، وأما البلاء فالتكبر .

والكشف عن حقيقة التواضع : أن التواضع رعاية الاعتدال بين الكبر والضعفة ؛ فالتكبر رفع الإنسان نفسه فوق قدره ، والضعفة وضع الإنسان نفسه مكانا يرمى به ويفضى إلى تضييع حقه . وقد انفهم من كثير من إشارات المشايخ في شرح التواضع أشياء إلى حد أقاموا التواضع فيه مقام الضعة ، ويلوح فيه الهوى من أوج الإفراط إلى حضيض التفريط ، ويوهم انحرافا عن حد الاعتدال ، ويكون قصدهم في ذلك المبالغة في قمع نفوس المريدين خوفا عليهم من العجب والتكبر ؛ فقل أن ينفك مريد في مبادئ ظهور سلطان الحال من العجب ، حتى لقد نقل عن جمع من الكبار كلمات مؤذنة بالإعجاب ، وكل ما نقل من ذلك القليل من المشايخ لبقايا السكر عندهم وانحصارهم في مضيق سكر الحال وعدم الخروج إلى فضاء الصحو في ابتداء أمرهم ، وذلك إذا حلق صاحب البصيرة نظره يعلم أنه من استراق النفس السمع عند نزول الوارد على القلب ، والنفس إذا استرقت السمع عند ظهور الوارد على القلب ظهرت بصفته على وجه لا يحفوه على الوقت وصلافة الحال فيكون من ذلك كلمات مؤذنة بالعجب ، كقول بعضهم : من تحت خضراء السماء مثل ؟ وقول بعضهم : قدمي على رقبة جمع الأولياء ، وكقول بعضهم : أسرجت وألمجت وطفعت في أقطار الأرض وقلت هل من مبارز فلم يخرج إلى أحد ، إشارة منه في ذلك إلى تفرد في وقته . ومن أشكل عليه ذلك ولم يعلم أنه من استراق النفس السمع فلين ذلك بميزان أصحاب رسوله الله صلى الله عليه وسلم وتواضعهم واجتنابهم أمثال هذه الكلمات واستبعادهم أن يجوز للعبد النظائر بشيء من ذلك ، ولكن يجعل لكلام الصادقين وجه في الصحة ، ويقال : إن ذلك طمع عاينهم في سكر الحال وكلام السكراني يحمل ؛ فالمشايخ أرباب التمكين لما علموا في النفوس هذا الداء الدفين بالغوا في شرح التواضع إلى حد ألحقوه بالضعفة تدابوا للمريدين ، والاعتدال في التواضع : أن يرضى الإنسان بمنزلة دوين ما يستحقه ، ولو أن الشخص جهوح النفس لاوقفها على حد يستحقه من غير غير زيادة ولا نقصان ، ولكن لما كان الجروح في جبلته النفس - لكونها مخلوقة من صلصال كالنفخار فيها نسبة النارية وطلب الاستعلاء بطبعها إلى مركز النار - احتاجت للتدأوى بالتواضع وإيقافها دوين ما تستحقه لئلا يتطرق إليها التكبر ، فالتكبر ظن الإنسان أنه أكبر من غيره والتكبر إظهاره ذلك ، وهذه صفة لا يستحقها إلا الله تعالى ، ومن ادعاها من المخلوقين يكون كاذبا ، والتكبر يتولد من الإعجاب ، والإعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن ، والجهل الانسلاخ من الإنسانية حقيقة ، وقد عظم الله تعالى شأن التكبر بقوله تعالى (إنه لا يحب المستكبرين) وقال تعالى (أليس في جهنم مثوى للمتكبرين) وقد ورد يقول الله تعالى : التكبر بآء رذائ والعظمة لآزارى فن نازعنى واحدا منهما فصمته ، وفي رواية : قدفته في نار جهنم ، وقال

عز وجل ردا للإنسان في طغيانه إلى حده : ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً إنك إن تخرق الأرض وإن تبلغ الجبال طولا ﴾ وقال تعالى ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق ﴾ وأبلغ من هذا قوله تعالى ﴿ قتل الإنسان ما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ﴾ وقد قال بعضهم لبعض المتكبرين : أولئك نطاعة مدرة ، وأخر ك جيفة قدرة ، وأنت فيما بين ذلك حامل العذرة : وقد نظم الشاعر هذا المعنى :

كيف يزهر من رجيحه • أبد الدهر ضجيجه

وإذا ارتحل التواضع من القلب وسكن الكبر انتشر أثره في بعض الجوارح وترشح الإباء بمافيهِ ، فتارة يظهر أثره في العنق بالتمايل ، وتارة في الخد بالتصغير . قال الله تعالى ﴿ ولا تصغر خدك للناس ﴾ وتارة يظهر في الرأس عند استعصاء النفس . قال الله تعالى ﴿ لو را رؤسهم ورأيهم يصدون وهم مستكبرون ﴾ .

وكما أن الكبر له انقسام على الجوارح والأعضاء تتشعب منه شعب ، فكذلك بعضها أكثف من البعض : كالتيه والزهو والعزة وغير ذلك ، إلا أن العزة تشبه بالكبر من حيث الصورة ، وتختلف من حيث الحقيقة ، كاشتباه التواضع بالضعة ، والتواضع محمود والضعة مذمومة ، والكبر مذموم والعزة محمودة . قال الله تعالى ﴿ والله العزة لارسوله وللمؤمنين ﴾ والعزة غير الكبر ، ولا يحل لمؤمن أن يذل نفسه ، فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه . وإكرامها : أن لا يضعها لأعراض عاجلة دنيوية ، كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه وإنزالها فوق منزلتها . قال بعضهم للحسن : ما أعظمك في نفسك ! قال : لست بعظيم ولكني عزيز . ولما كانت العزة غير مذمومة وفيها مشاكلة بالكبر قال الله تعالى ﴿ تستكبرون في الأرض بغير الحق ﴾ فيه إشارة خفية لإنبات العزة بالحق ، فالوقوف على حد التواضع من غير انحراف إلى الضعة وقوف على صراط العزة المنصوب على متن نار الكبر ، ولا يؤيد في ذلك ولا يشبث عليه إلا أقدام العلماء الرايين والسادة المقربين ورؤساء الأبدال والصديقين . قال بعضهم : من تكبر فقد أخبر عن ندالة نفسه ، ومن تواضع فقد أظهر كرم طبعه .

وقال الزمذى : التواضع على ضربين : الأول أن يتواضع العبد لأمر الله ونهيه ، فإن النفس لطلب الراحة تتلهى عن أمره ، والشهوة التي فيها تهوى في نهيه ، فإذا وضع نفسه لأمره ونهيه فهو تواضع . والثاني : أن يضع نفسه لعظمة الله فإن اشتهت نفسه شيئاً مما أطلق له من كل نوع من الأنواع منعها ذلك . وجلة ذلك : أن يترك مشيئته لمشيئة الله تعالى

واعلم أن العبد لا يبلغ حقيقة التواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة في قلبه ؛ فعند ذلك تذوب النفس ، وفي ذوبانها صفاتها من غش الكبر والعجب ، فتلين وتطيع للحق والخلق لمحو آثارها وسكون وجهها وغبارها ، وكان الحظ الأوفر من التواضع لثنينا عليه السلام في أوطان القرب ، كما روى عن عائشة رضي الله عنها في الحديث الطويل قالت : فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فأخذني ما يأخذ النساء من الغيرة ظنماني أنه عند بعض أزواجه ، فطلبتة في حجر نسائه فلم أجده ، فوجدته في المسجد ساجداً كالثوب الخلق وهو يقول في سجوده « سجد لك سوادى وخيالى ، وآمن بك فوادى وأقر بك اسانى ، وها أنا ذا بين يديك ، يا عظيم يا غافر الذنب العظيم ، وقوله عليه السلام « سجد لك سوادى وخيالى ، استقصاء في التواضع بمحو آثار الوجود حيث لم تتخلف ذرة منه عن السجود ظاهر أو باطن ، ومتى لم يكن للصوفي حظ من التواضع الخاص على بساط القرب لا يتوفر حظه في التواضع للخلق ، وهذه سعادات إن أقبلت جاءت بكليتها . والتواضع من أشرف أخلاق الصوفية .

ومن أخلاق الصوفية : المداراة واحتمال الأذى من الخلق ، وبلغ من مداراة رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه وجد قتيلاً من أصحابه بين اليهود ، فلم يحف عليهم ولم يزد على مر الحق ، بل وداه بمائة ناقة من قبله وإن بأصحابه الحاجة إلى بغير واحد يتقون به .

وكان من حسن مداراته أن لا يذم طعاماً ولا ينهر خادماً . أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على ،

قال أخبرنا أبو الفتح الكرخي ، قال أخبرنا أبو نصير الترياقى ، قال أخبرنا الجراحى ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذى ، قال حدثنا قتيبة ، قال حدثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن انس قال : خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين سنة فما قال لي أف قط وما قال لشيء صنعته لم صنعته ولا لشيء تركته لم تركته ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقا ، ومما مسست خزا قط ولا حريرا ولا شيئا كان ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا شممت مسكا قط ولا عطرا كان أطيب من عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فالمداواة مع كل أحد من الأهل والأولاد والجيران والأصحاب والخلق كافة من أخلاق الصوفية وباحتمال الأذى يظهر جوهر النفس . وقد قيل لكل شيء جوهر وجوهر الإنسان العقل وجوهر العقل الصبر .

أخبرنا أبو زرعة طاهر عن أبيه الحافظ المقدسى قال أخبرنا أبو محمد الصريفي ، قال أخبرنا أبو القاسم عبيد الله ابن حبابه ، قال أخبرنا أبو القاسم عبيد الله بن محمد بن عبد العزيز ، قال حدثنا علي بن الجعد ، قال أخبرنا شعبة عن الأعمش عن يحيى بن وثاب عن شيخ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت : من هو ؟ قال : ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : المؤمن الذى يعاشر الناس ويصبر على أذىهم خير من الذى لا يخالطهم ولا يصبر على أذىهم ، وفي الخبر : أيعجز أحدكم أن يكون كأتى ضميم ؟ قيل : ماذا كان يصنع أبو ضميم ؟ قال : كان إذا أصبح قال : اللهم إني تصدقت اليوم بعرضى على من ظلمنى ، فمن ضربنى لا أضربه ، ومن شتمنى لا أشتمه ، ومن ظلمنى لا أظلمه .

وأخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب قال أخبرنا أبو الفتح المروى ، قال حدثنا الترياقى ، قال أخبرنا الجراحى ؛ قال أخبرنا المحبوبي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذى ، قال حدثنا ابن أبي عمر ، قال حدثنا سفيان عن محمد بن المنكدر عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عنده فقال : بئس ابن العشرة أو أخو العشيرة . ثم أذن له فألان له القول ؛ فلما خرج قلت : يا رسول الله قلت له ما قلت ثم ألتيت له القول قال : يا عائشة إن من شر الناس من يترك الناس أو يدعه الناس انقاء لحشه ، وروى أبو ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن ، فإشياء يستدل به على قوة عقل الشخص ووفور قلبه وحلمه كحسن المداواة ، والنفس لا تزال تشتمز من يعكس مرادها ؛ ويستغزها الغيظ والغضب ، بالمداواة قطع حمة النفس ورد طيشها ونفورها . وقد ورد : من كظم غيظا وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره فى أى الجور شاء . وروى جابر رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، ألا أخبركم على من تحرم النار ؟ على كل حين لين سهل قريب . وروى أبو مسعود الأنصارى رضى الله عنه قال : أتى النبي عليه السلام برجل فكلمه فأرعد فقال : هون عليك فإني لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد .

وعن بعضهم فى معنى لين جانب الصوفية :

هينون لينون أيسار بنو يسر * سواس مكرمة أبناء أيسار

لا ينطقون عن الفحشاء إن نطقوا * ولا يمارون إن ماروا يا كثار

من تلقى منهم تقل لا قيت سيدهم * مثل النجوم التى يسرى بها السارى

وروى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من الخير ، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير .

حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إسماعيل قال حدثنا أبو عبد الرحمن محمد بن أبي عبد الله الماليني ، قال أخبرنا أبو الحسين عبد الرحمن بن أبي طلحة الداودى ، قال أخبرنا أبو محمد عبد الله الحمزى السرخسى ، قال أخبرنا أبو عمران عيسى بن عمر السمرقندى ، قال أخبرنا عبد الله بن عبد الرحمن الدرايمى ، قال أخبرنا محمد بن أحمد بن أبي خلف ،

قال حدثنا عبد الرحمن بن محمد عن محمد بن إسحق قال : حدثني عبد الله بن أبي بكر عن رجل من العرب قال : زحمت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين وفي رجل نعل كشيقة ، فوطئت بها على رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنفختي نفحة بسوط في يده وقال : بسم الله أوجعتني ، قال . فبت لنفسى لائسا أقول : أوجعت رسول الله ، قال : فبت بليلة كما يعلم الله ؛ فلما أصبحنا إذا رجل يقول : أين فلان ؟ قلت : هذا والله الذي كان مني بالأمس . قال : فأنطلقت وأنا متخوف ، فقال لي : ، إنك وطئت بنعلك على رجلي بالأمس فأوجعتني ، فنفختك نفحة بالسوط فهذه ثمانون نعجة نخذا بها .

ومن أخلاق الصوفية : الإيثار والمواساة ويحملهم على ذلك فرط الشفقة والرحمة طبعاً ، وقوة اليقين شرعاً ، ويؤثرون بالموجود ويصبرون على المفقود .

قال أبو يزيد البسطامي : ما غلبني أحداً غلبني شاب من أهل بلخ ، قدم علينا حاجاً فقال لي : يا أبا يزيد ، ما حد الزهد عندكم ؟ قلت : إذا وجدنا أكلنا ، وإذا فقدنا صبرنا ، فقال : هكذا عندنا كلاب بلخ ؛ فقلت له : وما حد الزهد عندكم ؟ قال : إذا فقدنا شكرنا ، وإذا وجدنا آثرنا .

وقال ذو النون : من علامة الواهد المشروح صدره ثلاث : تفريق المجموع ، وترك طلب المفقود ، والإيثار بالقوت . روى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النصير للأَنْصار ، إن شئتم قسمتم للهبا جرين من أموالكم ودياركم وتشاركونهم في هذه الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم تقسم لكم شيئاً من الغنيمة ، فقالت الأنصار : بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها ؛ فأُنزل الله تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) .

وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أصابه جهد فقال : يا رسول الله ، إنني جائع فأطعمني ، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى أزواجه هل عندكن شيء ؟ فكلهن قلن : والذي بعثك بالحق نبياً ما عندنا إلا الماء ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما عندنا ما نطعمك هذه الليلة ، ثم قال : من يضيف هذا هذه الليلة رحمه الله ؟ فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله ؛ فأتي به منزله فقال لأهله : هذا ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكرميهِ ولا تدخرى عنه شيئاً ؛ فقالت : ما عندنا إلا قوت الصبية ؛ فقال : فقوى عليهم عن قوتهم حتى يناموا ولا يطعمون شيئاً ثم اسرجي ، فإذا أخذ الضيف ليأكل قومي كأنك تصلحين السراج فأطفئيه وتعالى نمضخ أسئلتنا لضيف رسول الله حتى يشبع ضيف رسول الله ، فقامت إلى الصبية فعملتهم حتى ناموا عن قوتهم ولم يطعموا شيئاً ، ثم قامت فأثردت وأسرجت ؛ فلما أخذ الضيف ليأكل قامت كأنها تصلح السراج فأطفأته ، فجعلوا يعضغان أسئتهما لضيف رسول الله ، وظن الضيف أنهما يأكلان معه حتى شبع الضيف وباتا طاويين ؛ فلما أصبحوا غدوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلما نظر إليهما تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال ولقد عجب الله من فلان وفلانة هذه الليلة ، وأنزل الله تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) ،

قال أنس رضي الله عنه : أهدى لبعض أصحابه رأس شاة مشوى - وكان بجهوداً - فوجه به إلى جاره ، فتداوله سبعة أنفس ثم عاد إلى الأول ؛ فأنزلت الآية لذلك .

وروى أن أبا الحسن الأنطاكي اجتمع عنده نيف وثلاثون رجلاً يقرية بقرى الري وله أرغفة معدودة لم تشبع خمسة منهم ، فكسروا الرغفان وأطفؤا السراج وجلسوا للطعام ؛ فلما رفعوا الطعام فإذا هو بحاله لم يأكل أحد منهم إيثاراً منه على نفسه .

وحكى عن حذيفة العدوي قال انطلقت يوم اليرموك لطلب ابن عم لي معي شيء من ماء وأنا أقول : إن كان به رمق سقيته ومسحت وجهه ، فإذا أنا به ، فقلت : أسيتك ، فأشار إلى أن نعم ؛ فإذا رجل يقول : آه ، فقال ابن عمي : انطلق به إليه ، لجئت إليه ، فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت : أسيتك ، فسمع هشام آخر يقول : آه ، فقال ، انطلق

به إليه ، فجئت إليه فإذا هو قد مات ، ثم رجعت إلى مشام ، فإذا هو أيضا قد مات ، ثم رجعت إلى ابن عمي ، فإذا هو أيضا قد مات .

وسئل أبو الحسين البوشنجي عن الفتوة؟ قال : الفتوة عندى ما وصف الله تعالى به الأنصار في قوله (والذين تبوءوا الدار والإيمان) قال ابن عطاء : (يؤثرون على أنفسهم) جودا وكرما (ولو كان بهم خصاصة) .
يعنى جوعا وفقرا .

قال أبو حفص : الإيثار هو أن يقدم حظوظ الإخوان على حظوظه في أمر الدنيا والآخرة .
وقال بعضهم : الإيثار لا يكون عن اختيار ، إنما الإيثار أن تقدم حقوق الخلق أجمع على حقك ، ولا تميز في ذلك بين أخ وصاحب وذى معرفة .

وقال يوسف بن الحسين : من رأى لنفسه ملكا لا يصح منها الإيثار ، لأنه يرى نفسه أحق بالشئ بملكه ، إنما الإيثار من يرى الأشياء كلها للحق ؛ فمن وصل إليه فهو أحق به ، فإذا وصل شئ من ذلك إليه يرى نفسه وبده فيه يد أمانة يوصلها إلى صاحبها أو يؤديها إليه .

وقال بعضهم : حقيقة الإيثار أن تؤثر بحظ آخرتك على إخوانك ، فإن الدنيا أقل خطرا من أن يكون لإيثار محل أو ذكر . ومن هذا المعنى ما نقل أن بعضهم رأى أخا له فلم يظهر البشر الكثير في وجهه ، فأنكر أخوه ذلك منه ، فقال : يا أخى سمعت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا التقى المسلمان ينزل عليها مائة رحمة تسعون لأكثرهما بشرا ، وعشرة لأقلهما بشرا ، فأردت أن أكون أقل بشرا منك ليكون لك الأكثر .

أخبرنا الشيخ ضياء الدين أبو النجم إجازة ، قال أخبرنا أبو حفص عمر بن الصغار النيسابورى قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازى ، قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلى ، قال : سمعت أبا القاسم الرازى يقول : سمعت أبا بكر بن أبى سعدان يقول : من صحب الصوفية فليصحبهم بلانفس ولاقلب ولاملك ، فمن نظر إلى شئ من أسبابه قطعه ذلك عن بلوغ مقصده .

وقال سهل بن عبدالله : الصوفى من يرى دمه هدرا وملكه مباحا .
وقال رويم : التصوف مبنى على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالبذل والإيثار وترك التعرض والاختيار .

قيل : لما سعى بالصوفية وتمييز الجنيد بالفقه وقبض على الشحام والرقام والنورى وبسط النطع لضرب رقابهم ، تقدم النورى فقيل له : إلى ماذا تبادر ؟ فقال : أوثر إخوانى بفضل حياة ساعة .

وقيل : دخل الروذبارى دار بعض أصحابه فوجده غائبا وباب بيته مغلق ، فقال : صوفى وله باب مغلق ، اكسروا الباب فكسروه وأمر بجميع ما وجدوا في البيت أن يباع ، فأنفذوه إلى السوق واتخذوا من رفقا الثمن وقعدوا في الدار ، فدخل صاحب المنزل ولم يقل شيئا ، ودخلت امرأته وعليها كساء ، فدخلت بيتا فرمت بالكساء وقالت : هذا أيضا من بقية المتاع فيبعوه ، فقال الزوج لها : لم تكلفت هذا باختيارك ؟ قالت : اسكت مثل الشيخ ياسطنا ويحكم علينا ويبقى لنا شئ ندخره عنه .

وقيل : مرض قيس بن سعد فاستبطأ لإخوانه في عيادته ، فسأل عنهم فقالوا : إنهم يستحيون بمالك عليهم من الدين ، فقال : أخزى الله ما لا يمنع الإخوان من الزيارة ، ثم أمر مناديا ينادى : من كان لقيس عليه مال فهو منه في حل . فكسرت عتبة داره بالعشى لكثرة عواده .

وقيل : أتى رجل صديقا له ودق عليه الباب ، فلما خرج قال : لماذا جئتني ؟ قال : لأربعمائة درهم دين على ، فدخل الدار ووزن أربعمائة درهم وأخرجها إليه ودخل الدار باكيا فقالت امرأته : هلا تعللت حين شق عليك الإجابة ، فقال : إنما أبكى لأنى لم أنفق حاله حتى احتاج أن يفتحنى .

وأخبرنا الشيخ أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسي ، قال أخبرنا محمد بن محمد إمام جامع أصفهان : قال حدثنا أبو عبد الله الجرجاني ، قال حدثنا أبو طاهر محمد بن الحسن المحمدي ، قال حدثنا أبو البختري ، قال حدثنا أبو أسامة قال حدثنا زيد بن أبي بردة عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن الأشعرين إذا أرملوا في الغزو وقل طعام عيالهم جفوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموا في إناء واحد بالسوية فهم مني وأنا منهم . . . وحدث جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه إذا أراد أن يغزو قال : يا معشر المهاجرين والانصار ، إن من إخوانكم قوما ليس لهم مال ولا عدة ، فليضم أحدكم إليه الرجلين والثلاثة ، فإلا أحكم من ظهر جملة إلا عقبة كعقة أحدهم . قال : فضممت إلى اثنين أو ثلاثة مالى إلا عقبة كعقة أحدهم من جملة .

وروى أنس قال : لما قدم عبدالرحمن بن عوف المدينة آخى النبي عليه السلام بينه وبين سعد بن الربيع فقال له : أقاسمك مالى نصفين ، ولى امرأتان فأطلق إحداهما فإذا انقضت عدتها فتزوجها ، فقال له عبد الرحمن : بارك الله لك في أهلك ومالك .

فما حمل الصوفي على الإيثار لإطهارة نفسه وشرف غريزته ، وما جعله الله تعالى صوفيا إلا بعد أن سوى غريزته لذلك ، وكل من كانت غريزته السخاء والسخي يوشك أن يصير صوفيا ، لأن السخاء صفة الغريزة ، وفي مقابلته الشح ، والشح من لوازم صفة النفس . قال الله تعالى (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) حكم بالفلاح لمن يوق الشح ، وحكم بالفلاح لمن أنفق وبذل فقال (وعمارزقناهم ينفقون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) والفلاح : أجمع اسم لسعادة الدارين ، والنبي عليه السلام نبه بقوله ثلاث مهلكات ... وثلاث منجيات ، لجعل إحدى المهلكات شحا مطاعا ، ولم يقل مجرد الشح يكون مهلكا بل يكون مهلكا إذا كان مطاعا ، فأما كونه موجودا في النفس غير مطاع فإنه لا ينكر ذلك ، لأنه من لوازم النفس مستمدا من أصل جبلتها التراب ، وفي التراب قبض وإمساك ، وليس ذلك بالعجب من الآدمي وهو جبل في فيه : وإنما العجب وجود السخاء في الغريزة ، وهو لنفوس الصوفية الداعي لهم إلى البذل والإيثار والسخاء أتم وأكمل من الجود ففي مقابلة الجود البخل ، وفي مقابلة السخاء الشح ، والجود والبخل يتطرق إليهما الاكتساب بطريق العادة بخلاف ، الشح والسخاء إذا كان من ضرورة الغريزة ، وكل سخي جواد ، وليس كل جواد سخيا ، والحق سبحانه وتعالى لا يوصف بالسخاء ، لأن السخاء من نتيجة الغرائز والله تعالى منزّه عن الغريزة ، والجود يتطرق إليه الرياء ويأتى به الإنسان متطلعا إلى عوض من الخلق أو الحق بمقابل ما من الثناء وغيره من الخلق والثواب من الله تعالى . والسخاء لا يتطرق إليه الرياء لأنه ينبع من النفس الزكية المرتفعة من الأعواض دينا وآخرة ، لأن طلب العوض مشعر بالبخل لكونه معلولا بطلب العوض ، فما تمحض سخاء ، فالسخاء لأهل العفاف ، والإيثار لأهل الأنوار ويجوز أن يكون قوله تعالى (إنما أنطمعكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء أو لاشكورا) أنه نفي في الآية الإطعام لطلب الأعواض حيث قال (لا نريد) بعد قوله (لوجه الله) فما كان الله لا يشعر بطلب العوض ، بل الغريزة لطهارتها تنجذب إلى مراد الحق لا العوض ، وذلك أكمل السخاء من أظهر الغرائز .

روت أسماء بنت أبي بكر قالت : قلت يا رسول الله ، ليس لي من شيء إلا ما أدخل على الزبير فأعطى ؟ قال ، نعم ، لا توكني فيوكني عليك . . .

ومن أخلاق الصوفية . التجاوز والعفو ومقابلة السيئة بالحسنة . قال سفيان : الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، فإن الإحسان إلى المحسن متاجرة كنفد السوق خذ شيئا وهات شيئا . وقال الحسن . الإحسان أن تعمر ولا تنحصر كالشمس والريح والغيث .

وروى أنس قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رأيت قصورا مشرفة على الجنة فقلت : يا جبريل لمن هذه ؟ قال ، للسكاظمين الغيظ والعافين عن الناس . . .

روى أبو هريرة رضي الله عنه : أن أبا بكر رضي الله عنه كان مع النبي صلى الله عليه وسلم في مجلس ، فجاء رجل فوقع في أبي بكر وهو ساكت والنبي عليه السلام يتبسم ، ثم رد أبو بكر عليه بعض الذي قال ، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم وقام ، فلحقه أبو بكر فقال : يا رسول الله شتمني وأنت تتبسم ثم رددت عليه بعض ما قال فغضبت وقتي ، فقال : إنك حيث كنت ساكتا كان معك ملك يرد عليه ، فلما تكلمت وقع الشيطان فلم أكن لأقعد في مقعد فيه الشيطان ، يا أبا بكر ، ثلاث كلهن حق : ليس عبد يظلم بمظلمة فيعفو عنها إلا أعز الله نصره ، وليس عبد يفتح باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله قلة ، وليس عبد يفتح باب عطية أو صلة يبتغي بها وجه الله إلا زاده الله بها كثرة .

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن علي ، قال : أخبرنا الكرخي ، قال أخبرنا الترياق ، قال أخبرنا الجراحي ، قال أخبرنا المحبوبي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال حدثنا أبو هشام الرقاعي ، قال حدثنا محمد بن فضيل عن الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل عن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تكونوا إمعة ، تقولون : إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا فلا تظلموا » وقال بعض الصحابة : يا رسول الله الرجل أمر به فلا يقرني ولا يضيفني ، فيمرني فأجزيه ؟ قال : لا ، أقره . وقال الفضل : الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس الواصل المكافئ » ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمة وصلها ، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من مكارم الأخلاق أن تعفو عن ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك » .

ومن أخلاق الصوفية : البشر وطلاقة الوجه ، الصوفي بكأوه في خلوته وبشره وطلاقة وجهه مع الناس ، فالبشر على وجهه من آثار أنوار قلبه ، وقد تنازل باطن الصوفي منازل إلهية ومواهب قدسية يرتوي منها القلب ، ويمتلئ فرحا وسرورا ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ والسرور إذا تمكن من القلب فاض على الوجه آثاره ، قال الله تعالى ﴿ وجوه يومئذ مسفرة ﴾ أي مضيئة مشرقة ﴿ ضاحكة مستبشرة ﴾ أي فرحة ، قيل : أشرقت من طول ما أغبرت في سبيل الله ، ومثال فيض النور على الوجه من القلب كفيضان نور السراج على الزجاج والمشكاة ، فالوجه مشكاة والقلب زجاج والروح مصباح ؛ فإذا تغم القلب بلذات المسامرة ظهر البشر على الوجه . قال الله تعالى ﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ أي نضارته وبريقه ، يقال أنضرت النبات إذا أزهر ونور ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ فلما نظرت نضرت ، فأرباب المشاهدة من الصوفية تنورت بصرهم بنور المشاهدة وانصقلت مرآة قلوبهم وانعكس فيها نور الجمال الأزلي ، وإذا أشرقت الشمس على المرأة المصقولة استنارت الجدران ، قال الله تعالى ﴿ سيماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾ وإذا تأثر الوجه بسجود الظلال ، وهي القوالب في قول الله تعالى ﴿ وظلالهم بالعدو والآصال ﴾ كيف لا يتأثر بشهود الجمال .

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن علي ، قال أخبرنا الكرخي ، قال أخبرنا الترياق ، قال أخبرنا الجراحي ، قال أخبرنا المحبوبي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال حدثنا قتيبة ، قال حدثنا المنكدر بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل معروف صدقة » وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق ، وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك .

وقال سعد بن عبد الرحمن الزبيدي : يعجبني من القراء كل سهل طلق مضحاك ؛ فأما من تلقاه بالبشر ويلقاك بالعبوس كأنه يمن عليك ، فلا أكثر الله في القراء مثله .

ومن أخلاق الصوفية : السهولة ولين الجانب والنزول مع الناس إلى أخلاقهم وطبائعهم وترك التعسف والتكلف ، وقد روى في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبار . وأخلاق الصوفية تحاكي أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يقول عليه الصلاة والسلام « أما إنني أمزح ولا أقول إلا حقا » روى أن رجلا يقال له زاهر بن حرام ، وكان بدويا ، وكان لا يأتي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا جاء بطريقة يهديها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء يوما

من الأيام فوجده رسول الله صلى الله عليه وسلم في سوق المدينة يبيع سلعة له ولم يكن آتاه ذلك اليوم ، فاحتضنه النبي عليه السلام من ورائه بكفيه ، فالتفت فأبصر النبي عليه السلام فقبل بكفيه ، فقال النبي عليه السلام « من يشتري العبد ؟ » فقال : إذن تجدني كاسدا يارسول الله ، فقال « ولكن عد الله ربيع ، ثم قال عليه السلام « لكل أهل حضر بادية وبادية آل محمد زاهر بن حرام » .

وأخبرنا أبو زرعة طاهر بن الحافظ المقدسي عن أبيه ، قال أخبرنا المطهر بن محمد الفقيه ، قال أخبرنا أبو الحسن قال أخبرنا أبو عمرو بن حكيم ، قال أخبرنا أبو أمية ، قال حدثنا عبيد بن إسحق العطار ، قال حدثنا سنان بن هرون عن حميد عن أنس قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، احملني على جمل ، فقال : « أحملك على ابن الناقة » ، قال : أقول لك احملني على جمل وتقول أحملك على ابن الناقة ؟ فقال عليه السلام « فالجمل ابن الناقة » .

وروى صهيب فقال : أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين يديه تمر يأكل ، فقال « أصب من هذا الطعام ، فجعلت آكل من التمر ، فقال « أتأكل وأنت رمد ؟ » فقلت : إذن أضع من الجانب الآخر ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له ذات يوم « ياذا الأذنين » .
وسئلت عائشة رضي الله عنها : كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خلا في البيت ؟ قالت : كان ابن الناس بساما ضحكا . وروت أيضا : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقها فسبقتها ، ثم سابقها بعد ذلك فسبقتها ، فقال : « هذه بتلك » .

وأخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن علي ، قال أخبرنا أبو الفتح الهروي ، قال أخبرنا أبو نصر الترياق ، قال أخبرنا أبو محمد الجراحي ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبي ، قال أخبرنا أبو عيسى الحافظ الترمذي ، قال حدثنا عبد الله بن الوضاح الكوفي ، قال حدثنا عبد الله بن إدريس عن أبي التياح عن أنس رضي الله تعالى عنه قال : إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لينخاطبنا حتى إنه كان يقول لآخر « يا أبا عمير ما فعل النغير » ، والنغير : عصفور صغير .

وروى أن عمر سابق زبيرا رضي الله عنهما فسبقه الزبير ، فقال : سبقتك ورب الكعبة ، ثم سابقه مرة أخرى فسبقه عمر ؟ فقال عمر : سبقتك ورب الكعبة . وروى عبد الله بن عباس قال : قال لي عمر : تعال أنا فأسلك في الماء أبنا أطول نفسا ، ونحن محرمون .

وروى بكر بن عبد الله قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمازحون حتى يقبضون بالبطين ؛ فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال . يقال : بدح يبدح : إذا رمى ، أي يترامون بالبطين .
وأخبرنا أبو زرعة عن أبيه قال : أخبرنا الحسن بن أحمد الكرخي ، قال حدثنا أبو طالب محمد بن محمد بن إبراهيم ؛ قال حدثنا أبو بكر محمد بن محمد بن عبد الله ، حدثني إسحق الحربي ، قال حدثنا أبو سلمة ، قال حدثنا حماد بن خالد ، قال أخبرنا محمد بن عمرو بن علقمة ، قال حدثنا أبو الحسن بن عيصن الليثي عن يحيى بن عبد الرحمن ابن حاطب بن أبي بلتعة قال : إن عائشة رضي الله عنها قالت : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم بحريرة طبختها له وقلت لسودة والنبي صلى الله عليه وسلم بيني وبينها : كلتي ، فأبت ، فقلت لها : كلتي ، فأبت ، فقلت : لتأكلن أولا أطخن بها وجهك ، فأبت ، فوضعت يدي في الحريرة فطخت بها وجهها ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ، فوضع يده وقال لسودة : الطخى وجهها ، فطخت بها وجهي ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فرأى عمر رضي الله عنه على الباب فنادى : يا عبد الله يا عبد الله ، فظن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سيدخل ، فقال قوما فاغسلا وجهكما ، فقالت عائشة رضي الله عنها فارتدت أهاب عمر لهيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم لياه .

ووصف بعضهم ابن طاوس فقال : كان مع الصبي صيبا ومع الكهل كهلا وكان فيه مزاحاة إذا خلا .
وروى معاوية بن عبد الكريم قال : كنا نتذاكر الشعر عند محمد بن سيرين ، وكان يقول ونمزح عنده ويمازحنا
وكنا نخرج من عنده ونمجن نضحك ، وكذا إذا دخلنا على الحسن نخرج من عنده ونمجن نكاد نبكي ؛ فهذه الأخبار
والآثار دالة على حسن لين الجانب وصحة حال الصوفية وحسن أخلاقهم فيما يعتمدونه من المداعبة في الربط وينزلون
مع الناس على حسب طباعهم لنظرهم إلى سعة رحمة الله ؛ فإذا خلوا وقفوا موقف الرجال واكتسوا ملابس الأعمال
والأحوال ، ولا يقف في هذا المعنى على حد الاعتدال إلا صوفي قاهر للنفس عالم بأخلاها وطباعها سائس لها بوفور
العلم ، حتى يقف في ذلك على صراط الاعتدال بين الإفراط والتفريط ، ولا يصلح الإكثار من ذلك للبريدن المبتدئين
لقلة علمهم ومعرفتهم بالنفس وتعدبهم حدا الاعتدال ؛ فللنفس في هذه المواطن نهضات ووثبات تجر إلى الفساد وتجنح
إلى العناد ، فالنزول إلى طباع الناس يحسن بمن صعد عنهم وترقى لعل حاله ومقامه ، فينزل إليهم وإلى طباعهم حين
ينزل بالعلم ؛ فأما من لم يصعد بصفاء حاله عنهم وفيه بقية مزح من طباعهم ونفوسهم الجائحة الأماراة بالسوء ، إذا دخلت
في هذه المداخل أخذت النفس حظها واغتنتمت مأربها واستروحت إلى الرخصة ، والنزول إلى الرخصة يحسن لمن
يركب العزيمة غالب أوقاته ، وليس ذلك شأن المبتدئ ؛ فللصوفية العلماء فيما ذكرناه ترويح يعلمون حاجة القلب إلى
ذلك ، والشئ إذا وضع للحاجة يتقدر بقدر الحاجة ، ومعيار مقدار الحاجة في ذلك علم غامض لا يسلم لكل أحد
قال سعيد بن العاص لابنه : اقتصد في مزاحك فالإفراط فيه يذهب بالبهاء ويجرئ عليك السفهاء وتركه يغيظ
المؤانسين ويوحش المخالطين . قال بعضهم : المزاح مسلبة للبهاء مقطعة للإحياء ، وكما يصعب معرفة الاعتدال في ذلك يصعب
معرفة الاعتدال في الضحك ، والضحك من خصائص الإنسان ويميزه عن جنس الحيوان ، ولا يكون الضحك إلا عن
سابقة تعجب ، والتعجب يستدعي الفكر ، والفكر شرف الإنسان وخاصيته ، ومعرفة الاعتدال فيه أيضا شأن من
ترسخ قدمه في العلم ، ولهذا قيل : إياك وكثرة الضحك فإنه يميئ القلب ، وقيل : كثرة الضحك من الرعونة وروى
عن عيسى عليه السلام أنه قال : إن الله تعالى يبغض الضحك من غير عجب ، المشاء في غير أرب ، وذكر فرق بين
المداعبة والمزاح ، فقيل : المداعبة ما لا يغضب جده ، والمزاح ما يغضب جده . وقد جعل أبو حنيفة رحمه الله الفقهية في
الصلاة من الذنب ، وحكم بطلان الوضوء بها ، وقال : يقوم الإثم مقام خروج الخارج ؛ فالاعتدال في المزاح والضحك
لا يتأتى إلا إذا خلص وخرج من مضيق الخوف والتبعض والهيبه ، فإنه يتقوم بكل مضيق من هذه المضايق بعض التوقيم ،
فيعتدل الحال فيه ويستقيم ؛ فالبسطة والرجاء يذهب ثمان المزاح والضحك والخوف والقبض يحكان فيه بالعدل .
ومن أخلاق الصوفية : ترك التكلف ، وذلك أن التكلف تصنع وتعمل وتمايل على النفس لأجل الناس ، وذلك
يبين حال الصوفية ، وفي بعضه خفي منازعة للأقدار ، وعدم الرضا بما قسم الجبار . ويقال : التصوف ترك التكلف ،
ويقال : التكلف تخلف وهو تخلف عن شأن الصادقين . روى أنس بن مالك قال : شهدت ولية لرسول الله مافيها خبز
ولاحم . وروى عن جابر : أنه أتاه ناس من أصحابه فأناهم بخبز واخل وقال : كلوا فإنني سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول : نعم الإدام الخل . وعن سفيان بن سلمة قال دخلت على سلمان الفارسي فأخرج إلى خبز أو ملحاً وقال
كل ، لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا أن يتكلف أحد لأحد لتكلفت لكم . والتكلف مذموم في جميع
الاشياء كالتكلف بالملبوس للناس من غير نية فيه ، والتكلف في الكلام وزيادة التلقا الذي صار دأب أهل الزمان ؛
فما يكاد يسلم من ذلك إلا آحاد وأفراد . وكل من متملق لا يعرف أنه متملق ولا يفطن له ؛ فقد يتملق الشخص إلى حد
يخرجه إلى صريح النفاق وهو مبين لحال الصوفي .

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أخبرنا أبو الفتح الهروي ، قال أخبرنا أبو نصر الترياق ، قال
أخبرنا أبو محمد الجراحي ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال حدثنا أحمد بن منيع
قال حدثنا يزيد بن هرون عن محمد بن مطرف عن حسان بن عطية عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

والحياء والعى شعبتان من الإيمان ، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق ، البذاء : الفحش ، وأراد بالبيان ههنا : كثرة الكلام والتكلف للناس بزيادة تملق وثناء عليهم وإظهار التفصح ، وذلك ليس من شأن أهل الصدق .

وحكى عن أبي وائل قال : مضيت مع صاحب لي نزل ورسلان ؛ فقدم إلينا خبز شعير وملحاً جريشاً ؛ فقال صاحبي لو كان في هذا الملح سعتان كان أطيب ، فخرج سلیمان ورهن مطهرته وأخذ سعتراً ، فلما أكلنا قال صاحبي الحمد لله الذي قنعنا بما رزقنا ؛ فقال سلیمان : لو قنعت بما رزقك لم تكن مطهرته مرهونة . وفي هذا من سلیمان ترك التكلف قولاً وفعلًا وفي حديث يونس النبي عليه السلام : أنه زاره إخوانه فقدم إليهم كسراً من خبز شعير ونجز لهم بقلًا كان يزرعه ثم قال : لولا أن الله لعن المتكلفين لتكلفتم لكم .

قال بعضهم : إذا قصدت للزيارة فقدم ماحضر ، وإذا استنزلت فلا تبق ولا تذر .

وروى الزبير بن العوام قال : نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً اللهم اغفر للذين يدعون لأموات أمي ولا يتكفون ، ألا إني يرى من التكلف وصالحو أمي .

وروى أن عمر رضي الله عنه قرأ قوله تعالى (فأنت تافها حبا وعنبا وقضيا وزيتونا ونخلًا وحادقًا غلبًا وفاكها وأبا) ثم قال : هذا كله قد عرفناه فما الأب ؟ قال : ويبدع عصاه فضرب بها الأرض ثم قال : هذا لعمر الله هو التكلف ؛ فخذوا أيها الناس ما بين لكم منه ، فما عرفتم اعملوا به ومن لم تعرفوا فكلوا عليه إلى الله .

ومن أخلاق الصوفية : الإنفاق من غير إقتار ، وترك الادخار ؛ وذلك أن الصوفي يرى خزائن فضل الحق ، فهو بمثابة من هو مقيم على شاطئ بحر ، والمقيم على شاطئ البحر لا يدخر الماء في قريته وراويته : روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ما من يوم إلا له ملكان يناديان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقًا خلفًا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكًا تلفًا ، وروى أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخر شيئًا لغد وروى أنه أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث طوائر ، فأطعم خادمه طيرًا ، فلما كان الغد أتاه به فقال رسول الله : ألم أنهك أن تنجأ شيئًا لغد ، فإن الله تعالى يأتي برزق كل غد . وروى أبو هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على بلال وعنده صبرة من تمر ، فقال : ما هذا يا بلال ؟ فقال : أدخر يا رسول الله قال : أما تخشى ، أتفق بلالًا ولا تخش من ذي العرش إقلالا .

وروى أن عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم كان يأكل الشجر ، ويلبس الشعر ، ويبيت حيث أمسى ، ولم يكن له ولد يموت ، ولا يبيت بخرب ، ولا يجأ شيئًا لغد .

فالصوفي كل خباياه في خزائن الله اصدق توكله وثقته بربه ، فالدنيا للصوفي كدار الغربة ليس له فيها ادخار ولا منها استسكار ، قال عليه السلام : لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطائر تغدو خفاصاً وتروح بطائاً ، أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب قال أخبرنا أبو عبد الرحمن محمد بن أبي عبد الله الماليني ، قال أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن الداودي ، قال أخبرنا أبو محمد عبد الله السرخسي ، قال أخبرنا أبو عمران السمرقندي ، قال أخبرنا عبد الله ابن عبد الرحمن الدارمي ، قال أخبرنا محمد بن يوسف عن سفيان عن ابن المنكدر عن جابر قال ماسل النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً قط فقال لا . قال ابن عيينة إذا لم يكن عنده وعد .

وبالإسناد عن الدارمي قال أخبرنا يعقوب بن حميد ، قال أخبرنا عبد العزيز بن محمد عن ابن أخي الزهري ، قال إن جبريل عليه السلام قال ما في الأرض أهل عشيرة من آيات لإقالبهم ، فما وجدت أحداً أشد إلفاً لهذا المال من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن أخلاق الصوفية القناعة باليسير من الدنيا قال ذو النون المصري من قنع استراح من أهل زمانه واستطال على أقرابه . وقال بشر بن الحارث لو لم يكن في القناعة إلا التمتع بالعز لكفى صاحبه . وقال بنان الخمال

الحر عبد ما طمع * والعبد حر ما قنع

وقال بعضهم : انتقم من حرصك بالقناعة كما تنتقم من عدوك بالقصاص .
 وقال أبو بكر المرازقي : العاقل من دبر أمر الدنيا بالقناعة والتسوية ، ودبر أمر الآخرة بالحرص والتعجيل .
 وقال يحيى بن معاذ : من قنع بالرزق فقد ذهب بالآخرة وطاب عيشه .
 وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : القناعة سيف لا يغبو .
 أخبرنا أبو زرعة عن أبيه أبي الفضل قال أخبرنا أبو القاسم عبدالله بن الحسين الحلال بغداد قال أخبرنا أبو حفص عمر بن إبراهيم ، قال حدثنا أبو القاسم البغوي ، قال حدثنا محمد بن عباد قال حدثنا أبو سعيد عن صدقة بن الربيع عن عمارة بن عتبة عم عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على الأعواد يقول : ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : قد أفلح من أسلم وكان رزقه كفافاً ثم صبر عليه .

وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا وقال : اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً .
 وروى جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : القناعة مال لا ينفذ .
 وروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال : كونوا أوعية الكتاب ويتابع الحكمة ، وعدوا أنفسكم في الموتى ، واسألوا الله تعالى الرزق يوماً بيوم ، ولا يضركم أن لا يكثر لكم .

وأخبرنا أبو زرعة طاهر عن أبي الفضل والده ، قال أخبرنا أبو القاسم إسماعيل بن عبدالله الشاوي قال أخبرنا أحمد بن علي الحافظ ، قال أخبرنا أبو عمرو بن حمدان ، قال حدثنا الحسن بن سفيان ، قال حدثنا عمرو بن مالك البصري ، قال حدثنا مروان بن معاوية ، قال حدثنا عبد الرحمن بن أبي سلفة الأنصاري ، قال أخبرني سلفة بن عبدالله ابن محصن عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أصبح آمناً في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا ، وقيل في تفسير قوله تعالى ﴿ فانجيته حياة طيبة ﴾ هي القناعة .

فالصوفي قوام على نفسه بالقسط ، عالم بطبائع النفس وجدوى القناعة والتوصل إلى استخراج ذلك من النفس لعلمه بدائها ودوائها .

وقال أبو سليمان الداراني : القناعة من الرضا كما أن الورع من الزهد .

ومن أخلاق الصوفية : ترك المراء والمجادلة والغضب لإلحاق واعتماد الرفق والحلم ؛ وذلك أن النفوس تثب وتظهر في الممارين . والصوفي كلما رأى نفس صاحبه ظاهرة قابلاً بالقلب ، وإذا قوبلت النفس بالقلب ذهبت الوحشة وانطفت الفتنة . قال الله تعالى تعلموا لعباده ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ ولا ينزع المراء إلا من نفوس زكية انتزع منها الغل ، ووجود الغل في النفوس مرء الباطن ، وإذا انتزع المراء من الباطن ذهب من الظاهر أيضاً ؛ وقد يكون الغل في النفس مع من يشاكله ويمثله لوجود المنافسة ، ومن استقصى في تذويب النفس بنار الزهادة في الدنيا ينمحي الغل من باطنه ، ولا تبقى عنده منافسة دنيوية في حظوظ عاجلة من جاه ومال : قال الله تعالى في وصف أهل الجنة المتقين ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ قال أبو حفص : كيف يبقى الغل في قلوب المتقين بالله وانفتحت على محبته واجتمعت على مودته وأنست بذكره ؛ فإن تلك قلوب صافية من هواجس النفوس وظلمات الطبائع ، بل كملت بنور التوفيق فصلرت لإخوانا ، فهكذا قلوب أهل التصوف والمجتبعين على الكلمة الواحدة ، ومن التزم بشرائط الطريق والانكباب على الظفر بالتحقيق .

والناس رجلان : رجل طالب ما عند الله تعالى ويدعو إلى ما عند الله نفسه وغيره ؛ فما للحق الصوفي مع هذا منافسة ومراء وغل ، فإن هذا معه في طريق واحد ووجهة واحدة ، وأخوه ومعينه ، والمؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضاً . ورجل مفتتن بشيء من محبة الجاه والمال والرياسة ونار الخلق ، فما للصوفي مع هذا منافسة لأنه زهد في ما فيه رغب ، فمن شأن الصوفي أن ينظر إلى مثل هذا فنار رحمة وشفقة حيث يراه محجوباً مفتتناً فلا ينطوى له على غل ولا يماريه . (١٦ — ملحق كتاب الإحياء)

في الظاهر على شيء ، لعله يظهر نفسه الأمانة بالسوء في المراء والمجادلة
أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الروهاب بن علي قال أخبرنا أبو الفتح الهروي ، قال أخبرنا أبو نصر الترياق ، قال
أخبرنا أبو محمد الجراحي ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال حدثنا يزيد بن أيوب ،
قال حدثنا المحاربي عن ليث عن عبد الملك عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال
« لا تمار أخاك ولا تعده موعدا فتخلفه » .

وفي الخبر « من ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت في ربض الجنة ، ومن ترك المراء وهو محق بنى له في وسطها ، ومن
حسن خلقه بنى له في أعلاها » .

وأخبرنا شيخنا شيخ الإسلام أبو التيجيب ، قال أخبرنا أبو عبد الرحمن السهروردي محمد بن أبي عبد الله المالبي ، قال
أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن الداودي ، قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد الحموي ، قال أخبرنا أبو عمران عيسى
السمرقندي ، قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي ، قال حدثنا يحيى بن بسطام عن يحيى بن خزيمة قال :
حدثنا النعمان بن مكيحول عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من طلب العلم ليباهي
به العلماء أو يماري به السفهاء أو يريد أن يقبل بوجوه الناس إليه ، أدخله الله تعالى جهنم » ، انظر كيف جعل رسول الله
صلى الله عليه وسلم الماراة مع السفهاء سبباً لدخول النار ، وذلك بظهور نفوسهم في طلب القهر والغلبة ، والقهر والغلبة
من صفات الشيطنة في الأدنى .

قال بعضهم : المجادل المماري يضع في نفسه عند الخوض في الجدال أن لا يقنع بشيء ، ومن لا يقنع إلا أن لا يقنع فالإلى
إقناعه سبيل ، فنفس الصوفي تبدلت صفاتها وذهب عنه صفة الشيطنة والسبعية ، وتبدل باللين والرفق والسهولة والطمأنينة .
روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن
حتى يأمن جاره بوائقه » ، انظر كيف جعل النبي صلى الله عليه وسلم من شرط الإسلام سلامة القلب واللسان .
وروى عنه عليه السلام أنه مر يقوم وهم يحدون حجراً . قال : « ما هذا ؟ » قالوا : هذا حجر الأشداء . قال :
« ألا أخبركم بأشد من هذا ؟ رجل كان بينه وبين أخيه غضب فأتاه فغلب شيطاناه وشيطان أخيه فكلمه » .
وروى أنه جاء غلام لآبي ذر وقد كسر رجل شاة فقال أبو ذر : من كسر رجل هذه الشاة ؟ فقال : أنا قال :
ولم فعلت ذلك ؟ قال : عمداً فعلت . قال : ولم قال أغيتك فتضربني فتأثم ؟ فقال أبو ذر : لأغيظن من حزنك على
غيظي ، فأعتقه .

وروى الأصمعي عن أعرابي قال إذا أشكل عليك أمران لا تدري أيهما أرشد فخالف أقربهما إلى هواك ،
فإن أكثر ما يكون الخطأ مع متابعة الهوى

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه أبي الفضل قال أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن علي قال أخبرنا خورشيد ، قال حدثنا
إبراهيم بن عبد الله قال حدثنا أحمد بن محمد بن سليم قال حدثنا الزبير بن بكار قال حدثنا سعيد بن سعد عن أخيه عن
جده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ثلاث منجيات وثلاث مهلكات ، فأما
المنجيات فخشية الله في السر والعلانية ، والحكم بالحق عند الغضب والرضا ، والاقتصاد عند الفقر والغنى . وأما المهلكات
فشح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » ، فالحكم بالحق عند الغضب والرضا لا يصح إلا من عالم رباني أمير
على نفسه يصرفها بعقل حاضر وقلب يقظان ونظر إلى الله بحسن الاحتساب . .
نقل أنهم كانوا يتوضأون عن إيداء المسلم ، يقول بعضهم لأن أتوضأ من كلمة خبيثة أحب إلي من أن أتوضأ
من طعام طيب .

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في الحديث خديان : حدث من فرجك ، وحدث من فيك ، فلا يحل حبة
الوقار والحلم إلا الغضب ويخرج عن حد العدل إلى العدوان بتجاوز الحد ، فبالغضب يشردم القلب ، فإن كان الغضب

على من فوقه مما يعجز عن إنفاذ الغضب فيه ذهب الدم من ظاهر الجلد واجتمع في القلب ويصير منه الهم والحزن والانسكاد ، ولا ينطوى الصوفي على مثل هذا ؛ لأنه يرى الحوادث والأعراض من الله تعالى فلا ينسكد ولا يغتم . والصوفي صاحب الرضا صاحب الروح والراحة ، والنبي عليه السلام أخبر أن الهم والحزن في الشك والسيخط .

سئل عبد الله بن عباس رضى الله عنهما عن الغم والغضب ؟ قال : مخرجهما واحد واللفظ يختلف ، فمن نازع من يقوى عليه أظهره غضبا ، ومن نازع من لا يقوى عليه كتمه حزنا . والحد : غضب أيضا ولكن يستعمل إذا قصد المضروب عليه ، وإن كان الغضب على من يشا كله ويمائله عن يتردد في الانتقام منه يتردد القلب بين الانقباض والانبساط فيتولد منه الغل والحقد ولا يأوى مثل هذا إلى قلب الصوفي . قال الله تعالى ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ وسلامة قلب الصوفي وحاله يقذف زبد الغل والحقد كما يقذف البحر الزبد ، لما فيه من تلاطم أمواج الانس والهبة ، وإن كان الغضب على من دونه ممن يقدر على الانتقام منه ثار دم القلب ، والقاب إذا ثار دمه يحمر ويقسو ويتصلب وتذهب عنه الرقة واليباض ، ومنه تحمر الوجنتان ، لأن الدم في القلب ثار وطلب الاستعلاء وانتفخت منه العروق ، فظهر عكسه وأثره على الحد ، فيتعدى الحدود حيدم بالضرب والشتم ، ولا يكون هذا في الصوفي إلا عند هتك الحرمات والغضب لله تعالى ؛ فأما في غير ذلك فينظر الصوفي عند الغضب إلى الله تعالى ، ثم تقواه تحمله على أن يزن حركته وقوله بميزان الشرع والعدل ، ويتم النفس بعدم الرضا بالقضاء .

قيل لبعضهم : من أقهر الناس لنفسه ؟ قال : أرضاهم بالمقدور . وقال بعضهم : أصبحت ومالي سرور إلا مواقع القضاء . وإذا اتهم الصوفي النفس عند الغضب تداركه العلم ، وإذا لاح علم قوى القلب وسكنت النفس وعاد دم القلب إلى موضعه ومقره واعتدل الحال وغاضت حمرة الحد وبانت فضيلة العلم . قال عليه السلام : السمات الحسن والتؤدة والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزءا من النبوة .

وروى حارثة بن قدامة قال : قلت يا رسول الله أوصني وأقلل لعل أعيه ، قال : فأعاد عليه ، كل ذلك يقول لا تغضب ، قال عليه السلام : إن الغضب جرة من النار ، ألم تنظروا حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ، من وجد ذلك منكم فإن كان قائما فليجلس ، وإن كان جالسا فليضطجع .

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أخبرنا أبو الفتح الهروي ، قال أخبرنا أبو نصر الترياق قال أخبرنا الجراحى ، قال أخبرنا المحبوبي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذى ، قال حدثنا محمد بن عبد الله ، قال حدثنا بشر بن المفضل عن قرة بن خالد عن أبي حمزة عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لاشج عبد القيس : إن فيك خصلتين يحبهما الله تعالى : الحلم والآناة .

ومن أخلاق الصوفية : التودد والتآلف ، والموافقة مع الإخوان وترك المخالفة . قال الله تعالى في وصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وقال الله تعالى ﴿ لو أنفقت مافي الأرض جميعا ما ألقت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾ والتودد والتآلف من اتلاف الأرواح على ما ورد في الخبر الذي أوردناه ، فساتعارف منها اتلاف قال الله تعالى ﴿ فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾ وقال سبحانه وتعالى ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وقال عليه السلام : المؤمن ألف مألوف ، لاخير فيمن لا يآلف ولا يؤاف .

وقال عليه السلام : مثل المؤمنين إذا التقيا مثل اليمين تغسل إحداها الأخرى ، وما التقى مؤمنان إلا استفاد أحدهما من صاحبه خيرا ، وقال أبو إدريس الخولاني لمعاذ : إني أحبك في الله ، فقال : أبشر ثم أبشر ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ينصب لطائفة من الناس كراسي حول العرش يوم القيامة وجوههم كالقمر ليلة البدر يفرح الناس وهم لا يفرحون ، ويخاف الناس وهم لا يخافون ، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، قيل : من هؤلاء يا رسول الله ؟ قال : المتحابون في الله .

وقيل : لو تحاب الناس وتعاطوا أسباب المحبة لاستغنوا بها عن العدالة .

وقيل : العدالة خايغة المحبة تستعمل حيث لا توجد المحبة . وقيل : طاعة المحبة أفضل من طاعة الرهبة ؛ فإن طاعة المحبة من داخل وطاعة الرهبة من خارج ؛ ولهذا المعنى كانت صفة الصوفية مؤثرة من البعض في البعض ، لأنهم لما تحابوا في الله تواصلوا بمحاسن الاخلاق ووقع القبول بينهم لوجود المحبة ، فانتفع لذلك المريد بالشيوخ ، والآخر بالآخر ؛ ولهذا المعنى أمر الله تعالى باجتماع الناس في كل يوم خمس مرات في المساجد أهل كل درب وكل محلة ، وفي الجامع في الاسبوع مرة أهل بلد ، وانضمام أهل السواد إلى البلدان في الاعياد في جميع السنة مرتين ، وأهل الافطار من البلدان المتفرقة في العمر مرة للحج : كل ذلك لحكم بالغة ، منها تأكيد الالفة والمودة بين المؤمنين . وقال عليه السلام « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

أخبرنا أبو زرعة قال أخبرنا والدي أبو الفضل قال أخبرنا أبو نصر محمد بن سلمان العدل قال أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محسن الريادي ، فقال أخبرنا أبو العباس عبد الله بن يعقوب الكرماني ، قال حدثنا يحيى الكرماني ، قال حدثنا حماد بن زيد عن مجالد بن سعد عن الشعبي عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ألا إن مثل المؤمنين في توادهم وتراحهم كتل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائر السهر والحى » ، والتآلف والتودد يؤكدان أسباب الصحة ، والصحة مع الاخيار مؤثرة جدا . وقد قيل : لقاء الإخوان لقاخ ، ولا شك أن البواطن تتلقح ويتقوى البعض بالبعض ، بل مجرد النظر إلى أهل الصلاح يؤثر صلاحا ، والنظر في الصور يؤثر أخلاقا مناسبة لخلق المنظور إليه ، كدوام النظر إلى المحزون يحزن ، ودوام النظر إلى المسرور يسر . وقد قيل : من لا ينفعك لحظه لا ينفعك لفظه ، والجل الشرود يصير ذلولا بمقارنة الجل الذلول ؛ فالمقارنة لها تأثير في الحيوان والنبات والجماد ، والماء والهواء يفسدان بمقارنة الجيف ، والزروع تنق عن أنواع العروق في الأرض والنبات لموضع الإفساد بالمقارنة ، وإذا كانت المقارنة مؤثرة في هذه الأشياء ؛ ففي النفوس الشريفة البشرية أكثر تأثيرا ؛ وسمى الإنسان إنسانا لأنه يأنس بمسايراه من خير وشر ، والتآلف والتودد مستجلب للزهد ، وإنما العزلة والوحدة تحمد بالنسبة إلى أراذل الناس وأهل الشر ؛ فأما أهل العلم والصفاء والوفاء والأخلاق الحميدة فيغتنم مقارنتهم ، والاستئناس بهم استئناس بالله تعالى ، كما أن محبتهم محبة لله ، والجامع رابطة الحق ومع غيرهم رابطة الطبع ؛ فالصوفي مع غير الجنس كائن بأن ، ومع الجنس كائن مغايب ، والمؤمن مرآة المؤمن ، وإذا نظر إلى أخيه يستشف من وراء أقواله وأعماله وأحواله تجليات إلهية ، وتعريفات وتلويحات من الله الكريم خفية ؛ غابت عن الأغيار ، وأدركها أهل الأنوار . ومن أخلاق الصوفية : شكر المحسن على الإحسان والدعاء له ، وذلك منهم مع كمال توكلهم على ربهم وصفاء توحيدهم وقطعهم النظر إلى الأغيار ورؤيتهم النعم من المنعم الجبار ، ولكن يفعلون ذلك اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ما ردد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب فقال « ما من الناس أحد آمن علينا في صحبتته وذات يده من ابن أبي قحافة ، ولو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا ، وقال « ما نفعني مال كمال أبي بكر » فالخلق حججوا عن الله بالخلق في المنع والعطاء .

فالصوفي في الابتداء يفنى عن الخلق ، ويرى الأشياء من الله حيث طالع ناصيته التوحيد وخرق الحجاب الذي منع الخلق عن صرف التوحيد ، فلا يثبت للخلق منعا ولا عطاء ، ويحجبه الحق عن الخلق ؛ فإذا ارتقى إلى ذروة التوحيد يشكر الخلق بعد شكر الحق ، ويثبت لهم وجودا في المنع والعطاء ، بعد أن يرى المسبب أولا ، ولذلك لسعة عليه وقوة معرفته يثبت الوسائط ، فلا يحجبه الخلق عن الحق كعامة المسلمين ، ولا يحجبه الحق عن الخلق كأرباب الإرادة والمبتدئين ؛ فيكون شكره للحق لأنه المنعم والمعطى والمسبب ، ويشكر الخلق لأنهم واسطة وسبب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أول ما يدعى إلى الجنة الحمدون الذين يحمدون الله تعالى في السراء والضراء » وقال عليه السلام « من عطس أو نجس أو نجس فقال الحمد لله على كل حال دفع الله تعالى بها عنه سبعين ذاء أهونها الجذام » .

وروى جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من عبد ينعم عليه بنعمة فيحمد الله إلا كان

الحمد أفضل منها ، فقوله عليه السلام « كان الحمد أفضل منها » ، يحتمل أن يرضى الحق بها شكرا ، ويحتمل أن الحمد أفضل منها لعمدة فتكون نعمة الحمد أفضل من النعمة التي حمد عليها ؛ فإذا شكروا المنعم الأول يشكرون الواسطة المنعم من الناس ويدعون له . .

روى أنس رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أفطر عند قوم قال : أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار ونزلت عليكم السكينة . .

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه قال أخبرنا أحمد بن محمد بن أحمد البزار ، وقال أخبرنا أبو حفص عمر بن إبراهيم ، قال حدثنا عبد الله بن محمد البغوي ، قال أخبرنا عمرو بن زرارة ، قال حدثنا عيينة بن يونس عن مرسى بن عبيدة عن محمد بن ثابت عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قال لأخيه جزاك الله خيرا فقد أبلغ في الثناء » . .

ومن أخلاق الصوفية : بذل الجاه للإخوان والمسلمين كافة ، فإذا كان الرجل وافر العلم بصيرا بعيوب النفس وآفاتنا وشبهاتها فليتوصل إلى قضاء حوائج المسلمين ببذل الجاه والمعاونة في إصلاح ذات البين ، وفي هذا المعنى يحتاج إلى مزيد علم ، لأنها أمور تتعلق بالخلق ومخالطتهم ومعاشرتهم ، ولا يصلح ذلك إلا لصوفي تام الحال عالم رباني .

روى عن زيد بن أسلم أنه قال : كان نبي من الأنبياء يأخذ بركاب الملك يتألفه بذلك لقضاء حوائج الناس . وقال عطاء : لأن يراني الرجل سنين فيسكتسب جاها يعيش فيه مؤمن ، أتم له من أن يخلص العمل لنجاة نفسه . وهذا باب غامض لا يؤمن أن يفتتن به خلق من الجهال المدعين ، ولا يصاح هذا إلا لبعدها طلع على باطنه فسلم منه أن لا رغبة له في شيء من الجاه والمال ، ولو أن ملوك الأرض وقفوا في خدمته ما طغى ولا استطال ، ولو دخل إلى أتون يوقد ما ظهرت نفسه بصريح الإنكار لهذا الحال ، وهذا لا يصلح إلا لآحاد من الخلق وأفراد من الصادقين ينسلخون عن إرادتهم واختيارهم ويكشفهم الله تعالى بمراده منهم ، فيدخلون في الأشياء بمراد الله تعالى ؛ فإذا علموا أن الحق يريد منهم المخالطة وبذل الجاه يدخلون في ذلك بغية صفات النفس ، وهذا لأقوام ماتوا ثم حشروا وأحكموا مقام الفناء ثم رفقوا إلى مقام البقاء ، فيكرن لهم في كل مدخل ومخرج رهان ويسان وإذن من الله تعالى ، فهم على بصيرة من ربهم ، وهذا ليس فيه ارتياب لصاحب قلب مكاشف بصريح المراد في خفي الخطاب ؛ فيأخذ وقته أبدا من الأشياء ولم تأخذ الأشياء من وقته ، ولا يكون في قطر من الأقطار إلا واحد متحقق بهذا الحال .

قال أبو عثمان الخيري : لا يكمل الرجل حتى يستوى قلبه في أربعة أشياء : المنع والعطاء والعز والذل ، ولمثل هذا الرجل يصلح بذل الجاه والدخول فيما ذكرناه .

قال سهل بن عبد الله : لا يستحق الإنسان الرياسة حتى تجتمع فيه ثلاث خصال : يصرف جهله عن الناس ويحتمل جهل الناس ، ويترك ما في أيديهم ، ويبذل ما في يده لهم . وهذه الرياسة ليست عين الرياسة التي زهد فيها وتعين الزهد فيها لضرورة صدقه وسلوكه ، وإنما هذه رياسة أقامها الحق لإصلاح خلقه ، فهو فيها بالله يقوم بواجب حقها وشكر نعمتها لله تعالى .

الباب الحادى والثلاثون : في ذكر الأدب ومكانه من التصوف

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « أدبني ربى فأحسن تأديبي ، فالأدب : تهذيب الظاهر والباطن فإذا تهذب ظاهر العبد وباطنه صار صوفيا أدبيا ، وإنما سميت المأدبة مأدبة لاجتماعها على أشياء ، ولا يتكامل الأدب في العبد إلا بتكامل مكارم الأخلاق ، ومكارم الأخلاق مجموعها من تحسين الخلق ؛ فالخلق صورة الإنسان والخلق معناه ، فقال بعضهم : الخلق لا سبيل إلى تغييره كالخلق ، وقد ورد « فرغ ربكم من الخلق والخلق والرزق والأجل » ، وقد قال تعالى (لا تبديل لخلق الله) والأصح أن تبديل الإخلاق ممكن مقدور عليه ، بخلاف الخلق . وقد روى

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حسنوا أخلاقكم ، وذلك أن الله تعالى خلق الإنسان وهياً لقبول الصلاح والفساد وجعله أهلاً للأدب ومكارم الأخلاق ، ووجود الأهلية فيه كوجود النار في الزناد ووجود النخل في التوى ؛ ثم إن الله تعالى بقدرته ألهم الإنسان ومكنه من إصلاحه بالترية إلى أن يضر التوى نخلاً ، والزناد بالعلاج حتى يخرج منه ناراً ، فكما جعل في نفس الإنسان صلاحية الخير جعل فيها صلاحية الشر حال الإصلاح والإفساد ، فقال سبحانه وتعالى ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾ فقسوتها صلاحيتها للشيئين جميعاً ؛ ثم قال عز وجل ﴿ قد أفلح من زكّاها وقد غاب من دساها ﴾ فإذا تزكت النفس تدرت بالعقل واستقامت أحوالها الظاهرة والباطنة وتهذبت الأخلاق وتكونت الآداب فالأدب : استخراج مافى القوة إلى الفعل ، وهذا يكون لمن ركبت السجية الصالحة فيه ، والسجية فعل الحق لا قدرة للبشر على تمكينها ، كستكون النار في الزناد إذ هو فعل الله المحض واستخراجه يكسب الآدمي ، فهكذا الآداب منبعها السجيا الصالحة والمنح الإلهية ، ولما هيا الله تعالى بواطن الصوفية بتكميل السجيا فيها توصلوا بحسن الممارسة والريضة إلى استخراج مافى النفوس وهو مركز بخلق الله تعالى إلى الفعل ، فصاروا مؤدبين مهذبين ، والآداب تقع في حق بعض الأشخاص من غير زيادة ممارسة ، وريضة لقوة ما أودع الله تعالى في غرائزهم كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أدبني ربّي فأحسن تأديبي ، وفي بعض الناس من يحتاج إلى طول الممارسة لتقصان قوى أصولها في الغريزة ، فلهذا احتاج المريدون إلى صحبة المشايخ لتكون الصلبة والتعلم عوناً على استخراج مافى الطبيعة إلى الفعل ، قال الله تعالى ﴿ قورا أنفسكم وأهليكم نارا ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : فقهوم وأدبوم . وفي لفظ آخر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أدبني ربّي فأحسن تأديبي ثم أمرني بمكارم الأخلاق فقال ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین ﴾ » قال يوسف بن الحسين : بالأدب يفهم العلم ، وبالعلم يصح العمل ، وبالعمل تنال الحكمة ، وبالحكمة يقام الزهد ، وبالزهد تترك الدنيا ، وبترك الدنيا يرغب في الآخرة ، وبالرغبة في الآخرة تنال الرتبة عند الله تعالى .

قيل : لما ورد أبو حفص العراق جاء إليه الجنيد فرأى أصحاب أبي حفص وقفاً على رأسه يأترون لأمره لا يخطئ أحد منهم ، فقال : يا أبا حفص أدبت أصحابك أدب الملوك ، فقال : لا يا أبا القاسم ، ولكن حسن الأدب في الظاهر عنوان الأدب في الباطن .

قال أبو الحسين النوري : ليس لله في عبده مقام ولا حال ولا معرفة تسقط معها آداب الشريعة ؛ وآداب الشريعة حلية الظاهر ، والله تعالى لا يبيح تعطيل الجوارح من التحلي بمحاسن الآداب . قال عبد الله بن المبارك : أدب الخدمة أعز من الخدمة .

حكى عن أبي عبيد القاسم بن سلام قال : دخلت مكة فكنت ربما أقعد بجذاء الكعبة وربما كنت أستلقي وأمد رجل ؛ فجاءتني عائشة المسكية فقالت لي : يا أبا عبيد يقال إنك من أهل العلم ، أقبل مني كلمة ، لا تجالس إلا بأدب وإلا فيمحي اسمك من ديوان القرب ، قال أبو عبيد : وكانت من العارفات .

وقال ابن عطاء : النفس مجبولة على سوء الأدب ، والعبد مأمور بملازمة الأدب ، والنفس تجرى بطباعها في ميدان المخالفة والعبد يردّها بجهد إلى حسن المطالبة ؛ فمن أعرض عن الجهد فقد أطلق عنان النفس وغفل عن الرعاية ، ومهما أعانها فهو شريكها .

وقال الجنيد : من أعان نفسه على هواها فقد أشرك في قتل نفسه ، لأن العبودية ملازمة الأدب ، والطغيان سوء الأدب أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن علي ، قال أخبرنا أبو القتيح الهروي ، قال أخبرنا أبو النصر الترياق ، قال أخبرنا أبو محمد الجراحي ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال حدثنا قتيبة ، قال حدثنا يحيى بن يعلى عن ناصح عن سماك عن جابر بن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لأن يؤدب الرجل ولده خير له من أن يتصدق بصاع » .

وروى أيضا أنه قال عليه السلام « ما نحل والدولدا من نخلة أفضل من أدب حسن » . وروى عائشة رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن موضعه ويحسن أدبه » . وقال أبو على الدقاق : العبد يصل بطاعته إلى الجنة ، وبأدبه في طاعته إلى الله تعالى قال أبو القاسم القشيري رحمه الله وكان الأستاذ أبو على لا يستند إلى شيء ، فكان يوما في مجمع ، فأردت أن أضع وسادة خلف ظهره لأزريته غير مستند ، فتنحى عن الوسادة قليلا ، فتوهمت أنه توفى الوسادة لأنه لم يكن عليها خرقة أو سجادة ، فقال : لا أريد الاستناد ، فتأملت بعد ذلك فعلت أنه لا يستند إلى شيء أبدا .

وقال الجلال البصري : التوحيد يوجب الإيمان ، فمن لا إيمان له لا توحيد له ، والإيمان يوجب الشريعة ، فمن لا شريعة له لا إيمان له ولا توحيد له ، والشريعة توجب الأدب فمن لا أدب له لا شريعة له ولا إيمان له ولا توحيد له وقال بعضهم : الزم الأدب ظاهرا وباطنا ، فإساء أحد الأدب ظاهرا إلا عوقب ظاهرا ، وما إساء أحد الأدب باطنا إلا عوقب باطنا .

قال بعضهم - هو غلام الدقاق - نظرت إلى غلام أمرد فنظر إلى الدقاق وأنا أنظر إليه ، فقال : لتجدن غيها ولو بعد سنين ، قال : فوجدت غيها بعد عشرين سنة أن أنسيت القرآن .

وقال سري : صليت وردى ليلة من الليالي ومددت رجلى في المحراب ، فنوديت : ياسرى هكذا تجالس الملوك ؟ فضممت رجلى ثم قلت : وعزتك لامددت رجلى أبدا . وقال الجنيد : فبقى ستين سنة مامد رجله ليلا ولانهارا . وقال عبد الله بن المبارك : من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن . ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة .

وسئل السري عن مسئلة في الصبر فجعل يتكلم فيها ، فدب على رجله عقرب فجعلت تضربه بإبرتها ، فقيل له : ألا تدفعها عن نفسك ؟ قال : أستحي من الله أن أتكلم في حال ثم أخالف ما أعلم فيه . وقيل : من أدب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « زويت لى الأرض فأريت مشارقتها ومغارها ، ولم يقل رأيت » .

وقال أنس بن مالك : الأدب في العمل علامة قبول العمل .

وقال ابن عطاء : الأدب الوقوف مع المستحسنات . قيل : مامعناه ؟ قال : أن تعامل الله سرا وعلنا بالأدب ، فإذا كنت كذلك كنت أديبا وإن كنت أعجميا . ثم أنشد :

إذا نطقت جاءت بكل مليحة * وإن سكنت جاءت بكل مليح

وقال الجريري منذ عشرين سنة مامددت رجلى في الخلوة ، فإن حسن الأدب مع الله أحسن وأولى .

وقال أبو على : ترك الأدب موجب للطرد ، فمن إساء الأدب على البساط رد إلى الباب ، ومن إساء الأدب على الباب رد إلى سياسة الدواب .

الباب الثانى والثلاثون : فى آداب الحضرة الإلهية لأهل القرب

كل الآداب تتلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه عليه السلام يجمع الآداب ظاهرا وباطنا ، وأخبر الله تعالى عن حسن أدبه فى الحضرة بقوله تعالى (مازاغ البصر وماطغى) وهذه غامضة من غوامض الآداب اختصاص بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخبر الله تعالى عن اعتدال قلبه المقدس فى الإعراض والإقبال ، أعرض عما سوى الله وتوجه إلى الله ، وترك وراء ظهره الأرضين والدار العاجلة بمحظوظها والسموات والدار الآخرة بمحظوظها ، فما التفت إلى ما عرض عنه ولا لحقه الأسف على النائب فى إعراضه ، قال الله تعالى (لكيلا تأسوا على ما فاتكم) فهذا الخطاب للعموم و (مازاغ البصر) إخبار عن حال النبي عليه السلام بوصف خاص من معنى ما خاطب به العموم .

فكان (مازاغ البصر) حاله في طرف الإعراض وفي طرف الإقبال تلقى ماورد عليه في مقام قاب قوسين بالروح والقلب؛ ثم فر من الله تعالى حياء منه وهيبة وإجلالا، وطوى نفسه بفراره في مطاوى انكساره وافتقاره، لكيلا تنبسط النفس فتطغى؛ فإن الطغيان عند الاستغناء وصف النفس. قال الله تعالى (كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) والنفس عند المواهب الواردة على الروح والقلب تسترق السمع، ومتى نالت قسطا من المنح استغنت وطغت والطغيان يظهر منه فرط البسط، والإفراط في البسط يسد باب المزيد وطغيان النفس اضيق وعائها عن المواهب؛ فوسى عليه السلام صح له في الحضرة أحد طرفي (مازاغ البصر) وما التفت إلى مافاته (وماطغى) متأسفا لحسن أدبه، ولكن امتلا من المنح، واسترقت النفس السمع وتطلعت إلى القسط والحظ؛ فلما حظيت النفس استغنت وطمع عليها ما وصل إليها، وضاق لطاقها فتجاوز الحد من فرط البسط وقال (أرني أنظر إليك) فتمنع ولم يطلق في فضاء المزيد، وظهر الفرق بين الحبيب والكليم عليهما السلام، وهذه دقيقة لأرباب التقرب والآصال السنية، فكل قبض يوجب عقوبة لأن كل قبض سد في وجه باب الفتوح، والعقوبة بالقبض أوجبت الإفراط في البسط، ولو حصل الاعتدال في البسط ما وجبت العقوبة بالقبض، والاعتدال في البسط بإيقاف النازل من المنح على الروح والقلب، والإيقاف على الروح والقلب بما ذكرناه من حال النبي عليه السلام من تغيب النفس في مطاوى الانكسار، فذلك الفرار من الله إلى الله وهو غاية الأدب حظى به رسول الله عليه الصلاة والسلام فما قيل بالقبض، فدام مزبده وكان قاب قوسين أو أدنى، ويشاكل الشرح الذي شرحناه قول أبي العباس بن عطاء في قوله تعالى (مازاغ البصر وماطغى) قال لم يره بطغيان يميل، بل رآه على شرط اعتدال القوى.

وقال سهل بن عبد الله التستري: لم يرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاهد نفسه ولا إلى مشاهدتها، وإنما كان مشاهدا بكيته لربه: يشاهد ما يظهر عليه من الصفات التي أوجبت الثبوت في ذلك المحل؛ وهذا الكلام لمن اعتبر موافق لما شرحناه برمز في ذلك عن سهل بن عبد الله، ويؤيد ذلك أيضا ما أخبرنا به شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي إجازة، قال أخبرنا الشيخ العالم عصام الدين أبو حفص عمر بن محمد بن منصور الصفار التيسابوري، قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازي، قال أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلي، قال: سمعت أبا نصر بن عبد الله ابن علي السراج، قال أخبرنا أبو الطيب العمكي عن أبي محمد الحريري، قال: التمسع إلى استدراك علم الانقطاع وسيلة، والوقوف على حد الانحسار نجاة، واللياذ بالهرب من علم الدنو وصلة، واستقباح ترك الجواب ذخيرة، والاعتصام من قبول دواعي استماع الخطاب تكلف، وخوف فوت علم ما انطوى من فصاحة الفهم في حيز الإقبال مساة، والإصغاء إلى تلقى ما ينفصل عن معدنه بعد، والاستسلام عند التلاقي جراءة، والانبساط في محل الانس غرة، وهذه الكلمات كلها من آداب الحضرة لأربابها. وفي قوله تعالى (مازاغ البصر وماطغى) وجه آخر ألفت بما سبق (مازاغ البصر) حيث لم يتخلف عن البصيرة ولم يتقاصر (وماطغى) لم يسبق البصر البصيرة فيتجاوز حده ويتعدى مقامه، بل استقام البصر مع البصيرة، والظاهر مع الباطن، والقلب مع القلب، والنظر مع القدم، ففي تقدم النظر على القدم طغيان، والمعنى بالنظر علم، وبالقدم حال القلب، فلم يتقدم النظر على القدم فيكون طغيانا، ولم يتخلف القدم عن النظر فيكون تقصيرا، فلما اعتدلت الأحوال وصار قلبه كقالبه وقالبه كقلبه، وظاهره كباطنه وباطنه كظاهره، وبصره كبصيرته وبصيرته كبصره، بحيث انتهى نظره وعلوه قارنه قدمه وحاله، ولهذا المعنى انعكس حكم معناه ونوره على ظاهره، وأتى البراق يفتى خطوه حيث ينتهي نظره، لا يتخلف قدم البراق عن موضع نظره كما جاء في حديث المعراج، فكان البراق بقالبه مشا كلا معناه، ومتصفا بصفته لقوة حاله ومعناه، وأشار في حديث المعراج إلى مقامات الأنبياء ورأى في كل سماء بعض الأنبياء إشارة إلى تعويهم وتخلفهم عن شأوه ودرجته، ورأى موسى في بعض السموات فمن هو في بعض السموات يكون قوله (أرني أنظر إليك) تجاوزاً للنظر عن حد القدم وتخلفاً للقدم عن النظر، وهذا هو الإخلال بأحد الوصفين من قوله (مازاغ البصر وماطغى) فرسول الله حمل مقترنا قدمه

ونظره في حجال الحياء والتواضع ، ناظرا إلى قدمه ، قادما على نظره ، ولو خرج عن حجال الحياء والتواضع وتناول بالنظر متعديا حد القدم لتعوق في بعض السموات كتعوق غيره من الأنبياء ، فلم يزل صلى الله عليه وسلم متجلس حجاله في خفارة أدب حاله ، حتى خرق حجب السموات ، فانصبت إليه أقسام القرب انصبابا ، وانقشعت عنه سحائب الحجب حجابا حجابا ، حتى استقام على صراط (مازاغ البصر وما طغى) فر كالبوق الخاطف إلى مخدع الوصل واللطائف ، وهذا غاية في الأدب ونهاية في الأرب .

قال أبو محمد بن رويم حين سئل عن أدب المسافرين فقال : لا يجاوز همه قدمه ، فحيث وقف قلبه يكون مقره . أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إجازة قال أخبرنا عمر بن أحمد ، قال أخبرنا أبو بكر بن خلف قال أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي ، قال حدثنا القاضي أبو محمد يحيى بن منصور ، قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي قال حدثنا محمد بن رزام الأيلي ، قالو حدثنا محمد بن عطاء الهجيمي ، قال حدثنا محمد بن نصير عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (رب أرني أنظر إليك) قال : قال ياموسى إنه لا يرانى حتى إلامات ، ولا يابس إلا تدهمه ، ولا رطب إلا تفرق ، إنما يرانى أهل الجنة الذين لا تموت أعينهم ولا تبلى أجسادهم .

ومن آداب الحضرة ما قال الشبلى : الانبساط بالقول مع الحق ترك الأدب ، وهذا يختص بفيض الأحوال والأشياء دون البعض ، ليس هو على الإطلاق ، لأن الله تعالى أمر بالدهاء ، وإنما الإمساك عن القول كما أمسك موسى عن الانبساط في طلب المآرب والحاجات الدنيوية ، حتى رفعه الحق مقاماً في القرب وأذن له في الانبساط وقال : اطلب منى ولو ملحا معجنيك ، فلما بسط انبسط وقال (رب إني لما أنزلت إلی من خير فقير) لأنه كان يسأل حوائج الآخرة ويستعظم الحضرة أن يسأل حوائج الدنيا لحقارتها وهو في حجاب الحشمة عن سؤال المحقرات ، ولهذا مثال في الشاهد ، فإن الملك المعظم يسأل المعظمت ويحتشم في طلب المحقرات ، فلما رفع بساط حجاب الحشمة صار في مقام خاص من القرب يسأل الحقير كما يسأل الخطير .

قال ذو النون المصري : أدب العارف فوق كل أدب ، لأن معرفته مؤدب قلبه وقال بعضهم : يقول الحق سبحانه وتعالى : من ألزمتهم القيام مع اسمائى وصفائى ألزمتهم الأدب ، ومن كشف له عن حقيقة ذاتى ألزمتهم العطب . فاخترأها شئت : الأدب أو العطب . وقول القائل هذا : يشير إلى أن الأسماء والصفات تستقل بوجود محتاج إلى الأدب لبقاء رسوم البشرية وحفظ النفس ومع لمعان نور عظمة الذات تتلاشى الآثار بالانوار . ويكون معنى العطب : التحقق بالغناء ، وفي ذلك العطب نهاية الأرب .

وقال أبو علي الدقاق في قوله تعالى (وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) لم يقل أرحمنى لأنه حفظ أدب الخطاب . وقال عيسى عليه السلام (إن كنت قلتة فقد علمته) ولم يقل : لم أفل ، رعاية لأدب الحضرة وقال أبو نصر السراج : أدب أهل الخصوصية من أهل الدين في طهارة القلوب ، ومراعاة الأسرار ، والوفاء بالعهود ، وحفظ الوقت ، وقلة الالتفات إلى الخواطر والعوارض والبوادي والعوائق ، واستواء السر والعلانية ، وحسن الأدب في مواقف الطلب ومقامات القرب وأوقات الحضور . والأدب أدبان : أدب قول ، وأدب فعل : فن تقرب إلى الله تعالى بأدب فعل منحه محبة القلوب .

قال ابن المبارك : نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم . وقال أيضا : الأدب للمعارف بمنزلة التوبة للمستأنف .

وقال النورى : من لم يتأدب للوقت فوقته مقت .

وقال ذو النون : إذا خرج المريد عن حد استعمال الأدب فإنه يرجع من حيث جاء .

وقال ابن المبارك أيضا : قد أكثر الناس في الأدب ونحن نقول : هو معرفة النفس . وهذه إشارة منه إلى أن

النفس هي منبع الجهالات ، وترك الآداب من مخامرة الجهل ؛ فإذا عرف النفس صادف نور العرفان ، على ماورد
 « من عرف نفسه فقد عرف ربه ، ولهذا النور لا تظهر النفس بجمالة إلا ويقمعهما بصريح العلم وحيثما يتأدب ،
 ومن قام بآداب الحضرة فهو بغيرها أقوم وعليها أقدر .

الباب الثالث والثلاثون : في آداب الطهارة ومقدماتها

قال الله تعالى في وصف أصحاب الصفة (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) قيل في التفسير: يحبون
 أن يتطهروا من الأحداث والجنابات والنجاسات بالماء . قال السكبي : هو غسل الآداب بالماء . وقال عطاء : كانوا
 يستنجون بالماء ولا ينامون بالليل على الجنابة . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأهل قباء لما نزلت هذه الآية
 « إن الله تعالى قد أتى عليكم في الطهور فما هو ؟ » قالوا : إنا نستنجى بالماء ، وكان قبل ذلك قال لهم رسول الله
 « إذا أتى أحدكم الخلاء فليستنج بثلاثة أحجار ، وهكذا كان الاستنجاء في الابتداء حتى نزلت الآية في أهل قباء .

قيل لسلمان : قد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة فقال سلمان : أجل نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول ، أو
 نستنجى باليمن ، أو نستنجى أحدا بأقل من ثلاثة أحجار ، أو نستنجى بجميع أو عظم .

حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إمامنا ، قال أخبرنا أبو منصور الحريري ، قال أخبرنا أبو بكر الخطيب ، قال أخبرنا
 أبو عمرو الهاشمي ، قال أخبرنا أبو علي اللؤلؤي ، قال أخبرنا أبو داود ، قال حدثنا عبد الله بن محمد ، قال حدثنا ابن المبارك
 عن ابن عجلان عن القعقاع عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : إنما أنا لكم
 بمنزلة الوالد أعلمكم ، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستطيب يمينه ، وكان يأمر بثلاثة أحجار
 وينهى عن الروث والرمة ، والغرض في الاستنجاء شيئان : إزالة الخبث وطهارة المزبل : وهو أن لا يكون رجيعا وهو
 الروث ، ولا مستملا مرة أخرى ، ولارمة وهي عظم الميتة . ووتر الاستنجاء سنة فإما ثلاثة أحجار أو خمس أو سبع ،
 واستعمال الماء بعد الحجر سنة ، وقد قيل في الآية (يحبون أن يتطهروا) ولما سئلوا عن ذلك قالوا : كنا نتبع الماء
 الحجر ، والاستنجاء بالشمال سنة ، ومسح اليد بالتراب بعد الاستنجاء سنة ، وهكذا يكون في الصحراء إذا كانت أرضا
 طاهرة وترابا طاهرا . وكيفية الاستنجاء أن يأخذ الحجر بيساره ويضعه على مقدم المخرج قبل ملاقة النجاسة ويمره
 بالمسح ويدبر الحجر في مره حتى لا ينقل النجاسة من موضع إلى موضع ، ويفعل ذلك إلى أن ينتهي إلى مؤخر المخرج ،
 ويأخذ الثاني ويضعه على المؤخر كذلك ، ويمسح إلى المقدمة ، ويأخذ الثالث ويدبره حول المسربة . وإن استجمع بحجر
 ذي ثلاث شعب جاز . وأما الاستبراء إذا انقطع البول فيمد ذكره من أصله ثلاثا إلى الحشفة بالرفق لئلا يندفق بقية
 البول ، ثم ينثره ثلاثا ، ويحتاط في الاستبراء بالاستنقاء : وهو أن يتنحى ثلاثا ؛ لأن العروق ممتدة من الخلق إلى الذكر ،
 وبالتالي تنحى تتحرك وتنفذ ما في مجرى البول ؛ فإن مشى خطوات وزاد في التنحى فلا بأس ، ولكن يراعى حد العلم
 ولا يجعل للشيطان عليه سبيلا بالوسوسة فيضيع الوقت ، ثم يمسح الذكر ثلاث مسحات أو أكثر إلى أن لا يرى الرطوبة .
 وشبه بعضهم الذكر بالضرع وقال ، لا يزال تظهر منه الرطوبة مادام يمدف يراعى الحد في ذلك ، ويراعى الوتر في ذلك أيضا ،
 والمسحات تكون على الأرض الطاهرة أو حجر طاهر . وإن احتاج إلى أخذ الحجر لصغره فليأخذ الحجر باليمن والذكر
 باليسار ويمسح على الحجر ، وتكون الحركة باليسار لا باليمن لئلا يكون مستنجيا باليمن . وإذا أراد استعمال الماء انتقل
 إلى موضع آخر ويقنع بالحجر مالم ينتشر البول على الحشفة ، وفي ترك الاستنقاء في الاستبراء وعيد ورد فيما رواه عبد الله
 ابن عباس رضي الله عنهما قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبرين فقال : إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ،
 أما هذا فكان لا يستبرئ أو لا يستنزه من البول ، وأما هذا فكان يمشي بالنيمة ، ثم دعا بعسيب رطب فشقه اثنين ،
 ثم غرس على هذا واحدا وعلى هذا واحدا وقال : لعله يخفف عنهما مالم يبسا ، والعسيب : الجريد ، وإذا كان في
 الصحراء يبعد عن العيون .

روى جابر رضى الله عنه أن النبي عليه السلام كان إذا أراد البراز انطلق حتى لا يراه أحد وروى المغيرة بن شعبة رضى الله عنه قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ، فألقى النبي عليه السلام حاجته فأبعد في المذهب وروى : أن النبي عليه السلام كان يتبوأ لحاجته كما يتبوأ الرجل المنزل ، وكان يستتر بحائط أو نشز من الأرض أو كوم من الحجارة .

ويجوز أن يستتر الرجل براجلته في الصحراء أو بذيله إذا حفظ الثوب من الرشاش . ويستحب البول في أرض دثمة أو على تراب مهيل . قال أبو موسى : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأراد أن يبول ، فألقى دمثاً في أصل جدار فبال ثم قال : « إذا أراد أحدكم أن يبول فليترد لبوله » .

وينبغى أن لا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ، ولا يستقبل الشمس والقمر ، ولا يكره استقبال القبلة في البنيان ، والأولى اجتنابه لذهاب بعض العقهاء إلى كراهية ذلك في البنيان أيضاً ، ولا يرفع ثوبه حتى يدنو من الأرض ، ويتجنب مهاب الرياح احترازاً من الرشاش : قال رجل لبعض الصحابة من الأعراب وقد خاصمه : أحسبك تحسن الخراءة : فقال : بلى وأبيك إني بها لحاذق . قال : فصفها لي ، فقال : أبعد البشر وأعد المندر ، واستقبل الشيخ وأستدبر الرياح وأقعى إقباء الظبي وأجفل لإجفال النعام . يعنى استقبال أصول النبات من الشيخ وغيره وأستدبر الرياح احترازاً من الرشاش . والإفعاء ههنا : أن يستوفز على صدور قدميه . والإجفال : أن يرفع عجزه .

ويقول عند الفراغ من الاستنجاء : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، وطهر قلبي من الرياء ، وحصن فرجى من الفواحش .

ويكره أن يبول الرجل في المغتسل : روى عبد الله بن مغفل أن النبي عليه السلام ، نبى أن يبول الرجل في مستحمه وقال : « إن عامة أئوساس منه » . وقال ابن المبارك : يوسع في البول في المستحم إذا جرى فيه الماء وإذا كان في البنيان يقدم رجله اليسرى لدخول الخلاه ويقول قبل الدخول : بسم الله أعوذ بالله من الخبث والخبائث .

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السمروردي ، قال أخبرنا أبو منصور المقرئ ، قال أخبرنا أبو بكر الخطيب قال أخبرنا أبو عمرو الهاشمي ، قال أخبرنا أبو علي اللؤلؤي ، قال أخبرنا أبو داود ، قال حدثنا عمرو وهو ابن مرزوق البصري قال حدثنا شعبة عن قتادة عن النضر بن أنس عن زيد بن أرقم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن هذه الحشوش محتضرة فإذا أتى أحدكم الخلاه فليقل : أعوذ بالله من الخبث والخبائث ، وأراد بالحشوش الكنف . وأصل الحش : جماعة النخل الكثيف كانوا يقضون حوائجهم إليها قبل أن تتخذ الكنف في البيوت . وقوله « محتضرة » أى يحضرها الشياطين .

وفي الجلوس للحاجة يعتمد على الرجل اليسرى ولا يتولع بيده ، ولا يخط في الأرض والحائط وقت قعوده ، ولا يكثر النظر إلى عورته إلا للحاجة إلى ذلك ، ولا يتكلم ، فقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يخرج الرجلان يضربان الغائط كاشفين عوراتهما يتحدثان ، فإن الله تعالى يمقت على ذلك » .

ويقول عند خروجه : غفرانك ، الحمد لله الذى أذهب عني ما يؤذيني وأبقى على ما ينفعني . ولا يستصحب معه شيئاً عليه اسم الله من ذهب وخاتم وغيره ، ولا يدخل حاسر الرأس : روت عائشة رضى الله عنها عن أبيها أبي بكر رضى الله عنه أنه قال : استحيوا من الله فإنى لأدخل الكنيف فألرق ظهري وأغطي رأسي استحياء من رب عز وجل .

الباب الرابع والثلاثون : في آداب الوضوء وأسراره

إذا أراد الوضوء يبتدئ بالسواك : حدثنا شيخنا أبو النجيب قال أخبرنا أبو عبد الله الطائي ، قال أخبرنا الحافظ الفراء ، قال أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي ، قال أخبرنا أبو منصور محمد بن أحمد ، قال أخبرنا أبو جعفر محمد ابن أحمد بن عبد الجبار ، قال حدثنا حميد بن زنجويه ، قال حدثنا يعلى بن عبيد ، قال حدثنا محمد بن إسحق عن محمد

ابن إبراهيم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن زيد بن خالد الجهني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لولا أن أشق على أمتي لأخرت العشاء إلى ثلث الليل ، وأمرتهم بالسواك عند كل مكتوبة ، وروى عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : السواك مطهرة للفم مرضاة للرب . وعن حذيفة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك . . والشوص : الدلك . ويستحب السواك عند كل صلاة وعند كل وضوء ، وكلما تغير الفم من أزم وغيره . وأصل الأزم إمساك الأسنان ببعضها على بعض . وقيل للسكوت : أزم ، لأن الأسنان تنطبق وبذلك يتغير الفم . ويكره للصائم بعد الزوال . ويستحب له قبل الزوال ، وأكثر استحبابه مع غسل الجمعة ، وعند القيام من الليل ، ويندى السواك اليابس بالماء ، ويستاك عرضاً وطولاً ؛ فإن اقتصر فعرضاً ، فإذا فرغ من السواك يغسله ويجلس للوضوء ، والأولى أن يكون مستقبل القبلة ، ويبتدئ ببسم الله الرحمن الرحيم ويقول (رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون) ويقول عند غسل اليد : اللهم إني أسألك الين والبركة وأعوذ بك من الشؤم والهلكة . ويقول عند المضمضة : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأعني على تلاوة كتابك وكثرة الذكر لك . ويقول عند الاستنشاق : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأوجدني راحة الجنة وأنت عني راض .

ويقول عند الاستنثار : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأعوذ بك من روائح النار وسوء الدار . ويقول عند غسل الوجه : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ويبيض وجهي يوم تبيض وجوه أوليائك ، ولا تسود وجهي يوم تسود وجوه أعدائك . وعند غسل العينين : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وآتني كتابي يميني وحاسبتي حساباً يسيراً ، وعند غسل الشال : اللهم إني أعوذ بك أن تؤذي كتابي بشمال أو من وراء ظهري ، وعند مسح الرأس : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وغشني برحمتك وأزل على من بركانك وأظني تحت ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك . ويقول عند مسح الأذنين : الله صل على محمد وعلى آل محمد واجعلني ممن يسمع القول فيقبح أحسنه ، اللهم أسمعني منادى الجنة مع الأبرار . ويقول في مسح العنق : اللهم فك رقبتى من النار . وأعوذ بك من السلاسل والأغلال . ويقول عند غسل قدميه اليمنى : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وثبت قدمي على الصراط مع أقدام المؤمنين . ويقول عند اليسرى : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأعوذ بك أن تزل قدمي عن الصراط يوم تزل فيه أقدام المنافقين (١) وإذا فرغ من الوضوء يرفع رأسه إلى السماء ويقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، سبحانه اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عمات سوما وظلمات نفسي استغفرك وأتوب إليك فأغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، واجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين واجعلني صبوراً شكوراً ، واجعلني أذكرك كثيراً وأسبحك بكرة وأصيلاً .

وفرائض الوضوء : النية عند غسل الوجه . وغسل الوجه - وحد الوجه من مبتدأ تسطيع الوجه إلى منتهى الذن ومن ظهر من اللحية وما استرسل منها ، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً ، ويدخل في الغسل البياض الذي بين الأذنين واللحية وموضع الصلع وما انحسر عنه الشعر وهم التزعتان من الرأس ، ويستحب غسلهما مع الوجه وبوصل الماء إلى شعر التحذيف وهو القدر الذي يزيله النساء من الوجه ، ويوصل الماء إلى العنفة والشارب والحاجب والعذار ، وما عدا ذلك لا يجب ، ثم اللحية إن كانت خفيفة يجب إبطال الماء إلى البشرة ، وحده الخفيف أن ترى البشرة من تحته . وإن كانت كثيفة فلا يجب ، وتجتهد في تنقية مجتمع الكحل من مقدم العينين الواجب الثالث . غسل اليدين إلى المرفقين ويجب إدخال المرفقين في الغسل ويستحب غسلهما إلى أنصاف المعصدين ،

(١) ما ذكره المؤلف من الأذكار عند غسل الأعضاء في الوضوء هو خلاف الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لم يرد عن المصطفى صلى الله عليه وسلم في الوضوء إلا التسبئة أولاً والتقصيد في آخره ، فيكتفي بما كفى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فتدبروا لله ولتوفيقه ، اهـ

وإن طالت الأظافر حتى خرجت من رموس الأصابع يجب غسل ما تحتها على الأصح . الواجب الرابع : مسح الرأس ، ويكنى ما يطلق عليه اسم المسح ، واستيعاب الرأس بالمسح سنة : وهو أن يلقى رأس أصابع اليمنى اليسرى ويضعها على مقدم الرأس ويمدها إلى القفا ثم يردّها إلى الموضع الذي بدأ منه ، وينصف بلل الكفين مستقبلا ومستديرا . والواجب الخامس : غسل القدمين ، ويجب إدخال الكعبين في الغسل ، ويستحب غسلهما إلى أنصاف الساقين ويقنع غسل القدمين من الكعبين ، ويجب تحليل الأصابع الملتفة ، فيخلل بخنصر يده اليسرى من باطن القدم ويبدأ بخنصر رجله اليمنى ويختم بخنصر اليسرى ، وإن كان في الرجل شقوق يجب إيصال الماء إلى باطنها ، وإن ترك فيها عجينا أو شحا يجب إزالة عين ذلك الشيء ، الواجب السادس : الترتيب على الفسق المذكور في كلام الله تعالى . الواجب السابع : التتابع في القول القديم عند الشافعي رحمه الله تعالى ، وحد التفریق الذي يقطع التتابع لإنشاف العضومع اعتدال الهواء . وسن الوضوء ثلاثة عشر : التسمية في أول الطهارة . وغسل اليدين إلى الكوعين ، والمضمضة . والاستنشاق ، والمبالغة فيهما ، فيغرغر في المضمضة حتى يرد الماء إلى الغلصمة ، ويستمد في الاستنشاق الماء بالنفس إلى الحياشيم ، ويرفق في ذلك إن كان صائما . وتحليل اللحية الكثة ، وتحليل الأصابع المنفرجة ، والبداة بالميامن ، وإطالة الغزاة ، واستيعاب الرأس بالمسح ، ومسح الأذنين ، والتلثيت ، وفي القول الجديد : التتابع ، ويحتجب أن يزيد على الثلاث ، ولا ينفذ اليد ، ولا يتكلم في أثناء الوضوء ، ولا يلطم وجهه بالماء لظما ، وتجديد الوضوء مستحب بشرط أن يصلى بالوضوء ما تيسر ، وإلا فسكره .

الباب الخامس والثلاثون : في آداب أهل الخصوص والصوفية في الوضوء

آداب الصوفية بعد القيام بمعرفة الأحكام : أدبهم في الوضوء حضور القلب في غسل الأعضاء ، سمعت بعض الصالحين يقول : إذا حضر القلب في الوضوء يحضر في الصلاة ، وإذا دخل السهو فيه دخلت الوسوسة في الصلاة . ومن آدابهم : استدامة الوضوء ، والوضوء سلاح المؤمن ، والجوارح إذا كانت في حماية الوضوء الذي هو أثر شرعى يقل طروق الشيطان عليها . قال عدى بن حاتم ، ما أقيمت صلاة منذ أسلمت إلا وأنا على وضوء . وقال أنس بن مالك : قدم النبي عليه الصلاة والسلام المدينة وأنا يومئذ ابن ثمان سنين ، فقال لي : يا بني إن استطعت أن لاتزال على الطهارة فافعل ، فإنه من أتاه الموت وهو على الوضوء أعطى الشهادة ، فشأن العاقل أن يكون أبدا مستعدا للموت ، ومن الاستعداد لزوم الطهارة . وحكى عن الحصرى أنه قال ، مهما أنقته من الليل لا يحملني النوم إلا بعد ما أقوم وأجدد الوضوء لثلاث يعود إلى النوم وأنا على غير طهارة . وسمعت من صحب الشيخ على بن الهيثم أنه كان يقعد الليل جميعه ، فإن غلبه النوم يكون قاعدا كذلك ، وكلما انقته يقول : لا أكون أسأت الأدب ، فيقوم ويجدد الوضوء ويصلى ركعتين . وروى أبو هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال عند صلاة الفجر ، يا بلال ، حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام فأني سمعت دف لعليك بين يدي في الجنة . قال : ما عملت عملا في الإسلام أرجى عندي أني لم أنظر طهرا في ساعة ليل أو نهار إلا صلت لربي عز وجل بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي .

ومن أدبهم في الطهارة : ترك الإبراف في الماء والوقوف على حد العلم ، أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب ابن على ، قال أخبرنا أبو الفتح الهروي ، قال أخبرنا أبو نصر الترياق ، قال أخبرنا أبو محمد الجراحي ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذی ، قال حدثنا محمد بن بشار ، قال حدثنا أبو داود ، قال حدثنا خارجة بن مصعب عن يونس بن عبيد عن الحسن بن يحيى بن ضمرة السعدي عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : للوضوء شيطان يقال له الولهان فاتقوا وساوس الماء .

قال أبو عبد الله الروذباري : إن الشيطان يجتهد أن يأخذ نصيبه من جميع أعمال بني آدم ، فلا يزال أن يأخذ نصيبه بأن يزدادوا فيها أسروا به أو ينقصوا عنه .

وحكى عن ابن الكرنبي أنه أصابته جنابة ليلة من الليالي ، وكانت عليه مرقعة ثخينة غليظة ، فجاء إلى الدجلة وكان برد شديد ، فحزن نفسه عن الدخول في الماء لشدة البرد ، فطرح نفسه في الماء مع المرقعة ثم خرج من الماء وقال : عقدت أن لا أنزعها من بدني حتى تجف على : فكثت عليه شهرا لثخانها وغلظها : أدب بذلك نفسه لما حزن عز الاثتار لأمر الله تعالى . وقيل : إن سهل بن عبد الله كان يحث أصحابه على كثرة شرب الماء وقلة صبه على الأرض ، وكان يرى أن في الإكثار من شرب الماء ضعف النفس وإمالة الشهوات وكسر القوة .

ومن أفعال الصوفية الاحتياط في استبقاء الماء للوضوء . قيل : كان إبراهيم الخواص إذا دخل البادية لا يحمل معه إلا ركوة من الماء وربما كان لا يشرب منها إلا القليل : يحفظ الماء للوضوء ، وقيل : إنه كان يخرج من مكة إلى الكوفة ولا يحتاج إلى التيمم يحفظ الماء للوضوء ويقنع بالقليل للشرب ، وقيل : إذا رأيت الصوفي ليس معه ركوة أو كوز فاعلم أنه قد عزم على ترك الصلاة شاء أم أبى .

وحكى عن بعضهم أنه أدب نفسه في الطهارة إلى حد أنه أقام بين ظهرا في جماعة من النساك وهم مجتمعون في دار لما رآه أحد منهم أنه دخل الحلاء لأنه كان يقضى حاجته إذا خلا الموضع في وقت يريد تأديب نفسه .

وقيل : مات الخواص في جامع الري في وسط الماء ، وذلك أنه كان به علة البطن وكلما قام دخل الماء وغسل نفسه فدخله مرة ومات فيه ، كل ذلك لحفظه على الوضوء والطهارة ، وقيل : كان إبراهيم بن آدم به قيام ، فقام في ليلة واحدة نيفا وسبعين مرة ، كل مرة يحدد الوضوء ويصلي ركعتين .

وقيل : إن بعضهم أدب نفسه حتى لا يخرج منه الرج إلا في وقت البراز يراعى الأدب في الحلوات . واتخاذ المتدبيل بعد الوضوء كرهه قوم وقالوا : إن الوضوء يوزن ، وأجازه بعضهم ، ودليلهم ما أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن علي ، قال أخبرنا أبو الفتح الهروي ، قال أخبرنا أبو نصر ، قال أخبرنا أبو محمد ، قال أخبرنا أبو العباس ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذی ، قال حدثنا سفيان بن وكيع ، قال حدثنا عبد الله بن وهب عن زيد بن حباب عن أبي معاذ عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم خرقه ينشف بها أعضائه بعد الوضوء ، وروى معاذ بن جبل قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا توضأ مسح وجهه بطرف ثوبه .

واستقصاء الصوفية في تطهير البواطن من بين الصفات الرديئة والأخلاق المذمومة ، لا الاستقصاء في طهارة الظاهر إلى حد يخرج عن حد العلم ، وتوضأ عمر رضي الله عنه من حرة نصرانية مع كون النصاري لا يجترئون عن الحر ، وأجرى الأمر على الظاهر وأصل الطهارة .

وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون على الأرض من غير سجادة ، ويمشون حفاة في الطرق ، وقد كانوا لا يجمعون وقت النوم بينهم وبين التراب حائلا ، وقد كانوا يقتصرون على الحجر في الاستنجاء في بعض الأوقات ، وكان أمرهم في الطهارة الظاهرة على التساهل ، واستقصاؤهم في الطهارة الباطنة ، وهكذا شغل الصوفية ، وقد يكون في بعض الأشخاص تشدد في الطهارة ويكون مستند ذلك رغبة النفس ، فلواتسخ ثوبه تخرج ، ولا يبالي بمافي باطنه من الغل والحقد والكبر والعجب والرياء والتفاق ، ولعله ينكر على الشخص لو داس الأرض حافيا مع وجود رخصة الشرع ، ولا ينكر عليه أن يتكلم بكلمة غيبة يخرب بها دينه ، وكل ذلك من قلة العلم وترك التأدب بصحبة الصادقين من العلماء الراضين ، وكانوا يكرهون كثرة الدلك في الاستبراء ، لأنه ربما يسترخي العرق ولا يمسك البول ويتولد منه القطر المفرد .

ومن حكايات المتصوفة في الوضوء والطهارات : أن أبا عمرو الزجاجي جاور بمكة ثلاثين سنة وكان لا يتنزه في الحرم ويخرج إلى الحل ، وأقل ذلك فرسخ .

وقيل : كان بعضهم على وجهه قرح لم يندمل اثنتي عشرة سنة لأن الماء كان يضره ، وكان مع ذلك لا يدع تجديد

الوضوء عند كل فريضة .

وبعضهم نزل في عينه الماء فحملوا إليه المداوى وبذلوا له مالا كثيرا ليدأويه، فقال المداوى: يحتاج إلى ترك الوضوء أيا ما ويكون مستلقيا على قفاه فلم يفعل ذلك ، واختار ذهاب بصره على ترك الوضوء .

الباب السادس والثلاثون : في فضيلة الصلاة وكمبر شأنها

روى عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما خلق الله تعالى الجنة عدن وخلق فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال لها : تكلمي فقالت ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ ثلاثا .

وشهد القرآن المجيد بالفلاح للمصلين ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتاني جبرائيل لدلوك الشمس حين زالت وصلى في الظهر .

واشتقاق الصلاة قيل من الصلى وهو النار ، والخشبة المعوجة إذا أرادوا تقويمها تعرض على النار ثم تقوم ، وفي العبد اعوجاج لوجود نفسه الإمارة بالسوء ، وسبحات وجه الله الكريم التي لو كشف حجابها لأحرقت من أدركته ؛ يصيب بها المصلي من وهج السطوة الإلهية والعظمة الربانية ما يزيل به اعوجاجه ، بل يتحقق به معراج ؛ فالمصلي كالمصطلي بالنار ، ومن اصطلي بنار الصلاة وزال بها اعوجاجه لا يعرض على نار جهنم إلا تحلة القسم .

أخبرنا الشيخ العالم رضي الدين أحمد بن إسماعيل القزويني (إجارة) ، قال أخبرنا أبو سعيد محمد بن أبي العباس بن محمد بن أبي العباس الخليلي ، قال أخبرنا أبو سعيد الفرخزاذي ، قال أخبرنا أبو إسحق أحمد بن محمد ، قال أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسن ، قال أخبرنا أبو زكريا يحيى بن محمد العنبري ، قال حدثنا جعفر بن أحمد بن الحافظ قال أخبرنا أحمد بن نصير ، قال حدثنا آدم بن أبي إياس عن ابن سميان عن العلامة بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله عز وجل : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، فإذا قال العبد : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال الله عز وجل : مجدي عبدي ؛ فإذا قال : الحمد لله رب العالمين ، قال الله تعالى : حمدني عبدي ؛ فإذا قال الرحمن الرحيم ، قال الله تعالى : أثنى على عبدي ، فإذا قال : مالك يوم الدين ، قال : فوض إلى عبدي ؛ فإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين ، قال : هذا بيني وبين عبدي ، فإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، قال الله تعالى : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل .

فالصلاة صلة بين الرب والعبد وما كان صلة بينهما وبين الله الحق العبد أن يكون خاشعا لصوله الربوبية على العبودية . وقد ورد أن الله تعالى إذا تجلى لشيء خضع له ؛ ومن يتحقق بالصلة في الصلاة تلمع له طوابع التجلي فيخشع ؛ والفلاح الذين هم في صلاتهم خاشعون ، وبانتفاء الخشوع يفتنى الفلاح وقال الله تعالى ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾ وإذا كانت الصلاة للذكر كيف يقع فيها النسيان . قال الله تعالى ﴿ لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾ فن قال ولا يعلم ما يقول كيف يصلي وقد نهى الله عن ذلك ، فالسكران يقول الشيء لا بحضور عقل ، والغافل يصلي لا بحضور عقل ؛ فهو كالسكران . وقيل في غرائب التفسير في قوله تعالى ﴿ فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ﴾ قيل : نعليك همك بامرأتك وغنمك ؛ فالاهتمام بغير الله تعالى سكر في الصلاة .

وقيل : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعون أبصارهم إلى السماء وينظرون يمينا وشمالا ؛ فلما نزلت ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ جعلوا وجوههم حيث يسجدون ، ومارؤى بعد ذلك أحد منهم ينظر إلا إلى الأرض وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن العبد إذا قام إلى الصلاة فإنه بين يدي الرحمن ، فإذا التفت قال له الرب : إلى من تلتفت ؟ إلى من هو خير لك مني ؟ ابن آدم ، أقبل إلى فأنا خير لك من تلتفت إليه .

وأبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال : لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه ، .
وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا صليت فصل صلاة مودع ، .

فالمصلي سائر إلى الله تعالى بقلبه يودع هواه ودينياه وكل شيء سواه . والصلاة في اللغة هي الدعاء ، فكان المصلي يدعو الله تعالى بجميع جوارحه ، فصارت أعضاؤه كلها السنة يدعونها ظاهراً وباطناً ويشارك الظاهر الباطن بالتضرع والتقلب والميئيات في تملقات متضرع سائل محتاج ، فإذا دعا بكليته أجابه مولاه لأنه وعد فقال (ادعوني أستجب لكم) وكان خالداً الربمى يقول : عجبت لهذه الآية (ادعوني أستجب لكم) أمرهم بالدعاء وعدم الإجابة ليس بينهما شرط ، والاستجابة والإجابة : هي نفوذ دعاء العبد ؛ فإن الداعي الصادق العالم بمن يدعو بنوريته ، فتخرق الحجب وتقف الدعوة بين يدي الله تعالى متقاضية للحاجة . وخص الله تعالى هذه الأمة بإيزال فاتحة الكتاب وفيها تقديم الثناء على الدعاء : ليكون أسرع إلى الإجابة ، وهي تعليم الله تعالى عباده كيفية الدعاء . وفاتحة الكتاب هي السبع المثاني والقرآن العظيم . قيل : سميت مثاني لأنها نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين : مرة بمكة ومرة بالمدينة ، وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم بكل مرة نزلت منها فهم آخر ، بل كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم بكل مرة يقرؤها على الترداد مع طول الزمان فهم آخر ، وهكذا المصلون المحققون من أمته ينكشف لهم عجائب أسرارها ، وتقذف لهم كل مرة درر بحارها . وقيل : سميت مثاني لأنها استئنيت من الرسل وهي سبع آيات .

وروت أم رومان قالت : رأيته أبو بكر وأنا أتأمل في الصلاة ، فجزر جزراً كدت أن أنصرف عن صلاتي ، ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا قام أحدكم إلى الصلاة فليسكن أطرافه لا يتميل تيميل اليهود ، فإن سكوت الأطراف من تمام الصلاة ، .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تمودوا بالله من خشوع النفاق . قيل : وما خشوع النفاق ؟ قال : خشوع البدن ونفاق القلب ، .

أما تيميل اليهود ، قيل : كان موسى يعامل بني إسرائيل على ظاهر الأمور لقلة ما في باطنهم . فكان يهيئ الأمور ويعظمها ، ولهذا المعنى أوحى الله تعالى إليه أن يحل التوراة بالذهب ، ووقع لي والله أعلم أن موسى كان يرد عليه الوارد في صلاته ومحال مناجاته فيموج به باطنه كبحر ساكن تهب عليه الريح فتتلاطم الأمواج ، فكان تيميل موسى عليه السلام تلاطم أمواج بحر القلب إذا هب عليه نسيمات الفضل ، وربما كانت الروح تتطلع إلى الحضرة الإلهية ، فهم بالاستعلاء ، وللقب بها تشبكه وامتزاج ، فيضطرب القلب ويتأيل ، فرأى اليهود ظاهراً فتأيلوا من غير حظ لبواطنهم من ذلك ؛ ولهذا المعنى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنكاراً على أهل الوسوسة : هكذا خرجت عظمة الله من قلوب بني إسرائيل حتى شهدت أبدانهم وغابت قلوبهم ، لا يقبل الله صلاة امرئ لا يشهد فيها قلبه كما يشهد بدنه ، وإن الرجل على صلاته دائم ولا يكتب عشرين يوماً إذا كان قلبه ساهياً لاهياً ، .

واعلم أن الله تعالى أوجب الصلوات الخمس ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الصلاة عماد الدين ، فمن ترك الصلاة فقد كفر ، وبالصلاة تحقيق العبودية وأداء حق الربوبية ، وسائر العبادات وسائل إلى تحقيق سر الصلاة . قال سهل بن عبد الله : يحتاج العبد إلى السنن الرواتب لتكميل الفرائض ، ويحتاج إلى النوافل لتكميل السنن ، ويحتاج إلى الآداب لتكميل النوافل .

ومن الآداب : ترك الدنيا ، والذي ذكره سهل هو معنى ما قال عمر على المنبر : إن الرجل ليشيب عارضاً في الإسلام وما أكل لله صلاة ، قيل : وكيف ذاك ؟ قال : لا يتم خشوعها وتواضعها لإقباله على الله فيها . وقد ورد في الأخبار إن العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه وواجهه بوجهه الكريم ، وقامت الملائكة من لدن منسكبيه إلى الهواء يصلون بصلاته ويؤمنون على دعائه ، وإن المصلي لينشر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه ، ويناديه مناد : لو علم المصلي من يناجي ما التفت ، أو ما انفتل .

وقد جمع الله تعالى للمصلين في كل ركعة ما فرق على أهل السموات ، فله ملائكة في الركوع منذ خلقهم الله لا يرفعون من الركوع إلى يوم القيامة ، وهكذا في السجود والقيام والقعود ، والعبد المتيقظ يتصف في ركوعه بصفة الراكعين منهم ، وفي السجود بصفة الساجدين ، وفي كل هيئة هكذا يكون كالواحد منهم ويبنهم . وفي غير الفريضة ينبغي للمصلي أن يكثر في ركوعه مثلثا بالركوع غير مهتم بالرفع منه ، فإن طرقة سامة بحكم الجبللة استغفر منها ، ويستديم تلك الهيئة ويتطلع أن يذوق الخشوع اللائق بهذه الهيئة ليصير قلبه بلون الهيئة ، وربما يترامى للراكع الحق أنه إن سبق همه في حال الركوع أو السجود إلى الرفع منه ما وفي الهيئة حقها ، فيكون همه الهيئة مستغرقا فيها مشغولا بها عن غيرها من الهيات ، فبذلك يتوفر حظه من بركة كل هيئة ، فإن السرعة التي يتقاضى بها الطبع تسد باب الفتح ، ويقف في مهاب النفحات الإلهية حتى يتكامل حظ العبد ، فتسمى آثاره بحسن الاسترسال ويستقر في مقعد الوصال .

رقل : في الصلاة أربع هيآت وستة أذكار ؛ فلهيآت الأربع : القيام والقعود والركوع والسجود . والأذكار الستة : التلاوة ، والتسبيح ، والحمد ، والاستغفار ، والدعاء ، والصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام . فصارت عشرة كاملة تفرق هذه العشرة على عشرة صفوف من الملائكة : كل صف عشرة آلاف ؛ فيجتمع في الركعتين ما يفرق على مائة ألف من الملائكة

الباب السابع والثلاثون : في وصف صلاة أهل القرب

ونذكر في هذا الوصف كيفية الصلاة بهيأتها وشروطها وآدابها الظاهرة والباطنة على السكال بأقصى ما انتهى إليه فهمنا وعلينا على الوجه ، مع الإعراض عن نقل الأقوال في كل شيء من ذلك ، إذ في ذلك كثرة ويخرج عن حد الاختصار والإيجاز المقصود ، فنقول وبالله التوفيق :

ينبغي للعبد أن يستعد للصلاة قبل دخول وقتها بالوضوء ولا يوقع الوضوء في وقت الصلاة ؛ فذلك من المحافظة عليها . ويحتاج في معرفة الوقت إلى معرفة الزوال وتفاوت الأقدام لطول النهار وقصره ، ويعتبر الزوال بأن الظل مادام في الانتقال فهو النصف الأول من النهار ، فإذا أخذ الظل في الازدياد فهو النصف الآخر وقد زالت الشمس ، وإذا عرف الزوال وأن الشمس على كقدم تزول ؟ يعرف أول الوقت وآخره ووقت العصر ، ويحتاج إلى معرفة المنازل ليعلم طلوع الفجر ويعلم أوقات الليل ، وشرح ذلك يطول ويحتاج أن يفرد له باب ، فإذا دخل وقت الصلاة يقدم السنة الراتبة ، ففي ذلك سر وحكمة ، وذلك والله أعلم : أن العبد تشعث باطنه وتفرق همما بلى به من المخالطة من الناس وقيامه بمهام المعاش ، أو سهو جرى بوقع الجبللة ، أو صرف هم إلى أكل أو نوم بمقتضى العادة ، فإذا قدم السنة ينجذب باطنه إلى الصلاة وينتهي للنساجاة ، ويذهب بالسنة الراتبة أثر الغفلة والكدورة من الباطن فينصلح الباطن ويصير مستعدا للفريضة ، فالسنة مقدمة صالحة يستنزل بها البركات وتطرق النفحات ، ثم يجدد التوبة مع الله تعالى عند الفريضة عن كل ذنب عمله ، ومن الذنوب عامة وخاصة ، فالعامة الكبائر والصغائر عما أوما إليه الشرع ونطق به الكتاب والسنة ، والخاصة . ذنوب حال الشخص ، فكل عبد على قدر صفاء حاله له ذنوب تلائم حاله ويعرفها صاحبها . وقيل : حسنات الأبرار سيئات المفريين ، ثم لا يصلح إلا جماعة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تفضل صلاة الجماعة صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة ، ثم يستقبل القبلة بظاهره والخصرة الإلهية بباطنه ويقرأ (قل أعوذ برب الناس) ويقرأ في نفسه آية التوجه ، وهذا التوجه قبل الصلاة والاستفتاح قبل الصلاة لوجهه الظاهر بأفصرافه إلى القبلة . وتخصيص جهته بالتوجه دون جهة الصلاة ، ثم يرفع يديه حذو منكبيه بحيث تكون كماء حذو منكبيه وإيهاماه عند شحمة أذنيه وروءس الأصابع مع الأذنين ويضم الأصابع ، وإن نشرها جاز ، والضم أولى ، فإنه قيل : النشر نشر الكف لا نشر الأصابع ، ويكبر ، ولا يدخل بين ياء أكبر ، ورائه ألفا ، ويجزم أكبر ، ويجعل المذ في الله ، ولا يبالغ في (٢١) — ملحق كتاب الإحياء

ضم الهاء من « الله » ولا يبتدئ بالشكير إلا إذا استقرت اليدان حذو المنكبين ، ويرسلهما مع التكبير من غير نفث ؛ فالوقار إذا سكن القلب تشكك به الجوارح وتأيدت بالاولى والأصوب ، ويجمع بين نية الصلاة والتكبير بحيث لا يغيب عن قلبه حالة التكبير أنه يصلي الصلاة بعينها .

وحكى عن الجنيد أنه قال : لكل شيء صفوة ، وصفوة الصلاة التكبيرة الاولى . وإنما كانت التكبيرة صفوة لأنها موضع النية وأول الصلاة .

قال أبو نصر السراج : سمعت ابن سالم يقول : النية بالله الله ومن الله ، والآفات التي تدخل في صلاة العبد بعد النية من العدو ، ونصيب العدو وإن كثر لا يوازن بالنية التي هي لله بالله وإن قل .

وسئل أبو سعيد الخراز : كيف الدخول في الصلاة ؟ فقال : هو أن تقبل على الله تعالى إقبالك عليه يوم القيامة ووقوفك بين يدي الله ليس بينك وبينه ترجمان وهو مقبل عليك وأنت تناجيه وتعلم بين يدي من أنت واقف فإيه الملك العظيم .

وقيل لبعض العارفين : كيف تكبر التكبيرة الاولى ؟ فقال : ينبغي إذا قلت الله أكبر أن يكون مصحوبك في الله : التعظيم مع الآلف ، والهيبة مع اللام ، والمراقبة والقرب مع الهاء . واعلم أذن من الناس من إذا قال « الله أكبر » غاب في مطالعة العظمة والكبرياء ، وامتلا بباطنه نورا ، وصار الكون بأسره في فضاء شرح صدره كحردة بأرض فلاة ، ثم تلقى الحردة ، فما يخشى من الوسوسة وحديث النفس ! وما يتخايل في الباطن من الكون الذي صار بمثابة الحردة فالتفت ! فكيف تراحم الوسوسة وحديث النفس مثل هذا العبد ؟ وقد تراحم مطالعة العظمة والغيوبة في ذلك كون النية ، غير أنه لغاية لطف الحال يختص الروح ، مطالعة العظمة والقلب يتميز بالنية ، فتكون النية موجودة باللفظ صفاتها مندرجة في نور النظمة اندراج الكواكب في ضوء الشمس ، ثم يقبض بيده اليمنى يده اليسرى ويجعلها بين السرة والصدر ، واليمنى لكراحتها تجعل فوق اليسرى ، ويمد المسبحة والوسطى على الساعد ، ويقبض بالثلاثة البواقي اليسرى من الطرفين ، وقد فر أمير المؤمنين على رضى الله عنه قوله تعالى (فصل ربك وانحر) قال : إنه وضع اليمنى على الشمال تحت الصدر ، وذلك أن تحت الصدر عرفا يقال له الناحر : أى ضع يدك على الناحر . وقال بعضهم (وانحر) أى استقبل القبلة بنحرك ، وفي ذلك سر خفي يكشف به من وراء أستار الغيب ، وذلك أن الله تعالى بلطف حكمته خالق الآدمي وشرفه وكرمه وجعله محل نظره ومورد وحيه ونخبة ما في أرضه وسماؤه وروحانيا وجسائنا أرضيا وسماويا ، منتصب القامة مرتفع الهيئة ، فنتصفه الأعلى من حد الفؤاد مستودع أسرار السموات ، ونصفه الأسفل مستودع أسرار الأرض ، فحل نفسه ومركزها النصف الأسفل ، وحل روحه الروحاني والقلب النصف الأعلى ؛ لجواذب الروح مع جواذب النفس يتطاردان ويتحاربان ، وباعتبار تطاردهما وتغالبا فيهما تكون لمة الملك ولمة الشيطان ، ووقت الصلاة يكثر التطارد لوجود التجاذب بين الإيمان والطبع ، فيكشف المصلى الذي صار قلبه سماويا مترددا بين الفناء والبقاء لجواذب النفس متصاعدة من مركزها .

وللجوارح وتصرفها وحركتها مع معاني الباطن ارتباط وموازنة ؛ فبوضع اليمنى على الشمال حصر النفس ومنع من صعود جواذبها ، وأثر ذلك يظهر بدفع الوسوسة وزوال حديث النفس في الصلاة ، ثم إذا استولت جواذب الروح وتمسكت من الفرق إلى القدم - عند كمال الانس وتحقق قرة العين واستيلاء سلطان المشاهدة - تصير النفس مقهورة ذليلة ، ويستتير مركزها بنور الروح ، وتنقطع حينئذ جواذب النفس ؛ وعلى قدر استئثار مركز النفس يزول كل العبادة ، ويستغنى حينئذ عن مقاومة النفس ومنع جواذبها بوضع اليدين على الشمال فيسبل حينئذ ، ولعل لذلك - والله أعلم - ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه صلى مسبلا ، وهو مذهب مالك رحمه الله ، ثم يقرأ (وجهي وجهي) الآية ، وهذا التوجه إبقاء لوجه قلبه ، والذي قبل الصلاة لوجه قلبه ، ثم يقول : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك ، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك أنت ربى وأنا عبدك ،

ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعا إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها فإنه لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك فالخير كله بيدك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك. ويطرق رأسه في قيامه ويكون نظره إلى موضع السجود، ويكمل القيام بانتصاب القامة ونزع يسير الانبطاء عن الركبتين والخواصر ومعاطف البدن، ويقف كأنه ناظر بجميع جسده إلى الأرض؛ فهذا من خشوع سائر الأجزاء، ويتسكون الجسد بتسكون القلب من الخشوع؛ ويرواح بين القدمين بمقدار أربع أصابع؛ فإن ضم السكعين هو الصنف المنهى عنه، ولا يرفع إحدى الرجلين فإنه الصنف المنهى عنه؛ بهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصنف والصفد، وإذا كان الصنف منهيًا عنه ففي زيادة الاعتماد على إحدى الرجلين دون الأخرى معنى من الصنف؛ فالأولى رعاية الاعتدال في الاعتماد على الرجلين جميعا ويكره اشتغال الصباء وهو أن يخرج يده من قبل صدره. ويحتمل السدل؛ وهو أن يرخي أطراف الثوب إلى الأرض، ففيه معنى الخيلاء وقيل: هو الذي يلتف بالثوب، ويجعل يديه من داخل فيركع ويسجد كذلك. وفي معناه ما إذا جعل يديه داخل القميص. ويحتمل السكف؛ وهو أن يرفع ثيابه بيديه عند السجود، ويكره الاختصار؛ وهو أن يجعل يده على الخاصرة ويكره الصلب؛ وهو وضع اليدين جميعا على الخصرين وتجنأ العضدين؛ فإذا وقف في الصلاة على الهيئة التي ذكرناها اجتنبنا للسكره فقد تم القيام وكمله، فيقرأ آية التوجه والدعاء كما ذكرناه، ثم يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ويقولها في كل ركعة أمام القراءة، ويقرأ الفاتحة وما بعدها بحضور قلب وجمع هم ومراطاة بين القلب واللسان بحفظ وافر من الوصلة والذنوب والهيبة والخشوع والخشية والتعظيم والوقار والمشاهدة والمناجاة، وإن قرأ بين الفاتحة وما يقرأ بعدها إذا كان إماما في السكتة الثانية اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، ونقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرد، وحسن، وإن قالها في المكتبة الأولى لحسن. وروى عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال ذلك. وإن كان منفردا يقولها قبل القراءة، ويعلم العبد أن تلاوته نطق اللسان ومعناها نطق القلب؛ وكل مخاطب لشخص يتكلم بلسانه، ولسانه يعبر عما في قلبه، ولو أمكن المتكلم لفهام من يكلمه من غير لسان فعل، ولكن حيث تعذر الإفهام إلا بالكلام جعل اللسان ترجمانا، فإذا قال باللسان من غير مواطأة القلب فاللسان ترجمانا ولا القارئ متكلما فاصدا لإسماع الله حاجته ولا مستمعا إلى الله فاهما عنه سبحانه ما يخاطبه، وما عنده غير حركة اللسان بقلب غائب عن قصد ما يقول؛ فينبغي أن يكون متكلما مناجيا، أو مستمعا راعيا، فأقل مراتب أهل الخصوص في الصلاة الجمع بين القلب واللسان في التلاوة ووراء ذلك أحوال للنخراص يطول شرحها.

قال بعضهم: ما دخلت في صلاة قط فأهمني فيها غير ما أقول. وقيل لعامر بن عبد الله: هل تجد في الصلاة شيئا من أمور الدنيا؟ فقال: لأن تختلف على الألسنة أحب إلى من أجد في الصلاة ما تجددون. وقيل لبعضهم: هل تحدث نفسك في الصلاة بشيء من أمور الدنيا؟ فقال: لا في الصلاة ولا في غيرها.

ومن الناس من إذا أقبل على الله في صلاته يتحقق بمعنى الإنابة لأن الله تعالى قدم الإنابة وقال: ﴿منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة﴾ فينبغي إلى الله تعالى ويتق الله تعالى بالتبرى عما سواه، ويقوم الصلاة بصدر مفرغ بالإسلام، وقلب منفتح بنور الإنعام؛ فتخرج الكلمة من القرآن من لسانه ويسمعها بقلبه، فتقع الكلمة في فضاء قلب ليس فيه غيرها، فيتملكها القلب بحسن الفهم ولذيد نعمة الإصغاء، ويتشربها بحلاوة الاستماع وكالوعى، ويدرك لطيف معناها وشريف لحواها معاني تلطف عن تفصيل الذكر وتتشكل بخفي الفكر، ويصير الظاهر من معاني القرآن قوت النفس؛ فالنفس المطمئنة متعوضة بمعاني القرآن عن حديثها لسكونها معاني ظاهرية متوجهة إلى عالم الحكمة والشهادة، تقرب مناسبتها من النفس المكونة لإقامة رسم الحكمة ومعاني القرآن الباطنة التي يكشف بها من الملكوت قوت القلب، وتخلص الروح المقدس إلى أوائل سرادقات الجبروت بمطالعة عظمة المتكلم، وبمثل هذه المطالعة يكون

كال الاستغراق في لحج الأشواق ، كما نقل عن مسلم بن يسار أنه صلى ذات يوم في مسجد البصرة ، فوقعت أسطوانة تسامع بسقوطها أهل السوق ، وهو واقف في الصلاة لم يعلم بذلك .

ثم إذا أراد الركوع يفصل بين القراءة والركوع ، ثم يركع منطوي القامة والنصف الأسفل بحاله في القيام من غير انطواء الركبتين ، ويجافي مرفقيه عن جنبيه ، ويمد عنقه مع ظهره ، ويضع راحتيه على ركبتيه ممشورة الأصابع . روى مصعب بن سعد قال صليت إلى جنب سعد بن مالك ، فجعلت يدي بين ركبتي وبين فخذي وطبقتهما ، فضرب يدي وقال : اضرب بكفيك على ركبتيك وقال : يا بني إما كنا نفعل ذلك فأمرنا أن نضرب بالأكف على الركب ، ويقول « سبحان ربّي العظيم » ثلاثا وهو أدنى السكّال ، والسكّال أن يقول إحدى عشرة ، وما يأتي به من العدد يكون بعد التمكن من الركوع ، ومن غير أن يمزج آخر ذلك بالرفع ، ويرفع يديه للركوع والرفع من الركوع ، ويكون في ركوعه ناظرا نحو قدميه فهو أقرب إلى الخشوع من النظر إلى موضع السجود ، وإنما ينظر إلى موضع سجوده في قيامه ويقول بعد التسبيح : اللهم لك ركعت ولك خشعت وبك آمنت ولك أسلمت ، خشع لك سمعي وبصري وعظمي وعصبي ، ويكون قلبه في الركوع متصفا بمعنى الركوع من التواضع والإخبات ، ثم يرفع رأسه قائلا : سمع الله لمن حمده عالما بقلبه ما يقول فإذا استوى قائما يحمد ويقول : ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد ، ثم يقول : أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجند منك الجند ، فإن أطال في النافلة القيام بعد الرفع من الركوع فليقل : لربي الحمد ، مكررا ذلك مهما شاء . فإما في الفرض فلا يطول تطويلا يزيد على الحد زيادة بينة ، ويقنع في الرفع من الركوع بنهاج الاعتدال بإقامة الصلب : ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا ينظر الله إلى من لا يقيم صلبه بين الركوع والسجود ،

ثم يهوى ساجدا ويكون في هويته مكبرا مستيقظا حاضرا خاشعا عالما بما يهوى فيه وإليه وله ، فمن الساجدين من يكشف أنه يهوى إلى نخوم الأرضين متغيا في أجزاء الملك لا متلاء قلبه من الحياء واستشعار روحه عظيم الكبرياء ، كما ورد أن جبرائيل عليه السلام تستر بخافية من جناحه حياء من الله تعالى ، ومن الساجدين من يكشف أنه يطوى بسجوده بساط الكون والمكان ويسرح قلبه في قضاء الكشف والعيان ، فتهدى دون هويته أطباق السموات وتنمحي لقوة شهوده تماثيل الكائنات ويسجد على طرف رداء العظمة وذاك أقصى ما يفتى إليه طائر الهمة البشرية وكفى بالوصول إليه القوى الإنسانية ، وتتفاوت الأنبياء والأولياء في مراتب العظمة واستشعار كنهها لكل منهم على قدره حظ من ذلك ، وفوق كل ذي علم عليم . ومن الساجدين من يتسع وعافه ، وينتشر ضياؤه ، ويحظى بالصنفين ويبدسط الجناحين ، فيتواضع بقلبه لإجلالا ، ويرفع بروحه لإكراما وإفضالا ، فيجتمع له الانس والهيبة ، والحضور والغيبة ، والفرار والقرار ، والإسرار والجهار ؛ فيكون في سجوده ، ساجدا في بحر شهوده ، لم يتخلف منه عن السجود شعرة كما قال سيد البشر في سجوده : سجد لك سوادى وخيالى ، (والله يسجد من السموات والأرض طوعا وكرها) الطوع للروح والقلب لما فيهما من الاهلية ، والكره من النفس لما فيها من الاجنابية .

ويقول في سجوده : « سبحان ربّي الأعلى » ثلاثا إلى العشر الذي هو السكّال ، ويكون في السجود مفترحا العينين لاهما يسجدان ، وفي الهوى يضع ركبتيه ثم يديه ثم جبهته وأنفه ، ويكون ناظرا نحو أرنبة أنفه في السجود ، فهو أبلغ في الخشوع للساجد ، ويأثر بكهيه المصلى ، ولا يلفهما في الثوب ، ويكون رأسه بين كفيه ، ويداه حذو منكبيه غير متيامن ومتياسر بهما ، ويقول بعد التسبيح : اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت ، سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين ، وروى أمير المؤمنين على رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في سجوده ذلك . « وإن قال سبرح قدوس رب الملائكة والروح » ، لحسن . روت عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في سجوده ذلك . ويجافي مرفقيه عن جنبيه

ويوجه أصابعه في السجود نحو القبلة ويضم أصابع كفيه مع الإبهام ، ولا يفرش ذراعيه على الأرض . ثم يرفع رأسه مكبرا ، ويجلس على رجله اليسرى وينصب اليمنى موجها بالأصابع إلى القبلة ، ويضع اليدين على الفخذين من غير تكلف ضمهما وتفريجهما ، ويقول : « رب اغفر لي وارحمني واهدني واجبرني وعافني واعف عني ، ولا يطيل هذه الجلسة في الفريضة ؛ أما في النافلة فلا بأس مهما أطل ، قائلا : رب اغفر وارحم ، مكررا ذلك ، ثم يسجد السجدة الثانية مكبرا ، ويكره الإقعاء في القعود ، وهو ههنا : يضع أليتيه على عقبيه .

ثم إذا أراد الهوض إلى الركعة الثانية يجلس جاسة خفيفة للاستراحة ، ويفعل في بقية الركعات هكذا ، ثم يتشهد . وفي الصلاة سر المعراج : وهو معراج القلوب ، والتشهد مقر الوصول بعد قطع مسافات الهيئات على تدرج طبقات السموات . والنحيات سلام على رب البريات ، فليذعن لما يقول ، ويتأدب مع من يقول ، ويدرك كيف يقول ، ويسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ، ويمثله بين عيني قلبه ، ويسلم على عباد الله الصالحين ؛ فلا يبقى عبد في السماء ولا في الأرض من عباد الله إلا ويسلم عليه بالنسبة الروحية والخاصية الفطرية ، ويضع يده اليمنى على فخذه اليمنى مقبوضة الأصابع إلا المسبحة ، ويرفع المسبحة في الشهادة في « لا إله إلا الله » لاني كلمة النبي . ولا يرفعهما منتصبين بل مائلة برأسها إلى الفخذ منظوية ؛ فهذه هيئة خشوع المسبحة ودليل سراية خشوع القلب إليها .

ويدعو في آخر صلاته لنفسه وللمؤمنين . وإن كان إماما ينبغي أن لا ينفرد بالدعاء ، بل يدعو لنفسه ولن وراه ؛ فإن الإمام المتيقظ في الصلاة كحاجب دخل على سلطان ووراه أصحاب الخواص : يسأل لهم ويعرض حاجتهم ، والمؤمنون كالبنين يشد بعضهم بعضا ، وبهذا وصفهم الله تعالى في كلامه بقوله سبحانه (كأنهم بذيان مرصوص) .

وفي وصف هذه الأمة في الكتب السالفة : صفهم في صلاتهم كصفهم في قتالهم .

وحدثنا بذلك شيخنا ضياء الدين أبو التجيب السهروردي إملاء قال أخبرنا أبو عبد الرحمن محمد بن عيسى بن شعيب الماليني ، قال أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد المظفر الواعظ قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد السرخسي ، قال أخبرنا أبو عمران عيسى بن عمر بن العباس السمرقندي ، قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي ، قال أخبرنا مجاهد بن موسى ، قال حدثنا من هو ابن عيسى : أنه سأل كعب الأحبار : كيف نجد نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة ؟ قال : نجد : « محمد بن عبد الله ، ويولد بمكة ويهاجر لطيبة ، ويكون ملكة بالشام ، وليس بفحاش ولا صخاب في الأسواق ، ولا يكافئ بالسيسة السيئة والسكن يعفو ويغفر ، أمته الحمدون : يحمدون الله في كل سراء ، ويكبرون الله على كل نجد ، يوضئون أطرافهم ويأزرون في أوساطهم ، يصفون في صلاتهم كما يصفون في قتالهم ، دويهم في مساجدهم كدوى النحل ، يسمع مناديتهم في جو السماء . »

فالإمام في الصلاة مقدمة الصف في محاربة الشيطان ، فهو أولى المصالح بالمشروع والإتيان بوظائف الأدب ظاهرا وباطنا ، والمصلون المتيقظون كلها جتمعت ظواهرهم تجتمع بواطنهم وتتناصر وتتعاقد ، وتسرى من البعض إلى البعض أنوار وبركات ، بل جميع المسلمين المصلين في أقطار الأرض بينهم تعاقد وتناصر بحسب القلوب ونسب الإسلام ورابطة الإيمان ؛ بل يمدحهم الله تعالى بالملائكة الكرام كما أمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملائكة المؤمنين ؛ لحاجتهم إلى محاربة الشيطان أمس من حاجتهم إلى محاربة الكفار ، ولهذا كان يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « رجعتنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، فتتداركهم الملائكة ، بل بأنفسهم الصادقة تتماسك الأفلاك . »

فإذا أراد الخروج من الصلاة يسلم على يمينه ، وينوي مع التسليم الخروج من الصلاة والسلام على الملائكة والحاضرين من المؤمنين ومؤمني الجن ، ويجعل خده ميئنا لمن على يمينه بالواء عنقه ، ويفصل بين هذا السلام والسلام عن يساره ، فقد ورد النهي عن المواصلة ، والمواصلة خمس : اثنتان تخص بالإمام : هو أن لا يوصل القراءة بالتكبير ، والركوع بالقراءة . واثنتان على المأموم : وهو أن لا يوصل تكبيرة الإحرام بتكبيرة الإمام ، ولا تسليمة بتسليمه . وواحدة على الإمام والمأمومين : وهو أن لا يوصل تسليم الفرض بتسليم الفغل . ويجزم التسليم ولا يمد مدا ، ثم يدعو بعد التسليم بما

يشاء من أمر دينه ودينه ، ويدعوقيل التسليم أيضا في صلب الصلاة فإنه يستجاب . ومن أقام الصلوات الخمس في جماعة فقد ملأ البر والبحر عبادة ، وكل المقامات والأحوال زبدها الصلوات الخمس في جماعة ، وهى سرالدين ، وكفارة للمؤمن ، وتمحيص للخطايا : على ما أخبرنا شيخنا شيخ الإسلام ضياء الدين أبو النجيب السهروردى رحمه الله إجازة ، قال أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون ، قال أخبرنا أبو محمد الحسن بن على الجوهرى إجازة ، قال أخبرنا أبو عمر محمد بن العباس بن زكريا ، قال حدثنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد ، قال حدثنا الحسين بن الحسين المروزى ، قال أخبرنا عبد الله بن المبارك ، قال أخبرنا يحيى بن عبد الله . قال سمعت أبي يقول : سمعت أبا هريرة رضى الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الصلوات الخمس كفارات للخطايا ، وأقرءوا إن شئتم (إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين) .

الباب الثامن والثلاثون : فى ذكر آداب الصلاة وأسرارها

أحسن آداب المصلى : أن لا يكون مشغول القلب بشئ . قل أو كبر ؛ لأن الأكياس لم يرفضوا الدنيا إلا ليقيموا الصلاة كأمرها ؛ لأن الدنيا وأشغالها لما كانت شاغلة للقلب رفضوها غير على محل المناجاة ، ورغبة فى أوطان القربات ، وإذعاناً بالباطن لرب البريات ؛ لأن حضور الصلاة بالظاهر لإذعان الظاهر : وفراغ القلب فى الصلاة عما سوى الله تعالى لإذعان الباطن ، فلم يروا حضور الظاهر وتخلف الباطن حتى لا يختل لإذعانهم فتشترى عبوديتهم ؛ فيجتذب أن يكون باطنه مرتبها بشئ ويدخل الصلاة .

وقيل : من فقه الرجل أن يبدأ بقضاء حاجته قبل الصلاة ، ولهذا ورد : إذا حضر العشاء والعشاء فقدموا العشاء على العشاء ، ولا يصلى وهو حافى يطالبه البول ، ولا حازق يطالبه الغائط والحرق أيضا : ضيق الخف ، ولا يصلى أيضا وخفه ضيق قلبه ، فقد قيل : لا رأى لحازق ، قيل الذى يكون معه ضيق . وفى الجملة ليس من الأدب أن يصلى وعنده ما يغير مزاج باطنه عن الاعتدال كهذه الأشياء التى ذكرناها ، والاهتمام المفرط ، والنصب : وفى الخبر لا يدخل أحدكم فى الصلاة وهو مقطب ، ولا يصلى أحدكم وهو غضبان ، فلا ينبغي للعبد أن يتلبس بالصلاة إلا وهو على أتم الهيئات .

وأحسن لبسة المصلى سكون الأطراف وعدم الالتفات والإطراق ووضع اليدين على الشمال ، فأحسنهما من هيئة عبد ذليل واقف بين يدي ملك عزيز . وفى رخصة الشرع دون الثلاث حركات متواليات جائز ؛ وأرباب العزيمة يتركون الحركة فى الصلاة جملة : وقد حركت يدي فى السلام وعندى شخص من الصالحين ، فلما انصرفت من الصلاة أنكر على وقال : عندنا إن العبد إذا وقف فى الصلاة ينبغي أن يبقى جمادا بحمد لا يتحرك منه شئ . وقد جاء فى الخبر : سبعة أشياء فى الصلاة من الشيطان : الرعاف ، والنعاس ، والوسوسة ، والتثاؤب ، والحكاك ، والالتفات ، والغبث بالشئ من الشيطان أيضا . وقيل : السهو والشك .

وقد روى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال : إن الخشوع فى الصلاة : أن لا يعرف المصلى من على يمينه وشماله .

ونقل عن سفيان أنه قال : من لم يخشع فسدت صلاته . وروى عن معاذ بن جبل أشد من ذلك قال : من عرف من عن يمينه وشماله فى الصلاة متعمدا فلا صلاة له .

وقال بعض العلماء : من قرأ كلمة مكتوبة فى حائط أو بساط فى صلاته فصلاته باطلة قال بعضهم : لأن ذلك عدوه عملا . وقيل فى تفسير قوله تعالى (والذين هم على صلاتهم دائمون) قيل : هو سكون الأطراف والطمأنينة .

قال بعضهم : إذا كبرت التكبير الأولى فاعلم أن الله ناظر إلى شخصك عالم بما فى ضميرك ، ومثل فى صلاتك الجنة عن يمينك والنار عن شمالك ، وإنما ذكرنا أن تمثل الجنة والنار لأن القلب إذا شغل بذكر الآخرة ينقطع عنه

الوسواس ، فيكون هذا التمثيل تداوياً للقلب لدفع الوسوسة .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي بإجازة ، قال أخبرنا عمر بن أحمد الصفار ، قال أخبرنا أبو بكر ابن خاف ، قال أخبرنا أبو عبد الرحمن ، قال سمعت أبا الحسين الفارسي يقول : سمعت محمد بن الحسين يقول : قال سهل : من خلا قلبه عن ذكر الآخرة تعرض لوساوس الشيطان ؛ فأما من باشر بطلنه صفوا اليقين ونور المعرفة فيستغنى بشاهده عن تمثيل مشاهدته . قال أبو سعيد الخزاز ؛ إذا ركع فالأدب في ركوعه أن ينتصب ويدنو ويتدلى في ركوعه حتى لا يبقى منه مفصل إلا وهو منتصب نحو العرش العظيم ، ثم يعظم الله تعالى حتى لا يكون في قلبه شيء أعظم من الله ويصغر في نفسه حتى يكون أقل من الهباء ، وإذا رفع رأسه حمد الله يعلم أنه سبحانه وتعالى يسمع ذلك . وقال أيضا : ويكون معه من الخشية ما يكاد يذوب به .

قال السراج : إذا أخذ العبد في التلاوة فالأدب في ذلك أن يشاهد ويسمع قلبه كأنه يسمع من الله تعالى ، أو كأنه يقرأ على الله تعالى . وقال السراج أيضا : من أدبهم قبل الصلاة المراقبة ومراعاة القلب من الخواطر والعوارض ونفي كل شيء غير الله تعالى ؛ فإذا قاموا إلى الصلاة بحضور القلب فكأنهم قاموا من الصلاة إلى الصلاة ، فيكون مع النفس والعقل اللذين دخلوا في الصلاة بهما ، فإذا خرجوا من الصلاة رجعوا إلى حالهم من حضور القلب ، فكأنهم أبدى في الصلاة ؛ فهذا هو أدب الصلاة .

وقيل : كان بعضهم لا يتهيا له حفظ العدد من كمال استغراقه ، وكان يجلس واحد من أصحابه يعدد عليه كم ركعة صلى وقيل : للصلاة أربع شعب : حضور القلب في المحراب ، وشهود العقل عند الملك الوهاب ، وخشوع القلب بلا ارتياب وخشوع الأركان بلا ارتقاب ، لأن عند حضور القلب رفع الحجاب ، وعند شهود العقل رفع العتاب ، وعند حضور النفس فتح الأبواب ، وعند خضوع الأركان وجود الثواب ؛ فن أتى الصلاة بلا حضور القلب فهو مصل لاه ، ومن أتاها بلا شهود العقل فهو مصل ساه ، ومن أتاها بلا خضوع النفس فهو مصل غاطى ، ومن أتاها بلا خشوع الأركان فهو مصل جاف ، ومن أتاها كما وصف فهو مصل واثق .

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ إذا قام العبد إلى الصلاة المكتوبة مقبلاً على الله بقلبه وسمعه وبصره انصرف من صلاته وقد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، وإن الله ليغفر بغسل الوجه خطيئة أصابها ، وبغسل رجليه خطيئة أصابها ، حتى يدخل في صلاته وليس عليه وزر .

وذكرت السرقة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ؛ أي السرقة أقبح ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم ؛ فقال ؛ إن أقبح السرقة أن يسرق الرجل من صلاته ، قالوا ؛ كيف يسرق الرجل من صلاته ؟ قال ؛ لا يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها ولا القراءة فيها ، وروى عن أبي عمرو بن العلاء أنه قدم للإمامة فقال لا أصلح ، فلما أحرأ عليه كبر فغشى عليه فقدموا إماماً آخر ، فلما أفاق سئل فقال ؛ لما قلت استواءه تف في هاتف ؛ هل استويت أنت مع الله قط .

وقال عليه السلام ؛ إن العبد إذا أحسن الوضوء وصلى الصلاة لوقتها وحافظ على ركوعها وسجودها ومراقبتها قالت ؛ حفظك الله كما حفظتني ثم صعدت ولها نور حتى تذهب إلى السماء وحتى تصل إلى الله فتشفع لصاحبها ، وإذا أضعأها قالت ؛ ضيعك الله كما ضيعتني ثم صعدت ولها ظلمة حتى تذهب إلى أبواب السماء فتغلق دونها ، ثم تلف كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها .

وقال أبو سليمان الداراني ؛ إذا وقف العبد في الصلاة يقول الله تعالى ؛ ارفعوا الحجب فيما بيني وبين عبدی ، فإذا التفت يقول الله ؛ ارفعوها فيما بيني وبينه وخلوا عبدی وما اختار لنفسه .

وقال أبو بكر الوراق ؛ ربما أصلى ركعتين فأنصرف منهما وأنا أستحي من الله حياء رجل انصرف من الزنا قوله هذا ؛ لعظيم الأدب عنده ، ومعرفة كل إنسان بأدب الصلاة على قدر حظه من القرب .

وقيل لموسى بن جعفر : إن الناس أفسدوا عليك الصلاة بمحرم بين يديك ، قال : إن الذى أصلى له أقرب إلى من الذى يمشى بين يدي . وقيل : كان زين العابدين على بن الحسين رضى الله عنهما إذا أراد أن يخرج إلى الصلاة لا يعرف من تغير لونه ، فيقال له في ذلك فيقول : أندرون بين يدي من أريد أن أقف ؟

وروى عمار بن ياسر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يكتب للعبد من صلاته إلا ما يعقل . . وقد ورد في لفظ آخر : منكم من يصلى الصلاة كاملة ، ومنكم من يصلى النصف والثلث والرابع والخمس حتى يبلغ العشر ، قال الخواص : ينبغي للرجل أن ينوى نوافله لتقصان فرائضه ، فإن لم ينوها لم يحسب له منها شيء ، بلغنا أن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدى فريضة ، يقول الله تعالى : مثلكم كمثل العبد السوء بدأ بالهدية قبل قضاء الدين . وقال أيضا : انقطع الخلق عن الله تعالى بخصلتين ، إحداهما : أنهم طلبوا النوافل وضيعوا الفرائض . والثانية : أنهم عملوا أعمالا بالظواهر ولم يأخذوا أنفسهم بالصدق فيها والنصح لها ، وأبى الله تعالى أن يقبل من عامل عملا إلا بالصدق وإصابة الحق ، وفتح العين في الصلاة أولى من تغميض العين إلا أن يتشتت همه بتفريق النظر فيغمض العين للاستعانة على الخشوع ، وإن تآبب في الصلاة يضم شفتيه بقدر الإمكان ولا يلزق ذقنه ب صدره ولا يزاحم في الصلاة غيره ، قيل : ذهب المزحوم بصلاة المزاحم ، وقيل : من يترك الصف الأول مخافة أن يضيق على أهله فام في اثني أعطاء الله مثل ثواب الصف الأول من غير أن ينقص من أجورهم شيء .

وقيل : إن إبراهيم الخليل عليه السلام كان إذا قام إلى الصلاة يسمع خفقان قلبه من ميل . وروى عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسمع من صدره أزيز كأزيز المرجل ، حتى كان يسمع في بعض سكك المدينة .

وسئل الجنيد : ما فريضة الصلاة ؟ قال : قطع العلائق ، وجمع الهوى ، والحضور بين يدي الله . وقال الحسن : ماذا يعز عليك من أمر دينك إذا هانت عليك صلاتك ؟

وقيل : أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء فقال : إذا دخلت الصلاة فهب لي من قلبك الخشوع ، ومن بدنك الخضوع ومن عينك الدموع ، فأبى قريب .

وقال أبو الخير الأقطع : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت : يا رسول الله أوصني ، فقال يا أبا الخير عليك بالصلاة فأبى استوصيت ربي ، فأوصاني بالصلاة وقال لي : إن أقرب ما يكون منك وأنت تصلى ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ركعتان في تفكر خير من قيام ليلة . وقيل : إن محمد بن يوسف الفرغانى رأى حاتما الأصم واقفا يعظ الناس فقال له : يا حاتم ، أراك تعظ الناس ، أفتحسن أن تصلى ؟ قال : نعم . قال : كيف تصلى ؟ قال : أقوم بالأمر وأمشى بالخشية ، وأدخل بالهبة ، وأكبر بالعظمة ، وأقرأ بالترتيل ، وأركع بالخشوع ، وأسجد بالنواضع ، وأقعد للشهد بالتمام ، وأسلم على السنة ، وأسألهما إلى ربي ، وأحفظها أيام حياتي ، وأرجع بالوهم على نفسي ، وأخاف أن لا تقبل مني ، وأرجو أن تقبل مني وأنا بين الخوف والرجاء ، وأشكر من علمني ، وأعلمها من سألني ، وأحمد ربي إذا هداني ، فقال محمد بن يوسف : مثلك يصلح أن يكون واعظا ، وقوله تعالى ﴿ لا تقرّبوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ قيل : من حب الدنيا ، وقيل : من الاهتمام ، وقال عليه السلام : من صلى ركعتين ولم يحدث نفسه بشيء من الدنيا غفر الله له ما تقدم من ذنبه ، وقال أيضا : إن الصلاة تمسكن وتواضع وتضرع وتنادم وترفع يديك وتقول : اللهم اللهم فمن لا يفعل ذلك فهو خداج . أى ناقصة .

وقد ورد أن المؤمن إذا تواضعا للصلاة تابعد عنه الشيطان في أقطار الأرض خوفا منه لأنه تأهب للدخول على الملك فإذا كبر حجب عنه إبليس ، قيل : يضرب بينه وبينه سراق لا ينظر إليه ، وواجهه الجبار بوجهه ، فإذا قال : الله أكبر ، أطلع الملك في قلبه فإذا لم يكن في قلبه أكبر من الله تعالى يقول صدقت ، الله في قلبك كما تقول ، وتشعشع من قلبه نور يلحق بملكوت العرش ، ويكشف له بذلك النور ملكوت السموات والأرض ، ويكتب له حشو ذلك

النور حسنة ، إن الجاهل الغافل إذا قام إلى الصلاة احتوشته الشياطين كما يحتمش الذباب على نقطة العسل ؛ فإذا كبر اطلع الله على قلبه ، فإذا كان شئ - في قلبه أكبر من الله تعالى عنده يقول له : كذبت ، ليس الله تعالى أكبر في قلبك كما تقول ؛ فيثور من قلبه دخان يلحق بعنان السماء ، فيكون حجبا لقلبه عن الملكوت ؛ فيزداد ذلك الحجاب صلابة ، ويلتقم الشيطان قلبه ، فلا يزال ينفخ فيه وينفث ويوسوس إليه ويزين حتى ينصرف من صلاته ولا يعقل ما كان فيه .

وفي الخبر « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء » والقلوب الصافية التي كل أدبها لسكال أدب قوالها تصوير سماوية تدخل بالتكبير في السماء كما تدخل في الصلاة ، والله تعالى حرس السماء من تصرف الشياطين فالقلب السماوي لاسئيل للشيطان إليه ، فتبقى هواجس نفسانية عند ذلك لا تنقطع بالتحصن بالسماء كأنقطاع تصرف الشيطان والقلوب المرادة بالقرب تدرج بالتقريب ، وتخرج في طبقات السموات ، وفي كل طبقة من أطباق السماء يتخلف شئ من ظلمة النفس ؛ وبقدر ذلك يقل الهاجس إلى أن يتجاوز السموات ويقف أمام العرش ؛ فعند ذلك يذهب بالكلية هاجس النفس بساطع نور العرش ، وتندرج ظلمات النفس في نور القلب اندراج الليل في النهار ، وتتأدى حيثئذ حقوق الآداب على وجه الصواب .

وما ذكرنا من أدب الصلاة يسير من كثير وشأن الصلاة أكبر من وصفنا وأكل من ذكرنا ؛ وقد غلط أقوام وظنوا أن المقصود من الصلاة ذكر الله تعالى ؛ وإذا حصل الذكر فأى حاجة إلى الصلاة ، وسلوكوا طرقا من الضلال ، وركنوا إلى أباطيل الخيال ؛ ومحروا الرسوم والأحكام ، ورفضوا الحلال والحرام وقوم آخرون سلكوا في ذلك طريقا أدبهم إلى نقصان الحال ، حيث سلموا من الضلال ، لأنهم اعترفوا بالفرائض وأنكروا فضل التوابع ، واعتبروا بيسير رواج الحال ، وأهملوا فضل الأعمال ، ولم يعلموا أن الله في كل هيئة من الهيئات وكل حركة من الحركات أسراراً وحكما لا توجد في شئ من الأذكار ؛ فالأحوال والأعمال روح وجسمان ، وما دام العبد في دار الدنيا لإعراضه عن الأعمال عين الطغيان فالأعمال تزكو بالأحوال ، والأحوال تنمو بالأعمال .

الباب التاسع والثلاثون : في فضل الصوم وحسن أثره

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « الصبر نصف الإيمان والصوم نصف الصبر وقيل : ما في عمل ابن آدم شيء إلا ويذهب برد المظالم إلا الصوم فإنه لا يدخله قصاص ويقول الله تعالى يوم القيامة : هذا لي ، فلا ينقص أحد منه شيئا . وفي الخبر : « الصوم لي وأنا أجزى به » ، قيل : أضافه إلى نفسه ؛ لأن فيه خلقا من أخلاق الصمدية ، وأيضا لأنه من أعمال البر من قبيل النور لا يطلع عليه أحد إلا الله . وقيل في تفسيره قوله تعالى ﴿ السائمون ﴾ الصائمون ، لأنهم ساحوا إلى الله تعالى بجوعهم وعطشهم ، وقيل في قوله تعالى ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ هم الصائمون ، لأن الصبر اسم من أسماء الصوم ويفرغ للصائم إفراغا ويجازف له مجازفة ، وقيل : أحد الوجوه في قوله تعالى ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ كان عملهم الصوم .

وقال يحيى بن معاذ : إذا ابتلى المرء بكثرة الأكل بكت عليه الملائكة رحمة له ومن ابتلى بمحصر الأكل فقد أحرق بنار الشهوة ، وفي نفس ابن آدم ألف عضو من الشر كلها في كف الشيطان متعلق بها ، فإذا جوع بطنه وأخذ حلقه وراض نفسه يابس كل عضو واحترق بنار الجوع وفر الشيطان من ظله ، وإذا أشبع بطنه وترك حلقه في لذائذ الشهوات فقد رطب أعضاؤه وأمكن الشيطان . والشبع نهر في النفس ترده الشيطان ، والجوع نهر في الروح ترده الملائكة ، وينهزم الشيطان من جائع ناثم ، فكيف إذا كان قائما ، ويعانق الشيطان شعبانا قائما فكيف إذا كان نائما ، فقلب المرید الصادق يصرخ إلى تعالى من طلب النفس الطعام والشراب .

دخل رجل إلى الطيالسي وهو يأكل خبزا يابساً قد بله بالماء مع ملح جريش ، فقال له : كيف تشتهي هذا ؟ قال :

أدعه حتى أشتبهه ، وقيل : من أسرف في مطعمه ومشربه يجعل الصغار والذل إليه في دنياه قبل آخرته ، وقال بعضهم : الباب العظيم الذى يدخل منه إلى الله تعالى قطع الغذاء ، وقال بشر : إن الجوع يصفى الفؤاد ويميت الهوى ويورث العلم الدقيق ، وقال ذو النون : ما أكلت حتى شبع ، ولا شربت حتى رويت إلا عصيت الله أو همت بمعصية ، وروى القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان يأتي علينا الشهر ونصف شهر ما تدخل بيتنا بار ولا مصباح ولا غيره ، قال : قلت سبحان الله ؛ فبأى شيء كنتم تعيشون ؟ قالت : بالتمر والماء وكان لنا جيران من الأنصار جزاهم الله خيرا كانت لهم منائح ، فربما واسونا بشيء ، وروى أن حفصة بنت عمر رضى الله عنهما قالت لايبها : إن الله قد أوسع الرزق فلو أكلت طعاما أكثر من طعامك ولبست ثيابا ألين من ثيابك ، فقال : إني أخاصمك إلى نفسك ؛ ألم يكن من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا ؟ يقول مرارا ؛ فبكيت ، فقال . قد أخبرتك والله لاشاركته في عيشه الشديد لعل أصيب عيشة الرخاء .

وقال بعضهم : ما نخلت لعمر دقيقا إلا وأنا له عاص .

قالت عائشة رضى الله عنها : ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام من خبز بر حتى مضى لسبيله . قالت عائشة رضى الله عنها : أديموا قرع باب الملكوت يفتح لكم قالوا : كيف بديم ؟ قالت : بالجوع والعطش والظما . وقيل : ظهر إبليس ليجي بن زكريا عليهما السلام وعليه معاليق ، فقال : ما هذه ؟ قال : الشهوات التى أصيب بها ابن آدم ؛ قال : هل تجدلى فيها شهوة ؟ قال : لا ، غير أنك شبعت أيلة ففقلناك عن الصلاة والذكر ؛ فقال : لا جرم أنى لأشبع أبدا . قال إبليس : لا جرم أنى لأنصح أحدا أبدا .

وقال شقيق : العبادة حرفة وحانوتها الخلوة وآلاتها الجوع .

وقال لقمان لابنه : إذا ملئت المدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقدمت الأعضاء عن العبادة . وقال الحسن : لا تجمعوا بين الأدميين فإنه من طعام المنافقين . وقال بعضهم : أعوذ بالله من زاهد قد أفسدت معدته ألوان الأغذية .

فيكره للبريد أن يوالى فى الإفطار أكثر من أربعة أيام فإن النفس عند ذلك تركز إلى العادة وتتسع بالشهوة . وقيل . الدنيا بطئك فعلى قدر زهدك فى بطئك زهدك فى الدنيا . وقال عليه السلام وما لأذى وعاء شرا من بطن ، حسب ابن آدم لقيحات يقمن صلبه ، فإن كان لا عالة ففلكل طعامه وملك لشرا به وملك لنفسه . .

وقال فتح المار صلى . صحبت ثلاثين شيخا كل يوصينى عند مفارقتى إياه بترك عشرة الاحداث وقلة الآكل .

الباب الأربعون : فى اختلاف أحوال الصوفية بالصوم والإفطار

جمع من المشايخ الصوفية كانوا يديون الصوم فى السفر والحضر على الدوام حتى لحقوا بالله تعالى . وكان عبد الله بن جابر قد صام نيفا وخمسين سنة لا يفطر فى السفر والحضر ، لجهد به أصحابه يوما فأفطر ، فاعتل من ذلك أياما . فإذا رأى المريد صلاح قلبه فى دوام الصوم فليصم دائما ويدع الإفطار جانبا ؛ فهو عون حسن له على ما يريد .

روى أبو موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صام الدهر ضيقت عليه جهنم هكذا وعدت تسعين ، أى لم يكن له فيها موضع .

وكرهه قوم صرم الدهر ، وقد ورد فى ذلك ما رواه أبو قتادة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف بمن صام الدهر ؟ قال : لا صام ولا أفطر ، وأول قوم أن صرم الدهر : هو أن لا يفطر العبدن وأيام التشريق فهو الذى يكره ، وإذا أفطر هذه الأيام فليس هو الصوم الذى كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنه من كان يصوم يوما ويفطر يوما ، وقد ورد ، أفضل الصيام صوم أخى داود عليه السلام كان يصوم يوما ويفطر يوما ، واستحسن ذلك قوم من الصالحين ليكون بين حال الصبر وحال الشكر .

ومنه من كان يصوم يومين ويفطر يوما أو يصوم يوما ويفطر يومين .

ومنه من كان يصوم يوم الاثنين والخميس والجمعة . وقيل : كان سهل بن عبد الله يأكل في كل خمسة عشر يوما مرة وفي رمضان يأكل أكلة واحدة ، وكان يفطر بالماء القراح السنة .

وحكى عن الجنيد أنه كان يصوم على الدوام ، فإذا دخل عليه إخوانه أفطر معهم ويقول : ليس فضل المساعدة مع الإخوان بأقل من فضل الصوم ، غير أن هذا الإفطار يحتاج إلى علم ، فقد يكون الداعي إلى ذلك شره النفس لانية الموافقة ، وتخليص النية لمحض الموافقة مع وجود شره النفس صعب . وسمعت شيخنا يقول : لى سنين ما أكل شيئا بشهوة نفس ابتداء واستدعاء ، بل يقدم إلى الشيء فأراه من فضل الله ونعمته وفعله فأوافق الحق في فعله : وذكر أنه في ذات يوم انتهى الطعام ولم يحضر من عاداته تقديم الطعام إليه . قال : ففتحت باب البيت الذى فيه الطعام وأخذت رمانة لآكلها . فدخلت السور وأخذت دجاجة كانت هناك ، فقلت : هذا عقوبة لى على تصرفى فى أخذ الرمانة . ورأيت الشيخ أبا السعود رحمه الله يتناول الطعام فى اليوم مرات ، أى وقت أحضر الطعام أكل منه . ويرى أن تناوله للطعام موافقة الحق : لأن حاله مع الله كان ترك الاختيار فى ما كوله وملبوسه وجميع تصاريفه ، وكان حاله الوقوف مع فعل الحق ، وقد كان له فى ذلك بداية يعز مثلها ، حتى نقل أنه كان يبقى أياما لا يأكل ولا يعلم أحد بحاله ولا يتصرف هو لنفسه ولا يتسبب إلى تناول شيء وينتظر فعل الحق لسياقه الرزق إليه ، ولم يشعر أحد بحاله مدة من الزمان . ثم إن الله تعالى أظهر حاله وأقام له الأصحاب والتلامذة ، وكانوا يتكفون الاطعمة ويأتون به إليه وهو يرى فى ذلك فضل الحق والموافقة ، سمعته يقول أصبح كل يوم وأحب ما إلى الصوم ، وينقض الحق على محبتي الصوم بفعله ، فأوافق الحق فى فعله .

وحكى عن بعض الصادقين من أهل واسط أنه صام سنين كثيرة ، وكان يفطر كل يوم قبل غروب الشمس إلا فى رمضان . وغال أبو نصر السراج : أنكروم هذه المخالفة وإن كان الصوم تطوعا ، واستحسنه آخرون لأن صاحبه كان يريد بذلك تأديب النفس بالجوع وأن لا يتمتع برؤية الصوم ، ووقع لى أن هذا إن فسد أن لا يتمتع برؤية الصوم ، فقد تمتع برؤية عدم التمتع برؤية الصوم ، وهذا يتسلسل ، والاليق بموافقة العلم إمضاء الصوم . قال الله تعالى ﴿ ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ ولكن أهل الصدق لهم نيات فيما يفعلون فلا يعارضون ، والصدق محمود لعينه كيف كان ، والصادق فى خفارة صدقه كيف تقاب . وقال بعضهم : إذا رأيت الصوفى يصوم صوم التطوع فأنهم فإنه قد اجتمع معه شيء من الدنيا . وقيل : إذا كان جماعة متوافقين أشكالا وفيهم مرید يحثونه على الصيام فإن لم يساعدوه يهتموا لإفطاره ويتكفون له رفقا به ولا يحملوا حاله على حالهم ، وإن كانوا جماعة مع شيخ يصومون لصومه ويفطرون لإفطاره إلا من يأمره الشيخ بغير ذلك .

وقيل : إن بعضهم صام سنين بسبب شاب كان يصحبه حتى ينظر الشاب إليه فيتأدب به ويصوم بصيامه .

وحكى عن أبى الحسن المسمى أنه كان يصوم الدهر وكان مقبلا بالبصرة ، وكان لا يأكل الخبز إلا ليلة الجمعة ، وكان قوته فى كل شهر أربع دوانيق يعمل بيده حبال الليف ويبيعها . وكان الشيخ أبو الحسن بن سالم يقول . لا أسلم عليه إلا أن يفطر ويأكل . وكان ابن سالم اتهمه بشهوة خفية له فى ذلك لأنه كان مشهورا بين الناس .

وقال بعضهم : ما أحسن الله عبد قط إلا أحب أن يكون فى جب لا يعرف . ومن أكل فضلا من الطعام أخرج فضلا من الكلام . وقيل : أقام أبو الحسن التنيسى بالحرم مع أصحابه سبعة أيام لم يأكلوا ، فخرج بعض أصحابه ليتطهر فرأى قشر بطيخ ، فأخذه وأكله ، فرآه إنسان فأتبع أثره وجاء برفق فوضعه بين يدى القوم ، فقال الشيخ : من جنى منك هذه الجنابة ؟ فقال الرجل : أنا وجدت قشر بطيخ فأكلته ، فقال كن أنت مع جنايتك ورفقك ، فقال أنائب من جنائبي .

فقال : لا كلام بعد التوبة ، وكانوا يستحبون صيام أيام البيض وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر .
 روى أن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض اسود جسده من أثر المعصية ، فلما تاب الله عليه أمره أن يصوم أيام
 البيض ، فابيض ثلث جسده بكل يوم صامه حتى أبيض جميع جسده بصيام أيام البيض .
 ويستحبون صوم النصف الأول من شعبان وإفطار نصفه الأخير ، وإن واصل بين شعبان ورمضان فلا بأس به ،
 ولكن إن لم يكن صام فلا يستقبل رمضان بيوم أو يومين .
 وكان يكره بعضهم أن يصام رجب جميعه كراهة المضاهاة برمضان . ويستحب صوم العشر من ذي الحجة والعشر من
 المحرم ، ويستحب الخنيس والجمعة والسبت أن يصام من الأشهر الحرم ، ورد في الخبر : من صام ثلاثة أيام من شهر حرام :
 الخنيس ، والجمعة ، والسبت بعد من النار سبعمائة عام .

الباب الحادى والأربعون : فى آداب الصوم ومهامه

آداب الصوفية فى الصوم : ضبط الظاهر والباطن وكف الجوارح عن الآثام ، كنع النفس عن الطعام ، ثم كف
 النفس عن الاهتمام بالأقسام .
 سمعت أن بعض الصالحين بالعراق كان طريقه وطريق أصحابه أنهم كانوا يصومون ، وكلما فتح عليهم قبل وقت الإفطار
 يخرجونه ، ولا يفطرون إلا على ما فتح لهم وقت الإفطار .
 وليس من الأدب أن يسلك المريد عن المباح ويفطر بحرام الآثام .
 قال أبو الدرداء : يا حبذا نوم الكياس وفطرم ، كيف يعيىبون قيام الحقى وصيامهم ! ولذرة من ذى يقين وتقوى
 أفضل من أمثال الجبال من أعمال المغترين .
 ومن فضيلة الصوم وأدبه : أن يقلل الطعام عن الحد الذى كان يأكله وهو مفطر ، وإلا فإذا جمع الاكلات بأكلة
 واحدة فقد أدرك بها ما فوت ، ومقصود القوم من الصوم قهر النفس ومنعها عن الاتساع ، وأخذهم من الطعام قدر
 الضرورة لئلا يلهوهم أن لا يقتصر على الضرورة يجذب النفس من سائر الأفعال والأقوال إلى الضرورة ، والنفس من طبعها
 أنها إذا قهرت لله تعالى فى شيء واحد على الضرورة تأدى ذلك إلى سائر أحوالها ، فيصير بالآكل النوم ضرورة ،
 والقول والفعل ضرورة ، وهذا باب كبير من أبواب الخير لأهل الله تعالى يجب رعايته وافتقاده ولا يخص بعلم الضرورة
 وفائدتها وطلبها ، إلا عبد يريد الله تعالى أن يقربه ويدينه ويعطفه ويريه ، ويمتنع فى صومه من ملاعبة الآله والملازمة ،
 فإن ذلك أنزه للصوم .

ويتسحر استعمالاً للسنة ، وهو أدعى إلى إتمام الصوم لمغنيين ، أحدهما : عود بركة السنة عليه ، والثانى : التقوية
 بالطعام على الصيام : وروى أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : تسحروا فإن فى السحور بركة .
 ويعجل الفطر عملاً بالسنة ، فإن لم يرد تناول الطعام إلا بعد العشاء ويريد إحياء ما بين العشاءين يفطر بالماء أو على
 أعداد من الزبيب أو التمر وبأكل لقيمات إن كانت النفس تنازع ، ليصفوله الوقت بين العشاءين ، فإحياء ذلك له فضل
 كثير ، وإلا فيقتصر على الماء لأجل السنة .

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على ، قال أخبرنا أبو الفتح المروى ، قال أخبرنا أبو نصر الترياقى ،
 قال أخبرنا أبو محمد الجراحى ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبى ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذى ، قال حدثنا إسحق بن
 موسى الأنصارى ، قال حدثنا الوليد بن مسلم عن الأوزاعى عن قرة عن الزهرى عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضى الله
 عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه : قال الله عز وجل ، أحب عبادى إلى أعجلهم فطرا ،
 وقال عليه السلام : لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر ، والإفطار قبل الصلاة سنة ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
 يفطر على جرعة من ماء أو مذقة من لبن أو تمرات ، وفى الخبر : كم من صائم حظه من صيامه الجوع والعطش ، قيل

هو الذى يجوع بالنهار ويفطر على الحرام ، وقيل : هو الذى يصوم عن الحلال من الطعام ويفطر على لحوم الناس بالغيبة ، قال سفیان من اغتاب فسد صومه . وعن مجاهد : خصلتان تفسدان الصوم : الغيبة والكذب . قال الشيخ أبو طالب المكي : قرن الله الاستماع إلى الباطل ؛ والقول بالإثم يأكل الحرام فقال (سماعون للكذب أكالون للسحت) وورد في الخبر : أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجهدهما الجوع والعطش من آخر النهار حتى كادتا أن تمسكا ، فبعثتا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تستأذنان في الإفطار ؛ فأرسل إليهما قدحا وقال : قولوا لهما قيتا فيه ما أكلتما ، فقادت إحداهما نصفه دما عيطا ولها غريضا ، وقادت الأخرى مثل ذلك حتى ملأته فعجب الناس من ذلك ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هاتان صامتان ما أحل الله لهما وأفطرنا على ما حرم الله عليهما ، وقال عليه الصلاة والسلام : إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل ، فإن امرؤ شاتمه فليقلل إلى صائمه ، وفي الخبر : إن الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته ، والصوفي الذى لا يرجع إلى معلوم ولا يدري متى يساق إليه الرزق ، فإذا ساق الله إليه الرزق تناوله بالآداب وهو دائم المراقبة لوقته ، وهو في إفطاره أفضل من الذى له معلوم معد فإن كان مع ذلك يصوم فقد أكل الفضل .

حكى عن رويم قال اجتزت في الهاجرة ببعض مراكب بغداد ، فعطشت فتقدمت إلى باب دار فاستسقيت ، فإذا جارية قد خرجت ومعهما كوز جديد ملآن من الماء المبرد ، فلما أردت أن أتناول من يدها قالت : صوفى ويشرب بالنهار ، وضربت بالكوز على الأرض وانصرفت . قال رويم : فاستحييت من ذلك ونذرت أن لا أفطر أبدا . والجماعة الذين كرهوا دوام الصوم كرهوه لمساكن أن النفس إذا ألقت الصوم وتعودته اشتد عليها الإفطار ، وهكذا بتعودها الإفطار تكره الصوم ، فيرون الفضل في أن لا تركز النفس إلى عادة ، ورأوا أن إفطار يوم وصوم يوم أشد على النفس .

ومن أدب الفقهاء : أن الواحد إذا كان بين جمع وفي صحبة جماعة لا يصوم إلا بإذنهم ، وإنما كان ذلك لأن قلوب الجميع متعلقة بفطوره وهم على غير معلوم ، فإن صام بإذن الجميع وفتح عليهم بشيء لا يلزمهم ادخار للصائم ، ومع العلم بأن الجمع المفطرين يحتاجون إلى ذلك ، فإن الله تعالى يأتي للصائم برزقه إلا أن يكون الصائم يحتاج إلى الرفق لضعف حاله أو ضعف بنيته لشيخوخته أو غير ذلك ، وهكذا الصائم لا يليق أن يأخذ نصيبه فيدخره ، لأن ذلك من ضعف الحال فإن كان ضعيفا يعترف بحاله وضعفه فيدخره ، والذي ذكرناه لأقوام هم على غير معلوم ، فأما الصوفية المقيمون في رباط على معلوم فالأليق بحالهم الصيام ، ولا يلزمهم موافقة الجمع في الإفطار ، وهذا يظهر في جمع منهم لهم معلوم يقدم لهم بالنهار ، فأما إذا كانوا على غير معلوم ، فقد قيل : مساعدة الصوم للمفطرين أحسن من استعانة الموافقة من المفطرين للصوم ، وأمر القوم مبناه على الصدق ، ومن الصدق افتقاد النية وأحوال النفس ، فكل ما صححت النية فيه من الصوم والإفطار والموافقة وترك الموافقة فهو الأفضل ، فأما من حيث السنة فمن يوافق له وجه إذا كان صائما وأفطر للموافقة ، وإن صام ولم يوافق فله وجه فأما وجه من يفطر ويوافق فهو ما أخبرنا به أبو زرعة طاهر عن أبيه أبي الفضل الحافظ المقدسى قال أخبرنا أبو الفضل محمد بن عبد الله ، قال أخبرنا السيد أبو الحسن محمد بن الحسين العلوى ، قال أخبرنا أبو بكر محمد بن حمدويه ، قال حدثنا عبد الله بن حماد ، قال حدثنا عبد الله بن صالح ، قال حدثني عطاء بن خالد عن حماد بن حميد عن محمد بن المنكدر ، عن أبي سعيد الخدرى قال : اصطنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه طعاما ، فلما قدم إليهم قال رجل من القوم : إني صائم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعاكم وأخوكم وتكلف لكم ، ثم تقول إني صائم ، افطر واقض يوما مكانه ، وأما وجه من لا يوافق ، فقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أكلوا وبلل صائم ، فقال رسول الله : : « نأكل رزقنا ورزق بلال في الجنة ، فإذا علم أن هنالك قلبا يتأذى أو فضلا يرجى من موافقة من يغتم موافقته يفطر بحسن النية لا بحكم الطبع وتقاضيه ، فإن لم يجد هذا المعنى لا ينبغي أن يتلبس عليه الشره وداعية النفس بالنية فليتم صومه ، وقد تكون الإجابة لداعية

النفيس لا لقضاء حق أخيه .

ومن أحسن آداب الفقير الطالب : أنه إذا أظفر وتناول الطعام ربما يجد باطنه متغيراً عن هيئته ونفسه متذبذبة عن أداء وظائف العبادة ، فيعالج مزاج القلب المتغير بإذعاب التغير عنه ويذيب الطعام بركعات يصلحها أو بآيات يتلوها أو بأذكار واستغفار يأتي به ، فقد ورد في الخير : أديبوا طعامكم بالذكر ، ومن مهام آداب الصوم كتمانها مهما أمكن إلا أن يكون متمكناً من الإخلاص فلا يبالي بظهر أم بطن .

الباب الثاني والأربعون : في ذكر الطعام وما فيه من المصلحة والمفسدة

الصوفي بحسن نيته وصحة مقصده ووفور علمه وإتيانه بأدابه تصير عاداته عبادة ، والصوفي موهوب وفقته لله وحياته لله ، كما قال الله تعالى لنبيه آمراً له ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ﴾ فتدخل على الصوفي أمور العادة لموضع حاجته وضرورة بشريته ، ويحف بعاداته نور يقظته وحسن نيته ، فتتنور العادات وتشكل بالعبادات ؛ ولهذا ورد : نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح ، هذا مع كون النوم عين الغفلة ، ولكن كل ما يستعان به على العبادة يكون عبادة ، فتناول الطعام أصل كبير يحتاج إلى علوم كثيرة لاشتماله على المصالح الدنيوية والدينيوية وتعلق أثره بالقلب والقالب ، وبه قوام البدن بإجراء سنة الله تعالى بذلك ، والقالب مركب القلب وبهما عمارة الدنيا والآخرة ، وقد ورد : أرض الجنة قيعان نباتها التسييح والتقديس ، والقالب بمفرده على طبيعة الحيوانات يستعان به على عمارة الدنيا والروح والقلب على طبيعة الملائكة يستعان بهما على عمارة الآخرة ، وباجتماعهما صلحا لعمارة الدارين ، والله تعالى ركب الآدمي بلطف حكيم من أخص جواهر الجسمانيات والروحانيات ، وجعله مستودع خلاصة الأرضين والسماوات جعل عالم الشهادة وما فيها من النبات والحيوان لقوام بدن الآدمي . قال الله تعالى ﴿ خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ فكون الطبايع وهي الحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة وكون بواسطتها النبات ، وجعل النبات قواماً للحيوانات وجعل الحيوانات مسخرة للآدمي يستعين بها على أمر معاشه لقوام بدنه ، فالطعام يصل إلى المعدة ، وفي المعدة طباع أربع ، وفي الطعام طباع أربع ، فإذا أراد الله اعتدال مزاج البدن أخذ كل طبع من طباع المعدة ضده من الطعام ، فتأخذ الحرارة للبرودة والرطوبة لليبوسة ، فيعتدل المزاج ويأمن الاوجاج . وإذا أراد الله تعالى إفاء قالب وتخريب بنية : أخذت كل طبيعة جنسها من المأكول ، فتميل الطبايع ويضطرب المزاج ويسقم البدن ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ روى عن وهب بن منبه قال : وجدت في التوراة صفة آدم عليه السلام : إني خلقت آدم وركبت جسده من أربعة أشياء . من رطب ، ويابس ، وبارد ، وسخن : وذلك لأنني خلقت من التراب وهو يابس ، ورطوبته من الماء وحرارته من قبل النفس ، وبرودته من قبل الروح ، وخلقت في الجسد بعد هذا الخلق الأول أربعة أنواع من الخلق من ملاك الجسم يأذن وبين قوامه ، فلا يقوم الجسم إلا بهن ولا تقوم منهن واحدة إلا بأخرى ، فمن المرة السوداء ، والمرة الصفراء والدم والبلغم . ثم أسكنت بعض هذا الخلق في بعض ، فجعلت مسكن اليبوسة في المرة السوداء ، ومسكن الرطوبة في المرة الصفراء ، ومسكن الحرارة في الدم ، ومسكن البرودة في البلغم ، فأيمما جسد اعتدلت فيه هذه الفطر الأربع التي جعلتها ملاك وقوامه فكانت كل واحدة منهن ربعا لا يزيد ولا ينقص : كملت صحته واعتدلت بنيته ، فإن زادت منهن واحدة عليهن هزمتن ومالت بهن ودخل عليه السقم من ناحيته بقدر غلبتها حتى يضعف عن طاقتهن ويعجز عن مقدارهن .

فأمر الأمور في الطعام أن يكون حلالا ، وكل ما لا يذمه الشرع حلال رخصة ورحمة من الله لمباداه ، ولولا رخصة الشرع كبر الأمر وأتعب طلب الحلال .

ومن أدب الصوفية : رؤية المنعم على النعمة ، وأن يبتدئ بغسل اليد قبل الطعام : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الوضوء قبل الطعام ينقي الفقر » ، وإنما كان مارجيا لنفي الفقر لأن غسل اليد قبل الطعام استقبال النعمة بالآداب ،

وذلك من شكر النعمة ، والشكر يستوجب المزيد ؛ فصار غسل اليد مستجلبا للنعمة مذهبا للفقر .
وقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من أحب أن يكثر خير بيته فليتوضأ
إذا حضر غداؤه ثم يسمي الله تعالى ، فقوله تعالى (ولانأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) تفسيره تسمية الله تعالى
عند ذبح الحيوان .

واختلف الشافعى وأبو حنيفة رحمهما الله في وجوب ذلك . وفهم الصوفى من ذلك بعد القيام بظاهر التفسير :
أن لا يأكل الطعام إلا مقرونا بالذكر ؛ فقرنه فريضة وقته وأدبه ، ويرى أن تناول الطعام والماء ينتج من إقامة النفس
ومتابعة هواها ، ويرى ذكر الله تعالى دواءه وترباؤه .

روت عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل الطعام في ستة نفر من أصحابه ، فجاء
أعرابي فأكله بلقمتين ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إنه لو كان يسمي الله لكفاكم ؛ فإذا أكل أحدكم
طعاما فليقل بسم الله ؛ فإن نسي أن يقول بسم الله فليقل بسم الله أوله وآخره .

ويستحب أن يقول في أول لقمة : بسم الله ، وفي الثانية : بسم الله الرحمن ، وفي الثالثة يتم ، ويشرب الماء بثلاثة
أنفاس ، يقول في أول نفس : الحمد لله ، إذا شرب ، وفي الثانية : الحمد لله ، وفي الثالثة : الحمد لله ،
العالمين الرحمن الرحيم ، وكما أن للمعدة طباعا تتقدر كذا ذكرناه بموافقة طباع الطعام ، فللقب أيضا مزاج وطباع لأرباب
التفقد والراعية واليقظة ، ويعرف انحراف مزاج القلب من اللقمة المتناولة : تارة تحدث من اللقمة حرارة الطيش بالنهوض
إلى الفضول ، وتارة تحدث في القلب برودة الكسل بالتقاعد عن وظيفة الوقت ، وتارة تحدث رطوبة السهو والغفلة
وتارة يبوسة الهم والحزن بسبب الحظوظ العاجلة ، فهذه كلها عوارض يتفطن لها المتيقظ ، ويرى بتغير القلب بهذه
العوارض تغير مزاج القلب عن الاعتدال ، والاعتدال كما هو مهم طلبه للقلب أم وأولى . وتطرق الانحراف
إلى القلب أربع منه إلى القلب . ومن الانحراف ما يسقم به القلب فيموت لموت القلب ، واسم الله تعالى دواء نافع
يجرب ينفي الأسواء ويذهب الداء ويحلب الشفاء .

حكى أن الشيخ أبا محمد محمد الغزالي لما رجع إلى طوس وصف له في بعض القرى عبد صالح ، فقصده زائرا ، فصادفه وهو
في صحراء له يبذر الخنطة في الأرض ، فلما رأى الشيخ محمد جاء إليه وأقبل عليه ، فجاء رجل من أصحابه وطلب منه
البذر لينوب عن الشيخ في ذلك وقت اشتغاله بالغزالي ، فامتنع ولم يعطه البذر ، فسأله الغزالي عن سبب امتناعه . فقال :
لأنى أبذر هذا البذر بقلب حاضر ولسان ذاكر ، أرجو البركة فيه لكل من يتناول منه شيئا ، فلا أحب أن أسبله إلى
هذا فيبذره بلسان غير ذاكر وقلب غير حاضر

وكان بعض الفقهاء عند الأكل يشرع في تلاوة سورة من القرآن ، يحضر الوقت بذلك حتى تنفجر أجزاء الطعام
بأنوار الذكر ولا يعقب الطعام مكروه ويتغير مزاج القلب .

وقد كان شيخنا أبو النجيب السهروردي يقول : أنا آكل وأنا أصلى ، يشير إلى حضور القلب في الطعام ، وربما
كان يوقف من يمنع عنه الشواغل وقت أكله ، مثلا يتفرق همه وقت الأكل ، ويرى للذكر وحضور القلب في الأكل
أثرا كبيرا لا يسهه الإهمال .

ومن الذكر عند الأكل الفكر فيما هيا الله تعالى من الإنسان المعينة على الأكل فنها الكسرة ومنها القاطعة ومنها
الطاحنة ، وما جعل الله تعالى من الماء الحلو في الفم حتى لا يتغير الذوق ، كما جعل ماء العين مالحا لما كان شحا حتى
لا يفسد ، وكيف جعل الندوة تنبع من أرجاء اللسان والفم ليعين ذلك على المضغ والسوغ ، وكيف جعل القوة
الهاضمة مسطرة على الطعام تفصله وتجزئه متعلقا مددها بالكبد ، والكبد بمثابة النار ، والمعدة بمثابة القدر وعلى قدر
فساد الكبد تعطل الهاضمة ويفسد الطعام ولا ينفصل ولا يصل إلى كل عضو نصيبه ، وهكذا تأثير الأعضاء كلها من
الكبد والطحال والكليتين ويطول شرح ذلك ؛ فمن أراد الاعتبار فليطالع تشریح الأعضاء ، ليرى العجب من قدرة

الله تعالى : من تعاود الأعضاء وتعاونها ، وتعلق بعضها ببعض في إصلاح الغذاء ، واستجذاب القوة منه للأعضاء وانقسامه إلى الدم والنفل واللبن لتغذية المولود من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ؛ فتبارك الله أحسن الخالقين ؛ فالفكر في ذلك وقت الطعام وتعريف لطيف الحكم والقدر فيه من الذكر .
وعما يذهب أدواء الطعام المغير لمزاج القلب : أن يدعو في أول الطعام ويسأل الله تعالى أن يجعله عوننا على الطاعة ويكون من دعائه : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد . وما رزقنا بما تحب اجعله عوننا لنا على ما تحب ، وما زويت عنا بما تحب اجعله فراغا لنا فيما تحب .

الباب الثالث والأربعون : في آداب الأكل

فمن ذلك أن يبتدئ بالمالح ويختم به : روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلي رضي الله عنه « يا علي ، ابدأ طعامك بالمالح واختم بالمالح ؛ فإن المالح شفاء من سبعين داء ، منها : الجنون ، والجذام ، والبرص ، ووجع البطن ووجع الأضراس » .

وروت عائشة رضي الله عنها قالت : لدغ رسول الله صلى الله عليه وسلم في إبهامه من رجله اليسرى لدغة ، فقال « عليّ بذلك الأبيض الذي يكون في العجين ، فحسنا بملح فوضعه في كفه ثم لعق منه ثلاث لعقات ، ثم وضع بقيته على اللدغة فسكنت عنه .

ويستحب الاجتماع على الطعام ، وهو سنة الصوفية في الربط وغيرها : روى جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من أحب الطعام إلى الله تعالى ما كثرت عليه الأيدي » وروى أنه قيل : يا رسول الله : إنا نأكل ولانشبع قال : « لعلكم تفرقون على طعامكم ، اجتمعوا واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه » .

ومن عادة الصوفية : الأكل على السفر ، وهو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخبرنا الشيخ أبو زرعة عن المقوم بإسناده إلى ابن ماجه الحافظ القزويني ، قال أخبرنا محمد بن المنثري ، قال حدثنا معاذ بن هشام ، قال حدثنا أبي عن يونس بن الفرات عن قتادة عن أنس بن مالك قال : ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان ولا في سكرجة . قال : فعلاكم كانوا يأكلون ؟ قال : على السفر .

ويصغر القمة ويجود الأكل بالمضغ ، وينظر بين يديه ولا يطالع وجوه الآخرين ، ويقعد على رجله اليسرى وينصب اليمنى ، ويجلس جلسة التواضع غير متكئ ولا متعزز : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأكل الرجل متسائما . وروى أنه أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة ، فحسنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبته يأكل فقال أعرابي : ماهذه الجلسة يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله خلقني عبدا ولم يجعلني جبارا عنيدا ، ولا يبتدئ بالطعام حتى يبدأ المقدم أو الشيخ : روى حذيفة قال : كنا إذا حضرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما لم يضع أحدا يده حتى يبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأكل باليمين .

روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « ليأكل أحدكم بيمينه ، وليشرب بيمينه ، وليأخذ بيمينه وليعط بيمينه ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله ويأخذ بشماله ويعطي بشماله » .

وإن كان المأكل تمرأ أو ماله عجم لا يجمع من ذلك ما يرى ولا يؤكل على الطبق ولا في كفه ، بل يضع ذلك على ظهر كفه من فيه ويرميه .

ولا يأكل من ذروة الشريد : روى عبدالله بن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا وضع الطعام فخذوا من حاشيته وذروا وسطه فإن البركة تنزل في وسطه » .

ولا يعب الطعام : روى أبو هريرة رضي الله عنه قال : ما عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما قط ، إن اشتهاه أكله وإلا تركه .

وإذا سقطت اللقمة يأكلها فقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ، إذا سقطت لقمة أحدكم فليمط عنها الأذى ويأكلها ولا يدعها للشيطان ، .

ويلقى أصابعه ، فقد روى جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ، إذا أكل أحدكم الطعام فليمتص أصابعه ، فإنه لا يدري في أى طعامه تكون البركة . .

وهكذا أمر عليه السلام بإسالات القصعة : وهو مسحها من الطعام . قال أنس رضى الله عنه : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسالات القصعة .

ولا ينفخ في الطعام ، فقد روت عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ، النفخ في الطعام يذهب بالبركة ، وروى عبد الله بن عباس أنه قال : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفخ في طعام ولا في شراب ولا يتنفس في الإناء فليس من الأدب ذلك .

والحل والبقل على السفرة من السنة . قيل : إن الملائكة تحضر المائدة إذا كان عليها بقل . روت أم سعد رضى الله عنها قالت : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على عائشة رضى الله عنها وأنا عندهما فقال : هل من غداء ؟ فقالت : عندنا خبز وتمر وخل ، فقال عليه السلام : نعم الإدام الحل اللهم بارك في الحل فإنه كان إدام الأنبياء قبلى ، ولم يقفر بيت فيه خل . .

ولا يصمت على الطعام فهو من سيرة الأعاجم ، ولا يقطع اللحم والخبز بالسكين ففيه نهى ، ولا يكف يده عن الطعام حتى يفرغ الجميع ، فقد ورد عن ابن عمر رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، إذا وضعت المائدة فلا يقوم رجل حتى ترفع المائدة ولا يرفع يده وإن شبع حتى يفرغ القوم ، وليتعال ، فإن الرجل يخجل جلسيه فيقبض يده ، وعسى أن يكون له في الطعام حاجة .

وإذا وضع الخبز لا ينظر غيره ، فقد روى أبو موسى الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكرموا الخبز ، فإن الله تعالى يحسب لكم بركات السماء والأرض والحديد والبقر وابن آدم . . ومن أحسن الأدب وأهمه أن لا يأكل إلا بعد الجوع ويمسك عن الطعام قبل الشبع ، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماملأ آدمى وعاء شرا من بطنه .

ومن عادة الصرفة : أن يلقم الخادم إذا لم يجلس مع القوم وهو سنة . روى أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم ، إذا جاء أحدكم خادمه بطعام فإن لم يجلسه معه فليأوله أكلة أو أكلتين ، فإنه ولي حره ودخانه .

وإذا فرغ من الطعام يحمد الله تعالى : روى أبو سعيد قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أكل طعاما قال : الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين ، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ، من أكل طعاما فقال : الحمد لله الذى أطعمنى هذا ورزقنى من غير حول منى ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه . ويتنخل ، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : تخللوا فإنه نظافة والنظافة تدعو إلى الإيمان والإيمان مع صاحبه في الجنة . .

وينسل يديه ، فقد روى أبو هريرة قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : من بات وفي يده غمر لم يغسل فأصابه شيء فلا يلومن إلا نفسه .

ومن السنة غسل الأيدي في طست واحد : وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انزعوا الطموس وخالفوا الجوس ،

ويستحب مسح العين ببلل اليد ، وروى أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا توضأت فأنشربوا أعينكم الماء ولا تنقضوا أيديكم فإنها مراوح الشياطين . قيل لأبي هريرة : في الوضوء وغيره ؟ قال نعم في الوضوء

وغيره ، وفي غسل اليد يأخذ الانسان باليمين ، وفي الخلاء لا يزدرد ما يخرج بالخلال من الانسان ، وأما ما يلوكة باللسان فلا بأس به ، ويحتجب التصنع في أكل الطعام ، ويكون أكله بين الجمع كأكله منفردا ، فإن الرياء يدخل على العبد في كل شيء .

وصف لبعض العلماء بعض العباد فلم يثن عليه ، قيل له تعلم به بأسا ؟ قال : نعم ، رأيت يتصنع في الأكل ، ومن تصنع في الأكل لا يؤمن عليه التصنع في العمل .

وإن كان الطعام حلالا فليقل : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وتنزل البركات . اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ، اللهم أطعمنا واستعملنا صالحا ، وإن كان شبهة يقول : الحمد لله على كل حال ، اللهم صل على محمد ولا تجعله عونا على معصيتك ، وليكثر الاستغفار والحزن ، ويبيكى على أكل الشبهة ولا يضحك ، فليس من يأكل وهو يبكي كن يأكل وهو يضحك ، ويقرأ بعد الطعام قل هو الله أجد وإيلاف قریش .

ويحتجب الدخول على قوم في وقت أكلهم ، فقد ورد « من مشى إلى طعام لم يدع إليه مشى فاسقا وأكل حراما ، وسمنا نمطا آخر » دخل سارقا وخرج مغبرا ، إلا أن يتفق دخوله على قوم يعلم منهم فرحهم بموافقته .

ويستحب أن يخرج الرجل مع ضيفه إلى باب الدار ، ولا يخرج الضيف بغير إذن صاحب الدار ، ويحتجب المضيف التكلف إلا أن يكون له نية فيه من كثرة الإنفاق ، ولا يفعل ذلك حياء وتكلفا .

وإذا أكل عند قوم طعاما فليقل عند فراغه إن كان بعد المغرب « أفطر عندكم الصائمون ، وأكل طعامكم الأبرار » وصلت عليكم الملائكة ، وروى أيضا « عليكم صلاة قوم أبرار ليسوا بأثمين ولا جار يصلون بالليل ويصومون بالنهار ، كان بعض الصحابة يقول ذلك .

ومن الأدب : أن لا يستحق ما يقدم له من طعام ، وكان بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما بدى أيهم أعظم وزراء ، الذي يحتقر ما يقدم إليه ، أو الذي يحتقر ما عنده أن يقدمه .

ويكره أكل طعام المباهاة وما تكلف للأعراس والتعازي ، فما عمل للنوائح لا يؤكل ، وما عمل لاهل العزاء لا بأس به وما يجري مجراه .

وإذا علم الرجل من حال أخيه أنه يفرح بالانبساط إليه في التصرف في شيء من طعامه فلا حرج أن يأكل من طعامه بغير إذن ، قال الله تعالى ﴿ أَرْضَيْكُمْ ﴾ قيل : دخل قوم على سفيان الثوري فلم يجدوه ، ففتحو الباب وأنزلوا السفرة وأكلوا ، فدخل سفيان ففرح وقال : ذكرتوني أخلاق السلف هكذا كانوا .

ومن دعى إلى طعام فالإجابة من السنة ، وأؤكد ذلك الوليعة ، وقد يتخلف بعض الناس عن الدعوة تكبرا أو ذلك خطأ ، وإن عمل ذلك تصنعا ورياء فهو أقل من التكبر . روى أن الحسن بن علي سر بقرم من المساكين الذين يسألون الناس على الطرق وقد نثروا كسرا على الأرض وهو على بغلته ؛ فلما مر بهم سلم عليهم فردوا عليه السلام وقالوا : هلم الغذاء يا ابن رسول الله ، فقال نعم إن الله لا يحب المتكبرين ، ثم نثى وركه فنزل عن دابته وقعد معهم على الأرض وأقبل يأكل ، ثم سلم عليهم وركب .

وكان يقال : الأكل مع الإخوان أفضل من الأكل مع العيال .

روى أن هرون الرشيد دعا أبا معاوية الضرير وأمر أن يقدم له طعام ، فلما أكل صلب الرشيد على يده في الطست فلما فرغ قال : يا أبا معاوية ، تدري من صلب على يدك ؟ قال لا . قال أمير المؤمنين ، قال يا أمير المؤمنين ، إنما أكرمت العلم وأجلته فأجلك الله تعالى وأكرمتك كما أكرمت العلم .

الباب الرابع والأربعون : في ذكر أدبهم في اللباس ونياتهم ومقاصدهم فيه

اللباس من حاجات النفس وضرورتها لدفع الجرب والبرد ، كما أن الطعام من حاجات النفس لدفع الجوع . وكان

النفس غير قانعة بقدر الحاجة من الطعام بل تطلب الزيادات والشهوات ، فهكذا في اللباس تتفنن فيه ، ولها فيه أهوية متنوعة ومآرب مختلفة ؛ فالصوفي يرد النفس في اللباس إلى متابعة صريح العلم . قيل لبعض الصوفية : ثوبك بمزق ، قال : ولكنه من وجه حلال ، وقيل له وهو وسخ ، قال : ولكنه طاهر ؛ فنظر الصادق في ثوبه أن يكون من وجه حلال ، لأنه ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من اشترى ثوبا بعشرة دراهم وفي ثمنه درهم من حرام لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا ، أي لا فريضة ولا نافلة » ، ثم بعد ذلك نظره فيه أن يكون طاهرا ؛ لأن طهارة الثوب شرط في صحة الصلاة ، وماعدا هذين النظريين فنظره في كونه يدفع الحر والبرد لأن ذلك مصلحة النفس ، وبعد ذلك ما تدعو النفس إليه فشكله فضول وزيادة ونظر إلى الخلق ، والصادق لا ينبغي أن يلبس الثوب إلا لله : وهو ستر العورة ، أو لنفسه لدفع الحر والبرد .

وحكى أن سفيان الثوري رضي الله عنه خرج ذات يوم وعليه ثوب قد لبسه مقلوبا ؛ فقيل له - ولم يعلم بذلك - فهم أن يخلعه ويغيره ، ثم تركه وقال : حيث لبسته نويت أني ألبسه لله ، والآن فما أغيره إلا لنظر الخلق فلا أنقص النية الأولى بهذه .

والصوفية خصوا بطهارة الأخلاق ، ومارزقوا بطهارة الأخلاق إلا بالصلاحية والأهلية والاستعداد الذي هياه الله تعالى لنفوسهم ، وفي طهارة الأخلاق وتعاضدها تناسب واقع لوجود تناسب هيئة النفس ، وتناسب هيئة النفس هو المشار إليه بقوله تعالى ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ﴾ . فالتناسب هو التسوية ، فمن المناسب أن يكون لباسهم مشا كلا لطعامهم ، وطعامهم مشا كلا لسكلامهم ، وكلامهم مشا كلا لمنامهم ؛ لأن التناسب الواقع في النفس مقيد بالعلم والتأنيب والنمائل في الأحوال يحكم به العلم ؛ ومتصوفة الزمان ملتزمون بشيء من التناسب مع مزج الهوى . وما عندهم من التطلع إلى التناسب رشح حال سلفهم في وجود التناسب .

قال أبو سليمان الداراني : يلبس أحدهم عباءة بثلاثة دراهم ، وشهوته في بطنه بخمسة دراهم ؛ أنكر ذلك لعدم التناسب ؛ فمن خشن ثوبه ينبغي أن يكون ما كوله من جنسه ، وإذا اختلف الثوب والمأكل دل على وجود انحراف لوجود هوى كامن في أحد الطرفين ، إما في طرف الثوب لموضع نظر الخلق ، وإما في طرف المأكل لفرط الشره ؛ وكلا الوصفين مرض يحتاج إلى المداواة ليعود إلى حد الاعتدال .

لبس أبو سليمان الداراني ثوبا غسिला ، فقال له أحد : لولبت ثوبا أجود من هذا؟ فقال : ليت قلبي في القلوب مثل قبيص في الثياب فكان الفقراء يلبسون المرقع ، وربما كانوا يأخذون الحرق من المزابل ويرقعون بها ثوبهم ، وقد فعل ذلك طائفة من أهل الصلاح ، وهؤلاء ما كان لهم معلوم يرجعون إليه ؛ فكما كانت رقاعهم من المزابل ، كانت لقمهم من الأبواب .

وكان أبو عبد الله الرفاعي مثابرا على الفقر والترك ثلاثين سنة ، وكان إذا حضر للفقراء طعام لا يأكل معهم فيقال له في ذلك : فيقول : أنتم تأكلون بحق التوكل . وأنا أكل بحق المسكنة ، ثم يخرج بين العشامين يطلب الكسبر من الأبواب ، وهذا شأن من لا يرجع إلى معلوم ولا يدخل تحت منه .

حكى أن جماعة من أصحاب المرقعات دخلوا على بشر بن الحارث فقال لهم : يا قوم ، انقروا الله ولا تظهروا هذا الذي فأنكم تعرفون به وتكرمون له ، فسكنوا كلهم ، فقال له غلام منهم : الحمد لله الذي جعلنا ممن يعرف به ويكرم له ، والله ليظهرن هذا الذي حتى يكون الدين كله لله ، فقال له بشر : أحسنت يا غلام ، مثلك من يلبس المرقعة ، فكان أحدهم يبق زمانه لا يطوى له ثوب ولا يملك غير ثوبه الذي عليه .

وروى أن أمير المؤمنين عليا رضي الله عنه لبس قميصا اشتراه بثلاثة دراهم ثم قطع كفه من رءوس أصابعه ، وروى عنه أنه قال لعمر بن الخطاب : إن أردت أن تلقى صاحبك فزق قميصك واخشف أعلاك وقصر أملك وكل دون الشيع وحكى عن الجريري قال : كان في جامع بغداد رجل لا تكاد تجده إلا في ثوب واحد في الشتاء والصيف ، فسل

عن ذلك ؟ فقال : قد كنت وامت بكثرة لبس الثياب ، فرأيت ليلة فيما يرى النائم كأنى دخلت الجنة ، فرأيت جماعة من أصحابنا من الفقراء على مائدة ، فرأيت أن أجلس معهم فإذا بجماعة من الملائكة أخذوا يدي وأقاموني وقالوا لي هؤلاء أصحاب ثوب واحد وأنت لك قيصان فلا تجلس معهم ، فأنذرت أن لا ألبس إلا ثوبا واحدا إلى أن ألقى الله تعالى .

وقيل : مات أبو يزيد ولم يترك إلا قميصه الذي كان عليه وكان عارية ، فردوه إلى صاحبه .
وحكى لنا عن الشيخ حماد شيخ شيخنا : أنه بقي زمانا لا يلبس الثوب إلا مستأجرا ، حتى إنه لم يلبس على ملك نفسه شيئا .

وقال أبو حفص الحداد : إذا رأيت وضاعة الفقير في ثوبه فلا ترجو خيره .
وقيل : مات ابن الكرنبي وكان أستاذا لجنيده وعليه مرقعته . قيل : كان وزن فردكم له وتمخار يصح ثلاثة عشر رطلا فقد يكون جمع من الصالحين على هذا الزى والتخشن ، وقد يكون جمع من الصالحين يتكفون لبس غير المرقع وزى الفقراء ، ويكون نيتهم في ذلك ستر الحال أو خوف عدم النهوض بواجب حق المرقعة .

وقيل : كان أبو حفص الحداد يلبس الناعم وله بيت فرش فيه الرمل لعله كان ينام عليه بلا وطاء . وقد كان قوم من أصحاب الصفة يكرهون أن يجعلوا بينهم وبين التراب حائلا . ويكون لبس أبي حفص الناعم يعلم ونية يلقى الله تعالى بصحتها ، وهكذا الصادقون إن لبسوا غير الخشن من الثوب لنية تكون لهم في ذلك ، فلا يعترض عليهم ، غير أن لبس الخشن والمرقع يصلح لسائر الفقراء بنية التقليل من الدنيا وزهرتها وبهجتها . وقد ورد : من ترك ثوب جمال وهو قادر على لبسه ألبسه الله تعالى من حل الجنة .

وأما لبس الناعم فلا يصلح إلا لعالم بحاله بصير بصفات نفسه متفقد خفي شهوات النفس يلقى الله تعالى بحسن النية في ذلك ، فلحسن النية في ذلك وجوه متعددة يطول شرحها . ومن الناس من لا يقصد لبس ثوب بعينه لاختشوته ولا لنعمته ، بل يلبس ما يدخله الحق عليه فيكون بحكم الوقت ، وهذا حسن . وأحسن من ذلك أنه يتفقد نفسه فيه ، فإن رأى للنفس شرها وشهوة خفية أو جليلة في الثوب الذي أدخله الله عليه يخرجه ، إلا أن يكون حاله مع الله ترك الاختيار فمئذ ذلك لا يسمعه إلا أن يلبس الثوب الذي ساقه الله إليه . وقد كان شيخنا أبو النجيب السهروردي رحمه الله لا يقيّد بهيئة من الملبوس ، بل كان يلبس ما يتفق من غير تعمد تكلف واختيار ، وقد كان يلبس العمامة بدمشقة دنانير ويلبس العمامة بدائق . وقد كان الشيخ عبد القادر رحمه الله يلبس هيئة مخصوصة ويتطيب . وكان الشيخ علي بن الهيثم يلبس لبس فقراء السواد . وكان أبو بكر الفراء برنجان يلبس فروا خشنا كأحد العوام . ولكل في لبسه وهيئته نية صالحة . وشرح تفاوت الأرقام في ذلك يطول .

وكان الشيخ أبو السعود رحمه الله حاله مع الله ترك الاختيار ، وقد يساق إليه الثوب الناعم فيلبسه ، وكان يقال له : ربما يسبق إلى بواطن بعض الناس الإنكار عليك في لبسك هذا الثوب فيقول : لا تقي إلا أحد رجلين : رجل يطالبنا بظاهر حكم الشرع ، فنقول له : هل ترى أن ثوبنا يكرهه الشرع أو يحرمه ؟ فيقول : لا . ورجل يطالبنا بحقائق القوم من أرباب العزيمة ، فنقول له : هل ترى لنا فيها لبسا اختيارا أو ترى عندنا فيه شهوة ؟ فيقول : لا . وقد يكون من الناس من يقدر على لبس الناعم ولبس الخشن ، ولكن يجب أن يختار الله له هيئة مخصوصة ، فيكثر اللجأ إلى الله والافتقار إليه ، ويسأله أن يريه أحب الزى إلى الله تعالى وأصلحه لدينه ودنياه لكونه غير صاحب غرض وهوى فيزى بعينه ؛ فآله تعالى يفتح عليه ويعرفه زيا مخصوصا ، فيلتزم بذلك الزى فيكون لبسه بالله ويكون هذا أتم وأكمل ممن يكون لبسه لله .

ومن الناس من يتوفر حظ من العلم وينبسط بما بسطه الله ، فيلبس الثوب عن علم وإيقان ولا يبالى بما لبسه ، ناعما لبس أو خشنا ، وربما لبس ناعما ولنفسه فيه اختيار وحظ ، وذلك الحظ فيه يكون مكفرا له مردودا عليه موهوبا له

يوافقه الله تعالى في إرادة نفسه ، ويكون هذا الشخص تام التزكية تام الطهارة محبوبا مرادا يسارع الله تعالى إلى مراده ومحابه ؛ غير أن ههنا منزلة قدم لكثير من المدعين .

حكى عن يحيى بن معاذ الرازى أنه كان يلبس الصوف والخلقان في ابتداء أمره ، ثم صار في آخر عمره يلبس الناعم ؛ فقيل لأبي يزيد ذلك ؛ فقال : مسكين يحيى لم يضرب على الدون فكيف يصبر على التحف .

ومن الناس من يسبق إليه علم ماسوف يدخل عليه من الملبوس فيلبسه محمودا فيه . وكل أحوال الصادقين على اختلاف تنوعها مستحسنة (قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) .

ولبس الخشن من الثياب هو الأحب والأولى والأسلم للعبد والأبعد من الآفات : قال مسلمة بن عبد الملك : دخلت على عمر بن عبد العزيز أعوده في مرضه ، فرأيت قيصة وسخا فقلت لامرأته فاطمة : اغسلوا ثياب أمير المؤمنين ؛ فقالت : نفعل إن شاء الله ، قال : ثم عدته فإذا القميص على حاله ، فقلت : يا فاطمة ، ألم آمركم أن تغسلوه ؟ قالت والله ما له قيصة غير هذا . وقال سالم : كان عمر بن عبد العزيز من أين الناس لباسا من قبل أن يسلم عليه بالخلافة ، فلما سلم عليه بالخلافة ضرب رأسه بين ركبتيه وبكى ، ثم دعا بأطمار له رثة فلبسها .

وقيل : لما مات أبو الدرداء وجد في ثوبه أربعون رقعة وكان عطاؤه أربعة آلاف .

وقال يزيد بن وهب ؛ لبس على بن أبي طالب قميصا رازيا ، وكان إذا مذكبه بلغ أطراف أصابعه ، فعابه الخوارج بذلك ، فقال : أتعيبوني على لباس هو أبعد من الكبر وأجدر أن يقتدى به المسلم .

وقيل : كان عمر رضى الله عنه إذا رأى على رجل ثوبين رقيقين علاه بالدرة وقال . دعوا هذه البراقات للنساء . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ، نوروا قلوبكم بلباس الصوف فإنه مذلة في الدنيا ونور في الآخرة ، وإياكم أن تفسدوا دينكم بحمد الناس وثنائهم ، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم احتذى ثوبين ، فلما نظر إليهما أعجبه حسنهما فسددهما لله تعالى ، فقيل له في ذلك فقال : خشيت أن يعرض عني ربي فتواضعت له ، لا جرم لا يبيتان في منزلي لما تخوفت المقت من الله تعالى من أجلهما ، فأخرجهما فدفعهما إلى أول مسكين لقيه ثم أمر فاشترى له نعلان مخصوفتان . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس الصوف واحتذى المخصوف وأكل مع العبيد .

وإذا كانت النفس محل الآفات فالورف على دسائسها وخفي شهواتها وكامن هواها عسر جدا ، فالأليق والأجدر والأولى الأخذ بالأحوط وترك ما يرب إلى ما لا يرب ، ولا يجوز للعبد الدخول في السعة إلا بعد إتقان علم السعة تزكية النفس ، وذلك إذا غابت النفس بغيبه هواها المتبع وتخلصت التية وآسدت التصرف بعلم صريح واضح ، وللعزيمة أقوام يركبونها وبراعونها لا يرون الزول إلى الرخص خوفا من فوت فضيلة الزهد في الدنيا واللباس الناعم من الدنيا . وقد قيل : من رق ثوبه رقى دينه . وقد يرخص في ذلك لمن لا يلتزم بالزهد ويقف على رخصة الشرع . وروى علقمة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من الكبر ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : إن الله جميل يحب الجمال ، فتكون هذه الرخصة في حق من يلبسه لاجهوى نفسه في ذلك غير مفتخر به ومختال ؛ فأما من لبس الثوب للتفاخر بالدنيا والتكاثر به فقد ورد فيه وعيد ؛ روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إزرة المؤمن إلى نصف الساق لا حرج عليه فيما بينه وبين الكعبين وما كان أسفل من الكعبين فهو في النار من جر إزاره بطرا لم ينظر الله إليه يوم القيامة ، فبينما رجل من كان قبلكم يتخير في ردائه إذ أعجبه ردائه لمخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ، والأحوال تختلف ، ومن صبح حاله بصحة عليه صحت نيته في مأكوله وملبوسه وسائر تصاريفه ، وفي كل الأحوال يستقيم ويتسدد باستقامة الباطن مع الله تعالى ، وبقدرك ذلك تستقيم تصاريف العبد كلها بحسن توفيق الله تعالى .

الباب الخامس والأربعون : في فضل قيام الليل

قال الله تعالى ﴿ إذ يفشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان ﴾ نزلت هذه الآية في المسلمين يوم بدر حيث نزلوا على كثيب من الرمل تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب ، وسبقهم المشركون إلى ماء بدر العظمى وغلبهم عليها ، وأصبح المسلمون بين محدث وجنب وأصابهم الظمأ ، فوسوس لهم الشيطان أنكم تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبي الله وقد غلب المشركون على الماء وأنتم تصلون محدثين ومجنبن فكيف ترجون الظفر عليهم ، فأنزل الله تعالى مطرا من السماء سال منه الودى فشرب المسلمون منه واغتسلوا وتوضأوا وسقوا الدواب وملأوا الأسقية ولبد الأرض حتى ثبت به الأقدام . قال الله تعالى ﴿ ويثبت به الأقدام . إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم ﴾ أمدكم الله تعالى بالملائكة حتى غلبوا المشركين ، ولكل آية من القرآن ظهر وبطن وحد ومطلع والله تعالى كما جعل النعاس رحمة وأمنة للصحابة خاصة في تلك الواقعة والحادثة فهو رحمة تعم المؤمنين ، والنعاس قسم صالح من الأقسام العاجلة للريدين ، وهو أمنة لقلوبهم عن منازعات النفس ، لأن النفس بالنوم تستريح ولا تشكو الكلال والتعب ، إذ في شكائتها وتعبها تكدير القلب ، وباستراحتها بالنوم بشرط العلم والاعتدال راحة القلب لما بين القلب والنفس من المواطأة عند طمأنيتها للريدين السالكين . فقد قيل : ينبغي أن يكون ثلث الليل والنهار نوما حتى لا يضطرب الجسد فيكون ثمان ساعات : للنوم ساعتين من ذلك يجعلهما المريد بالنهار ، وست ساعات بالليل ، ويزيد في أحدهما وينقص من الآخر على قدر طول الليل وقصره في الشتاء والصيف ، وقد يكون بحسن الإرادة وصدق الطلب ينقص النوم عن قدر الثلث ، ولا يضرب ذلك إذا صار بالتدريج عادة ، وقد يحمل ثقل السهر وقلة النوم وجود الروح والانس ، فإن النوم طبعه بارد رطب ينفع الجسد والدماغ ويسكن من الحرارة واليبس الحادث في المزاج ، فإن نقص عن الثلث يضرب الدماغ ويخشى منه اضطراب الجسم ، فإذا ناب عن النوم روح والقلب وأنسه لا يضرب نقصانه ، لأن طبيعة الروح والانس باردة رطبة كطبيعة النوم . وقد تقصر مدة طول الليل بوجود الروح ، فتصير بالروح أوقات الليل الطويلة كالقصيرة ، كما يقال : سنة الوصل سنة ، وسنة الهجر سنة ، فيقصر الليل لأهل الروح .

- نقل عن علي بن بكار أنه قال منذ أربعين سنة ما أحزنتني إلا طلوع الفجر .

وقيل لبعضهم : كيف أنت والليل ؟ قال : ما راعيته قط يربنى وجهه ثم ينصرف وما تأملته .

وقال أبو سليمان الداراني : أهل الليل في ليهم أشد لذة من أهل اللهو في لهوهم .

وقال بعضهم : ليس في الدنيا شيء يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التلذذ في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة لحلاوة المناجاة ثواب عاجل لأهل الليل .

وقال بعض العارفين : إن الله تعالى يطلع على قلوب المستيقظين في الأسحار فيملؤها نورا ، فتزد الفوائد على قلوبهم فتستثير ، ثم تنتشر من قلوبهم الفوائد إلى قلوب الغافلين .

وقد ورد أن الله تعالى أوحى في بعض ما أوحى إلى بعض أنبيائه : إن لي عبادا يحبوني وأحبهم ، ويشتاقون إلى وأشتاق إليهم ، ويذكرونني وأذكروني وينظرون إلى وأنظر إليهم ، فإن حدثت طريقهم أحبيتك وإن عدلت عن ذلك فممتك . قال : يارب وما علامتهم ؟ قال : يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى غنمه ، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها ، فإذا جنهم الليل واختلط الظلام وخلأ كل حبيب بحبيبه نصبوا لي أقدامهم وافرشوا لي وجوههم وناجزوا بكلاي . وملتقوا إلى بانعائى ، فين صارخ ويالك ، وبين متأوه وبشاك ، بعينى ما يتحملون من أجلى ، وبسمعى ما يشكون من حبي ، أول ما أعطيهم أن أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم ، والثاني : لو كانت السموات السبع والأرضون وما فيهما في موازينهم لاستقلتها لهم . والثالث : أقبل

بوجهي عليهم أفترى من أقبلك بوجهي عليه أعلم أحد ما أريد أن أعطيه ؟ فالصادق المريد إذا خلا في ليله بمناجاة ربه انتشرت أنوار ليله على جميع أجزاء نهاره ويصير نهاره في حاية ليله ، وذلك لا امتلاء قلبه بالأنوار ، فتكون حركاته وتصاريفه بالنهار تصدر من منبع الأنوار المجتمعة من الليل ، ويصير قلبه في قبة من قباب الحق مسددا حركاته موفرة سكناته .

وقد ورد من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار ، ويجوز أن يكون لمعنيين . أحدهما أن المشكاة تستنير بالمصباح ، فإذا صار سراج اليقين في القلب تزهو بكثرة زيت العمل بالليل ، فيزداد المصباح إشراقا وتكتسب مشكاة القالب نورا وضياء .

كان يقول سهل بن عبد الله : اليقين نار ، والإقرار فتيلة ، والعمل زيت . وقد قال الله تعالى ﴿ سيحاهم في وجوههم من أثر السجود ﴾ وقال تعالى ﴿ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾ فنور اليقين من نور الله في زجاجة القلب يزداد ضياء بزيت العمل ، فتبقى زجاجة القلب كالسكب الدري وتنعكس أنوار الزجاجة على مشكاة القالب ، وأيضا يلين القلب بنار النور ، ويسرى لينه إلى القالب فيلين القالب للين القلب ، فيتشابهان لوجود اللين الذي عهما ، قال الله تعالى ﴿ ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ وصف الجلود باللين كما وصف القلوب باللين ، فإذا امتلأ القلب بالنور ، ولان القالب بما يسرى فيه من الأنس والسرور يندرج الزمان والمكان في نور القلب ، ويندرج فيه الكلام والآيات والسور وتشرق الأرض أرض القالب بنور ربها ، إذ يصير القالب سماء والقالب أرضا ، ولذة تلاوة كلام الله في محل المناجاة تستر كون الكائنات والكلام المجيد بكونه ينوب عن سائر الوجود في مزاجحة صفو الشهود ، فلا يبقى حينئذ للنفس حديث ، ولا يسمع لها جرس حسي ، وفي مثل هذه الحالة يتصور تلاوة القرآن من فاتحته إلى خاتمته من غير وسوسة وحديث نفس ، وذلك هو الفضل العظيم . والوجه الثاني : لقوله عليه السلام « من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار ، معناه : أن وجوه أهله التي يتوجه إليها تحسن وتتدارك المعونة من الله الكريم في تصاريفه ، ويكون معانا في مصدره ومورده ، فيحسن وجه مقاصده وأفعاله ، وينتظم في سلك السداد مسددا أقواله ، لأن الأقوال تستقيم باستقامة القلب .

الباب السادس والأربعون : في ذكر الأسباب المعينة على قيام الليل وأدب النوم

فمن ذلك أن العبد يستقبل الليل عند غروب الشمس بتجديد الوضوء ، ويقعد مستقبل القبلة منتظرا مجيء الليل وصلاة المغرب ، مقيما في ذلك على أنواع الأذكار ، ومن أولها التيسيع والاستغفار . قال الله تعالى لنبيه ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ ﴿ وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار ﴾ ومن ذلك أن يواصل بين العشاءين بالصلاة أو بالتلاوة أو بالذكر ، وأفضل ذلك الصلاة ، فإنه إذا واصل بين العشاءين يغسل عن باطنه آثار الكدورة الحادثة في أوقات النهار من رؤية الخلق ومخاطبتهم وسماع كلامهم ، فإن ذلك كله له أثر وخدش في القلوب ، حتى النظار إليهم يعقب كدرا في القلب يدركه من يرزق صفاء القلب ، فيكون أثر النظر إلى الخلق للبصيرة كالقذى في العين للبصر ، وبالمواصلة بين العشاءين يرجى ذهاب ذلك الأثر . ومن ذلك : ترك الحديث بعد العشاء الآخرة ، فإن الحديث في ذلك الوقت يذهب طراوة النور الحادث في القلب من مواصلة العشاءين ويقيد عن قيام الليل ، سيما إذا كان عربيا عن بقطة القلب . ثم تجديد الوضوء بعد العشاء الآخرة أيضا معين على قيام الليل .

حكى لي بعض الفقهاء عن شيخ له بخراسان أنه كان يغتسل في الليل ثلاث مرات : مرة بعد العشاء الآخرة ، ومرة في أثناء الليل بعد الانتباه من النوم ، ومرة قبل الصبح ، فالوضوء والغسل بعد العشاء الآخرة أثر ظاهر في تيسير قيام الليل . ومن ذلك التعود على الذكر أو القيام بالصلاة حتى يغلب النوم ، فإن التعود على ذلك يعين على سرعة الانتباه ، إلا أن يكون وانقا من نفسه وعاداته فيتعلم للنوم ويستجلبه ليقوم في وقته المعهود ، وإلا فالنوم عن الغلبة هو الذي يصلح للريدين والطالبين ، وبهذا وصف المحبون ، قيل : نومهم نوم الغرقى ، وأكلهم أكل المرضى ،

وكلامهم ضرورة ؛ فمن نام عن غلبة بهم مجتمع متعلق بقيام الليل يوفق لقيام الليل ، وإنما النفس إذا طمعت ووطنت على النوم استرسلت فيه ، وإذا أزعجت بصدق العزيمة لاسترسل في الاستقرار ، وهذا الانزعاج في النفس بصدق العزيمة هو التجاني الذي قال الله تعالى ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ لأن الهمة بقيام الليل وصدق العزيمة يجعل بين الجنب والمضجع نبواً وتجاافياً . وقد قيل : للنفس نظران : نظر إلى تحت لاستيفاء الأقسام البدنية ، ونظر إلى فوق لاستيفاء الأقسام العلوية الروحانية ، فأرباب العزيمة تجافت جنوبهم عن المضاجع لنظرهم إلى فوق إلى الأقسام العلوية الرحمانية ؛ فأعطوا النفوس حقها من النوم ومنعوها حظها ، فالنفس بما فيها مركوز من الترابية والجسادية ترسب وتستجلس وتستلذ النوم ، قال الله تعالى ﴿ هو الذي خلقكم من تراب ﴾ والادعى بكل أصل من أصول خلقته طبيعة لازمة له . والرسوب صفة التراب والكسل والتقاعد والتناوم بسبب ذلك طبيعة في الإنسان ؛ فأرباب الهمة أهل العلم الذين حكم الله تعالى لهم بالعلم في قوله تعالى ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً ﴾ حتى قال ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ حكم هؤلاء الذين قاموا بالليل بالعلم ، فهم لموضع علمهم أزججوا النفوس عن مقار طبيعتها ورقوها بالنظر إلى اللذات الروحانية إلى ذرى حقيقتها ؛ فتجافت جنوبهم عن المضاجع وخرجوا من صفة الغافل الهاكع .

ومن ذلك : أن يغير العادة ؛ فإن كان ذا وسادة يترك الوسادة ، وإن كان ذا وطاء يترك الوطاء . وقد كان بعضهم يقول : لأن أرى في بيتي شيطاناً أحب إلي من أن أرى وسادة فإنها تدعوني إلى النوم ؛ ولتغيير العادة في الوسادة والوظائف والوظائف تأثير في ذلك ، ومن ترك شيئاً من ذلك بالله عالم بغيته وعزيمته يثبته على ذلك بتيسير مآرام ، ومن ذلك خفة المعدة من الطعام ، ثم تناول ما يأكل من الطعام إذا اقترن بذكر الله ويقظة الباطن أعان على قيام الليل ؛ لأن بالذكر يذهب دأؤه ؛ فإن وجد للطعام ثقلاً على المعدة ينبغي أن يعلم أن ثقله على القلب أكثر ، فلا ينام حتى يذيب الطعام بالذكر والتلاوة والاستغفار . قال بعضهم : لأن أنقص من عشائي لقمة أحب إلي من أن أقوم ليلة .

والأحوط أن يوتر قبل النوم فإنه لا يدري ماذا يحدث ، ويعد طهوره وسواكه عنده ، ولا يدخل النوم إلا وهو على الطهارة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا نام العبد وهو على الطهارة عرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة ، وإن لم ينم على الطهارة قصرت روحه عن البلوغ ، فتكون المنامات أضغاث أحلام لا تصدق ، والمريد المتأمل إذا نام في الفراش مع الزوجة ينقض وضوءه باللس ، ولا يفوته بذلك فائدة النوم على الطهارة ما لم يسترسل في التذلل للنفس باللس ولا يعدم يقظة القلب ؛ فأما إذا استرسل في الالتذاذ وغفل فتعجب الروح أيضاً لمكان صلاحته . ومن الطهارة التي تثمر صدق الرؤيا : طهارة الباطن عن خدش الهوى وكدورة محبة الدنيا ، وانتزعه عن انجاس الغل والحقد والحسد ، وقد ورد من أوى إلى فراشه لا ينوي ظلم أحد ولا يحنث على أحد غفر له ما اجترمه ، وإذا طهرت النفس عن الرذائل : انجلت مرآة القلب وفال الوضوح المحفوظ في النوم . وانتقشت فيه عجايب الغيب وغرائب الإنباء ؛ ففي الصديقين من يكون له في منامه مكلمة ومحادثة ؛ فيأمره الله تعالى وينهاه ويفهمه في المنام . يعرفه ، ويكون موضع ما يفتح له في نومه من الأمر والسبى كالامر والنهي الظاهر : يعصى الله تعالى إن أخل بهما ، بل تكون هذه الأوامر أكد وأعظم وقعا ، لأن المخالفة الظاهرة تمحوها التوبة ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ؛ وهذه أوامر خاصة تتعلق بحاله فيما بينه وبين الله تعالى ؛ فإذا أخل بها يخشى أن ينقطع عليه طريق الإرادة ، ويكون في ذلك الرجوع عن الله واستيجاب مقام المقت ، فإن ابتلى العبد في بعض الأحيان بكسل وفتور عزيمته يمنع من تجديد الطهارة عند النوم بعد الحدث : يمسح أعضائه بالماء مسحا حتى يفرج بهذا القدر عن زمرة الغافلين حيث تساعد عن فعل المتيقظين ، وهكذا إذا كسل عن القيام عقيب الانبعاث يجتهد أن يستاك ويمسح أعضائه بالماء مسحا ، حتى يخرج في قلباته وانبعاثاته عن زمرة الغافلين ؛ ففي ذلك فضل كثير لمن كثر نومه وقل قيامه ؛ روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستاك في كل ليلة مرارا عند كل نوم وعند الانبعاث منه .

ويستقبل القبلة في نومه وهو على نوعين فأما على جنبه الأيمن كاللحد وإما على ظهره مستقبلاً للقبلة كالمتسجى ، ويقول : باسمك اللهم وضعت جنبي وبك أرفعه ، اللهم إن أمسكت نفسي فاغفر لها وارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين اللهم إنى أسألت نفسي إليك ووجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة منك ورغبة إليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيك الذى أرسلت اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك ، الحمد لله الذى حكم فقهر ، الحمد لله الذى بطن بخير ، الحمد لله الذى ملك فقدر ، الحمد لله الذى هو يحيى الموتى وهو على كل شئ قدير اللهم إنى أعوذ بك من غضبك وسوء عقابك وشر عبادك وشر الشيطان وشركه وقرأ خمس آيات من البقرة : الأربع من الأول والآية الخامسة ﴿ إن فى خلق السموات والأرض ﴾ وآية الكرسي و ﴿ آمن الرسول ﴾ و ﴿ إن ربكم الله ﴾ و ﴿ قل ادعوا الله ﴾ وأول سورة الحديد وآخر سورة الحشر وقل يا أيها الكافرون ، وقل هو الله أحد ، والمعوذتين ، وينفث بهن فى يديه ويمسح بهما وجهه وجسده ، وإن أضاف إلى مائراً عشرة من أول السكف وعشرة من آخرها لحسن ، ويقول : اللهم أبقنى فى أحب الساعات إليك ، واستعملنى بأحب الأعمال إليك التى تقر بنى إليك زلفى وتبعدنى من سخطك بعداً ، أسألك فتعطينى ، وأستغفرك فتغفرلى ، وأدعوك فستجيبلى ، اللهم لا تؤمنى مكرك ، ولا تولى غيرك ، ولا ترفع عنى سترك ، ولا تنسى ذكرك ، ولا تنجملى من الغافلين ، ورد أن من قال هذه الكلمات بعث الله تعالى إليه ثلاثة أملاك يوقظونه للصلاة ، فإن صلى ودعا أنواعاً على دعائه ، وإن لم يقم تعبدت الأملاك فى الهواء وكتب له ثواب عبادتهم ، ويسبح ويحمد ويكبر كل واحد ثلاثاً وثلاثين ، ويتمم المائة بلا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

الباب السابع والأربعون : فى أدب الانتباه من النوم والعمل بالليل

إذا فرغ المؤذن من أذان المغرب صلى ركعتين بين الأذان والإقامة ، وكان العلماء يصلون هاتين الركعتين فى البيت يعجلون هما قبل الخروج إلى الجماعة كيلاً يظن الناس أنهما سنة مرتبة فيقتدى بهم ، ظناً منهم أنهما سنة مؤكدة ، وإذا صلى المغرب يصل ركعتى السنة بعد المغرب يعجل بهما ^(١) فلهما يرفعان مع الفريضة ، يقرأ فيهما بقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ، ثم يسلم على ملائكة الليل والكرام الكاتبين ، فيقول : مرحباً بملائكة الليل ، مرحباً بالملكين الكريهين الكاتبين ، اكتبوا فى صحيفتى أنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، وأشهد أن الجنة حق ، والنار حق ، والحوض حق ، والشفاعة حق ، والصراط والميزان حق ، وأشهد أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ، اللهم أودعك هذه الشهادة ليوم حاجتى إليها . اللهم احطط بها وزرى واغفر بها ذنبي ، وثقل بها ميزانى ، وأوجب لي بها أمانى ، وتجاوز عني يا أرحم الراحمين . فإن واصل بين العشاءين فى مسجد جماعته : يكون جامعاً بين الاعتكاف ومواصلة العشاءين ، وإن رأى انصرافه إلى منزله وأن المواصلة بين العشاءين فى بيته أسلم لدينه وأقرب إلى الإخلاص وأجمع اللهم فليفعل . وسئل رسول الله عليه السلام عن قوله تعالى ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ فقال : هى الصلاة بين العشاءين ، وقال عليه السلام : عايكم بالصلاة بين العشاءين فإياها تذهب بملاغة النهار وتهذب آخره ، ويجعل من الصلاة بين العشاءين ركعتين بسورة البروج والطارق ، ثم ركعتين بعد ركعتين : يقرأ فى الأولى عشر آيات من أول سورة البقرة والآيتين ﴿ وإلهم إله واحد ﴾ إلى آخر الآيتين ، وخمس عشرة مرة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وفى الثانية آية الكرسي و ﴿ آمن الرسول ﴾ وخمس عشرة مرة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ويقرأ فى الركعتين الأخيرتين من سورة الزمر والواقعة ، ويصلى بعد ذلك ماشاء ، فإن أراد أن يقرأ شيئاً من حزيه فى هذا الوقت فى الصلاة أو غيرها ، وإن شاء صلى عشرين ركعة خفيفة بسورة الإخلاص

(١) أى بعد ختم الصلاة مباشرة فتنبه .

والفاتحة ، ولو واصل بين العشاءين ركعتين يطيلهما لحسن ، وفي هاتين الركعتين يطيل القيام تاليا للقرآن حزبه أو مكررا آية فيها الدعاء والتلاوة ، مثل أن يقرأ مكررا ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾ أو آية أخرى في معناها ، فيكون جامعا بين التلاوة والصلاة والدعاء

ففي ذلك جمع اللهم وظفر بالفضل ، ثم يصلي قبل العشاء أربعاً وبعد ركعتين ، ثم ينصرف إلى منزله أو موضع خلوته فيصلي أربعاً أخرى . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي في بيته أول ما يدخل قبل أن يجلس أربعاً ، ويقرأ في هذه الأربع سورة لقمان ويس وحم الدخان وتبارك الملك ، وإن أراد أن يخفف فيقرأ فيها آية الكرسي وآمن الرسول وأول سورة الحديد وآخر سورة الحشر ، ويصلي بعد الأربع إحدى عشرة ركعة يقرأ فيها ثلثمائة آية من القرآن من ﴿ والسما والطارق ﴾ إلى آخر القرآن ثلثمائة آية ، هكذا ذكر الشيخ أبو طالب المكي رحمه الله ، وإن أراد قرأ هذا القدر في أقل من هذا العدد من الركعات ، وإن قرأ من سورة الملك إلى آخر القرآن وهو ألف آية فهو خير عظيم ، وإن لم يحفظ القرآن يقرأ في كل ركعة خمس مرات ﴿ قل هو الله أحد ﴾ إلى عشر مرات إلى أكثر ، ولا يؤخر الوتر إلى آخر التهجد إلا أن يكون وانقا من نفسه في عاداتها بالانتباه للتهجد ؛ فيكون تأخير الوتر إلى آخر التهجد حينئذ أفضل . وقد كان بعض العلماء إذا أوتر قبل النوم ثم قام يتشهد يصلي ركعة يشفع بها وتره ، ثم يتنفل ماشاء ويوتر في آخر ذلك ، وإذا كان الوتر من أول الليل يصلي بعد الوتر ركعتين جالسا يقرأ فيهما إذا زلزلت وألهاكم ، وقيل : فعل الركعتين قاعدة بمنزلة الركعة قائما يشفع له الوتر ، حتى إذا أراد التهجد يأتي به ويوتر في آخر تهجده ، ونية هاتين الركعتين نية النفل لا غير ذلك ، وكثيرا ما رأيت الناس يتفاوضون في كيفية نيتهم ، وإن قرأ في كل ليلة المسبحات وأضاف إليها سورة الأعلى فتصير سبعا ، فقد كان العلماء يقرءون هذه السور ويترقبون بركتها .

فإذا استيقظ من النوم فمن أحسن الأدب عند الانتباه أن يذهب بباطنه إلى الله ويصرف فكره إلى أمر الله قبل أن يحول الفكر في شيء سوى الله ، ويشغل اللسان بالذكر ، فالصادق كالطفل السكف بالشيء إذا نام ينام على حبة الشيء وإذا انتبه يطلب ذلك الشيء الذي كان كفاه به ، وعلى حسب هذا السكف والشغل يكون الموت والقيام إلى الحشر ، فليُنظر وليعتبر عند انتباهه من النوم : مامه ؟ فإنه هكذا يكون عند القيام من القبر : إن كان همه الله فهو هو ، وإلا فهمه غير الله . والعبد إذا انتبه من النوم فباطنه عائد إلى طهارة الفطرة ، فلا يدع الباطن يتغير بغير ذكر الله تعالى حتى لا يذهب عنه نور الفطرة الذي انتبه عليه ويكون قازا إلى ربه بباطنه خروفا من ذكر الأغيار ، ومهما وفي الباطن بهذا المعيار فقد اتقن طريق الأنوار وطرق النفحات الإلهية ، لجدير أن تنصب إليه أقسام الليل انصبابا ، ويصير جناب القرب له مؤثلا ومآبا ، ويقول باللسان : الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور . ويقرأ العشر الأواخر من سورة آل عمران ، ثم يقصد الماء الطهور . قال الله تعالى ﴿ وبنا عليكم من السماء ماء ليطهركم به ﴾ وقال عز وجل ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ﴾ قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : الماء القرآن ، والأودية القلوب ، فسالت بقدرها واحتملت ما وسعت ، والماء مطهر والقرآن مطهر ، والقرآن بالنظر أجدد ، فالماء يقوم غيره مقامه ، والقرآن والعلم لا يقوم غيرهما مقامهما ولا يستدسدهما ، فالماء الطهور يطهر الظاهر ، والعلم والقرآن يطهران الباطن ويذهبان رجز الشيطان ، فالنوم غفلة وهو من آثار الطبع ، وجدير أن يكون من رجز الشيطان لما فيه من الغفلة عن الله تعالى ، وذلك أن الله تعالى أمر بقبض القبضة من التراب من وجه الأرض ، فكانت القبضة جلدة الأرض والجلدة ظاهرها بشرة وباطنها أدمة قال الله تعالى ﴿ إني خالق بشرا من طين ﴾ فالبشرة والبشر عبارة عن ظاهره وصورته والأدمة عبارة عن باطنه وأدميته ، والأدمية تجمع الإخلاص الحميدة ، وكان التراب موطن أقدام إبليس ، ومن ذلك اكتسب ظلمة ، وصارت تلك الظلمة معجونة في طينة الآدمي ، ومنها الصفات المذمومة والإخلاص الرديئة ومنها الغفلة والسهو ، فإذا استعمل الماء وقرأ القرآن أتى بالمطهرين جميعا ، ويذهب عنه رجز الشيطان وأثر وطأته ، ويحكم له بالعلم والخروج من حيز الجهل ، فاستعمال الطهور أمر شرعي له تأخير في تنوير القلب بإزاء النوم الذي هو الحكم الطبيعي

الذى له تأثير فى تسكين القلب ، فيذهب نور هذا بظلمة ذلك ، ولهذا رأى بعض العلماء الوضوء مما سمت النار، وحكم أبو حنيفة رحمه الله بالوضوء من الفقهة فى الصلاة حيث رأها حكما طبيعيا جالبا للإثم ، والإثم رجز من الشيطان ، والماء يذهب رجز الشيطان ، حتى كان بعضهم يتوضأ من الغيبة والكذب وعند الغضب لظهور النفس وتصرف الشيطان فى هذه المواطن . ولو أن المتحفظ المراعى المراقب المحاسب - كلما انطلقت النفس فى مباح من كلام أو مساكنة إلى مخالطة الناس أو غير ذلك بما هو بعرضة تحليل عقد العزيمة كالخوض فيما لا يعنى قولاً وفعلًا عقب ذلك بتجديد الوضوء - لبثت القلب على طهارته ونزاهته ، وكان الوضوء لصفاء البصيرة بمثابة الجفن الذى لا يزال بخفة حركته يجلو البصر (وما يعقلها إلا العالمون) فتذكر فيما ذهبتك عليه تجد بركته وأثره .

ولو اغتسل عند هذه المتجددات والعوارض والانتباه من النوم ، لكان أزيد فى تنوير قلبه ، وكان الأجدر أن العبد يغتسل لكل فريضة بأذلا بجهوده فى الاستعداد لمناجاة الله ، ويجدد غسل الباطن بصدق الإجابة وقد قال الله تعالى ﴿ منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ﴾ قدم الإجابة للدخول فى الصلاة ، ولكن من رحمة الله وحكم الخفيفة السهلة السمحة أن رفع الحرج وعرض بالوضوء عن الغسل ، وجوز أداء مفترضات بوضوء واحد دفعا للحرج عن عامة الأمة ، وللخواص وأهل العزيمة مطالبات من بواطنهم تحمك عليهم بالأولى وتلجئهم إلى سلوك طريق الأعلى ، فإذا قام إلى الصلاة وأراد استفتاح التهجد يقول : الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا ، ويقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله عشر مرات ويقول : الله أكبر ذو الملك والمملكة والجبروت والكبرياء والعظمة والجلال والقدرة ، اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت بهاء السموات والأرض ، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ومن عليهن ، أنت الحق ومنك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق والنار حق ، والنبيون حق ومحمد عليه السلام حق ؛ اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وبك خاصمت وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت ، اللهم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها ، اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت ، أسألك مسألة البائس المسكين ، وأدعوك دعاء الفقير الذليل ، فلا تجعلى بدعائك رب شقيا وكن بى رءوفا رحيا يا خير المستولين وبأكرم المعطين ثم يصلى ركعتين تحية الطهارة : يقرأ فى الأولى بعد الفاتحة ﴿ ولو أهم اذ ظلموا أنفسهم ﴾ الآية ، وفى الثانية ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيا ﴾ ويستغفر بعد الركعتين مرات ، ثم يستفتح الصلاة بركعتين خفيفتين إن أراد ، يقرأ فيهما بآية الكرسي وآمن الرسول وإن أراد غير ذلك ، ثم يصلى ركعتين طويلتين : هكذا روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يتشهد هكذا . ثم يصلى ركعتين طويلتين أقصر من الأوليين ، وهكذا يتدرج إلى أن يصلى اثنتى عشرة ركعة أو ثمان ركعات ، أو يزيد على ذلك ، فإن فى ذلك فضلا كثيرا . والله أعلم .

الباب الثامن والأربعون : فى تقسيم قيام الليل

قال الله تعالى ﴿ والذين يبیتون لربهم سجدا وقياما ﴾ وقيل فى تفسیر قوله تعالى ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعین جزاء بما كانوا يعملون ﴾ كان عملهم قیام اللیل . وقيل فى تفسیر قوله تعالى ﴿ استعینوا بالصبر والصلاة ﴾ : استعینوا بصلاة اللیل على مجاهدة النفس ومصاربة العدو وفى الخبر « عليكم بقيام الليل فإنه من رضى لربكم وهو دأب الصالحين قبلكم ومنهاة عن الإثم وملغاة للوزر ومذهب كيد الشيطان ومطردة للداء عن الجسد » .

وقد كان جمع من الصالحين يقومون الليل كله ، حتى نقل ذلك عن أربعين من التابعين كانوا يصلون الغداة

بوضوء المشاء : منهم سعيد بن المسيب ، وفضيل بن عياض ، وهيب بن الفرات ، وأبو سليمان الداراني ، وعلي بن بكار وحبيب العجمي ، وكهمس بن المنهال ، وأبو حازم ، ومحمد بن المنكدر ، وأبو حنيفة رحمه الله تعالى ، وغيرهم عدهم وسامهم بأنسابهم الشيخ أبو طالب المكي في كتابه قوت القلوب ، فمن عجز عن ذلك يستحب له قيام ثلثيه أو ثلثه . وأقل الاستحباب سدس الليل ، فيما أن ينام تلك الليل الأول ويقوم نصفه وينام سدسه الآخر ، أو ينام النصف الأول ويقوم ثلثه ، أو ينام السدس .

روى أن دارود عليه السلام قال : يارب إني أحب أن أعبداك ، فأى وقت أقوم ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا داود لا تقم أول الليل ولا آخره ، فإنه من قام أوله نام آخره ، ومن قام آخره نام أوله . ولكن قم وسط الليل حتى تخلو بي وأخلو بك ، وارفع إلى حوائجك .

ويكون القيام بين نومتين ، وإلا فيغالب النفس من أول الليل ويتفعل ، فإذا غلبه النوم ينام ، فإذا انتبه يتوضأ فيسكون له قومتان ونومتان ، ويكون ذلك من أفضل ما يفعله ، ولا يصلي وعنده نرم يشغله عن الصلاة والتلاوة حتى يعقل ما يقول ، وقد ورد : لا تكابدوا الليل .

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فلاة تصلى من الليل ، فإذا غلبها النوم تعلقت بحبل ، فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال : ليصل أحدكم من قليل ما تيسر ، فإذا غلبه النوم فليتم . وقال عليه السلام : لا تشادوا هذا الدين فإنه متين فمن يشاده يغلبه ، ولا تبغضن إلى نفسك عبادة الله .

ولا يليق بالطالب ولا ينبغي له أن يطلع الفجر وهو نائم إلا أن يكون قد سبق له في الليل قيام طويل فيعذر في ذلك ، على أنه إذا استيقظ قبل الفجر بساعة مع قيام الليل سبق في الليل يكون أفضل من قيام طويل ، ثم النزم إلى بعد طلوع الفجر ، فإذا استيقظ قبل الفجر يكثر الاستغفار والتسبيح ويعتزم تلك الساعة ، وكلما يصلي بالليل يجلس قليلا بعد كل ركعتين ويسبح ويستغفر ويصلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه يجد بذلك ترويحاً وقوة على القيام . وقد كان بعض الصالحين يقول : هي أول نومة ، فإن انتهت ثم عدت إلى نومة أخرى فلا أمام الله عني . وحكى لي بعض الفقهاء عن شيخ له أنه كان يأمر الأصحاب بنومة واحدة بالليل ، وأكلة واحدة لليوم واللييلة .

وقد جاء في الخبر : قم من الليل ولو قدر حلب شاة ، وقيل : يكون ذلك قدر أربع ركعات وقدر ركعتين .

وقيل في تفسير قوله تعالى ﴿ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) هو قيام الليل ومن حرم قيام الليل كسلا وفتورا في العزيمة أو تهاونا به لقلة الاعتداد بذلك أو اغترار بحاله ، فليكن عليه فقد قطع عليه طريق كبير من الخير ، وقد يكون من أرباب الأحوال من يكون له إيواء إلى القرب ويجد من دعة القرب ما يفر عليه داعية الشوق ويرى أن القيام وقوف في مقام الشوق ، وهذا يغلب فيه ويهلك به خلق من المدعين ، والذي له ذلك ينبغي أن يعلم أن استمرار هذه الحالة متعذر ، والإنسان متعرض للقصور والتخلف والشبهة ، ولا حالة أجل من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما استغنى عن قيام الليل ، قام حتى تورمت قدماء . وقد يقول بعض من يحتاج في ذلك : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك تشريفاً ، فنقول : ما بالنا لا نتبع تشريعه ، وهذه دقيقة ، فتعلم أن رؤية الفضيلة في ترك القيام وادعاء الإيواء إلى جناب القرب واستواء النوم واليقظة : امتلاء وابتلاء حال ، وهو تقييد بالحال وتحيكيم للحال وتحكم من الحال في العبد ، والأفوياء لا يتحكم فيهم الحال ويصرفون الحال في صور الأعمال ، فهم متصرفون في الحال لا الحال متصرف فيهم ، فليعلم ذلك فإننا رأينا من الأصحاب من كان في ذلك ثم انكشف لنا بتأييد الله تعالى أن ذلك وقوف وقصور .

قيل للحسن : يا أبا سعيد إني أبيت معافى وأحب قيام الليل وأعد طهوري ، فما بالي لا أقوم ؟ قال : ذنوبك قيدتك ، فليحذر العبد في نهاره ذنوباً تقيد به في ليله .

وقال النويري رحمه الله : حرمت قيام الليل سبعة أشهر بذنوب أذنبته ، فقيل له : ما كان الذنب ؟ قال : رأيت

رجلا بكاء ؛ فقلت في نفسي : هذا مرأه .

وقال بعضهم : دخلت على كرز بن وبرة وهو يبيكي ، فقلت : ما بالك أتاك نعي بعض أهلك ؟ فقال : أشد فقلت : وجع يؤمك ؟ قال : أشد . فقلت : وما ذاك ؟ قال : بابي مغلق وسرتى مسبل ولم أقرأ حزبي البارحة وما ذاك إلا يذنب أحدثته .

وقال بعضهم : الاحتلام عقوبة ، وهذا صحيح ، لأن المراعى المتحفظ بحسن تحفظه وعلمه بحاله : يقدر ويتمكن من سد باب الاحتلام ، ولا يتطرق للاحتلام إلا على جاهل بحاله أو مهمل حكم وقته وأدب حاله . ومن كل تحفظه ورعايته وقيامه بأدب حاله قد يكون من ذنبه الموجب للاحتلام : وضع الرأس على الوسادة إذا كان ذا عزية في ترك الوسادة وقد يتمهد للنوم . ووضع الرأس على الوسادة بحسن النية من لا يكون ذلك ذنبه وله فيه نية للعون على القيام ، وقد يكون ذلك ذنبا بالنسبة إلى بعض الناس ، فإذا كان هذا القدر يصلح أن يكون ذنبا جالبا للاحتلام فقس على هذا ذنوب الأحوال فإنها تختص بأربابها ويعرفها أصحابها ، وقد يرتفق بأنواع الرفق من الفراش الرطوب والوسادة ولا يعاقب بالاحتلام وغيره على فعله إذا كان عالما بذانية يعرف مداخل الأمور ومخارجها . وكمن من تأم يسبق القائم لو فور علمه وحسن نيته ، وفي الخبر : إذا نام العبد عقد الشيطان على رأسه ثلاث عقد ، فإن قعد وذكر الله تعالى انحلت عقدة وإن توضأ انحلت عقدة أخرى ، وإن صلى ركعتين انحلت العقد كلها وأصبح نشيطا طيب النفس ، وإلا أصبح كسلان خبيث النفس .

وفي خبر آخر : إن من نام حتى يصبح بال الشيطان في أذنه ، والذي يخل بقيام الليل : كثرة الاهتمام بأمور الدنيا ، وكثرة أشغال الدنيا ، ولأنعاب الجوارح ، والامتلاء من الطعام ، وكثرة الحديث ، واللغو واللفظ ، وإهمال القيولة . والموفق من يغتنم وقته ويعرف داءه ودواءه ولا يهمل فيهمل .

الباب التاسع والاربعون : في استقبال النهار والادب فيه والعمل

قال الله تعالى (وأقم الصلاة طرفي النهار) أجمع المفسرون على أن أحد الطرفين أراد به الفجر وأمر به صلاة الفجر . واختلافوا في الطرف الآخر ، قال قوم : أراد به المغرب . وقال آخرون : صلاة العشاء . وقال قوم : صلاة العجر والظهر طرف . وصلاة العصر والمغرب طرف (وزلفا من الليل) صلاة العشاء ، ثم إن الله تعالى أخبر عن عظيم بركة الصلاة وشرف قائمتها ومثمرتها وقال (إن الحسنات يذهبن السيئات) أي الصلوات الخمس يذهبن الخطيئات . وروى أن أبا اليسر كعب بن عمرو الأنصاري كان يبيع النمر ، فأنت امرأة تبتاع تمرا ، فقال لها : إن هذا النمر ليس بجيد ، وفي البيت أجود منه ، فهل لك فيه رغبة ؟ قالت : نعم ، فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها ، فقالت له : اتق الله ، فتركها وندم ، ثم أتى النبي عليه السلام وقال : يا رسول الله ، ما تقول في رجل اراد امرأة عن نفسها ولم يق شيء مما يفعل الرجال بالنساء إلا ركه غير أنه لم يجامعها ؟ قال عمر بن الخطاب : لقد ستر الله عليك لو سترت على نفسك ؟ ولم يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه شيئا وقال : أنتظر أمر ربى ، وحضرت صلاة العصر وصلى النبي عليه الصلاة والسلام العصر ، فلما فرغ أتاه جبريل بهذه الآية ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : « ابن أبو اليسر ؟ » فقال هاأنذا يا رسول الله . قال : شهدت معنا هذه الصلاة ؟ قال : نعم . قال : وذهب فإنها كفارة لما عملت ، فقال عمر : يا رسول الله هذا له خاصة أو لنا عامة ؟ فقال : بل للناس عامة ، فيستعد العبد لصلاة الفجر باستكمال الطهارة قبل طلوع الفجر ، ويستقبل الفجر بتجديد الشهادة كما ذكرنا في أول الليل ، ثم يؤذن إن لم يكن أجاب المؤذن ، ثم يصلى ركعتي الفجر : يقرأ في الأولى بعد الفاتحة (قل يا أيها الكافرون) وفي الثانية (قل هو الله أحد) وإن أراد قرأ في الأولى (قولوا آمنا بالله وما أنزل . . الآية) في سورة البقرة . وفي الأخرى (ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول . .) ثم يستغفر الله ويسبح الله تعالى بما يتيسر له من العدد ، وإن اقتصر على كلمة : أستغفر الله لذنبي ، سبحانه الله بحمد ربى : أتى بالمقصود من التسبيح

والاستغفار . ثم يقول : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها شملتي وتلم بها شعئي وترد بها الفتن عني وتصلح بها ديني وتحفظ بها غايي وترفع بها شاهدي وتزكي بها عملي وتبيض بها وجهي وتلقني بها رشدي وتعصمني بها من كل سوء واللهم أعطني إيمانا صادقا وبقينا ليس بعده كفر ، ورحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة ، اللهم إني أسألك الفوز عند القضاء ، ومنازل الشهداء ، وعيش السعداء ، والنصر على الأعداء ، ومرافقة الأنبياء ، اللهم إني أنزل بك حاجتي وإن قصر رأيي وضعف عملي وافترقت إلى رحمتك ، وأسألك بإفاضتي الأمور وإشافي الصدور ، كما تجير بين البحور - أن تجيرني من عذاب السعير ، ومن دعوة الشبور ومن فتنة القبور ، اللهم ما قصر عنه رأيي وضعف فيه عملي ولم تبلغه نيتي وأمنيقي - من خير وعدته أحدا من عبادك أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك - فأنا راغب إليك فيه وأسألك إياه يارب العالمين . اللهم اجعلنا هادين مهدين غير ضالين ولا مضلين ، حرا لأعدائنا وسلا لأوليائنا ، نحب بحبك الناس ونعادي بعداوتك من خالفك من خلقك . اللهم هذا الدعاء مني ومنك الإجابة ، وهذا الجهد وعليك التكفلان ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ذي الجلال الشديد والأمر الرشيد ، أسألك الأمان يوم الوعيد ، والجنة يوم الخلود ، مع المقربين الشهود والركع السجود والموفين بالعهود ، إنك رحيم ودود ، وأنت تفعل ما تريد ، سبحان من تعطف بالعز وقال به ، سبحان من لبس المجد وتمكرم به ، سبحان الذي لا ينبغي التسبيح إلا له ، سبحان ذي الفضل والنعم ، سبحان ذي الجود والكرم ، سبحان الذي أحصى كل شيء بعلمه ، اللهم اجعل لي نورا في قلبي ونورا في قبري ، ونورا في سمعي ، ونورا في بصري ، ونورا في شعري ، ونورا في بشري ، ونورا في لحمي ونورا في دمي ، ونورا في عظامي ونورا من بين يدي ، ونورا من خلفي ، ونورا عن يميني ، ونورا عن شمالي ، ونورا من فوق ، ونورا من تحتي . اللهم زدني نورا وأعطني نورا ، واجعل لي نورا . ولهذا الدعاء أثر كبير . وما رأيت أحدا حافظ عليه إلا وعنده خير ظاهر وبركة ، وهو من وصية الصادقين بعضهم بعضا بحفظه والحفاظة عليه ، منقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ ويهين الفريضة والسنة من صلاة الفجر ، ثم يقصد المسجد للصلاة في الجماعة ويقول عند خروجه من منزله ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا﴾ ويقول في الطريق : اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق منشاى هذا إليك فأني لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك ، أسألك أن تنقذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، وروى أبو سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من قال ذلك إذا خرج إلى الصلاة وكل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له وأقبل الله تعالى عليه بوجهه الكريم حتى يقضى صلاته .

وإذا دخل المسجد أو أدخل سجاده للصلاة يقول : بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك ، ويقدم رجله اليمنى في الدخول واليسرى في الخروج من المسجد أو السجادة ، فسجادة الصوفي بمنزلة البيت والمسجد ، ثم يصلي صلاة الصبح في جماعة : فإذا سلم يقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده ، لا إله إلا الله أهل النعمة والفضل والثناء الحسن ، لا إله إلا الله ولا تعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، ويقرأ : هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم التسعة والتسعين اسما إلى آخرها ، فإذا فرغ منها يقول : اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمامي وعلى آل محمد صلاة تكون له رضاء ولحقة أداء ، وأعطه الوسيلة والمقام المحمود الذي وعدته ، واجزه عنا ما هو أهله ، واجزه عنا أفضل ما جازيت نبيا عن أمته ، وصل على جميع إخوانه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . اللهم صل على محمد في الأولين ، وصل على محمد في الآخرين ، وصل على محمد إلى يوم الدين ، اللهم صل على روح محمد في الأرواح ، وصل على جسد محمد في الأجساد ، واجعل شرائف صلواتك ونوامي بركاتك ورأفتك

ورحمته وتوحيده ورضوانك على محمد عبدك ونبيك ورسولك ، اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يعود السلام
لحيننا ربنا بالسلام وأدخلنا دار السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام . اللهم إني أصبحت لأستطيع دفع ما أكره
ولا أملك نفع ما أرجو وأصبح الأمر بيد غيري وأصبحت مرتبتها بعمل ، فلا فقير أفقر مني ، اللهم لا تشمت بي
عدوى ولا تسيء بي صديقي ، ولا تجعل مصيبتى في ديني ولا تجعل الدنيا أكبر همي ، ولا تسلط علي من لا يرحمني ،
اللهم هذا خلق جديد فافتحه علي بطاعتك واختمه لي بمغفرتك ورضوانك وارزقني فيه حسنة تقبلها مني وزكها
وضعفها ، وما عملت فيه من سيئة فاغفر لي إنك غفور رحيم ودود ، رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله
عليه وسلم نبياً ، اللهم إني أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه وأعوذ بك من شره وشر ما فيه ، وأعوذ بك من شر
طوارق الليل والنهار ومن بغتات الأمور ونجاة الأقدار ومن شر كل طارق يطرق إلا طارقاً يطرق منك بخير
يارحم الله الدنيا والآخرة ورحيمهما ، وأعوذ بك أن أزل أو أزل أو أضل أو أضل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو أجهل
علي ، عز جارك وجل ثناؤك وتقدست أسماؤك وعظمت نعمائك ، أعوذ بك من شر ما يلج في الأرض وما يخرج منها
وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، أعوذ بك من حدة الحرص وشدة الطمع وسورة الغضب وسنة الغفلة وتغاطي
الكلمة ، اللهم إني أعوذ بك من مباهاة المكثرين ، والإضرار على المقلين ، وأن أنصر ظالماً أو أظلم مظلوماً ، وأن
أقول في العلم بغير علم ، أو أعمل في الدين بغير يقين ، أعوذ بك أن أشرك بك وأما أعلم وأستغفر لك لما لا أعلم ، أعوذ
بغفرك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، اللهم
أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وابن عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر
ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي ، فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، اللهم اجعل أول يومنا هذا
صالحاً وآخره نجحاً وأوسطه فلاحاً ، اللهم اجعل أول رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكملة ، أصبحنا وأصبح الملك لله
والعظمة والكبرياء لله والجبروت والسلطان لله والليل والنهار وما سكن فيهما الله الواحد القهار ، أصبحنا على فطرة
الإسلام وكلمة الإخلاص وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ،
اللهم إنا نسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الختان المنان بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام ، أنت الأحد
الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، يا حي يا قيوم ، يا حي حين لا حي في ديمرمة ملكه وبقائه ، يا حي
حي الموتى ، يا حي يميت الأحياء ووارث الأرض السماء ، اللهم إني أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم وباسمك الله
لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، اللهم إني أسألك باسمك الأعظم الأجل الأعز الأكرم الذي إذا
دعيت به أجبت وإذا سئلت به أعطيت ، يا نور النور يا مدير الأمور يا عالم ما في الصدور ، يا سميع يا قريب يا مجيب الدعاء
يا لطيفاً ما يشاء ، يا رءوف يا رحيم يا كبير يا عظيم يا الله يارحمنا يا ذا الجلال والإكرام ، ألم لا إله إلا هو الحي القيوم
وعزت الوجوه الحي القيوم ، يا إلهي وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت ؛ اللهم إني أسألك باسمك يا الله يا الله
الله الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم ، فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم أنت الأول والآخر
والظاهر والباطن وسعت كل شيء رحمة وعلماً ، كهيعص حم عسق الرحمن إن يا واحد يا قهار يا عزيز يا جبار ، يا أحد
يا صمد يا ودود يا غفور ، وهو الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، لا إله إلا أنت سبحانك
إني كنت من الظالمين ، اللهم إني أعوذ باسمك المسكنون المخزون المنزل السلام المطهر الطاهر القدوس المقدس . يا دهر
يا ديمور يا ديهار يا أبد يا أزل يا من لم يزل ولا يزال هو يا هو لا إله إلا هو ، يا من لا هو إلا هو ، يا من
لا يعلم ما هو إلا هو ، يا كان يا كينان يا روح يا كائن قبل كل كون ، يا كائن بعد كل كون ، يا مكنونا لكل كون ، أها
شراها أدوناي أصبوت . يا مجلى عظام الأمور (فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش
العظيم) (ليس كمثل شيء وهو السميع البصير) اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل
إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم إني أعوذ بك من

علم لا ينفع قلب لا يخشع ودعاء لا يسمع ، اللهم إني أعوذ بك من فتنة الدجال وعذاب القبر ومن فتنة الحيا والممات ، اللهم إني أعوذ بك من شر ما علمت وشر ما لم أعلم ، وأعوذ بك من شر سمعي وبصري ولساني وقلي ؛ اللهم إني أعوذ بك من القسوة والغفلة والذل والمسكنة ، وأعوذ بك من الفقر والكفر والفسوق والشقاق والنفاق وسوء الاخلاق وضيق الارزاق والسمعة والرياء ، وأعوذ بك من الصمم والبكم والجنون والجذام والبرص وسائر الاسقام ، اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ومن تحويل عافيتك ومن لجأة قمتك ومن جميع خطئك ، اللهم إني أسألك الصلاة على محمد وعلى آل محمد وأسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم ، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم ، وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل ، وأسألك عبدك ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، وأسألك مما استعاذك منه عبدك ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، وأسألك ما فضيت لي من أمر أن تجعل عاقبته رشدا برحمتك يا أرحم الراحمين ، يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث لا تسكنني إلى نفسي طرفة عين ، وأصلح لي شأني كله يا نور السموات والأرض يا جمال السموات والأرض ، يا عماد السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام ، يا صريح المستصرخين ، يا غوث المستغيثين ، يا منتهى رغبة الراغبين والمفرج عن المكروبين والمروح عن المغموين ومجيب دعوة المضطرين وكاشف السوء وأرحم الراحمين وإله العالمين ، منزل بك كل حاجة يا أرحم الراحمين ، اللهم استر عورائي وآمن روعاتي وأقلني عثراتي ، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي ، وأعوذ بك أن أغتال من تحتي . اللهم إني ضعيف فقو في رضاك ضعفي ، ونخذ إلى الخير بناصيتي ، واجعل الإسلام منتهى رضائي ، اللهم إني ضعيف فقو ، اللهم إني ذليل فأعزني ، اللهم إني فقير فأغنني برحمتك يا أرحم الراحمين ، اللهم إني أسألك من غيري وعلايتي فاقبل معذرتي ، وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي ، وتعلم ما في نفسي فأغفر لي ذنوبي ، اللهم إني أسألك إيمانا يبارك قلبي ، ويتيننا صادقا حتى أعلم أنه لن يصينني إلا ما كتب لي ، والرضا بما قسمت لي يا ذا الجلال والإكرام .

اللهم باهادي المضلين وياراحم المذنبين ومقبل عشرة العائرين ، ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين ، واجعلنا مع الأحياء المزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، آمين يا رب العالمين اللهم عالم الغيبات رفيع الدرجات ، تلقى الروح بأمرك على من تشاء من عبادك غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذا الطول لا إله إلا أنت الوكيل وإليك المصير ، يا من لا يشغله شأن عن شأن ولا يشغله سمع عن سمع ، ولا تشبه عليه الأصوات ، وبامن لا تغاظه المسائل ولا تختلف عليه اللذات ، وبامن لا يتبرم بالخالص الملحين . أذقني برد عفوك وحلاوة رحمتك ؛ اللهم إني أسألك قلبا سليما ولسانا صادقا وعملا متقبلا ، أسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأستغفرك لما تعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب . اللهم إني أسألك إيمانا لا يرتد ، ونعيا لا ينفد ، وقرة عين الأبد ، ومرافقة نبيك محمد ، وأسألك حبك وحب من أحبك ، وحب عمل يقرب إلى حبك . اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على خلقك ، أحييني ما كانت الحياة خيرا لي ، وتوفني ما كانت الوفاة خيرا لي ، أسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وكلمة العدل في الرضا والغضب ، والقصد في الغنى والفقر ، ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك ، وأعوذ بك من ضراء مضرة وفتنة مضلة . اللهم اقسمني من خشيتك ما تحول به بيني وبين معصيتك ، ومن طاعتك ما يدخلي جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا . اللهم ارزقنا حزن خوف الوعيد وسرور رجاء الموعود حتى نجد لذة ما نطلب وخوف ما منه نهرب ، اللهم ألبس وجوهنا منك الحياء واملأ قلوبنا بك فرحا ، وأسكن في نفوسنا من عظمتك مهابة ، وذلل جوارحنا لحديثك ، واجعلك أحب إلينا مما سواك ؛ واجعلنا أخشى لك من سواك ، نسألك تمام التعمة بتام الثوبة ، ودوام الغافية بدوام العصمة ، وأداء الشكر بحسن العباداة ، اللهم إني أسألك بركة الحياة وخير الحياه ، وأعوذ بك من شر الحياه وشر الوفاة . وأسألك خير ما بينهما ، أحييني حياة السعداء : حياة من تحب بقاءه . وتوفني وفاة الشهداء : وفاة من تحب لقاءه ، يا خير الرازقين وأحسن التوايين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين

و رب العالمين ، اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد وارحم ما خلقت واغفر ما قدرت وطيب ما رزقت ونعم ما أنعمت وتقبل ما استعملت واحفظ ما استحفظت ولا تهتك ما سترت فإنه لا إله إلا أنت ، أستغفرك من كل لغة بغير ذكرك ومن كل راحة بغير خدمتك ومن سرور بغير قربك ، ومن كل فرح بغير محاسنتك ومن كل شغل بغير معاملتك ، اللهم إني أستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه ، اللهم إني أستغفرك من كل عقد عقدته ثم لم أوف به ، اللهم إني أستغفرك من كل نعمة أنعمت بها علي ففوت بها على معصيتك ، اللهم إني أستغفرك من كل عمل عملته لك غفلة ما ليس لك ، اللهم إني أسألك أن تصلي على محمد وعلى آل محمد وأسألك جوامع الخير وفوائده وخواتمه ، وأعوذ بك من جوامع الشر وفوائده وخواتمه ، اللهم احفظنا فيما أمرتنا واحفظنا عما نهيتنا واحفظ لنا ما أعطيتنا ، يا حافظ الحافظين ، ويا ذاكرذاكرين ، ويا شاكر الشاكرين ، بذكرك ذكرنا ، وبفضلك شكرنا ، يا غياث يا مغيث ، يا مستغاث يا غياث المستغيثين ، لا تكن لي نفسى طرفة عين فاهلك ، ولا لي أحد من خلقك فاضيع ، إلا كلاًني كلامه الوليد ، ولا تحل عني ، وتولني بما تتولى به عبادك الصالحين ، أنا عبدك وابن عبدك ناصيتي بيدك ، جار في حركك ، عدل في قضاؤك ، نافذ في مشيئتك ؛ إن تعذب فاهل ذلك أنا ، وإن ترحم فاهل ذلك أنت ، فافعل اللهم يا مولاي يا الله يا رب ما أنت له أهل ولا تفعل اللهم يا رب يا الله ما أنا له أهل ، إنك أهل التقوى وأهل المغفرة ؛ يا من لا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة ، هب لي ما لا يضرك وأعطني ما لا ينقصك ، يا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين توفى مسلماً وألحقني بالصالحين ، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً ، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، وارزقنا العون على الطاعة ، والعصمة من المعصية ، وإفراغ الصبر في الخدمة ، وإبذاع الشكر في النعمة ، وأسألك حسن الخاتمة ، وأسألك اليقين وحسن المعرفة بك ، وأسألك المحبة وحسن التوكل عليك ، وأسألك الرضا وحسن الثقة بك ، وأسألك حسن المنقلب إليك ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأصلح أمة محمد ، اللهم ارحم أمة محمد ، واللهم فرج عن أمة محمد فرجاً عاجلاً ، ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ، اللهم اغفر لي ولوالدي وللمسلمين وأرحمهم بما كانوا رباني صغيراً ، واغفر لأعمامنا وعماتنا ، وأخواننا وخالاتنا وأزواجنا وذرياتنا ولجميع المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات يا أرحم الراحمين يا خير الغافرين .

ولما كان الدعاء من العباد أحبنا أن نستوفي من ذلك قسماً صالحاً نرجو ركنه ، وهذه لادعية استخرجها الشيخ أبو طالب المكي رحمه الله في كتابه قوت القلوب ، وعلى نقله كل الاعتماد وفيه البركة ، فليدعهم هذه الدعوت منفرداً أو في الجماعة ، إماماً أو مأموماً ويختصر منها ما يشاء .

الباب الخمسون : في ذكر العمل في جميع النهار وتوزيع الأوقات

فمن ذلك أن يلازم موضعه الذي صلى فيه الفجر مستقبل القبلة ، إلا أن يرى انتقاله إلى رواتبه أسلم لدينه أثلاً يحتاج إلى حديث أو التفات إلى شيء ؛ فإن السكون في هذا الوقت وترك الكلام له أثر ظاهر بين يحمده أهل المعاملة وأرباب القلوب . وقد ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك ، ثم يقرأ الفاتحة وأول سورة البقرة إلى المفاجون ، والآيتين : وإلهمك إله واحد ، وآية الكرسي والآيتين بعدها ، وآمن الرسول والآية قبلها ، وشهد الله ، وقل اللهم مالك الملك ، وإن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض - إلى - المحسنين ، ولقد جاءكم رسول إلى الآخر ، وقل ادعوا الله الآيتين ، وآخر الكهف من : إن الذين آمنوا - إلخ وذا النون إذ ذهب مغاضباً - إلى - خير الوارئين فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وسبحان ربك إلى آخر السورة ، ولقد صدق الله ، وأول سورة الحديد - إلى - بذات الصدور ، وآخر سورة الحشر من لو أنزلنا ، ثم يسبح ثلاثاً وثلاثين ، وهكذا يحمده مثله ، ويكبر مثله ؛ ويتمها

مائة بلا إله إلا الله وحده لا شريك له ، فإذا فرغ من ذلك يشتغل بتلاوة القرآن حفظاً أو من المصحف ، أو يشتغل بأنواع الأذكار ، ولا يزال كذلك من غير فتور وقصور ونعاس ، فإن النوم في هذا الوقت مكروه جداً ، فإن غلبه النوم فليقيم في مصلاه قائماً مستقبل القبلة ، فإن لم يذهب النوم بالقيام يخط خطوات نحو القبلة ويتأخر بالخطوات كذلك ، ولا يستدبر القبلة ، ففي إدامة استقبال القبلة وترك الكلام والنوم ودوام الذكر في هذا الوقت : أثر كبير وبركة غير قليلة . وجدنا ذلك بحمد الله ونوصي به الطالبين ، وأثر ذلك في حق من يجمع في الأذكار بين القلب واللسان أكثر وأظهر ، وهذا الوقت أول النهار - والنهار مظنة الآفات - فإذا أحكم أوله بهذه الرعاية فقد أحكم بنيانه وتبني أوقات النهار جميعاً على هذا البناء ؛ فإذا قارب طلوع الشمس ابتدئ بقراءة المسبوعات العشر وهي من تعليم الخضر عليه السلام عليها إبراهيم النعمي وذكر أنه تعلمها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينال بالمداومة عليها جميع المنفرد في الأذكار والدعوات ، وهي عشرة أشياء : سبعة سبعة : الفاتحة ، والمعوذتان ، وقل هو الله أحد ، وقل يا أيها الكافرون ، وآية الكرسي ، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، والصلاة على النبي وآله ، ويستغفر لنفسه ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات ، ويقول سبعا : اللهم افعل بي وبهم عاجلاً وآجلاً في الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل ، ولا تفعل بنا يا مولانا ما نحن له أهل إنك غفور حلیم جواد كريم رؤوف رحيم .

وروي أن إبراهيم النعمي لما قرأ هذه بعد أن تعلمها من الخضر رأى في المنام أنه دخل الجنة ورأى الملائكة والأنبياء عليهم السلام وأكل من طعام الجنة . وقيل : إنه مكث أربعة أشهر لم يطعم . وقيل : لعله كان ذلك لكونه أكل من طعام الجنة ، فإذا فرغ من المسبوعات أقبل على التيسيح والاستغفار والتلاوة إلى أن تطلع الشمس قدر ربح روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لأن أقعد في مجلس أذكر الله فيه من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب » ثم يصلي ركعتين قبل أن ينصرف من مجلسه ، فقد نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يصلي الركعتين ، وبهاتين الركعتين تقبيل فائدة رعاية هذا الوقت ، وإذا صلى الركعتين يجمع هم وحضور فهم وحسن تدبر لما يقرأ يجد في باطنه أنواراً ونوراً وروحاً وأنساً إذا كان صادقاً ، والذي يجده من البركة ثواب معجل له على عمله هذا ، في الأولى آية الكرسي ، وفي الأخرى آمن الرسول والله نور السموات والأرض إلى آخر الآية ، وتكون نيته فيها الشكر لله على نعمه في يومه وليلته ، ثم يصلي ركعتين آخرين يقرأ المعوذتين فيها في كل ركعة سورة ، وتكون صلاته هذه ليستعيد بالله تعالى من شر يومه وليلته ، ويذكر بعد هاتين الركعتين كلمات الاستعاذة فيقول : أعوذ باسمك وكلبتك التامة من شر السامة والحامة ، وأعوذ باسمك وكلبتك التامة من شر عذابك وشر عبادك ، وأعوذ باسمك وكلبتك التامة من شر ما يجري به الليل والنهار إن ربّي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم .

ويقول بعد الركعتين الأوليين . اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ولا أملك نفع ما أرجو ، وأصبحت مرتهناً بممل وأصبح أمرى بيد غيري فلا فقير أفقر مني ، اللهم لا تشمت بي عدوى ولا تسيء بي صديق ، ولا تجعل مصيبتى في ديني ، ولا تجعل الدنيا أكبر همي ولا مبلغ علمي ، ولا تسلط على من لا يرحمني ، اللهم إني أعوذ بك من الذنوب التي تزيل النعم ، وأعوذ بك من الذنوب التي توجب النقم ، ثم يصلي ركعتين آخرين بنية الاستخارة لكل عمل يعمل في يومه وليلته ، وهذه الاستخارة تكون بمعنى الدعاء على الإطلاق ؛ وإلا فلا استخارة التي وردت بها الأخبار هي التي يصليها أمام كل أمر يريد ، ويقرأ في هاتين الركعتين (قل يا أيها الكافرون) و (قل هو الله أحد) ويقرأ دعاء الاستخارة كما سبق ذكره في غير هذا الباب ، ويقول فيه : كل قول وعمل أريده في هذا اليوم اجعله في الخير ثم يصلي ركعتين آخرين يقرأ في الأولى سورة الواقعة وفي الأخرى سورة الأعلى ، ويقول بعدها : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، واجعل حبك أحب الأشياء إلى وخشيتك أخوف الأشياء عندي ، واقطع عني حاجات الدنيا بالاشوق إلى لقاءك ، وإذا أقررت أعين أهل الدنيا بدنياهم فأقرر عيني بعبادتك ، واجعل طاعتك في كل شيء يا أرحم الراحمين ،

ثم يصلي بعد ذلك ركعتين يقرأ فيهما شيئاً من حزبه من القرآن ، ثم بعد ذلك إن كان متفرغاً ليس له شغل في الدنيا ينتقل في أنواع العمل من الصلاة والتلاوة والذكر إلى وقت الضحى ، وإن كان ممن له في الدنيا شغل إما لنفسه أو لعياله فليمض لحاجته ومهامه بعد أن يصلي ركعتين لخروجه من المنزل ؛ وهكذا ينبغي أن يفعل أبداً لا يخرج من البيت إلى جهة إلا بعد أن يصلي ركعتين ليقية الله سوء المخرج ، ولا يدخل البيت إلا ويصلي ركعتين ليقية الله سوء المدخل بعد أن يسلم على من في المنزل من الزوجة وغيرها ؛ وإن لم يكن في البيت أحد يسلم أيضاً ويقول السلام على عباد الله الصالحين المؤمنين . وإن كان متفرغاً فأحسن أشغاله في هذا الوقت إلى صلاة الضحى الصلاة ؛ فإن كان عليه قضاء صلى صلاة يوم أو يومين أو أكثر ، وإلا فليصل ركعات يطوقها ويقرأ فيها القرآن ؛ فقد كان من الصالحين من يختم القرآن في الصلاة بين اليوم واللييلة ، وإلا فليصل أعداداً من الركعات خفيفة بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد وبآيات التي في القرآن وفيها الدعاء مثل قوله تعالى ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾ وأمثال هذه الآية يقرأ في كل ركعة آية منها إما مرة أو يكررها مهما شاء ، ويقدر للطالب أن يصلي بين الصلاة التي ذكرناها بعد طلوع الشمس وبين صلاة الضحى مائة ركعة خفيفة ، وقد كان في الصالحين من ورده بين اليوم واللييلة مائة ركعة إلى مائتين إلى خمسمائة إلى ألف ركعة ، ومن ليس له في الدنيا شغل وقد ترك الدنيا إلى أهلها فما باله يبطل ولا يتنعم بخدمة الله تعالى قال سهل بن عبد الله التستري : لا يكل شغل قلب عبد بالله الكريم وله في الدنيا حاجة .

فإذا ارتفعت الشمس وتنصف الوقت من صلاة الصبح إلى الظهر كما يتنصف العصر بين الظهر والمغرب يصلي الضحى ؛ فهذا الوقت أفضل الأوقات لصلاة الضحى . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صلاة الضحى إذا رمضت الغصال ، وهو أن ينام الفصيل في ظل أمه عند حوز الشمس . وقيل الضحى إذا ضحيت الأقدام بحر الشمس ؛ وأقل صلاة الضحى ركعتان ، وأكثرها اثنتا عشرة ركعة ، ويجعل لنفسه دعاء بعد كل ركعتين ، ويسبح ويستغفر ؛ ثم بعد ذلك إن كان هناك حق يقضى مما ندب إليه من زيارة أو عيادة يمضي فيه ، وإلا فيديم العمل لله تعالى من غير فتور إما ظاهراً أو باطناً قلباً وقالبا ، وإلا فباطناً ؛ وترتيب ذلك : أنه يصلي مادام منشراحاً ونفسه مجيبة ، فإن سئم ينزل من الصلاة إلى التلاوة ، فإن مجرد التلاوة أخف على النفس من الصلاة ، فإن سئم التلاوة أيضاً يذكر الله بالقلب واللسان فهو أخف من القراءة ، فإن سئم الذكر يدع ذكر اللسان ويلزم بقلبه المراقبة ، والمراقبة علم القلب بنظر الله تعالى إليه فما دام هذا العلم ملازم لقلبه فهو مراقب ، والمراقبة عين الذكر وأفضله ، فإن عجز عن ذلك أيضاً وتمسكته الوسواس وتراحم في باطنه حديث النفس فليمن في النوم طرد حديث النفس وبه يقسى القلب ككثرة الكلام لأنه كلام من غير لسان فيحترز عن ذلك . قال سهل بن عبد الله أسوأ المعاصي حديث النفس ، والطالب يريد أن يعتبر بباطنه كما يعتبر بظاهره ، فإنه بحديث النفس وما يتخايل له من ذكر ماضى ورأى وسمع كشخص آخر في باطنه ، فيقيد الباطن بالمراقبة والرعاية كما يقيد الظاهر بالعمل وأنواع الذكر ، ويمكن للطالب المجتد أن يصلي من صلاة الضحى إلى الاستواء مائة ركعة أخرى ، وأقل من ذلك عشرون ركعة يصليها خفيفة ، أو يقرأ في كل ركعتين جزءاً من القرآن أو أقل أو أكثر .

والنوم بعد الفراغ من صلاة الضحى وبعد الفراغ من أعداد آخر من الركعات حسن . قال سفيان : كان يعجبهم إذا فرغوا أن يناموا طلباً للسلامة ، وهذا النوم فيه فوائد : منها أنه يعين على قيام الليل ، ومنها أن النفس تستريح ويصفو القلب لبقية النهار والعمل فيه ، والنفس إذا استراحت عادت جديدة ، فبعد الانتباه من نوم النهار تجد في الباطن نشاطاً آخر وشغفاً آخر كما كان في أول النهار ، فيكون للصادق في النهار نهاران يغتصمهما : بخدمة الله تعالى ، والدعوى في العمل . وينبغي أن يكون انتباهه من نوم النهار قبل الزوال بساعة حتى يتمكن من الوضوء والطهارة قبل الاستواء ، بحيث يكون وقت الاستواء مستقبل القبلة ذا كرا أو مسبحاً أو تالياً : قال الله تعالى ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار ﴾ وقال ﴿ فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ﴾ قيل : قبل طلوع الشمس : صلاة الصبح ، وقبل غروبها : صلاة العصر ﴿ ومن آنام الليل فسبح ﴾ أراد العشاء الأخيرة ﴿ وأطراف النهار ﴾ أراد

الظهر والمغرب ، لأن الظهر صلاة في آخر الطرف الأول من النهار ، وآخر الطرف الآخر غروب الشمس وفيها صلاة المغرب ، فصار الظهر آخر الطرف الأول ، والمغرب آخر الطرف الآخر ، فيستقبل الطرف الآخر باليقظة والذكر كما استقبل الطرف الأول ، وقد عاد بنوم النهار جديدا كما كان بنوم الليل ، ويصلي في أول الزوال قبل السنة والفرص أربع ركعات بتسليمه واحدة كان يصلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذه صلاة الزوال قبل الظهر في أول أوقاتها ، ويحتاج أن يراعى لهذه الصلاة أول الوقت بحيث يظن الوقت قبل المؤذنين حين يذهب وقت الكراهية بالاستواء ، فيشرع في صلاة الزوال ويسمع الأذان وقد توسط هذه الصلاة ، ثم يستعد لصلاة الظهر ، فإن وجد في باطنه كدرا من مخالطة أو مجالسة اتفقت يستغفر الله تعالى ويتضرع إليه ، ولا يشرع في صلاة الظهر ، إلا بعد أن يجد الباطن عائدا إلى حاله من الصفاء ، والذاقون حلاوة المناجاة لابد أن يجدوا صفو الأذن في الصلاة ، ويتكبدون بيسير من الاسترسال في المباح ، ويصير على بواطنهم من ذلك عقد وكدر ، وقد يكون ذلك بمجرد المخالطة والمجالسة مع الأهل والولد مع كون ذلك عبادة ، ولكن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فلا يدخل الصلاة إلا بعد حل العقد وإذهاب الكدر ، وحل العقد بصدق الإنابة والاستغفار والتضرع إلى الله تعالى ودواء ما يحدث من الكدر بمجالسة الأهل والولد : أن يكون في مجالسته غير راكن إليهم كل الركون ، بل يسترق القلب في ذلك نظرات إلى الله تعالى ، فتكون تلك النظرات كفارة لتلك المجالسة ، إلا أن يكون قوي الحال لا يحجبه الخلق عن الحق فلا ينعقد على باطنه عقدة ، فهو كما يدخل في الصلاة لا يجدها ويجد باطنه وقلبه ، لأنه حيث استروحت نفس هذا إلى المجالسة كان استرواح نفسه منغرا بروح قلبه ، لأنه يجالس ويخالط وعين ظاهره ناظرة إلى الخلق وعين قلبه مطالعة للحضرة الإلهية فلا ينعقد على باطنه عقدة ، وصلاة الزوال التي ذكرناها تحل العقد وتهيئ الباطن لصلاة الظهر ، فيقرأ في صلاة الزوال بمقدار سورة البقرة في النهار الطويل ، وفي القصير ما يتيسر من ذلك . قال الله تعالى : ﴿ وعشيا وحين تظهرون ﴾ وهذا هو الإظهار ، فإن انتظر بعد السنة حضور الجماعة للفرد وقرأ الدعاء الذي بين الفريضة والسنة من صلاة الفجر لحسن ، وكذلك ما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا به إلى صلاة الفجر ، ثم إذا فرغ من صلاة الظهر يقرأ الفاتحة وآية الكرسي ويسبح ويحمد ويكبر ثلاثا وثلاثين مرة كإصغافنا ، ولو قدر على الآيات كلها التي ذكرناها بعد صلاة الصبح وعلى الأدعية أيضا كان ذلك خيرا كثيرا وفضلا عظيما .

ومن له همة ناعضة وعزيمة صادقة لا يستكثر شيئا لله تعالى ، ثم يحجي بين الظهر والمصر كما يحجي بين العشائين على الترتيب الذي ذكرناه من الصلاة والتلاوة والذكر والمراقبة ، ومن دام سهره ينام نومة خفيفة في النهار الطويل بين الظهر والمصر ، ولو أحيا بين الظهر والمصر بركعتين يقرأ فيها ربع القرآن أو يقرأ ذلك في أربع ركعات فهو خير كثير ، وإن أراد أن يحجي هذا الوقت بمائة ركعة في النهار الطويل أمكن ذلك ، أو بعشرين ركعة يقرأ فيها قل هو الله أحد ألف مرة في كل ركعة خمسين ، ويستاك قبل الزوال إن كان صائما ، وإن لم يكن صائما فأى وقت تغير فيه الفهم ، وفي الحديث : السواك مطهرة للفم مرضاة للرب ، وعند القيام إلى الفرائض يستحب ، قيل : إن الصلاة بالسواك تفضل على الصلاة بغير سواك سبعين ضعفا ، وقيل هو خير ، وإن أراد أن يقرأ بين الصلاتين في صلاته في عشرين ركعة في كل ركعة آية أو بعض آية يقرأ في الركعة الأولى ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ ثم في الثانية ﴿ ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ ثم ﴿ ربنا لا تؤاخذنا ... ﴾ إلى آخر السورة ، ثم ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا ... الآية ﴾ ثم ﴿ ربنا إنا سمعنا مناديا ينادي للإيمان ... الآية ﴾ ثم ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت ... ﴾ ثم ﴿ أنت ولينا فاغفر لنا ﴾ ثم ﴿ فاطر السموات والأرض أنت ولي ﴾ ثم ﴿ ربنا إنا نكلمك تعلم ما نخفي وما نعلن ... الآية ﴾ ثم ﴿ وقل رب زدني علما ﴾ ثم ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك ﴾ ثم ﴿ رب لا تذرني فردا ﴾ ثم ﴿ وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾ ثم ﴿ ربنا هب لنا من أزواجنا ﴾ ثم ﴿ رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾

ثم (يعلم خاتمة الأعين وما تخفى الصدور) ثم (رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي ... الآية) من سورة الاحقاف ، ثم (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان .. الآية) ثم (ربنا عليك توكلنا) ثم (رب اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين واولئذنا لا نعلم اننا نؤمن بك ولا نطيق الصلاة ولا نطيق الجهاد ولا نطيق الحجة ولا نطيق الآيات ، وبالمحافظة على هذه الآيات في الصلاة مراطبا للقلب واللسان يوشك أن يرقى إلى مقام الإحسان ، ولورد فرد آية من هذه في ركعتين من الظهر أو العصر كان في جميع الوقت مناجيا لمولاه وداعيا وناييا ومصليا ، والدعوى في العمل واستيعاب أجزاء النهار بلذاذة وحلاوة من غير سامة لا يصح إلا بعد تركت نفسه بكامل التقوى والاستقصاء في الزهد في الدنيا وانزع منه متابعة الهوى . ومتى بقى على الشخص من التقوى والزهد والهوى بقية لا يدوم روحه في العمل ، بل ينشط وقتا ويسأم وقتا ، ويتناوب النشاط والكسل فيه لبقاء متابعة شيء من الهوى بنقصان تقوى أو محبة دنيا وإذا صح في الزهد والتقوى ، فإن ترك العمل بالجوارح لا يفتر عن العمل بالقلب ، فمن رام دوام الروح واستحلاء الدعوى في العمل فعليه بحسم مادة الهوى ، والهوى روح النفس لا يزول ولكن تزول متابعتها ، والنبي عليه السلام ما استعاذ من وجود الهوى ، ولكن استعاذ من متابعتها فقال « أعوذ بك من هوى متبع » ، ولم يستعذ من وجود الشح فإنه طبيعة النفس ، ولكن استعاذ من طاعته فقال « وشح مطاع » ، ودقائق متابعة الهوى تبين على قدر صفاء القلب وعلو الحال ، فقد يكون متبعا للهوى باستحلاء مجالسة الخلق ومكالمهم أو النظر إليهم . وقد يتبع الهوى بتجاوز الاعتدال في النوم والاكل وغير ذلك من أقسام الهوى المتبع ، وهذا شغل من ليس له شغل إلا في الدنيا ، ثم يصلي العبد قبل العصر أربع ركعات ، فإن أمكنه تجديد الوضوء لكل فريضة كان أكمل وأتم ، ولو اغتسل كان أفضل ، فكل ذلك له أثر ظاهر في تنوير الباطن وتسكيل الصلاة ويقرأ في الأربع قبل العصر : إذا زلزلت والعدايات ، والقارعة ، والهاكم . ويصلي العصر ويجعل من قراءته في بعض الأيام : والسماء ذات البروج . وسمعت أن قراءة سورة البروج في صلاة العصر أم أن من الدماميل ، ويقرأ بعد العصر ما ذكرنا من الآيات والدعاء وما يتيسر له من ذلك ، فإذا صلى العصر ذهب وقت التنفل بالصلاة وبقى وقت الأذكار والتلاوة ، وأفضل من ذلك مجالسة من يرهده في الدنيا ويسدد كلامه عرى التقوى من العلماء الزاهدين المتكلمين بما يقوى عزائم المؤمنين ، فإذا صحت نية القائل والمستمع فهذه المجالسة أفضل من الانفراد والمداومة على الأذكار ، وإن عذمت هذه المجالسة وتعذرت فليتروح بالتنفل في أنواع الأذكار ، وإن كان خروجه لحوائجه وأمر معاشه في هذا الوقت يكون أفضل وأولى من خروجه في أول النهار ، ولا يخرج من المنزل إلا وهو على الوضوء ، وكره جمع من العلماء تحية الطهارة بعد صلاة العصر ، وأجازها المشايخ والصالحون ، ويقول كلما خرج من منزله : بسم الله ماشاء الله ، حسبي الله لا قوة إلا بالله ، اللهم إليك خرجت وأنت أخرجتنى ، وليقرأ الفاتحة والمعوذتين ، ولا يدع أن يتصدق كل يوم بما يتيسر له ولو تمرة أو لقمة ، فإن القليل بحسن النية كثير . وروى أن عائشة رضی الله عنها أعطت السائل عبة واحدة وقالت : إن فيها لمثاقيل ذر كثير . وجاء في الخبر : كل امرئ يوم القيامة تحت ظل صدقته ، ويكون من ذكره من العصر إلى المغرب مائة مرة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من قال ذلك كل يوم مائة مرة كان له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك . ومائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين ، فقد ورد أن من قال في يومه مائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين لم يعمل أحد في يومه أفضل من عمله ، ويقول مائة مرة : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ومائة مرة : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وبحمده أستغفر الله ، ومائة مرة : لا إله إلا الله الملك الحق المبين ، ومائة مرة : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، ومائة مرة : أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأسأله التوبة ، ومائة مرة : ما شاء الله لا قوة إلا بالله . ورأيت بعض الفقهاء من المغرب

بمكة وله سبعة فيها ألف حبة في كيس له ، ذكر أن ورده أن يدبرها كل يوم اثنى عشرة مرة بأنواع الذكر .
ونقل عن بعض الصحابة أن ذلك كان ورده بين اليرم والليلة . ونقل عن بعض التابعين . كان ورده من التسبيح ثلاثين ألفا بين اليوم والليلة ، وليقل مائة مرة بين اليوم والليلة هذا التسبيح : سبحان الله العلي الديان ، سبحان الله شديد الأركان ، سبحان من يذهب بالليل ويأتي بالهار ، سبحان من لا يشغله شأن عن شأن ، سبحان الله الحنان المنان ، سبحان الله المسبح في كل مكان .

روى أن بعض الأبدال بات على شاطئ البحر ، فسمع في هدوء الليل هذا التسبيح ، فقال : من الذي أسمع صوته ، ولا أرى شخصه ؟ فقال : أنا ملك من الملائكة موكل بهذا البحر ، أسبح الله تعالى بهذا التسبيح منذ خافت ؛ فقال : ما اسمك ؟ فقال : مهليم يائيل ؛ فقال : ما ثواب هذا التسبيح ؟ قال : من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له .

وروى أن عثمان رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ فقال : سألتني عن شيء عظيم ما سألتني عنه غيرك ، هو : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله عز وجل ، وأستغفر الله الأول الآخر الظاهر الباطن ، له الملك وله الحمد ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير . من قالها عشرا حين يصبح وحين يمسى أعطى ست خصال ؛ فأول خصلة : أن يحرس من إبليس وجنوده . الثانية : أن يعطى قطارا من الأجر . الثالثة : يرفع له درجة في الجنة . الرابعة : يزوجه الله من الخور العين . الخامسة : اثنا عشر ملكا يستغفرون له . السادسة : يكون له من الأجر كمن حج واعتمر ، ويقول أيضا في هذا الوقت وفي أول النهار : اللهم أنت خلقتني وأنت هديتني وأنت تطعمني وأنت تسقيني وأنت تميئني وأنت تحييني ، أنت ربى لأرب سواك ولا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ، ويقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، ما شاء الله كل نعمة من الله ، ما شاء الله الخير كله بيد الله ، ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله ؛ ويقول : حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم .

ثم يستعد لاستقبال الليل بالوضوء والطهارة ، ويقرأ المسبحات قبل الغروب ، ويدعي التسبيح والاستغفار ، بحيث تغيب الشمس وهو في التسبيح والاستغفار ، ويقرأ عند الغروب أيضا : والشمس والليل والمعوذتين ، ويستقبل الليل كما استقبل النهار . قال الله تعالى ﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾ فكما أن الليل يعقب النهار والنهار يعقب الليل : ينبغي أن يكون العبد بين الذكر والشكر يعقب أحدهما الآخر ، ولا يتخللها شيء كما لا يتخلل بين الليل والنهار شيء ، والذكر جميعه أعمال القلب ، والشكر أعمال الجوارح . قال الله تعالى ﴿ اعملوا آل داود شكرا ﴾ والله الموفق المعين .

الباب الحادى والخمسون : فى آداب المريـد مع الشيخ

أدب المريدين مع الشيوخ عند الصوفية من مهام الآداب ؛ وللقوم فى ذلك اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ﴾ . روى عن عبد الله بن الزبير قال : قدم وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم من بني تميم ، فقال أبو بكر : أمر القعقاع بن معبد وقال عمر : بل أمر الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافي ؟ وقال عمر : ما أردت خلافتك ؛ فتأريا حتى ارتفعت أصواتهما ؛ فأنزل الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا ... الآية ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ لا تقدموا ﴾ لا تتكلموا بين يدي كلامه . وقال جابر : كان ناس يضحون قبل رسول الله ، فنهوا عن تقديم الاضحية على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : كان قوم يقولون : لو أنزل فى كذا وكذا فكره الله ذلك . وقالت عائشة رضي الله عنها : أى لا نصوموا قبل أن يصوم نبيكم . وقال السكلى : لا تسبقوا رسول الله بقول ولا فعل حتى يكون

هو الذى يأمركم به ، وهكذا أدب المريد مع الشيخ أن يكون مسلوب الاختيار لا يتصرف فى نفسه وماله إلا بمراجعة الشيخ وأمره . وقد استوفينا هذا المعنى فى باب المشيخة . وقيل (لا تقدموا) لا تمشوا بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى أبو الدرداء قال : كنت أمشى أمام أبى بكر ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تمشى أمام من هو خير منك فى الدنيا والآخرة » . وقيل : نزلت فى أقوام كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا سئل الرسول عليه السلام عن شىء غاضوا فيه وتقدموا بالقول والفتوى ، فنهوا عن ذلك ، وهكذا أدب المريد فى مجلس الشيخ ينبغى أن يلزم السكوت ولا يقول شيئاً بحضرة من كلام حسن إلا إذا استأمر الشيخ ووجد من الشيخ فسحة فى ذلك ، وشأن المريد فى حضرة الشيخ كمن هو قاعد على ساحل بحر ينتظر رزقا يساق إليه ، فتطلعه إلى الاستماع وما يرزق من طريق كلام الشيخ يحقق مقام إرادته وطلبه واستزادته من فضل الله ، وتطلعه إلى القول يردده عن مقام الطلب والاستزادة إلى مقام إثبات شىء لنفسه وذلك جناية المريد .

وينبغى أن يكون تطلعه إلى مبهم من حاله يستكشف عنه بالسؤال من الشيخ : على أن الصادق لا يحتاج إلى السؤال باللسان فى حضرة الشيخ بل يبادئه بما يريد ، لأن الشيخ يكون مستنطقاً لطقه بالحق ، وهو عند حضور الصادقين يرفع قلبه إلى الله ويستمطر ويستدق لهم ، فيكون لسانه وقلبه فى القول والنطق مأخوذتين إلى مبهم الوقت فمن أحوال الطالبين المحتاجين إلى ما يفتح به عليه : لأن الشيخ يعلم تطلع الطالب إلى قوله واعتداده بقوله ، والقول كالبذر يقع فى الأرض ؛ فإذا كان البذر فاسداً لا ينبت ، وفساد الكامة بدخول الهوى فيها ؛ فالشيخ ينبغى بذر الكلام عن شوب الهوى ، ويسلمه إلى الله ، ويسأل الله المعونة والسداد ، ثم يقول ، فيكون كلامه بالحق من الحق للحق ، فالشيخ للمريدين أمين الإلهام ، كما أن جبريل أمين الوحي ، فكما لا يخون جبريل فى الوحي لا يخون الشيخ فى الإلهام ، وكما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى فالشيخ مقتدر برسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرها وباطنها ، لا يتكلم بهوى النفس . وهوى النفس فى القول بشيئين : أحدهما طلب استجلاب القلوب وصرف الوجوه إليه ، وما هذا من شأن الشيوخ . والثانى : ظهور النفس باستجلاء الكلام والعجب ، وذلك خيانة عند المحققين والشيخ فيما يجرى على لسانه راقدة النفس تشغلة مطالعة نعم الحق فى ذلك فافداً لحظ من فوائده ظهور النفس بالاستجلاء والعجب ، فيكون الشيخ لما يجرى به الحق سبحانه وتعالى عليه مستمعاً كأحد المستمعين ، وكان الشيخ أبو السعود رحمه الله يتكلم مع الأصحاب بما يلقى إليه ، وكان يقول : أنا فى هذا الكلام مستمع كأحدكم ، فأشكل ذلك على بعض الحاضرين وقال : إذا كان القائل هو يعلم ما يقول كيف يكون كستمع لا يعلم حتى يسمع منه ؟ فرجع إلى منزله فرأى ليلته فى المنام . كأن قائلاً يقول له : أليس الغواص يغوص فى البحر لطلب الدر . ويجمع الصدف فى مخلاته ، والدر قد حصل معه ولكن لا يراه إلا إذا خرج من البحر ، ويشاركه فى رؤية الدر من هو على الساحل ، ففهم بالمنام إشارة الشيخ فى ذلك .

فاحسن أدب المريد من الشيخ السكوت والخمود والجود حتى يبادئه الشيخ بماله فيه من الصلاح قولاً وفعلًا . وقيل أيضاً فى قوله تعالى (لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) : لا تطلبوا منزلة وراء منزلته ، وهذا من محاسن الآداب وأعزها .

وينبغى للمريد أن لا يحدث نفسه بطلب منزلة فوق منزلة الشيخ ، بل يحب للشيخ كل منزلة عالية ، ويتمنى للشيخ عزيز المنح وغرائب المواهب ، وبهذا يظهر جوهر المريد فى حسن الإرادة ، وهذا يعز فى المريدين ؛ فأرادته للشيخ تعطيه فوق ما يتمنى لنفسه ويكون قائماً بادب الإرادة . قال السرى رحمه الله : حسن الأدب ترجمان العقل . وقال أبو عبد الله بن حنيفة : قال لى رويم : يا بنى اجعل عملك ملجأ وأدبك دقيقاً ، وقيل : التصوف كله أدب ؛ لكل وقت أدب ولكل حال أدب ولكل مقام أدب ، فمن يلزم الأدب يبلغ مبلغ الرجال ، ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث

يظن القرب ، ومردود من حيث يرجو القبول . ومن تأديب الله تعالى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) كان ثابت بن قيس بن شماس في أذنه وقر وكان جهورى الصوت ، فكان إذا كلم إنسانا جهر بصوته ، وربما كان يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فيتأذى بصوته ، فأنزل الله تعالى الآية تأديبا له ولغيره .

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن علي ، قال أخبرنا أبو الفتح الهروى ، قال أخبرنا أبو نصر الترياقى قال أخبرنا أبو محمد الجراحى ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا محمد بن المثني ، قال حدثنا مؤمل بن إسماعيل ، قال حدثنا نافع بن عمر بن جميل الجحى ، قال حدثني حابس بن أبي مليكة ، قال حدثني عبد الله ابن الزبير أن الأفرع بن حابس قدم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر : استعمله على قومه ، فقال عمر : تستعمله يا رسول الله فتسلكم عبد الله صلى الله عليه وسلم حتى علت أصواتهما ؛ فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافي ، وقال عمر : ما أردت خلافا ؛ فأنزل الله تعالى الآية ، فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبي صلى الله عليه وسلم لا يسمع كلامه حتى يستفهم .

وقيل : لما نزلت الآية آلى أبو بكر أن لا يتكلم عند النبي صلى الله عليه وسلم إلا كآخ السرار ؛ فهكذا ينبغي أن يكون المرید مع الشيخ . لا ينسبط برفع الصوت وكثرة الضحك وكثرة الكلام إلا إذا بسطه الشيخ ؛ فرفع الصوت تنحية جلباب الوقار ؛ والوقار إذا سكن القلب عقل اللسان ما يقول ، وقد ينزل باطن بعض المریدین من الحرمة والوقار من الشيخ ما لا يستطيع المرید أن يشبع النظر إلى الشيخ . وقد كنت أحم فيدخل على عمي وشيخي أبو النجيب السهروردي رحمه الله فيترشح جسدي عرقا - وكنت أغمي العرق لتخف الحمى - فكنت أجد ذلك عند دخول الشيخ على ، ويكون في قدومه بركة وشفاء . وكنت ذات يوم في البيت خاليا وهناك منديل ومعه لي الشيخ وكان يتعمم به ، فوقع قدمي على المنديل اتفاقا ، فتألم باطني من ذلك وهالني الوطء بالقدم على منديل الشيخ ، وانبعث من باطني من الاحترام ما أرجو بركته .

قال ابن عطاء في قوله تعالى (لا ترفعوا أصواتكم) زحر عن الأذنى لثلاث تخطئ أحدا إلى ما فوقه من ترك الحرمة . وقال سهل في ذلك : لا تغاطبوه إلا مستفهمين . وقال أبو بكر بن طاهر : لا تبدموه بالخطاب ولا تجيئوه إلا على حدود الحرمة (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) أي لا تعاطوا له في الخطاب ولا تنادوه باسمه : يا محمد ، يا أحمد ، كما ينادى بعضكم بعضا ، ولكن غمموه واحترموا له : يا نبي الله ، يا رسول الله .

ومن هذا القبيل يكون خطاب المرید مع الشيخ ، وإذا سكن الوقار القلب علم اللسان كيفية الخطاب . ولما كلفت النفوس بمحبة الأولاد والأزواج وتمكنت أهوية النفوس والطباع استخرجت من اللسان عبارات غريبة وهي تحت وقتها صاغها كلف النفس وهواها ؛ فإذا امتلأ القلب حرمة ووقارا تعلم اللسان العذبة .

وروى : لما نزلت هذه الآية فقد ثابت بن قيس في الطريق يبكي ، فمر به عاصم بن عدى فقال : ما يبكيك يا ثابت ؟ قال : هذه الآية أتخوف أن تكون نزلت في (أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) وأنا رفيع الصوت على النبي صلى الله عليه وسلم أخاف أن يحبط عملي وأكون من أهل النار ، فضى عاصم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وغلب ثابتاً البكاء فأتى امرأته جميلة بذت عبد الله بن أبي بن سلول ، فقال لها : إذا دخلت بيت فرسى فسدى على الضبة بمسمار فضربت به بمسمار حتى إذا خرجت عطفته وقال : لا أخرج حتى يتوفاني الله أو يرضى عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أتى عاصم النبي وأخبره بخبره قال : اذهب فادعه ، فجاء عاصم إلى المكان الذي فيه رآه فلم يجده ، فجاء إلى أهله فوجده في بيت الفرس ، فقال له : إن رسول الله يدعوك ؛ فقال : اكسر الضبة ، فاتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما يبكيك يا ثابت ؟ فقال : أنا صيت وأخاف أن تكون هذه الآية نزلت في فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما ترضى أن تعيش شعيذاً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة ، فقال : قد رضيت

ببشرى الله تعالى ورسوله ولا أرفع صوتي أبدا على رسول الله ، فأنزل الله تعالى ﴿ إن الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله ... ﴾ قال أنس : كنا ننظر إلى رجل من أهل الجنة يمشي بين أيدينا ؛ فلما كان يوم اليمامة في حرب مسيلة رأى ثابت من المسلمين بعض الانكسار وانهمزمت طائفة منهم ؛ فقال : أف لمؤلاء وما يصنعون ، ثم قال ثابت لسالم ابن حذيفة : ما كنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذا ، ثم ثبتنا ولم يزالا يقاتلان حتى قتلا واستشهد ثابت كما وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه درع ؛ فراه رجل من الصحابة بعد موته في المنام فقال له : اعلم أن فلانا رجل من المسلمين نزع درعي فذهب بها وهو في ناحية من العسكر وعنده فرس يستن في طيله وقد وضع على درعي برمة ، فأتى خالد بن الوليد فأخبره حتى يسترد درعي ، وأتت أبا بكر خليفة رسول الله عليه السلام فقل له : إن على ديننا حتى يقضى عني ، وفلان من عبيدي عتيق ، فأخبر الرجل خالد أفوجد الدرع والفرس على ما وصفه ، فاسترد الدرع ، وأخبر خالد أبا بكر بتلك الرؤيا فأجاز أبو بكر وصيته . قال مالك بن أنس رضي الله عنهما : لا أعلم وصية أجزت بعد موت صاحبها إلا هذه كرامة ظهرت لثابت بحسن تقواه وأدبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فليعتبر المريد الصادق ويعلم أن الشيخ عنده تذكرة من الله ورسوله ، وأن الذي يعتمد مع الشيخ عوض ما لو كان في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتمده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قام القوم واجب الأدب أخبر الحق عن حالهم وأثنى عليهم فقال ﴿ أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ﴾ أي اختبر قلوبهم وأخلصها كما يمتحن الذهب بالنار فيخرج خالصه ، وكما أن اللسان ترجمان القلب وتهذب اللفظ لتأدب القلب ، فهكذا ينبغي أن يكون المريد مع الشيخ . قال أبو عثمان : الأدب عند الأكابر وفي مجالسة السادات من الأولياء يبالغ بصاحبه إلى الدرجات العلوا والخير في الأولى والعقبى ، ألا ترى إلى قول الله تعالى ﴿ ولوأنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم ﴾ وما عليهم الله تعالى قوله سبحانه ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾ وكان هذا الحال من وفد بني تميم جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنادوا : يا محمد ، اخرج إلينا فإن مدحنا زين وذمنا شين ، قال : فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم وهو يقول ﴿ إنما ذاكم الله الذي ذمه شين ومدحه زين ، في قصة طويلة ، وكانوا أتوا بشاعريهم وخطيبهم ، فقلهم حسان بن ثابت وشبان المهاجرين والأنصار بالخطبة .

وفي هذا تأدب للمريد في الدخول على الشيخ والإقدام عليه وترك الاستعجال وصبره إلى أن يخرج الشيخ من موضع خلوته .

سمعت أن الشيخ عبد القادر رحمه الله كان إذا جاء إليه فقير زائر يخبر بالفقر فيخرج ويفتح جانب الباب ويصافح الفقير ويسلم عليه ولا يجلس معه ويرجع إلى خلوته ، وإذا جاء أحد ممن ليس من زمرة الفقراء يخرج ويجلس معه ، فخطر لبعض الفقراء نوع إنكار لتركه الخروج إلى الفقير وخروجه لغير الفقير ، فأنتمى ما خطر للفقير إلى الشيخ ، فقال : الفقير رابطة قلبية وهو أهل وليس عنده أجنبية فسيكتفي معه بموافقة القلوب وتفتح بها عن ملاقة الظاهر بهذا القدر ، وأما من هو من غير جنس الفقراء فهو واقف مع العادات والظاهر ، فني لم يوف حقه من الظاهر استوحش ، لحق المريد عمارة الظاهر والباطن بالأدب مع الشيخ .

قيل لأبي منصور المغربي : كم صحبت أبا عثمان ؟ قال خدمته لاصحبته ، فالصحة مع الإخوان والأقران ، ومع المشايخ الخدمة .

وينبغي للمريد أنه كلما أشكل عليه شيء من حال الشيخ يذكر قصة موسى مع الخضر عليهما السلام كيف كان الخضر يفعل أشياء ينكرها موسى ، وإذا أخبره الخضر بسر ما يرجع موسى عن إنكاره ، فما ينكره المريد لقلقه عليه بحقيقة ما يوجد من الشيخ فالشيخ في كل شيء عذر بلسان العلم والحكمة .

سأل بعد أصحاب الجنيد مسألة من الجنيد ، فأجاب الجنيد ، فعارضه في ذلك ؛ فقال الجنيد : فإن لم تؤمنوا لي فاعزلون . فقال بعض المشايخ : من لم يعظم حرمة من تأدب به حرم بركة ذلك الأدب .

وقيل : من قال لاستاذة : لا ، لا يفلح أبدا .

أخبرنا شيخنا ضياء الدين عبد الوهاب بن علي ، قال أخبرنا أبو الفتح المروى ، قال أخبرنا أبو نصر الترياقى ، قال أخبرنا أبو محمد الجراحى ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذى ، قال حدثنا هناد عن أبي معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتركوا ما ترككم ، وإذا حدثتكم فخذوا عني ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سنوئهم واختلافهم على أنبيائهم » .

قال الجنيد رحمه الله : رأيت مع أبي حفص النيسابورى إنسانا كثير الصمت لا يتكلم ، فقلت لأصحابه : من هذا ؟ ف قيل لي : هذا إنسان يصحب أبا حفص ويخدمنا ، وقد أنفق عليه مائة ألف درهم كانت له واستدان مائة ألف أخرى أنفقها عليه مايسوخ له أبو حفص أن يتكلم بكلمة واحدة .

وقال أبو يزيد البسطامى : صحبت أبا علي السندى فكنت ألقته ما يقيم به فرضه ، وكان يعلن التوحيد والحقائق صرفا وقال أبو عثمان : صحبت أبا حفص وأنا غلام حدث ، فطردني وقال : لا تجلس عندي ، فلم أجعل مكافأة له على كلامه أن أولى ظهري إليه ، فانصرفت أمشي إلى خلف ووجهي مقابل له حتى غبت عنه واعتقدت أن أحفر لنفسي بئر أعلى بابه وأنزل وأقعد فيه ولا أخرج منه إلا بإذنه ؛ فلما رأى ذلك مني قربني وقبلني وصيرني من خواص أصحابه إلى أن مات رحمه الله .

ومن آدابهم الظاهرة : أن المريد لا يبسط سجادته مع وجود الشيخ إلا لوقت الصلاة ، فإن المريد من شأنه التبتل للخدمة ، وفي السجادة إيماء إلى الاستراحة والتمزز ، ولا يتحرك في السماع مع وجود الشيخ إلا أن يخرج عن هذا التميز ، وهمة الشيخ تملك المريد عن الاسترسال في السماع وتقيده . واستغراقه في الشيخ بالنظر إليه ومطالعة موارد فضل الحق عليه أنجع له من الإصغاء إلى السماع .

ومن الأدب : أن لا يكتم على الشيخ شيئا من حاله ومواهب الحق عنده وما يظهر له من كرامة وإجابة ، ويكشف للشيخ من حاله ما يعلم الله تعالى منه ، وما يستحي من كشفه يذكره إيماء وتعريضا ، فإن المريد متى انطوى ضميره على شيء لا يكشفه للشيخ تصریحا أو تعريضا يصير على باطنه منه عقدة في الطريق ، وباقول مع الشيخ تنحل العقدة وتزول .

ومن الأدب : أن لا يدخل في محبة الشيخ إلا بعد علمه بأن الشيخ قيم بتأديبه وتهذيبه ، وأنه أقوم بالتأديب من غيره ؛ ومتى كان عند المريد تطلع إلى شيخ آخر لا تصفو محبته ولا ينفذ القول فيه ولا يستعد باطنه لسراية حال الشيخ إليه ، فإن المريد كلما أيقن تفرد الشيخ بالمشيخة عرف فضله وقويت محبته ، والمحبة والتألف هو الوساطة بين المريد والشيخ ، وعلى قدر قوة المحبة تكون سراية الحال ، لأن المحبة علامة التعارف ، والتعارف علامة الجنسية ، والجنسية جالبة المريد حال الشيخ أو بعض حاله .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو النشع محمد بن سليمان ، قال أخبرنا أبو الفضل حميد ، قال أخبرنا الحافظ أبو نعيم ، قال حدثنا سليمان بن أحمد ، قال حدثنا أنس بن أسلم ، قال حدثنا عتبة بن رزين عن أبي أمامة الباهلي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ومن علم عبدا آية من كتاب الله فهو مولاه ينبغي له أن لا يخذله ولا يستأثر عليه ، فمن فعل ذلك فقد فسم عروءة من عرى الإسلام .

ومن الأدب : أن يراعى خطرات الشيخ في جزئيات الأمور وكلياتها ، ولا يستحقر كراهة الشيخ ليسير حركانه معتمدا على حسن خلق الشيخ وكمال حله ومداراته .

قال إبراهيم بن شيبان : كنا نصحب أبا عبد الله المغربي ونحن شبان يسافر بنا في البرارى والفلوات ، وكان معه شيخ اسمه حسن وقد صحبه سبعين سنة ، فكان إذا جرى من أحدنا خطأ وتغير عليه الشيخ نتشفع إليه بهذا الشيخ حتى يرجع لنا إلى ما كان .

ومن أدب المريد مع الشيخ : أن لا يستقل بوقائعه وكشفه دون مراجعة الشيخ ، فإن الشيخ عليه أوسع وبابه

المنتوح إلى الله أكبر ؛ فإن كان واقعة المريد من الله تعالى يوافقه الشيخ ويمضيها له ، وما كان من عند الله لا يختلف . وإن كان فيه شبهة تزول شبهة الواقعة بطريق الشيخ ، ويكتسب المريد علما بصحة الوقائع والكشوف ، فالمرید لعله في واقعة يخامر به كونه إرادة في النفس فيتشبه كونه الإرادة بالواقعة منأما كان ذلك أو يقظة ، ولهذا سر عجيب ، ولا يقوم المريد باستئصال شأفة السكامن في النفس ، وإذا ذكره للشيخ فما في المريد من كونه إرادة النفس ، فقود في حق الشيخ ، فإن كان من الحق يتبرهن بطريق الشيخ ، وإن كان ينزع واقعة إلى كونه هو النفس تزول وتبرأ ساحة المريد ويتحمل الشيخ ثقل ذلك لقوة حاله وصحة إخوانه إلى جناب الحق وكمال معرفته .

ومن الأدب مع الشيخ : أن المريد إذا كان له كلام مع الشيخ في شيء من أمر دينه أو أمر دنياه لا يستعجل بالإقدام على مكالمة الشيخ والهجوم عليه حتى يقين له من حال الشيخ أنه مستعد له ولسماع كلامه وقوله متفرغ ، وكما أن للدعاء أوقاتا وآدابا وشروطا لأنه مخاطبة الله تعالى ، فللقول مع الشيخ أيضا آداب وشروط ، لأنه من معاملة الله تعالى ، ويسأل الله تعالى قبل الكلام مع الشيخ التوفيق لما يجب من الأدب ؛ وقد نبه الحق سبحانه وتعالى على ذلك فيما أمر به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مخاطبته فقال (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة) يعني أمام مناجاتكم . قال عبد الله بن عباس : سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكثروا حتى شقوا عليه وأحفوه بالمسئلة ؛ فأدبهم الله تعالى وفطمهم عن ذلك وأمرهم أن لا يناجوه حتى يقدموا صدقة بموقيل . كان الأغنياء يأتون النبي عليه السلام ويغلبون الفقراء على المجلس ، حتى كره النبي عليه السلام طول حديثهم ومناجاتهم فأمر الله تعالى بالصدقة عند المناجاة ، فلما رأوا ذلك اقتصروا عن مناجاته ؛ فأما أهل العسرة فلاهم لم يجدوا شيئا ، وأما أهل اليسرة فبخلوا ومنهوا ، فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلت الرخصة وقال تعالى (أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات) وقيل : لما أمر الله تعالى بالصدقة لم ينجح رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا على بن أبي طالب ، فقدم دينارا فنصدق به . وقال علي : في كتاب الله آية ماعل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت الآية دعا عليا وقال : ماترى في الصدقة كم تكون ، ديناراً ؟ قال علي : لا يطيقونه ، قال : كم ؟ قال علي : تكون حبة أو شعيرة ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لزهيد ، ثم نزلت الرخصة ونسخت الآية ، ومأنبه الحق عليه بالامر بالصدقة وما فيه من حسن الأدب وتقيد اللفظ والاحترام مانسخ ، والفائدة باقية .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن سليمان ، قال أخبرنا أبو الفضل أحمد ، قال أخبرنا الحافظ أبو نعيم ، قال حدثنا سليمان بن أحمد ، قال حدثنا مطلب بن شعيب ، قال حدثنا عبد الله بن صالح ، قال حدثنا ابن لهيعة عن أبي قبيل عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ليس منأمن لم يجعل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه ، فاحترام العلماء توفيق وهداية ، وإهمال ذلك خذلان وعقوق .

الباب الثاني والخسون : في آداب الشيخ وما يعتمد به مع الأصحاب واللامذة

أهم الآداب : أن لا يتعرض الصادق للتقدم على قوم ، ولا يتعرض لاستجلاب بواطنهم بلطف الرفق وحسن الكلام بحبة للاستتباع ؛ فإذا رأى أن الله تعالى يبعث إليه المريد والمسترشدين بحسن الظن وصدق الإرادة ، يحذر أن يكون ذلك ابتلاء وامتحانا من الله تعالى ، والنفوس مجبولة على محبة إقبال الخلق والشهرة ، وفي الخمول السلامة ؛ فإذا بلغ الكتاب أجله وتمكن العبد من حاله وتلم بتعريف الله إياه أنه مراد بالإشارة والتعليم للمريدين ، فيكلمهم حينئذ كلام الناصح المشفق الوالد لولده بما ينفعه في دينه ودنياه ، وكل مريد ومسترشد ساقه الله تعالى إليه يراجع الله تعالى في معناه ويكثر اللجأ إليه أن يتولاه فيه وفي القول معه ، ولا يتكلم مع المريد بالكلمة إلا وقلبه ناظر إلى الله مستعين به في الهداية للصواب من القول .

سمعت شيخنا أبا النجيب السهروردي رحمه الله يوصي بعض أصحابه ويقول : لا تكلم أحدا من الفقراء إلا في أصنى أوقانتك ، وهذه وصية نافعة ، لأن الكلمة تقع في سمع المريد كالخبة تقع في الأرض ، وقد ذكرنا أن الخبة الفاسدة تهلك وتضيع ، وفساد خبة الكلام بالهوى ، وقطرة من الهوى تسكد بحر من العلم ، فعند الكلام مع أهل الصدق والإرادة ينبغي أن يستمد القلب من الله تعالى كما يستمد اللسان من الجنان ، وكما أن اللسان ترجمان القلب يكون قلبه ترجمان الحق عند العبد ، فيكون ناظرا إلى الله مصفيا إليه متلقيا ما يرد عليه مؤديا للأمانة فيه ، ثم ينبغي للشيخ أن يعتبر حال المريد ويتفرس فيه بنور الإيمان وقوة العلم والمعرفة ما يتأتى منه ومن صلاحيته واستعداده ؛ فن المريد من يصلح للتعبد المحض وأعمال القوالب وطريق الأبرار ، ومن المريد من يكون مستعدا صالحا للقرب وسلوك طريق المقربين المرادين بمعاملة القلوب والمعاملات السنية ، ولكل من الأبرار والمقربين مبادونيات فيكون للشيخ صاحب الإشراف على البواطن يعرف كل شخص وما يصلح له ؛ والعجب أن الصحراوي يعلم الأراضي والغروس ويعلم كل غرس وأرضه ، وكل صاحب صنعة يعلم منافع صنعته ومضارها ، حتى المرأة تعلم قطعا وما يتأتى منه من الغزل ودقته وغظله ، ولا يعلم الشيخ حال المريد وما يصلح له .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلم الناس على قدر عقولهم ، ويأمر كل شخص بما يصلح له ؛ فمنهم من كان يأمره بالإفناق ومنهم من أمره بالإمسك ، ومنهم من أمره بالكسب ، ومنهم من قرره على ترك الكسب كأصحاب الصفة ؛ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف أوضاع الناس وما يصلح لكل واحد ، فأما في رتبة الدعوة فقد كان يعمم الدعوة لأنه مبعوث لإثبات الحججة وإيضاح المحجة يدعو على الإطلاق ، ولا يخصص بالدعوة من يتفرس فيه الهداية دون غيره . ومن أدب الشيخ : أن يكون له خلوة خاصة ووقت خاص لا يسمح فيه معاينة الخلق حتى يفيض على جلوته فائدة خلوته ، ولا تدعى نفسه قوة ظاهرا منها أن استدامة المخالطة مع الخلق والكلام معهم لا يضره ولا يأخذ منه وأنه غير محتاج إلى الخلوة ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كمال حاله كان له قيام الليل وصلوات يصلحها ويدوم عليها وأوقات يخلو فيها ، فطبع البشر لا يستغنى عن السياسة قل ذلك أو كثر لطف ذلك أو كثف ، وكما من مغرور قانع باليسير من طيبة القلب ، اتخذ ذلك رأس ماله وأغتر بطيبة قلبه ، واسترسل في المازجة والمخالطة ، وجعل نفسه مناخا للبطالين بلقمة تؤكل عنده ويرفق يوجد منه ، فيقصده من ليس قصده الدين ولا بغيته سلوك طريق المتقين ، فافتن وافتن ، وبقي في خلة القصور ، ووقع في دائرة الفتور ، فما يستغنى الشيخ عن الاستمداد من الله تعالى والتضرع بين يدي الله بقلبه إن لم يكن بقلبه وقبلة ، فيكون له في كل كلمة إلى الله الرجوع ، وفي كل حركة بين يدي الله خضوع ، وإنما دخلت الفتنة على المغرورين المدعين للقوة والاسترسال في الكلام والمخالطة ، لقلة معرفتهم صفات النفس وأغترارهم بيسير من الموهبة وقلة تأديهم بالشيوخ . كان الجنيد رحمه الله يقول لأصحابه : لو علمت أن صلاة ركعتين لي أفضل من جلوسى معكم ما جلست عندكم ، فإذا رأى الفضل في الخلوة يخلو ، وإذا رأى الفضل في الجلوة يجلس مع الأصحاب ، فتكون جلوته في حماية خلوته ، وجلوته مزبدا لخلوته . وفي هذا سر : وذلك أن الآدى ذو تركيب مختلف ، فيه تضاد وتغاير على ما أسلفنا من كونه مترددا بين السفلى والعلوى ، وإلا فيه من التغاير له حظ من الفتور عن الصبر على صرف الحق ، ولهذا كان لكل عامل فترة والفترة قد تكون تارة في صورة العمل وتارة في عدم الروح في العمل وإن لم تكن في صورة العمل ، ففي وقت الفترة المريدن والسالكين تضيق واسترواح للنفس وركون إلى البطالة ، فن بلغ رتبة المشيخة انصرف قسم فترته إلى الخلق فأفلق الخلق بقسم فترته ، وماضاع قسم فترته كضياعه في حق المريدن ، فالمريد يعرف من الفترة بقوة الشدة وحدة الطلب إلى الإقبال على الله ، والشيخ يكتسب الفضيلة من نفع الخلق بقسم فترته ويعود إلى أوطان خلوته وخاص حالة بنفس مشرئبة ، أكثر من عود الفقير بمحنة إرادته من فترته ، فيعود من الخلق إلى الخلوة منتزع الفتور ، بقلب متعطر وافر النور ، وروح متخلصة عن مضيق مطالعة الأغيار ، قادمة بمحنة شغفها إلى دار القرار . ومن وظيفة الشيخ : حسن خلقه مع أهل الإرادة والطلب ، والنزول من حقه فيما يجب من التبجيل والتعظيم

للمشايع واستعماله التواضع .

حكى الرقي قال : كنت بمصر وكنا في المسجد جماعة من الفقراء جلوسا ، فدخل الرقاق فقام عند أسطوانة يركع ، فقلنا يفرغ الشيخ من صلاته وتقوم نسلم عليه ، فلما فرغ جاء إلينا وسلم علينا ، فقلنا : نحن كنا أولى بهذا من الشيخ ، فقال : ما عذب الله قلبي بهذا قط ، يعني ما تعيدت بأن أحترم وأقصد .

ومن آداب الشيوخ : النزول إلى حال المريدين من الرفق بهم وبسطهم . قال بعضهم : إذا رأيت الفقير فآلفه بالرفق ولا تلقه بالعلم ، فإن الرفق يؤنس والعلم يوحش ، فإذا فعل الشيخ هذا المعنى من الرفق يتدرج المريد بركة ذلك إلى الانتفاع بالعلم فيعامل حينئذ بصريح العلم .

ومن آداب الشيوخ : التعطف على الأصحاب وقضاء حقوقهم في الصحة والمرض ، ولا يترك حقوقهم اعتمادا على إرادتهم وصدقهم . قال بعضهم : لا تضيع حق أخيك بما بينك وبينه من المودة .

وحكى عن الجريري قال : وافيت من الحج فابتدأت بالجنيذوسلمت عليه وقلت حتى لا يتعنى . ثم أتيت منزلي ، فلما صليت الغداة التفت وإذا بالجنيذ خلني ؛ فقلت : ياسيدي إنما ابتدأت بالسلام عليك لكيلا تتعنى إلى ههنا ، فقال لي : يا أبا محمد ، هذا حقك ، وذاك فضلك .

ومن آداب الشيوخ : أنهم إذا علموا من بعض المسترشدين ضعفا في مراغمة النفس وقهرها و اعتمادا صدق العزيمة : أن يرفقوا به ويوقفوه على حد الرخصة ، ففي ذلك خير كثير ، وما دام العبد لا يتخطى حريم الرخصة فهو حتر ، ثم إذا ثبت وغالط الفقراء وتدرّب في لزوم الرخصة يدرّج بالرفق إلى أوطان العزيمة .

قال أبو سعيد بن الأعرابي : كان شاب يعرف بأبراهيم الصائغ ، وكان لأبيه نعمة ، فانقطع إلى الصوفية وصحب أبا أحمد القلانسي ، فرمما كان يقع بيد أبي أحمد شيء من الدراهم فكان يشتري له الرقاق والشواء والحلواء ويؤثره عليه ويقول : هذا خرج من الدنيا وقد تعود النعمة ، فيجب أن ترفق به وتؤثره على غيره .

ومن آداب الشيوخ : التنزه عن مال المريد وخدمته والارتفاق من جانبه بوجه من الوجوه ، لأنه جاء الله تعالى ، فيجعل نفعه وإرشاده خالصاً لوجه الله تعالى ، لما يسدى الشيخ للمريد من أفضل الصدقات . وقد ورد ما تصدق متصدق بصدقة أفضل من علم يبثه في الناس ، وقد قال الله تعالى تنبيهاً على خلوص ماله وحراسته من الشوائب ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ﴾ فلا ينبغي للشيخ أن يطالب على صدقته جزاء إلا أن يظهر له في شيء من ذلك علم يرد عليه من الله تعالى في قبول الرفق منه ، أو صلاح يترأى للشيخ في حق المريد بذلك ، فيكون التلبس بماله والارتفاق بخدمته لمصلحة تعود على المريد مأمرة الغائلة من جانب الشيخ : قال الله تعالى ﴿ يؤسكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم إن يسألكموها فحسبكم بخلوها ويخرج أضغانكم ﴾ معنى يحسبكم : أي يجهدكم ويبلغ عليكم قال قتادة : علم الله تعالى أن في خروج المال لإخراج الأضغان ، وهذا أديب من الله الكريم والأدب أدب الله قال جعفر الخلدی : جاء رجل إلى الجنيذ وأراد أن يخرج عن ماله كله ويجلس معهم على الفقر ، فقال له الجنيذ : لا تخرج من مالك كله أحبس منه مقدار ما يكفيك ، وأخرج الفضل ، وثقوت بما حبست ، واجتهد في طلب الحلال لا تخرج كل ما عندك فلست آمن عليك أن تطالبك نفسك .

وكان النبي عليه السلام إذا أراد أن يعمل عملاً ثبت ، وقد يكون الشيخ يعلم من حال المريد أنه إذا خرج من الشيء يكسبه من الحال ما لا يتطلع به إلى المال ، حينئذ يجوز له أن يفسح للمريد في الخروج من المال ، كما فصح رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وقبل منه جميع ماله .

ومن آداب الشيوخ : إذا رأى من بعض المريدين مكروها ، أو علم من حاله اعوجاجا ، أو أحس منه بدعوى ، أو رأى أنه داخله عجب : أن لا يهرح له بالمكروه ، بل يتكلم مع الأصحاب ويشير إلى المكروه الذي يعلم ، ويكشف عن وجه المذمة بحمل فتحصل بذلك الفائدة للكل ، فهذا أقرب إلى المداراة وأكثر أثرا لتألف القلوب ، وإذا رأى

من المريد تقصيراً في خدمة نديه إليها : يحمل تقصيره ويعفو عنه ويحضره على الخدمه بالرفق واللين ، وإلى ذلك نذب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال : أخبرنا أبو الفتح الكروخي قراءة عليه ، قال أخبرنا أبو نصر الترياقى ، قال أخبرنا أبو محمد الجراحى ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذى ، قال حدثنا قتيبة ، قال حدثنا رشد بن سعد عن أبي هلال الخولاني عن ابن عباس بن جليلد الحيمري عن عبد الله بن عمر قال : جاء رجل إلى النبي عليه السلام فقال : يا رسول الله ، كم أعفو عن الخادم ؟ قال « كل يوم سبعين مرة » .

وأخلاق المشايخ مهذبة بحسن الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم أحق الناس بإحياء سنته في كل ما أمر وندب وأنكر وأوجب .

ومن جملة مهام الآداب : حفظ أسرار المريدن فيما يكشفون به ويمنحون من أنواع المنح ، فسر المريد لا يتعدى ربه وشيخه ، ثم لا يحقر الشيخ في نفس المريد ما يجده في خلوته من كشف أو سماع خطاب أو شيء من خوارق العادات ويعرفه أن الوقوف مع شيء من هذا يشغل عن الله ويسد باب المزيد ، بل يعرفه أن هذه نعمة تشكر ومن ورائها نعم لا تحصى ، ويعرفه أن شأن المريد طلب النعم لا النعمة حتى يبقى سره محفوظاً عند نفسه وعند شيخه ، ولا يذيع سره ، فإذا ذاع الأسرار من ضيق الصدر ، وضيق الصدر الموجب لإذاعة السر يوصف به النسوان وضعفاء العقول من الرجال ، وسبب إذاعة السر أن للإنسان قوتين آخذه ومعطية ، وكلتاها تنكشف إلى الفعل المختص بها ولولا أن الله تعالى وكل المعطية بإظهار ما عندها ما ظهرت الأسرار ؛ فكمال العقل كلما طلبت القوة الفعل قيدها ووزنها بالعقل حتى يضعها في مواضعها ، فيجل حال الشيوخ عن إذاعة الأسرار لرزاة عقولهم .

وينبغي للمريد أن يحفظ سره من بثه ، ففي ذلك صحته وسلامته وتأيد الله سبحانه وتعالى له بتدارك المريدن الصادقين في مورد هم ومصدرهم .

الباب الثالث والخمسون : في حقيقة الصحبة وما فيها من الخير والشر

المتنظي للصحبة وجود الجنسية ، وقد يدعو إليها أعم الأوصاف ، وقد يدعو إليها أخص الأوصاف ، فالدعاء بأعم الأوصاف : كميل جنس البشر بعضهم إلى بعض ، والدعاء بأخص الأوصاف كميل أهل كل ملة بعضهم إلى بعض ، ثم أخص من ذلك كميل أهل الطاعة بعضهم إلى بعض ، وكميل أهل المعصية بعضهم إلى بعض ، فإذا علم هذا الأصل وأن الجاذب إلى الصحبة وجود الجنسية بالأعم تارة وبالأخص أخرى ، فليتنفد الإنسان نفسه عند الميل إلى صحبة شخص ، وينظر ما الذي يميل به إلى صحبته ؟ ويرى أحوال من يميل إليه بميزان الشرع ، فإن رأى أحواله مسددة فليبتسر نفسه بحسن الحال ، فقد جعل الله تعالى سرآته بجلوة يلوح له في مرآة أخيه جمال حسن الحال ، وإن رأى أفعاله غير مسددة فيرجع إلى نفسه باللائمة والاثم ، فقد لاح له في مرآة أخيه سوء حاله ، فبالجد ير أن يفر منه كفراره من الأسد ، فإنهما إذا اصطحبا ازدادا ظلمة واعوجاجاً ، ثم إذا علم من صاحبه الذي مال إليه حسن الحال وحكم لنفسه بحسن الحال طالع ذلك في مرآة أخيه ، فليعلم أن الميل بالوصف الأعم مركوز في جبلته ، والميل بطريقه واقع ، وله بحسبه أحكام ، وللنفس بسببه سكون وركون ، فيسلب الميل بالوصف الأعم جدوى الميل بالوصف لأخص ، ويهيريّن المتصاحبين استرواحات طبيعية وتلذذات جبلية لا يفرق بينها وبين خلوص الصحبة لله إلا العلماء الزاهدون ، وقد يتفسد المريد الصادق بأهل الصلاح أكثر مما يتفسد بأهل الفساد ، ووجه ذلك أن أهل الفساد علم فساد طريقهم فأخذ حذرهم ، وأهل الصلاح غره صلاحهم فمال إليهم بجنسية الصلاحية ، ثم حصل بينهم استرواحات طبيعية جبلية حالت بينهم وبين حقيقة الصحبة لله ، فاكسب من طريقهم الفتور في الطلب والتغلف عن بلوغ الأرب ، فليتنبه الصادق لهذه الدقيقة وبأخذ من الصحبة أصنى الأقسام ويذر منها ما يبين في وجهه المرام قال بعضهم هل رأيت شراً قط إلا آمن

تعرف ؛ ولهذا المعنى أنكر طائفة من السلف الصلبة ورأوا الفضيلة في العزلة والوحدة كما إبراهيم بن آدم وداود الطائي وفضيل بن عياض وسليمان الخواص ، وحكى عنه أنه قيل له : جاء إبراهيم بن آدم أما تلقاه ؟ قال : لأن ألقى سبعا ضاريا أحب إلى من أن ألقى إبراهيم بن آدم ، قال : لأنني إذا رأيته أحسن له كلامي وأظهر نفسي بإظهار أحسن أحوالها ، وفي ذلك الفتنة ، وهذا كلام عالم بنفسه وأخلاقا ، وهذا واقع بين المتصاحين إلا من عصمه الله تعالى .

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقي لإجازة ، قال أخبرنا الحافظ أبو بكر محمد بن أحمد ، قال أخبرنا أبو القاسم إسماعيل بن مسعدة ، قال أخبرنا أبو عمرو محمد بن عبد الله بن أحمد ، قال أخبرنا أبو سليمان أحمد بن محمد الخطابي ، قال أخبرنا محمد بن بكر بن عبد الرزاق ، قال حدثنا سليمان بن الأشعث ، قال حدثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن عبد الرحمن بن أبي صعصعة عن أبيه أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعاب الجبال ومواقع القطر يفر بدينه عن الفتن » ، قال الله تعالى إخبارا عن خليله إبراهيم ﴿ وأعرضكم وما تدعون من دون الله وأدعوني ﴾ استظهر بالعزلة على قومه . قيل : العزلة نونان : فريضة وفضيلة ، فالفريضة العزلة عن الشر وأهله ، والفضيلة عزلة الفضول وأهله . ويجوز أن يقال : الخلوة غير العزلة ؛ فالخلوة من الأغيار ، والعزلة من النفس وما تدعو إليه وما يشغل عن الله ، فالخلوة كثيرة الوجود ، والعزلة قليلة الوجود .

قال أبو بكر الوراق : ما ظهرت الفتنة إلا بالخلطة من لدن آدم عليه السلام إلى يومنا هذا ، وما سلم إلا من جانب الخلطة : وقيل السلامة عشرة أجزاء ، تسعة في الصمت ، وواحد في العزلة وقيل : الخلوة أصل . والخلطة عارض فليأزم الأصل ، ولا يتخالط إلا بقدر الحاجة ، وإذا خالط لا يتخالط إلا بحجة ، وإذا خالط يلزم الصمت ؛ فإنه أصل والكلام عارض ، ولا يتكلم إلا بحجة ، فخطر الصلابة كثير يحتاج العبد فيه إلى مزيد علم ، والأخبار والآثار في التحذير عن الخلطة والصلابة كثيرة ، والكتب بها مشحونة وأجمع الأخبار في ذلك : ما أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح بإسناده السابق إلى أبي سليمان ، قال حدثنا مسلم بن سليمان النجاد ، قال حدثنا محمد بن يونس الكرمي ، قال حدثنا محمد بن منصور الجشمي ، قال حدثنا مسلم بن سالم ، قال حدثنا السري بن يحيى عن الحسن بن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لياتين على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلا من فر بدينه من قرية إلى قرية ومن شاق إلى شاق ومن جحر إلى جحر كالثعلب الذي يروغ ، قالوا : ومتى ذلك يا رسول الله ؟ قال : « إذا لم تزل المعيشة إلا بمعاصي الله ، فإذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة » قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله وقد أمرنا بالتزوج ؟ قال : « إنه إذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أوبه ، فإن لم يكن له أبوان فعلى يد زوجته وولده ، فإن لم يكن له زوجة ولا ولد فعلى يد قرابته » قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : « يعبرونه بضيق المعيشة فيتكلف ما لا يطيق حتى يوردوه موارد الملوك » .

وقد رغب جمع من السلف في الصلابة والاخوة في الله ورأوا أن الله تعالى من على أهل الإيمان حيث جعلهم إخوانا ، فقال سبحانه وتعالى ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾ وقال تعالى ﴿ هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾ وقد اختار الصلابة والاخوة في الله تعالى سعيد بن المسيب وعبد الله بن المبارك وغيرهما .

وفائدة الصلابة : أنها تفتح مسام الباطن ، ويكتسب الإنسان بها علم الحوادث والعوارض . قيل : أعلم الناس بالآفات أكثرهم آفات ، ويتصلب الباطن برزين العلم ، يتمكن الصدق بطروق هبوب الآفات ، ثم التخلص منها بالإيمان ، ويقع بطريق الصلابة والاخوة والتعاقد والتعاون ، وتتقوى جنود القلب ، وتستريح الأرواح بالتشام ، وتتفق في التوجه إلى الرفيق الأعلى ، ويصير مثاله في الشاهد كالصوات إذا اجتمعت خرقت الأجرام ، وإذا انفردت قصرت عن بلوغ المرام . ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن كثير بأخيه » .

وقال تعالى مخبرا عن لاصديق له (فأنا من شافعين هـ ولا صديق حميم) والحميم في الاصل الهميم ، إلا أنه أبدلت الهاء بالخاء لقرب مخرجها ، إذ هما من حروف الخلق . والهميم : مأخوذ من الاهتمام : أي يهتم بأمر أخيه ، فالإهتمام بهم الصديق حقيقة الصداقة .

وقال عمر : إذا رأى أحدكم ودا من أخيه فليتمسك به فقلبا يصيب ذلك . وقد قال القائل :

وإذا صفا لك من زمانك واحد * فهو المراد وأين ذاك الواحد

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قال : يا داود ، مالي أراك منتبذا وحدك ؟ قال : إلهي ، قلت الخلق من أجلك فأوحى الله إلي : يا داود ، كن يقظانا مرئادا لنفسك إخوانا وكل خدن لا يوافق على مسرتي فلا تصحبه فإنه عدو يقسى قلبك ويباعدك مني .

وقد ورد في الخبر : إن أحبكم إلى الله الذين يألفون ويؤلفون فالألف مألوف ، وفي هذا دققة : وهي أنه ليس من اختار العزلة والوحدة لله يذهب عنه هذا الوصف فلا يكون ألفا مألوفاً ، فإن هذه الإشارة من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخلق الجبلي ، وهذا الخلق يكمل في كل من كان أتم معرفة و يقينا وأوزن عقلا وأتم أهلية واستعدادا ، وكان أوفر الناس حظا من هذا الوصف : الأنبياء ثم الأولياء ، وأنهم الجميع في هذا : نبينا صلوات الله عليه ، وكل من كان من الأنبياء أتم ألفة كان أكثر تبعا ، ونبينا صلى الله عليه وسلم كان أكثرهم ألفة وأكثرهم تبعا ، وقال : تناكروا تكثروا فإني مكأثر بكم الأمم يوم القيامة ، وقد نبه الله تعالى على هذا الوصف من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) وإنما طلب العزلة مع وجود هذا الوصف ، ومن كان هذا الوصف فيه أقوى وأتم كان طلب العزلة فيه أكثر في الابتداء ، ولهذا المعنى حجب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلوة في أول أمره ، وكان يخلو في غار حراء ويتحنث الليالي ذوات العدد ، وطلب العزلة لا يسلب وصف كونه ألفا مألوفاً ، وقد غلط في هذا قوم ظنوا أن العزلة تسلب هذا الوصف فتركوا العزلة طلبا لهذه الفضيلة ، وهذا خطأ وسر طلب العزلة لمن هذا الوصف فيه أتم من الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ما سلفنا في أول الباب : أن في الإنسان ميلا إلى الجنس بالوصف الأعم ، فلما علم الخلق ذلك ألهمهم الله تعالى محبة الخلوة والعزلة لتصفية النفس عن الميل بالوصف الأعم لترتقي الهمم العالية عن ميل الطباع إلى تألف الأرواح ؛ فإذا وفوا للتصفية حقها اشرأت الأرواح إلى جنسها بالتألف الأصلي الأولي ، وأعادها الله تعالى إلى الخلق ومخالطتهم مصفاة ، واستنارت النفوس الطاهرة بأنوار الأرواح ، وظهرت صفة الجبلية من الألفة المكتملة ألفة مألوفة ، فصارت الألفة من أهم الأمور عندهم يأنف فيؤلف . ومن أدل الدلائل على أن الذي اعتزل ألف مألوف حتى يذهب الغلط عن الذي غلط في ذلك وذم العزلة على الإطلاق من غير علم بحقيقة الصحبة وحقيقة العزلة ، فصارت العزلة مرغوبا فيها في وقتها ، والصحبة مرغوبا فيها في وقتها . قال : محمد بن الحنفية رحمه الله : ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجرد في معاشرته بقا حتى يجعل الله له منه فرجا .

وكان بشر بن الحارث يقول : إذا قصر العبد في طاعة الله سلبه الله تعالى من يؤنسه ، فالأنيس يسميه الله للصادقين رفقا من الله تعالى وبوابا للعبد معجلا ، والأنيس قد يكون مفيدا كالشايخ وقد يكون مستفيدا كالمريد ، فصحيح الخلوة والعزلة لا يترك من غير أنيس ، فإن كان قاصرا يؤنسه الله بمن يتمم حاله به ، وإن كان غير قاصر يقيض الله تعالى من يؤنسه من المريد ، وهذا الأنس ليس فيه ميل بالوصف الأعم بل هو بالله ومن الله وفي الله .

وروى عبد الله بن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : المتحابون في الله على عمود من ياقوتة حراء ، في رأس العمود سبعون ألف غرفة مشرفون على أهل الجنة يضيئهم حسنهم لأهل الجنة كما تضيئ الشمس لأهل الدنيا ، فيقول أهل الجنة انطلقوا بنا ننظر إلى المتحابين في الله عز وجل ، فإذا أشرفوا عليهم أضاء حسنهم لأهل الجنة كما تضيئ الشمس لأهل الدنيا ، عليهم ثياب سندس خضر ، مكتوب على جباههم : هؤلاء المتحابون في الله عز وجل . وقال أبو إدريس الخولاني لمعاذ : إني أحبك في الله ، فقال له : أبشر ثم أبشر ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول : ينصب لطائفة من الناس كراسي حول العرش يوم القيامة ، وجوهمهم كالقمر ليلة البدر : يفرغ الناس ولا يفرغون ، ويخاف الناس ولا يخافون ، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فقيل : من هؤلاء يا رسول الله ؟ قال : المتحابون في الله عز وجل .

وروى عبادة بن الصامت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله عز وجل : حقت محبتي للمتحابين فيّ والمتزاورين فيّ والمتبازلين فيّ والمتصادقين فيّ .

أخبرنا الشيخ أبو الفتح محمد بن عبد الباقي إجازة ، قال أخبرنا أحمد بن الحسين بن خيرون ، قال أخبرنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الله المحاملي ، قال أخبرنا أبو القاسم عمر بن جعفر بن محمد بن سلام ، قال أخبرنا أبو إسحق إبراهيم بن إسحق الحربي ، قال حدثنا حماد عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ألا أخبركم بخير من كثير من الصلاة والصدقة ؟ قالوا : وما هو ؟ قال : إصلاح ذات البين ، وإياكم والبغضة فإنها هي الحالقة ، ويأسناد إبراهيم الحربي عن عبيد الله بن عمر عن أبي أسامة عن عبد الله بن الوليد عن عمران بن رباح قال : سمعت أبا مسلم يقول : سمعت أبا هريرة يقول الخبر ؛ وفي الخبر تحذير عن البغضة : وهو أن يحفوا المختلي الناس مقتاً لهم وسوء ظن بهم ، وهذا خطأ ، وإنما يريد أن يخلو مقتاً لنفسه وعلماً بما في نفسه من الآفات ، وحذراً على نفسه من نفسه ، وعلى الخلق أن يعود عليهم من شره ، فن كانت خلوته بهذا الوصف لا يدخل تحت هذا الوعيد ، والإشارة بالخالقة ، يعني أن البغضة حالقة للدين . لأنه نظر إلى المؤمنين والمسلمين بعين المقت .

وأخبرنا الشيخ أبو الفتح بإسناده إلى إبراهيم الحربي ، قال حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، قال حدثنا أبو عاصم عن ثور عن خالد بن معدان وقال : إن الله تعالى ملكاً نصفه من نار ونصفه من ثلج ، وإن من دعائه اللهم فسكاً ألف بين هذا الثلج وهذه النار فلا الثلج يطفى النار ولا النار تذيب الثلج ، ألف بين قلوب عبادك الصالحين .

وكيف لا تتألف قلوب الصالحين وقد وجدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في وقته العزيز بقاب قوسين في وقت لا يسعه فيه شيء للطف حال الصالحين وجدهم في ذلك المقام العزيز وقال : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ؛ فهم مجتمعون وإن كانوا متفرقين ، وصحبهم لازمة ، وعزيمتهم في التواصل في الدنيا والآخرة جازمة .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لو أن رجلاً صام النهار وقام الليل وتصدق وجاهد ولم يحب في الله ولم يبغض فيه مانعه ذلك .

أخبرنا رضي الدين أحمد بن إسماعيل بن يوسف إجازة إن لم يكن سماعاً ، قال أخبرنا أبو المظفر عن والده أبي القاسم القشيري قال : سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول : سمعت عبد الله بن المعلم يقول : سمعت أبا بكر التلمساني يقول : اصحبوا مع الله ، فإن لم تطيقوا فاصحبوا مع من يصحب مع الله ، لتوصلكم بركة صحبتهم إلى صحبة الله .

وأخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إجازة . قال أخبرنا عمر بن أحمد الصفار النيسابوري إجازة ، قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف ، قال أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي ، قال سمعت أبا نصر الأصفهاني يقول : سمعت أبا جعفر الحدادي يقول : سمعت علي بن سهل يقول : الأنس بالله تعالى أن تستوحش من الخلق إلا من أهل ولاية الله ؛ فإن الأنس بأهل ولاية الله هو الأنس بالله .

وقد نبه القائل نظماً على حقيقة جامعة لمعانى الصحبة والخلوة وفائدتهما وما يحذر فيهما بقوله :

وحدة الإنسان خير • من جليس السوء عنده

وجليس الخير خير • من قعود المرء وحده

الباب الرابع والخمسون : في أداء حقوق الصحبة والأخوة في الله تعالى

قال الله تعالى ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ وقال تعالى ﴿وتواصوا بالحق وتواصوا بالمعروف﴾ وقال في وصف أصحاب

(٢٧- ص ٢٧) ملحق كتاب الإحياء

رسول الله صلى الله عليه وسلم (أشداء على الكفار رحماء بينهم) وكل هذه الآيات تنبيه من الله تعالى للعباد على آداب حقوق الصلحة ؛ فمن اختار صلحة أو أخوة فأدبه في أول ذلك أن يسلم نفسه وصاحبه إلى الله تعالى بالمسألة والدعاء والتضرع ويسأل البركة في الصلحة ، فإنه يفتح على نفسه بذلك إما باباً من أبواب الجنة وإما باباً من أبواب النار ؛ فإن كان الله تعالى يفتح بينهما خيراً فهو باب من أبواب الجنة ، قال الله تعالى (الآخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) وقيل : إن أحد الآخرين في الله تعالى يقال له : ادخل الجنة ، فيسأل عن منزل أخيه ، فإن كان دونه لم يدخل الجنة حتى يعطى أخوه مثل منزله ، فإن قيل له : لم يكن يعمل مثل عملك ، فيقول : إني كنت أعمل لى وله ، فيعطى جميع ما يسأل لأخيه ، ويرفع أخوه إلى درجته . وإن فتح الله تعالى عليهما بالصلحة شراً ، فهو باب من أبواب النار ، قال الله تعالى (ويوم بعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ياويلنى ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً) وإن كانت الآية وردت في قصة مشهورة ، ولكن الله تعالى نبه بذلك عباده على الحذر من كل خليل يقطع عن الله واختيار الصلحة والأخوة اتفاقاً من غير نية في ذلك ، وثبت في أول الأمر شأن أرباب الغفلة الجاهلين بالنيات والمقاصد والمنافع والمضار .

وقد قال عبدالله بن عباس رضى الله عنهما في كلام له : وهل يفسد الناس إلا الناس ؛ فالفساد بالصلحة متوقع ، والصلاح متوقع ، وما هذه سبيله كيف لا يحذر في أوله ويحكم الأمر فيه بكثرة اللجأ إلى الله تعالى وصدق الاختيار وسؤال البركة والخيرة في ذلك وتقديم صلاه الاستخارة .

ثم إن اختيار الصلحة والأخوة عمل ، وكل عمل يحتاج إلى النية وإلى حسن الخاتمة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام في الخبر الطويل : سبعة يظلمهم الله تعالى . . فمنهم : اثنان تحابا في الله فعاشا على ذلك وماتا عليه . إشارة إلى أن الأخوة والصلحة من شرطها حسن الخاتمة حتى يكتب لهما ثواب المؤاخاة ، ومتى أفسد المؤاخاة بتضييع الحقوق فيها فسد العمل من الأول .

قيل : ما حسد الشيطان متعاونين على بر حسده . متآخين في الله متحابين فيه ، فإنه يجهد نفسه ويبحث قبيله على إفساد ما بينهما .

وكان الفضيل يقول : إذا وقعت الغيبة ارتفعت الأخوة ، والأخوة في الله تعالى مواجهة ، قال الله (إخوانا على سرر متقابلين) ومتى أضمر أحدهما للآخر سوءاً أو كره منه شيئاً ولم ينهه عليه حتى يزيله أو يتسبب إلى إزالته منه فما واجهه ، بل استدبره .

قال الجنيد رحمه الله : ما تواخى اثنان في الله واستوحش أحدهما إلا لعلته في أحدهما . فالؤاخاة في الله أصنى من الماء الزلال ، وما كان لله فالله مطالب بالصفاء فيه وكل ماصفا دام ، والأصل في دوام صفائه عدم المخالفة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعداً فتخلفه ، . قال أبو سعيد الخراز : صحبت الصوفية خمسين سنة ما وقع بيني وبينهم خلاف . فقل له . وكيف ذلك ؟ قال : لاني كنت معهم على نفسى .

أخبرنا شيخنا أبو النجيب السهروردي إجازة ، قال أخبرنا عمر بن أحمد الصفار ، قال أخبرنا أبو بكر أحمد بن خلف قال أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي قال : سمعت عبد الله الداراني قال : سمعت أبا عمرو الدمشقي الرازي يقول سمعت أبا عبد الله بن الجلاء يقول وقد سأله رجل : على أى شرط أصحب الخلق ؟ فقال : إن لم تبرهم فلا تؤذهم ، وإن لم تسرم فلا تسؤم .

وبهذا الإسناد قال أبو عبدالله . لا تضيع حق أخيك بما ينك وبينه من المودة والصدقة ، فإن الله تعالى فرض لكل مؤمن حقوقاً لم يضيعها إلا من لم يراع حقوق الله عليه .

ومن حقوق الصلحة : أنه إذا وقع فرقة ومباينة لا يذكر أخاه إلا بخير . وقيل : كان لبعضهم زوجة وكان يعلم منها ما يكره ؛ فكان يقال له استخبارا عن حالها فيقول : لا ينبغي للرجل أن

يقول في أهله إلا خيرا ، ففارقها وطلقها ، فاستخبر عن ذلك فقال : امرأة بعدت عني وليست مني في شيء كيف أذكرها ؟ وهذا من التخلق بأخلاق الله تعالى أنه سبحانه يظهر الجليل ويستر القبيح .

وإذا وجد من أحدهما ما يوجب التقاطع فهل يبغضه أولا ؟ اختلف القول في ذلك ، كأن أبو ذر يقول : إذا انقلب عما كان عليه أبغضه من حيث أحبته . وقال غيره لا يبغض إلا بعد الصلابة ولكن يبغض عمله ، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ولم يقل إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ . وقيل : كان شاب يلزم مجالس أبي الدرداء وكان أبو الدرداء يميزه على غيره ، فابتلى الشاب بكبيرة من الكبائر وانتهى إلى أبي الدرداء ما كان منه ، فقيل له : لو أبعدته وهجرته ؟ فقال : سبحانه الله لا يترك صاحب بشيء كان منه .

قيل : الصداقة لحة كلحمة النسب . وقيل لحكيم مرة : أيما أحب إليك ، أخوك أو صديقك ؟ فقال : إنما أحب أخى إذا كان صديقي ، وهذا الخلاف في المفارقة ظاهر أو باطنا . وأما الملازمة باطنا إذا وقعت المباشرة ظاهرة اختلف باختلاف الأشخاص ، ولا يطلق القول فيه إطلاقا من غير تفصيل ، فمن الناس من كان تغيره رجوعا عن الله وظهور حكم سوء السابقة ، فيجب بغضه وموافقة الحق فيه . ومن الناس من كان تغيره عثرة حدثت وفترة وقعت يرجى عوده فلا ينبغي أن يبغض ولا يكن يبغض عمله في الحالة الحاضرة ، ويلحظ بعين الرد منتظرا له الفرج والعود إلى أوطان الصلح ، فقد ورد : أن النبي عليه الصلاة والسلام لما شتم القوم الرجل الذي أتى بفاحشة قال « مه » وزجرهم بقوله « ولا تكونوا عوناً للشيطان على أخيك » .

وقال إبراهيم التيمي . لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب يذنبه ، فإنه يركبه اليوم ويتركه غداً .
وفي الخبر « اتقوا زلة العالم ولا تقطعوه وانتظروا فينته » .

وروى أن عمر رضي الله عنه سأل عن أخ له كان آخاه فخرج إلى الشام ، فسأل عنه بعض من قدم عليه فقال : ما فعل أخى ؟ فقال له : ذاك أخو الشيطان . قال له : مه ، قال له : إنه قارف الكبائر حتى وقع في الخمر ، فقال . إذا أردت الخروج فأذن ، قال فكتب إليه ﴿ حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ﴾ ثم عاتبه تحت ذلك وعذله ، فلما قرأ الكتاب بكى فقال صدق الله تعالى ونصح عمر ، فتاب ورجع .
وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ابن عمر يلتفت يمينا وشمالا فسأله فقال : يا رسول الله ، آخيت رجلا فأنا أطلبه ولا أراه ، فقال . يا عبد الله ، إذا آخيت أحدا فاسأله عن اسمه واسم أبيه وعن منزله ، فإن كان مريضا عدته ، وإن كان مشغولا أعنته .

وكان يقول ابن عباس رضي الله عنهما : ما اختلف رجل إلى مجلسي ثلاثا من غير حاجة تكون له فعلت ما مكافأته في الدنيا .

وكان يقول سعيد بن العاص . لجليسى على ثلاث : إذا دار حبت به ، وإذا حدث أقبلت عليه ، وإذا جلس أوسعت له .
وعلاوة خلوص المحبة لله تعالى : أن لا يكون فيها شائبة حظ عاجل من رفق أو إحسان ، فإن ما كان معلولا يؤول بزوال علته ، ومن لا يستند في خلته إلى علة يحكم بدوام خلته .

ومن شرط الحب في الله إظهار الأخ بكل ما يقدر عليه من أمر الدين والدنيا . قال الله تعالى ﴿ يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ فقوله تعالى ﴿ لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ﴾ أى لا يجدون إخوانهم على ما لهم ، وهذان الوصفان بهما يكمل صفو المحبة ، أحدهما انزعاج الحسد على شيء من أمر الدين والدنيا . والثاني : الإيثار بالمقدور . وفي الخبر عن سيد البشر عليه الصلاة والسلام « المرأة على دين خليله ولا خير لك في صحبة من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه » .

وكان يقول أبو معاوية الأسود : إخواني كلهم خير مني . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : كلهم يرى لي الفضل عليه ، ومن فضلتني على نفسه فهو خير مني .

ولبعضهم نظماً : تذلل لمن إن تذلت له يرى ذاك للفضل لا للبله
وجانب صداقة من لم يزل على الاصدقا يرى الفضل له

الباب الخامس والخمسون : في آداب الصحبة والأخوة

سئل أبو حفص عن أدب الفقراء في الصحبة . فقال : حفظ حرمان المشايخ ، وحسن العشرة مع الإخوان ، والنصيحة للأصاغر ، وترك صحبة من ليس في طبقتهم ، وملازمة الإيثار ، ومجانبة الادخار ، والمعاونة في أمر الدين والدنيا .

فمن أدهم : التغافل عن زلل الإخوان ، والنصح فيما يجب فيه النصيحة ، وكم عيب صاحبه ، وإطلاعه على عيب يعلم منه .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : رحم الله امرأ أهدى إلى عيبي . وهذا فيه مصلحة كلية تكون للشخص بمن ينهيه على عيبيه . قال جعفر بن برقان . قال لي ميمون بن مهران : قل لي في وجهي ما أكره فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكرهه ، فإن الصادق يجب من يصدقه ، والكاذب لا يجب الناصح . قال الله تعالى : (ولكن لا تحبون الناصحين) والنصيحة ما كانت في السر .

ومن آداب الصوفية : القيام بخدمة الإخوان واحتمال الأذى منهم ، فبذلك يظهر جوهر الفقير . وروى أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أمر بقلع ميزاب كان في دار العباس بن عبد المطلب إلى الطريق بين الصفا والمروة ، فقال له العباس : قلنا ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وضعه بيده ، فقال : إذن لا يردده إلى مكانه غير يدك ، ولا يكون لك سلم غير عاتق عمر ، فأقامه على عاتقه ورده إلى موضعه .

ومن أدهم : أن لا يرون لنفسهم ملكاً يختصون به ، قال إبراهيم بن شيبان : كنا لانسحب من يقول نعلي . أخبرنا بذلك رضي الدين عن أبي المظفر عن والده أبي القاسم القشيري قال : سمعت أبا حاتم الصوفي قال : سمعت أبا نصر السراج يقول ذلك . وقال أحمد بن القلانسي : دخلت على قوم من الفقراء يوماً بالبصرة فأكرموني وبجلوني فقلت يوماً لبعضهم : أين لازاري ؟ فسقطت من أعينهم .

وكان إبراهيم بن أدهم إذا صحبه إنسان شارطه على ثلاثة أشياء : أن تكون الخدمة والأذان له ، وأن تكون يده في جميع ما يفتح الله عليهم من الدنيا كيده فقال رجل من أصحابه : أنا لأقدر على هذا . فقال : أعجبني صدقك وكان إبراهيم بن أدهم ينظر البسائين ويعمل في الحصاد وينفق على أصحابه .

وكان من أخلاق السلف : أن كل من احتاج إلى شيء من مال أخيه استعمله من غير مؤامرة . قال الله تعالى (وأمرهم شورى بينهم) أي مشاع فيه سواء .

ومن أدهم أنهم إذا استقلوا صاحباً يهتمون أنفسهم ويتسببون في إزالة ذلك من بواطنهم ، لأن أنظار الضمير على مثل ذلك للمصاحب وليجة في الصحبة .

قال أبو بكر الكتاني : صحبني رجل وكان على قلبي ثقيلاً ، فوهبت له شيئاً بنية أن يزول ثقله من قلبي ، فلم يزول ، فخلوت به يوماً وقلت له : ضع رجلك على خسدي ، فأبى ، فقلت له : لا بد من ذلك ، ففعل ذلك فزال ما كنت أجده في باطني .

قال الرقي : قصدت من الشام إلى الحجاز حتى سألت الكتاني عن هذه الحكاية .

ومن أدهم : تقديم من يعرفون فضله والتوسعة له في المجلس والإيثار بالمرضع روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالساً في صفة ضيقة ، فجاءه قوم من البدرين ، فلم يجدوا موضعاً يجلسون فيه ، فأقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من لم يكن من أهل بدر يجلسوا مكانهم ، فاشتد ذلك عليهم فأنزل الله تعالى (وإذا قيل انشروا

فانشروا ... الآية)

وحكى أن على بن بندار الصوفي ورد على أبي عبد الله بن خفيف زائراً قتهاشياً ، فقال له أبو عبد الله : تقدم ، فقال : بأى عذر ؟ فقال : بأنك لقيت الجنيد وما لقيته :

ومن أدبهم : ترك صحبة من همه شيء من فضول الدنيا : قال الله تعالى ﴿ فأعرض عن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحياة الدنيا ﴾ .

ومن أدبهم : بذل الإنصاف للإخوان وترك مطالبة الإنصاف : قال أبو عثمان الخيري : حق الصحبة أن توسع على أخيك من مالك ولا تطلع في ماله ، وتنصفه من نفسك ولا تطلب منه الإنصاف ، وتكون تبعاً له ولا تطمع أن يكون تبعاً لك وتستكثر ما يصل إليك منه وتستقل ما يصل إليه منك .

ومن أدبهم في الصحبة : لين الجانب وترك ظهور النفس بالصولة : قال أبو علي الروذباري : الصولة على من فوقك قحة ، وعلى من مثلك سوء أدب ، وعلى من دونك عجز .

ومن أدبهم : أن لا يجرى في كلامهم : لو كان كذا لم يكن كذا وليت كان كذا وعسى أن يكون كذا ، فإنهم يرون هذه التقديرات عليه اعتراضاً .

ومن أدبهم في الصحبة : حذر المفارقة والحرص على الملازمة ، قيل : صحب رجل رجلاً ثم أراد المفارقة ، فأستأذن صاحبه فقال : بشرط أن لا تصحب أحداً إلّا إذا كان فوقنا ، وإن كان فوقنا أيضاً فلا تصحبه لأنك صحبتنا أولاً ، فقال الرجل : زال عن قلبي نية المفارقة .

ومن أدبهم : التعطف على الأصاغر . قيل : كان إبراهيم بن آدم يعمل في الحصاد ويطعم الأصحاب ، وكانوا يجتمعون بالليل وهم صيام وربما كان يتأخر في بعض الأيام في العمل ؛ فقالوا أيلة : تعالوا ناكل فطورنا دونه حتى يعود بعد هذا يسرع ؛ فافطروا وناموا ، فرجع إبراهيم فوجدهم نياماً ، فقال : مساكين لعلهم لم يكن لهم طعام ، فعمد إلى شيء من الدقيق فعجنه ، فانتبهوا وهو ينفخ في النار واضعاً محاسنه على التراب ، فقالوا له في ذلك فقال : قلت لعلكم لم تجدوا فطوراً فنتم ، فقالوا : انظروا بأى شيء عاملناه وبأى شيء يعاملنا .

ومن أدبهم : أن لا يقولوا عند الدعاء إلى أين ؟ ولم ؟ وبأى سبب ؟ قال بعض العلماء : إذا قال الرجل للصاحب : قم بنا ، فقال : إلى أين ؟ فلا تصحبه : وقال آخر : من قال لأخيه أعطني من مالك فقال : كم تريد ؟ ما قام بحق الإخاء وقد قال الشاعر :

لا يسألون أخاه حين يندبهم للنائبات على ما قال برهانا

ومن أدبهم : أن لا يتكلفوا الإخوان قيل لما ورد أبو حفص العراق تكلف له الجنيد أنواعاً من الأطعمة ؛ فأنكر ذلك أبو حفص وقال : صير أصحابي مثل الخائث يقدم لهم الألوان .

والفتوة عندنا ترك التكلف وإحضار ما حضر ؛ فإن التكلف ربما يؤثر مفارقة الضيف ، وبترك التكلف يستوى مقامه وذمابه .

ومن أدبهم في الصحبة : المداراة وترك المدامنة ، وتشبه المداراة المدامنة والفرق بينهما : أن المداراة أوردت به صلاح أخيك فداريته لرجاء صلاحه واحتملت منه ما تكره . والمدامنة : ما قصد به شيئاً من الهوى من حظ أو إقامة جاه .

ومن أدبهم في الصحبة : رعاية الاعتدال بين الانقباض والانبساط : نقل عن الشافعي رحمه الله أنه قال : الانقباض عن الناس مكسبة لعداوتهم ، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء ، فكان بين المنقبض والمنبسط .

ومن أدبهم : ستر عورات الإخوان : قال عيسى عليه السلام لأصحابه : كيف تصنعون إذا رأيتم أحاكم نائماً فكشف الریح عنه ثوبه ؟ قالوا : نستره ونغطيه ، فقال : بل تكشفون عورته . قالوا : سبحان الله من يفعل هذا ؟

قال : أحكم يسمع في أخيه بالكلمة فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها .

ومن أدبهم : الاستغفار للإخوان بظهر الغيب ، والاهتمام لهم مع الله تعالى في دفع المكروه عنهم .

حكى أن أخوين ابتلى أحدهما بهوى فأظهر عليه أخاه فقال : إني ابتليت بهوى فإن شئت أن لاتعقد على محبتي لله فأفعل ، فقال : ما كنت لأحل عقد إختائك لأجل خطيئتك ، وعقد بينه وبين الله عقدا أن لا يأكل ولا يشرب حتى يعافيه الله تعالى من هواه ، وطوى أربعين يوما كلما يسأله عن هواه ، يقول : مازال ، فبعد الأربعين أخبره أن الهوى قد زال ، فأكل وشرب .

ومن أدبهم : أن لا يجوزوا صاحبهم إلى المداراة ولا يجشوه إلى الاعتذار ولا يتكفوا للصاحب ما يشق عليه ، بل يكونوا للصاحب من حيث هو مؤثرين مراد صاحب على مراد أنفسهم . قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : شر الأصدقاء من أحوجك إلى مداراة أو الجأك إلى اعتذار أو تكلفت له .

وقال جعفر الصادق : أقلل إخواني على من يتكاف لي وأتمفظ منه وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي ؛ فأداب الصلابة وحقوق الأخوة كثيرة ، والحكايات في ذلك يطول نقلها . وقد رأيت في كتاب الشيخ أبي طالب المكي رحمه الله من الحكايات في هذا المعنى شيئا كثيرا ؛ فقد أودع كتابه كل شيء حسن من ذلك وحاصل الجميع : أن العبد ينبغي له أن يكون لمولاه ويريد كل ما يريد لمولاه لئلا لنفسه ، وإذا صاحب شخصا تكون صحبته إياه لله تعالى ، وإذا صحبه لله تعالى يجتهد له في كل شيء يزيده عند الله زلفى ، وكل من قام بحقوق الله تعالى يرزقه الله تعالى علما بمعرفة النفس وعبوديتها ، ويعرفه محاسن الاخلاق ومحاسن الآداب ، ويوقفه من أداء الحقوق على بصيرة ويفقهه في ذلك كله ، ولا يفوته شيء مما يحتاج إليه فيما يرجع إلى حقوق الحق ، وفيما يرجع إلى حقوق الخلق ، فكل تقصير يوجد من خبث النفس وعدم تركيتها بقاء صفاتها عليه ، فإن صحبت ظلمت بالإفراط تارة وبالتفريط أخرى ، وتعدت الواجب فيما يرجع إلى الحق والخلق ، والحكايات والمواعظ والآداب وسماعها لا يعمل في النفس زيادة تأثير ، ويكون كثير يقلب فيه الماء من فوق فلا يمتك فيه ولا ينتفع به ، وإذا أخذت بالتقوى والزهد في الدنيا نفع منها ماء الحياة وتفقهت وعلمت وأدت الحقوق وقامت بواجب الآداب بتوفيق الله سبحانه وتعالى .

الباب السادس والخمسون : في معرفة الإنسان نفسه ومكاشفات الصوفية من ذلك

حدثنا شيخنا أبو النجيب السمروردي ، قال أخبرنا الشريف نور الهدى أبو طالب الزيني ، قال أخبرنا كريمة المروزية ، قالت أخبرنا أبو الهيثم الكشميهني قال أخبرنا أبو عبد الله الفريرى ، قال أخبرنا أبو عبد الله البخارى ، قال حدثنا عمر بن حفص ، قال حدثنا أبي ، قال حدثنا الأعمش ، قال حدثنا زيد بن وهب ، قال حدثنا عبد الله ، قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق قال : « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله تعالى إليه ملكا بأربع كلمات ، فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقى أم سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار » .

وقال تعالى ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ﴾ أى حرير لاستقرارها فيه إلى بلوغ أمدها ، ثم قال بعد ذكر تقلباته ﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر ﴾ قيل هذا الإنشاء نفخ الروح فيه .

واعلم أن الكلام في الروح صعب المرام والإمساك عن ذلك سبيل ذوى الأحلام ، وقد عظم الله تعالى شأن الروح وأنجل على الخلق بقلة العلم حيث قال ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ وقد أخبرنا الله تعالى في كلامه عن إكرامه بنى آدم فقال ﴿ ولقد كرمتنا بنى آدم ﴾ وروى : أنه لما خلق الله تعالى آدم وذريته قالت الملائكة : يارب خلقتهم يا كلون ويشربون وينكحون ، فأجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة ، فقال : وعزق وجلالي لأجعل ذرية من خلقت يدي كن قلت له كن فكان . فغ هذه الكرامة واختياره سبحانه وتعالى لإياهم على الملائكة لما أخبر عن الروح أخبر عنهم بقلة

العلم ، ، وقال (ويستلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ... الآية) قال ابن عباس : قالت اليهود للنبي عليه السلام : أخبرنا ما الروح ؟ وكيف تعذب الروح التي في الجسد ؟ وإنما الروح من أمر الله ولم يكن نزل إليه فيها شيء ، فلم يفهمهم ، فأناه جبرائيل بهذه الآية ، وحيث أمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإخبار عن الروح وماهيته بإذن الله تعالى ووحيه وهو صلوات الله عليه معدن العلم ويذبوع الحكمة ، فكيف يسوغ لغيره الخوض فيه والإشارة إليه لاجرم لما تقاضت الأنفس الإنسانية المتطاعة إلى الفضول المتشوقة إلى المعقول المتحركة بوضعها إلى كل ما أمره بالسكون فيه ، والمتسررة بحرصها إلى كل تحقيق وكل تمويه ، وأطلقت غنان النظر في مسارح الفكر ، وخاضت غمرات معرفة ماهية الروح تاهت في التيه وتنوعت آراؤها فيه ، ولم يوجد الاختلاف بين أرباب النقل والعقل في شيء كالاختلاف في ماهية الروح . ولو لزمت النفوس حدها معترفة بعجزها كان ذلك أجدر بها وأولى ؛ فأما أقاويل من ليس متمسكا بالشرائع فنزعه الكتاب عن ذكرها ، لأنها أقوال أبرزتها العقول التي ضلت عن الرشاد وطبعت على الفساد ، ولم يصبها نور الاهتداء ببركة متابعة الأنبياء ، فهم كما قال الله تعالى (كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا) ، (وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) فلما حججوا عن الأنبياء لم يسمعوا ، وحيث لم يسمعوا لم يهتدوا فأصر ، ا على الجهالات وحججوا بالمعقول عن المأمول ، والعقل حجة الله تعالى يهدي به قوما ويضل به قوما آخرين ؛ فلم تنقل أقوالهم في الروح واختلافهم فيه .

وأما المستمسكون بالشرائع الذين تكلموا في الروح ؛ فقوم منهم بطريق الاستدلال والنظر ، وقوم منهم بلسان الذوق والوجد لا باستعمال الفكر ، حتى تكلم في ذلك مشايخ الصوفية أيضاً ، وكان الأولى الإمساك عن ذلك والتأدب بأدب النبي عليه الصلاة والسلام .

وقد قال الجنيد : الروح شيء استأثر الله بعلمه ولا تجوز العبارة عنه بأكثر من موجود ، ولكن نجعل للصادقين محملاً لأقوالهم وأفعالهم .

ويجوز أن يكون كلامهم في ذلك بمثابة التأويل لكلام الله تعالى والآيات المنزلة ، حيث حرم تفسيره وجوز تأويله ، إذ لا يسمع القول في التفسير إلا نقل . وأما التأويل فتمتد العقول إليه بالباع الطويل ، وهو ذكر ما تحتل الآيات من المعنى من غير القطع بذلك ، وإذا كان الأمر كذلك فللقول فيه وجه ومحمل .

قال أبو عبد الله النباهي : الروح جسم يلطف عن الحس ويكبر عن اللمس ولا يدبر عنه بأكثر من موجود ، وهو وإن منع عن العبارة فقد حكم بأنه جسم ؛ فكأنه عبر عنه .

وقال ابن عطاء الله : خلق الله الأرواح قبل الأجساد ، لقوله تعالى (ولقد خلقناكم) يعني الأرواح (ثم صورناكم) يعني الأجساد .

وقال بعضهم : الروح لطيف قائم في كثيف ، كالبحر جوهر لطيف قائم في كثيف . وفي هذا القول نظر . وقال بعضهم : الروح عبارة والقائم بالاشياء هو الحق ، وهذا فيه نظر أيضاً إلا أن يحمل على معنى الإحياء ؛ فقد قال بعضهم : الإحياء صفة المحي ، كالتخليق صفة الخالق وقال (قل الروح من أمر ربي) وأمره كلامه ، وكلامه ليس بمخلوق ؛ أى صار الحى حياً بقوله : كن حياً ؛ وعلى هذا لا يكون الروح معنى في الجسد ، فن الأقوال ما يدل على أن قائله يعتقد قدم الروح ، ومن الأقوال ما يدل على أنه يعتقد حدوثه .

ثم إن الناس مختلفون في الروح الذي سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ، فقال قوم : هو جبرائيل . ونقل عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه أنه قال : هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه ، ولكل وجه منه سبعون ألف لسان ، ولكل لسان منه سبعون ألف لغة يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها ، ويخلق من كل تسبيحة ملائكة يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة .

وروى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : أن الروح خلق من خاق الله صورهم على صورة بنى آدم ، وما

نزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح .

وقال أبو صالح : الروح كهية الإنسان وليسوا بناس .

وقال مجاهد : الروح على صورة بنى آدم لهم أيد وأرجل ورموس يأكلون الطعام وليسوا بملائكة . وقال سعيد ابن جبير : لم يخلق الله خلقا أعظم من الروح غير العرش ، ولو شاء أن يبلغ السموات والأرضين السبع في لقمة لعمل ، صورة خلقه على صورة الملائكة ، وصورة وجهه على صورة الآدميين ، يقوم يوم القيامة عن يمين العرش والملائكة معه في صف واحد . وهو ممن يشفع لأهل التوحيد ، ولولا أن بينه وبين الملائكة سترا من نور لحرق أهل السموات من نوره ؛ فهذه الأقاويل لا تكون إلا نقلا وسماعا بلغهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، وإذا كان الروح المستول عنه شيئا من هذا المنقول فهو غير الروح الذي في الجسد ؛ فعلى هذا يسوغ القول في هذا الروح ولا يكون الكلام فيه ممنوعا .

وقال بعضهم : الروح لطيفة تسرى من الله إلى أما كن معروفة لا يدبر عنه بأكثر من موجود بإيجاد غيره .

وقال بعضهم : الروح لم يخرج من « كن » لأنه لو خرج من « كن » كان عليه الذل . قيل : فمن أى شيء خرج ؟ قال من بين جماله وجلاله سبحانه وتعالى بملاحظة الإشارة بخصها بسلامه وحياتها بكلامه ؛ فهي « متفة » من ذل « كن » . وسئل أبو سعيد الخزاز عن الروح ، أخلوقة هي ؟ قال : نعم ، ولولا ذلك ما أقرت بالربوبية ، حيث قال « بلى » والروح هي التي قام بها البدن واستحق بها اسم الحياة ، وبالروح ثبت العقل ، وبالروح قامت الحجة ؛ ولو لم يكن الروح كان العقل معطلا لاحجة عليه ولأله ، وقيل : إنها جوهر مخلوق ولكنها أطف المخلوقات وأصفي الجواهر وأنورها وبها تترامى المغيبات وبها يكون الكشف لأهل الحقائق ، وإذا حجب الروح عن مراعاة السير أساءت الجوارح الأدب ، ولذلك صارت الروح بين تجل واستتار وقابض ونازع ، وقيل : الدنيا والآخرة عند الأرواح سواء ، وقيل الأرواح أقسام : أرواح تجول في البرزخ وتبصر أحوال الدنيا والملائكة وتسمع ما يتحدث به في السماء عن أحوال الآدميين وأرواح تحت العرش ، وأرواح طيارة إلى الجنان وإلى حيث شاءت على أقدارها من السعي إلى الله أيام الحياة .

وروى سعيد بن المسيب عن سلمان قال : أرواح المؤمنين تذهب في برزخ من الأرض حيث شاءت بين السماء والأرض حتى يردّها إلى جسدّها .

وقيل : إذا ورد على الأرواح ميت من الأحياء التقوا وتحدّثوا وتساءلوا ، وكل الله بها ملائكة تعرض عليها أعمال الأحياء ، حتى إذا عرض على الأموات ما يعاقب به الأحياء في الدنيا من أجل الذنوب قالوا : نعمت إلى الله ظاهره عنه ، فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله تعالى . وقد ورد في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم « تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس على الله ، وتعرض على الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة ، فيفرحون بحسناتهم وتزداد وجوههم بياضا وإشراقا ، فانقوا الله تعالى ولا تؤذوا موتاكم .

وفي خبر آخر « إن أعمالكم تعرض على عشائركم وأقاربكم من الموتى ، فإن كان حسنا استبشروا ، وإن كان غير ذلك قالوا : اللهم لا تمنهم حتى تهديهم كما هديتنا .

وهذه الأخبار والأقوال تدل على أنها أعيان في الجسد ، وليست بمعان وأعراض .

سئل الواسطي : لأي علة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحلم الخلق ؟ قال : لأنه خلق روحه أولا فوق له حجة التمكن والاستقرار ، ألا تراه يقول « كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد ، أي لم يكن روحا ولا جسدا وقال بعضهم : الروح خلق من نور العزة ، وإبليس من نار العزة ، ولهذا قال « خلقتني من نار وخلقته من طين » ولم يدر أن النور خير من النار ، فقال بعضهم : قرن الله تعالى العلم بالروح ، فهي للطاقتها تنمو بالعلم كما ينمو البدن بالغذاء وهذا في علم الله ، لأن علم الخلق قليل لا يبلغ ذلك .

والمختار عند أكثر متكلمي الإسلام : أن الإنسانية والحيوانية عرضان خلقا في الإنسان ، والموت بعدهما ؛ وأن الروح هي الحياة بعينها صار البدن بوجودها حيا : وبالإعادة إليه في القيامة يصير حيا . وذهب بعض متكلمي الإسلام إلى أنه جسم لطيف مشتبك بالأجسام الكثيفة اشتباك الماء بالعود الأخضر ، وهو اختيار أبي المعالي الجويني ، وكثير منهم مال إلى أنه عرض ؛ إلا أنه ردم عن ذلك الأخبار الدالة على أنه جسم ، لما ورد فيه من العروج والهبوط والتردد في البرزخ ، بحيث وصف بأوصاف دل على أنه جسم ، لأن العرض لا يوصف بأوصاف ؛ إذ الوصف معنى والمعنى لا يقوم بالمعنى . واختار بعضهم أنه عرض .

سئل ابن عباس رضي الله عنهما قيل : أين تذهب الأرواح عند مفارقة الأبدان ؟ فقال : أين يذهب ضوء المصباح عند فناء الأدهان ، قيل له : فأين تذهب الجسوم إذا بليت . قال : فأين يذهب لحمها إذا مرضت .

وقال بعض من يتهم بالعلوم المردودة المذمومة وينسب إلى الإسلام : الروح تنفصل من البدن في جسم لطيف وقال بعضهم : إنها إذا فارقت البدن تحمل معها القوة الوهمية بتوسط النطقية ، فتكون حينئذ مطالعة للمعاني والمحسوسات ، لأن تجردها من هيآت البدن عند المفارقة غير ممكن ، وهي عند الموت شاعرة بالموت وبعدم الموت ؛ متخلية بنفسها مقبورة ، وتتصور جميع ما كانت تعتقده حال الحياة ، وتحس بالثواب والعقاب في القبر . وقال بعضهم : أسلم المقالات أن يقال : الروح شيء مخلوق أجرى الله تعالى العادة أن يحيي البدن مادام متصلا به ، وأنه أشرف من الجسد يذوق الموت بمفارقة الجسد ، كما أن الجسد بمفارقه يذوق الموت ، فإن الكيفية والمساهية يتعاشى العقل فيهما كما يتعاشى البصر في شعاع الشمس . ولما رأى المتكلمون أنه يقال لهم : الموجودات محصورة : قديم ، وجسم ، وجوهر ، وعرض فالروح من أي هؤلاء ؟ فاختار قوم منهم أنه عرض . وقوم منهم أنه جسم لطيف كذا ذكرنا ، واختار قوم أنه قديم لأنه أمر والأمر كلام والكلام قديم ، فإحسن الإمساك عن القول فيما هذا سبيله . وكلام الشيخ أبي طالب المكي في كتابه يدل على أنه يميل إلى أن الأرواح أعيان في الجسد ، وهكذا الفرس ، لأنه يذكر أن الروح تنحرك للخير ، ومن حركتها يظهر نور في القلب يراه الملك فيلهم الخير عند ذلك . وتنحرك للشر ، ومن حركتها تظهر ظلمة في القلب فيرى الشيطان الظلمة فيقبل بالإغواء .

وحيث وجدت أقوال المشايخ تشير إلى الروح أقوال : ما عندي في ذلك على معنى ما ذكرت من التأويل دون أن أقطع به ، إذ ميل في ذلك إلى السكوت والإمساك ، فأقول والله أعلم : الروح الإنساني العلوي السماوي من عالم الأمر ، والروح الحيواني البشري من عالم الخلق ، والروح الحيواني البشري محل الروح العلوي ومورده . والروح الحيواني جسماني لطيف حامل لقوة الحس والحركة ، ينبعث من القلب - أعني بالقلب ههنا . المصنعة للحمية المعروفة الشكل المودعة في الجانب الأيسر من الجسد ، وينتشر في تجاريف العروق الصوارب ، وهذه الروح لسائر الحيوانات ، ومنه تفيض قوى الحواس وهو الذي قوامه بإجراء سنة الله بالغذاء غالباً ويتصرف به لم الطب فيه باعتدال مزاج الأخلط ولورود الروح الإنساني العلوي على هذا الروح تجلس الروح الحيواني وبأين أرواح الحيوانات ، واكتسب صفة أخرى فصار نفساً محلاً للنطق والإلهام . قال الله تعالى (ونفس وما واهها فآلهما وثقواها) فتسويتها بورود الروح الإنساني عليها وانقطاعها عن جسد أرواح الحيوانات ، فتكونت النفس بتكوين الله تعالى من الروح العلوي وصار تكون النفس التي هي الروح الحيواني من الأدنى من الروح العلوي في عالم الأمر ، كتكون حواء من آدم في علم الخلق ، وصار بينهما من التألف والتماشق كما بين آدم وحواء ، وصار كل واحد منهما يذوق الموت بمفارقة صاحبه قال الله تعالى (وجعل منها زوجها ليسكن إليها) فبئس آدم إلى حواء ، وسكن الروح الإنساني العلوي إلى الروح الحيواني وصيره نفساً ، وتكون من سكن الروح إلى النفس القلب ، وأعني بهذا القلب اللطيفة التي محلها المصنعة للحمية ، فالمصنعة للحمية من عالم الخلق ، وهذه اللطيفة من عالم الأمر ، وكان تكون القلب من الروح والنفس في عالم الأمر كتكون الذرية من آدم وحواء في عالم الخلق ، ولولا المساكنة بين الزوجين الذين أحدهما النفس ما تكون القلب ، فمن القلوب قلب

متطلع إلى الآب الذي هو الروح العلوى ميال إليه ، وهو القلب المؤيد الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه حذيفة رضي الله عنه قال : والقلوب أربعة : قلب أجرد فيه سراج برزهر فذلك قلب المؤمن ، وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر ، وقلب مربوط على غلانه فذلك قلب المنافق ، وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق ، فمثل الإيمان فيه مثل البقلة يمدّها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القيح والصدید ، فأى المادتين غلبت عليه حكم له بها ، والقلب المنكوس ميال إلى الأم التي هي النفس الامارة بالسوء ومن القلوب قلب متردد في ميله إليها ، وبحسب غلبة ميل القلب يكون حكمه من السعادة والشقاوة ، والعقل جوهر الروح العلوى ولسانه والدال عليه ، وتديره للقلب المؤيد والنفس الزكية المطمئنة تدبير الوالد للولد البار ، والزوج للزوجة الصالحة ؛ وتديره للقلب المنكوس والنفس الامارة بالسوء تدبير الوالد للولد العاق ، والزوج للزوجة السيئة ؛ فنكوس من وجه ومنجذب إلى تدبيرهما من وجه ؛ إذ لابد له منهما .

وقول القائلين واختلافهم في محل العقل : فمن قائل إن محل الدماغ ، ومن قائل إن محل القلب كلام القاصرين عن درك حقيقة ذلك ، واختلافهم في ذلك لعدم استقرار العقل على نسق واحد ، وانجذابه إلى البارئاة وإلى العاق أخرى وللقلب والدماغ نسبة إلى البار والعاق ، فإذا رأى في تدبير العاق قيل مسكنة الدماغ ، وإذا رأى في تدبير البار قيل مسكنة القلب ؛ فالروح العلوى بهم بالارتفاع إلى مولاة شوقا وحنا وتنزها عن الأكوان ، ومن الأكوان القلب والنفس ؛ فإذا ارتقى الروح يحضر القلب إليه حتى والود الحنين البار إلى الوالد ، وتحن النفس إلى القلب الذي هو الولد حين الولادة الحنيئة إلى ولدها ، وإذا حنت النفس ارتقت من الأرض وانزوت عررقها الضاربة في العالم السفلى وانطوى هواها وانحسرت مآرته وزهدت في الدنيا وتجاغت عن دار الغرور وأنابت إلى دار الخلود ، وقد تجلّدت النفس التي هي الأم إلى الأرض بوضعها الجبلى لتسكنها من الروح الحيوانى المجنس ومستندها في ركونها إلى الطبايع التي هي أركان العالم السفلى . قال الله تعالى (ولو شئنا لرفعناه بها وإلكنه أخذنا إلى الأرض واتبع هواه) فإذا سكنت النفس التي هي الأم إلى الأرض انجذب إليها القلب المنكوس انجذاب الولد الميال إلى الوالدة المعرّجة الناقصة دون الوالد الكامل المستقيم ، وينجذب الروح إلى الولد الذي هو القلب لما جبل عليه من انجذاب الوالد إلى ولده ، فحذ ذلك يتخلف عن حقيقة القيام بحق مولاة . وفي هذين الانجذابين يظهر حكم السعادة والشقاوة (ذلك تقدير العزيز العليم) . وقد ورد في أخبار داود عليه السلام أنه سأل ابنه سليمان : أين موضع العقل منك ؟ قال : القلب ؛ لأنه قالب الروح ، والروح قالب الحياة .

وقال أبو سعيد القرشي : الروح روحان روح الحياة وروح الممات ؛ فإذا اجتمع عقل الجسم وروح الممات هي التي إذا خرجت من الجسد يصير الحى ميتا ، وروح الحياة مابه مجارى الأنفاس وقوة الأكل والشرب وغيرهما . وقال بعضهم : الروح نسيم طيب يكون به الحياة ، والنفس ريح حارة تكون منها الحركات المذمومة والشهوات ويقال : فلان حار الرأس وفي الفصل الذى ذكرناه يقع التنبيه بماهية النفس ، وإشارة المشايخ بماهية النفس إلى ما يظهر من أثارها من الافعال المذمومة والاخلاق المذمومة ، وهى التي تعالج بحسن الرياضة لإزالتها وتبديلها ، مما لا فعال الرديئة تزال والاخلاق الرديئة تبدل .

أخبرنا الشيخ العالم رضى الدين أحمد بن اسمعيل القزوينى ، قال أخبرنا إجازة أبو سعيد محمد بن أبى العباس الخليلي ، قال أخبرنا القاضي محمد بن سعيد الفرخزادى ، قال أخبرنا أبو إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم ، قال أخبرنا الحسين بن محمد بن عبد الله السفياني ، قال حدثنا محمد بن الحسن اليقطيني ، قال حدثنا أحمد بن عبد الله بن يزيد العقيلي ، قال حدثنا صفوان بن صالح ، قال حدثنا الوليد بن مسلم عن ابن لهيعة عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبى هلال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية (قد أفلح من زكاهما) وقف ثم قال : اللهم أنت تقبى تقواها أنت وليها ومولاها وزكها أنت خير من زكاهما . . .

وقيل : النفس لطيفة مودعة في الغالب ، منها الأخلاق والصفات المذمومة ، كما أن الروح لطيفة مودعة في القلب ، منها الأخلاق والصفات الحمودة ، كما أن العين محل الرؤية ، والأذن محل السمع ، والأنف محل الشم ، والفم محل الذوق ، وهكذا النفس محل الأوصاف المذمومة والروح محل الأوصاف الحمودة ، وجميع أخلاق النفس وصفاتها من أصليين ، أحدهما الطيش ، والثاني الشره ، وطيشها من جهلها ، وشرها من حرصها ، وشبهت النفس في طيشها بكرة مستديرة على مكان أملس مصوب ، لا تزال متحركة بجبلاتها ووضعها ، وشبهت في حرصها بالفراس الذي يلقي نفسه على ضوء المصباح ولا يقنع بالضوء اليسير دون الهجوم على جرم الضوء الذي فيه هلاكه ، فمن الطيش توجد العجلة وقلة الصبر ، والصبر جوهر العقل ، والطيش صفة النفس ، وهواها وروحها لا يتلبه إلا الصبر ، إذ العقل يقمع الهوى ، ومن الشره يظهر الطمع والحرص ، وهما اللذان ظهرا في آدم حيث طمع في الخلود ، فحرص على أكل الشجرة ،

وصفات النفس لها أصول من أصل تكونها ، لأنها مخلوقة من تراب ، ولها بحسبه وصف ، وقيل وصف الضمير في الآدمي من التراب ، ووصف البخل فيه من الطين ، ووصف الشهوة فيه من الخا المسنون ، ووصف الجهل فيه من الصلصال . وقيل قوله (كالفخار) فهذا الوصف فيه شيء من الشيطنة لدخول النار في الفخار ؛ فمن ذلك الخداع والحيل والحسد ؛ فمن عرف أصول النفس وجبلاتها عرف أن لا قدرة له عليها إلا بالاستعانة ببارئها وفاطرها ، فلا يتحقق العبد بالإنسانية إلا بعد أن يدبر ذواعي الحيوانية فيه بالعلم والعدل ، وهو رعاية طرفي الإفراط والتفريط ، ثم بذلك تتقوى إنسانيته ومعناه ويدرك صفات الشيطنة فيه والأخلاق المذمومة ، وكما إنسانيته يتقاضاه أن لا يرضى لنفسه بذلك ، ثم تنكشف له الأخلاق التي تنازع بها الربوبية من الكبر والعز ورؤية النفس والمعجب وغير ذلك ، فيرى أن صرف العبودية في ترك المنازعة للربوبية ، والله تعالى ذكر النفس في كلامه القديم بثلاثة أوصاف ؛ بالطمأنينة . قال (يا أيها النفس المطمئنة) وسماها لومة ، قال (لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة) وسماها أمارة ، فقال (إن النفس لأمارة بالسوء) وهي نفس واحدة . ولها صفات متغيرة ، فإذا امتلأ القلب سكونية خلعت على النفس خلعت الطمأنينة ، لأن السكونية تزيد الإيمان ، وفيها ارتقاء القلب إلى مقام الروح لما منح من حظ اليقين ، وعند توجه القلب إلى محل الروح تتوجه النفس إلى محل القلب ، وفي ذلك طمأنينتها ؛ وإذا انزعجت من مقام جبلاتها ودواعي طبيعتها متطلعة إلى مقام الطمأنينة فهي لومة ؛ لأنها تعود باللائمة على نفسها لنظرها وعلوها بمحل الطمأنينة ثم انجذابها إلى محلها التي كانت فيه أمارة بالسوء ؛ وإذا أقامت في محلها لا ينشأها نور العلم والمعرفة ، فهي على ظلمتها أمارة بالسوء ؛ فالنفس والروح يتطاردان ؛ فتارة يملك القلب دواعي الروح ، وتارة يملكه دواعي النفس .

وأما السر فقد أشار القوم إليه . ووجدت في كلام القوم أن منهم من جعله بعد القلب وقبل الروح . ومنهم من جعله بعد الروح وأعلى منها والطف . وقالوا : السر محل المشاهدة ، والروح محل المحبة ، والقلب محل المعرفة ، والسر الذي وقعت إشارة القوم إليه غير مذكور في كتاب الله ، وإنما المذكور في كلام الله الروح والنفس ، وتنوع صفاتها والقلب والفؤاد والعقل ، وحيث لم نجد في كلام الله تعالى ذكر السر بالمعنى المشار إليه ، ورأينا الاختلاف في القوم فيه وأشار قوم إلى أنه دون الروح ، وقوم إلى أنه أطف من الروح ؛ فنقول - والله أعلم - الذي سموه سرا ليس هو بشيء مستقل بنفسه له وجود وذات كالروح والنفس ، وإنما لما صفت النفس وتركزت انطلق الروح من وثاق ظلمة النفس ، فأخذ في الخروج إلى أوطان القرب ، وانزعج القلب عند ذلك عن مستقره متطلعا إلى الروح ؛ فاكتمسب وصفا زائدا على وصفه ، فانهجم على الواجدين ذلك الوصف حيث رأوه أصنى من القلب فسموه سرا . ولما صار للقلب وصف زائد على وصفه بتطلعه إلى الروح اكتسب الروح وصفان أيضا في عروجه وانعجم على الواجدين فسموه سرا ، والذي زعموا أنه أطف من الروح : روح متصفة بوصف أخص بما عهدوه ، والذي سموه قبل الروح سرا : هو قلب انصف بوصف زائد غير ما عهدوه ، وفي مثل هذا الترقى من الروح والقلب تترقى النفس إلى محل القلب ، وتتخذ من وصفها فتصير نفسها مطمئنة تريد كثيرا من مرادات القلب من قبل إذ صار القلب يريد ما يريد

مولاه متبرعا عن الحول والقوة والإرادة والاختيار ، وعندها ذاق طعم صرف العبودية حيث صار حرا عن إرادته واختياراته .

وأما العقل فهو لسان الروح وترجمان البصيرة ، والبصيرة للروح بمثابة القلب ، والعقل بمثابة اللسان . وقد ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أول ما خلق الله العقل ، فقال له أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، ثم قال له أقعد فقع ، ثم قال له انطلق فطلق ، ثم قال له اصمت فصمت . فقال : وعزى وجلالى وعظمتى وكبريائى وسلطائى وجبروتى ما خلقت خلقا أحب إلى منك ولا أكرم على منك ، بك أعرف وبك أحمى ، وبك أطاع وبك أخذ وبك أعطى ، وإياك أعاتب ، ولك الثواب وعليك العقاب ، وما أكرمك بشيء أفضل من الصبر ، وقال عليه السلام : لا يعجبكم إسلام رجل حتى تعلموا ما عقله عقله . وسألت عائشة رضى الله عنها النبي صلى الله عليه وسلم قالت : قلت يا رسول الله : بأى شيء يتفاضل الناس ؟ قال : « بالعقل فى الدنيا والآخرة » قالت : أليس يحزى الناس بأعمالهم ؟ قال : « يا عائشة ، وهل يعمل بطاعة الله إلا من قد عقل فبقدر عقولهم يعملون وعلى قدر ما يعملون يحزون ، وقال عليه السلام : إن الرجل لينطلق إلى المسجد فيصلى وصلاته لاتعدل جناح بعوضة ، وإن الرجل لياتى المسجد فيصلى وصلاته تعدل جبل أحد إذا كان أحسنهما عقلا ، قيل : وكيف يكون أحسنهما عقلا ؟ قال : « أورعهما عن محارم الله وأحرصهما على أسباب الخير وإن كان دونه فى العمل والتطوع » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الله تعالى قسم العقل بين عباده أشنتا ، فإن الرجلين يستوى عليهما وبرهما وصورهما وصلاتهما ولكنهما يتفاوتان فى العقل كالذرة فى جنب أحد » .

وروى عن وهب بن منبه أنه قال : « إني أجد فى سبعين كتابا أن جميع ما أعطى الناس من بدء الدنيا إلى انقطاعها من العقل فى جنب عقل رسول الله صلى الله عليه وسلم كهيئة رملة وقعت من بين جميع رمال الدنيا » .

واختلف الناس فى ماهية العقل ، والكلام فى ذلك يكثر ، ولا تؤثر نقل الأقاويل ، وليس ذلك من غرضنا ، فقال قوم : العقل من العلوم ؛ فإن الخالى من جميع العلوم لا يوصف بالعقل ، وليس العقل جميع العلوم ؛ فإن الخالى عن معظم العلوم يوصف بالعقل . وقالوا : ليس من العلوم النظرية ، فإن من شرط ابتداء النظر تقدم كمال العقل ؛ فهو إذن من العلوم الضرورية وليس هو جميعها ، فإن صاحب الخواص المختلة عاقل وقد عدم بعض مدارك العلوم الضرورية .

وقال بعضهم : العقل ليس من أقسام العلوم ؛ لأنه لو كان منها لوجب الحكم بأن الداهل عن ذكر الاستحالة والجواز لا يتصف بكونه عاقلا ونحن نرى العاقل فى كثير من أوقافه ذاهلا وقالوا : هذا العقل صفة يتبها بهادرك العلوم ونقل عن الحارث بن أسد المحاسبى وهن من أجل المشايخ أنه قال : العقل غريزة يتبها بها درك العلوم ، وعلى هذا يتقرر ما ذكرناه فى أول ذكر العقل : أنه لسان الروح ؛ لأن الروح من أمر الله ، وهى المتحملة للأمانة التى أبت السموات والأرضون أن يحملنها ، ومنها يفيض نور العقل وفى نور العقل تتشكل العلوم ؛ فالعقل للعلوم بمثابة اللوح المكتوب ، وهو بصفته منكوس متطلع إلى النفس تارة ومنتصب مستقيم تارة ، فمن كان العقل فيه منكوسا إلى النفس فرقه فى أجزاء الكون وعدم حسن الاعتدال بذلك وأخطأ طريق الاهتداء ، ومن انتصب العقل فيه واستقام : تأيد العقل بالبصيرة التى هى للروح بمثابة القلب ، واهتدى إلى المسكون ، ثم عرف الكون بالمسكون : مستوفيا أقسام المعرفة بالمسكون والكون ؛ فيكون هذا العقل عقل الهداية ؛ فسما أحب الله إقباله فى أمر دله على إقباله عليه ، وما كرمه الله فى أمر دله على الإدبار عنه ؛ فلا يزال يتبع محاب الله تعالى ويحتجب بمساخطه ، وكلما استقام العقل وتأييد بالبصيرة كانت دلالاته على الرشد ونهيه عن النى .

قال بعضهم : العقل على ضربين : ضرب يبصر به أمر دنياه ، وضرب يبصر به أمر آخرته ، وذكر أن العقل الأول من نور الروح ، والعقل الثانى من نور الهداية ؛ فالعقل الأول موجود فى عاقل ولد آدم ، والعقل الثانى

موجود في الموحدين مفقود من المشركين .

وقيل : إنما سمى العقل عقلا لأن الجهل ظلمة ، فإذا غلب النور بصره في تلك الظلمة زالت الظلمة فأبصر فصار عقلا للجهل .

وقيل : عقل الإيمان مسكنه في القلب ومتعمله في الصدر بين عيني الفؤاد ، والذي ذكرناه من كون العقل لسان الروح - وهو عقل واحد ليس هو على ضربين ، ولكنه إذا انتصب واستقام تأيد بالبصيرة واعتدل ووضع الأشياء في مواضعها ، وهذا العقل هو المستضيء بنور الشرع ؛ لأن انتصابه واعتداله هداية إلى الاستضاءة بنور الشرع ، ليكون الشرع ورد على لسان النبي المرسل ، وذلك لقرب روحه من الحضرة الإلهية ومكاشفة بصيرته التي هي الروح بمثابة القاب بقدرة الله وآياته واستقامة عقله بتأييد البصيرة ، فالبصيرة تحيط بالعلوم التي يستوعبها العقل والتي يضيق عنها نطاق العقل ، لأنها تستمد من كلمات الله التي ينفذ البحر دون نفادها ، والعقل ترجان تؤدي البصيرة إليه من ذلك شطرا ، كما يؤدي القلب إلى اللسان بعض مافيهِ ويستأثر ببعضه دون اللسان ، ولهذا المعنى من جدد على مجرد العقل من غير الاستضاءة بنور الشرع حظي بعلوم الكائنات التي هي الملك ، والملك ظاهر الكائنات . ومن استضاء عقله بنور الشرع تأيد بالبصيرة فاطلع على الملكوت ، والملكوت باطن الكائنات اختص بمكاشفته أرباب البصائر والعقول دون الجامدين على مجرد العقول ، وقد قال بعضهم : إن العقل عقلان ، عقل للهداية مسكنه في القلب وذلك للؤمنين الموقنين ومتعمله الصدر بين عيني الفؤاد ، والعقل الآخر مسكنه في الدماغ ومتعمله في الصدر بين عيني الفؤاد ، فبالأول يدبر أمر الآخرة ، وبالثاني يدبر أمر الدنيا ، والذي ذكرناه أنه عقل واحد إذا تأيد بالبصيرة دبر الأمرين ، وإذا انفرد دبر أمر واحد وهو أوضح وأبين . وقد ذكرنا في أول الباب من تدبيره للنفس المطمئنة والامارة ما ينتبه الإنسان به على كونه عقلا واحدا مؤيدا بالبصيرة تارة ومنفردا بوصفه تارة . والله الملم للمصواب ،

الباب السابع والخسون : في معرفة الخواطر وتفصيلها وتمييزها

أخبرنا شيخنا أبو التجيب الهروردي ، قال أخبرنا أبو الفتح الهروي ، قال أخبرنا أبو نصر الترياق ، قال أخبرنا أبو محمد الجراحي ، قال أخبرنا أبو العباس المحبوبي ، قال أخبرنا أبو عيسى الترمذي ، قال أخبرنا هناد ، قال أخبرنا أبو الأحوص عن عطاء بن السائب عن مرة الحمداي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن للشيطان لمة بآدم ولللك لمة ، فألمة الشيطان في إبعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وألمة الملك في إبعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ، ومن وجد الآخر فليتعوذ بالله من الشيطان ، ثم قرأ (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) ، وإنما يتطلع إلى معرفة اللتين وتمييز الخواطر طالب مريد يتشوف إلى ذلك تشوف العطشان إلى الماء . لما يعلم من وقع ذلك وخطره وفلاحه وصلاحه وفساده ، ويكون ذلك عبدا مريدا بالخطوة بصفه اليقين ومنح الموقنين ، وأكثر التشوف إلى ذلك المقربين ومن أخذه في طريقهم . ومن أخذ في طريق الأبرار قد يشوف إلى ذلك بعض التشوف ، لأن التشوف إليه يكون على قدر الهمة والطلب والإرادة والحظ من الله الكريم ، ومن هو في مقام عامة المؤمنين والمسلمين لا يتطلع إلى معرفة اللتين ولا يهتم بتمييز الخواطر ، ومن الخواطر ما هي رسل الله تعالى إلى العبد ، كما قال بعضهم : لي قلب إن عصيته عصيت الله ، وهذا حال عبد استقام قلبه ، واستقامة القاب أطمانينة النفس ، وفي طمانينة النفس يأس الشيطان ، لأن النفس كلما تحركت كدرت صفو القلب ، وإذا تكدر طمع الشيطان وقرب منه ، لأن صفاء القلب يحفوف بالتذكر والرعاية ، ولذا ذكر نور بتقيه الشيطان كاتقاء أحدنا النار . وقد ورد في الخبر : الشيطان جائم على قلب ابن آدم ، فإذا ذكر الله تعالى تولى وخفس ، وإذا غفل التقم قلبه لخدمته ومناه ، وقال الله تعالى (ومن ينشئ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين) وقال الله تعالى (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) فبالتقوى وجمود خالص الذكركر ، وبها يفتح

بابه ، ولا يزال العبد يتقى حتى يحمى الجوارح من المكاره ثم يحميها من الفضول وما لا يعنيه ، فتصير أقواله وأفعاله ضرورة ، ثم تثقل تقراء إلى باطنه ويظهر الباطن ويقيده عن المكاره ثم من الفضول ، حتى يتقى حديث النفس . قال سهل بن عبد الله : أسوأ المعاصي حديث النفس ، ويرى الاصغاء إلى ما تحدث به النفس ذنباً فينتبه ، ويتقصد القلب عند هذا الاتقاء بالذكر انتقاد الكواكب في كبد السماء ، ويصير القلب سماء محظوظاً بزينة كواكب الذكر ؛ فإذا صار كذلك بعد الشيطان ، ومثل هذا العبد يندر في حقه الخواطر الشيطانية ولمساته ، ويكون له خواطر النفس ويحتاج إلى أن يتقيها ويميزها بالعلم ، لأن منها خواطر لا يضر لمضاهاها ، كطالبات النفس بحاجاتها ، وحاجاتها تنقسم إلى الحقوق والحظوظ ، ويتعين التمييز عند ذلك وانهم النفس بمطالبات الحظوظ . قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بذباً فتيبنوا ﴾ أي فتيبنوا ، وسبب نزول الآية الوليد بن عقبة حيث بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني المصطلق فكذب عليهم ونسبهم إلى الكفر والعصيان ، حتى هم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتالهم ، ثم بعث خالداً إليهم فسمع أذان المغرب والعشاء ، ورأى ما يدل على كذب الوليد بن عقبة ؛ فأمر الله تعالى الآية في ذلك ؛ فظاهر الآية وسبب نزولها ظاهر ، وصار ذلك تضييقاً من الله عباده على التثبت في الأمور . قال سهل في هذه الآية : الفاسق الكذاب ، والكذب صفة النفس لأنها تملأ أشياء وتسلو أشياء على غير حقائقها ، فتعين التثبت عند خاطرها وإلقائها فيجعل العبد خاطر النفس نبأً يوجب التثبت ولا يستغفزه الطبع ولا يستعجله الهوى ، فقد قال بعضهم : أدنى الأدب أن تقف عند الجهل ، وآخر الأدب أن تقف عند الشبهة .

ومن الأدب عند الاشتباه : إزال الخاطر بمحرك النفس وغالقتها وبارئها وفطرها ؛ وإظهار الفقر والفاقة إليه ، والاعتراف بالجهل وطلب المعرفة والمعونة منه ، فإنه إذا أتى بهذا الأدب يغاث ويعان ، ويتبين له هل الخاطر لطلب حظ أو طلب حق ؟ فإن كان للحق أمضاء ، وإن كان للحظ نفاء ، وهذا التوقف إذا لم يتبين له الخاطر بظاهر العلم ؛ لأن الاقتدار إلى باطن العلم عند فقد الدليل في ظاهر العلم ، ثم من الناس من لا يسعه في صحته إلا الوقوف على الحق دون الحظ وإن أمضى خاطر الحظ يصير ذلك ذنب حاله فيستغفر منه كما يستغفر من الذنوب .

ومن الناس من يدخل في تناول الحظ ويمضي خاطره بمزيد علم لديه من الله . وهو علم السعة لعبداً مآذون له في السعة عالم بالإذن ؛ فيمضي خاطر الحظ ، والمراد بذلك على بصيرة من أمره بحسن به ذلك ويليق به عالم بزيادته ونقصانه عالم بحاله محكم لعلم الحال ، وعلم القيام لا يقاس على حاله ولا يدخل فيه بالتقليد ؛ لأنه أمر خاص لعبد خاص ، وإذا كان شأن العبد تمييز خواطر النفس في مقام تخلصه من لمسات الشيطان تكثر لديه خواطر الحق وخواطر الملك ، وتصير الخواطر الأربعة في حقه ثلاثاً ويسقط خاطر الشيطان إلا نادراً لضيق مكانه من النفس ؛ لأن الشيطان يدخل بطريق اتساع النفس ، واتساع النفس باتباع الهوى والإخلاق إلى الأرض ، ومن ضائق النفس على التمييز بين الحق والحظ ضائق نفسه وسقط محل الشيطان إلا نادراً الدخول الابتلاء عليه ؛ ثم من المرادين المتعلقين بمقام المقربين من إذا صار قلبه سماء من بنا بزينة كوكب الذكر ، يصير قلبه سماوياً يترقى ويعرج بباطنه ومعناه وحقيقته في طبقات السموات ، وكلما ترقى تتضاءل النفس المظلمة وتبعد عنه خواطرها حتى يجاوز السموات بعروج باطنه ، كما كان ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم بظاهره وقلبه ؛ فإذا استكمل العروج تنقطع عنه خواطر النفس لتستره بانوار القرب وبعدت عنه النفس وعند ذلك تنقطع عنه خواطر الحق أيضاً لأن الخاطر رسول الرسالة إلى من بعد وهذا قريب . وهذا الذي وصفناه نازل ينزل به ولا يدوم ، بل يعود في هبوطه إلى منازل مطالبات النفس وخواطرها فتعود إليه خواطر الحق وخواطر الملك ، وذلك أن الخواطر تستدعي وجوداً . وما أشرنا إليه حال الفناء ولا خاطر فيه ، وخاطر الحق انتفى لمكان القرب ، وخاطر النفس بعد عنه لبعد النفس ، وخاطر الملك تخلف عنه كتخلف جبريل في ليلة المعراج عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : لودنوت أنملة لا حترقت . قال محمد بن علي الترمذي : المحدث والمكلم إذا تحققا في درجتهما لم يخافا من حديث النفس ؛ فكما أن النبوة محفوظة من إلقاء الشيطان كذلك عمل المكالم والمحدث محفوظ من إلقاء النفس وفنتها ومحروس بالحق والسكينة ؛ لأن السكينة

حجاب المتكلم والمحدث مع نفسه .

وسمعت الشيخ أبا محمد بن عبد الله البصري بالبصرة يقول : الخواطر أربعة : غاطر من النفس ، وعاطر من الحق ، وعاطر من الشيطان ، وعاطر من الملك . فأما الذى من النفس : فيحس به من أرض القلب ، والذى من الحق : من فوق القلب ، والذى من الملك : عن يمين القلب ، والذى من الشيطان : عن يسار القلب . والذى ذكره إنما يصح لعبد أذاب نفسه بالتقوى والزهد ، وتصنى وجوده ، واستقام ظاهره وباطنه ، فيكون قلبه كالمرآة المجلوة : لا يأتية الشيطان من ناحية إلا ويبصره ، فإذا أسود القلب وعلاه الزين لا يبصر الشيطان .

روى عن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن العبد إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء ، فإن نزع واستغفر وتاب صقل وإن عاد زيد فيه حتى تعلو قلبه . قال الله تعالى ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ سمعت بعض العارفين يقول كلاماً دقيقاً كوشف به فقال : الحديث في باطن الإنسان . والخيال الذى يراهى لباطنه ويخيل بين القلب وصفاء الذكر : هو من القلب وليس هو من النفس ، وهذا بخلاف ما تقرر ، فسألته عن ذلك ؛ فذكر أن بين القلب والنفس مناغاة ومحادثات وتألفا وتوددا ، وكلما انطلقت النفس في شيء بهواها من القول والفعل تأثر القلب بذلك وتكدر ، فإذا عاد العبد من مواطن مطالبات النفس وأقبل على ذكره وعمل مناجاته وخدمته لله تعالى ، أقبل القلب بالمعابة للنفس ، وذكر النفس شيئا من فعلها وقولها كاللائم للنفس والمعاتب لها على ذلك ، فإذا كان الخاطر أول الفعل ومفتتحه فمرقته من أهم شأن العبد ، لأن الأفعال من الخواطر تنشأ ، حتى ذهب بعض العلماء إلى أن العلم المفترض طلبه بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : طلب العلم فريضة على كل مسلم ، هو علم الخواطر ، قال : لأنها أول الفعل ، وبفسادها فساد الفعل ، وهذا لعمري لا يتوجه ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوجب ذلك على كل مسلم ، وليس كل المسلمين عندهم من القريحة ، والمعرفة ما يعرفون به ذلك ، ولكن يعلم الطالب أن الخواطر بمثابة البذر ، فمنها ما هو بذر السعادة ، ومنها ما هو بذر الشقاوة .

وسبب اشتباه الخواطر أحد أربعة أشياء لا خامس لها : إما ضعف اليقين ، أو قلة العلم بمعرفة صفات النفس وأخلاقيها ، أو متابعة الهوى بخرم قواعد التقوى ، أو محبة الدنيا جاهها ومالها وطلب الرفعة والمنزلة عند الناس . فمن عصم عن هذه الأربعة : يفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان . ومن ابتلى بها : لا يعلمها ولا يطلبها ، وانكشف بعض الخواطر دون البعض لوجود بعض هذه الأربعة دون البعض ، وأقوم الناس بتمييز الخواطر أقومهم بمعرفة النفس ومعرفة صفة المنال لا تكاد تتيسر إلا بعد الاستقصاء في الزهد والتقوى .

واتفق المشايخ على أن من كان أكله من الحرام لا يفرق بين الإلهام والوسوسة .

وقال أبو علي الدقاق : من كان قوته معلوما لا يفرق بين الإلهام والوسوسة ، وهذا لا يصح على الإطلاق إلا بقيد ، وذلك أن من المعلوم ما يقسمه الحق سبحانه وتعالى لعبد يأذن يسبق إليه في الأخذ منه والتقوى به ، ومثل هذا المعلوم لا يحجب عن تمييز الخواطر إنما ذلك يقال في حق من دخل في معلوم باختيار منه وإيثار ، لأنه ينحجب لموضع اختياره ، والذي أشرنا إليه منسلخ من إرادته فلا يحجبه المعلوم .

وفرقوا بين هواجس النفس ووسوسة الشيطان ، وقالوا : إن النفس قطال وتلح ، فلا تزال كذلك حتى تصل إلى مرادها ، والشيطان إذا دعا إلى زلة ولم يجب يوسوس بأخرى ، إذ لا غرض له في تخصيص ، بل مراده الإغواء كيفما أمكنه . وتكلم الشيوخ في الخاطرين إذا كانا من الحق أيهما يتبع ؟ قال الجنيد : الخاطر الأول لأنه إذا بقي رجع صاحبه إلى التأمل ، وهذا شرط العلم . وقال ابن عطاء : الثاني أقوى لأنه ازداد قوة بالاول . وقال أبو عبد الله ابن خفيف : هما سواء لأنهما من الحق فلا مزبة لأحدهما على الآخر .

قالوا : الواردات أعم من الخواطر ، لأن الخواطر تختص بنوع خطاب أو مطالبة ، والواردات تكون تارة خواطر وتارة تكون وارد سرور ووارد حزن ووارد قبض ووارد بسط .

وقيل : بنور التوحيد يقبل الخاطر من الله تعالى ، وبنور المعرفة يقبل من الملك ، وبنور الإيمان ينهى النفس ، وبنور الإسلام يرد على العدو . ومن قصر عن درك حقائق الزهد وتطلع إلى تمييز الخواطر بزن الخاطر أولا بيزان الشرع ، فما كان من ذلك نفلا أو فرضا يرضيه ، وما كان من ذلك محرما أو مكروها ينفيه ؛ فإن استوى الخاطران في نظر العلم ينفذ أقرهما إلى مخالفة هوى النفس ، فإن النفس قد يكون لها هوى كامن في أحدهما ، والغالب من شأن النفس الاعوجاج والركون إلى الدون ، وقد يلم الخاطر بنشاط النفس والعبد يظن أنه بهوض القلب ، وقد يكون من القلب نفاق بسكونه إلى النفس ، يقول بعضهم : منذ عشرين سنة ماسكن قلبي إلى نفسي ساعة ، فيظهر من سكون القلب إلى النفس خواطر تشبه بخواطر الحق على من يكون ضعيف العلم ، فلا يدرك نفاق القلب والخواطر المتولدة منه إلا العلماء الراضون ، وأكثر ما تدخل الآفات على أبواب القلوب والآخذين من اليقين واليقظة والحال بسهم من هذا القليل ، وذلك لقلة العلم بالنفس والقلب وبقاء نصيب الهوى فيهم .

وينبغي أن يعلم العبد قطعاً أنه مهما بقى عليه أثر من الهوى وإن دق وقل يبق عليه بحسبه بقية من اشتباه الخواطر ، ثم قد يغلط في تمييز الخواطر من هو قليل العلم ، ولا يؤاخذ بذلك ما لم يكن عليه من الشرع مطالبة ، وقد لا يسمح بذلك بعض الغالطين لما كوشفوا به من دقيق الخفاء في التمييز ، ثم استعجالهم مع علمهم وقلة التثبت .

وذكر بعض العلماء أن لمة الملك ولمة الشيطان وجدتا لحركة النفس والروح ، وأن النفس إذا تحركت انقذ من جوهرها ظلمة تنسكت في القلب همة سوء ، فينظر الشيطان إلى القلب فيقبل بالإغواء والوسوسة ، وذكر أن حركة النفس تكون إما هوى وهو عاجل حظ النفس ، أو أمنية وهي عن الجهل الغريزي ، أو دعوى حركة أو سكون وهي آفة العقل ومحبة القلب ، ولا ترد هذه الثلاثة إلا بأحد ثلاثة : بجهل ، أو غفلة ، أو طلب فضول . ثم يكون من هذه الثلاثة ما يجب نفيه ، فإنها ترد بخلاف ما مور أو على وفق منهى . ومنها ما يكون نفيها فضيلة إذا وردت بمباحات ، وذكر أن الروح إذا تحركت انقذ من جوهرها نور ساطع يظهر من ذلك النور في القلب همة عالية بأحد معان ثلاثة : إما بفرض أمر به ، أو بفضل تدب إليه ، وإما بمباح يعود صلاحه إليه ، وهذا الكلام يدل على أن حركتي الروح والنفس هما الموجهتان للبتين . وعندى والله أعلم أن اللتين يتقدمان على حركة الروح والنفس ، لحركة الروح من لمة الملك ، والهمة العالية من حركة الروح ، وهذه الحركة من الروح ببركة لمة الملك . وحركة النفس من لمة الشيطان ومن حركة النفس الهمة الدنيئة ، وهي من شؤم لمة الشيطان . فإذا وردت اللتان ظهرت الحركتان وظهر سر العطاء والابتلاء من مط كريم ومبل حكيم . وقد تكون هاتان اللتان متداركتين وينمحي أثر أحدهما بالأخرى . والمتفطن المتيقظ يفتتح عليه بمطالعة وجود هذه الآثار في ذاته باب أنس ، ويبقى أبدا متفقداً حاله مطالعاً آثار اللتين .

وذكر خاطر خامس : وهو خاطر العقل متوسط بين الخواطر الأربعة ، يكون مع النفس والعدو لوجود التمييز وإثبات الحجة على العبد ، ليدخل العبد في الشيء بوجود عقل ، إذ لو فقد العقل سقط العقاب والعتاب ، وقد يكون مع الملك والروح ليوقع الفعل مختاراً ويستوجب به الثواب .

وذكر خاطر سادس : وهو خاطر اليقين ، وهو روح الإيمان ومنزبه العلم ، ولا يبعد أن يقال : خاطر السادس وهو خاطر اليقين حاصله راجع إلى ما يرد من خاطر الحق وخاطر العقل أصله تارة من خاطر الملك ، وتارة من خاطر النفس ، وليس من العقل خاطر على الاستقلال ، لأن العقل كذا ذكرنا غريزة تهياً بها لإدراك العلوم وتهياً بها للانجذاب إلى دواعي النفس تارة وإلى دواعي الملك تارة ، وإلى دواعي الروح تارة وإلى دواعي الشيطان تارة فعلى هذا لا تزيد الخواطر على أربعة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يذكر غير اللتين ، وهاتان اللتان هما الأصل ، والخواطران الآخران فرع عليهما ، لأن لمة الملك إذا حركت الروح واهتزت الروح بالهمة الصالحة قربت أن تهتز بالهمة الصالحة إلى حظائر القرب ، فورد عليه عند ذلك خواطر من الحق ، وإذا تحقّق بالقرب بالقرّب يتحقق بالفناء ، فتثبت الخواطر الربانية عند ذلك ، كما ذكرناه قبل لموضع قربه ، فيكون أصل خواطر الحق لمة الملك ، ولمة الشيطان إذا حركت النفس هوى يجلبها إلى

مركزها من الغريزة والطبع ، فظهر منها لحركتها خواطر ملائمة لغريزتها وطبيعتها وهواها ، فصارت خواطر النفس نتيجة لمه الشيطان ؛ فأصلها لمتان ويفتجان آخرين ، وخطر اليقين والقل مندرج فيهما . والله أعلم .

الباب الثامن والخمسون : في شرح الحال والمقام والفرق بينهما

قد كثرت الاشتباه بين الحال والمقام ، واختلفت إشارات الشيوخ في ذلك ، ووجود الاشتباه . لكان تشابههما في نفسيهما وتداخلهما ، فترامى للبعض الشيء حالا وترامى للبعض مقاما ، وكلا الرؤيتين صحيح لوجود تداخلهما ، ولابد من ذكر ضابط يفرق بينهما ، على أن اللفظ والعبارة عنهما مشعر بالفرق ؛ فالحال سمي حالاً لتحوله ، والمقام مقاما لثبوته واستقراره ، وقد يكون الشيء بعينه حالا ثم يصير مقاما ، مثل أن يبعث من باطن العبد داعية المحاسبة ، ثم يزول الداعية بفعل صفات النفس ثم تعود ثم تزول ، فلا يزال العبد حال المحاسبة يتعاهد الحال ، ثم يحول الحال بظهور صفات النفس إلى أن تتداركه المعونة من الله الكريم ويقلب حال المحاسبة وتتقهر النفس وتنضبط وتملكها المحاسبة فتصير المحاسبة وطنه ومستقره ومقامه ، فيصير في مقام المحاسبة بعد أن كان له حال المحاسبة ، ثم ينازل حال المراقبة ، فمن كانت المحاسبة مقامه يصير له من المراقبة حال ، ثم يحول حال المراقبة لتناوب السهو والغفلة في باطن العبد إلى أن ينقشع ضباب السهو والغفلة ويتدارك الله عبده بالمعونة ، فتصير المراقبة مقاما بعد أن كانت حالا ولا يستقر مقام المحاسبة قراره إلا بنازل حال المراقبة . ولا يستقر مقام المراقبة قراره إلا بنازل حال المشاهدة ؛ فإذا منح العبد بنازل حال المشاهدة استقرت مراقبته وصارت مقامه ، ونازل المشاهدة أيضا يكون حالا يحول بالاستتار ويظهر بالتجلي ، ثم يصير مقاما ويتخلص شمه عن كسوف الاستتار ، ثم مقام المشاهدة أحوال وزيادات وترقيات من حال إلى حال أعلى منه كالنحقيق بالفناء والتخلص إلى البقاء ، والترقي من عين اليقين إلى حق اليقين ، وحق اليقين نازل يخرق شغاف القلب وذلك أعلى فروع المشاهدة . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم إني أسألك إيمانا يباشر قلبي .

قال سهل بن عبد الله : للقلب تجويفان ، أحدهما باطن وفيه السمع والبصر وهو قلب القلب وسويداه ، والتجويف الثاني ظاهر القلب وفيه العقل ، ومثل العقل في القلب مثل النظر في العين ، وهو صقال لموضع مخصوص فيه بمنزلة الصقال الذي في سواد العين ، ومنه تنبعث الأشعة المحيطة بالمرئيات ، فهكذا تنبعث من نظر العقل أشعة العلوم المحيطة بالمعلومات ، وهذه الحالة التي خرفت شغاف القلب ووصلت إلى سويدائه وهي حق اليقين ؛ هي أسى العطايا وأعز الأحوال وأشرفها ، ونسبة هذه الحال من المشاهدة كنسبة الآجر من التراب ، إذ يكون ترابا ثم طينا ثم لبنا ثم آجرا ، فالمشاهدة هي الأول والأصل ، يكون منها الفناء كالطين ، ثم البقاء فاللبن ثم هذه الحالة وهي آخر الفروع ولما كان الأصل في الأحوال هذه الحالة وهي أشرف الأحوال وهي محض موهبة لانسكسب سميت كل المواهب من التوازل بالعبد أحوالا ، لأنها غير مقدورة للعبد بكسبه ، فأطلقوا القول وتداركت السنة الشيوخ أن المقامات مكاسب ، والأحوال مواهب ، وعلى الترتيب الذي درجنا عليه كلها مواهب ، إذ المكاسب محفوفة بالمواهب ، والمواهب محفوفة بالمكاسب ، فالأحوال مواجيد ، والمقامات طرق المواجيد ، ولكن في المقامات ظهر الكسب وبطنت المواهب ، وفي الأحوال بطل الكسب وظهرت المواهب ، فالأحوال مواهب علوية سماوية ، والمقامات طرقها وقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : سلوني عن طرق السموات فأني أعرف بها من طرق الأرض ؛ إشارة إلى المقامات والأحوال ، فطرق السموات التوبة والزهد وغير ذلك من المقامات . فإني السالك لهذه الطرق يصير قلبه سماويا ، وهي طرق السموات ومنتزل البركات ، وهذه الأحوال لا يتحقق بها إلا ذو قلب ساجد . قال بعضهم الحال هو الذكر الخفي ؛ وهذا إشارة إلى شيء مما ذكرناه ، وسمعت المشايخ بالعراق يقولون : الحال مامن الله ، فشكل ما كان من طريق الاكتساب والأعمال يقولون : هذا مامن العبد ، فإذا لاح للريد شيء من المواهب والمواجيد قالوا : هذا مامن الله ، وسموه حالا إشارة منهم إلى أن الحال موهبة .

وقال بعض مشايخ خراسان : الأحوال مواريث الأعمال .
وقال بعضهم . الأحوال كالبروق ، فإن بقي لحديث النفس ، وهذا لا يكاد يستقيم على الإطلاق وإنما يكون ذلك في بعض الأحوال فإنها تطرق ثم تستلبها النفس ؛ فأما على الإطلاق فلا ، والأحوال لا تمتزج بالنفس كالدهن لا يمتزج بالماء .

وذهب بعضهم إلى أن الأحوال لا تكون إلا إذا دامت ، فأما إذا لم تدم فهي لوايح وطوالع وبوادر ، وهي مقدمات الأحوال وليست بأحوال .

واختلف المشايخ في أن العبد هل يجوز له أن ينتقل إلى مقام غير مقامه الذي هو فيه قبل إحكام حكم مقامه . قال بعضهم : لا ينبغي أن ينتقل عن الذي هو فيه دون أن يحكم حكم مقامه .

وقال بعضهم : لا يكمل المقام الذي هو فيه إلا بعد ترقيه إلى مقام فوقه فينظر من مقامه العالي إلى مادونه من المقام فيحكم أمر مقامه . والاولى أن يقال - والله أعلم - : الشخص في مقامه يعطى حالا من مقامه الأعلى الذي سوف يرتقى إليه ، فبوجدان ذلك الحال يستقيم أمر مقامه الذي هو فيه ويتصرف الحق فيه كذلك ، ولا يضاف الشيء إلى العبد أنه يرتقى أولا يرتقى ، فإن العبد بالأحوال يرتقى إلى المقامات ، والأحوال مراهب ترقى إلى المقامات التي يمتزج فيها الكسب بالموهبة ، ولا يلوح للعبد حال من مقام أعلى مما هو فيه إلا وقد قرب ترقيه إليه ، فلا يزال العبد يرتقى إلى المقامات بزائد الأحوال ، فعلى ما ذكرناه يتضح تداخل المقامات والأحوال حتى التوبة ، ولا تعرف فضيلة إلا فيها حال ومقام ، وفي الزهد حال ومقام ، وفي التوكل حال ومقام ، وفي الرضا حال ومقام .

قال أبو عثمان الخيري : منذ أربعين سنة ما أقامني الله في حال فكرهته ، أشار إلى الرضا ويكون منه حالا ثم يصير مقاما ، والمحبة حال ومقام ، ولا يزال العبد يتقرب بطروق حال التوبة حتى يتوب ، وطروق حال التوبة بالانزجار أولا قال بعضهم : الزجر هيجان في القلب لا يسكنه إلا الانتباه من الغفلة فيرده إلى اليقظة ، فإذا تيقظ أبصر الصواب من الخطأ . وقال بعضهم الزجر ضياء في القلب يبصر به خطأ قصده . والزجر في مقدمة التوبة على ثلاثة أوجه : زجر من طريق العلم ، وزجر من طريق العقل ، وزجر من طريق الإيمان ، فينازل التائب حال الزجر ، وهي موهبة من الله تعالى تقوده إلى التوبة ، ولا يزال بالعبد ظهور هوى النفس يحوّه آثار حال التوبة والزجر حتى تستقر وتصير مقاما ، وهكذا في الزهد لا يزال يتزهد بنازلة حال تربيته لذة ترك الاشتغال بالدنيا وتقبّح له الإقبال عليها ، فتتمحو أثر حاله بدلالة شره النفس وحرصها على الدنيا ورغبة العاجلة حتى تتداركه المعونة من الله الكريم ، فيزهد ويستقر زهده ويصير الزهد مقامه ، ولا تزال نازلة حال التوكل تفرغ باب قلبه حتى يتوكل ، وهكذا حال الرضا حتى يطعمن على لرضا ، ويصير ذلك مقامه ، وههنا لطيفة : وذلك أن مقام الرضا والتوكل يشبه ويحكم ببقائه مع وجود داعية الطبع ، ولا يحكم ببقاء حال الرضا مع وجود داعية الطبع ، وذلك مثل كراهة يحدّها الراضى بحكم الطبع ، ولكن علمه بمقام الرضا يغمر حكم الطبع ، وظهور حكم الطبع في وجود الكراهية المغسورة بالعلم لا يخرجّه عن مقام الرضا ، ولكن يفقد حال الرضا لأن الحال لما تجردت موهبة أحرقت داعية الطبع ، فيقال : كيف يكون صاحب مقام الرضا ولا يكون صاحب حال فيه والحال مقدمة المقام والمقام أثبت ، نقول : لأن المقام لما كان مشروبا بكسب العبد احتمل وجود الطبع فيه ، والحال لما كانت موهبة من الله تزهدت عن مزج الطبع بحال الرضا أشرف ، ومقام الرضا أمكن ، ولا بد للمقامات من زائد الأحوال ، فلا مقام إلا بعد سابقة حال ، ولا تفرد للمقامات دون سابقة الأحوال .

وأما الأحوال فهما يصير مقاما ، ومنها ما لا يصير مقاما ، والسرفيه ما ذكرناه : أن الكسب في المقام ظهر والموهبة بطن ، وفي الحال ظهرت الموهبة والكسب بطن ، فلما كان في الأحوال الموهبة غالبية لم تقيد وصار الأحوال إلى ما لانهاية لها ، ولطف سنى الأحوال أن يصير مقاما ، ومقدورات الحق غير متناهية ، ومواهبه غير متناهية ، ولهذا قال بعضهم : لو أعطيت روحانية عيسى ومكاملة موسى وخلة إبراهيم عليه السلام لطلبت ما وراء ذلك ، لأن مواهب الله

لا تنحصر ؛ وهذه أحوال الأنبياء ولا تعطى الأولياء . ولكن هذه إشارة من القائل إلى دوام تطلع العبد وتطلبه وعدم قناعته بما فيه من أمر الحق تعالى ؛ لأن سيد الرسل صلوات الله عليه وسلامه نبه على عدم القناعة وقرع باب الطلب واستنزال بركة المزيد بقوله عليه السلام : كل يوم لم أزد فيه علما فلا بورك لي في صبيحة ذلك اليوم . وفي دعائه صلى الله عليه وسلم : اللهم ما قصر عنه رأيي وضعف فيه عملي ولم تبلغه نيتي وأمنيته من خير وعدته أحدا من عبادك أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك فأنا أرغب إليك وأسألك إياه .

فاعلم أن مواهب الحق لا تنحصر ، والأحوال مواهب وهي متصلة بكلمات الله التي ينفد البحر دون نفادها وتنفذ أعداد الرمال دون أعدادها . والله المنعم المعطي .

الباب التاسع والخمسون : في الإشارات إلى المقامات على الاختصار والإيجاز

أخبرنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردي رحمه الله ، قال أخبرنا أبو منصور بن خيرون إجازة ، قال أخبرنا أبو محمد الحسن بن علي بن محمد الجوهري إجازة ، قال أخبرنا أبو عمرو محمد بن العباس بن محمد ، قال أخبرنا أبو محمد يحيى بن ساعد . قال أخبرنا الحسين بن الحسن المروزي ، قال أخبرنا عبد الله بن المبارك ، قال أخبرنا الهيثم بن جميل ، قال أخبرنا كشير بن سليم المدائني ، قال سمعت أنس بن مالك رضى الله عنه قال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقال : يا رسول الله ، إني رجل ذرب اللسان وأكثر ذلك على أهلي ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ابن أنت من الاستغفار ؟ فإني أستغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة » وروى أبو هريرة رضى الله عنه في حديث آخر : « فإني لأستغفر الله وأتوب إليه في كل يوم مائة مرة » وروى أبو بردة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم مائة مرة » .

وقال الله تعالى ﴿ وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ وقال الله عز وجل ﴿ إن الله يحب التوابين ﴾ وقال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا ﴾ التوبة أصل كل مقام ، وقوام كل مقام ، ومفتاح كل حال ، وهي أول المقامات ، وهي بمثابة الأرض للبناء ؛ فمن لا أرض له لا بناء له ، ومن لا توبة له لا حال له ولا مقام له ؛ وإني ببلغ علمي وقدر وسعي وجهدي اعتبرت المقامات والأحوال وثمرتها ، فرأيتهما مجتمعتهما ثلاثة أشياء بعد صحة الإيمان وعقوده وشروطه ، فصارت مع الإيمان أربعة ، ثم رأيتهما في إفادة الولادة المعنوية الحقيقية بمثابة الطبايع الأربع التي جعلها الله تعالى بإجراء سنته مفيدة للولادة الطبيعية ، ومن تحقق بحقائق هذه الأربع يلبس ملكوت السموات ويكشف بالقدر والآيات ، ويصير له ذوق وفهم لكلمات الله تعالى المنزلات ويحظى بجميع الأحوال والمقامات فكلها من هذه الأربع ظهرت وبها تهيات وتأكدت ، فأخذ الثلاث بعد الإيمان : التوبة النصوح . والثاني : الزهد في الدنيا . والثالث : تحقيق مقام العبودية بدوام العمل لله تعالى ظاهرا وباطنا من الأعمال القلبية والقالية من غير فتور وقصور ، ثم يستعان على إتمام هذه الأربعة بأربعة أخرى بها تمامها وقوامها ، وهي قلة الكلام ، وقلة الطعام ، وقلة المنام ، والاعتزال عن الناس . واتفق العلماء الزاهدون والمشايخ على أن هذه الأربع بها تستقر المقامات وتستقيم الأحوال ، وبها صار الأبدال أبدالاً بتأييد الله تعالى وحسن توفيقه . وتبين بالبيان الواضح أن سائر المقامات تندرج في صحة هذه ، ومن ظفر بها فقد ظفر بالمقامات كلها ، أولها بعد الإيمان : التوبة ، وهي في مبدأ صحتها تنفتح إلى أحوال وإذا صحت تشتمل على مقامات وأحوال ، ولا بد في ابتدائها من وجود زاجر ووجدان الزاجر حال ، لأنه موهبة من الله تعالى على ما تقرر أن الأحوال مواهب ، وحال الزجر مفتاح التوبة ومبدؤها .

قال رجل لبشر الحافي : مالي أراك مهموما ؛ قال : لاني ضال ومطلوب ، ضللت الطريق والمقصد وأنا مطلوب به ولو تبينت كيف الطريق إلى المقصد لطلبت ، ولكن سنة الغفلة أدركتني وليس لي منها خلاص إلا أن أزجر فأنزجر وقال الأصمعي : رأيت أعرابيا بالبصرة يشتكى عينيه وهما يسيل منهما الماء ، فقلت له : ألا تمسح بعينيك؟ فقال : لا ؛ لأن الطبيب زجرني ، ولا خير فيمن لا ينزجر .

فالزائر في الباطن حال يهبها الله تعالى ، ولا بد من وجودها للتائب ؛ ثم بعد الانزجار يجد العبد حال الانتباه . قال بعضهم : من لزوم مطالعة الطوارق انتبه . وقال أبو يزيد : علامة الانتباه خمس : إذا ذكر نفسه افتقر ، وإذا ذكر ذنبه استغفر ، وإذا ذكر الدنيا اعتبر ، وإذا ذكر الآخرة استبشر ، وإذا ذكر المولى اقتشعر . وقال بعضهم : الانتباه أوائل دلالات الخير ، إذا انتبه العبد من رقدة غفلته أداه ذلك الانتباه إلى التيقظ ؛ فإذا تيقظ ألزمه تيقظه الطلب لطريق الرشيد فيطلب ، وإذا طلب عرف أنه على غير سبيل الحق فيطلب الحق ويرجع إلى باب توبته ثم يعطى بانتباهه حال التيقظ .

قال فارس : أوفى الأحوال التيقظ والاعتبار . وقيل : التيقظ تبيان خط المسلك بعد مشاهدة سبيل النجاة . وقيل : إذا صحت اليقظة كان صاحبها في أوائل طريق التوبة .

وقيل : اليقظة طردة من جهة المولى لقلوب الخائفين تدلهم على طلب التوبة ، فإذا تمت يقظته نقل بذلك إلى مقام التوبة ؛ فهذه أحوال ثلاثة تتقدم التوبة ، ثم التوبة في استقامتها تحتاج إلى المحاسبة ، ولا تستقيم التوبة إلا بالمحاسبة . نقل عن أمير المؤمنين على رضي الله عنه أنه قال : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا وزينوا للعرض الأكبر على الله (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) فالمحاسبة بحفظ الأنفاس وضبط الحواس ورعاية الأوقات وإثبات المهمات ، ويعلم العبد أن الله تعالى أوجب عليه هذه الصلوات الخمس في اليوم والليلة رحمة منه لعلمه سبحانه بعبدته واستيلاء الغفلة عليه ، كي لا يستعبده الهوى وتستترقه الدنيا ؛ فالصلوات الخمس ساسلة تجذب النفوس إلى مواطن العبودية لأداء حق الربوبية ، ويراقب العبد نفسه بحسن المحاسبة من كل صلاة إلى صلاة أخرى ، ويستمد مداخل الشيطان بحسن المحاسبة والرعاية ، ولا يدخل في الصلاة إلا بعد حل العقد عن القلب بحسن التوبة والاستغفار ؛ لأن كل كلمة وحركة على خلاف الشرع تسكت في القلب نكتة سوداء وتعتد عليه عقدة ، والمتفقد المحاسب يهيء الباطن للصلاة بضبط الجوارح ويحقق مقام المحاسبة ؛ فيكون عند ذلك لصلاته نور يشرق على أجزاء وقته إلى الصلاة الأخرى ، فلا تزال صلاته منورة تامة بنور وقته ، ووقته منورا معمورا بنور صلاته .

وكان بعض المحاسبين يكتب الصلوات في قرطاس ، ويدع بين كل صلاتين بياضا ، وكلما ارتكبت خطيئة من كلمة غيبة أو أمر آخر خط خطأ ، وكلما تكلم أو تحرك فيما لا يعنيه فقط نقطة ، ليعتبر ذنوبه وحركاته فيما لا يعنيه لتضييق المحاسبة بجاري الشيطان والنفس الامارة بالسوء لموضع صدقه في حسن الافتقاد وحرصه على تحقيق مقام العباد ، وهذا مقام المحاسبة والرعاية يقع من ضرورة صحة التوبة .

قال الجنيد : من حسنت رعايته دامت ولايته . وسئل الواسطي : أى الأعمال أفضل ؟ قال : مراعاة السر ، والمحاسبة في الظاهر ، والمراقبة في الباطن ، ويكمل أحدهما بالآخر ، وبهما تستقيم التوبة . والمراقبة والرعاية حالان شريفان ويصيران مقامين شريفيين يصحان بصحة مقام التوبة ، وتستقيم التوبة على السكال بهما ؛ فصارت المحاسبة والمراقبة والرعاية من ضرورة مقام التوبة .

أخبرنا أبو زرعة لإجازة عن ابن خلف أبي بكر الشيرازي قال : سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول : سمعت الحسن الفارسي يقول : سمعت الجريري يقول : أمرنا هذا منى على فصلين : وهو أن تلزم نفسك المراقبة لله تعالى ، ويكون العلم على ظاهره قائما وقال المرتضى : المراقبة مراعاة السر للملاحظة الحق في كل لحظة ونقطة . قال الله تعالى (أفن هو قائم على كل نفس بما كسبت) وهذا هو علم القيام ، وبذلك يتم علم الحال ومعرفة الزيادة والنقصان : وهو أن يعلم معيار حاله فيما بينه وبين الله ، وكل هذا ملازم لصحة التوبة ، وصحة التوبة ملازم لها ، لأن الخواطر مقدمات العزائم ، والعزائم مقدمات الأعمال ، لأن الخواطر تحقق إرادة القلب ، والقلب أمير الجوارح ، ولا تتحرك الجوارح إلا بتحرك القلب بإرادة وبالمراقبة حسم مواد الخواطر الرديئة ، فصار من تمام المراقبة التوبة ، لأن من حصر الخواطر كفى مؤونة الجوارح ، لأن بالمراقبة اصطلام عروق إرادة المكروه من القلب ، وبالمحاسبة استدراك ما انفلت من المراقبة .

أخبرنا أبو زرعة عن ابن خلف عن السلمي قال : سمعت أبا عثمان المغربي يقول : أفضل ما يلزم الإنسان في هذا الطريق المحاسبة والمراقبة وسياسة العمل بالعلم ، وإذا صحت التوبة صحت الإجابة .

قال إبراهيم بن آدم إذا صدق العبد في توبته صار منيباً ، لأن الإجابة تأتي درجة التوبة .

وقال أبو سعيد القرشي : المنيب الراجع عن كل شيء يشغله عن الله إلى الله .

قال بعضهم : الإجابة الرجوع منه إليه لا من شيء غيره ، فمن رجع من غيره إليه ضيع أحد طرفي الإجابة ، والمنيب على الحقيقة : من لم يكن له مرجع سواه ، فيرجع إليه من رجوعه ، ثم يرجع من رجوع رجوعه ، فيبقى شبحاً لا وصف له تأمناً بين يدي الحق مستغفر قافي عين الجمع ومخالفة النفس ورؤية عيوب الأفعال والمجاهدة بتحقيق الرعاية والمراقبة .

قال أبو سليمان : ما استحدثت من نفسي عملاً فأحتسبه . وقال أبو عبد الله السجزي : من استحسنت شيئاً من أحواله في حال إرادته فسدت عليه إرادته ، إلا أن يرجع إلى ابتدائه فيروض نفسه ثانياً ومن لم يزن نفسه بميزان الصدق فيماله وعليه لا يبلغ مبلغ الرجال . ورؤية عيوب الأفعال من ضرورة صحة الإجابة وهو في تحقيق مقام التوبة . ولا تستقيم التوبة إلا بصدق المجاهدة . ولا يصدق العبد في المجاهدة إلا بوجود الصبر .

وروى فضالة بن عبيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : المجاهد من جامد نفسه ، ولا يتم ذلك إلا بالصبر ، وأفضل الصبر الصبر على الله بعكوف الهم عليه ، وصدق المراقبة بالقلب ، وجسم مواد الخواطر . والصبر ينقسم إلى فرض وفضل ؛ فالفضل كالصبر على أداء المفترضات ، والصبر عن المحرمات .

ومن الصبر الذي هو فضل : الصبر على الفقر ، والصبر عند الصدمة الأولى ، وكتيان المصائب والأوجاع ، وترك الشكوى ، والصبر على إخفاء الفقر ، والصبر على كتم المنح والكرامات ورؤية العبر والآيات .

ووجوه الصبر فرضاً وفضلاً كثيرة ، وكثير من الناس من يقوم بهذه الأقسام من الصبر ، ويضيق عن الصبر على الله بلزوم صحة المراقبة والرعاية ونفي الخواطر ، فإذا حقيقة الصبر كائنه في التوبة كينونة المراقبة في التوبة ، والصبر من أعز مقامات الموقنين ، وهو داخل في حقيقة التوبة .

قال بعض العلماء : أي شيء أفضل من الصبر - وقد ذكره الله تعالى في كلامه في نيف وتسمين موضعاً ، وما ذكر شيئاً بهذا العدد وصحة التوبة تحتوى على مقام الصبر مع شرفه .

ومن الصبر : الصبر على النعمة : وهو أن لا يصرفها في معصية الله تعالى ، وهذا أيضاً داخل في صحة التوبة . وكان سهل بن عبد الله يقول : الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء .

وروى عن بعض الصحابة : بلينا بالضراء فصبرنا ، وبلينا بالسراء فلم نصبر .

ومن الصبر : رعاية الاقتصاد في الرضا والغضب ، والصبر عن محبة الناس ، والصبر على الخزل . والتواضع والذل : داخل في الزهد وإن لم يكن داخل في التوبة ، وكل ما فات من مقام التوبة من المقامات السنية والأحوال وجد في الزهد ، وهو ثالث الأربعة التي ذكرنا .

وحقيقة الصبر تظهر من طمأنينة النفس ، وطمأنينتها من تركيتها ، وتركيتها بالتوبة ؛ فالنفس إذا تركت بالتوبة النصوح زالت عنها الشراسة الطبيعية ، وقلة الصبر من وجوه الشراسة للنفس وإيائها واستمصاصها . والتربة النصوح تلين النفس وتخرجها من طبيعتها وشراستها إلى اللين ؛ لأن النفس بالحاسبة والمراقبة تصفو وتنطق نيرانها المتأججة بمتابعة الهوى ، وتبلغ بطمأنينتها محل الرضا ومقامه ، وتطمئن في مجاري الأقدار .

قال أبو عبد الله التاجي : لله عباد يستحيون من الصبر ويتلقفون مواضع أقداره بالرضا تلقفاً .

وكان عمر بن عبد العزيز يقول : أصبحت ومالي سرور إلا مواقع القضاء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس حين وصاه « اعمل لله باليقين في الرضا » فإن لم يكن فإن في الصبر خيراً كثيراً ، وفي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من خير ما أعطى الرجل : الرضا بما قسم الله تعالى له » .

فالأخبار والآثار والحكايات في فضيلة الرضا وشرفه أكثر من أن تحصى ، والرضا ثمرة التوبة النصوح ، وما تخلف عبد عن الرضا إلا بتخلفه عن التوبة النصوح ، فإذا تجمع التوبة النصوح حال الصبر ومقام الصبر ، وحال الرضا ومقام الرضا . والخوف والرجاء مقامان شريفان من مقامات أهل اليقين ، وهما كائنان في صلب التوبة النصوح ؛ لأن خوفه حمله على التوبة ، ولولا خوفه ماتاب ، ولولا رجاءه ماخاف ؛ فالرجاء والخوف يتلازمان في قلب المؤمن ، ويعتدل الخوف والرجاء للتائب المستقيم في التوبة : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في سياق الموت فقال : « كيف تجددك ؟ » قال أجدي أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي . فقال « ما اجتماعا في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله مارجا وآمنة مما يخاف » .

وجاء في تفسير قوله تعالى ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ هو العبد يذنب الكبائر ثم يقول : قد هلكت لا ينفعني عمل ؛ فالتائب عاف قاتب ورجا المغفرة ، ولا يكون التائب تائبا إلا وهو راج خائف ؛ ثم إن التائب حيث قيد الجوارح عن المسكاره واستعان بنعم الله على طاعة الله . فقد شكر النعم ؛ لأن كل جارحة من الجوارح نعمة ، وشكرها قيدها عن المعصية واستعمالها في الطاعة ، وأى شاكر للنعمة أكبر من التائب المستقيم ؛ فإذا جمع مقام التوبة هذه المقامات كلها ، فقد جمع مقام التوبة : حال الزجر ، وحال الانتباه ، وحال التيقظ ، ومخالفة النفس ، والتقوى ، والمجاهدة ، ورؤية عيوب الأفعال ، والإنابة ، والصبر ، والرضا ، والمحاسبة ، والمراقبة ، والرعاية ، والشكر ، والخوف ، والرجاء .

ولذا صحت التوبة النصوح وتركك النفس انجلت مرآة القلب وبان قبح الدنيا فيها ، فيحصل الزهد ، والزاهد يتحقق فيه التوكل لأنه لا يزهد في الموجود إلا لاعتماد على الموعود ، والسكون إلى وعد الله تعالى هو عين التوكل ، وكلما بقي على العبد بقية في تحقق المقامات كلها بعد توبته يستدركه : بزهد في الدنيا ، وهو ثالث الأربعة .

أخبرنا شيخنا قال أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون ، قال أخبرنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري بإجازة ، قال أخبرنا أبو عمرو محمد بن العباس ، قال أخبرنا أبو محمد يحيى بن ساعدة ، قال حدثنا الحسين بن الحسن المروزي ، قال حدثنا عبد الله بن المبارك ، قال حدثنا الهيثم بن جميل ، قال أخبرنا محمد بن سليمان عن عبد الله بن بريدة قال : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر ، فبدأ فاطمة رضي الله عنها فرآها قد أحدثت في البيت سترًا وزوائد في يديها ، فلما رأى ذلك رجع ولم يدخل ، ثم جلس لجلس ينسكت في الأرض ويقول : مالي والدنيا ، مالي والدنيا ، فرأت فاطمة أنه إنما رجع من أجل الستر ، فأخذت الستر والزوائد وأرسلت بهما مع بلال وقالت له : اذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقل له : قد تصدقت به ، فضعه حيث شئت ، فأتى بلال إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : قالت فاطمة قد تصدقت به فضعه حيث شئت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بأبي وأمي قد فعلت ، بأبي وأمي قد فعلت ، اذهب فبعه » .

وقيل في قوله تعالى ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ قيل : الزهد في الدنيا . سئل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن الزهد ؟ فقال : هو أن لا تبالى بمن أكل الدنيا مؤمن أو كافر . وسئل الشيلي عن الزهد فقال : ويلكم أي مقدار لجناح بعوضة أن يزهد فيها ؟ ١٩ . وقال أبو بكر الواسطي : إلى متى تصول بترك كسيف ، وإلى متى تصول بإعراضك عما لا تزن عند الله جناح بعوضة ؟ ٢٠ .

فإذا صح زهد العبد صح توكله أيضا ؛ لأن صدق توكله ممكن من زهده في الموجود ؛ فن استقام في التوبة وزهد في الدنيا وحقق هذين المقامين استوفى سائر المقامات وتكون فيها وتحقق بها .

وترتيب التوبة مع المراقبة وإرباط إحداها بالآخرى : أن يتوب العبد ، ثم يستقيم في التوبة حتى لا يكتب عليه صاحب الشبال شيئا ، ثم يرتقى من تطهير الجوارح عن المعاصي إلى تطهير الجوارح عما لا يعني فلا يسمح بكلمة فضول

ولا حركة فضول ، ثم ينتقل للرعاية والمحاسبة من الظاهر إلى الباطن وتستولى المراقبة على الباطن : وهو التحقق بعلم القيام بمحو خواطر المعصية عن باطنه ثم خواطر الفضيل ؛ فإذا تمكن من رعاية الخطرات عصم عن مخالفة الأركان والجوارح وتستقيم توبته . قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ﴾ أمره الله تعالى بالاستقامة في التوبة أمراً له ولا تبعاً وأمرته . وقيل : لا يكون المرید مریداً حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئاً عشرين سنة ، ولا يلزم من هذا وجود العصمة ولكن الصادق الثابت في النادر إذا ابتلى بذنب ينمحي أثر الذنب من باطنه في ألطف ساعة لوجود الندم في باطنه على ذلك ، والندم توبة فلا يكتب عليه صاحب الشمال شيئاً ؛ فإذا تاب توبة نصوحاً ثم زهد في الدنيا حتى لا يهتم في غدائه لعشائه ولا في عشائه اغدائه ولا يرى الادخار ، ولا يكون له تعلق هم بغد ، فقد جمع في هذا الزهد ، والفقر ، والزهد أفضل من الفقر ، وهو فقر وزيادة ، لأن الفقير عادم للشيء اضطراراً ، والزاهد تارك للشيء اختياراً ، وزهده يحقق توكله ، وتوكله يحقق رضاه ، ورضاه يحقق الصبر ، وصبره يحقق حبس النفس وصدق المجاهدة وحبس النفس لله يحقق خوفه ، وخوفه يحقق رجاءه ويجمع بالتوبة والزهد كل المقامات . والزهد والتوبة إذا اجتمعا مع حجة الإيمان وعقوده وشروطه يعوز هذه الثلاثة رابع به تمامها وهو دوام العمل ، لأن الأحوال السلبية ينكشف بعضها بهذه الثلاثة ، وتيسير بعضها متوقف على وجود الرابع وهو دوام العمل . وكثير من الزهاد المتحققين بالزهد المستقيمين في التوبة تخلفوا عن كثير من سنى الأحوال لتخلفهم عن هذا الرابع ، ولا يراد الزهد في الدنيا إلا الكمال الفزاع المستعان به على إدامة العمل لله تعالى . والعمل لله : أن يكون العبد لا يزال ذا كراً أو تالياً أو مصلياً أو مراقباً ، لا يشغله عن هذه إلا واجب شرعى أو مهم لا بد منه طبعي ، فإذا استولى العمل القلبي على القلب مع وجود الشغل الذي أداه إليه حكم الشرع لا يفتر باطنه عن العمل ، فإذا كان مع الزهد والتقوى متمسكاً بدوام العمل فقد أكل الفضل وما آلى جهداً في العبودية .

قال أبو بكر الوراق : من خرج من قالب العبودية صنع به ما يصنع بالآبق .

وسئل سهل بن عبد الله التستري : أى منزلة إذا قام العبد بها قام مقام العبودية ؟ قال : إذا ترك التدبير والاختيار . فإذا تحقق العبد بالتوبة والزهد ودوام العمل لله يشغله وقته الحاضر عن وقته الآتى ويصل إلى مقام ترك التدبير والاختيار ، ثم يصل إلى أن يملك الاختيار ، فيكون اختياره من اختيار الله تعالى لزوال هواه ووفور علمه وانقطاع مادة الجهل عن باطنه .

قال يحيى بن معاذ الرازى : مادام العبد يتعرف يقال له لا تختار ولا تكن مع اختيارك حتى تعرف ، فإذا عرف وصار عارفاً يقال له إن شئت اختر وإن شئت لا تختار ؛ لأنك إن اخترت فباختيارنا اخترت ، وإن تركت الاختيار فباختيارنا تركت الاختيار ؛ فإنك إن أفاض الاختيار وفي ترك الاختيار . والعبد لا يتحقق بهذا المقام العالى والحال العزيز - الذى هو الغاية والنهاية : وهو أن يملك الاختيار بعد ترك التدبير والخروج من الاختيار - إلا بإحكامه هذه الأربعة التى ذكرناها ، لأن ترك التدبير فناء ، وتمليك التدبير والاختيار من الله تعالى لعبده ورده إلى الاختيار تصرف بالحق ، وهو مقام البقاء ، وهو الانسلاخ عن وجود كان بالعبد إلى وجود يصير بالحق ، وهذا العبد ما بقى عليه من الاعوجاج ذرة ، واستقام ظاهره وباطنه في العبودية ، وعمر العلم والعمل ظاهره وباطنه ، وتوطن حضرة القرب بنفس بين يدي الله عز وجل متمسكة بالاستكانة والافتقار ، متحققة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تكن إلى نفسك طرفة عين فأهلك ولا إلى أحد من خلقك فأضيع ، إلا كلاًنى كلامة الوليد ولا تغل عني » .

الباب الستون : في ذكر إشارات المشايخ في المقامات على الترتيب

قولهم في التوبة

قال رويم : معنى التوبة أن يتوب من التوبة . قيل : ثم ناهى عن رابعة : استغفر الله العظيم من قلة صدق في قول استغفر الله

وسئل الحسن المغازلي عن التوبة ؟ فقال : تسألني عن توبة الإنابة أو عن توبة الاستجابة ؟ فقال السائل : ما توبة الإنابة ؟ فقال : أن تخاف من الله عز وجل من أجل قدرته عليك . قال : فما توبة الاستجابة ؟ قال : أن تستحي من الله لقربه منك ، وهذا الذي ذكره من توبة الاستجابة إذا تحقق العبد بها ربما تاب في صلاته من كل خاطيئ به سوى الله تعالى ويستغفر الله منه ، وهذه توبة الاستجابة لازمة لبواطن أهل القرب ، كما قيل :

« وجردك ذنب لا يقاس به ذنب »

قال ذو النون : توبة العرام من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلة ، وتوبة الأنبياء من رؤية عجزهم عن بلوغ ما ناله غيرهم .

سئل أبو محمد سهل عن الرجل يتوب من الشيء ويتركه ثم يخطر ذلك الشيء بقلبه أو يراه أو يسمع به فيجد حلاوته ، فقال : الحلوة طبع البشرية ولا بد من الطبع ، وليس له حيلة إلا أن يرفع قلبه إلى مولاه بالشكوى ، وينكره بقلبه ، ويلزم نفسه الإنكار ولا يفارقه ، ويدعو الله أن ينسيه ذلك ويشغله بغيره من ذكره وطاعته . قال : وإن غفل عن الإنكار طرفه عين أخاف عليه أن لا يسلم وتعمل الحلوة في قلبه ، ولكن مع وجدان الحلوة يلزم قلبه الإنكار ويحزن ، فإنه لا يضره . وهذا الذي قاله سهل كاف بالغ لكل طالب صادق يريد صحة توبته والمعارف القوي الحال يتمكن من إزالة الحلوة عن باطنه ويسهل عليه ذلك . وأسباب سهولة ذلك متنوعة للمعارف ومن تمكن من قلبه حلوة حب الله الخاص عن صفاء مشاهدة وصرف يقين ، فأى حلوة تبقى في قلبه ، وإنما حلوة الهوى لعدم حلوة حب الله .

وسئل السوسي عن التوبة ؟ فقال : التوبة من كل شيء ذمه العلم إلى مامدحه العلم ، وهذا وصف يعم الظاهر والباطن لمن كوشف بصريح العلم ، لأنه لا بقاء للجهل مع العلم ، كما لا بقاء لليل مع طلوع الشمس ، وهذا يستوعب جميع أسام التوبة بالوصف الخاص والعام ، وهذا العلم يكون علم الظاهر والباطن بتطهير الظاهر والباطن بأخص أوصاف التوبة وأعم أو صافها .

وقال أبو الحسن الثوري : التوبة أن تتوب عن كل شيء سوى الله تعالى .

قولهم في الورع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ملاك دينكم الورع » ، أخبرنا أبو زرعة لإجازة عن أبي بكر بن خلف عن أبي عبد الرحمن السلمي لإجازة ، قال أخبرنا أبو سعيد الخلال ، قال حدثني ابن قتيبة قال حدثنا عمر بن عثمان ، قال حدثنا بقية عن أبي بكر بن أبي مريم عن حبيب بن عبيد عن أبي الدرداء رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ على نهر فلما فرغ من وضوئه أفرغ فضله في النهر وقال : يبلغه الله عز وجل قوما ينفعهم . قال عمر بن الخطاب : لا ينبغي لمن أخذ بالتقوى ووزن بالورع أن يذل لصاحب دنيا . قال معروف الكرخي احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذم .

نقل عن الحارث بن أسد المحاسبي أنه كان على طرف أصبعه الوسطى عرق إذا مديده إلى طعام فيه شبهة ضرب عليه ذلك العرق .

سئل الشبلي عن الورع ؟ فقال : الورع أن تتورع أن يتشتت قلبك عن الله طرفه عين .

وقال أبو سليمان الداراني : الورع أول الزهد كما أن القناعة طرف من الرضا .

وقال يحيى بن معاذ : الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل .

سئل الخواص عن الورع ؟ فقال : أن لا يتكلم العبد إلا بالحق غضب أو رضى وأن يكون اهتمامه بما يرضى الله تعالى .

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن أبي بكر بن خلف إجازة عن السلي قال سمعت الحسن بن أحمد بن جعفر يقول : سمعت محمد بن داود الدينوري يقول : سمعت ابن الجلاء يقول : أعرف من أقام بمكة ثلاثين سنة ولم يشرب من ماء زمزم إلا من ماء استقاه بركوته ورشائه ولم يتناول من طعام جلب من مصر شيئاً . وقال الخواص : الورع دليل الخوف ، والخوف دليل المعرفة والمعرفة دليل القربة .

قولهم في الزهد

قال الجنيد : الزهد خلوص الأبدى من الأملاك والقلوب من التبع .
وسئل الشبلي عن الزهد ؟ فقال : لا زهد في الحقيقة ، لأنه إما أن يزهد فيها ليس له فليس ذلك بزهد ، أو يزهد فيها هو له فكيف يزهد فيه وهو معه وعنده ، فليس إلا ظلف النفس وبذل مواساة : يشير إلى الأقسام التي سبقت بها الأقسام ، وهذا لو اطردهم قاعدة الاجتهاد والكسب ، ولكن مقصود الشبلي : أن يقلل الزهد في عين المعتد بالزهد لئلا يغتر به .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا رأيتم الرجل قد أوتي زهداً في الدنيا ومنطقاً ، فاقربوا منه فإنه يلقي الحكمة .

وقد سمي الله عز وجل الزاهدین علماء في قصة قارون فقال تعالى (وقال الذين أوتوا العلم وبلغكم ثواب الله خير) قيل هم الزاهدون .

وقال سهل بن عبد الله : للعقل ألف اسم ، ولكل اسم منه ألف اسم ، وأول كل اسم منه ترك الدنيا . وقيل في قوله تعالى (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا) قيل : عن الدنيا . وفي الخبر : العلماء أمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا فإذا دخلوا في الدنيا فاحذروهم على دينكم ، وجاء في الآخر : لا تزال دلاله إلا الله ، تدفع عن العباد سخط الله ما لم يبالوا ما نقص من دنياهم ؛ فإذا فعلوا ذلك وقالوا لا إله إلا الله قال الله تعالى : كذبتم لستم بها صادقين .

وقال سهل : أعمال البر كلها في موازين الزهاد وثواب زهدهم زيادة لهم . وقيل : من سمي باسم الزهد في الدنيا فقد سمي بألف اسم محمود ؛ ومن سمي باسم الرغبة في الدنيا فقد سمي بألف اسم مذموم .

وقال السري : الزهد ترك حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا ، ويجمع هذا : الحظوظ المالية ، والجمالية ، وحب المنزلة عند الناس ، وحب المحمدة والثناء .

وسئل الشبلي عن الزهد فقال : الزهد غفلة ، لأن الدنيا لاشيء ، والزهد في لاشيء غفلة . وقال بعضهم : لما رأوا حقارة الدنيا زهدوا في زهدهم في الدنيا لهوانها عندهم ، وعندى أن الزهد في الزهد غير هذا ، وإنما الزهد في الزهد بالخروج من الاختيار في الزهد ، لأن الزاهد اختار الزهد وأراد ، وإرادته تستند إلى علمه ، وعلمه قاصر ، فإذا أقيم في مقام ترك الإرادة وانسلخ من اختياره كاشفه الله تعالى بمراده ، فترك الدنيا بمراد الحق لا بمراد نفسه ، فيكون زهده بالله تعالى حينئذ . أو يعلم أن مراد الله منه التلبس بشيء من الدنيا ، فما يدخل بالله في شيء من الدنيا لا ينقص عليه زهده ، فيكون دخوله في الشيء من الدنيا بالله ويأذن منه زهداً في الزهد ، والزهد في الزهد استوى عنده وجود الدنيا وعدمها ، إن تركها تركها بالله ، وإن أخذها أخذها بالله ، وهذا هو الزهد في الزهد : وقد رأينا من العارفين من أقيم في هذا المقام . وفوق هذا مقام آخر في الزهد : وهو لمن يرد الحق إليه اختياره لسعة علمه وطهارة نفسه في مقام البقاء ، فيزهد زهداً ثانياً ويترك الدنيا بعد أن مكن من ناصيتها وأعيدت عليه موهوبة ، ويكون تركه الدنيافي هذا المقام باختياره ، واختياره من اختيار الحق ؛ فقد يختار تركها حينئذ تأسياً بالأنبياء والصالحين ، ويرى أن أخذها في مقام الزهد في الزهد رفق أدخل عليه لموضع ضعفه عن ذلك شأراً الأقوياء من الأنبياء

والصديقين ؛ فترك الرفق من الحق بالحق للحق ، وقد يتناول باختباره رفقا بالنفس بتدبير يسوسه فيه صريح العلم ؛ وهذا مقام التصرف لأقوياء العارفين : زهدوا ثالثاً بالله ، كما رغبوا ثانياً بالله ، كما زهدوا أولاً لله .

قولهم في الصبر

قال سهل : الصبر انتظار الفرج من الله وهو أفضل الخدمة وأعلاها .

وقال بعضهم : الصبر أن تصبر في الصبر : أى لا تطالع فيه الفرج : قال الله تعالى ﴿ والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ .

وقيل : لكل شيء جوهر ، وجوهر الإنسان العقل ، وجوهر العقل الصبر ؛ فالصبر : عرك النفس ، وبالعرك تلين والصبر جار في الصابر يجري الانفاس ، لأنه يحتاج الى الصبر عن كل منهي ومكروه ومدموم ظاهر وباطن ، والعلم يبدل والصبر يقبل ، ولا تنفع دلالة العلم بغير قبول الصبر . ومن كان العلم سائس في الظاهر والباطن لا يتم ذلك له إلا إذا كان الصبر مستقره وسكنه . والعلم والصبر متلازمان كالروح والجسد لا يستقل أحدهما بدون الآخر ، ومصدرهما الغريزة العقلية ، وهما متقاربان لاتحاد مصدرهما ، وبالصبر يتحمل على النفس ، وبالعلم يترقى الروح ، وهما البرزخ والفرقان بين الروح والنفس ليستقر كل واحد منهما في مستقره ، وفي ذلك صريح العدل وصحة الاعتدال ، وبانفصال أحدهما عن الآخر أعى العلم والصبر ميل أحدهما على الآخر أعى النفس والروح ، وبيان ذلك يدق . وناهيك بشرف الصبر قوله تعالى ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ كل أجبر أجره بحساب وأجر الصابرين بغير حساب . وقال الله تعالى لنبيه : ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾ أضاف الصبر إلى نفسه لشرف مكانه وتكمل النعمة به .

قيل : وقف رجل على الشبلى فقال : أى صبر أشد على الصابرين ؟ فقال : الصبر في الله ؛ فقال : لا . فقال : الصبر لله ، فقال : لا . فقال : الصبر مع الله ، فقال : لا . فنضب الشبلى وقال : ويحك ، أى شيء هو ؟ فقال الرجل : الصبر عن الله . قال : فصرخ الشبلى صرخة كاد أن تتلف روحه . وعندى في معنى الصبر عن الله وجه ، واسكونه من أشد الصبر على الصابرين وجه ؛ وذلك أن الصبر عن الله يكون في أخصه مقامات المشاهدة يرجع العبد عن الله استحياء وإجلالا ، وتنطق بصبره خجلا وذوبانا ، ويتغيب في مفاوز استكاته وتخفيه لإحساسه بعظيم أمر التجلي ، وهذا من أشد الصبر لأنه يود استدامة هذا الحال تأدية لحق الجلال ، والروح تود أن تستحل بصيرتها باستلحاق نور الجلال ، وكما أن النفس منازعة لمعوم حال الصبر ، فالروح في هذا الصبر منازعة ، فاشتد الصبر عن الله تعالى لذلك .

وقال أبو الحسن بن سالم : هم ثلاثة : متصبر ، وصابر ، وصبار ؛ فالمتصبر : من صبر في الله ؛ فزعة يصبر ، وسرة يجزع . والصابر : من يصبر في الله والله ولا يجزع ، ولكن تتوقع منه الشكوى ، وقد يمكن منه الجزع . وأما الصبار : فذاك الذى صبره في الله والله بالله ، فهذا لو وقع عليه جميع البلايا لا يجزع ولا يتغير من جهة الوجود والحقيقة ، لامن جهة الرسم والخلفة ، وإشارته في هذا ظهور حكم العلم فيه مع ظهور صفة الطبيعة .

وكان الشبلى يمثل بهذين البيتين :

إن صوت المحب من ألم الشوق وخوف الفراق يورث ضرا

صابر الصبر فاستغاث به الصب . سر فصاح المحب للصبر صبرا

قال جعفر الصادق رحمه الله : أمر الله تعالى أنبياءه بالصبر وجعل الحظ الأعلى للرسول صلى الله عليه وسلم حيث جعل صبره بالله لابتنفسه ، فقال ﴿ وما صبرك إلا بالله ﴾ .

وسئل السري عن الصبر ، فتكلم فيه ، فدب على رجله عقرب ، فجعل يضربه بإمرته ، فقيل له : لم لا تدفعه ؟ قال : أستحي من الله تعالى أن أتكلم في حال ثم أخالف ما أتكلم فيه .

أخبرنا أبو زرعة إجازة ، عن أبي بكر بن خلف إجازة ، عن أبي عبد الرحمن قال : سمعت محمد بن خالد يقول : سمعت الفراء يقول : سمعت الجنيد رحمه الله يقول : إن الله تعالى أكرم المؤمنين بالإيمان ، وأكرم الإيمان بالعقل

أسألم فيمنعوني فلا يقلحون .

وأنشد لبعضهم :

قالوا غدا عيد ماذا أنت لابسه فقلت خلعة ساق عبده الجرجا
فقر وصبر هما ثوبان تحتهما قلب يرى ربه الأعياد والجمعا
أحرى الملابس أن تلقى الحبيب به يوم التزاور في الثوب الذى خلعا
الدهر لى مأتم إن غبت يا أملى والعيد مادمت لى مرأى ومستمعا

قولهم فى الشكر

قال بعضهم : الشكر هو الغيبة عن النعمة برؤية المنعم .
وقال يحيى بن معاذ الرازى : لست بشاكر مادمت تشكر وغابة الشكر التحير ، وذلك أن الشكر نعمة من الله
يجب الشكر عليها .

وفى أخبار داود عليه السلام : إلهى كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمتك ؟
فأوحى الله إليه : إذا عرفت هذا فقد شكرتني .

ومعنى الشكر فى اللغة : هو الكشف والإظهار ، يقال : شكر وكشر ، إذا كشف عن ثغره وأظهره ، فذكر
النعم وذكرها وتعدادها باللسان من الشكر . وباطن الشكر : أن تستعين بالنعم على الطاعة ولا تستعين بها على
المعصية فهو شكر النعمة .

وسمعت شيخنا رحمه الله ينشد عن بعضهم :

أوليتنى نعماً أبوح بشكرها وكفيتنى كل الأمور بأسرها
فلا تشكرنك ما حييت وإن أمت فلتشكرنك أعظمى فى قبرها

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله فى السراء والضراء ،
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من ابتلى فصر ، وأعطى فشكر ، وظلم فغفر ، وظلم فاستغفر ، قيل :
فأباه ؟ قال : أولئك لهم الأمن وهم مهتدون .

قال الجنيد فرض الشكر الاعتراف بالنعم بالقلب واللسان .

وفى الحديث : أفضل الذكر لا إله إلا الله . وأفضل الدعاء الحمد لله .

وقال بعضهم فى قوله تعالى (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) قال الظاهرة العوافى والغنى . والباطنة
البلاوى والفقر ، فإن هذه نعم أخرى لما يستوجب بها من الجزاء .

وحقيقة الشكر أن يرى جميع المقضى له به نعماً غير ما يضره فى دينه ، لأن الله تعالى لا يقضى للعبد المؤمن شيئاً إلا
وهو نعمة فى حقه ؛ فإما عاجلة يعرفها ويفهمها ، وإما آجلة بما يقضى له من المسكارة ، فإما أن تكون درجة له أو
تمحيصاً أو تكميراً ؛ فإذا علم أن مولاه أنصح له من نفسه وأعلم بمصالحه وأن كل مامنه نعم ، فقد شكر .

قولهم فى الخوف

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رأس الحكمة مخافة الله ، وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : كان
داود النبي عليه السلام يعود الناس يظنون أن به مرضاً وما به مرض إلا خوف الله تعالى والحياء منه .

قال أبو عمر الدهشقى الخائف من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان .

وقال بعضهم ليس الخائف من يخاف ويمسح غيبه واسكن الخائف التارك ما يخاف أن يعذب عليه .

وفيل الخائف الذى لا يخاف غير الله قيل أى لا يخاف لنفسه إنما يخاف إجلاله ، والخوف للنفس خوف العقوبة .

وقال سهل الخوف ذكر والرجاء أنى أى منهما تتولد حقائق الإيمان ، قال الله تعالى (ولقد وصينا الذين أوتوا

الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله) قيل . هذه الآية قطب القرآن ، لأن مدار الأمر كله على هذا .
وقيل : إن الله تعالى جمع للخائفين مافرقه على المؤمنين : وهو الهدى والرحمة والعلم والرضوان ، فقال تعالى :
(هدى ورحمة للذين هم لربهم رهيبون) وقال (إنما يحشى الله من عباده العلماء) وقال (رضى الله عنهم ورضوا
عنه ذلك لمن خشى ربه) .

وقال سهل : كالإيمان بالعلم ، وكالعلم بالخوف . وقال أيضا : العلم كسب الإيمان ، والخوف كسب المعرفة .
وقال ذو النون : لا يسقى المحب كأس المحبة إلا من بعد أن ينضح الخوف قلبه .
وقال فضيل بن عياض . إذا قبل لك : تخاف الله ؟ أسكت ، فإنك إن قلت لا ؛ كفرت ، وإن قلت نعم ؛ كذبت ،
فليس وصفك وصف من يخاف .

قولهم في الرجاء

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله عز وجل أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل
من إيمان ، ثم يقول : و عزق وجلالي لا أجعل من آمن في ساعة من ليل أو نهار كمن لا يؤمن في » .
وقيل : جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من بلى حساب الخلق ؟ فقال : الله تبارك وتعالى ،
قال : هو بنفسه ؟ قال : نعم ، فتبسم الأعرابي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « مم ضحكك يا أعرابي ؟ ، فقال إن
الكريم إذا قدر عفا ، وإذا حاسب سمح .
وقال شاه الكرمانى : علامة الرجاء حسن الطاعة ، وقيل : الرجاء رؤية الجلال بعين الجلال ، وقيل : قرب القلب
من ملاطفة الرب .

قال أبو على الروذبارى : الخوف والرجاء كخاضى الطائر إذا استويا استوى الطائر وتم في طيرانه .
قال أبو عبد الله بن خفيف : الرجاء ارتياح القلوب لرؤية كرم المرجو ، قال مطرف : لو وزن خوف المؤمن
ورجاؤه لاعتدلا .

والخوف والرجاء الإيمان كالجنحين ، ولا يكون خائفا إلا وهو راج ، ولا راجيا إلا وهو خائف ، لأن موجب
الخوف الإيمان ، وبالإيمان رجاء ، وموجب الرجاء الإيمان ، ومن الإيمان خوف . ولهذا المعنى روى عن لقمان أنه
قال لابنه : خف الله تعالى خوفا لا تأمن فيه مكره ، وارجه أشد من خوفك ، قال : فكيف أستطيع ذلك إنما
قلب واحد ؟ أما علمت أن المؤمن ذو قلدين يخاف بأحدهما ويرجو بالآخر ؟ وهذا لأنهما من حكم الإيمان .

قولهم في التوكل

قال السرى : التوكل الانخلاع من الحول والقوة . وقال الجنيد : التوكل أن تكون لله كالم تكن ، فيكون الله
لك كالم يزل .

وقال سهل : كل المقامات لها وجه وقفا ، غير التوكل فإنه وجه بلا قفا .
قال بعضهم : يريد توكل العناية لا توكل الكفاية ، والله تعالى جعل التوكل مقرونا بالإيمان فقال (وعلى الله فتوكلا
إن كنتم مؤمنين) وقال (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وقال لنبيه (وتوكل على الحى الذى لا يموت) .
وقال ذو النون : التوكل ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة .
وقال أبو بكر الرقاق : التوكل رد العيش إلى يوم واحد وإسقاط هم غد .
وقال أبو بكر الواسطى : أصل التوكل صدق العاقبة والافتقار وأن لا يفارق التوكل في أمانيه ولا يلتفت بصره إلى
توكله لحظة في عمره .

وقال بعضهم : من أراد أن يفهم بحق التوكل فليحفر لنفسه قبراً يدفن فيها ويونس الدنيا وأهلها ، لأن حقيقة التوكل
لا يقوم لها أحد من الخلق على كماله .

وقال سهل : أول مقامات التوكل أن يكون العبد بين يدي الله تعالى كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف أراد ولا يكون له حركة ولا تدبير . وقال حدود القصار : التوكل هو الاعتصام بالله وقال سهل أيضاً : العلم كله باب من التعبد ، والتعبد كله باب من الورع ، والورع كله باب من الزهد ، والزهد كله باب من التوكل . وقال : التقوى واليقين مثل كفتي الميزان ، والتوكل لسانه به تعرف الزيادة والنقصان .

ويقول أن التوكل على قدر العلم بالوكيل ، فكل من كان أتم معرفة كان أتم توكلاً ، ومن كمل توكله غاب في رؤية الوكيل عن رؤية توكله ، ثم إن قوة المعرفة تفيد صرف العلم بالعدل في القسمة ، وأن الأقسام نصبت بإزاء المفسوم لهم عدلاً وموازنة ، فإن النظر إلى غير الله لوجود الجهل في النفس ، وكل ما أحس بشيء يقدر في توكله يراه من منبع النفس ، فنقصان التوكل يظهر بظهور النفس ، وكأله ثبت بغيبة النفس ، وليس للأقوياء اعتداد بتصحیح توكلهم وإنما شغلهم في تغيب النفس بتقوية مراد القلب ، فإذا غابت النفس انحسرت مادة الجهل فصحح التوكل والعبد غير ناظر إليه ، وكلما تحركت من النفس بقية يرد على ضميرهم سر قوله تعالى ﴿ إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء ﴾ فيغلب وجود الحق الأعيان والأكران ، ويرى الكون بالله من غير استقلال الكون في نفسه ، ويصير التوكل حينئذ اضطراباً ، ولا يقدر في توكل مثل هذا المتوكل ما يقدر في توكل الضعفاء في التوكل من وجود الأسباب والوسائط ، لأنه يرى الأسباب مواتاً لا حياة لها إلا بالتوكل ، وهذا توكل خواص أهل المعرفة .

قولهم في الرضا

قال الحارث الرضا سكن القلب تحت جريان الحكم . وقال ذوالنون : الرضا سرور القلب بمر القضاء . وقال سفيان عند رابعة : اللهم ارض عنا ، فقالت له : أما تستحي أن تطلب رضا من لست عنه براض ، فساها بعض الحاضرين : متى يكون العبد راضياً عن الله تعالى ؟ فقالت : إذا كان سروره بالمصيبة كسروره بالنعمة .

وقال سهل : إذا اتصل الرضا بالرضوان اتصلت الطمأنينة ﴿ فطوبى لهم وحسن مآب ﴾ . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً ، وقال عليه السلام : إن الله تعالى يمكنه جعل الروح والفرح في الرضا واليقين ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط .

وقال الجنيد : الرضا هو صحة العلم الواصل إلى القلوب ، فإذا باشر القلب حقيقة العلم أداه إلى الرضا ، وليس الرضا والمحبة كالخوف والرجاء ، فإنهما حالان لا يفارقان العبد في الدنيا والآخرة لأنه في الجنة لا يستغنى عن الرضا والمحبة .

وقال ابن عطاء الله : الرضا سكن القلب إلى قديم اختيار الله للعبد ، لأنه اختار له الأفضل فيرضى له وهو ترك السخط .

وقال أبو تراب : ليس ينال الرضا من الله من الدنيا في قلبه مقدار . وقال السري : خمس من أخلاق المقربين : الرضا عن الله فيما تحب النفس وتكره ، والحب له بالتحبب إليه ، والحياء من الله ، والانس به والوحشة بما سواه .

وقال الفاضل : الراضى لا يتمنى فوق منزلته شيئاً . وقال ابن شمعون : الرضا بالحق والرضاه والرضا عنه ، فالرضا به مدبراً ومختاراً ، والرضا عنه قاسماً ومعطياً ، والرضاه إلهاماً ورباً .

سئل أبو سعيد : هل يجوز أن يكون العبد راضياً سائطاً ؟ قال : نعم . يجوز أن يكون راضياً عن ربه سائطاً على نفسه وعلى كل ماطع يقطعه عن الله . وقيل للحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما . إن أباذر يقول : الفقر أحب إلى من الغنى ، والسقم أحب من الصحة ؟ قال : رحم الله أباذر ، أما أنا فأقول : من اتكأ على حسن اختيار الله له لم يمتن أنه في غير الحالة التي اختار الله له .

وقال علي رضى الله عنه : من جلس على بساط الرضا لم ينله من الله مكروه أبداً ، ومن جلس على بساط السؤال لم يرض عن الله في كل حال .

وقال يحيى : يرجع الأمر كله إلى هذين الأصلين : فعل منه لك ، وفعل منك له ، فترضى بما عمل وتخلص فيما عمل .

وقال بعضهم : الراضى من لم يندم على فاءت من الدنيا ولم يتأسف عليها .
وقيل ليحيى بن معاذ : متى يبلغ العبد إلى مقام الرضا ؟ قال : إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به ، يقول :
إن أعطيتنى قبلت ، وإن منعتنى رضيت ، وإن تركتني عديت ، وإن دعوتني أجبت .
وقال الثعلبي رحمه الله بين يدى الجنيد : لا حول ولا قوة إلا بالله . قال الجنيد : فوالك ذاضيق صدر ، فقال : صدقت
قال : فضيق الصدر ترك الرضا بالقضاء ، وهذا إنما قاله الجنيد رحمه الله تنبيها منه على أصل الرضا ، وذلك أن الرضا
يحصل لا إشراح القلب وانفساحه ، وإشراح القلب من نور اليقين . قال الله تعالى ﴿ ألهم الله صديقه لئلا يضل ﴾
على نور من ربه ﴿ فإذا تمكن النور من الباطن اتسع الصدر وانفتحت عين البصيرة وعان حسن تدبير الله تعالى
فينتزع السخط والضجر ، لأن اتساع الصدر يتضمن حلاوة الحب وفعل المحبوب بموقع الرضا عن المحب الصادق ؛ لأن
المحب يرى أن الفعل من المحبوب مراده واختياره ، فيفنى في لذة رؤية اختيار المحبوب عن اختيار نفسه ، كما قيل :
* وكل ما يفعل المحبوب محبوب *

الباب الحادى والستون : فى ذكر الأحوال وشرحها

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردى رحمه الله ، قال أخبرنا أبو طالب الزينى ، قال أخبرتنا كريمة
المرورية ، قالت أخبرنا أبو الهيثم الكشميهنى ، قال أخبرنا أبو عبد الله الفربرى ، قال أخبرنا أبو عبد الله البخارى ، قال
حدثنا سليمان بن حرب ، قال حدثنا شعبة عن قتادة عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال
« ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن أحب عبدا لا يحبه إلا الله ،
ومن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار » .

وأخبرنا شيخنا أبو زرعة طاهر بن أبي الفضل ، قال أخبرنا أبو بكر بن خلف ، قال أخبرنا أبو عبد الرحمن ، قال
أخبرنا أبو عمر بن حيوة ، قال حدثني أبو عبيد بن مؤمل عن أبيه ، قال حدثني بشر بن محمد ، قال حدثنا عبد الملك بن
وهب عن إبراهيم بن أبي عبلة عن العرابض بن سارية قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو « اللهم اجعل
حبك أحب إلى من نفسى وسمى وسمى وبصرى وأهلى ومالى ومن الماء البارد » ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب
خالص الحب ، وخالص الحب : هو أن يحب الله تعالى بكلية ، وذلك أن العبد قد يكون فى حال قائما بشروط حاله بحكم
العلم ، والجبلية تنقضاء بصد العلم ، مثل أن يكون راضيا والجبلية قد تتركه ، ويكون النظر إلى الانقياد بالعلم لا إلى
الاستمضاء بالجبلية ؛ فقد يحب الله تعالى ورسوله بحكم الإيمان ، ويحب الأهل والولد بحكم الطبع .

وللمحبة وجوه . وبواعث المحبة فى الإنسان متنوعة : فهنا محبة الروح ، ومحبة القلب ، ومحبة النفس ، ومحبة
العقل ؛ فقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ذكر الأهل والمال والماء البارد : معناه (استئصال غرور المحبة بمحبة
الله تعالى حتى يكون حب الله تعالى غالبا ، فيحب الله تعالى بقلبه وروحه وكلية ، حتى يكون حب الله تعالى أغلب فى
الطبع أيضا والجبلية من حب الماء البارد ، وهذا يكون حبا صافيا لخواص تنغمر به وبنوره نار الطبع والجبلية ،
وهذا يكون حب الذات عن مشاهدة بعكوف الروح وخلوصه إلى مواطن القرب .

قال الواسطى فى قوله تعالى ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ كما أنه بذاته يحبهم كذلك يحبون ذاته ، فالهاء راجعة إلى الذات
دون التعمت والصفات .

وقال بعضهم : المحب شرطه أن تلحقه سكرات المحبة ، فإذا لم يكن ذلك لم يكن حبه فيه حقيقة ، فإذا أحب حبان :
حب عام ، وحب خاص ، فالحب العام مفسر بامتثال الأمر ، وربما كان حبا من معدن العلم بالآلاء والنعماء ، وهذا الحب
مخرجه من الصفات ، وقد ذكر جمع من المشايخ الحب فى المقامات ، فيكون النظر إلى هذا الحب العام الذى يكون
لكسب العبد فيه مدخل .

وأما الحب الخاص فهو حب الذات عن مطالعة الروح ، وهو الحب الذى فيه السكرات ، وهو الاصطناع من الله الكريم لمعبده واصطفائه إياه ، وهذا الحب يكون من الأحوال ؛ لأنه محض موهبة ليس للكسب فيه مدخل ، وهو مفهوم من قول النبي صلى الله عليه وسلم : أحب إلى من الماء البارد ، لأنه كلام عز وجل ، وجدان روح تلذ بحب الذات ، وهذا الحب روح ، والحب الذى يظهر عن مطالعة الصفات ويطلع من مطالع الإيمان قالب هذا الروح ، ولما صحت محبتهم هذه أخبر الله تعالى عنهم بقوله (أذلة على المؤمنين) لأن المحب يذل لمحبيه والمحبوب محبوبه ، ويلشد :

لعين تفدى ألف عين وتقى ويكرم ألف للحبيب المكرم

وهذا الحب الخاص هو أصل الأحوال السنية وموجبها ، وهو فى الأحوال كالقوبة فى المقامات ؛ فمن صحت قوبته على الكمال تحقق بسائر المقامات من الزهد والرضا والتوكل على ما شرعناه أولا ؛ ومن صحت محبته هذه تحقق بسائر الأحوال من الفناء والبقاء والصحو والمحو وغير ذلك ؛ والقوبة لهذا الحب أيضا بمثابة الجسدان ؛ لأنها مشتملة على الحب العام الذى هو لهذا الحب كالجسد ، ومن أخذ فى طريق المحبوبين وهو طريق خاص من طريق المحبة يتكامل فيه ويجمع له روح الحب الخاص مع قالب الحب العام الذى تشتمل عليه القوبة انصرح ، وعند ذلك لا يتقلب فى أطوار المقامات ، لأن التقلب فى أطوار المقامات والنزق من شئ منها إلى شئ طريق المحبين ، ومن أخذ فى طريق المجاهدة من قوله تعالى (والذين جاهدوا فىنا الهدى نهم سبلنا) ومن قوله تعالى (ويهدى إليه من ينيب) أثبت كون الإجابة سببا للهداية فى حق المحب ، وفى حق المحبوب صرح بالاجتهاد غير معلى بالكسب فقال الله تعالى (الله يجتبي إليه من يشاء) فمن أخذ فى طريق المحبوبين يطوى بساط أطوار المقامات ويندرج فيه صفوها وغالصها بآتم وصفها ، والمقامات لا تقيد ولا تحبس وهو يقيدها ويحبسها بترقيها منها وانتزاعه صفوها وغالصها ، لأنه حيث أشرفت عليه أنوار الحب الخاص جامع ملابس صفات النفس ونعوتها ، والمقامات كلها مصفوية للنعموت والصفات النفسانية ، فالزهد يصفيه عن الرغبة ، والتوكل يصفيه عن قلة الاعتماد المتولد عن جهل النفس ، والرضا يصفيه عن ضربان عرق المنازعة ، والمنازعة لبقاء جهود فى النفس ما أشرق عليها شمس المحبة الخاصة فبقى ظلمتها وجودها ، فمن تحقق بالحب الخاص لانت نفسه وذهب جهودها ، فلماذا ينزع الزهد منه من الرغبة ورغبة الحب أحرقة ترغبه ! وماذا يصنى منه التوكل ومطالعة الوكيل حشو بصيرته ! وماذا يسكن فيه الرضا من عروق المنازعة والمنازعة بمن لم تسلم كليته ؟

قال الروذبارى ما لم تخرج من كليتك لا تدخل فى حدا المحبة . وقال أبو يزيد : من قتلته محبته فديته رؤيته ، ومن قتله عشقه فديته منادته .

أنخبرنا بذلك أبو زرعة عن ابن خلف عن أبي عبد الرحمن قال : سمعت أحمدا بن علي بن جعفر يقول : سمعت الحسين ابن علويه يقول : قال أبو يزيد بذلك ، فإذا التقلب فى أطوار المقامات لعوام المحبين ، وطى بساط الأطوار لخواص المحبين وهم المحبوبون : تخلفت عن مهمهم المقامات ، وربما كانت المقامات على مدارج طبقات السموات ؛ وهى مواطن من يتعثر فى أذيال بقاياها .

قال بعض الكبار لإبراهيم الخواص : إلى ماذا أدى بك التصوف ؟ فقال : إلى التوكل ، فقال : تسعى فى عمران باطنك ! أين أنت من الفناء فى التوكل برؤية الوكيل ؟

فالنفس إذا تحركت بصفاتها متغلطة من دائرة الزهد يردّها الزاهد إلى الدائرة بزهده ، والمتوكل إذا تحركت بنفسه يردّها بتوكله ، والراضى يردّها برضاه ، وهذه الحركات من النفس بقايا وجودية تنفقر إلى سياسة العلم ، وفى ذلك تلسم روح القرب من بعيد : وهو أداء حق العبودية مبلغ العلم وبحسبه الاجتهاد والكسب . ومن أخذ فى طريق الخاصة عرف طريق التخلص من البقايا بالستر بأنوار فضل الحق . ومن اكتسى ملابس نور أهل القرب بروح دائمة العكوف بحمة عن الطاروق والصروف لا يرعجه طلب ولا يوحشه سلب ، فالزهد والتوكل والرضا كائن فيه ، وهو غير كائن فيها ، على معنى أنه كيف تقلب كان زاهدا وإن رغب ، لأنه بالحق لا بنفسه ، وإن روى منه الالتفات إلى الأسباب

فهو متوكل ، وإن وجد منه الكراهة فهو راض ، لأن كراهته لنفسه ونفسه للحق وكراهته للحق أعيد إليه نفسه بدور بها وصفاتها مطهرة موهبة محمودة ملطوف بها ، صار عين الداء دواءه وصار الإلعال شفاه ، وناب طلب الله له مناب كل طالب من زهد وتوكل ورضا ، أو صار مطلوبه من الله ينوب عنه كل مطلوب من زهد وتوكل ورضا .

قالت رابعة : محب الله لا يسكن أئنه وحنينه حتى يسكن مع محبوبه .

وقال أبو عبد الله القرشي : حقيقة المحبة أن تهب لمن أحببت كلك ولا يبقى لك منك شيء .

وقال أبو الحسين الوراق : السرور بالله من شدة المحبة له ، والمحبة في القلب نار تحرق كل دفس .

وقال يحيى بن معاذ : صبر المحبين أشد من صبر الزاهدين ، وأعجب كيف يصبر الإنسان عن حبيبه !

وقال بعضهم : من ادعى محبة الله من غير توزع عن محارمه فهو كذاب ، ومن ادعى محبة الجنة من غير إنفاق ماله فهو كذات ، ومن ادعى حب رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير حب الفقراء فهو كذاب . وكانت

رابعة تمشد :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في الفعال بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

وإذا كان الحب للأحوال كالتوبة لل مقامات فمن ادعى حالا يعتبر حبه ، ومن ادعى محبة تعتبر توبته ، فإن التوبة قالب روح الحب ، وهذا الروح قيامه بهذا القلب ، والأحوال أعراض قوامها بجوم الروح .

وقال سمنون : ذهب المحبون لله بشرف الدنيا والآخرة ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : المرء مع من أحب ، فهم مع الله تعالى .

وقال أبو يعقوب السوسي : لا تصح المحبة حتى تخرج من رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب بفناء علم المحبة من حيث كان له المحبوب في الغيب ولم يكن هذا بالمحبة ، فإذا خرج المحب إلى هذه النسبة كان محبا من غير محبة .

سئل الجنيد عن المحبة ؟ قال : دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب . قيل : هذا على معنى قوله تعالى : فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ، وذلك أن المحبة إذا صفت وكلت لا تزال تجذب بوصفها إلى محبوبها ، فإذا انتهت إلى غاية جهدها وقفت والرابطة متأصلة متأكدة ، وكال وصف المحبة أزال الموانع من المحب ، وبكال وصف المحبة تجذب صفات المحبوب تعطفها على المحب المخلص من موانع فادحة في صدق الحب ، ونظرا إلى قصوره بعد استنفاد جهده ، فيعود المحب بفوائده اكتساب الصفات من المحبوب ، فيقول عند ذلك .

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

وهذا الذي عبرنا عنه حقيقة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : تخلقوا بأخلاق الله ، لأنه بزاهة النفس وكال التزكية يستمدد للمحبة والمحبة موهبة غير معللة بالتزكية ، ولكن سنة الله جارية أزيكي نفوس أحبائه بحسن توفيقه وتأنيده ، وإذا منح نزاهة النفس وطهارتها ثم جذب بروحه بمجاذب المحبة خلع عليه خلع الصفات والأخلاق ، ويكون ذلك عنده رتبة في الوصول ، فتارة يذبح الشوق من باطنه إلى ما وراء ذلك لكون عطايا الله غير متناهية ، وتارة يتسلى بما منح فيكون ذلك وصوله الذي يسكن نيران شوقه ، ويباعث الشوق تستقر الصفات الموهبة المحققة رتبة الوصول عند المحب ، ولولا باعث الشوق رجعت القهقري وظهرت صفات نفسه الحائلة بين المرء وقلبه ، ومن ظن من الوصول غير ما ذكرناه أو تخايل له غير هذا القدر ، فهو متعرض للذهب النصارى في الهوى والناسوت .

وإشارات الشيوخ في الاستغراق والفناء كلها عائدة إلى تحقيق مقام المحبة باستيلاء نور اليقين وخلاصة الذكر على القلب ، وتحقيق حق اليقين بزوال اعوجاج البقايا ، وأمنت اللوث الوجودى من بقاء صفات النفس . وإذا صحت المحبة ترتبت عليها الأحوال وتبعها .

سئل الشبلي عن المحبة ؟ فقال : كأس لما وهج إذا استقر في الحواس وسكن في النفوس تلاشت .
وقيل : للمحبة ظاهر وباطن ، ظاهرها اتباع رضا المحبوب ، وباطنها أن يكون مفتونا بالحبيب عن كل شيء ولا يبق
فيه بقية لغيره ولا لنفسه ؛ فمن الأحوال السنية في المحبة الشوق ، ولا يكون المحب إلا مشتاقا أبدا ؛ لأن أمر الحق تعالى
لا نهاية له ؛ فما من حال يبلغها المحب إلا ويعلم أن ما وراء ذلك أوفى منها وأنتم :

حزني كحسبك لا لذا أمد * ينهي إليه ولا لذا أمد

ثم هذا الشوق الحادث عنده ليس من كسبه ، وإنما هو موهبة خص الله بها المحبين .
قال أحمد بن أبي الخوارى : دخلت على أبي سليمان الداراني فرأيت يبيكي ، فقلت : ما يبكيك رحمك الله قال :
ويحك يا أحمد ، إذا جن هذا الليل افترشت أهل المحبة أقدامهم وجرت دموعهم على خدودهم ، وأشرف الجليل جل
جلاله عليهم يقول : بعيني من تلذذ بكلامي واستراح إلى مناجاتي ، وإلى مطلع عليهم في خلواتهم أسمع أنيهم وأرى
بكاهم ، يا جبريل ناد فيهم ما هذا البكاء الذي أراه فيكم ؟ هل خبركم مخبر أن حبيبا يعذب أحبابه بالنار ؟ كيف يحملني
أن أعذب قوما إذا جن عليهم الليل تملقوا إلى ؟ فبي حلفت إذا وردوا القيامة على أن أسفر لهم عن وجهي وأبيحهم
رياض قدسي .

وهذه أحوال قوم من المحبين أقيموا مقام الشرق ، والشوق من المحبة كالزهد من التوبة : إذا استقرت التوبة
ظهر الزهد ، وإذا استقرت المحبة ظهر الشوق .

قال الواسطي في قوله تعالى (وعجلت إليك رب لترضى) قال شوقا واستهانة بمن وراءه (قال هم أولاء على أثرى)
من شوقه إلى مكالمته الله ، ورعى بالألواح لما فاتته من وقته .

قال أبو عثمان : الشرق ثمره المحبة ، فمن أحب الله اشتاق إلى لقائه . وقال أيضا في قوله تعالى (فإن أجل الله لآت)
تقربة لذشائقين ، معناه : إني أعلم أن شوقكم إلى غالب ، وأنا أجات للقائكم أجلا ، وعن قريب يكون وصولكم إلى
من تشاقون إليه .

وقال ذو النون : الشوق أعلى الدرجات وأعلى المقامات ، فإذا بلغها الإنسان استبطأ الموت شوقا إلى ربه ورجاء
للقائه والنظر إليه .

وعندي : أن الشرق الكائن في المحبين إلى رتب يتوقعونها في الدنيا ، غير الشوق الذي يتوقعون به ما بعد الموت ،
والله تعالى يكشف أهل وده بمطايا يجدونها علما ويطلبونها ذوقا ؛ فكذلك يكون شوقهم ليصير العلم ذوقا ، وليس
من ضرورة مقام الشوق استبطاء الموت ، وربما الأصحاء من المحبين يتلذذون بالحياة لله تعالى ، كما قال الجليل لرسوله
عليه الصلاة والسلام (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) فمن كانت حياته لله ، منحه الكريم لذة
المنجاة والمحبة ، فتمتلى عينه من النقد ، ثم يكشفه من المنح والعطايا في الدنيا ما يتحقق بمقام الشوق من غير الشوق
إلى ما بعد الموت .

وأنكر بعضهم مقام الشوق وقال : إنما يكون الشوق لغائب ، ومتى يغيب الحبيب عن الحبيب حتى يشتاق ؟ ولهذا
سئل الأنطاكي عن الشوق ؟ فقال : إنما يشتاق إلى الغائب وما غبت عنه منذ وجدته ، وإنكار الشوق على الإطلاق
لا أرى له وجهها ؛ لأن رتب العطايا والمنح من أنصبة القرب إذا كانت غير متناهية كيف ينكر الشوق من المحب ؟
فهو غير غائب وغير مشتاق بالنسبة إلى ما وجد ، ولكن يكون مشتاقا إلى ما لم يجد من أنصبة القرب ، فكيف يمنع
حال الشوق والامر هكذا ؟ وجه آخر : أن الإنسان لا بد له من أمور يردها حكم الحال لموضع بشريته وطبيعته وعدم
وقوفه على حد العلم الذي يقتضيه حكم الحال ، ووجود هذه الأمور مثير لنار الشوق ، ولا نغنى بالشوق إلا
مطالبة تنبعث من الباطن إلى الأولى والأعلى من أنصبة القرب ، وهذه المطالبة كائنة في المحبين ، فالشوق إذا كائن
لا وجه لإنكاره .

وقد قال قوم : شوق المشاهدة واللقاء أشد من شوق البعد والغيوبة ، فيكون في حال الغيبة مشتاقا إلى اللقاء ، ويكون في حال اللقاء والمشاهدة مشتاقا إلى زوائد ومبار من الحبيب وإفضاله ، وهذا هو الذي أراه وأختاره .
وقال فارس : قلوب المشتاقين منورة بنور الله ، فإذا تحركت اشتياقا أضاء النور ما بين المشرق والمغرب ، فيعرضهم الله على الملائكة فيقول . هؤلاء المشتاقون إلى أشهدكم أني لإيهم أشوق .

وقال أبو يزيد : لو أن الله حجب أهل الجنة عن رؤيته لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار .
سئل ابن عطاء الله عن الشوق فقال : هو احتراق الحشا وتلهب القلوب وتقطع الأرباب من البعد بعد القرب .
سئل بعضهم : هل الشوق أعلى أم المحبة : فقال : المحبة ؛ لأن الشوق يتولد منها ، فلامشتاق لإلا من غلبه الحب ، فالحب أصل والشوق فرع .

وقال النصر أبادي : للخلق كلهم مقام الشوق لا مقام الاشتياق ، ومن دخل في حال الاشتياق هام فيه حتى لا يرى له أثر ولا قرار .

ومنها الأنس : وقد سئل الجنيد عن الأنس ؟ فقال : ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة .
وسئل ذو النون عن الأنس ؟ فقال : هو انبساط المحب إلى المحبوب . قيل : معناه قول الخليل ﴿ أرني كيف يحبني الموتى ﴾ وقول موسى ﴿ أرني أنظر إليك ﴾ . وأنشد لرويم :

شغلت قلبي بما لديك فلا * ينفك طول الحياة عن فكر
آنستني منك بالوداد فقد * أوحشتني من جميع ذا البشر
ذكرك لي مؤنس يعارضني * يوعدني عنك منك بالظفر
وحينما كنت يامدى همى * فأنت منى بموضع النظر

وروى أن مطرف بن الشيخير كتب إلى عمر بن عبد العزيز : ليكن أنسك بالله وانقطاعك إليه ، فإن لله عبادا استأنسوا بالله وكانوا في وحدتهم أشد استئناسا من الناس في كثرتهم ، وأوحش ما يكون الناس آنس ما يكونون ، وآنس ما يكون الناس أوحش ما يكونون .

قال الواسطي : لا يصل إلى محل الأنس من لم يستوحش من الأكران كلها .
وقال أبو الحسين الوراق : لا يكون الأنس بالله إلا ومعه التعظيم ، لأن كل من استأنست به سقط عن قلبك تعظيمه إلا الله تعالى ، فإنك لا تتزايد به أنسا إلا ازدادت منه هيبة وتعظيما .

قالت رابعة : كل مطيع مستأنس . وأنشدت :

ولقد جعلتك في الفؤاد محذو * وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليل مؤانس * وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

وقال مالك بن دينار : من لم يأنس بمحادثة الله عن محادثة المخلوقين فقد قل عليه وعمرى قلبه وضيع عمره .
قيل لبعضهم : من معك في الدار ؟ قال : الله تعالى معي ولا يستوحش من أنس بره .

وقال الخراز : الأنس محادثة الأرواح مع المحبوب في مجالس القرب .

وصف بعض المعارفين صفة أهل المحبة الواصلين فقال : جدد لهم الود في كل طرفة بدوام الاتصال ، وآرام في كنفه بمحائق السكون إليه حتى أنت قلوبهم وحنن أرواحهم شوقا . وكان الحب والشوق منهم إشارة من الحق إليهم عن حقيقة التوحيد وهو الوجود بالله ، فذهبت مناهم وانقطعت آمالهم عنده لما بان منه لهم ، ولو أن الحق تعالى أمر جميع الأنبياء يسألون لهم ما سألوه بعض ما أعد لهم من قديم وحدانيته ودوام أزليته وسابق عليه ، وكان نصيبهم معرفتهم به وفراغ مهمهم عليه واجتماع أهوائهم فيه ، فصار يحسد من عباده العموم : أن رفع عن قلوبهم جميع الهموم وأنشد في معناه :

كانت لقلبي أهواء مفسدة فاستجمعت إذ رأتك النفس أهوائ
فصار يحسدني من كنت أحسده وصرت مولى الورى مذصرت مولاتي
تركت للناس دنياهم ودينهم شغلا بذكرك يا ديني وديناتي

وقد يكون من الانس : الانس بطاعة الله وذكره وتلاوة كلامه وسائر أبواب القربات ، وهذا القدر من الانس
نعمة من الله تعالى ومنحة منه ، ولكن ليس هو حال الانس الذي يكون للمحبين ، والانس حال شريف يكون عند
طهارة الباطن وكذسه بصدق الزهد وكمال التقوى وقطع الاسباب والعلائق ومحو الخواطر والهواجس ، وحقيقته
عندى : كذس الوجود بثقل لا تخ العظمة وانتشار الروح في ميادين الفتوح ، وله استقلال بنفسه يشتمل على القلب
فيجمعه به عن الهية ، وفي الهية اجتماع الروح ورسوبه الى عمل النفس ، وهذا الذي وصفناه من انس الذات وهية
الذات يكون في مقام البقاء بعد العبور على عمر الفناء ، وهما غير الانس والهية اللذين يذهبان بوجود الفناء ؛ لأن
الهية والانس قبل الفناء ظهرا مطالعة الصفات من الجلال والجمال وذلك مقام التلويح ، وما ذكرناه بعد الفناء في
مقام التمكين والبقاء من مطالعة لذات .

ومن الانس ؟ خضوع النفس المطمئنة ، ومن الهية : خشوعها ، والخضوع والخشوع يتقاربان ويفترقان بفرق
لطيف يدرك بإيماء الروح .

ومنها : القرب ، قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام ﴿واستجبوا لربكم﴾ وقد ورد : أقرب ما يكون العبد
من ربه في سجوده ، فالساجد إذا أذيق طعم السجود يقرب لأنه يسجد ويطوى بسجوده بساط الكون ما كان وما
يكون ، ويسجد على طرف رداء العظمة فيقرب قال بعضهم : إني لأجد الحضور فأقول : يا الله ، أويارب ؛ فأجد
ذلك على أقل من الجبال . قيل : ولم ؟ قال : لأن النداء يكون من وراء حجاب ، وهل رأيت جليسا يناذى جليسه ،
وإنما هي إشارات وملاحظات ومناغاة وملاطفات ، وهذا الذي وصفه مقام عزيز متحقق فيه القرب ، ولكنه مشعر
بمحو ، ومؤذن بسكر ، يكون ذلك لمن غابت نفسه في نور روحه أغلته سكره وقوة محو ؛ فإذا صحار أفاق تنخلص
الروح من النفس والنفس من الروح ، ويعود كل من العبد الى محله ومقامه ، فيقول : يا الله ويارب ، بلسان النفس
المطمئنة العائدة الى مقام حاجتها ومحل عبوديتها ، والروح تستقل بفتوحه وبكمال الحال عن الأقوال ، وهذا اتم وأقرب
من الأول ، لأنه وفي حق القرب باستقلال الروح بالفتوح ، وأقام رسم العبودية بعود حكم النفس الى محل الافتقار ،
وحظ القرب لا يزال يتوفر نصيب الروح بإقامة رسم العبودية من النفس .

وقال الجنيد : إن الله تعالى يقرب من قلوب عباده على حسب ما يرى من قرب قلوب عباده منه ، فانظر ماذا
يقرب من قلبك .

وقال أبي يعقوب السوسى : مادام العبد يكون بالقرب لم يكن قريبا حتى يغيب عن رؤية القرب بالقرب فإذا
ذهب عن رؤية القرب بالقرب فذلك قرب . وقد قال قائمهم :

قد تحققت في السر ففاجاك لسانى
فاجتمعنا لمعان وافترقنا لمعان
لأن يكن غيبك التمه ظيم عن لحظ عياني
فلقد صيرك الوجد مد من الأحشاء داني

قال ذو النون : ما ازداد أحد من الله قرابة إلا ازداد هيبة . وقال سهل . أدنى مقام من مقامات القرب الحياء .
وقال النضر اباضى : باتباع السنة تنال المعرفة ، وبإداء الفرائض تنال القرية ، وبالمواظبة على النوافل تنال المحبة .
ومنها : الحياء ، والحياء على الوصف العام والوصف الخاص ؛ فأما الوصف العام فما أمر به رسول الله صلى الله
عليه وسلم في قوله : استحيوا من الله حق الحياء ، قالوا : إنا نستحي يا رسول الله . قال : ليس ذلك ، ولكن من

استحياء من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى وليذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء ، وهذا الحياء من المقامات ، وأما الحياء الخاص فمن الأحوال : وهو ما نقل عن عثمان رضى الله عنه أنه قال : إني لأغتسل في البيت المظلم فأنطوى حياء من الله .

أخبرنا أبو زرعة عن ابن خلف عن أبي عبد الرحمن قال سمعت أبا العباس البغدادى يقول : سمعت أحمد السقطى ابن صالح يقول : سمعت محمد بن عبدون يقول سمعت أبا العباس المؤدب يقول : قال لى سرى : احفظ عني ما أقول لك إن الحياء والانس يطرفان بالقلب ، فإذا وجد فيه الزهد والورع حطا ، وإلا رحلا ، والحياء لإطراق الروح لإجلالاً لعظيم الجلال . والانس التذاذ الروح بكامل الجمال ؛ فإذا اجتمعاه فهو الغاية في المنى والهاية في العطاء . وأنشد شيخ الإسلام أشواقه وإذا بدا أطرفت من إجلاله لاخيفة بل هيبة وصيانة بجماله الموت في إدباره والعيش في إقباله وأصد عنه إذا بدا وأروم طيف خياله قال بعض الحكماء : من تكلم في الحياء ولا يستحي من الله فيما يتكلم به فهو مستدرج .

وقال ذو النون الحياء وجود الهيبة في القلب مع حشمة ما سبق منك إلى ربك . وقال ابن عطاء الله : العلم الأكبر الهيبة والحياء ؛ فإذا ذهب عنه الهيبة والحياء فلا خير فيه . وقال أبو سليمان : إن العباد عملوا على أربع درجات : على الخوف ، والرجاء ، والتعظيم ، والحياء . وأشرفهم منزلة : من عمل على الحياء ، لما يقن أن الله تعالى يراه على كل حال استحياء من حسناته أكثر مما استحياء العاصون من سيئاتهم .

وقال بعضهم : الغالب على قلوب المستحيين الإجلال والتعظيم دائماً عند نظر الله إليهم . ومنها الاتصال قال النورى الاتصال مكاشفات القلوب ومشاهدات الأسرار . وقال بعضهم الاتصال وصول السر إلى مقام الذهول . وقال بعضهم الاتصال أن لا يشهد العبد غير خالقه ولا يتصل بغيره خاطر لغير صانعه . وقال سهل بن عبد الله حرّكوا بالبلاء فتحركوا ، ولو سكنوا اتصلوا . وقال يحيى بن معاذ الرازى العمال أربعة تائب ، وزاهد ، ومشتاق ، وواصل ؛ فالتائب محجوب بتوبته ، والزاهد محجوب بزهد ، والمشتاق محجوب بحاله ، والواصل لا يحجبه عن الحق شيء .

وقال أبو سعيد القرشى الواصل الذى يصله الله فلا يخشى عليه القلع أبداً ، والمتصل الذى يجهد به يتصل ، وكلما دنا انقطع ، وكأن هذا الذى ذكره حال المريد والمراد ، لكون أحدهما مباداً بالكشف وكون الآخر مردوداً إلى الاجتهاد .

وقال أبو يزيد الواصلون في ثلاثة أحرف همهم لله ، وشغلهم في الله ، ورجوعهم إلى الله . وقال السيارى الوصول مقام جليل ، وذلك أن الله تعالى إذا أحب عبداً أن يوصله اختصر عليه الطريق وقرب إليه البعيد .

وقال الجنيد الواصل هو الحاصل عند ربه . وقال رويم أهل الوصول أوصل الله إليهم فأولهم ، فهم محفوظو القوى ، ممنوعون من الخلق أبداً .

وقال ذو النون مارجع من رجع إلا من الطريق ، وما وصل إليه أحد فرجع عنه . واعلم أن الاتصال والمراصلة أشار إليه الشيوخ ، وكل من وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو من رتبة الوصول ، ثم يتفاوتون ، فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال وهو رتبة في التجلى فيفنى فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله ، ويخرج في هذه الحالة من التدبير والاختيار ، وهذه رتبة في الوصول . ومنهم من يوقف في مقام الهيبة والانس بما يكشف قلبه به من مطالعة الجمال والجلال ، وهذا تجلى طريق الصفات وهو رتبة في الوصول . ومنهم

من ترقى لمقام الفناء مشتملا على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة مغيبا في شهوده عن وجوده ، وهذا ضرب من تجلي الذات لخواص المقربين ، وهذا المقام رتبة في الوصول ، وفوق هذا حق اليقين ، ويكون من ذلك في الدنيا للخواص لمح : وهو سريان نور المشاهدة في كلية العبد حتى يحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قالبه ، وهذا من أعلى رتب الوصول ؛ فإذا تحققت الحقائق يعلم العبد مع هذه الأحوال الشريفة أنه بعد في أول المنزل فأين الوصول؟ هيئات منازل طريق الوصول لا تقطع أبد الآباد في عمر الآخرة الأبدى ، فكيف في العمر القصير الدنيوى ؟

ومنها القبض والبسط : وهما حالان شريفان ، قال الله تعالى ﴿ والله يقبض ويبسط ﴾ وقد تكلم الشيوخ وأشاروا بإشارات هي علامات القبض والبسط ، ولم أجد كشفا عن حقيقتهما لأنهم اكتفوا بالإشارة ، والإشارة تقنع الأهل ، وأحببت أن أشبع الكلام فيهما لعله ينشوق إلى ذلك طالب ويجب بسط القول فيه والله أعلم .

واعلم أن القبض والبسط لها موسم معلوم ووقت محتوم لا يكونان قبله ولا يكونان بعده ، ووقتهما وموسمهما في أوائل حال المحبة الخاصة لافئ نهايتها ، ولأقبل حال المحبة الخاصة ؛ فن هو في مقام المحبة العامة الثابتة بحكم الإيمان لا يكون له قبض ولا بسط ، وإنما يكون له خوف ورجاء ، وقد يجذب به حال القبض وشبه حال البسط ، ويظن ذلك قبضا وبسطا ، وليس هو ذلك ، وإنما هو يعتريه فيظنه قبضا ، واهتزاز نفساني ونشاط طبيعي يظنه بسطا ، والهم والنشاط يصدران من محل النفس ومن جوهرها لبقاء صفاتها ، وما دامت صفة الامارة فيها بقية على النفس يكون منها الاهتزاز والنشاط والهم : وهج ساجور النفس ، والنشاط : ارتفاع موج النفس عند تلاطم بحر الطبع ؛ فإذا ارتقى من حال المحبة العامة إلى أوائل المحبة الخاصة يصير ذاك حال وذا قلب وذا نفس لوامة ، ويتناوب القبض والبسط فيه عند ذلك ؛ لأنه ارتقى من رتبة الإيمان إلى رتبة الإيقان وحال المحبة الخاصة ، فيقبضه الحق تارة ويبسطه أخرى قال الواسطي : يقبضك عمالك ويبسطك فيما له : وقال النوري : يقبضك بإياك ، ويبسطك لإياه .

واعلم أن وجود القبض لظهور صفة النفس وغلبتها ، وظهور البسط لظهور صفة القلب وغلبته ، والنفس مادامت لوامة فتارة مغلوطة ، وتارة غالبة ، والقبض والبسط باعتبار ذلك منها ، وصاحب القلب تحت حجاب نوراني لوجود قلبه ، كما أن صاحب النفس تحت حجاب ظلمياني لوجود نفسه ، فإذا ارتقى من القلب وخرج من حجاب لا يقيد الحال ولا يتصرف فيه ، فيخرج من تصرف القبض والبسط حيثئذ ، فلا يقبض ولا يبسط مادام متخلصا من الوجود النوراني الذي هو القلب ومتحققا بالقرب من غير حجاب النفس والقلب ؛ فإذا عاد إلى الوجود من الفناء والبقاء ، يعود إلى الوجود النوراني الذي هو القلب ، فيعود القبض والبسط إليه عند ذلك ، ومهما تخلص إلى الفناء والبقاء فلا قبض ولا بسط .

قال فارس : أولا القبض ثم البسط ، ثم لا قبض ولا بسط ، لأن القبض والبسط يقع في الوجود ، فأما مع الفناء والبقاء فلا ، ثم إن القبض قد يكون عقوبة لإفراط في البسط ، وذلك أن الوارد من الله تعالى يرد على القلب فيمتلئ القلب منه روحا وفرحا واستبشارا ، فتمتدق النفس السمع عند ذلك وتأخذ نصيبها ، فإذا وصل أثر الوارد إلى النفس طغت بطمها وأفرطت في البسط حتى تشاكل البسط نشاطا ، فتقابل بالقبض عقوبة ، وكل القبض إذا فتن لا يكون إلا من حركة النفس وظهورها بصفتها ، ولو تأدبت النفس وعدلت ولم تجر بالطغيان تارة وبالعصيان أخرى ما وجد صاحب القلب القبض ، ومادام روحه وأنسه . ورعاية الاعتدال الذي يسد باب القبض متلق من قوله تعالى ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ فوارد الفرح مادام موقوفا على الروح والقلب لا يكتف ولا يستوجب صاحبه القبض سيما إذا لطف بالفرح بالوارد بالإيواء إلى الله ، وإذا لم يلتجئ بالإيواء إلى الله تعالى تطلعت النفس وأخذت حظها من الفرح ، وهو الفرح بما أوتي الممنوع منه ، فن ذلك القبض في بعض الأحيان ، وهذا من أطف الذنوب الموجبة للقبض . وفي النفس من حركاتها وصفاتها وأولات متعددة موجبة للقبض ، ثم الخوف والرجاء لا يعد منها صاحب القبض والبسط ولا صاحب الانس والهيبة ، لأنهما من ضرورة الإيمان فلا يندمان . وأما القبض والبسط فينبغي أن عند صاحب الإيمان لتقصان الحظ من القلب ، وعند صاحب الفناء والبقاء والقرب لتخلصه من القلب ، وقد يرد على الباطن قبض وبسط ولا يعرف

سببهما ، ولا يخفى سبب القبض والبسط إلا على قليل الحظ من العلم الذى لم يحكم علم الحال ولا علم المقام ، ومن أحكم علم الحال والمقام لا يخفى عليه سبب القبض والبسط ، وربما يشبهه عليه سبب القبض والبسط كما يشبهه عليه الهم بالقبض والنشاط بالبسط ، وإنما علم ذلك لمن استقام قلبه ، ومن عدم القبض والبسط وارتقى منهما نفسه مطمئنة لا تنفد من جوهرها نار توجب القبض ، ولا يتلاطم بحر طبعها من أهوية الهوى حتى يظهر منه البسط ، وربما صار لمثل هذا القبض والبسط فى نفسه لامن نفسه ، فتكون نفسه مطمئنة بطبع القلب فيجربى القبض والبسط فى نفسه مطمئنة ، ومال قلبه قبض ولا بسط ؛ لأن القلب متحصن بشعاع نور الروح مستقر فى دعة القرب فلا قبض ولا بسط . ومنها : الفناء والبقاء . وقد قيل : الفناء أن يفنى عن الحظوظ فلا يكون له فى شيء حظ ، بل يفنى عن الأشياء كلها شغلا بمن فى فيه . وقد قال عامر بن عبدالله : لا أبالى امرأة رأيت أم حاططا ، ويكون محفوظا في الله عليه مصروفا عن جميع المخالقات . والبقاء يعقبه ، وهو أن يفنى عما له ويبقى بما لله تعالى .

وقيل الباقى أن تصير الأشياء كلها له شيئا واحدا ، فيكون كل حركاته فى موافقة الحق دون مخالفته ، فكان فانيا عن المخالقات باقيا فى الموافقات .

وعندى أن هذا الذى ذكره هذا القائل هو مقام صحة التوبة النصوح ، وليس من الفناء والبقاء فى شيء . ومن الإشارة إلى الفناء ما روى عن عبدالله بن عمر أنه سلم عليه لإنسان وهو فى الطواف فلم يرد عليه . فشكاه إلى بعض أصحابه ، فقال له كنا نترامى الله فى ذلك المكان .

وقيل الفناء هو الغيبة عن الأشياء كما كان فناء موسى حين تجلى ربه للجبل . وقال الخراز الفناء هو التلاشى بالحق . والبقاء هو الحضور مع الحق . وقال الجنيد الفناء استعجام الكل عن أوصافك واشتغال الكل منك بكليته . وقال إبراهيم بن شيبان : علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوجدانية وصحة العبودية ، وما كان غير هذا فهو من المغاليط والزندقة .

وسئل الخراز ما علامة الفانى ؟ قال : علامة من ادعى الفناء ذهاب حظه من الدنيا والآخرة إلا من الله تعالى . وقال أبو سعيد الخراز : أهل الفناء فى الفناء صحتهم أن يصحبهم علم البقاء ، وأهل البقاء فى البقاء صحتهم أن يصحبهم علم الفناء .

واعلم أن أقاويل الشيوخ فى الفناء والبقاء كثيرة ، فبعضها إشارة إلى فناء المخالقات وبقاء الموافقات وهذا تقتضيه التوبة النصوح ، فهو ثابت بوصف التوبة وبعضها يشير إلى زوال الرغبة والحرص والأمل ، وهذا يقتضيه الزهد . وبعضها إشارة إلى فناء الأوصاف المذمومة وبقاء الأوصاف الحمودة ، وهذا يقتضيه تركية النفس . وبعضها إشارة إلى حقيقة الفناء المطلق ، وكل هذه الإشارات فيها معنى الفناء من وجه . ولكن الفناء المطلق هو ما يستولى من أمر الحق سبحانه وتعالى على العبد ، فيغلب كونه الحق سبحانه وتعالى على كونه العبد ، وهو ينقسم إلى فناء ظاهر وفناء باطن ، فأما الفناء الظاهر : فهو أن يتجلى الحق سبحانه وتعالى بطريق الأفعال ويسلب عن العبد اختياره وإرادته فلا يرى لنفسه ولا لغيره فعلا إلا بالحق ، ثم يأخذ فى المعاملة مع الله تعالى بحسبه ، حتى سمعت أن بعض من أقیم فى هذا المقام من الفناء كان يبق أيا ما لا يتناول الطعام والشراب حتى يتجرد له فعل الحق فيه ويقبض الله تعالى له من يطعمه ويسقيه كيف شاء وأحب ، وهذا لعمري فناء ، لأنه فنى عن نفسه وعن الغير نظرا إلى فعل الله تعالى بفناء فعل غير الله . والفناء الباطن : أن يكشف تارة بالصفات وتارة بمشاهدة آثار عظمة الذات ، فيستولى على باطنه أمر الحق حتى لا يبق له هاجس ولا وسواس . وليس من ضرورة الفناء أن يغيب إحساسه ، وقد يتفق غيبة الإحساس لبعض الأشخاص ، وليس ذلك من ضرورة الفناء على الإطلاق .

وقد سألت الشيخ أبا محمد بن عبدالله البصري وقلت له : هل يكون بقاء المتخيلات فى السر ووجود الرسواس

من الشرك الخفى ؟ - وكان عندي أن ذلك من الشرك الخفى - فقال لى : هذا يكون فى مقام الفناء . ولم يذكر أنه هل هو من الشرك الخفى أم لا ؟ ثم ذكر حكاية مسلم بن يسار أنه كان فى الصلاة فوقع استطوانة فى الجامع فأنزعج لهتها أهل السوق ، فدخلوا المسجد فرأوه فى الصلاة ولم يحسّ بالاستطوانة ووقعها ، فهذا هو الاستغراق والفناء باطنا ، ثم قد يتسع وعاءه حتى لعله يكون متحققا بالفناء ومعناه روحا وقلبا ، ولا يغيب عن كل ما يجرى عليه من قول وفعل ، ويكون من أقسام الفناء : أن يكون فى كل فعل وقول مرجعه إلى الله وينتظر الإذن فى كليات أموره ليكون فى الأشياء بالله لا بنفسه ؛ فتارك الاختيار منتظر لفعل الحق فان ، وصاحب الانتظار لإذن الحق فى كليات أموره راجع إلى الله بباطنه فى جزئياتها فان ، ومن ما كره الله تعالى اختياره وأطلقه فى التصرف يختار كيف شاء وأراد لا منتظرا للفعل ولا منتظرا للإذن هو باق ، والباقي فى مقام لا يحجبه الحق عن الخلق ، ولا الخلق عن الحق ، والفانى محجوب بالحق عن الخلق ، والفناء الظاهر لأرباب القلوب والأحوال ، والفناء الباطن لمن أطلق عن وثائق الأحوال ، وصار بالله لا بالأحوال ، وخرج من القلب فصار مع مقبله لأمع قلبه .

الباب الثانى والستون

فى شرح كلمات مشيرة إلى بعض الأحوال فى اصطلاح الصوفية

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقي بن سليمان إجازة ، قال أخبرنا أبو الفضل حمد بن أحمد ، قال أخبرنا الحافظ أبو نعيم الأصفهاني ، قال حدثنا محمد بن إبراهيم ، قال حدثنا أبو مسلم الكشي ، قال حدثنا مسور بن عيسى ، قال حدثنا القاسم بن يحيى ، قال حدثنا ياسين الزيات عن أبي الزبير عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن من معادن التقوى تعلمك إلى ما قد علمت علم مالم تعلم ، والنقص فيما علمت قلة الزيادة فيه ، وإنما يزهد الرجل فى علم مالم يعلم قلة الانتفاع بما قد علم ، فشايخ الصوفية أحكموا أساس التقوى ، وتعلموا العلم الله تعالى ، وعملوا بما عدلوا والموضع تقوهم ، فلههم الله تعالى مالم يعلموا من غرائب العلوم ودقيق الإشارات ، واستنبطوا من كلام الله تعالى غرائب العلوم وعجائب الأسرار وترسخ قدمهم فى العلم قال أبو سعيد الخراز أول الفهم لكلام الله العمل به ، لأن فيه العلم والفهم والاستنباط . وأول الفهم لقاء السمع والمشاهدة لقوله تعالى ﴿إني ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ وقال أبو بكر الواسطي : الراسخون فى العلم هم الذين رسخوا بأرواحهم فى غيب الغيب ، وفى سر السر ، فعرّفهم ما عرفهم ، وأراد منهم من مقتضى الآيات مالم يرد من غيرهم ، وخاصوا بحر العلم بالفهم لطلب الزيادات فأنكشف لهم من مدخور الخزان والمخزون تحت كل حرف وآية من الفهم وعجائب النص ، فاستخرجوا الدرر والجواهر ونطقوا بالحكمة . وقد ورد فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه سفيان بن عيينة عن ابن جريج عن عطاء عن أبي هريرة أنه قال : إن من العلم كهية المسكون لا يعلمه إلا العلماء بالله ؛ فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل الغرة بالله . أخبرنا أبو زرعة ، قال أخبرنا أبو بكر بن خلف ، قال حدثنا أبو عبد الرحمن ، قال سمعت النضر أبا ذى يقول : سمعت ابن عائشة يقول سمعت القرشي يقول هى أسرار الله تعالى يبيدها إلى أمناء أوليائه وسادات النبلاء من غير سماع ولا دراسة ، وهى من الأسرار التى لم يطلع عليها إلا الخواص .

وقال أبو سعيد الخراز للمعارفين خزان أودعوها علوما غريبة وأنباء عجيبة يتكلمون فيها بلسان الأبدية ويخبرون عنها بعبارة الأزلية ، وهى من العلم المجهول ، فقوله بلسان الأبدية وعبارة الأزلية ، إشارة إلى أنهم بالله ينطقون . وقد قال تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم «بى ينطق» وهو العلم اللدنى الذى قال الله تعالى فيه فى حق الخضر ﴿آتيناه رحمة من عندنا وعلّمناه من لدنا علما﴾ فما تناولته أسئتهم من الكلمات تفهيماً من بعضهم لبعض ، وإشارة منهم إلى أحوال يجدونها ومعاملات قلبية يعرفونها . قولهم أجمع والتفرقة ، قبل أصل الجمع والتفرقة قوله تعالى ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ فهذا جمع ثم فرق فقال ﴿والملائكة وأولوا العلم﴾ وقوله تعالى ﴿آمنّا بالله﴾ جمع ثم فرق بقوله

﴿ وما أنزل إلينا ﴾ والجمع أصل والتفرقة فرع ؛ فكل جمع بلا تفرقة زندقة ، وكل تفرقة بلا جمع تعطيل .
وقال الجنيد : القرب بالوجد جمع ، وغيبته في البشرية تفرقة . وقيل : جمعهم في المعرفة وفرقهم في الاحوال . والجمع اتصال لا يشاهد صاحبه إلا الحق ، فتي شاهد غيره فاجمع ، والتفرقة شه ، دلمن شاء بالمباينة ، وعباراتهم في ذلك كثيرة والمقصود أنهم أشاروا بالجمع إلى تجريد التوحيد ، وأشاروا بالتفرقة إلى الاكتساب ، فعلى هذا لاجمع لايتفرقة ، ويقولون فلان في عين الجمع ، يعنون استيلاء مراقبة الحق على باطنه ؛ فإذا جاد إلى شيء من أعماله عاد إلى التفرقة ؛ فصحة الجمع بالتفرقة . وصحة التفرقة بالجمع ؛ فهذا يرجع حاصله إلى أن الجمع من العلم بالله ، والتفرقة من العلم بأمر الله ، ولا بد منهما جميعا .

قال المزين ؛ الجمع عين الفناء بالله ، والتفرقة العبودية متصل بعضها ببعض . وقد غلط قوم وادعوا أنهم في عين الجمع وأشاروا إلى صرف التوحيد وعطلوا الاكتساب فزندقوا . وإنما الجمع حكم الروح ؛ والتفرقة حكم القلب . ومادام هذا التركيب باقيا فلا بد من الجمع والتفرقة .

وقال الواسطي : إذا نظرت إلى نفسك فرقة وإذا نظرت إلى ربك جمعت ، وإذا كنت قائما بغيرك فأنت فاذ فاجمع ولا تفرقة . وقيل : جمعهم بذاته ، وفرقهم في صفاته ، وقد يريدون بالجمع والتفرقة : أنه إذا أثبت لنفسه كسبا ونظر إلى أعماله فهو في التفرقة ، وإذا أثبت الأشياء بالحق فهو في الجمع ، ويخرج الإشارات ينفي أن السكون يفرق والمكون يجمع ؛ فمن أفرد المكون جمع ، ومن نظر إلى السكون فرق ؛ فالتفرقة عبودية ، والجمع توحيد ؛ فإذا أثبت طاعته نظرا إلى كسبه فرق ، وإذا أثبتا بالله جمع ، وإذا تحقق بالفناء فهو جمع الجمع ، ويمكن أن يقال : رؤية الأفعال تفرقة ، ورؤية الصفات جمع ، ورؤية الذات جمع الجمع .

سئل بعضهم عن حال موسى عليه السلام في وقت الكلام فقال : أفنى موسى عن موسى فلم يكن لموسى خبر من موسى ، ثم كلم فكان المسكلم والمسكلم هو ، وكيف كان يطيق موسى حمل الخطاب وردا لجواب لولا إياها سمع ، ومعنى هذا : أن الله تعالى منحه قوة بتلك القوة سمع ، ولولا تلك القوة ما قدر على السمع ، ثم أنشد القائل متمثلا :

وبداله من بعد ما اندمل الهوى * برق تألق موهبا لمعانه
يبدو ككاشية الرداء ودونه * صعب الذرى متمنع أركانه
فبدا لينظر كيف لاح فلم يطق * نظرا إليه ورده أشجانه
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه * والماء ما سمحت به أجفاه

ومنها قولهم : التجلى والاستتار . قال الجنيد : إما هو تأديب وتهذيب وتذويب ، فالتأديب : محل الاستتار وهو للعوام ، والتهذيب للنخوص وهو التجلى ، والتذويب للأولياء وهو المشاهدة .

وحاصل الإشارات في الاستتار والتجلى راجع إلى ظهور صفات النفس . ومنها الاستتار : وهو إشارة إلى غيبة صفات النفس بكمال قوة صفات القلب . ومنها التجلى ، ثم التجلى قد يكون بطريق الأفعال ، وقد يكون بطريق الصفات ، وقد يكون بطريق الذات ، والحق تعالى أبقى على الخواص موضع الاستتار رحمة منه لهم ولغيرهم ؛ فأما لهم فلاهم به يرجعون إلى مصالح النفوس ، وأما لغيرهم فلاهم لولا مواضع الاستتار لم ينتفع بهم لاستغراقهم في جمع الجمع وبروزهم لله الواحد القهار .

قال بعضهم : علامة تجلى الحق للأسرار هو أن لا يشهد السر ما يتسلط عليه التعبير ويحويه الفهم ، فن عبر أوفهم فهو صاحب استدلال لا ناظر لإجلال .

وقال بعضهم : التجلى : رفع حجب البشرية لا أن يتلون ذات الحق عز وجل . والاستتار : أن تكون البشرية حائلة بينك وبين شهود الغيب .

ومنها : التجريد والتفريد ، الإشارة منهم في التجريد والتفريد أن العبد يتجرد عن الأغراض فيما يفعله ، لا يأتى

بما يأتي به نظرا إلى الاغراض في الدنيا والآخرة ، بل ما كوشف به من حق العظمة يؤديه حسب جهده عبودية وانقيادا والتفريد : أن لا يرى نفسه فيما يأتي به بل يرى منة الله عليه ، فالتفريد ينفي الاعيار ، والتفريد ينفي نفسه واستغراقه عن رؤية نعمة الله عليه وغيبته عن كسبه ، ومنها : الوجد والتواجد والوجود ؛ فالوجد : ما يرد على الباطن من الله يكسبه فرحا أو حزنا ، ويغيره عن هيئته ويتطلع إلى الله تعالى ، وهو فرجة يجرها المغلوب عليه بصفات نفسه ينظر منها إلى الله تعالى . والتواجد : استجلاب الوجد بالذكر والتفكير ، والوجود : اتساع فرجه الوجد بالخروج إلى فضاء الوجدان ، فلا وجد مع الوجدان ، ولا خبر مع العيان ؛ فالوجد بعرضية الزوال والوجود ثابت بثبوت الجبال ، وقد قيل :

قد كان يطربني وجدى فأقعدنى * عن رؤية الوجد من في الوجد موجود

والوجد بطرب من في الوجد راحته * والوجد عند حضور الحق مفقود

ومنها : الغلبة والغلبة وجد متلاحق ، فالوجد كالبرق يدو ، والغلبة كتلاحق البرق وتواتره يغيب عن التمييز ؛ فالوجد ينطفي " سريعا ، والغلبة تبقى للأسرار حرزا منيعا .

ومنها : المسامرة : وهي تفرد الأرواح بخفي مناجاتها ولطيف مناجاتها في سر السر بلطيف إدراكها للقلب لتفرد الروح بها فتلتذ بها دون القلب .

ومنها السكر والصحو : فالسكر : استيلاء سلطان الحال ، والصحو : العود إلى ترتيب الأفعال وتهذيب الأقوال ، قال محمد بن خفيف : السكر غليان القلب عند معارضات ذكر المحبوب ، وقال الواسطي : مقامات الوجد أربعة : الدهول ، ثم الخيرة ، ثم السكر ، ثم الصحو ؛ كمن سمع بالبحر ، ثم دنا منه . ثم دخل فيه ، ثم أخذته الأمواج ؛ فعلى هذا : من بقى عليه أثر من سريان الحال فيه فعليه أثر من السكر ، ومن عاد كل شيء منه إلى مستقره فهو صاح ؛ فالسكر لأرباب القلوب ، والصحو للكاشفين بحقائق الغيوب .

ومنها : المحو والإثبات ، المحو : بإزالة أوصاف النفوس ، والإثبات : بما أدير عليهم من آثار الحب كؤوس . أو المحو : محو رسوم الأعمال بنظر الفناء إلى نفسه ومأمته ، والإثبات : لإثباتها بما أنشأ الحق له من الوجود به ؛ فهو بالحق لا بنفسه بإثبات الحق إياه مستأنفا بعد أن محاه عن أوصافه .

قال ابن عطاء الله : يمحو أوصافهم ويثبت أسرارهم .

ومنها : علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ، فعلم اليقين : ما كان من طريق النظر والاستدلال ، وعين اليقين ما كان من طريق الكشف والنوال . وحق اليقين : ما كان بتحقيق الانفصال عن لوث الصلصال وورود رائد الوصال قال فارس : علم اليقين لا اضطراب فيه ، وعين اليقين : هو العلم الذي أودعه الله الأسرار والعلم إذا انفرد عن نعت اليقين كان علما بشبهة ، فإذا انضم إليه اليقين كان علما بلا شبهة . وحق اليقين : هو حقيقة ما أشار إليه علم اليقين وعين اليقين .

وقال الجنيد : حق اليقين ما يتحقق العبد بذلك ، وهو أن يشاهد الغيوب كما يشاهد المرئيات مشاهدة عيان ، ويحكم على الغيب فيخبر عنه بالصدق ، كما أخبر الصديق حين قال لما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماذا أيقنت لعمالك ؟ قال : الله ورسوله . وقال بعضهم : علم اليقين حال التفرقة . وعين اليقين حال الجمع . وحق اليقين : جمع الجمع بلسان التوحيد .

وقيل : لليقين : اسم ، ورسم ، وعلم ، وعين وحق ؛ فالاسم والرسم للعوام ، وعلم اليقين للأولياء ، وعين اليقين لخواص الأولياء ، وحق اليقين للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وحقيقة حق اليقين اختص بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . ومنها : الوقت ، والمراد بالوقت : ما هو غالب على العبد ، وأغلب ما على العبد وقته ، فإنه كالسيف يهوى الوقت بحسبه ويقطع . وقد يراد بالوقت ما يجمع على العبد لا بكسبه ، فيتصرف فيه فيكون بحسبه . يقال : فلان بحسب الوقت ، يعني مأخوذا عما منه بما للحق .

ومنها : الغيبة والشهود ؛ فالشهود : هو الحضور وقتا بنعت المراقبة ، ووقتاً بصف المشاهدة ؛ فإدام العبد موصوفاً بالشهود والرعاية فهو حاضر ؛ فإذا فقد حال المشاهدة والمراقبة خرج من دائرة الحضور فهو غائب ، وقد يغيبون بالغيبة الغيبة عن الأشياء بالحق ؛ فيكون على هذا المعنى حاصل ذلك راجعاً إلى مقام الفناء .

ومنها : الذوق والشرب والرى ، فالذوق : إيمان ، والشرب : علم ، والرى : حال ؛ فالذوق لأرباب البوادة ، والشرب لأرباب الطوائع واللوائح والوامع ، والرى لأرباب الأحوال ؛ وذلك أن الأحوال هي التي تستقر ؛ فما لم يستقر فليس بحال وإنما هي لوامع وطوائع . وقيل : الحال لا تستقر لأنها تحول ، فإذا استقرت تكون مقاماً .

ومنها : المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة : فالمحاضرة لأرباب التلون ، والمشاهدة لأرباب التمكن ، والمكاشفة بينهما إلى أن تستقر ؛ فالمشاهدة والمحاضرة لأهل العلم ، والمكاشفة لأهل العين ، والمشاهدة لأهل الحق : أي حق اليقين . ومنها : الطوارق ، والبوادي ، والباده ، والواقع ، والقادح ، والطوائع ، والوامع واللوائح ؛ وهذه كلها الفاظ متقاربة المعنى ، ويمكن بسط القول فيها ، ويكون حاصل ذلك راجعاً إلى معنى واحد يكثر بالعبارة فلا فائدة فيه ، والمقصود أن هذه الأسماء كلها مبادئ الحال ومقدماته ، وإذا صح الحال استوعب هذه الأسماء كلها ومعانيها .

ومنها : التلون والتمكن ؛ فالتلون لأرباب القلوب لأنهم تحت حجب القلوب ، وللقلوب تخلص إلى الصفات ، وللصفات تعدد بتعدد جهاتها ؛ فظهر لأرباب القلوب بحسب تعدد الصفات تولينات ، ولاتجاوز للقلوب وأربابها عن عالم الصفات . وأما أرباب التمكن فخرجوا عن مشائم الأحوال ، وخرقوا حجب القلوب ، وباشرت أرواحهم سطوع نور الذات ؛ فارتفع التلون لعدم التغير في الذات ، إذ جلت ذاته عن حلول الحوادث والتغيرات ؛ فلما اخلصوا إلى مواطن القرب من أنصبة تجلي الذات ارتفع عنهم التلون ، فالتلون حينئذ يكون في نفوسهم لأنها في محل القلوب لموضع طهارتها وقدسها ، والتلون الواقع في النفوس لا يخرج ساحبه عن حالة التمكن ، لأن جريان التلون في النفس لبقاء رسم الإنسانية ، وثبوت القدم في التمكن كشف حق الحقيقة ، وليس المعنى بالتمكن : أن لا يكون للعبد تغير فإنه بشر ، وإنما المعنى به : أن ما كشف به من الحقيقة لا يتوارى عنه أبداً ولا يتناقص بل يزيد ، وصاحب التلون قد يتناقص الشيء في حقه عند ظهور صفات نفسه ، وتغيب عنه الحقيقة في بعض الأحوال ، ويكون ثبوته على مستقر الإيمان وتلويته في زوائد الأحوال .

ومنها النفس ؛ ويقال النفس المنتهى ، والوقت للبتيدي ، والحال للتوسط ، فكأنه إشارة منهم إلى أن المبتدئ يطرقه من الله تعالى طارق لا يستقر ، والمتوسط صاحب حال غالب حاله عليه ، والمنتهى صاحب نفس متمكن من الحال لا يتناوب عليه الحال بالغيبة والحضور ، بل تكون المواجهات مقرونة بأنفاسه مقيمة لا تتناوب عليه . وهذه كلها أحوال لأربابها ، ولهم منها ذوق وشرب ، والله ينفع ببركتهم آمين

الباب الثالث والستون : في ذكر شيء من البدايات والنهايات وصحتها

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردي ، قال أخبرنا الشريف أبو طالب الحسين بن محمد الزيني ، قال أخبرتنا كريمة المروزية ، قالت أخبرنا أبو الهيثم محمد بن مكي الكشميري ، قال أخبرنا أبو عبد الله محمد بن يوسف الغريزي ، قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري ، قال حدثنا الحميدي ، قال حدثنا سفيان بن عيينة ، قال حدثنا يحيى بن سعيد الأنصاري ، قال أخبرني محمد بن إبراهيم التيمي أنه سمع علقمة بن وقاص ، قال : سمعت عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يقول على المنبر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينسكها فهجرته إلى ما هاجر إليه ، النية أول العمل ، وبحسبها يكون العمل ، وأهم ما للربيد في ابتداء أمره في طريق القوم : أن يدخل طريق الصوفية ويتزاً بزهم ويحالي طائفتهم لله تعالى ، فإن دخوله في طريقهم هجرة حاله

ووة ، ، وقد ورد المهاجر من هجر ما نهاه الله عنه ، وقد قال الله تعالى ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله
ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ فالمريد ينبغي أن يخرج إلى طريق القوم لله تعالى ؛ فإنه إن وصل إلى نهايات
القوم فقد لحق بالقوم بالمنزل ، وإن أدركه الموت قبل الوصول إلى نهايات القوم فأجره على الله ، وكل من كانت بدايته
أحكم كانت نهايته أتم .

أخبرنا أبو زرعة لإجازة عن ابن خلف عن أبي عبد الرحمن عن ابن أبي العباس البغدادى عن جعفر الخلدى قال : سمعت
الجنيد يقول : أكثر العوائق والحوائث والمواقع من فساد الابتداء ، فالمريد في أول سلوك هذا الطريق يحتاج إلى
إحكام النية ، وإحكام النية : تنزيها من دواعي الهوى ، وكل ما كان للنفس فيه حظ عاجل ، حتى يكون خروجه
خالصا لله تعالى .

وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز : اعلم يا عمر أن عون الله للعبد بقدر النية ، فمن تمت نيته تم عون الله
له ، ومن قصرت عنه نيته قصر عنه عون الله بقدر ذلك .

وكتب بعض الصالحين إلى أخيه : أخلص النية في أعمالك يكفك قليل من العمل ، ومن لم يهتد إلى النية بنفسه
يصحب من يعلمه حسن النية .

قال سهل بن عبد الله التستري : أول ما يؤمر به المريد المبتدئ : التبري من الحركات المذمومة . ثم النقل إلى الحركات
المحمودة ، ثم التفرد لأمر الله تعالى ، ثم التوقف في الرشاد ، ثم الثبات ، ثم البيان ، ثم القرب ، ثم المناجاة ، ثم المصافاة
ثم الموالاتة ؛ ويكون الرضا والتسليم مراده ، والتفويض والتوكل حاله ، ثم ين الله تعالى بعد هذه بالمعرفة ، فيكون مقامه
عند الله مقام المتبرئين من الحول والقوة ؛ وهذا مقام حملة العرش وليس بعده مقام . هذا من كلام سهل جمع فيه
مافي البداية والنهاية .

ومتى تمسك المريد بالصدق والإخلاص بلغ مبلغ الرجال ، ولا يحقق صدقه وإخلاصه شيء مثل متابعة أمر الشرع
وقطع النظر عن الخلق ؛ فكل الآفات التي دخلت على أهل البدايات لموضع نظرم إلى الخلق . وبلغنا عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يكل إيمان المرء حتى يكون الناس عنده كالأباعر ثم يرجع إلى نفسه فيراها أصغر
صاغر ، إشارة إلى قطع النظر عن الخلق والخروج منهم وترك التقييد بعباداتهم .

قال أحمد بن خضرويه : من أحب أن يكون الله تعالى معه على كل حال فليلزم الصدق ، فإن الله تعالى مع الصادقين ،
وقد ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : الصدق يهدي إلى البر ، ولا بد للمرید من الخروج من المال
والجاء والخروج عن الخلق بقطع النظر عنهم إلى أن يحكم أساسه فيعلم دقائق الهوى وخفايا شهوات النفس ، وأنفع شيء
للمريد معونة النفس ؛ ولا يقوم بواجب حق معرفة النفس من له في الدنيا حاجة من طلب الفضول والزيادات ، أو
عليه من الهوى بقية .

قال زبد بن أسلم : خصلتان هما كالأمرك تصبح لآلهم الله بمصيبة وتسمى ولائهم الله بمصيبة ؛ فإذا أحكم الزهد والتقوى
انكشفت له النفس وخرجت من حجبها وعلم طريق حركتها وخفي شهواتها ودسائسها وتليساتها . ومن تمسك بالصدق
فقد تمسك بالعروة الوثقى . قال ذو النون : لله تعالى في أرضه سيف ما وضع على شيء إلا قطع وهو الصدق .

ونقل في معنى الصدق : أن عابدا من بني إسرائيل راودته ملكة عن نفسه فقال : اجعلوا لي ماء في الخلاء أتتظف
به ، ثم صعد على موضع في القصر فرى بنفسه ؛ فأوحى الله تعالى إلى ملك الهواء أن الزم عبدى ، فلزمه ووضع على
الأرض وضعا رفيقا ، فقيل لإبليس ألا أغويته . فقال ليس لي سلطان على من خالف هواه وبذل نفسه لله تعالى .

وينبغي للمرید أن تكون له في كل شيء نية لله تعالى حتى في أكله وشربه وملبوسه ، فلا يلبس إلا لله ولا يأكل
إلا لله ولا يشرب إلا لله ولا ينام إلا لله ، لأن هذه كلها أرفاق أدخلها على النفس إذا كانت لله لا تستعصى النفس وتجيئ
إلى ما يراود منها من المعاملة لله والإخلاص ، وإذا دخل في شيء من رفق النفس لا لله بغير نية صالحة صار ذلك وبالا

عليه . وقد ورد في الخبر : من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك الأذفر ، ومن تطيب لغير الله عز وجل جاء يوم القيامة وريحه أنفن من الجيفة .

وقيل : كان أنس يقول : طيبوا كفى بمسك ، فإن ثابنا يصالحى ويقبل يدي وقد كانوا يحسنون اللباس للصلاة . متقرر بين بذلك إلى الله بنيتهم : فالمريد ينبغي أن يتفقد جميع أحواله وأعماله وأقواله ولا يسأخ نفسه أن تتحرك بحركة أو تتكلم بكلمة إلا لله تعالى ، وقد رأينا من أصحاب شيخنا من كان ينوي عند كل لقمة ويقول بلسانه أيضا : آكل هذه اللقمة لله تعالى ، ولا ينفع القول إذا لم تكن النية في القلب ؛ لأن النية عمل القلب ، وإنما اللسان ترجمان ؛ فما لم تشتمل عليه عزيمة القلب لله لا تكون نية .

ونادى رجل امرأته وكان يسرح شعره فقال : هاق المدرى ، أراد الميل ليفرق شعره ، فقالت له امرأته : أجبى بالمدرى والمرأة ، فسكت ثم قال : نعم ، فقال له من سمعه : سكت وتوقفت عن المرأة ثم قلت نعم ؛ فقال : إنى قلت لها هات المدرى بنية ، فلما قالت : المرأة لم يكن لى فى المرأة نية ، فتوقفت حتى هيا الله تعالى لى نية ، فقلت نعم ، وكل مبتدئ لا يحكم أساس بدايته بمهاجرة الآلاف والأصدقاء والمعارف ويتمسك بالوحدة لا تستقر بدايته . وقد قيل : من قلة الصدق كثرة الخلق ، وأنفع ماله لزوم الصمت وأن لا يطرق سمعه كلام الناس ؛ فإن باطنه يتغير ويتأثر بالأقوال المختلفة ، وكل من لا يعلم كمال زهده فى الدنيا وتمسكه بحقائق التقوى لا يعرفه أبدا ، فإن عدم معرفته يفتح عليه خيرا ، وبواطن أهل الابتداء كالشمع قبل كل نقش ، وربما استضر المبتدئ بمجرد النظر إلى الناس ، ويستضر بفضول النظر أيضا وفضول المشى ، فيقف من الأشياء كلها على الضرورة ، فينظر ضرورة ؛ حتى لومشى فى بعض الطريق يجتهد أن يكون نظره إلى الطريق الذى يسلكه لا يلتفت يمينه ويساره ، ثم يتقى موضع نظر الناس إليه وإحساسهم منه بالراعى والاحتراز ؛ فإن علم الناس منه بذلك أضرب عليه من فعله ، ولا يستحق فضول المشى ، فإن كل شىء من قول وفعل ونظر وسماع خرج عن حد الضرورة جر إلى الفضول ، ثم يجر إلى تضييع الأصول .

قال سفيان : إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول ، فكل من لا يتمسك بالضرورة فى القول والفعل لا يقدر أن يقف على قدر الحاجة من الطعام والشراب والنوم ، ومتى تعدى الضرورة تداعت عزائم قلبه وانحلت شيئا بعد شىء . قال سهل بن عبدالله : من لم يعبد الله اختيارا يعبد الخلق اضطرارا ، وينفتح على العبد أبواب الرخص والاتساع ويهلك مع الهالكين .

ولا ينبغي للمبتدئ أن يعرف أحدا من أرباب الدنيا ، فإن معرفته لهم سم قاتل . وقد ورد : الدنيا مبغضة الله فمن تمسك بحبل منها قاده إلى النار ، وما حبل من حبالها إلا كآبائنا ، والطالبين لها والحجين ، فمن عرفهم انجذب إليها شاء أو أبى .

ويحترز المبتدئ عن مجالسة الفقراء الذين لا يقولون بقيام الليل وصيام النهار ، فإنه يدخل عليه منهم أشر ما يدخل عليه بمجالسة أبناء الدنيا ، وربما يشيرون إلى أن الأعمال شغل المتعبدين ، وأن أرباب الأحوال ارتقوا عن ذلك ، وينبغي للفقير أن يقتصر على الفرائض وصوم رمضان لحسب ؛ ولا ينبغي أن يدخل هذا الكلام سمعه رأسا ، فإننا اختبرنا وما رسنا الأمور كلها وجالسنا الفقراء والصالحين ، ورأينا أن الذين يقولون هذا القول ويرون الفرائض دون الزيادات والنوافل تحت القصور مع كونهم أحماء فى أحوالهم . فعلى العبد التمسك بكل فريضة وفضيلة ، وبذلك يثبت قدمه فى بدايته ، ويراعى يوم الجمعة خاصة ويجعله لله تعالى خالصا لا يمزجه بشىء من أحوال نفسه ومآربها ، ويكر إلى الجامع قبل طلوع الشمس بعد الغسل للجمعة ، وإن اغتسل قريبا من وقت الصلاة إذا أمكنه ذلك لحسن ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا هريرة اغتسل للجمعة ولو اشتريت الماء بعشائك ، وما من نبي إلا وقد أمره الله تعالى أن يغتسل للجمعة ، فإن غسل الجمعة كفارة للذنوب ما بين الجمعةين ، ويشغل بالصلاة والتضرع والدعاء والتلاوة وأنواع الأذكار من غير فتور إلى أن يصلى الجمعة ، ويجلس معتكفا فى الجامع إن أن يصلى فرض العصر وبقية النهار

يشغله بالتسبيح والاستغفار والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم : فإنه يرى بركة ذلك في جميع الأسبوع حتى يرى ثمرة ذلك يوم الجمعة .

وقد كان من الصادقين من يضبط أحواله وأقواله وأفعاله جميع الأسبوع لأنه يوم المزيد لكل صادق ، ويكون ما يجده يوم الجمعة معيارا يعتبر به سائر الأسبوع الذي مضى : فإنه إذا كان الأسبوع سليما يكون يوم الجمعة فيه مزيد الأتوار والبركات ، وما يجد في يوم الجمعة من الظلمة وسامة النفس وقلة الانشراح ، فلما ضيع في الأسبوع يعرف ذلك ويعتبر .

ويتقى جدا أن يلبس للناس : اما المرتفع من الثياب أو ثياب المتقشفين ليرى بعين الزهد : ففي لبس المرتفع للناس هوى ، وفي لبس الحشن رياء ، فلا يلبس إلا الله .

بلغنا أن سفيان لبس القميص مقلوبا ولم يعلم بذلك حتى ارتفع النهار ونبهه على ذلك بعض الناس ، فهم أن يخلع ويغير ثم أمسك وقال : لبسته بنية لله فلا أغيره فألبسه بنية للناس : فليعلم العبد ذلك وليعتبره .

ولا بد للببتدئ أن يكون له حظ من تلاوة القرآن ومن حفظه ، فيحفظ من القرآن من السبع إلى الجميع إلى أقل أو أكثر كيف أمكن ، ولا يصغى إلى قول من يقول : ملازمة ذكر واحد أفضل من تلاوة القرآن : فإنه يجد بتلاوة القرآن في الصلاة وفي غير الصلاة جميع ما يمتنى بتوفيق الله تعالى . وإنما اختار بعض المشايخ يديم المريد ذكرا واحدا ليجتمع لهم فيه ، ومن لازم التلاوة في الخلوة وتمسك بالوحدة تفهيد التلاوة والصلاة أوفى ما يفيد الذكرا الواحد : فإذا سئم في بعض الأحيان يصانع النفس على الذكر مصانعة ، وينزل من التلاوة إلى الذكر فإنه أخف على النفس .

وينبغي أن يعلم أن الاعتبار بالقلب ، فكل عمل من تلاوة وصلاة وذكر لا يجمع فيه بين القلب واللسان لا يعتد به كل الاعتداد : فإنه عمل ناقص .

ولا يحقر الوسواس وحديث النفس فإنه معزوداء عضال : فيطالب نفسه أن تصير في تلاوته معنى القرآن مكان حديث النفس من باطنه ، فسكا أن التلاوة على اللسان هو مشغول بها ولا يمزجها بكلام آخر ، هكذا يكون معنى القرآن في القلب لا يمزجه بحديث النفس ، وإن كان أعجميا لا يعلم معنى القرآن يكون لمراقبة حلية باطنه ، فيشغل باطنه بمطالعة نظر الله إليه مكان حديث النفس : فإن بالدوام على ذلك يصير من أرباب المشاهدة .

قال مالك : قلوب الصديقين إذا سمعت القرآن طربت إلى الآخرة ، فليتمسك المريد بهذه الأصول ، وليستعن بدوام الافتقار إلى الله ، فبذلك ثبات قدمه .

قال سهل : على قدر لوم الالتجاء والافتقار إلى الله تعالى يعرف البلاء ، وعلى قدر معرفته بالبلاء يكون افتقاره إلى الله ، فدوام الافتقار إلى الله أصل كل خير ومفتاح كل علم دقيق في طريق القوم ، وهذا الافتقار مع كل الانفاس لا يتشبه بحركة ولا يستقل بكلمة دون الافتقار إلى الله فيها ، وكل كلمة وحركة خلت عن مراجعة الله والافتقار فيها لا تمقب خيرا قطعا ، علنا ذلك وتحققناه .

وقال سهل : من انتقل من نفس إلى نفس من غير ذكر فقد ضيع حاله ، وأدنى ما يدخل على من ضيع حاله دخوله فيما لا يعنيه وترك ما يعنيه .

وبلغنا أن حسان بن سنان قال ذات يوم : لمن هذه الدار ؟ ثم رجع إلى نفسه وقال : مالي وهذا السؤال ؟ وهل هذه إلا كلمة لا تعنيني ؟ وهل هذا إلا لاستيلاء نفسي وقلة أدبها ! وآلى على نفسه أن يصوم سنة كفارة لهذه الكلمة ، فبالصدق نالوا ما نالوا ، وبقوة العزائم - عزائم الرجال - بلغوا ما بلغوا .

أخبرنا أبو زرعة إجازة ، قال أخبرنا أبو بكر بن خلف ، قال أخبرنا أبو عبد الرحمن ، قال سمعت منصورا يقول : سمعت أبا عمرو الأنماطي يقول : سمعت الجنيد يقول : لو أقبل صادق على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة لكان

ما فاته من الله أكثر مما ناله ، وهذه الجلة يحتاج المبتدئ أن يحكمها ، والنتهى عالم بها عالم بحقائقها ؛ فالمبتدئ صادق والمتنهي صديق .

قال أبو سعيد القرشي : الصادق الذى ظاهره مستقيم وباطنه يميل أحيانا إلى حظ النفس ، وعلامته أن يحد الحلاوة في بعض الطاعة ولا يحدّها في بعض ، وإذا اشتغل بالذكر نور الروح ، وإذا اشتغل بحفظ النفس يحجب عن الأذكار . والصادق : الذى استقام ظاهره وباطنه يعبد الله تعالى بتلويح الأحوال ، لا يحجبه عن الله وعن الأذكار أكل ولا نوم ولا شرب ولا طعام ، والصادق يريد نفسه لله . وأقرب الأحوال إلى الثبوت الصديقية . وقال أبو يزيد : آخر نهايات الصديقين أول درجة الأنبياء .

واعلم أن أرباب النهايات استقامت بواطنهم وظواهرهم لله ، وأرواحهم خلصت عن طلبات النفس ووطئت بساط القرب ، ونفوسهم منقاداة مطوعة صالحة مع القلوب مجيبة إلى كل ما تجيب إليه القلوب ، أرواحهم متعلقة بالمقام الأعلى ، انطفأت فيهم نيران الهوى ، وتخمر في بواطنهم صريح العلم وانكشفت لهم الآخرة ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حق أبي بكر رضى الله عنه ، من أراد أن ينظر إلى ميت يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى أبي بكر ، إشارة منه عليه الصلاة والسلام إلى ما كوشف به من صريح العلم الذى لا يصل إليه عوام المؤمنين إلا بعد الموت حيث يقال (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) فأرباب النهايات ماتت أهويتهم وخلصت أرواحهم .

قال يحيى بن معاذ - وقد سئل عن وصف العارف ؛ فقال : رجل معهم بأن منهم . وقال مرة : عبد كان فبان . فأرباب النهايات هم عند الله بحقيقةهم معوقين بتوقيات الأجل ، جعلهم الله تعالى من جنوده في خلقه ، بهم يهدى وبهم يرشد وبهم يجذب أهل الإرادة ، كلامهم دواء ونظرم دواء ، ظاهرم محفوظ بالحكم ، وبواطنهم معمور بالعلم . قال ذو النون : علامة العارف ثلاثة : لا يطفى نور معرفته نور ورعه ، ولا يعتقد باطنا من العلم ينقص عليه ظاهرا من الحكم ، ولا يحمله كثرة نعم الله وكرامته على هتك أستار محارم الله ؛ فأرباب النهايات كلما زادوا نعمة زادوا عبودية ، وكلما زادوا دنيا زادوا اقربا ، وكلما زادوا واجها وورعة زادوا تواضعا وذلة (أدلة على المؤمنين أعززة على الكافرين) وكلما تناولوا شهوة من شهوات النفوس استخرجت منهم شكر أصافيا ، يتناولون الشهوات تارة رفقا بالنفوس لأنها معهم كالطفل الذى يلطف بالشئ ويهدى له شئ ؛ لأنه مقهور تحت السياسة مرحوم ملطوف به . وتارة يمنعون نفوسهم الشهوات تأسيا بالأنبياء واختيارهم التقليل من الشهوات الدنيوية .

قال يحيى بن معاذ : الدنيا عروس تظليها ما شطتها ، والزاهد فيها يسخم وجهها ويثقف شعرها ويخرق ثوبها ، والعارف بالله مشغول بسيده ولا يلتفت إليها .

واعلم أن المتنهي مع كمال حاله لا يستغنى أيضا عن سياسة النفس ومنعها الشهوات وأخذ الحظ من زيادة الصيام والقيام وأنواع البر ، وقد غلط في هذا خلق ، وظنوا أن المتنهي استغنى عن الزيادات والنوافل ولا على قلبه من الاسترسال في تناول الملاذ والشهوات ، وهذا خطأ لا من حيث إنه يحجب العارف عن معرفته ، ولكن يوقف عن مقام المزيد . وقوم لما رأوا أن هذه الأشياء لا تؤثر فيهم قسوة ولا تورثهم حجة ركنوا إليها واسترسلوا فيها وقنعوا بأداء الفرائض واتسعوا في المأكول والمشرب ، وهذا الانبساط منهم بقية من سكر الأحوال ، وتقيد بنور الحال ، وعدم التخلص بالكلية إلى نور الحق ، ومن تخلص من نور الحال إلى نور الحق يذهب عنه بقايا السكر ويوقف نفسه مقام العبيد ، كأحد عوام المؤمنين يتقرب بالصلاة والصوم وأنواع البر حتى يأماطة الأذى عن الطريق ، ولا يستكبر ولا يستنكف أن يعود في صور عوام المؤمنين من إظهار الإرادة بكل بر وصلة ، فيتناول الشهوات وقتنا رفقا بالنفس المطهرة المزكاة المنقاداة لأنها أسيرته ، ومنعها الشهوات وقتنا لأن في ذلك صلاحها ، واعتبر هذا سواء بحال الصبي ، فإنه إن جاوز حد الاعتدال من إعطاء المراد وقتنا ومنعه وقتنا انفسد طبعه ، لأن الجلة لابد من قمعها سياسة العلم ، ومادامت الجلة باقية لابد من سياسة العلم ، وهذا باب غامض دخل في النهايات سلى المتنهي من ذلك دواخل ووقع الركون والسند

به باب المزيد ؛ فالمنتهى ملك ناصية الاختيار في الأخذ والترك ، ولا بد له من أخذ وترك في الأعمال والحظوظ ؛ ففي الأعمال لابد له من أخذ وترك ، فتارة يأتي بالأعمال كأحاد الصادقين ، وتارة يترك زيادة الأعمال رفقا بالنفس ، وتارة يأخذ الحظوظ والشهوات رفقا بالنفس ، وتارة يتركها افتقاداً للنفس بحسن السياسة ، فيكون في ذلك كله مختاراً ؛ فمن ساكن ترك الحظوظ بالسكينة ؛ فهو زاهد تارك بالسكينة . ومن استرسل في أخذها فهو راغب بالسكينة . والمنتهى شمل الطرفين ، فإنه على غاية الاعتدال ، واقف على الصراط بين الإفراط والتفريط ، فمن ردت إليه الأقسام في النهاية فأخذها زاهداً في الزهد فهو تحت قهر الحال من ترك الاختيار ، وتارك الاختيار الواقف مع فعل الله تعالى مقيد بالحال . وكما أن الزاهد مقيد بالترك تارك الاختيار ، فكذلك الزاهد في الزهد الآخذ من الدنيا ماسيق إليه لرويته فعل الله مقيد بالأخذ ، وإذا استقرت النهاية لا يتقيد بالأخذ ولا بالترك بل يترك وقتاً واختياره من اختيار الله ، ويأخذ وقتاً واختياره من اختيار الله ، وهكذا صومه النافلة وصلاته النافلة بأقربها وقتاً ويسمح للنفس وقتاً ، لأنه مختار صحيح في الاختيار في الحالين ، وهذا هو الصحيح ونهاية النهاية ، وكل حال يستقر ويستقيم يشاكل حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهكذا كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يقوم من الليل ولا يقوم الليل كله ، ويصوم من الشهر ولا يصوم الشهر كله غير رمضان ويتناول الشهوات . ولما قال الرجل إني عزم أن لا أكل اللحم ، قال : فإن أكل اللحم وأحبه ، ولو سألت ربي أن يطعمني كل يوم لأطعمني . وذلك يدل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مختاراً في ذلك ، إن شاء أكل وإن شاء لم يأكل ، وكان يترك الأكل اختياراً ، وقد دخلت الفتنة على قوم كلما قيل لهم : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل كذا يقولون : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مشرعاً ، وهذا إذا قالوه على معنى أنه لا يلزمهم التأسي به جهل محض ؛ فإن الرخصة الوقوف على حد قوله ، والعزيمة التأسي بفعله . وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأرباب الرخص وفعله لأرباب العزائم ، ثم إن المنتهى يحاكي حاله حال رسول الله عليه الصلاة والسلام في دعاء الخلق إلى الحق ، فكل ما كان يعتمد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبغي أن يعتمد عليه ، فكان قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصيائه الزائد لا يخلو ؛ إما أنه كان ليقتهدي به ، وإما أنه كان لمزيد كان يحده بذلك ، فإن كان ليقتهدي به فالمنتهى أيضاً مقتدى به ينبغي أن يأتي بمثل ذلك ، والصحيح الحق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفعل ذلك لمجرد الاقتداء ، بل كان يحده بذلك زيادة ، وهو ما ذكرناه من تهذيب الجبلية . قال الله تعالى خطاباً له ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ لأنه بذلك ازداد استمداداً من الحضرة الإلهية وقرع باب الكرم ، والنبي عليه الصلاة والسلام مفتقر إلى الزيادة من الله تعالى غير مستغن عن ذلك ، ثم في ذلك سر غريب ؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم برابطة جنسية النفس كان يدعو الخلق إلى الحق ، ولولا رابطة الجنسية ما وصلوا إليه ولا انتفعوا به ، وبين نفسه الطاهرة ونفوس الاتباع رابطة التأليف كما بين روحه وأرواحهم رابطة التأليف ، ورابطة التأليف : أن النفوس ألقت أنفها ، كان أن الأرواح ألقت أولاً . ولكل روح مع نفسه تأليف خاص ، والسكون والتأليف والامتزاج واقع بين الأرواح والنفوس . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يديم العمل لتصفية نفسه ونفوس الاتباع ، فما احتاج إليه نفسه من ذلك ناله ، وما فضل من ذلك وصل إلى نفوس الأمة ، وهكذا المنتهى مع الأصحاب والاتباع على هذا المعنى ، فلا يتخلف عن الزيادات والتوافل ، ولا يسترسل في الشهوات واللذات إلا بدلالة نفس النفس ، ولا يعطى الاعتدال حقه من ذلك إلا بتأييد الله تعالى ونور الحكمة ، وكل من يحتاج إلى صحة الجلوة للغير لابد له من خلوة صحيحة بالحق ، حتى تكون جلوته في حماية خلوته . ومن يرامى له أن أوقاته كلها خلوة وأنه لا يحجب شيء وأن أوقاته بالله والله ولا يرى نقصاناً لأن الله ما فطنه لحقيقة المزيد ، فهو صحيح في حاله ، غير أنه تحت قصور ، لأنه مانبه لسياسة الجبلية ، وما عرف سر تليك الاختيار ، ما وقف من البيان على البيضاء النقية . وقد نهلت عن المشايخ كلمات فيها موضع الاشتباه ، فقد يسميها الإنسان وبين عليها ، والأولى أن يفترق إلى الله تعالى في أي كلمة يسميها حتى يسمعه الله من ذلك الصواب .

نقل عن بعضهم أنه سئل عن كمال المعرفة فقال : إذا اجتمع المتفرقات ، واستوت الأحوال والأماكن ، وسقطت

رؤية التمييز . ومثل هذا القول يروم أن لا يبقى تمييز بين الخلوة والجلوة وبين القيام بصور الأعمال وبين تركها ، ولم يفهم منه أن القائل أراد بذلك معنى خاصا ، يعنى أن حفظ المعرفة لا يتغير بحال من الأحوال ، وهذا صحيح ، لأن حفظ المعرفة لا يتغير ولا يفتقر إلى التمييز وتستوى الأحوال فيه ، ولكن حفظ المرید يتغير ويحتاج إلى التمييز ، وليس في هذا الكلام وأمثاله ما ينافي ما ذكرناه .

قيل لمحمد بن الفضل : حاجة العارفين إلى ماذا ؟ قال : حاجتهم إلى الخصلة التي كملت بها المحاسن كلها ألا وهي الاستقامة ، وكل من كان أنتم معرفة كان أنتم استقامة ؛ فاستقامة أرباب النهاية على التمام ، والغيد في الابتداء مأخوذ في الأعمال بحجوبها عن الأحوال . وفي التوسط محفوظ بالأحوال فقد يحجب عن الأعمال . وفي النهاية لا تحجبه الأعمال عن الأحوال ولا الأحوال عن الأعمال ، وذلك هو الفضل العظيم .

سئل الجنيد عن النهاية فقال : هي الرجوع إلى البداية ، وقد فسر بعضهم قول الجنيد فقال : معناه أنه كان في ابتداء أمره في جهل ، ثم وصل إلى المعرفة ، ثم رد إلى التحيير والجهل ، وهو كالطفولية : يكون جهل ثم علم ثم جهل . قال الله تعالى ﴿ لكيلا يعلم بعد علم شيئا ﴾ .

وقال بعضهم : أعرف الخلق بالله أشدهم تحيرا فيه . ويجوز أن يكون معنى ذلك ما ذكرناه أنه يبادى الأعمال ، ثم يرقى إلى الأحوال ، ثم يجمع له بين الأعمال والأحوال ، وهذا يكون للنتهى المراد المأخوذ في طريق المحبوبين تنجذب روحه إلى الحضرة الإلهية وتستمتع القلب ، والقلب يستمتع النفس ، والنفس تستمتع القلب ، فيكون بكليته قائما بالله ساجدا بين يدي الله تعالى ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سجد لك سوادى وخيالى ، وقال الله تعالى ﴿ والله يسجد من السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ والظلال القوالب تسجد بسجود الأرواح وعند ذلك تسرى روح المحبة في جميع أجزائهم وأبعاضهم . فيتلذذون ويتنعمون بذكر الله تعالى وتلاوة كلامه محبة وودا ، فيحبهم الله تعالى ويحبهم إلى خلقه نعمة منه عليهم وفضلا ، على ما أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي رحمه الله قال أخبرنا أبو طالب الزينى ، قال أخبرتنا كريمة المروزية ، قال أخبرنا أبو الهيثم الكشمينى ، قال أخبرنا أبو عبد الله الفريرى ، قال أخبرنا أبو عبد الله البخارى ، قال حدثنى إسحق ، قال حدثنا عبد الصمد ، قال حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه عن أبي صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى إذا أحب عبدا نادى جبريل : إن الله تعالى قد أحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل بنى السماء : إن الله قد أحب فلانا فأحبه ، فيحبه أهل السماء ، ويوضع له القبول في الأرض ، وبالله العون والعصمة والتوفيق .

تم بحمد الله المعيد المبدي

كتاب عوارف المعارف للإمام السهروردي

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

فهرس

ملحق كتاب علوم الدين

صفحة	صفحة
٢٦ فصل في بيان أصناف أهل الاعتقاد	كتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء
٢٧ فصل لما كان الاعتقاد المجرد عن العلم	٢ خطبة الكتاب
يصححه ضميمته وتفرد به عن المعرفة	للمقدمة في عنوان الكتاب
قريباً الخ	٣ المقصد في فضل الكتاب وبعض
بيان أرباب المرتبة الثالثة وهو توحيد	المدائح والثناء من الأكابر عليه والجواب
المقربين	عما استشكل منه وطعن بسببه فيه
٣٠ بيان المرتبة الرابعة وهو توحيد العديدين	٤ فصل فيمن أننى على الإحياء من
٣١ فصل في معنى إفشاء سر الربوبية كسر	العلماء الأعلام
وغير ذلك	٧ فصل بيان المواضع التي استشكل
٣٣ فصل في معنى قاطع الطريق	فيها على الأحياء والجواب عنها
٣٥ فصل في معنى ولا يتخطى رقاب	٨ خاتمة في الإشارة إلى ترجمة الإمام
الصديقين	الغزالي وسبب رجوعه إلى طريقة
٣٦ فصل في معنى انصراف السالك الناظر	الصوفية رضي الله عنهم
بعد وصوله إلى ذلك الرفيق الأعلى	كتاب الإملاء في إشكالات الإحياء
٣٧ فصل في معنى لبس في الامكان أبدع	١٣ خطبة الكتاب
من صورة هذا العالم الخ	١٤ ذكر مراسم الأسئلة في المثل
٣٨ فصل في بيان أن خطاب العقلاء	١٥ مقدمة في الألفاظ المستعملة
للهجادات غير مستنكر	١٨ وصية لطالب العلوم والناظر في
٣٩ فصل في الفرق بين العلم المحسوس في عالم	التصانيف والمستشرف على كلام
الملك وبين العلم الإلهي في عالم الملكوت	الناس وكتب الحكمة
٤٠ فصل في حن عالم الملك	١٩ ابتداء الأجوبة عن مراسم الأسئلة
فصل في معنى إن الله خلق آدم على صورته	٢١ بيان مقام أهل النطق المجرد وتمييز
سؤال في بيان معنى قول سهل رحمه الله	فرقهم
للإلهية سر لو انكشف لبطلت النبوات	٢٢ فصل في بيان اللفظ المنبئ عن التوحيد
وللنبوات سر لو انكشف لبطل العلم	فصل فان قلت لما الذي صده هؤلاء
والعلم سر لو انكشف بطلت الأحكام	الأصناف الثلاثة من أهل النطق عن
٤١ فصل في حكم هذه العلوم المكتوبة في	النظر، والبحث حتى تعلموا، أو عن
الطلب، وسلوك هذه المقامات، ورفق	الاعتقاد حتى تخلصوا من عذاب الله الخ
هذه الدرجات، واستفهام هذه الخطابات	٢٤ بيان أصناف أهل الاعتقاد المجرد

تصنيف	تصنيف
٤٠ فصل لآى شىء ذكرت هذه العلوم بالإشارات دون العبارات ، وبالرموز دون التصريحات ، وبالمتشابه من الألفاظ دون المحكمات	٩٤ الباب الثامن عشر فى القدوم من السفر ودخول الرباط والأدب فيه
كتاب نوارف المعارف	٩٧ الباب التاسع عشر فى حال الصوفى المتسبب
٤٢ خطبة الكتاب	١٠٠ الباب العشرون فى ذكر من يأكل من الفتوح
٤٣ الباب الاول فى ذكر منشأ علوم الصوفية	١٠٤ الباب الحادى والعشرون فى شرح حال المتجرد والمتأهل من الصوفية وصحة مقاصدهم
٤٧ الباب الثانى فى تخصيص الصوفية بحسن الاستماع	١٠٨ الباب الثانى والعشرون فى القول فى السماع
٥٢ الباب الثالث فى بيان فضيلة علوم الصوفية والإشارات إلى أنموذج منها	١١٤ الباب الثالث والعشرون فى القول فى السماع رداً وإنكاراً
٥٩ الباب الرابع فى شرح حال الصوفية واختلاف طريقهم	١١٥ الباب الرابع والعشرون فى القول فى السماع ترفهاً واستغناء
٦٢ الباب الخامس فى ماهية التصوف	١١٨ الباب الخامس والعشرون فى القول فى السماع تأديباً واعتناء
٦٤ الباب السادس فى ذكر تسميتهم بهذا الاسم	١٢١ الباب السادس والعشرون فى خاصية الأربعينية التى يتبعها هذه الصوفية
٦٧ الباب السابع فى ذكر المتصوف والمتشبه به	١٢٣ الباب السابع والعشرون فى ذكر فتوح الأربعينية
٦٩ الباب الثامن فى ذكر الملامى وشرح حاله	١٢٧ الباب الثامن والعشرون كيفية الدخول فى الأربعينية
٧١ الباب التاسع فى ذكر من انتمى إلى الصوفية وليس منهم	١٣٠ الباب التاسع والعشرون أخلاق الصوفية
٧٣ الباب العاشر فى شرح رتبة المشيخة	١٣٤ الباب الثلاثون فى تفاصيل أخلاق الصوفية
٧٦ الباب الحادى عشر فى شرح حال الخادم ومن يتشبه به	١٤٩ الباب الحادى والثلاثون فى ذكر الأدب ومكانه من التصوف
٧٨ الباب الثانى عشر فى شرح خرقه الصوفية	١٥١ الباب الثانى والثلاثون فى آداب الحضرة الإلهية لأهل القرب
٨١ الباب الثالث عشر فى فضيلة سكان الرباط	١٥٤ الباب الثالث والثلاثون فى آداب الطهارة ومقدماتها
٨٢ الباب الرابع عشر فى مشابهة أهل الرباط بأهل الصفة	١٥٥ الباب الرابع والثلاثون فى آداب الوضوء وأسراره
٨٤ الباب الخامس عشر فى خصائص أهل الربط والصوفية فيما يختصون به	١٥٧ سنن الوضوء ثلاثة عشر
٨٧ الباب السادس عشر فى ذكر اختلاف أحوال مشايخهم فى السفر والمقام	الباب الخامس والثلاثون فى آداب أهل
٩١ الباب السابع عشر فى ما يحتاج إليه الصوفى فى سفره من الفرائض والفضائل	

صحيفة

- النهار وتوزيع الاوقات
 ١٩٨ الباب الحادى والخمسون فى آداب المرید
 مع الشيخ
 ٢٠٣ الباب الثانى والخمسون فى آداب الشيخ
 وما يعتمد مع الاصحاب والتلامذة
 ٢٠٦ الباب الثالث والخمسون فى حقيقة
 الصحبة وما فيها من الخير والشر
 ٢٠٩ الباب الرابع والخمسون فى أداء حقوق
 الصحبة والاخوة فى الله تعالى
 ٢١٢ الباب الخامس والخمسون فى آداب
 الصحبة والاخوة
 ٢١٤ الباب السادس والخمسون فى معرفة
 الإنسان نفسه ومكاشفات الصوفية
 من ذلك
 ٢٢١ الباب السابع والخمسون فى معرفة
 الخواطر وتفصيلها وتمييزها
 ٢٢٥ الباب الثامن والخمسون فى شرح الحال
 والمقام والفرق بينهما
 ٢٢٧ الباب التاسع والخمسون فى الاشارات
 إلى المقامات على الاختصار والایجاز
 ٢٣١ الباب الستون فى ذكر إشارات المشايخ
 فى المقامات على الترتيب
 ٢٣٩ الباب الحادى والستون فى ذكر
 الاحوال وشرحها
 ٢٤٨ الباب الثانى والستون فى شرح كلمات
 مشيرة إلى بعض الاحوال فى
 اصطلاح الصوفية
 ٢٥١ الباب الثالث والستون فى ذكر شيء
 من البدايات والنهايات وصحتها

صحيفة

- المخصوص والصوفية فى الوضوء
 ١٥٩ الباب السادس والثلاثون فى فضيلة
 الصلاة وكبر شأنها
 ١٦١ الباب السابع والثلاثون فى وصف
 صلاة أهل القرب
 ١٦٦ الباب الثامن والثلاثون فى ذكر
 آداب الصلاة وأسرارها
 ١٦٩ الباب التاسع والثلاثون فى فضل
 الصوم وحسن أثره
 ١٧٠ الباب الاربعون فى اختلاف احوال
 الصوفية بالصوم والافطار
 ١٧٢ الباب الحادى والاربعون فى آداب
 الصوم ومهامه
 ١٧٤ الباب الثانى والاربعون فى ذكر الطعام
 وما فيه من المصلحة والمفسدة
 ١٧٦ الباب الثالث والاربعون فى آداب الاكل
 ١٧٨ الباب الرابع والاربعون فى ذكر أدبهم
 فى اللباس وثيابهم ومقاصدهم فيه
 ١٨٢ الباب الخامس والاربعون فى ذكر
 فضل قيام الليل
 ١٨٣ الباب السادس والاربعون فى ذكر
 الاسباب المعينة على قيام الليل وأدب النوم
 ١٨٥ الباب السابع والاربعون فى أدب
 الانتباه من النوم والعمل بالليل
 ١٨٧ الباب الثامن والاربعون فى تقسيم
 قيام الليل
 ١٨٩ الباب التاسع والاربعون فى استقبال
 النهار والادب فيه والعمل
 ١٩٣ الباب الخمسون فى ذكر العمل فى جميع